سلسلة غزوات الرسول

(4)

غزوَة الأحزَاب

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ آلْرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً}.

غزوة الأحزاب

وفي ظلال هذه النفحات الإنسانية التي كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يشيعها في أجواء المدينة، كان المسلمون ينعمون بظل هذه الأجواء، وكلها تحفل بالإيمان والخير والعطاء، فتتأصّل في نفوسهم الدعوة الإسلامية، وتزيدهم إنسانية على إنسانيتهم. وفي هذا الوقت الذي كان رسولُ الإسلام، صلى الله عليه وآله وسلم، يعمل من أجل خير الإنسانية عامةً، وأبناء الجزيرة العربية خاصةً، كان أعداؤه خارجها يغضبهم ذلك بسبب الجهالة العمياء التي اتخذوها طريقاً لهم في الحياة، وبسبب الشِّرْك الذي جعلوه ديناً يعمي القلوب. وهذا كله دفعهم إلى تعميق الحقد عليه، وإلى اختلاق أسباب التآمر كافة للنيل منه.. ثم يزيد في حقدهم وتآمرهم ذلك البناءُ في المدينة الذي بات ينذر بتهديم كياناتهم لما فيه من قيمٍ تدفع الناس للاطمئنان إليه، والانجذاب نحوه، بصورة إرادية أو عفوية.. فيثورون محنقين، ويقومون في بقاعهم يعدّون كل ما لديهم من إمكانيات للقضاء عليه إلى الأبد!. ولكن، لم يكن ذلك ليخفى على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا غاب عن باله ما تلحُّ فيه العرب من استعدادات لقتاله، إذ كان يبث العيون في شتى النواحي من الجزيرة، تتقصّى له الأخبار، وترصد التحركات، لتطلعه على كل ما يدور فيها من مكائد ومؤامرات تحاك ضده وضدّ دعوته. وإلى جانب العرب، في حقدهم على الإسلام وعلى رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، كان اليهود أشدَّ حقداً، وأعتى عداوة، وكان بنو النضير منهم أكثر المتحمسين لفكرة القضاء على محمد، صلى الله عليه وآله وسلم.. فمنذ أن أُخرجوا من المدينة مكرهين، وهم يخططون لتلك الفكرة، فوجدوا أن السبيل الوحيد لتحقيقها هي جمع العرب في غزوة واحدة للمدينة، ويكون فيها تحقيق حلمهم الأكبر. ومن أجل ذلك خرج منْهم نفرٌ، فيهم حُيي بن أخطب، وسلاّم بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، ومعهم من بني وائل هواذة بن قيس وأبو عمّار، وجعلوا خطتهم الاتصال بقبائل العرب وحثّها على مقاتلة العدو المشترك...

وكانت وجهة هؤلاء الداعين للحرب مكة أولاً حيث قريش التي هي صاحبة السيادة بين القبائل، وما تفعله قريش يمكن أن يشدَّ القبائل الأخرى، ويجعلها تقتدي بها.. فلما وصل

أولئك الدعاة إلى مكة، استقبلتهم قريش مرحّبة، محتفية بقدومهم، فأقامت لهم الولائم، وعقدت الندوات من غير أن تسأل عن دافع مجيئهم، حتى يفصح هؤلاء النَّفر عما يريدون، وإن كانوا لم يأتوا إلاّ لأمرٍ هامٍ وخطيرٍ.

وفي إحدى الندوات، وقد أزِفَ موعد التصارح، سألت قريش حييّاً عن قومه، بني النضير، وما حلَّ بهم بعد إجلائهم عن المدينة، فقال حُيَي: لقد تركناهم بين خيبر والمدينة يتردّدون حتى تأتوهم فيسيروا معكم إلى محمد وأصحابه.. وأدركت قريش ما في نيات القوم، فعادت تسأل:

ـ وما هي أخبار بني قريظة؟

فأجاب حُيي: أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد، حتى تأتوهم فيميلوا معكم...

ولم يعد الأمرُ خافياً إذن فلِمَ لا يطرح على بساط المناقشة والبحث؟. فقد بات معروفاً ما جاء لأجله هؤلاء النفرُ، ولكنَّ قريشاً كانت قد بحثت أمرها مع محمد مراراً عديدة. وإنه الأمر الذي لا ينفَكُّ شغلها الشاغل، وهمها الأول، ولكن ما كان يشغل قريشاً، ويجعلها في حيرة دائمة، وما لم تستطع في مجالسها الوصول إلى نتيجة حاسمة أو رأي نهائي بشأنه، هو معرفتها: إن كان دينُ محمد الذي يزعمه هو أحقُّ من دينها! ولذا فإنها ترى الفرصة سانحةً الآن لأن تطرح هذا الأمر على بني يهود، حتى تقف على رأيهم فيه، فهم أهل توحيد وأصحاب دين سماوي، شأنهم في ذلك شأن ما يدعو إليه محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم.. وإذا كانوا على خلاف معه، فمعنى ذلك أنّ ما يدّعيه هو كذب بكذب، إذن فليقفوا من اليهود على حقيقة الأمر.. فسألت قريش ذلك النفر بقولها:

«يا معشر يهودَ! إنكم أهل الكتاب الأول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، فأصدقونا القول: هل ديننا خيرٌ أم دينه؟».

وجاء جواب اليهود بما يخالف الحقيقة كلها:

«بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه»..

وهذا ما كان أجابهم به كعب بن الأشرف من قبلُ..

وارتاحت قريش!.. فقد اهتدت إلى ما يحيرها.. إذن فهي على حق في عداوتها لمحمد!.

ولكن هل كانت قريش فعلاً على حق أم أن مراوغة بني يهود لها، وكذبهم عليها، هما اللذان جعلاها تعتقد ذلك؟!.

لا!...

لم تكن قريش على حق أبداً بل كانت على الباطل، ومثلها كان بنو يهود على الباطل والضلال.. فالضلال قد ركب عقول ذلك النفر ونفوسهم، حتى أوقعهم في الخطأ الفاحش الذي لا يغتفر!.. لقد أنكروا أحقّية دين الله تعالى، وجعلوا الكفر خيراً منه!...

فهل بعدُ أفظع من ذلك جريمة ترتكب؟!

وماذا كان دافع بني يهودَ حين أوغلوا في ارتكاب تلك الجريمة إلاَّ مُصَادقة قريش وكسب عواطفها وجعلها تسير في ركابهم؟!.. إذن فهي مطامع الدنيا، ولكن ليس أكثر انحطاطاً ولا أشدَّ خِسّة من هذه المطامع عندما تتخذ الكفر بدل الإيمان وسيلة لها في الحياة!...

أوَلا يدرك أولئك النفر من بني يهود أنَّ إقرارهم بدين قريش، دين الوثنية والشرك، على أنه خير من الدين الذي يدعو إليه محمد هو إقرار في الوقت نفسه بأن ذلك الدين خير من اليهودية؟! لأنَّ اليهودية التي أنزلت على موسى (عليه السلام) هي دين سماوي والدين الذي أنزل على محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، هو دين سماوي، فإن جعلوا الوثنية خيراً من إحدى هاتين الرسالتين السماويتين، كانت أيضاً خيراً من الأخرى. واليهود يعلمون بأن رسالات السماء هي أَوْلَى باتباعها والإيمان بها، ولكنهم مع يقينهم هذا، فإنهم أنكروا الإسلام وفضلوا الوثنية عليه.. ولكن لماذا؟ قاتلهم الله... إنّ الحقد قد أعمى بصائرهم، فكان منهم ما كان تعدّياً على الله سبحانه، وافتراءً على دينه الحق..

ولم يكن ذلك الموقف التاريخي الشائن من نفرٍ يهودي ليذهب دون أن تحفل به السماء، فقد جاءَ العقاب عليه سريعاً عندما نزل التكذيب لهم بقولٍ هو فوق كل الأقوال، ذاك قول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً}[1].

نعم، ذلك هو الحق من الله عزَّ وجل: لعنة أبدية، وسُبةٌ سرمدية لبني يهودَ إذ جعلوا الكفر خيراً من دين الإيمان بالله الواحد الأحد...

---

1 سورة النساء، الآيتان: 51، 52.

لقد شاء يهود جزيرة العرب يومئذٍ مراوغة خسيسة، فإذا هي لطخة سوداء على فعلتهم الشنعاء لا يمحوها الزمان ما دام كتاب الله ـ سبحانه ـ قائماً على مدى الأزمان.. وأما عقابها، فهو اللعنة الدائمة التي لا يعرف مداها إلاَّ الله تعالى، لأنَّه حُكِم على من تصبه هذه اللعنة ألاَّ يكون له نصيرٌ في الدنيا ولا في الآخرة.. وليس العقاب لهم فقط لأن التعدّي حصل على دين محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، بل لأنه كان تعدياً على التوراة نفسها، كتاب بني يهود، الذي يوصيهم بالنفور من الأصنام وأصحابها، والبعد عن الشِّرك وأعوانه، فإذا هُم والشِّرك وأصحابه حلفاء قائمون...

... اطمأنت قريش إلى ما كان يحيّرها، بل انزلقت بالمخادعة ـ وإن كانت بالحقيقة لا تخادِعُ إلاَّ نفسها ـ فوافقت ذلك النفر على خطته لقتال محمد، ثم ضربوا موعداً لذلك...

وخرج دعاة الحرب من مكة يحملون موافقة قريش سِمةَ إقناعٍ لقبائل العرب الأخرى، فراحوا يتنقلون من مضارب إلى أخرى، وينزلون عند غطفان من قيس غيلان، وعند بني مرة، وبني فزارة، وأشجع، وسُلَيْم، وبني سعد، وأسَدْ، وكل قبيل أو عشيرة لها عند المسلمين ثأر، أو في نفوسها عداوة لمحمد، وهم يحمدون لهم وثنيتهم، ويشجبون الدعوة الإسلامية ويحقّرونها، حتى أمكنهم تحقيق الغرض الذي خرجوا من أجله، فعادوا إلى ديارهم يتحدّثون بما فعلوا، متفاخرين، متباهين، داعين بني أقوامهم للتهيؤ والاستعداد.

انقضت شهورٌ قليلة، وحان الموعدُ المتفق عليه، فخرجت القبائل والعشائر، جماعات وأحزاباً، يحملون رايات العرب وتأييد اليهود، والكل يتوجهون إلى المدينة لغزوها، والقضاء على الإسلام وأهله..

وخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب في أربعة آلاف راجلٍ، وثلاثمائة فارس، وخمسمائة وألف ممتطٍ بعيره. وخرجت بنو فَزارة من غطفان وعلى رأسها عُيَيْنة بن حصن بن حذيفة في رجال كثيرين، وفي عدّتهم ألف بعير وسلاح وفير. وخرجت أشجع بقيادة مسعود بن رخيلة في أربعمائة محارب، وقبلها خرجت بنو مرّة وعلى رأسها الحارث بن عوف. وسارت سليم وأصحاب بئر معونة في سبعمائة رجل. ثم انضم إلى تلك القبائل والبطون بنو سعد، وبنو أسد، في أكثر رجالهم..

والتقت تلك الجموعُ الغفيرة، وقد بلغ عددها عشرة آلاف محارب أو نحوها، وكان ذلك في شهر شوّال من السنة الخامسة للهجرة. وعقدت الزعامة لأبي سفيان بن حرب وساروا جميعاً تحت إمرته قاصدين المدينة.

كانت أخبارُ خروج القبائل قد بلغت المدينة منذ البداية، إذ سارع رجال النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، الموزعون في مختلف الأنحاء يطلعونه على ما يجري، ويصفون له أعداد الغزوة وعُدَدِها، فرأى صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ الأمرَ شديد الخطورة، ويستوجب اتخاذ التدابير العاجلة للحؤول بين الأحزاب، وتحقيق غايتها العدوانية، فدعا إليه على الفور كبار الصحابة يشاورهم في الأمر...

بدت الآراء أثناء ذلك التشاور متوافقة في التركيز على موقع المدينة وجغرافية الأرض المحيطة بها، فوجدوا أن أكثر نواحيها تشكل عوامل طبيعية تمنع الأعداء من الدخول إليها بطريقة سهلة: فإلى جانب الجبال، وهي حواجز بطبيعتها، تقوم «حَرَّةُ واقم» من الناحية الشرقية للمدينة، و«حَرّة الوبرة» من ناحيتها الغربية، و«آطام بني قريظة» في جنوبها الشرقي، فإن حصّنت تلك الحرّات والآطام أكثر مما هي عليه، يصبح من الصعب على العدو اختراقها، أو يكون دونه عقبات شديدة.

وأشارَ البعض بأن تكون مؤخرة الجيش الإسلامي عند آطام بني قريظة بحيث يسهل عليه تلقي المدَدَ الذي قد يحتاجه من تلك الناحية. ولكنَّ البعض رأوا بأن تلك الجماعة من اليهود لا يُمكن أن يؤمن غدرها، إذ ربما ترى في كثرة الأحزاب ما يشجعها على الانضمام إليها فبنو قريظة وهم يهودٌ، لديهم من الاستعداد ما يكفي للانقلاب على المسلمين في أي وقت يظهر فيه ضعفهم. ومع أنه بدا الإجماع على صحة رأي هذا البعض، إلاَّ أنهم وجدوا من الخير لهم عدم إعلان العداوة لبني قريظة، فَعهْدُ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لهم ما زال قائماً، وهو يفرض موادعتهم ما داموا يحترمون هذا العهد، حتى إذا تبين أنهم هُمُ الذين أقدموا على نقضه، فإن الأمر حينئذٍ سيختلف وسيجدون السبيل الذي يتدبّرونه للحؤول دون خطرهم..

وبقيت أمام المؤتمرين الناحيةُ الشمالية من المدينة، فهي وحدها مكشوفة ويمكن أن تشكّل نقطة الضعف في مقاومة المسلمين، بل ولعلّها الثغرة الوحيدة التي يُمكن للعدو النفاذ من خلالها إلى قلب المدينة، مما يفرض وجود الجيش الإسلامي كله في تلك الناحية متصدّياً

للغازين.. ولكن ذلك الوجود خطر بذاته، إذ مهما بلغ عدد الجيش الإسلامي فإنه يبقى أقلّ بكثير من عدد الأعداء، إلاّ أن نفوس جنوده كانت حافلة بقوة الإيمان، وكان استعدادهم كبيراً لتخفيف وطأة الخطر عنه!. وأخذ هذا الأمر حيّزاً كبيراً من وقت المجتمعين من دون أن يهتدوا إلى حلّه، بل واستبدَّ بهم الهمُّ والقلقُ، حتى رانَ الصمت على مجلسهم، ولم يقطعه إلا صوت سلمان الفارسي، الذي كان بين عِداد المجتمعين في مجلس رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إذ قال:

ـ أتأذن يا رسول الله بأن أُشير..!

قال الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: تفضل، وهاتِ ما عندك يا أخا الإسلام.

قال سلمان: «يا رسولَ الله، إنا كنا بأرض فارسَ إذا تخوَّفنا الخيل خندقنا علينا».

وتهلّل وجه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالبشر، فانعكس بِشْرُهُ ارتياحاً على نفوس الصحابة، إذ وجدوا في فكرة حفر خندق في ناحية المدينة الشمالية، ما يبعد كثيراً خطر تلك الناحية عن الجيش الإسلامي، مما يجعل فرص تصدّيه للعدو أوفر، وإمكانية تحرّكه أقوى.. نعم لقد زال الضيق الذي ملأ نفوس المجتمعين، فانبروا يضعون الخطة الكفيلة بالدفاع والصمود، والوسائل التي يمكن اعتمادها للتنفيذ..

وخرجوا راضين، وعلى عون الله متوكلين، فأمَرَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن يؤذَّن في الرجال للاجتماع، وما هو إلاّ وقت قصير حتى كان جميع المسلمين قد حضروا، فأخبرهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأمر الغزو، وما يتطلب من تحصين المنازل والآطام، وسدّ المنافذ والثغور وتقوية دعائمها، ثم بعث إلى المقيمين في المنازل الواقعة في جهة المدينة الشمالية أن يحملوا كل ما عندهم، وأن يلجأوا إلى الحصون الداخلية. فلمّا انتهى من تحديد المهمات وتوزيعها، عادَ وأخبرَ الناس بما اعتزمه والصحابةُ من حفر الخندق، داعياً الرجال إلى شدّ العزائم، وحمل المعدات والأدوات، كي يخرج بهم إلى مكان حفر ذلك الخندق.

وراح رسولُ، الله صلى الله عليه وآله وسلم، يطوف في ناحية المدينة الشمالية، يقوم بالكشف على جوانبها، ويتفقّد أرضها، ويحسب ويوازن، حتى عيّن النقاط والأماكن التي يتوجب أن يجري الحفر عندها، وقد أرادَ للخندق أن يكون وراء جبل «سلع»... فلما انتهى من ذلك، جمع حوله الرجال، ووزعهم جماعات، على أن تضم كلّ جماعة عشرة رجال،

يقومون بحفر أربعين ذراعاً، وبذلك، وما أن تفرغ كل جماعة من حفر أذرعها تلك، إلاَّ ويكون الحفر قد اتّصل ببعضه، والخندق قد استوى محفوراً...

واندفع رجال الإسلام إلى العمل تشدهم العزيمة، ويحدوهم الأمل؛ يستعينون بما عندهم من الأدوات والوسائل، وما استعاروه من بني قريظة من معاول ومكاتل..

كانت النفوس تمتلىء حماساً، والسواعد والأيدي قوة، وكان العمل يبدو صعباً وشاقاً، لأنَّ الأرض صلبة قاسية، والطقس شديد البرد.. ولكنْ، أيّاً كانت المتاعب والمصاعب فإنهم لن يأبهوا، ولن يتخاذلوا.. فمن أنهكه الضربُ بالمعول، عليه أن يتركه لغيره ويتولى نقل الحجارة والتراب، ومن أتعبه قلعُ الصخور فإنَّ أمامهُ تكسيرها، ورصّ جوانب الخندق بها، ومن لا يجد وعاءً له، عليه بنقل التراب في ثوبه...

هكذا أخذ أولئك الرجالُ على أنفسهم أن يعملوا، وهكذا اندفعوا إلى ذلك العمل وهم مسرورون، فرحون، كلٌّ يريد أن يبذل، ويعطي، حتى لا تفوته المشاركة مع إخوان صابرين، مُتجلدين.. إن نظروا إلى بعضهم البعض زاد سرورهم، وهم يرون العرقَ يتصبّب من الجباه فيختلط بالغبار، والأثواب وقد تشققت والصدور وقد علاها التراب فيجدون فيما يرون تعبيراً عن أشرف خدمة يؤدونها، وتجسيداً لأسمى واجب يقومون به..

ثم لا يبخل الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، على نفسه بالجهد، شأنه شأن كل الرجال، بل كان يضرب ساعةً بالمعول، ويجرف التراب ساعة بالمِسْحاة، ثم ينقل على كتفه الصخور، ويحمل في ثوبه التراب... إنه يعمل، ويكدُّ في العمل، وهو يتنقل بين جماعة وأخرى، يحثّهم على الدأب والمواصلة، ويشحذ فيهم العزيمة والصبر، لأنه يريدهم أن يستهينوا بالتعب، وأن يطرحوا الوهن، حتى ينجزوا المهمة، كيلا يداهمهم العدو، وهم لم يفرغوا منها بعدُ... وإنه لفي دعوته إلى الصبر والتحمّل، لا يرى خيراً من بيان أمر الله سبحانه، يدعو فيه المؤمنين لقتال الأحزاب والمشركين كافة كما جاؤوا يقاتلونهم، وإن جزاءهم سيكون النصرُ من عنده، لأنه سبحانه وتعالى مع المتَّقِين..

وتهنأ نفوسُ المؤمنين بوعد الله تعالى الصادق، فتزيدُ تلك الطمأنينة أصحابها اندفاعاً ومثابرةً على العمل... وتعترض جماعةً منهم صخرةٌ عظيمةٌ بيضاءُ، قد ضربت عمقاً في الأرض بعد أن قُشِع التراب عنها، فلا تقبل أن تُزاح من مكانها، ولا تقدر عليها الأدوات

التي كانت تحاول اقتلاعها، بل كانت تَفُلُّ الحديد في الأيدي، وتجهد العاملين حتى يشقّ عليهم أمرها ويستعصي، فينظرون إلى بعضهم حائرين، مشدوهين...

وكان في تلك الجماعة عمرو بن عوف، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، والنعمان بن مقرن، وستة غيرهم من الأنصار.. وقفوا لا يدرون ماذا يفعلون، وقد أخذ بهم الوجد، من أن يسبقهم إخوانهم في العمل، فيظهر تقصيرهم عنهم.. ولكن أهمّ من ذلك في نظرهم كان عجزهم عن اقتلاع تلك الصخرة، لأن تركها في مكانها غير ممكن، إذ قد يجد فيها العدو معبراً إلى صفوفهم فتذهب كل الجهود بدداً...

ووقفوا يتشاورون بأمر الصخرة، ولكن ليس بيدهم حيلة، فقد حاولوا، وجهدوا، ولكنَّ الصخرة ظلت عصيّة. إذن ماذا يفعلون؟

قال أحدهم: لن نترك الصخرة ولو تألَّبت الجموعُ كلها عليها...

والتفت واحدٌ آخر إلى سلمان الفارسي وقال له: يا سلمان! إرقَ إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأخبره بأمر الصخرة.

وسارعَ سلمان إلى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً:

ـ يا رسول الله وصلنا في الحفر إلى صخرة كبيرة عميقة، فاستعصت علينا، وقد حاولنا اقتلاعها فلم نقدر عليها حتى كُسر الحديدُ في أيدينا، فَمُرَنا فيها بأمرك، فوالله لا نحب أن نتجاوز الخط الذي رسمته لنا.

وتوجَّه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى حيث تلك الصخرة، يقف عليها، وجلس القرفصاء يتفحَّصها، ثم قام فأخذ معولاً كبيراً رفعه فوق رأسه وأهوى به على تلك الصخرة بكل قوته وعزمه، وهو يقول: بسم الله، وبعون الله.. فانقدح الشرر من الصخرة، ولمعت برقة شديدة فتراءى للحاضرين أنها أنوار تسطع في جوف ليل مظلم، وإذا برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يكبر تكبيرة الفتح، فيسمعه كل من في تلك الناحية فيكبرون وراءه. وينهال النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، على الصخرة بضربة أخرى، أشدّ وأقوى، فينطلق منها اللمعان مجدداً، ويعود الرسولُ، صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ورائه المسلمون يهلّلون ويكبرون. وتكون من عزمِه ضربةٌ ثالثة لا تخلو من اللمعان نفسه، فيكون التكبير من جديد، الله أكبر، الله أكبر... إنها أصوات المؤمنين تتعالى فتشق عنان الفضاء... الله أكبر... وهو العظيم القادر على أن يفرق البحر، وأن ينسف الجبال، ويشقق

الأكوان، وبه استعانَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في مغالبة تلك الصخرة، فإذا هي تنفلق في وسطها، وتتشقق في جوانبها، فينهالُ الصحابة عليها بالمعاول يقتلعون جذورها التي عمقت، ويرفعون أجزاءها التي تكسرت، وهم لا ينفكون يكبّرون، وبصدق رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يؤمنون. ويجلسُ أصحابُ الصخرة يمسحون العرق الذي بلَّل أجسادهم، وهم يحيطون بالرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بعيون راضية، وقلوب مؤمنة، فيسأله سلمان الفارسي بعد أن يستأذنه قائلاً:

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. ما هذا الذي رأينا وأنت تضرب الصخرة»؟.

فقال له الرسول الأعظم الذي لا ينطق عن الهوى:

«أما الأولى فإن الله عزَّ وجلَّ فتح عليَّ بها اليمن. وأما الثانية فإنَّ الله تعالى فتح عليَّ بها بلاد الشام والمغرب وبدت لي قصور قيصر التي يفتحها الله للمسلمين بإذنه. وأما الثالثة فإنَّ الله سبحانه فتح عليَّ بها المشرق، وظهرت لي قصور كسرى التي تجتاحها سنابك خيولكم، بمشيئة الله تعالى».

وفرح المسلمون وهم يسمعون بشارة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالفتوحات، فتكون تلك البشارة دليلاً على أنَّ الله سبحانه سيؤيدهم بالنصر في جهادهم، فيقولون: الحمد لله على وعده الصادق.. وتتطايرُ فرحة البشرى، من جماعة إلى جماعة، فتكنزها القلوب وتحضنها النفوس، فإذا النداء من كل جانب: «هذا ما وعدنا الله ورسولُه، وصدق الله ورسوله».

ولكنَّ الذين في قلوبهم مرضٌ، أولئك الذين اندسّوا بين المؤمنين بدافع الحياء لا عن قناعة بالمشاركة في ذلك العمل المجيد، هؤلاء لم يصدّقوا وعْدَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، للمؤمنين، فراحوا يجتمعون إلى بعضهم، وهم يُسِرّون في الآذان: «ألا تعجبون من هذه الأحاديث؟!.. إنه يخبر الناس بأنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، ويعد بأنها سوف تفتح لهم، وهاهم يحفرون هذا الخندق حتى يحتموا به خائفين مِنْ تجاوزه؛ أليس في ذلك ما يدعو إلى السخرية»؟!.

لكنَّ هذا التخذيل الذي كان يطيب لنفوس المنافقين لم يتعدّها إلى نفوس المؤمنين، فيستمر هؤلاء بالعمل على الطريقة نفسها التي بدأوا بها غير حافلين بأي أمر إلاَّ الانتهاء من حفر الخندق...

ويتواصَلُ العمل في الليل والنهار، ويبقى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قائماً على ذلك العمل، مشرفاً على سيره، مشاركاً فيه... حتى يأخذه التَعَبُ، فيجلس يرقب تلك الجهود المبذولة عن رضىً، وقد ارتاحت نفسه، وداخلته الطمأنينة فإذا به يتكىء بجانبه الأيسر على حجر كبير، ويأتيه النعاس، فيغفو..

ويرى المؤمنون رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يفترش الأرض، ويتوسّد الحجارة في إغفاءته، فيشقّ عليهم الأمر، ويحزنون، فيتّصلون من واحد لآخر: «الزموا الهدوء، ولا تأتوا بضجيج، ولا يحاولنَّ أحدٌ الاقترابَ من رسول الله حتى يأخذ قسطاً من الراحة»... ثم يقولون في أنفسهم: «لا حول ولا قوة إلا بالله»..

ولكنَّها دقائق معدودات يرون بعدها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد صحا من غفوته، وهبَّ من مكانه واقفاً يتقدم نحوهم معاتباً وهو يقول: «ألا أيقظتموني»!.. ثم لا يلبث أن يسارع إلى معول، فيلتقطه، وينزل إلى عمق الخندق يضرب فيه وهو يردد: «اللَّهم إن العيشَ عيشُ الآخرة، فاغْفر للأنْصار والمُهاجِرَة»..

وينسابُ دعاءُ النبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، على الشفاه، فيغنّيه المؤمنون لحناً طيباً مشجعاً، وتتناقله الحناجر نغماً رخيّاً، تنزاح به كل الأتعاب، وتنطوي معه كل الشدائد، فيندفع المؤمنون يهزجون فرحين:

نحنُ الَّذين بايعوا مُحمّدا على الإسلام ما بقينا أبدا

ويعاودون الإنشاد قائلين:

والله لولا أنت ما اهتدَينا ولا تصـدَّقنا ولا صـلَّينا

فأنـزلنْ سكينةً علــينا وثبّتِ الأقدام إن لاقينا

إنَّ الأُلى قد بغَوا علينا إذا أرادوا فتنـةً أبَيــنا

هكذا عاشَ المؤمنون تلك الفترات في حفر الخندق، يؤمنون بالواجب حقاً مقدساً، وبالعمل شرفاً سنيّاً، ويصدقون الرسولَ، صلى الله عليه وآله وسلم، نبيّاً كريماً، فلا يحفلون بما يصيبهم من تعبْ، ولا يملّون مما يواجههم من نَصَبْ. ولكن إذا كانت هذه حالهم، فإنَّ حالة تلك الفئة من المنافقين، الذين جاؤوا يشاركون في العمل خوفاً من المصير على

حياتهم كانت مغايرة، إذ لم تكن لديهم القوة على احتمال ذلك التعب المضني، ولا الصبر على ذلك العناء الشديد، فما وجدوا أنفسهم إلاَّ متراخين، كسولين، عاجزين عن المتابعة، ويأخذهم الحياء من الإفصاح عما بهم، فلا يجدون إلاَّ الهروب سبيلاً للخلاص من النكبة التي أوقعوا بها أنفسهم، فيذهبون متسللين إلى بيوتهم، الواحد تلو الآخر، حتى بلا ذريعة يحتجون بها، أو إذْنٍ يمكن أن يحصلوا عليه من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم...

وإذا كان فرارهم ذاك قد تمَّ خلسةً عن الأعين، فإنه غاب عن بالهم بأن عين الله سبحانه ساهرة، وهي ترقب كل حركة يقوم بها الإنسان على وجه هذه الأرض، وأنهم سيجازون على فعالهم تلك، فقد نزل بهم قول الله تعالى:

{لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[1].

نعم إن الله سبحانه وتعالى يرقب من عليائه، كل حركة من حركاتنا، وكل سَكْنةٍ من سَكَناتنا، لأنه أقرب للإنسان من حبل الوريد، وإذا كانت فِعالُ المنافقين الذين كانوا يتسلَّلون هروباً تستحق العذاب الأليم، فإن فِعال المؤمنين الصابرين، المجالدين، الذين لم يستهينوا بالعمل، ولم يتخلّفوا عن الواجب، هي لها أيضاً جزاؤها الكريم من عند الله سبحانه، ولكنه الجزاءُ الأوفى المجسَّد بالرحمة والغفران.. فلئن احتاج بعضهم إلى قضاء شأن خاص، وكل امرىء قد تكون له بعض الشؤون التي تفرض عليه القيام بها، فإنَّ هؤلاء لا يمكن أن يذهبوا لتلك الشؤون إلاَّ أن يستأذنوا رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بذلك.. ويأمرُ الله تعالى رسولَهُ الكريم بأن يأذن للمؤمنين لقضاء حاجاتهم، وأن يستغفر لهم، لأنهم ما تركوا عملهم إلاَّ لضرورة دعت إليه، وذلك بقوله تعالى:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[2].

---

1 سورة النور، الآية: 63.
2 سورة النور، الآية: 62.

وبنفحات الألوهية هذه التي أقامت الموازين والفوارق بين المؤمنين والمنافقين، تتابع العمل في حفر الخندق حتى انتهوا منه بعد ستة أيام متواصلة، بذلوا أثناءها، في اللَّيل والنهار، جهوداً مضنية حقاً، وما كان لغيَر المؤمنين أن يؤتوها في مثل تلك المدة الوجيزة...

وما إن انتهى العمل من حفْر الخندق[1]، حتى وقف رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يرقبه بعينٍ راضية، ونفس مطمئنة، فحمد الله وأثنى عليه، لما منَحهُ ومنح المؤمنين من قوة العزيمة، وطول الصبر حتى مكّن لهم إقامة هذا الخط للدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم...

وعادَ أولئك العاملون إلى بيوتهم ليرتاحوا، بل لكي ينفضوا عنهم الأوساخ والغبار، ثم يستعدوا للمواجهة والقتال.. بينما انصرف الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى تفقّد التحصينات التي أقيمت، وتعزيز تدابِير الدفاع التي اتخذت، وتقوية سبل الصمود التي اعتُمدت.. فلما اطمأنَّ إلى تنفيذ ما كان قد أمرَ به، وإلى أنَّ جميع الأمور التي أرادها قد دُبّرت، دعا إلى المناداة بالخروج، ثم ركب في ثلاثة آلاف مقاتل يتقدمهم إلى الناحية الشمالية من المدينة حيث أُقيم الخندق. وهنالك نُصبت للرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، خيمته الحمراء وأُقيم معسكر الجيش الإسلامي، متخذين من هضبة «حبل سلع» حاجزاً يحمي ظهورهم من العدو، ومن الخندق عاملاً يفصل بينه وبينهم..

هذا ما كان من أمر المسلمين، وما قاموا به من استعدادات للدفاع عن أنفسهم.

أما المشركون، فبعد التقاء جموع أحزابهم في بدر، ولمّا لم يجدوا المسلمين في انتظارهم كما كانوا يأملون، فإنّهم توزعوا كتائب عديدة، قادَ معظمها أبو سفيان بن حرب، وتقدّم بها يريد دخول المدينة، فإذا هي كالحصن المنيع لا تمكّن الأعداء من الاقتحام أو الغزو.

وإنها لمفاجأة تجبَهُ الأحزابَ، وتوقف زحفَ الغازين..

فما كان في ظنهم أبداً أن تلاقيهم المدينة بتلك الآطام والتحصينات المنيعة لتمنع عليهم دخولها!...

وما كانوا ليحسبوا أن الجبال التي تحيط بها هي العوامل التي تفوّت عليهم ولوجها...

بل ولم يكن يخطر على بالهم قطُّ بأن المسلمين يمكن أن يحفروا هذا الخندق الذي يبعدهم عن الوصول إليها..

---

1 بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، وعمقه من سبعة إلى عشرة أذرع، والعرض من تسعة إلى ما فوقها.

وكأنما تلك الأحزابُ قد ذهلت عن كل الحواجز والموانع، ولم يبْق في ذهنها إلاَّ هذا الخندق تفكِّرُ به، فإذا هو حديث عهد بالحفر، عميق المدى، واسع العرض، لا يجرؤون على النزول إليه، لأنه يبتلعهم في أعماقه.. ينظرون إليه غير مصدّقين.. ولكن هل يمكن أن يكذبوا أعينهم وهي تريهم بأنه حقيقة قائمة لا يمكن إنكارها؟!...

ويشعرون بالغضب والحنق فيتساءلون:

«من أين لمحمد وأصحابه هذا الصنيع في الحرب؟ إنها لمكيدة لم تعرف بها العرب قطُّ، ووسيلة في الدفاع لم تستخدم عندَهُم من قبل»!..

ولئن كَثُر التساؤل وطال التحديق، فإنَّ ذلك لن يجدي تلك الأحزاب نفعاً.. فهذا الخندق يبدو أمامهم، ولن يمكنهم اجتيازُه، تماماً، كما أنهم لن يستطيعوا اختراق الآطام، فماذا يفعلون؟.

لقد جاؤوا يغزون المدينة، وفي ظنهم أنها لن تصمد أمامهم أكثر من يوم أو بعض يوم.. وها هُمُ يرون أنَّ دخولها عسيرٌ جداً، إن لم يكن ضرباً من المحال، فلِمَ إذن لا يرجعون؟!...

ولكن هل رجوعهم أمرٌ هيّن عليهم؟!..

لا!.. لئن رجعوا على هذا النحو، بلا قتال، فإنها الهزيمة النكراء...

إذن فلم لا يضربون حصاراً على المدينة، ويطوقونها من عدة جهات، علَّ الأيام القليلة المقبلة تتيح لهم سبل اقتحامها والقضاء على محمد وأصحابه؟!.. وعلى هذا الأمل، أعطيت الأوامر بالنزول، وإقامة معسكراتهم حول المدينة..

فنزل جنود الأحزاب يحاصرون المدينة، وينتظرون الوقت الذي يأمرهم فيه قادتهم بالهجوم..

وها هي الأيام تمرُّ ولا شيء من تلك الأوامر.. وها هي الليالي تمضي والآمالُ التي منَّت بها الأحزاب نفوسها تنقضي معها، فالأمور لم تتبدّل منذ قدومهم، لأنهم ما زالوا على حصارهم بلا جدوى، والمسلمون ما زالوا في الداخل يتمتعون بالحماية والمنعة. فيستمرون في الانتظار...

وعادت الأحلامُ تخبو من جديد.. لقد جاؤوا يؤملون غزو المدينة سريعاً، ثم يعودون محمّلين بالأسلاب والغنائم، ظافرين بالنصر النهائي على محمد وأصحابه.. ولكنَّ شيئاً من

ذلك لم يتحقق، بل على العكس بدت العلائمُ تظهر بأنَّ الظروف قد خانتهم، وباتت الأوضاع تتحوّل ضدَّهم، إذ كلما طال بهم الانتظار، كان ذلك مدعاة إلى ضعفهم، وانحلال قواهم.. وها هي الأيام تكشف عن صدق هذا الحدس، عندما بدأ التململ في صفوف المقاتلين يظهر، والملل في نفوسهم يقوى، فراحوا يطالبون قادتهم بالذهاب، ويتطاولون عليهم بالعصيان.

وإذا كان قادة الأحزاب لا ينفكون يواصلون الاجتماعات، ويعقدون الندوات للتشاور والائتمار، دون أن يتوصلوا إلى حل يجمعون عليه، فإن ما راح الجنود يجابهونهم به، كان يدفعهم إلى اتخاذ قرارٍ نهائي، يحسم الأمر فيما بينهم...

وكانت الآراء أثناء اجتماعاتهم تظهر متشتّتة، متضاربة...

فمن قائل: أترون يا قوم بأننا لم نحمل معنا من المتاع والزاد ما يكفي، فمن أين نطعم إن طال بنا المقام على هذه الحال؟!...

إلى قائل: أم لعلكم لا تحفلون بأيام الشتاء هذه، وما يحمل لنا طقسها الرديء من بردٍ قارس ينخر عظامنا، ومن عواصف هوجاء تكاد تقتلع خيامنا.. لا، لن نقدر على مقاومة حرب الطبيعة، وقد تألّبت علينا قواها العاتية، فذهابنا خير من بقائنا وسط هذه الأعاصير!..

ومنهم من أبدى بأنهم أصبحوا على وشك الضياع والتيه، لا يدرون أَخَيْراً جاؤوا من أجله أم شراً سوف ينقلب ضدهم.. وما عليهم إن عادوا لديارهم وأهليهم ينعمون بالدفء والأمان؟...

.. لقد كانت الآراء متفرقة، والخلاف واضحاً بين قادة الأحزاب، حتى بدا للبعض بأن الأمر بات ينذر بأسوأ العواقب.. وكان ممن أجفَلهُ تضارب الآراء أكثر من غيره، وأوقع في نفسه الوجد، حُيي بن أخطب، إذ خاف أن يُجمع الرأي على الذهاب عن المدينة، فتذهب تلك الجهود التي بذلها لشدّ العرب إلى غزوها سُدًى، وتضيع الآمال التي عوّل عليها في القضاء على محمد، وإذ ذاك لن يكون من السهل أبداً معاودة جمع قبائل العرب من جديد على حربه.. وستكون ـ بالنتيجة ـ الهزيمة التي تلحق به وببني قومه من اليهود إلى الأبد.. ولكن هل يدع حُييّ بن أخطب هؤلاء العرب المغفلين أن يخذلوه حقاً؟!.. لئن كان محمد قد استعصى عليهم بما أقام من استعدادات، فإنه لن يعدم الوسيلة لتبديد كل ما أقامه ثُمَّ الوصول إليه، والانتقام منه...

لا!.. إنه لن يترك هؤلاء الأحزاب يذهبون، ما دام عنده عقل يفكر ويدبر؟!...
ولكن ماذا يمكن لابن أخطب أن يفعل؟!...
إنه يهودي... وهو لن يعدم الوسيلة التي يحتال فيها على الأحزاب حتى تصمد لقتال محمد وأصحابه..
... ويقف حُيَي بن أخطب وسط اجتماع حافل قائلاً:
ما أحسبني إلاَّ دخيلاً عليكم يا قوم، فاعذروني إن غدوت قافلاً إلى الديار في أبناء قومي..
وبُهت المجتمعون فسألوه عما دهاه حتى يقول ذلك، فأجاب بخبث ودهاء:
ـ وما تظنوني فاعلاً، وهذا جمعكم قد وهَنَتْ منه النفوس وهانت عليه الكرامة، حتى آثَرَ الذل والمسكنة!..
ونظر المجتمعون بعضهم إلى بعض مدهوشين، فقالوا له:
ـ ما هذا التجنّي علينا يا ابن أخطب، وما دهاك حتى تنعتنا بهذه الأوصاف الشنيعة؟!..
ـ فقال اليهودي:
ـ يا سادة العرب! لقد ظننتُمُ العودة إلى دياركم نجاةً لكم، ولكنها والله الهزيمة التي هي أشدُّ من هزيمة القتال، فمن رغب في مثل هذا العار يلحقه فليذهب، وإلاَّ دعونا نقوم على أمر جامع لا يكون فيه إلاَّ نصرُنا وعزنا جميعاً..
قالوا وقد أخذهم الحماسُ: هيا وقل لنا ما تفكّر به!...
قال اليهودي: لقد نسيتم أنَّ بني قريظة منّا نحن معشر اليهود، وأن إقامتهم بجوار محمد ما كانت إلاَّ على مضض، فلم لا نتسلل إلى بيوتهم، ونقنعهم بفتح أبواب آطامهم أمامنا، وبذلك نقطع المددَ عن المسلمين، وندخل إلى المدينة نقاتلهم في عقر دارهم؟!...
وطافَ الفرحُ على وجوه زعماء الأحزاب، فقالوا له:
ـ وكيف السبيل إلى ذلك؟.
قال اليهودي: أنا أذهب إلى زعيم بني قريظة وأحرّضه على الانضمام لجموعنا..
قالوا بصوت واحد: هيا وأْتِهِ مسرعاً..
وتوصّلوا في ذلك الاجتماع إلى وفاق بعدما أمكن لابن أخطب أن يقنع قادة الأحزاب بجدوى خطته.. فانتظر حتى أقبل الليلُ، وغطت الظلمة القاتمة الأرجاء، فتسلل في نفر من أصحابه حتى وقفوا على حصن بني قريظة، وطلبوا أن يتحدثوا إلى زعيمهم كعب بن

أسد.. ولكن كعباً ما إن علِمَ بما جاءَ له حُيي، حتى ارتعدت فرائصه من الخوف، ونصحهُ بالعودة من حيث أتى قبل أن ينكشف الأمر، وتدور الدائرة عليه وعلى بني قومه.. إلاَّ أن حيياً ما زال به، يداهن ويراوغ، حتى أقنعه بأن يسمح له ومن معه بالدخول، وما إن تقابلوا، وصاروا وجهاً لوجه، حتى بادره حيي قائلاً:

«ويحك يا كعب، أترفض مواجهتي وقد جئتك بعز الدهر وببحرٍ طامٍ! جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسْيال من رومة[1]، وبغطفان على قادتها وسادتها فأنزلتهم بذنب نَقمى[2] إلى جانب أحد، وقد عاهدوني وعاقدوني ألاّ يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه؟»...

وتردَّدَ كعب بن أسد في الجواب... فقد أخذه التفكير فيما يعرضه عليه حيي، ولكنه يرى بأنه صاحب عهد الموادعة مع محمد، وأن قومه بني قريظة آمنون في ظل هذا العهد، فهل ينقضه ويعرض بني قومه للهلاك؟!!.. لا! إنه لا يقدر على ذلك، فقال لحييّ: ـ «بل جئتني والله بذل الدهر وبجهام[3] أهرق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء»...

فقال ابن أخطب يحرّضه: «لعلك نسيت يا كعب ما فعله محمد بنا نحن معشر اليهود! فقد أخرج بني قينقاع أذلَّةً، وأجلى بني النضير مقهورين، ولن يأتي يوم إلاَّ ويكون مصيركم يا بني قريظة مثل مصير كل بني يهود في المدينة»..

قال كعب: «لقد عاهدنا محمد على حسن الجوار، ووادعنا على السلم، وما رأينا منه إلاَّ وفاءً وصدقاً لعهوده، فما يصيبنا إن حنثنا بالعهد وانتصر محمد»؟!

قال حييّ: إنه للوهم بعينه.. وكيف يكون له النصر وتلك الجموعُ حول المدينة قد جاءت تطلب الثأر عنده؟ لعلك يا كعب تستهين بقوة قريش وغطفان، وتستخف بغايات تلك القبائل التي أتت مؤازرة تطلب السلب والنهب»!

وطالَ النقاشُ بين الرجلين، واحتدم الجدال بينهما، وما زال كلّ منهما يتمسك برأيه.. فكعب بن أسد يريدُ البقاء على الحياد، وحييّ بن أخطب يريده أن ينضمّ إلى الأحزاب.. وما زال به حييٌّ، يؤلّبه على النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ويغويه بالآمال العريضة، حتى أقنعه بالانضمام إلى الأحزاب، فأقبل عليه يعانقه، وهو يَعِدُه بالنصر الأكيد.. ولكنَّ كعباً

---

1 رومة أرض بالمدينة فيها بئر رومة التي اشتراها عثمان بن عفان ثم تصدق بها.
2 ذنب نقمي: موضع قرب أُحُد كان لآل أبي طالب.
3 الجهام: السحاب.

استدرك أمراً لم يثبت عليه أثناء النقاش، فعاد يقول لحييّ: «وعلى فرض أن محمداً قد انتصَرَ فما يحلُّ بنا»؟.

قال حُيي: «أعاهدك يا كعب، لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً، لأدخلنَّ معك في حصنك، فيصيبني ما يصيبك».

قال كعب: إذن فأمهلونا أياماً عشرةً نتمكن أثناءها من إعداد عدتنا، ونصبح قادرين على القتال».

قال حُيَي: لك ذلك يا كعب..

وعادَ حُيَي بن أخطب في تلك الليلة يخبر قادة الأحزاب ـ الذين كانوا ما يزالون في انتظاره ـ بما جرى معه وكيف أمكنه أن يقنع زعيم بني قريظة بالانضمام إليهم، فراحوا يهنئونه على نجاحه، وهم يتوهمون بأنَّ انحياز بني قريظة لهم سوف يساعدهم على تبديل الأحوال، وتحقيق ما جاؤوا إليه...

ولكن أنّى لابن أخطب، مهما كان صاحب حيلة ودهاء، وأنّى للأحزاب مهما كانت جموعها غفيرة وقواها شديدة، فإنها لن تحقق نصراً على المؤمنين، وهم على عهدهم لله قائمون، أو أن تهزم جنده وهم لدينه ناصرون!... فما كادَ يطلعُ الصباحُ حتى كان خبرُ نقض بني قريظة لعهدهم قد بلغ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فاهتزَّ له، وخاف من سوء عاقبته الوخيمة.. فرأى ألاّ يُشاع ذلك الخبرُ بين المسلمين حتى لا يكون له أثره السلبي على صمودهم، ولكنه أراد أن يقف على جلية الأمر، فدعا إليه سعد بن معاذ، سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وبعض الصحابة الآخرين أمثال عبدالله بن رواحة، وخوّان بن جبير وغيرهم، يطلعهم على ما تناهى إليه من نقض بني قريظة لعهده معهم، ويبعثهم يستجلون الحقيقة، وهو، صلى الله عليه وآله وسلم، يوصيهم بأن يكتموا الخبر إن وجدوه صحيحاً وإلاَّ فليجهروا به ويذيعوه على الناس..

وذهب هؤلاء الصحابة إلى دار كعب بن أسد، فأبى أن يقابلهم.. فقالوا: هذا أول البلاء... ولكنهم لم يحفلوا برفضه بل أصرّوا على رؤيته، مما أجبره على الاجتماع بهم، وقد جاءَ في نفر من بني قومه، تظهر على وجوههم الضغينة، والشرُّ يبدو من عيونهم، يسألونهم بحدّةٍ وغضبٍ عما يريدون، فقالوا لهم:

«جئنا نؤكد عهد موادعة رسول الله لكم».

فردوا عليهم بصلافة ووقاحة: «ومن رسول الله الذي تزعمون»؟!...
ونظر الصحابة بعضهم لبعضٍ، والغضب يعتمل في نفوسهم، ولكنهم أظهروا اللّين والصبرَ، فقالوا:
«محمد رسول الإسلام! الذي عاهدكم على الموادعة وحسن الجوار».
فردّ نفرُ بني قريظة: «لا عهد لمحمد عندنا».
لقد بدا واضحاً للصحابة منذ البداية بأن بني قريظة قد نقضوا العهد بالتأكيد، إلاَّ أنهم أظهروا التغافل عن مكرهم وغدرهم علّهم يجدون سبيلاً لإقناعهم بالعودة عما فعلوه، فراحوا يذكِّرونهم بما يلقون من حسن معاملة المسلمين لهم، وبالحفاظ عليهم، ويظهرون رغبتهم في البقاء على ذلك الوفاق والوئام.. ولكنهم لم يسمعوا من القوم إلاّ ما ينذر بالغدر والخيانة إذ قالوا لهم: «الخير لكم في أن تذهبوا، فما أنتم إلاَّ أعداء لا نرجو إلاَّ قتالهم»..
وكان سعد بن معاذ حليفاً لبني قريظة، وقد ساءه ما يبدي حلفاؤه هؤلاء من خيانة وعداوة، إلاّ أنه رغم ذلك آثر أن يكون ناصحاً لهم لعلّهم يرعوون عن غيهم، فقال لهم:
«والله إني لأخشى عليكم مثل يوم بني النضير وأمرَّ منه»..
وكأنما رأى زعيم بني قريظة في نصح سعد حجةً على المسلمين، فقال له: «ردّوا بني النضير إلى ديارهم، وسننظر في أمرنا معكم»!
قال سعد: «لقد نكثوا عهدهم، وخانوا وعدهم. وما أراكم تسيرون على خطاهم إلاّ خطأ، فأنتم حلفائي ويعزُّ عليَّ أن تقعوا بمثل ما وقعوا فيه من خطأ».
قال كعب: «نحن لا نريد نُصْحَ أحد، وقد اشترطنا عليكم حتى ننظر فيما يكون بيننا وبينكم، فاذهبوا إلى محمد وأبلِغوه شرطنا»..
وثارَ سعد بن معاذ، يريد أن يهجم على الرجل ويقتله ـ إذ أرادَ أن يكون ناصحاً للقوم حافظاً لهم فما وجد عندهم إلاَّ الغرور والاستعلاء ـ ولكنه رغم غضبه عادَ يتمسك بالصبر ثم ألحَّ عليهم بأن يعيدوا النظر في موقفهم ذاك لأنه أَجدى لهم، إلاَّ أنهم لم يبدوا إلاَّ فحشاً في القول، ومزيداً في التهجّم والاستهزاء، حتى أخرجوه عن حكمته وصبره، فراح يكيل لهم الشتائم بمثل ما يشتمون، فتقدم أصحابه يأخذونه من كتفه، وهم يقولون: «دع عنك شتائمهم يا سعد، فالذي بيننا وبينهم أقوى من الشتيمة وأبعد من الخلاف في القول».

وخرج أولئك الصحابة من عند بني قريظة غاضبين، حانقين، حتى أتوا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبروه بحقيقة الأمر، فأسف لذلك كثيراً، ثم دعا إليه جماعة من المقاتلين، وأمرهم بالذهاب ومراقبة بني قريظة في ما يفعلون. ولم يبق خبر بني قريظة خافياً على المسلمين، فذعروا منه، وداخلهم الخوف من عواقبه لأنَّ بني قريظة أمسوا عدواً في الداخل، قد يكون أشد خطراً عليهم من العدو القابع خارج المدينة..

وفي هذه الأثناء التي داهم فيها ذلك الخوف المسلمين، كانت ثلاث كتائب للأحزاب تحاول التقدم نحوهم، وقد جاءت إحداها بقيادة ابن الأعور السلمي تنزل من فوق وادي جبل سلع، والأخرى بقيادة عيينة بن حصن تقترب من تحتهم، من الجانب السفلي، بينما اقتربت كتيبة أبي سفيان بن حرب حتى وقفت قبالتهم على الناحية الثانية من الخندق، وهذا ما جعل خوفهم يزداد، والرعبَ في قلوبهم يقوى، لأنهم رأوا الخطر يُحدِق بهم من كل جانب.

وكانت هذه الفترة من أشد الفترات صعوبةً على المسلمين، وأكثرها حرجاً، فلا شيءَ من حولهم يبعث على الأمل، بل على العكس إنَّ كل ما يحيط بهم لا يبعث إلاَّ على الرهبة والذعر، ولا يثير إلاَّ الهمّ والقلق...

إنه لبلاء عظيم يخترق بفظاعته حصون نفوسهم فيثير فيها الظنون القاتمة، ويندفع بفداحته إلى قلوبهم فيُنزِل بها المشاعر المظلمة؛ ويتعاظم هذا البلاء عليهم حتى يبلغ المدى الذي تزيغ معه الأبصارُ، وتبلغ به القلوبُ الحناجرَ، فيصير معه المسلمون على تلك الحالة التي وصفهم بها الله تعالى بقوله العزيز:

{إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}[1].

ورأى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ما أصاب المسلمين من هلعٍ في النفوس، وقلق على المصير، فراح يهوّن عليهم بأنّ الله سبحانه لن يتخلّى عنهم، وبأنه قادر على إزالة الشدة، ورفع الظلم، وأنه فاتح لهم طريق الظفر بالعدو والنصر عليه، وهو يقول بثقة النبي الصادق، والرسول الأمين: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ليفرجَنَّ الله عنكم ما ترون من الشدة، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً، وأن يدفع الله إليَّ مفاتيح الكعبة، وليهلِكنَّ الله كسرى وقيصر، ولتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله».

---

1 سورة الأحزاب، الآية: 10.

ويطمئن المؤمنون لوعد النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فيشعرون بالهموم تتبدّد، وبالأحزان تتلاشى، فيصبرون محتسبين، داعين إلى الله سبحانه أن يعجل لهم في الخلاص من هذا المأزق الشديد. أمّا المنافقون فيبقى الضعف مسيطراً على نفوسهم، فلا يحفلون لوعد رسول الله بالنصر، ولا يقنعون بأنهُ الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، وهم يرون من أخطار العدو ما يوشك أن يُنزل بهم البلاء، وينشر المصيبة، فلا يحتملون البقاء بين الصفوف، بل يؤثرون الانسحاب والانصراف إلى منازلهم، وهم يحتجون بالقول: بأنها عورة، ويخافون عليها من الدخول والاعتداء.. وإذا كان هنالك من حياءٍ في تصرف هذه الفئة من المنافقين، وهي تحتجّ لترك المؤمنين في أصعب الظروف وأحلكها، فإن فئة أخرى بلغت بها الوقاحة حداً أنْ لم تتورع في فرارها عن النيل من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهي تتهمُهُ في صدقه، فيقول أصحابها بعضهم لبعض: «يَعِدُنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب في حاجة له ويعود سالماً.. لنذهبنّ إلى بيوتنا فندخلها آمنين». وما زالت هذه الفئة من المنافقين تحرّض على الهروب، والانسحاب، حتى لم يبقَ أحدٌ منهم بين صفوف المؤمنين؛ وفيهم نزلَ قولُ الله تعالى:

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ لأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلاَّ يَسِيراً * وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً * قُل لَّن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}[1].

فالمنافقون يفرّون، وكتائب الأحزاب تتقدّمُ، من أعلى ومن أسفل، وليس أمام المؤمنين إلاَّ الصمود والقتال، فتنهال سهامهم على تلك الكتائب مثل وابلٍ من المطر، فتجبرهم على التقهقر والتراجع، إلاَّ بعض فرسان من كتيبة أبي سفيان بن حرب، فإنهم راحوا يقتحمون الخندق وفي زعمهم أنهم يمهّدون للآخرين طريق اللحاق بهم، فلا يلبثون أن يجدوا أنفسهم وحدهم قد أقدموا على ذلك الاقتحام، بينما تقاعست جنود الأحزاب عن اللحاق بهم..

وكان أولئك الفرسان الذين اندفعوا في وسط الخندق هم: عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبدالعِزّى، وضِرار بن الخطاب بن مرداس، وهبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن ودّ العامري..

---

1 سورة الأحزاب، الآيات: 12 ـ 16.

وكان عمرو بن ودّ أول من عبر الخندق، ووصل إلى طرفه الآخر من ناحية المسلمين، وهو ينادي بأعلى صوته: «هل من مبارز»؟..

ويراه المسلمون مندفعاً على تلك الحالة من الهيجان والإقدام، فلا يجرؤ أحد منهم على أن ينتدب نفسه للنزول إليه وملاقاته. ويزيد في تقاعسهم ذاكَ ما كان للرجل من شهرة في القتال، وذيوع صيت في المبارزة، حتى قيل عنه في الجزيرة: «بأنه البطل الذي لا يقوم له رجل من العرب»، وقد سُمي لشهرته تلك «فارس يَليلْ».. أما السبب في هذه التسمية فيعود إلى يومٍ كان عمرو بن ودّ في ركب من قريش، يعبر وأصحابه، بوادي «يُلَيْل» ـ القريب من بدر ـ فيتصدى لهم عدد كبير من فرسان بني بكر، ويشتبكون معهم في قتال، فإذا بعمرو بن ود يصرخ بأصحابه أن يخلّوه وحده، ويذهبوا فارّين بأنفسهم من الموت.

ويروى أنَّ أصحابه لاذوا فعلاً بالفرار يختبئون، بينما بقي هو وحده يقاتل المعترضين فيجرح من يجرح، ويقتل من يقتل، حتى ينزل بهم الهزيمة ويهربوا من وجهه. وما إن هدأ القتال واطمأنَّ أصحاب عمرو إلى أن عدوهم قد ترك تلك الناحية حتى خرجوا من مخبأهم يريدون الوصول إلى مكان القتال لأخذ جثة صاحبهم عمرو كي لا تبقى في الفلاة طعاماً للوحوش والغربان، فيفاجأون به يطلع عليهم ظافراً، يزهو بنفسه، وبتفريقه شمل العدو، فيستقبلونه عندئذٍ بالهتاف: «أهلاً بفارس يليل»... ومنذ ذلك الحين وذلك اللقب يغلب عليه، مُدلِّلاً على شجاعته وبطولته...

تلك الشهرة هي التي أجفلت أبطال المسلمين، فلم تطاوع أحداً منهم نفسُه، بالبروز إليه ومقاتلته.

ورأى عمرو بن وِدّ تقاعس المسلمين عن ملاقاته، فازداد اعتداداً بقوته، وراح يختال في الساح على فرسه، ويجول ويصول مُدِلاًّ بعزمه، ومَضَاءِ حُسامِه، وهو لا يفتأ يردد متباهياً: «هل من مبارز، هل من مناجز»؟!... ثم يقول شعراً فينشد:

ولقد بَحَحْتُ من النداء ... بجمعكم هل من مبارز
إنـي كذلـك لـــم أزلْ ... متسّرعاً نحـو الهـزاهز
إن الشجاعة في الفتى ... والجودَ من خير الغرائز

ويراه أصحابه على تلك الحال من الجرأة والشجاعة والتفاخر، فيقول أحدهم، وهو يصف خندق المسلمين بـ«المداد»:

عمرو بن ود كان أول فارس   طَفَرَ المدادَ وكان فارسَ يَلْيلِ

ويبقى عمرو بن ود يجول في الميدان وحده، دون أن تنقطع مناداته للمسلمين، أو يتوقف افتخاره بنفسه، بينما يظل أبطال المسلمين على صمتهم، وقد سيطر عليهم الرعب منه.. وقد لا يكون هؤلاء الأبطال ممن تعوزهم الشجاعة والمبارزة، ولكنها الظروف القاسية التي تحيط بهم، والأجواء الصعبة التي تثقل عليهم، هي السبب في ذلك التقاعس، واللياذ بالسكون.. ويطول نداءُ عمرو بن ودٍ لهم، ويطول تقاعسهم عن البروز له.. ولكن إلى متى؟!..

ألا يوجد بين صفوفهم رجل واحد عنده من الشجاعة ما يكفي للتصدّي لهذا المشرك الذي لا ينقطع مذ طفر الخندق، عن التعالي عليهم بنفسه، والتباهي ببأسه واشتداده؟!..

بلى والله..

إنه البطل المغوار، عليٌّ بن أبي طالب الكَرَّار على الأعداء الذي لا تطاوعه نفسه، أن يرى كافراً يتعالى على المسلمين ويتركه وشأنه، فيتقدم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: «أنا له يا نبي الله».. ولكنَّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يردع علياً عن مُرادِهِ ويقول له: «إنه عمرو يا علي! فاجلس».

وتزداد صراخات عمرو حدَّةً، بل وتتحول إلى صراخات مؤنبة جارحة للمسلمين، تستهدف إيمانهم بالذات، وهو ينادي فيهم: «يا من تزعمون أننا إذا قتلناكم تدخلون الجنة، وأنكم إذا قتلتمونا دخلنا النار، هلمّوا إليّ فأنا بانتظاركم.. وهذه طريق جنتكم مفتوحة أمامكم فانزلوا لمبارزتي وأنا أقودكم إلى تلك الطريق»!...

وغضب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لاستهزاء هذا الكافر بهم، فنادى في المقاتلين:

«من يبرز إلى عمرو وأنا كافِلٌ له على الله الجنة»؟

ويظل الجميع قابعين في الصمت، يسيطر عليهم جو الرهبة والخوف، فيعود عليّ (عليه السلام) ويتقدم من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قائلاً: أنا له يا رسول الله!.

ويعاود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله لعليٍّ: اجلس يا علي، إنه عمرو!..
وينصاعُ عليّ (عليه السلام) لأمر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فيعود إلى مكانه، وهو ينظر ناحية الرجل مغضباً، ويشتدُّ غضبه وهو يسمع تردادَ فخاره يتعالى إنشاداً:

ولقد بُحِحْتُ من النِّداءِ بجمعكم هل من مبارز

ووقفت إذ جبنَ المشجِّع موقف البطَل المُناجز

إن السماحة في الفتى والجود من خير الغرائز

ويندفع عليٌّ (عليه السلام) نحو النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جديد يطلب مبارزة الرجل، فيقول له، صلى الله عليه وآله وسلم: ولكنه عمرو يا عليّ!..
فيقول عليٌّ للرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: وإن يكن عَمْرواً يا رسول الله؟!..
وينظر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى عليٍّ بعين ملؤها المحبة والعطف وتتجاذبه حياله شتى الأفكار.. إنه عليٌّ: الإنسان الذي يحبه من أعماقه؛ فقد كان أول من آمن به بعد زوجه خديجة (رضي الله عنها) وظلَّ بجانبه منذ ذلك الحين، يعينه على نوائب الأيام وصعابها بقدر ما يستطيع، وهو الذي فداه بنفسه عندما نام في فراشه يوم هجرته، وهو زوج ابنته التي منها نسله، فكيف يسلّمه إلى عمرو بن ود صاحب القوة والبأس، قاتلِ الرجال ومشتِّتِ الفرسان؟!..
ولكن أوَليس الإسلام بحاجة إلى عليّ الآن؟
إذن فنداء الواجب أهم من أي نداء آخر!..
وما على الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاّ أن يأذن لعليّ بالمبارزة..
ويأخذ النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، درعه «ذات الفضول» ويعطيها لعليّ فيلبسها، ثم يسلّمه سيفه «ذا الفقار»، ويمدُّ يده إلى رأسه فينزع عمامة السحاب عنه ويشدّها على رأس عليّ في تسعة أكوار، فوق وجهه المقنَّع بالحديد، ثم يشدّه إلى صدره، ويقول له: «تقدم على بركة الله»..
ويندفع عليّ راكضاً نحو عمرو، فيرمقه النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، بنظراته، ثم يرفع يديه وناظريه نحو السماء داعياً له الله تعالى: «اللَّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن

يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته.. أَلاَ إنَّه قد برز الإيمان كلُّه إلى الكُفر كلِّه. اللَّهم سدِّد علياً وأيده وانصره على خصمه، إنك أرحمُ الراحمين».

إن رسول، الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقف في هذه اللحظات متوجهاً بكلّيته إلى خالقه، يناجيه بضمير المؤمن الصادق الذي يمتلىء بالخشوع، وبفكر العابد الذي يحفل بآفاق الإنسانية، وبنفس المخلص التي تستوعب مشاعر البشرية... إنَّ الموقف حرج، والوضع دقيق للغاية، فإنْ ناجزَ عليٌّ بطلَ الكافرين وقهره، فالانتصار لا يكون لعليّ، بل إنه انتصارُ الإيمان على الكفر، ودَحْرُ الحقِ للباطل، وإنه الانتصارُ الذي تتبدّلُ به الأوضاع كلُّها، فتعود للمسلمين الثقةُ بنفوسهم، ويَهزِمون ذلك الضعفَ الذي ينطوي في أفئدتهم، فتكون البدايةُ لتحقيق النصر الأخير بعون الله..

النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، في اتصاله الإشراقي بربه، وعليّ (عليه السلام) في اندفاعه نحو عمرو بشجاعته وحماسه، لا يأبهان لشهرة هذا الرجل التي تملأ آفاق الجزيرة، ولا يحفلان بغطرسته وتباهيه بقوته.. إن علياً في الثامنة والعشرين من عمره، في عزّ الفتوة والرجولة، ينطلق إلى عدوه كالأسد الهَصُور يثِبُ وثباً، حتى يصير قبالته، فيبادره مُهدِّداً متوعداً وهو يقول له:

لا تعجلنَّ فقد أتاك مجيب صوتك غيرُ عاجز

ذو نيةٍ وبصيرةٍ والصدق منجي كلّ فائز

إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربةٍ نجلاءَ يبقى صيتُها بعد الهزاهز

ويعجب عمرو لهذا الرجل، وقد أتاه مبارزاً، راجزاً فيسأله بكبرياء وعجرفة:

«من أنت يا ذا الرجل»؟.

فيسمع عمرو صوتاً يهز مشاعره ويدوّي في أعماقه: «أنا علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف»..

كفاك تباهياً يا عمرو بنفسك، وآن لك أن تعرف من هم الأسياد!..

ما بالك؟!.. أفي لحظةٍ تخبو جذوة التفاخر في حنجرتك، فلم تعُد تَرجُزُ شعراً!..

هل أطاحَ بصلفك مجرد سماعِ سليلٍ لبني هاشم يُنْبِئُكَ باسمه؟!..

إذن فهيّا وقلْ لمبارزك، وقد عرفت من يكون، ما يروي غليل حقدك وحقد قومك على محمد..

وتمرُّ لحظات وعمرو لا يقول شيئاً.. وتطوف في ذاكرته خلال تلك اللحظات تخيلات وتصورات، ويفتش خلالها عمّا يردُّ عنه إجفالَ نفسه من علي (عليه السلام) وقد سمع أخباره في بدر وأُحُد، فيقول مدعياً الإشفاق عليه:

«ليبرز لي غيرك يا ابن أخي.. ففي أعمامك من هو أسنّ منك وأبوك كان صديقاً لي، وإني لأكره أن أقتل رجلاً كريماً مثلك فارجْع وراءك خير لك».

فقال له عليّ: «إن قريشاً تتحدث عنك أنك تقول: لا يدعوني أحد إلى خِلَّتين إلاّ أجبت إلى واحدة منهما».

قال عمرو: «أجل»...

قال له عليّ (رضي الله عنه): «فإني أدعوك إلى الإسلام، وهذه خِلّةٌ عظيمةٌ من الله تعالى.

قال عمرو: «دع عنك هذه»..

قال له عليّ (رضي الله عنه): «فإني أدعوك أن ترجع بمن معك من قريش إلى مكة. وهذه خِلةٌ فيها نَجاةٌ لك..

قال عمرو: «إذن تتحدث عني نساء مكة أن غلاماً مثلك خدعني؟!

قال له علي (رضي الله عنه): «فإني أدعوك إلى البراز».

فقال عمرو: «إني لا أحب أن أقتلك».

قال له عليّ (رضي الله عنه): «ولكني أحب أن أقتلك».

وثار غضبُ عمرو لهذا التهديد، فأرادَ أن يهجم على عليّ (عليه السلام) بفرسه، إلاّ أنه أحجم عن ذلك وهو راجلٌ قبالته، فقفز عن ظهر الفرس، واندفع نحوه يستلُّ السيف بيده، حتى إذا قارَبُه أهوى عليه بضربة شديدة، فتلقاها عليّ بدُرقته، فإذا هي قد قُدَّت وثبت السيف فيها.

ولم يكن عليّ (رضوان الله عليه) ليقف متلقياً الضربات وحَسْبْ يدفع بها عن نفسه، بل إنه ما كادَ يستقبل عَمْرواً حتى عاجله بضربة مقابلة هوت على أحد فخذيه فقطعته، وجعلته مطروحاً على الأرض، مقلوباً على قفاه، فإذا بعمرو يمتشق رمحه ويطعن به علياً فيبتعد

عن طعنته، فيرميه به رمياً فيذهب عنه طائشاً في الهواء، عندها يتقدم منه عليّ يريد القضاء عليه، ولكن عمرواً يصمد مقاوماً، فيدور بينهما برازٌ شديد، ويثور النّقع [= الغبار] من حولهما حتى يُغطّي كلّ ما حولهما فلا يعود أحدٌ يراهما..

وما زال عليّ (عليه السلام) يدور حول الرجل، تارة عن يمينه، وتارة عن شماله، وعمرو يقاومه بكل بسالة وقوة، حتى أمكن لعلي (رضي الله عنه) أن ينالَ منه بضربة نجلاء ـ كان قد وعده بها ـ فَلَقَتْ هامَهُ، وطرحته على الثرى يمتزج لحمه بدمه في التراب، ثم اعتلى على صدره كالأسد الهَصور وارتفع صوتُه يشق عنان الفضاء مكبّراً بنداء الحق: الله أكبر.. الله أكبر..

وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون تكبيرة علي (ع)، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بصوتٍ ملؤه الفرح والإيمان: «والذين نفسي بيده قتله عليٌّ»..

ويندفع جمع من المؤمنين إلى مكان القتال، ليقفوا على مشهد للبطولة ما رأوه من قبل قَطُّ. فهذا عمرو بن ود، البطل الصنديد الذي تخافه الأبطال، مُجندلاً على الثرى، وهذا عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، بطل الإسلام وبطل دعوة الحق يقف فَوْقَ رأسه، وذو الفقار ما زال مشرعاً في يده، وهو يُنشِد الشعر مفاخراً بنصر الله سبحانه، مشيراً إلى عدو الله عمرو بن ود الذي ألقاه صريعاً وهو يقول:

نصرَ الحجارةَ من سفاهة رأيه ... ونصرتُ ربّ محمدٍ بصوابي

فضربته وتـركتـه متجنـدلاً ... كالجـذع بين دكادك وروابـي

وعففت عن أثوابه ولو انني ... كنـت المقصِّر بزّنـي أثوابـي

لا تحسـبُنَّ الله خـاذلَ دينـه ... ونبيّـه يـا معشـرَ الأحــزاب

وكان أصحاب عمرو الذين عبروا معه الخندق ينتظرون نهاية المبارزة بين الرجلين، وفي ظنهم أنه سيأتي دورهم للقتال بعد أن يكون عمرو قد فرغ من قتل عليّ، فإذا بهم يرون صاحبهم يهوي مجندلاً بدمائه، فيلوون أعنَّة خيولهم في محاولة لاجتياز الخندق لائذين بالفرار، إلاّ نوفل بن عبدالعِزّى قصّر به فرسه فسقط في الخندق. وكان ذلك النفر من المؤمنين الذين جاؤوا على أثر التكبير قد لحقوا بالفارين، فراحوا يقذفون نوفلاً بالحجارة وهو

في جوف الخندق، فيصرخ من تحت: «يا معشر المسلمين ألا قِتْلةٌ أكرمُ من هذه»؟ عندها نزل إليه الزبير بن العوام وقتله بسيفه.

انتهت تلك المبارزة وعادَ عليّ (عليه السلام) ليستقبله المؤمنون بهتافات النصر والابتهاج، ويتقدم من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فيأخذه بين ساعديه، ثم يقول له: «أبشر يا عليّ، فلو وزن اليوم عملُكَ بعَمَلِ أمّةِ محمد لرجح عملك بعملهم». وتقدم الصحابة من عليّ يهنئونه، وفي طليعتهم أقرب الصحابة أبو بكر وعمر بن الخطاب (رضوان الله عليهم جميعاً) اللذان قبّلاه في رأسه، وشكر الجميع له همته العالية التي أذهبت عنهم كيد مُشرِكٍ عاتٍ، أجفل القلوب، وأوهن النفوس..

وفيما كان المؤمنون يلتّفون حول عليّ (عليه السلام) مسرورين مغتبطين بضربته البِكْرِ التي أطارت أَلْبَابَ الكفار والمشركين هلعاً، جاءهم رسولٌ من المشركين يطلب أخذ القتيلين: عمرو بن ود، ونوفل بن عبدالعِزّى، على أن يدفع عشرة آلاف درهم مقابل كل منهما. فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «ليأخذوهما، فهما لهم، ونحن لا نأكل ثمن الموتى»..

وروي أنه لما نُعيَ عمرو بن ود إلى أخته، واسمها عمرة وكنيتها أم كلثوم، قالت: من ذا الذي اجترأ عليه؟.

قالوا: عليّ بن أبي طالب..

قالت: إذن لم يعد قَتْلُه نكداً عليَّ وحرقةً في قلبي، لأرقأتْ دمعتي إن هرقتها عليه[1]، قتل الأبطال، وبارز الأقران، وكانت ميتته على يد كُفءٍ كريم من قومه، ما سمعت بأفخر من هذا يا بني عامر: ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتلُ عمرٍو غير قاتله ... لكنت أبكـي عليـه طيلة الأبد

لكن قاتل عمرو لا يُعابُ بـه ... قد كان يُدعى أبوه بيضة البلد

يـا أم كلثوم إبكيه ولا تدعـي ... بكـاء مُعْـولةٍ حـرَّى علـى ولد

وكان أثناء اقتحام جمع الصحابة لمكان المبارزة وقتل نوف بالحجارة، أن رمى المشركون أولئك الصحابة بالنبال فأصاب سهمٌ لحيان بن قيس بن العَرِقَة سعد بن معاذ الصحابي

1 يعني أنها آلت على نفسها أن تحبس دمعتها عليه كلّما هاجت بها ذكرى قتله، لأن قاتله كفءٌ كريم.

الجليل في الأكحل (وهو عرق في اليد ويقال له عرق الحياة) فقطعه وهو يصرخ من بعيد: خذها مني وأنا ابن العرقة..

ويسقط سعد على الأرض وهو يردُّ على ذلك اللعين بقوله: «عرَّق الله وجهكَ في النار».. فحمله إخوانه وأخذوه إلى خيمة نصبت للجرحى.. فلمّا هدأ الاحتفاء بفوز عليّ (رضي الله عنه) ذلك الفوز العظيم، أمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يعود كلٌّ إلى مكانه، ليظلَّ على أهبةِ الاستعداد، حذر غدر العدو بهم، ثم ذهب يعودُ سعداً ليطمئنَّ على حاله، فأقبل عليه يواسيه، ويخفف من آلامه بكلامه اللطيف المعهود، وبحنانه الودود المألوف وهو يرجو له رحمة الله ورضوانه.. ثم لا يلبث الرسول الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، طويلاً عند سعدٍ، بل يعود سريعاً إلى خيمته ليظلَّ مشرفاً على سير الأمور، واقفاً على تحرك المشركين..

وإذا كانت عيادةُ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لسعد قد خففت كثيراً من آلامه، فإنَّ فِكْرَ سعدٍ كان مع المؤمنين، يرجو الله سبحانه أن يكتب لهم النصر، وأن يبقيه على قيد الحياة حتى يجاهد قريشاً وحلفاءها، وقد رفع يديه إلى السماء داعياً: «اللَّهم إن كنتَ أبقيتَ من حربِ قريشٍ شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحبّ إليَّ أجاهدهم فيك من قومٍ آذوا رسولك وكذّبوه وقاتلوه، وإن كنت يا رب وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادةً ولا تمتني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة»..

ألا ما أروع هذا الموقف من الصحابي الجليل!.

إنه سعد بن معاذ، سيّد الأوس، ولكنه لا يطلب من ربه زعامةً ولا سيادةً، ولا يحفِل بأي شأن من شؤون الدنيا، بل قلبه ووجدانه ومداركة كافةً مع هذا الرسول الصادق الذي ما زالت العرب، وفي طليعتها قريش، تعمل جاهدةً للقضاء عليه وعلى دينه، ومع هؤلاء المؤمنين الصابرين الذين نذروا أنفسهم فداءً لهذا الدين ولرسوله..

إنه لا ينتابه شعور بالقلق على مصيره من جرّاء هذا الجرح الذي أصابه، بل رجاؤه كله هو أن يبقى على قيد الحياة حتى يجاهد القومَ المشركينَ الذين آذوا الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يقتصّ من الماكرين الذين نقضوا العهد، وخانوا الوفاء...

ويسمو سعد بروحانيته، ويُخلِص في إيمانه، فيرجو ربَّه أن يجعل جُرحه سبيلاً للشهادة إن لم تَعُد من حروبٍ بين الكافرين والمؤمنين.

فهل أخلصَ من سعد في حرصه على نصرة الإسلام وعلو شأنه وسلطانه بين الناس؟..

هنيئاً لك يا أخا الإيمان فيما ترجو وتحب، وعسى أن يحقق الله أمانيك السامية...

ولنترك سعداً في خيمته قائماً على صلواته ودعواته، ونعود إلى الجموع المحتشدة من هنا ومن هناك.. فقد رأت الأحزابُ ما حلَّ بأشدّ أبطالهم وأكثرهم قوة عندما أرادوا أن يتحدّوا المؤمنين، فهل كانت لهم عبرة في ذلك؟.

لا!.. لم يتّعظِ المشركون، بل زادَ لجاجهم في طلب الثأر، واشتدت النقمة في قلوبهم وهم في ذلك يعتمدون على كثرة عددهم ويعوّلون على قيام بني قريظة بما يوهِنُ قوة المسلمين التي بدت شديدة متماسكة، وبالفعل كانت جماعة اليهود تلك قد أوشكت على إكمال استعداداتها، وقارب وقت إعلانها الحرب من داخل المدينة، فراح بعض أفرادها يعملون على إثارة حفيظة المسلمين بإخافة نسائهم وأطفالهم، والتحرش بشيوخهم الطاعنين في السن، وبما يجعل هذه الفئات الضعيفة تستصرخ الذَبَّ عنها، فيأتي جمعٌ من المقاتلين لحمايتها وبذلك تتوزع قوى المسلمين وتضعف مقاومتهم...

تلك هي الخطة التي اعتمدها بنو قريظة للبدء في العدوان، ولكنَّهم ما دروا أن في المسلمين نساءً بلغت الشجاعة في قلوبهنّ ما يفوق شجاعة الرجال، وعَلتِ الهمة في نفوسهن بما يجعلهنّ قادرات على القتال.

فمن النساء كانت صفية بنت عبدالمطلب، عمة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأخت حمزة، سيّد الشهداء.. فقد أقامت في حصنٍ مع حسان بن ثابت، ترعى النساء والذراري، وتخدم الشيوخ والعجزة من غير أن تتوانى عن المراقبة ورصد تحركات بني قريظة. فبينما هي مرةً وراء النافذة تحاذر غدر بني قريظة، إذا بها ترى رجلاً منهم يطوف حول الحصن، في محاولة تَعَدٍّ على النسوة، فتنادي حسان بن ثابت أن ينزل إليه ويقتله حتى يخلصوا من شره وهي تقول له: «عجِّلْ يا حسان وانزل إليه، فليس بيننا رجال ذوو قوة غيرك، فرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنون في نُحور عدوهم ولا يستطيعون أن يصرفوا عنا إن حاقَ بنا غدرٌ، وإني والله ما آمنُ أن يدل هذا اليهودي على عورتنا لمن وراءنا من قومه.. فهيا إليه وعاجله بضربة تذهب به إلى الجحيم».. ولم يكن حسان بن ثابت محارباً، بل هو شاعرٌ يكره كل ما هو قتال أو حرب، ليس في طبعه حَمْل سلاح أو إهراق دم، ولذا فقد آثر البقاء في الحصن، ولم يخرج للمشاركة في المعارك..

ويحاول حسان أن يستمد من قول السيدة صفية قوة تعينه على النزول وقتل الرجل، إلاّ أنه فشل في ذلك فيعتذر إليها قائلاً: «يغفر الله لك يا ابنة عبدالمطلب، فوالله لقد عرفوا ما أنا بصاحب هذا».. فانفلتت بنت عبدالمطلب من وراء النافذة، تشد على وسطها، ثم تأخذ بيديها عموداً ضخماً، وتسرع في النزول من الحصن، ترقب اليهودي في طوافه، حتى إذا قاربته، اندفعت إليه بعمودها تهوي به على رأسه فتفلِقُه وتَذَرُه يتخبط بدمائه مقتولاً.
ثم تسارع السيدة صفية في العودة إلى الحصن، وتأتي حسان بن ثابت قائلة له:
«انزل إليه يا حسان واسلبه، فوالله لم يمنعني من ذلك إلاَّ أنه رجل».
فيقول حسان، بلهجة هادئة:
«ما لي بسلبه من حاجة يا ابنة عبدالمطلب».
فتركته السيدة صفية وشأنه، وهي لا تلومه في شيء، لأنها تعرف طباعه وخصاله..
وفي هذا الوقت الذي كان فيه بنو قريظة، يحاولون إثارة المسلمين، كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد وضع الخطة التي تقضي على كل عمل يمكن أن يُقدِموا عليه، فألف كتيبتين الأولى بقيادة زيد بن حارثة وعددها ثلاثمائة، ثم أمرهم بالذهاب والتوزّع حول المنازل حماية للنساء والذراري من بني قريظة، الذين بات خطرهم لا يقل عن خطر قريش وغطفان...
ورأى بنو قريظة أن الأمر أصبح أصعب وأدقّ بالنسبة إليهم، فبعثوا إلى الأحزاب أن يقوموا بعمل يتيح لهم فرصة التحرك، ثم يباشرون بالهجوم جميعهم.. فعمدت الأحزاب إلى تأليف كتائب عديدة، توزعت حول المدينة من جميع الجهات والجوانب، واستعدت خلف الحصون والخندق، في تظاهرة تنذر بالشر المستطير. ورأى المسلمون ما يقوم به الأعداء، فإذا بالأمر يختلط عليهم!.. ولم يعودوا يدركون أين يركزون جهودهم ولا أين يجب أن تكون مقاومتهم، ولا من أية ناحية سوف يكون دخول الأعداء إلى المدينة.. لقد عادَ الظرف شديداً على المسلمين حقاً، وعادَ الخوف يسيطر عليهم من جديد، حتى أوشكَ إن يتحول إلى يأسٍ وقنوط..
ويرى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ما يعصف بنفوس المسلمين، فيلجأ إلى ربه مستجيراً، داعياً مُنيباً، وهو يقول: «اللَّهم إني أنشدك عهدك ووعندك، اللَّهم ادفع عنا شرّهم، وانصرنا عليهم، لا يغلبهم غيرك».

إنه دعاء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ودعاء نبيّ الإسلام محمد بن عبدالله.. وهو الدعاء الذي يحمل في طياته الإيمان الخالص بعهد الله سبحانه بنصر المؤمنين بقدرته وغلبته، ولا غالب غيره. «إن ينصركُمُ الله فلا غالِبَ لكم». وهو الدعاء الذي يؤمن الاتصال بين الأرض والسماء، فلا أحد فيهما، ولا أحد بينهما، يعرف مكنون هذا الدعاء إلاّ من يصدر عنه..

وقد جاء المسلمون إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يشكون سوء الحال، ونفاد الصبر، فإذا بالرسول الأعظم يدعوهم إلى شيء واحد، ولكنه الشيء الذي يحفل بكل الأمور والأشياء، فيقول لهم: «ادعوا الله قائلين: اللهم استُرْ عوراتنا وآمن روعاتنا».

وتنتصب وجوه المؤمنين نحو السماء، فتلهج الألسن بالدعاء، وتعمر القلوبُ بالإيمان.. فتختل الموازين في العوالم، وأهلوها ينصتون إلى هؤلاء المؤمنين من أهل الأرض، فيتساءلون مستغربين: «إلى هذا الحد بلغ الباطل من القوة والشدّة، حتى استطار شرّه مستعراً على الحق؟!.. ما هذا الذي يخالف كل منطق ومعقول»؟!.. ولكنَّ سكان العوالم لا يلبثون أن يعودوا مستدركين: «ولكنْ أياً كانت الأمور فالنتائج بديهية ومعروفة: قد يكون للباطل جولات وصولات، ولكنَّ جولة الحق واحدة، وفيها دائماً النصرُ الأخير».

ولكن إذا كان للإيمان فعله، وللدعاء فعله، فإنَّ للعمل أيضاً أثره وأهميته.. ففي هذه الأثناء التي كان يبدو فيها الضعف في صفوف المسلمين قد أخذ مداه، كان الرسول الأعظم قد تدبّر الخطة التي ينفذ منها إلى وحدة الأعراب، ليفكك أوصالها، ويوهن تماسكها، فيبعث إلى قادة غطفان ومن معها من قبائل نجد، يطلب مصالحتهم على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة ويجتمع مبعوث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالحارث بن عوف، وعيينة بن حصن، وهما الأرفع مكانةً في تلك القبائل ويعرض عليها مطلب المصالحة، فيتشاور هذان الرجلان في الأمر، ويتساءلان: ما الفائدة التي تجني أقوامهما إن قاتلوا محمداً وأصحابه وهزموهم، ثم عادت قريش إلى مكة صاحبة السيادة في العرب، وعادَ اليهود إلى ديارهم في المدينة ينعمون بخيراتها، ولا يصيبون هم شيئاً لا من هذا ولا من ذاك؟.. فلِمَ لا يوافقون على طلب محمد، وفيه ربحٌ لهم لم يكونوا يتوقعونه؟!..

وهكذا اقتنع زعماء غطفان وقبائل نجد بالتصالح مع محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنهم أرادوا أن يكون بينهم وبينه ميثاق، فكتبوه وبعثوه إليه ليوقّعه. وما إن وصل الكتاب

حتى بعث الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بطلب سعد بن عبادة وبطلب سعد بن معاذ رغم جرحه، يستشيرهما في أمر الكتاب، لأنهما صاحبا الحق، قبل غيرهما في الموافقة أو الرفض، ما دامت لهما زعامة الناس في المدينة، والأمر يتعلق بثمارها وخيراتها..

وجاء سيدا الأوس والخزرج، فعرض عليهما رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أمر الكتاب، فقالا له:

«أمراً تحبه يا رسول الله فتصنعه أم شيئاً أمرك به الله»؟

قال النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: «بل شيء أصنعه لكم، وإني ما أصنع ذلك إلاّ لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما...».

وفكّر الصحابيان بما قاله رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وتوقفا عند كلمة «أمر ما».

فما هذا الأمر الذي يريده رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم؟!...

إنه أمر الرسول وهو حق، وإنه إن لم يُبْدِهِ لهما فهذا من شأنه وهو قادر على معرفة ما يريد وما يقرر، ولكنَّ الأمر الذي يشاورهما فيه، يتعلق بالدين، ويتعلق بكرامة المؤمنين، وعليهما اتخاذ الموقف الذي يمليه عليهما الحق والواجب..

وبعد تفكير وتأنٍ، قال سعد بن معاذ: «يا رسول الله! قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبده ولا نحفل بأمور دينه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة إلاّ قِرىً أو بيعاً، فحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام وهدانا إليه، وأعزّنا به وبك نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة. والله ما نعطيهم إلاّ حدَّ هذا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم»..

والتفت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى سعد بن عبادة يسأله رأيه فقال:

«والله ما قال أخي سعد إلاّ حقاً يا رسول الله».

هذا هو الحق الساطع، ينضح من قلوب وألسنة المؤمنين الصادقين.

الأمر يتأرجح بين حدين:

إما عيش مع الذل والهوان أو موتٌ مع العزة والكرامة..

والسّعدانِ، وهما مسلمان، لا يبغيان طبعاً إلاّ العزة والكرامة..

نعم لأنهما مسلمان يستهينان بالموت، إذ ليس في طبع المسلم محلٌ للذل، ولا في نفسه مكانٌ للهوان..

وسُرَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من السعدين، وما أبدياه من حرص على نصرة الدين وعزة المؤمنين، فأعطاهما الكتاب قائلاً: أنتما وذاك..

فتناوله سعد بن معاذ، ومحا ما فيه من كتابة.. ثم قاما يريدان الانصراف، إلاّ أنّ سعداً توقف وقد بدا أنَّ أمراً يشغل باله، فسأله رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عما به، فقال سعد:

هل تأذن يا رسول الله في سؤال يحيرني؟.

وأذن له الرسول الكريم، فقال سعد بن معاذ:

«وما ذاك الأمر يا رسول الله الذي عزمت عليه في نفسك».

وانشرحت أسارير الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال لسعد: «بارك الله فيك وبالمؤمنين يا سعد»... ثم أبان له ولصاحبه، بأنه أراد أن يطمئن على أن في المسلمين من يقدر على اتخاذ القرار الصواب، مؤثراً الدين على كل المصالح والأهواء، حتى يكون أمثال هؤلاء المسلمين من بعده ذخراً لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مسيرتها بطريق الحق...

واطمأنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على أن المؤمنين، ورغم كل الظروف الحرجة التي تواجههم، ورغم كل العذاب والقهر الذي يحيط بهم، ما زالوا صابرين، معاهدين الله، صادقين فيما عاهدوا عليه.. وبما أن الله سبحانه، يَكْلأُ المؤمنين بعين الرعاية، والعطف، ويصفهم دائماً بالصادقين.. فها هي العناية الربّانية تتدخل حقّاً لتحوّل مجرى الأحداث إلى نحو لم يكن لأحد من الناس أن يدركه، وتجعله يتطور في صالح المسلمين بما لم يكن لأحد أن يتوقعه.. ففي غفلةٍ من الأحزاب، وفي سُباتٍ من إدراكها، يدلف إلى داخل المدينة أحد رجال غطفان، نعيم بن مسعود الأشجعي، ويقصد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مبدياً ما عنده، بقوله: «يا رسول الله، إن الله سبحانه قد شرح صدري للإسلام وأنا أشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسولُ الله. ولم يعلم أحد من قومي بإسلامي. وإني والله رأيت شدة القوم على أبناء ديني فما طاوعتني نفسي أن أبقى ساكناً،

فعزمت أن أرى رسول الله علّني أكون ذا نفعٍ في هذا الظرف. فمُرني يا رسول الله بما شئت».

وفرح رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بقدوم هذا المؤمن إليه، وأيقن أنَّ الله سبحانه قد بعثه له، فقال:

«يا نعيم إنما أنت فينا رجل واحد فخذّلْ عنا ما استطعت فإنَّ الحرب خدعة».

ويخرج نعيم بن مسعود، فَرِحاً بما أوكل إليه النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، من مهمة قد يكون فيها ما يخفف عن إخوانه المسلمين شدة الكَرْب، أو ما يوهن حدة الحصار عليهم.

ويذهب نعيم من توه إلى بني قريظة، مستغلاً فرصة وجوده داخل المدينة، فيستقبله اليهود بالترحاب ـ لأنه كان ينادمهم في الجاهلية ـ ويسألونه عما جاء به إليهم، فيقول لهم:

«يا بني قريظة! قد عرفتم ودّي لكم»!..

أجابوه: «قُلْ، فلست عندنا بمُتّهم»..

قال نعيم: «إن قريشاً وغطفان ـ بني قومي ـ ليسوا كأنتم.. البلد بلدكم، وفيه أبناؤكم ونساؤكم وأموالكم، وإن أولئك الجموع قد جاؤوا لحرب محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه وتركوا أبناءهم ونساءهم وأموالهم في بلدهم آمنين، فإن قُدِّر لهم أن يصيبوا محمداً وأصحابه فذاك ما يريدون، وإن عجزوا رجعوا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبينه، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم...».

وسكت نعيم، وراح ينظر إلى وجوه القوم، ليرى أثر قوله عليهم. فلما استبطأوه بالحديث، راحوا يلحّون عليه بالمتابعة، فعاد يقول لهم: «أرى ألاّ تقاتلوا مع القوم إلاّ أن تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم ويكونوا بأيديكم وعندها يضطرون أن لا يتخلوا عنكم ويرجعوا إلى بلادهم».

وتطّلع بنو قريظة بعضُهم إلى بعض، ومِلْءُ نظراتهم التلاوم على عدم التنبّه لهذا الأمر، واتخاذ الحيطة من قريش، فقالوا: «إنّ ما قاله نعيم لصواب، فما بال قريش إن رحلت ودخلنا مع محمد وحدنا».

وقام نعيم يريد الخروج، فتمسكوا به للبقاء عندهم، إلاّ أنه أقنعهم بضرورة الذهاب عنهم، حتى لا يكشف أمره، وأنه يريد اللحاق ببني قومه من غطفان حتى لا يفتقدوا غيابه، فتركهم وقصد أحد المنافذ خارجاً من المدينة، حتى أتى قريشاً ودخل إلى خيمة أبي سفيان وهو في

جَمْعٍ من بني قومه، فجلس يستمع لأحاديثهم حول هذا الغزو وما يرافقه من أحداث ما لأحدٍ منهم أن يتوقعها، وكانوا يلومون في ذلك بني النضير الذين أوقعوهم في هذا المأزق الذي لا يجدون سبيلاً للخلاص منه. وهنا وجد نعيمٌ السبيل لينفذ منه إلى مآربه في تخذيل القوم، فقال لهم: «يا معشر قريش! قد عرفتم ودي معكم وفراقي محمداً، وقد بلغني أمرٌ أرى عليَّ أن أُبلغْكُمُوه نُصحاً لكم، فاكتموا عليَّ»..

قالوا: «نفعل».

قال: «أتعلمون يا قوم أن معشر يهود قد ندموا على خذلانهم محمداً»؟!..

وكأنما لم يصدقوا ما يقول الرجل، فطلبوا إليه أن يعجل في الكلام، فقال:

«بلى يا معشر قريش فصدّقوا، وقد أرسلوا إليه: إنّا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً، نسَلِّمُهُم إليك تضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي حتى نستأصلهم؟!..

قالت قريش: «ويحَ بني يهود، أهل الغدر والنفاق، لقد فعلوها وما كنا عالمين»!..

قال نعيم: «أنا نديم لكم يا معشر قريش، وقد وعدتموني أن تكتموا عليَّ».

قالوا: «اطمئن لن نفشي سرك لأحد، ولكن ماذا يرى قومك، بنو غطفان، في هذا الأمر»؟

قال: سأذهب وأبلغهم بالأمر حتى ينظروا في أمر بني قريظة».

وقام نعيم ليذهب إلى بني غطفان، فيومىء إليهم بمثل ما أومأ لقريش من غدر بني قريظة وعودتهم إلى جانب محمد.. وما زال بهم حتى جعلهم يثورون ويذهبون إلى قريش يتشاورون معها في ما يفعلون..

وفي مساء تلك الليلة، وكانت ليلة سبت، بعثت قريش وغطفان بعض رجالهما مع عكرمة بن أبي جهل، إلى بني قريظة ليسألوهم الإقدام على قتال محمد ومن معه، وبذلك يتبيَّنون صدق نيّاتهم أو كذبهم..

ودخل عكرمة ومن معه حصن بني قريظة، واجتمعوا معهم في دار كعب بن أسد، قائلين:

«يا معشر الحلفاء، إنا لسنا بدار مَقام، قد هلك الخُفُّ والحافِر (الإبل والخيل). وقد واعدتمونا أن تقاتلوا محمداً وأصحابه في بضعة أيام، وقد انقضت المدة، فأرسلنا قومنا كي تُعدّوا أنفسكم صبيحة الغداة فنناجز محمداً ونقضي عليه».

فقال بنو قريظة: «إن غداً السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً. وقد علمتم ما نال من تعدّى منّا في السبت وأحدث فيه فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم. ولكن إن أردتم أن نقاتل معكم، فإنّا غير فاعلين حتى تعطونا رهائن من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، فإنا نخشى إن ضرّستكم الحرب واشتدَّ عليكم القتال أن تشمِّروا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك عليه».

وأدرك رسلُ قريش أن غدر بني قريظة قد اتضح، فقالوا: «لا نعطيكم رهناً أبداً، فاخرجوا معنا إن شئتم وإلا فلا عهد بيننا وبينكم».

ورفض بنو قريظة، فخرج عنهم الرسلُ، فقالوا لبعضهم: «صدقنا والله نعيم بن مسعود».

ولما أتى ورفاقه القوم قالوا لهم: «إنَّ بني قريظة قد خانوا عهدهم وانضموا إلى محمد نادمين».

فقالت قريش وغطفان: «صدقنا ـ والله ـ نعيم بن مسعود».

وهكذا استطاع نعيمٌ، هذا المسلم الذكي، البارع في أسلوبه، الجريء في إقدامه، أن يقوم بمهمة من أدقّ المهمات وأصعبها، وأن يلعب أكبر دور في إيقاع الخلاف بين المشركين، وتفريق وحدتهم، في سبيل نصرة وإعانة إخوانه في هذا الدين..

لقد أمكن أن يخذّل المشركين حقاً، ولكن لو لم تكن القدرة الإلهية لتريد مثل هذا التخذيل لما حصل، ولكان انكشف أمره.. ولكن إرادة الله هي الغالبة، وإنه سبحانه يرقب مجرى الأحداث، وقد شاء أن يُذهب كيد المعتدين، وأن يخفف البلاء عن المؤمنين، فأرسل نعيماً، الرجل الغطفاني الذي لم يرهُ رسول الله من قبل، حتى يقوم بتلك المهمة الدقيقة التي أرادها، وينفّذ الخطة الحكيمة التي رسمها، لتكون السبيل إلى انعدام الثقة بين الأحزاب، فتضطرب نفوسهم، وتتشنّج أعصابهم، فلا يعودون قادرين على إنزال الضرر بالمسلمين..

وبلغ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ما قام به نعيمٌ، وما آل إليه مصير الأحزاب من تفككٍ وتخاذل، فشكر الله سبحانه على فضله، ودعاه تعالى مستعجلاً النصر قائلاً: «اللَّهم مُنزِّل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللَّهم اهزمهم وزَلْزِلْهم وانصُرنا عليهم».

والدعاء في الأصل عبادة، غايته استدرار الرحمة والعطف من الخالق، وتحقيق الأماني الخيّرة الصادقة.. وأية عبادة أطهر وأنقى وأخلص من عبادة رسول الله، صلى الله عليه وآله

وسلم!.. إنه يدرك بأنَّ الله سبحانه ناصِرُ دينه، مبدِّد قوى عدوه، وإنه ليعمد إلى الدعاء توكيداً لعبادته، وخضوعاً لإرادته وحكمته.

وإذا كان دعاءُ الرسول الأعظم على مثل ذلك الطُّهر والإخلاص فإنَّ ما من أحد في العالم أحق بالاستجابة له ـ إن يشأ الله تعالى ويُرِدْ ـ من هذا الرسول الأمين الصادق.

وهذه إرادة الله السنيّة تحلُّ، فتأتي على الأحزاب ريحٌ صَرْصَرٌ عاتية، في ليلة ظلامها داجٍ، ومطرها وابلٌ، تعصف بهم عصفاً شديداً، وتزلزل بهم الأرض زلزالاً كبيراً، وهي تُكفِئ قدورَهم، وتقتلع خيامهم وتطرح أوانيهم، وتطفىء نيرانهم، حتى وكأنها تقوّض أركان وجودهم..

ويدبُّ الهيجان في صفوف الأحزاب، فيزيدهم رعباً في القلوب، ووهناً في النفوس.. فيحاولون أن يدرأوا عنهم أخطار الطبيعة، ولكن لا يجدون سبيلاً لذلك.. إنها قوى عاتية تهبّ عليهم، فتَذَرْهُم على طريق البلاء يتخطبون، وفي خضم النكبة يقعون..

نعم!.. لا أدهى ولا أشدَّ ممّا هُم فيه إلاّ الموت الزؤام.. وها هم يجدون في هذه الرياح والأمطار والعواصف، شفرات سيوفٍ للموت تتسلّط على أعناقهم وتكاد تخطف منهم الأرواح، وتنتزع من أعماقهم النفوس.

وأمام هذه النكبة العاتية، لم يعد لهم أمل في النجاة إلاّ الهروب إلى حيث لا مَطرَ ولا عواصفَ ولا ظلامَ..

ويصرخ أبو سفيان في بني قومه: «يا معشر قريش!.. لينظر امرؤ مَنْ جليسُه، إنكم والله ما اجتمعتم بدار مقام. لقد هلك الكُراع والخُفّ. أخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم ما نكره، وقد لقينا من شدة الريح والمطر ما ترون، فارتحلوا، فإني راحل الساعة».

وولَّت قريش الأدبار لا تلوي على شيء، ونظرت غطفان وبقية الأحزاب إلى ما فعلت قريش، فقاموا وراءها يسرعون بالفرار، تاركين وراءهم كل متاع، لا يعبأون إلاّ بما يمكّنهم من اللحاق بديارهمْ ومضاربهم..

وكان المؤمنون في تلك الليلة ثابتين في مواقعهم، يتناهى إلى مسامعهم اللغط والضجيج، ولكنهم لا يعرفون سببه ولا غايته، وربما تراءى لهم أن الأعداء قد عمدوا إلى شن هجوم عليهم بعد طول انتظار، فبقوا على أهبة الاستعداد، لمواجهة الأحزاب في أعنف قتال وأَمَرِّ لقاء. ولكن ها هو الليل ينقضي والصباح يطلع، وما من هجوم أو اقتحام، بل الأمر على

خلاف ذلك كله.. فها هي الرياح قد هدأت وهذه أنوار الشمس قد سطعت، وبات الجو صافياً رائقاً.. إنه صباح مشرق في كل شيء.. لا قرقعةَ سلاحٍ، ولا ضجيجَ كتائب في الخارج، بل هدوء يعمُّ الأرجاء، وسكون يخيم في الأجواء.. ويعتلي البعض منهم فوق الحصون، ينظرون إلى ما حولهم، فإذا معسكرات الأحزاب قد تزحزحت، وأمتعتهم قد تناثرت وخيامهم قد تبدّدت، ولا يظهر أحد من جموعهم التي كانت تملأ الفضاء والضواحي.

وأيقن المؤمنون في تلك الساعة أن الرياح قد زلزلت الأحزاب فشتتت جموعهم، وبددت قواهم، حتى جعلتهم ينهزمون بلا قتال ولا مواجهة، فتنادوا يلتفون حول رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يستبشرون ببركاته فرحاً، وبنصر الله خيراً، وهم يتعانقون مبتهجين مسرورين، فيملأ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ناظريه منهم وهم على تلك الحالة فيقول لهم: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا». ويدعوهم للدعاء لله شكراً وامتناناً فيهتف الرسول الأعظم، ويهتف وراءه المؤمنون: «لا إله إلاّ الله وحْدَه، صدقَ وعده، ونصرَ عَبْده، وأعزَّ جُنده، وهزم الأحزابَ وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده».

لقد تحقق النصر بقدرة الله تعالى، وكفى الله المؤمنين شر القتال، بقوله سبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً}[1].

وقوله تعالى:

{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً}[2].

نعم لقد جاءت الأحزاب غازيةً، تدّعي النصر والظفر، فإذا بها تصطدم بصمود المؤمنين، وتلبث في قرقعة سلاحها، ومظاهرها الخادعة، مدّةً لا تصل إلى شيء. وفي ليلة وضحاها، لا يبقى لها حَوْلٌ ولا طَوْلٌ، فتذهب مُدبِرةً، خاسرةً لا تبتغي إلاّ النجاة والخلاص..

لقد جاءت تلك الأحزاب وهي تريدها معركة دامية شديدة، فإذا هي معركة أقسى مما تصوّرت، ولكن ليس في الميدان، ولا في القتال المادي، بل في النفوس، وفي امتحان

---

1 سورة الأحزاب، الآية: 9.
2 سورة الأحزاب، الآية: 25.

للأعصاب والعزائم، واختبار للقلوب والأفئدة.. لم يحصل كرٌّ ولا فرٌّ في تلك المعركة، ولا تطايرت هاماتٌ ولا ضُرِبتْ أعناق، بل كل ما حصل أن النفوس والقلوب هي التي كانت يترصّد بعضُها بعضاً، فأما التي توهجت بنور الإيمان والصبر والاحتساب فقد كانت هي الرابحة..

لقد كانت تلك المعركة صداماً بين قوى الضلال والباطل من جهة، وبين قوى الهداية والحق من جهة ثانية، فكان لا بد أن تنتهي إلى تلك النتيجة الحاسمة، لأن من هم جنود الله هم أولى بالنصر وأحق بالعزّة.. وما كانت إرادة الله العزيز القوي إلاّ لتردع الظالمين وتردهم على أعقابهم خاسرين، ومتى حلّت إرادة الله فلا رادَّ لها، وكفى بالله وليّاً ونصيراً..

* * *

سلسلة غزوات الرسول

(1)

غزوَةُ بَدْر

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ آلْرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْـتَلُونَ بِأَنَّـهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ}.

[سورة الحج، الآية: 39]

{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

[سورة البقرة، الآية: 190]

بِسْم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عامّة

أحمد الله تعالى وأثني عليه؛ فهو سبحانه يهدي للتي هي أقوم.. ينير لنا السُّبُل، ويسدد خطانا، ويقوّي فينا العزم، لنعمل عباداً له طائعين، مسترشدين بآي الذكر الحكيم، وبسيرة الرسول الكريم.. وقاعدة الاسترشاد هذه، هي أولى وأهمُّ واجبات المسلم. لأنه بقراءة القرآن المجيد، وبحسن تلاوته، وتدبّر آياته البينات، مع ما تحتوي من هدىً يضيء القلوب والعقول بنور الإيمان، إنما يسير المسلم على الصراط المستقيم، وعلى النهج القويم الذي رسمه له رب العالمين، فيحصل على السعادة في دنياه وآخرته.

ومن ثَمَّ، عليه، بعد ذلك، أن يتعرف على حياة نبيّه المصطفى، وأحوال عيشه في مراتع طفولته، وإبَّان شبابه، حيث عُرِف، ومنذ مرحلة الشباب هذه بـ «محمدٍ الصادق الأمين».. ومن شأن المسلم، بعد هذه المعرفة السَّنِيّة، أن يتخلَّقَ بخُلُق الرسول العظيم، كما وصفه به رب العالمين، فيتخذه ـ بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى ـ أسوةً حسنةً، وقدوةً ومثالاً.

وباتّباع، كتاب الله المجيد وسيرة الرسول الصادق الأمين، يكون المسلم مسلماً حقاً، فيَسْلَمُ الناس من يده ولسانه.

ولقد أعانني الله تعالى وجمعت، من قبلُ، سيرة صاحب الرسالة وسيّد المرسلين، محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، في كتاب من مجلَّدين أسميته: «خاتم النبيين»..

وها أنا الآن، آخذ من هذا الكتاب، جانباً معيناً من حياة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يروي الأحداث المتعلقة بجهاده الدؤوب لنشر الإسلام ودَحْر الكفر. وهو يظهر، والحمد لله، في سلسلة كتبٍ، سميّتها «غزوات الرسول». وإفراد هذا الجانب من حياة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على هذا النحو، يهدف لإفادة كل مسلم في اقتفاء أثر نبيّه وهو يمارس فعلياً أحكام دينه، ويسعى جاهداً لنشر لواء الحق، وبثّ روح الإيمان في نفوس الناس. ولعلَّ في هذا ما يثبِّت في المسلم فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يقوِّي فيه العزيمة على الجهاد كلما اقتضى الأمر اتخاذ مواقف للجهاد ـ وما

أحوجنا إليها في عصرنا الراهن ـ في سبيل إعلاء كلمة الله عزّ وجلّ، وجعلها هي الكلمة العليا، وكلمة الذين كفروا وأشركوا هي السُفلى.

وأريد أن ألفُتَ بادئ ذي بدء، وفيما يتعلق بجهاد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن الحروب أو الغزوات التي فرضت عليه، أو التي قام بها، لم تكن، كما يصورها أصحاب النيّات الخبيثة من أعداء الإسلام، حروباً لإرواء شهوة القتل، أو لفرض الدين الجديد بقوة السيف على الناس. فتلك مَقولةٌ خبيثةٌ تمحو من تاريخ المسلمين الدروس والعِظات التي كانت تنتج عن تلك الغزوات، كما تتعمَّد أن تطوي من ذلك التاريخ صفحاتِ ثلاث عشرة سنة أو أكثر، قضاها المسلمون مكافحين بالكلمة، مبشِّرين بدينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، صابرين على الأذى، متحمِّلين لجميع صنوف العذاب؛ من إهانةٍ وحرمانٍ وقتلٍ وتشريد، وتَرْكٍ للأهل والديار والأموال، فراراً بدينهم وتشبثاً بعقيدتهم.

فالحرب ليست، في نظر الإسلام، إلاّ إحدى الوسائل التي يُلجأ إليها بعد استنفاد جميع الوسائل الأخرى السلميّة، للوصول إلى الأهداف السامية: ألا وهي إزالةُ الحواجز الماديّة وغيرها من العوائق التي تعترض طريق نشر الدعوة الإسلامية، أو استرجاعُ حقٍّ مسلوبٍ من سالبٍ وإزالةُ ظلمٍ عن مُستضعَفٍ... وفي نهاية المطاف إحلالُ السلام والعدل الإلهيّ بين جميع بني البشر.

وبهذا المعنى تكون غزوات الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ، في مآلها، إعلاءً لشأن الإنسان، ورحمةً من الله تعالى لعباده.

ولقد قال أمير الشعراء أحمد شوقي بهذا الصدد:

قالوا: غزوتَ ورُسْلُ الله ما بُعثوا
لقتلِ نفسٍ، ولا جاؤوا لسفكِ دمِ

جهلٌ وتضليلُ أحلامٍ وسفسطةٌ
فتحتَ بالسيفِ بعد الفتحِ بالقلمِ

لمّا أتى لك عفواً كلُّ ذي ثقةٍ
تكفّلَ السيفُ بالجهّالِ وَالعَممِ

والشرُّ إنْ تَلْقَهُ بالخيرِ ضِقتَ بهِ

ذرعاً، وإنْ تلْقَهُ بالشرِّ ينحسمِ

إذن، لقد ألّفت كتابي «خاتم النبيين» ليطّلع الناس عامّةً والمؤمنون خاصةً على ما عاناه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والمسلمون معه من مشاقّ ومتاعبَ، وما قدّموه من مالٍ وجهدٍ في سبيل نجاح الدعوة الإسلامية وانتصار الدين الحنيف؛ وليروا مراحل هذا الجهاد العسير، الذي نقل تلك الفئة القليلة من أيام ضعفها وهوانها على الناس إلى أيام قوّتها ومِنْعتها بعد أن أيّدها الله عزّ وجلّ بنصره المبين.

وقد نال كتاب «خاتم النبيين» من سَعَةِ الانتشار والتداول ما جعل الطبعة الأولى منه تنفد بسرعة، ممّا دفعني، بعون الله، إلى إعادة طبعه لتعمّ الفائدة المرجوّة من نشره، وليطّلع المسلم على ما اتّصف به رسوله الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، وصحبه الأبرار من الصفات العالية التي تجلّت في إصرارهم على حَمْل الدعوة، وتضحياتهم في سبيلها، وصبرهم على المكاره، وعزمهم على مواصلة الكفاح، خصوصاً طوال السنوات الأولى من ظهور الرسالة الكريمة. حتى أن قريشاً ألجأت بعض المسلمين للهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم بعد أن كانت قد نبذتهم وحصرتهم في شِعبٍ مُجدِبٍ من شِعابِ مكة وأجمعت على عدم التعامل معهم.

ثم هاجر المسلمون هجرتهم الثانية إلى «يثرب»، المدينة المنورة، حيث استقبلهم أهلها الأنصار بالترحاب والتكريم والمؤاخاة. وأتاح ذلك للرسول العظيم، صلى الله عليه وآله وسلم، ومن معه، أن يواصلوا نشر الدعوة من هناك، وأن ينظّموا صفوفهم، فزاد عددهم، وكثر مؤيدو الإسلام وقويت شوكتهم.

وعندما وصلت الدعوة إلى هذه المرحلة بالذات، فكّر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بمهاجمة قافلة تجاريّة لأهل مكّة المشركين الذين اضطهدوا المسلمين من قبلُ، وسلبوهم أملاكهم وأموالهم، وأخرجوهم من ديارهم، فكانت «غزوة بَدْر» التي تجلَّتْ فيها بطولات المسلمين وتضحياتهم وشدّة إيمانهم بدينهم. وظهرت فيها أيضاً إرادة الله سبحانه حين نَصَر المؤمنين، وهم قِلّةٌ لا يتجاوز عددهم ثلاثمائةٍ وثلاثة عشر رجلاً، على عدوّهم الذي ناهز عدده الألف رجل، فضلاً عن تفوّقه عليهم بالمؤن والسلاح.

وبذلك كانت «غزوة بدر» منعطفاً تاريخيّاً غيّر مجرى الحياة في الجزيرة العربية ثم، بعد ذلك، في العالم أجمع. وإنها لجديرةٌ بأن تُدْرَسَ وتُدَرَّسَ بعنايةٍ وأن يأخذ منها المسلمون العِبَرَ والعِظات.

ثم كانت «غزوة أُحُد» التي أعطت للمسلمين درساً لا يُنسى. فقد بدأت بنصرٍ مؤزّرٍ للمسلمين عندما نفّذوا تعاليم قائدهم الكبير ونبيّهم العظيم، صلى الله عليه وآله وسلم، ثم انقلبت إلى هزيمةٍ منكرةٍ عندما خالف بعضهم هذه التعاليم، أعني بذلك النبّالةَ الذين أوكل إليهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، حماية ظهر المسلمين وأمرهم أن لا يتركوا أماكنهم مهما جرى في ساحة المعركة. إلاّ أنهم خالفوا أوامره، لمّا بدت تباشير النصر، وتركوا أماكنهم طمعاً بالأسلاب والغنائم. فاندفع بعضٌ من جيش المشركين المهزوم وأتَوْا جيش المسلمين من تلك الثغرة المتروكة وقلبوا نصرهم إلى هزيمة.. وهكذا تتحقق العبرة؛ إذ بطاعة أولي الأمر الصادقين المخلصين والتضحية، يتحقق النصر، بينما بمعصيتهم والانقياد لشهوات النفس، تحصل الهزيمة.

أما غزوات «بني قُرَيْظة» و«خَيْبَر» و«بني النَّضير»، فكانت بسبب كيد اليهود للمسلمين، ومحاولتهم الإضرار بالرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وبالمسلمين أكثر من مرّة، ومؤامراتهم الدائمة لتأليب قبائل العرب ضدّهم. وقد نصر الله تعالى رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، على هؤلاء الأعداء، وردّ كيدهم عن المسلمين.

ثم جاء «فتح مكّة» فكان فتحاً مُبيناً ونصراً من الله تعالى عزيزاً. إذ تمَّ «فتح مكّة» من دون إهراق دماء أو نشوب معارك بفضل ما أودع الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، من مهابةٍ وحكمة ورفعةٍ، وما أعطى رهطه الكريم من قوّة في العَدد والعدّة والإيمان.. فقد دخلوا مكّة دونما مقاومة تذكر، وأزال الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، جميع الأصنام من داخل الكعبة والحرم، ودكّ حصون الشِّرك في مكة وما حولها ثم في جميع بلاد العرب. وتمّ الأمر لله وحده ولدينه الحنيف، ولم يعد يُعبدُ في تلك الأرجاء سوى الله الواحد القهّار.

وبعدُ، فإننا ندعو إخواننا المسلمين إلى قراءة سيرة نبيّهم، صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه الذين اتَّبعوه بإحسانٍ فجاهدوا في الله حقَّ الجهاد بأموالهم وأنفسهم، وتحمّلوا المشاقّ، وضحّوا واستشهدوا في سبيل ربِّهم ونبيِّهم ودينهم، حتى أظهر الله دينَ التوحيد على الدينِ كلِّه، وجعل من «مكّة» مسقطِ رأس النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، حيث الحرم

الشريف، ومن «يثرب» مدينة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، مزاراً للمسلمين يَفِدون إليه من أقطار العالم أجمع للحج والعمرة وليشهدوا منافِعَ لهم، وذلك منذ أن أنزل الله تعالى فريضة الحج وحتى تقوم الساعة.

فالحمد لله ربِّ العالمين على آلائه، وعلى توفيقه لنا بوضع هذه اللّبِناتِ المضيئةِ في بناء تاريخنا الإسلاميّ بتأليف كتابنا «خاتَم النبيين» الذي اختَرنا بعضاً من فصوله وأفردناها في كتب «غزوات الرسول» التي هي بين أيديكم. ونرجوه سبحانه أن يتقبّل منّا هذا العمل المتواضع في سبيل نشر دينه ونُصْرة أوليائه، آملين أن يؤدّي عملنا هذا، بإذن الله سبحانه، إلى تنوير العقول وإضاءة القلوب بنور الهداية والإيمان.

ومنه، عَزَّ وعَلا، نستمدُّ العون والتوفيق.

غزوة بدر

من الدعائم الأساسية التي قامت عليها، وتقوم، المجتمعات البشرية، القوّةُ الاقتصادية، إذ بدونها يبقى المجتمع مفكَّكَ الأوصال، يستجدي مُقوِّمات العيش.. ولقد كانت قوة قريش الاقتصادية في تجارتها الواسعة، التي جابت بها القوافلُ أقطاراً بعيدةً وصلت بلاد الشام، واليمن، ومصر، وجنت منها ثروات كبيرة، هي التي جعلتها سيدة القبائل في جزيرة العرب.

ولم تكن تلك السرايا التي بعث بها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في طليعة عهده المَدَني إلاَّ لغايةٍ هامَّة، وهي رصد أخبار قوافل قريش، حتى يتدبَّر الخطة التي تمكِّن من القضاء على قوَّتها الاقتصادية، تلك القوة التي كانت في نظر المسلمين بمنزلة الأجنحة التي تحلِّق بها قريش في الأجواء البعيدة، وكالمخالب التي تفتك بكُلِّ مَن يحاول اعتراضها أو الوقوف في وجهها في أي شأن من الشؤون... فإذا أمكنهم قصُّ تلك الأجنحة، وتقليم تلك المخالب، فمما لا شك فيه أن شوكة قريش المؤذية سوف تنكسر، وبكسرها ينهار طغيانها ويذهب استبدادها، وعندها يمكن للمسلمين استعادة حقوقهم وأموالهم التي سلبتهم إياها ظلماً وعدواناً.

ولم تكن قريش ليغيب عن بالها ما يفكِّر به المسلمون، فراحت هي من جانبها أيضاً تُعِدُّ الخطط لحماية قوافلها، والمحافظة على تجارتها، متخذةً لذلك سائر الوسائل، وجميع تدابير الحيطة، فزادت الرجال الذين يرافقون القوافل ويحمونها، وغيَّرت بعضَ الطُّرق التي كانت تسلكها في العادة، وزادها تيقّظاً وحيطة، ما فعله عبدالله بن جحش بإحدى قوافلها الصغيرة القادمة من الطائف، إذ رأت في فعله أولَ تباشير الخطر لقطع طرق التجارة عليها، وحصرها في داخل مكة، ما جعلها تتخذ وسائل الحماية وتنفِّذها فعلياً.

وصادف أن خرجت في هذه الفترة قافلة يقودها أبو سفيان بن حرب، كانت من أعظم قوافل قريش، وأجمعها لأموالها، حتى أنَّ أهل مكة بأسرهم كانوا يشاركون في تلك الأموال، التي قدِّرت بحوالي خمسين ألف دينار.. وهذا ما جعل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يخرج بنفسه في غزوة العُشيرة، يريد تلك القافلة، بعدما تناهت إليه أخبارها، ولكنها فاتته في

ذهابها إلى الشام إذ تأخر عن إدراكها يومَين.. إلا أنه، منذ ذلك الحين، قدَّر المدة التي تستغرقها رحلة تلك القافلة، وعيَّن الوقت الذي تعود فيه إلى مكة.. فبات في المدينة ينتظر اقتراب الموعد، وفي الوقت نفسه، بثَّ العيون ترصد أخبار تلك القافلة، حتى إذا جاءه من يخبره بأنها قد فَصَلتْ من بلاد الشام عائدةً إلى مكة، لم يتوانَ أبداً عن جمع أصحابه وإبلاغهم عزمه على الخروج لاعتراض أموال قريش...

ثم دعا إليه جميع المسلمين في المدينة، من مهاجرين وأنصار، يحضُّهم على الخروج ويقول لهم:

«هذه عِيْرُ قريشٍ [= أي دوابُّهم] وفيها أموالُهم وقوّتُهم، فاخرجوا إليها لعلَّ الله يُغْنِمكُمُوها»...

وأمرَ من فَورِه كلَّ من يريد الاشتراك في ذلك الخروج بأن يتهيأ له ويستعدّ، ثم بعث اثنين من المسلمين ـ طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زيد ـ يتسقّطان الأخبار ويوافيانه بها.. وحرصاً منه، صلى الله عليه وآله وسلم، ألاَّ تفوته القافلة في إيابها كما فاتته في ذهابها، لم ينتظر عودة مبعوثيه، بل جمعَ الرجال بعد أن أتَمَّ الاستعداد، لم ينتظر غائباً أو يَحُثّ متراخياً. وبذلك أسرع مَنْ أسرع ملبّياً، وأبطأ من أبطأ متخلّفاً، وفي ظن هؤلاء المتخلِّفين، أنها غزوة ويعود رسولُهم والمسلمون كما خرجوا من غير أن يقع قتالٌ أو تدور حرب، تماماً كما كان يحصل في الأيام السالفة. على أن فريقاً منهم وقد رأى جمعاً كبيراً من إخوانه يلتف حول رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، جاءه التصور بأن عِيْرَ قريش لا تستأهل أكثر من هذا العدد من الرجال وأنه لا حاجة به إلى الخروج فقعد مع القاعدين...

ولقد أراد نفرٌ من غير المسلمين أن يندسَّ في الركب، وأبدوا في الظاهر عوناً لمحمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنهم كانوا يخفون في الباطن مآربَ خاصةً وهي الطمع في الغنيمة الوافرة. إلاَّ أنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أدرك الغاية الدنيئة التي يرمي إليها هذا النفر، فطلب منهم واحداً من أمرين: إما الدخولُ في الإسلام والخروجُ معه إذا أرادوا هذا الخروج، وإما الاستغناء عن مرافقتهم. وأسقِط في أيدي هذا النفر، إذ لم يكونوا ليتوقعوا أن يَجْبَهَهُم محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، بمثل هذه المجابهة، فولّوا من وجهه هاربين. وبذلك أَمَّنَ الرسول العظيم الخلاص منهم.. وحلَّت الليلة الثامنة من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، فسار رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على رأس تلك الفئة القليلة

المؤمنة من المسلمين، بعدما استعملَ على المدينة أبا لُبابة وأوكل إلى عمرو بن أم مكْتُوم البقاء للقيام بالصلاة في الناس.

وخَطا الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أول خطوة أمام جنوده البواسل، وهو يدعو: بسم الله، وعلى بركة الله... فردّدَ الجمع من ورائه:

«بسم الله، وعلى بركة الله». ومضى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كَأَمضى من السيف في عزمه.. ولم تَطُلِ المسيرةُ بالركب أكثر من ميلٍ عن المدينة، عندما بلغ بيوتَ السُقْيا، فأمر بالتوقف، والنزول على الماء، وطلب إلى رجاله الارتواءَ من تلك المياه العذبة، وأخْذَ قسط من الراحة..

وتعجب الرجال من هذا الأمر، إذ لم يكن التعب قد بلغ منهم حدّاً يتطلب راحةً من هذا القبيل. ولكنَّ نيَّة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كانت تتجه إلى غير ما ظَنّوا. فقد اعتزم، وقَبْلَ التوغل بعيداً في الفيافي، أن يستعرض من خرجوا معه، حتى يتبين مَنْ كان قادراً على حمل السلاح، قوياً على خوض القتال، ومن منهم لا قِبَلَ له بذلك.. ولم يُخفِ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، مُرادَه ذاك عن مرافقيه، فطابت نفوسهم للفكرة واستحسنوها كثيراً..

وبالفعل قامَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالاستعراض الذي أرادَ، ففوجىء أنّ بين الرجال عدداً من الفتيان كانوا صغاراً في السن، لا يقوَوْن على تحمُّل وعثاء السفر، فكيف بهم في تحمّل عبء القتال، إذا ما فُرض عليه، صلى الله عليه وآله وسلم، خوضُ غماره؟!..

وجَدَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أولئك الفتية، فجمعهم إليه، وأخذ يمسَحُ على رؤوسهم وأكتافهم بيدَيه الشريفتين، وهو يواسيهم بحُسْن حديثه، وبشاشة وجهه، حتى طابت نفوسهم، وقبلوا بالرجوع إلى بيوتهم، فدعا لهم بالتوفيق وطلب إليهم العودة من فورهم، فلبّوا راضين، طائعين.. إلاَّ واحداً منهم قد ذهب واختبأ وراء أخيه، وهو يجهش في البكاء.. وعَرَف الرسول بأمره، فجيء به إليه فسأله من يكون، فأجابه: «إني عمير بن أبي وقّاص يا رسول الله».. وسأله الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عن سبب بكائه، فعرف منه أنه لا يرغب في العودة إلى المدينة مع رفاقه، بل لقد اعتزم الخروج مع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ما يزال مصمماً على هذا العزم، وأن ما يُبكيه هو حرمانه من ذلك الأمل

الذي يُراوده إلى جانب خوفه من مخالفة أمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.. واستكبر الرسول العظيم هِمَّة هذا الفتى، وتلك الإرادة الصلبة التي حملته على اتخاذ قراره رغم حداثة سنّه، فأجاز له المسير..

وتتصدَّر على صفحات الزمان حكاية هذا الفتى، وهو يتوارى عن عيون رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد استعراض رجاله في تلك المحطة على بيوت السُّقيا، فيسأله أخوه سعد بن أبي وقّاص:

ـ ما بالك يا عُمير تختبىء وأنت واجِفٌ على هذا الشكل؟.

فيجيب عُمير: إن خوفي يا أخي أن يكون صغرُ سني هو الحائل دون خروجي مع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا راغبٌ في هذا الخروج لعلَّ الله يرزقني الشهادة في سبيله وإعلاء كلمة دينه!..

فيقول سعد: ولكنَّ خروجك يا أخي دون علم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، خطأٌ لا يقبله منك الله سبحانه، فقم إلى النبيّ الكريم وأخبره بما تشتهي نفسك!..

فيقول عمير: ولكني أخاف أن يردَّني على أعقابي..

فيقول أخوه: قلت لك: اذهب إليه يا عمير، إنه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي يقرِّر ما يراه حقاً، ولن يبخل باللطف على إنسان، صغيراً كان أم كبيراً، إن أرادَ وجْهَ الله سبحانه وتعالى..

وكان للفتى الذي لَمّا يَزَلْ بَعْدُ في السادسة عشرة من عُمره ما أراده.. فقد حضر غزوة بدر، وقاتل يبتغي لقاءَ ربِّه شهيداً، فلم يبخلْ عليه ربُّه سبحانه وتعالى بتلك الشهادة، بل نزلت الملائكة تحفُّ به يوم بدرٍ، وترفعه على أجنحة الإيمان إلى السماء، راضياً مرضيّاً، ليترك على الدهر أنشودة الشهادة تتغنَّى بها نفوسُ شبَاب المسلمين قبل حناجرهم، وتهوي إليها أفئدة المسلمين صلاةً قدسيَّةً لمن أرادَ أن يُخَلَّد في حياة الطمأنينة الأبدية، وفي نعيم السعادة الأزلية.. فطوبى لك يا عُميرُ تنالُ وسامَ شرف الشهادة في سبيل الحق..

تلك حكايةٌ من حكايات البطولة في الإسلام، لا نذكرها هنا للتفاخر وحسب، بل لنؤكد بأن المسلمين عندما آمنوا حقّاً بدينهم، وعرفوا أهميته في حياة بني الإنسان، وقدره في تربية هذا الإنسان، أقدموا على ما أقدموا عليه من بطولاتٍ وتضحياتٍ ردَّدت أصداءَها أطرافُ الدنيا،

حتى جاءت العهودُ التي حاولت طمس معالمها وآثارها، ليستقيم الشرُّ بدل الخير، ويستشري الباطلُ بدلَ الحق، على ما تشهده جوانب العالم الأرضي في وقتنا الراهن..

إذن فقد باتت الغاية واضحةً من الوقوف على بُعد ميلٍ من المدينة! فخروج المسلمين على ذاك النحو الذي خرجوا فيه، كان يخالف أبسط قواعد التنظيم للعمل الجماعي، ولا يأتلف أبداً مع طبيعة وظروف السير في أرض هي للعدو، وقد تجعله يهاجم تلك الجماعة المسلمة بصورة مفاجئة، فيُنزِلُ بها، وهي على غير أُهبة للقتال، خسارةً كبيرةً، قد تأتي بأسوأ النتائج على مسيرة الدعوة ككل.. خصوصاً وأنه كلَّما بَعُدَ المسلمون عن المدينة، ازداد الخطرُ من حولهم، لا من قريش وحدَها، بل من جميع قبائل العرب التي تقطن تلك النواحي، والتي استطاعت قريش أن تقنعها بوجوب محاربة الإسلام حفاظاً على دينها ودين آبائها وأجدادها.. من هنا عَمَدَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى تنظيم صفوف رجاله على شكل يمنعُ مفاجأة العدو وغدره، فجعل له مقدمةً على رأسها الزبير بن العوام، ومؤخرةً عليها قيس بن أبي صعصعة، ثم عقد ثلاث رايات: رايةً بيضاءُ يحملها مِصعَب بن عمير، ورايتين سوداوَين يحمل إحداهما علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، والأخرى سعد بن معاذ من الأنصار.

وهكذا، وبمثل هذا التنظيم، جعل الرسول العظيم من رجاله جيشاً له عدَّتُهُ التي هي الإيمان القوي بالله تعالى قبل كل شيء، وله عَدَدُه الذي يتألف من هؤلاء الرجال، الذين لا يزيدون على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. ولكنّهم كانوا يُقَدَّرون بآلاف مؤلّفةٍ، لِمَا تمتلىء به نفوسهم من القوة والشجاعة، ولما تجيشُ به صدورهم من العزم والصلابة... أما وسائل النقل لذلك الجيش، فكانت هزيلة، وهي لا تتعدى في مجملها أكثر من فرسين، واحدة للمقداد بن الأسود، وأخرى للزبير بن العوام، ومن الإبل سوى سبعين بعيراً.. ولذا أمر رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يتعاقب كلُّ اثنَين أو ثلاثة بعيراً، فيركب الواحدُ مرحلةً أو بعضَ مرحلةٍ، ثم ينزل ليركب رفيقُهُ مرحلة أخرى.. وبذلك كان لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ومَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغنويّ، بعيرٌ.. وكان لحمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة، ورجل يدعى آنسة، بعيرٌ.. كما كان لأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وعبدالرحمن بن عوف، بعير...

ورأى صاحبا الفرسَيْن رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يتعاقب مع رفيقَيه على بعيرهم، فجاءا إليه يرجوانه أن يأخذ فرس أحدهما، فيكون راكبَهُ طول الطريق، فأبى عليهما ذلك. ومثلهما كان صاحباه على البعير، عليٌّ (رضي الله عنه) ومرثَد يتوسَّلان إليه أن يبقى في ركوبه، وأنهما يحتملان المشي فيأبى إلا أن يكون مثل أي فردٍ في جيشه، لا يتميّز عن أحدٍ بخصَيصةٍ قَطُّ، قائلاً لهما، كما هو معهود منه في صفاته الإنسانية الرائعة، وفي سويّ خُلُقِه، وعظيمِ إيمانه: «ما أنتما بأقوى مني على المشي، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما»..

تلك هي روعة الإسلام، في شتى الأمور واختلافها، فالكلُّ سواءٌ في الواجبات كما أن الكلَّ سواءٌ في الحقوق، ورسول الإسلام نفسه، لا يخرج عن هذا النهج السَويّ المطلق... فالإسلامُ هو المبدأ.. وتطبيقه واحدٌ على الجميع، بما يتوافق ومصلحة الجماعة الإسلامية... وتلك هي الحقيقة التي تُعايشُ كلَّ زمان ومكان، سويةً عادلةً، ثابتةً، لا يطرأ عليها تغيير، ولا يخالطها تبديل، أقامها الإسلام قاعدةً، وسنَّها الرسول العظيم، صلى الله عليه وآله وسلم، سلوكاً، فكان طبيعياً أن تنتظم تلك الحقيقة، جيشَ المسلمين في مسيرته، وكان طبيعياً أن يكون قائد هذا الجيش، مثالاً لذلك التطبيق العمليّ في المعاملة بين أفراده...

وهكذا، وبمثل هذه الروحية العالية، انطلق أولُ جيش للمسلمين من محلة آبار السُّقْيا في تشكيلٍ مفتوح تحقيقاً لغرضين اثنين: السرعة في السير، وأمْنَ مفاجأة العدو في انقضاض غادر... وزيادةً في الحرص، بعث الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، اثنين من أفراد الجيش، يتقدّمانه بمهمة استطلاعية، وكانا بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء.. وانطلق الرجلان يتسقّطان الأخبار عن قافلة قريش العائدة من الشام بقيادة أبي سفيان بن حرب، فلم يقفا على خبرها، ولكن انتهى بهما السير إلى ماء بَدْر، فنزلا عليه يرتويان، ويأخذان قسطاً من الراحة، بعد ذلك التعب الذي أنهكهما في قطع المسالك الوعرة، واجتياز الطرق الصعبة، ولكنهما لم يلبثا في راحتهما تلك إلاَّ قليلاً، حتى استرعى انتباههما حديث جاريتين كانتا على الماء تستقيان، عندما قالت إحداهما للأخرى:

ـ لكِ أن تلوميني يا أختاه على ما قصَّرتُ في أداء حقِّك عليّ!.

ـ أنا لا أقصد لوماً، ولكن طال الأجل كثيراً...

ـ حقاً ما تقولين، ولكنْ أحسِبُ أن الفرج قد قرب، وسوف أفي دينك عليَّ قريباً..
ـ ولكن كيف؟
ـ لقد سمعت بأن العير التي يقودها أبو سفيان بن حرب سوف تصل غداً أو بعد غد، وهي عندما تمُرّ من هذه الناحية سوف أعرض نفسي على خدمة مَنْ فيها من الرجال، فأتقاضى أجراً على ذلك، وأدفع لكِ ما بذمَّتي...
ـ إذن أصبحت قريبةً قافلةُ قريش من هنا!.
ـ نعم يا أختاه، وآمل أن يستخدمني ابن حرب وينقُدَني أجراً كافياً...
ـ أرجو ذلك...
وسمع المستطلعان هذا الحديث، فقاما من فَورهما، يُسرعان في العودة لملاقاة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وإخباره بقرب وصول القافلة..
وإذا كان محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، قد حسب الزمن الذي تعود فيه عير قريش وهي تحمل أكبر تجارة لها، فإن أبا سفيان بن حرب لم ينسَ بأن المسلمين قد خرجوا في طلب قافلته وهي ذاهبة إلى بلاد الشام، ولذا فقد تحسَّب هو أيضاً أثناء العودة من أن يكون المسلمون بانتظاره في ناحية من طريق تلك العودة، فأرسل يقدِّم من يتقصَّى الأخبار، حتى إذا عرف بأن محمداً قد خرج مع جماعة من أصحابه لاعتراضه، خاف عاقبة الأمر إذ لم يكن في حراسة العير إلاَّ أربعون رجلاً، فاستأجر ضَمْضَمَ بن عمرو الغفاري وبعثه مسرعاً إلى مكة ينبىء قريشاً بما اعتزمه محمد وأصحابه من اعتراض قافلتهم، ويستنفرهم على عمل سريع لحمايتها، على ألاَّ يترك وسيلةً تثير القوم أو تستنهض هِمّتهم للغوث والنجدة... واتخذ ضمضمُ لذلك كل مظاهر الصارخ الملهوف، إذ ما إن وصل من مكة إلى بطن الوادي حتى قطع أذنَيْ بعيره! وجدعَ أنفه، ثم وقف وقد شقَّ ثوبَهُ وجَعَلَ يصيح:
«يا معشر قريش! اللطيمةَ اللطيمة! (وهو يقصد مالهم وتجارتهم).. أدْرِكوا أموالكم مع أبي سفيان فقد تعرض لها محمد وأصحابه..
يا أهل مكة! فالغوثَ الغوثَ!... إن لم تهبُّوا جميعكم فقدتُم الرزقَ والعيش!...
يا معشر قريش! أين أنتم والطيبُ والحريرُ والنفيسُ، فقد ضاع كل ذلك منكم، وأنتم هاهنا قاعدون»!...

وتناهى صياحُ ضمضمَ إلى مسامع أهل مكة، فهبَّت قريش دفعةً واحدةً، تتراكض من كل جانب، وهي تشدُّ على خيولها وإبلها، وتتمنطق بدروعها وسيوفها، وكان من لم يجد رمحاً ولا سيفاً امتشق عصاً، أو حمل مِقلاعاً، وأخذوا يتنادون ويتأهّبون للجيش واجتمعوا بعد وقت قصير، وقد وقف على رأسهم أبو جهلٍ، عمرو بن هشام يزعق فيهم كالغراب قائلاً:

«وَيْحَكُمْ يا معشر قريش!... أتتركون محمداً يظن بأنها مثل عير ابن الحضرميّ؟ كلاَّ والله ليعلمنَّ أنها غير ذلك!... فهيا بنا إليه لِنريهُ وأصحابه من هي قريش، سادة العرب»!.

... واجتمعت قريش وهي تتلهّف لملاقاة محمد لا لتردَّه عن أموالها فقط، وإنما لتظفر به بعد أن نأى عن أذاها، وتزيل الهمَّ الذي باتَ يُقِضُّ مضجعها، ويحرمها لذة العيش، فيما تسمع من أخباره في المدينة. وراح أشراف قريش وأبناؤها يستعدون للقتال، ويتأهبون للانطلاق، ومن لم يَقدِرْ على الخروج أَنابَ عنه من يقوم عنه بديلاً، فتخلَّف بذلك أبو لهب، بعدما بعث مكانه العاصَ بن هشام بن المغيرة مقابل أربعة آلاف درهم كانت له ديناً عليه، ولم يكن قادراً على إيفائها بسبب إفلاسه. كما حاول التخلّف أميَّة بن خلف، لكبر سنّه وفتور همته، فقعد بجانب المسجد يشهد استعداد القوم، ولكنَّ عُقْبةَ بن أبي مُعيط وأبا جهل بن هشام، لم يتركاه وشأنه، بل ذهب الأول وجاء بِمجْمَرةٍ فيها بخورٌ وجاء الثاني بمِكْحَلةٍ ومِرْوَدٍ، فقال له عقبة وهو يضع المجمرة أمامه:

ـ يا أبا عليّ استَجْمِرْ فإنما أنت من النساء.

وقال له أبو جهل وهو يأبى إلاَّ أن يناوله المكحلة بيد:

ـ اكتحلْ أبا علي فإنما أنت امرأة.

وطار صواب أميَّة بن خلف من تهكُّم الرجلَين وازدرائهما، فقام يُلملِمُ شَتاتَ نفسه، ويخرج مع القوم، حتى لم يبقَ أحدٌ في مكة قادراً على القتال إلاَّ وخرج...

وسارت قريش تريد ملاقاةَ أبي سفيان للاطمئنان على أموالها.. أمَّا أبو سفيان فإنه، بعد أن بَعَثَ ضمضمَ لاستنفار قريش، سبق العِيْرَ ليستكشف الطريق بنفسه، مخافَةَ أن يداهمه محمد وأصحابه على حين غِرَّة.. فلما قَرُبَ من بدر، وردَ الماء، فإذا به يجدُ عليه مَجْدِيَّ بن عمرو، فسأله إن كان قد رأى أحداً في تلك الناحية منذ فترة؟!.. فأجابه مجديُّ بأنه رأى راكبين قد أناخا على تلٍّ هناك بعدما استقيا، ثم لم يلبثا أن رحلا.. فأتى أبو سفيان إلى

حيث أشار الرجل من مُناخِهما، وراح يبحث عن أثرهما، فوجد بَعْراً أخذه وفركه بيده فعرف أنه من علائف يَثْرِب، فقال في نفسه:

«هذه عيونُ محمّدٍ قد وصلت إلى هنا، وقد تتقصَّى أخبارنا»!..

وقفل مسرعاً إلى قافلته، يحوِّل وجهةَ العِيْر عن بدر وقد تركها إلى يساره، ويتوجه بها ناحية ساحل البحر، وبذلك استطاع أن يبعد ما بينه وبين محمد وأن ينجو بأموال قريش..

أما النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان رَجُلاهُ قد عادا وأخبراه بما سمعاه عن قرب قدوم القافلة، فأغذَّ السيرَ مع جيشه حتى بلغوا وادياً يقال له ذفران نزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبرُ بأن قريشاً قد خرجت على بِكْرةِ أبيها، برجالها وفرسانها، ليمنعوا عِيْرَهم. إذ ذاك تغيّر وَجْهُ الأمر، وأصبح محصوراً بلقاء قريش أو عدم لقائها، لا بقافلةِ أبي سفيان وما تحمله من أموال!...

وجَلَسَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، مفكِّراً قبل أن يعرض الأمر على المسلمين..

فهل يعود من حيث أتى؟!...

وإن فَعَلَ ألا يجعل ذلك قريشاً تطمع به، ثم تطمع به اليهود أيضاً في المدينة؟.

وبماذا يعتذر إذا عمدت اليهود إلى الاستهزاء بالمسلمين، وما كان لهم من موقف من قريش؟.

ولو فرضَ ورأى في المهادنة سبيلاً إلى تهيئة الأجواء التي يريد فهل يقدر أن يتّخذ موقفاً حاسماً لا يكون فيه جدال وكثرة أقاويل قد تُضعِف موقف المسلمين، أو تؤثِّر على انتشار الدعوة؟!..

ورأى أن يستطلع رأيَ المسلمين في ما يجب الإقدام عليه، فوقف في جنده وأخبرهم بفرار أبي سفيان بالعير، وبخروج قريش وأهل مكة، فقام المقداد بن عمرو، متكلماً بلسان المهاجرين وقال: «يا رسول الله، امْضِ لما أرادَكَ الله فنحن معك، ولا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: «اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلاَ إنَّا هاهُنا قاعدون؛ بل نقول لك: امْضِ لأمرِ ربِّك فإنا معك مقاتلون»...

فدعا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، له وللمهاجرين بالخير.. ثم سكت، فخيَّم السكوت بدوره على المسلمين.. ولكنَّها برهة عَبَرتْ، وعاد الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس»..

ومَن يقصد رسولُ الله بقوله هذا؟!..

فالمهاجرون وَضُحَ موقفهم، إنهم على استعداد للقتال، وقد أبداه صراحةً المقداد بن عمرو.. إذن بقي الأنصار، والرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يعنيهم هم!.. نعم إنه يريد موقف هؤلاء الذين بايعوه يوم العَقَبَة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، ولم يبايعوه على قتالٍ خارج مدينتهم، فلهم الحقُّ في اتخاذ الموقف الذي يرَون، ولا غضاضةَ عليهم، ولو امتنعوا عن القتال!.. ولكن هل يفعلون؟!..

وأحسَّ الأنصار أن رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يريدهم، فقام سعد بن معاذ، صاحبُ رايتهم، وقال له:

«لكأنّك تريدنا يا رسول الله»؟.

قال الرسول العظيم: «أجل».

قال سعد: «لقد آمنا بك وصدَّقناك وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. ولعلّك يا رسول الله تخشى ألا تكون الأنصار ترى عليها إلاَّ نَصْرَكَ في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار: فاظعنْ يا رسول الله حيث شِئت، وصِلْ حَبْلَ مَنْ شِئتَ، أو اقْطَعْ حبلَ من شئت وسالِمْ وعَادِ من شئت، وخُذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركت، وما أَمرتَ فيه من أمرٍ فأمرُنا تَبَعٌ لأمرك.. فامضِ لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لخضناه معك، وما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى فينا عدوَّنا غداً. إنَّا لَصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللِّقاء. لعلَّ الله يريكَ منا ما تَقَرُّ به عينُك. فَسِرْ بنا على بركة الله».

ولم يكد سعدٌ (رضي الله عنه) يُتِمُّ كلامه حتى أشرق وجهُ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بالمسرَّة، فقال مخاطباً الجيش: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفَتين. والله لكأني الآن أنظر إلى مَصَارِعِ القوم».

وتأهّبَ المسلمون مرتحلين عن وادي ذَفِران، حتى بلغوا مكاناً قريباً من بدر[1]... فسألوا من لاقوه في تلك الناحية عن زحفِ قريش، فعرفوا أنهم ينزلون غير بعيدٍ من هناك.. فبعث

---

1 بدر هي سهلٌ رملي ما بين مكة والمدينة، وعلى مسافة تقارب المئة والستين كيلو متراً من المدينة، وتحدُّ هذا السهل تلالٌ شديدة الانحدار من الشمال والشرق، وكثبان رملية من ناحية الغرب. أما جنوبه فينتهي بمنحدر صخري منخفض..=

الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عليَّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن بي وقاص (رضي الله عنهم) في نفرٍ من الصحابة إلى ماء بدر يتلمّسون له أخبار قريش.. ولم تلبث هذه الطليعة من جنود المسلمين أن عادت وهي تصطحب غلامَين، قد يُفيدان بمعلومات يُعطيانها..

وآنس هذان الغلامان من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حبّاً يفيض من قلبه على حديثي السن، فوقفا بين يديه يجيبانه بما يعرفان عن قريش، فسألهما عليه وعلى آله الصَّلاة والسلام عن مقام القوم، فقالا له: إنهم في الناحية الأخرى وراء ذاك الكثيب من الرمال (وأشارا إلى ما يريدان أن يدلاَّه عليه)..

فقال لهما الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «وما عدد القوم؟»..

فأجاب الغلامان بأن في القوم عدداً كثيراً، ولكنهما لا يعرفان مقداره..

فقال لهما: كم ينحرون كل يوم؟.

فأجابا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الجزور.

وأدرك النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من ذلك أن عدد قريش يتراوح بين التسعمائة والألف من المقاتلين.. إذن فالأمرُ خطيرٌ على المسلمين.. إن قريشاً تزيدهم في العدد ثلاثة أضعاف.. ومع ذلك العدَدِ لا بد أن يكون قد خرج أشراف قريش، وسائر رجالاتها من أشداء العزم، وأقوياء الشكيمة، وهذا كله سيجعل القتال على المسلمين شديداً، لعدم وجود التكافؤ بينهما لا في العدد ولا في العتاد.. ولكن!.. وأيّاً كانت القوة التي بلغتها قريش، ومهما كان شأنها عظيماً، فهل هي تحوز تلك الشعلة النورانية التي تتوهج بها أفئدة المسلمين، والتي يحيلها الإيمان، ساعةَ الوغى، شظايا لاهبة، تذيب الحديدَ على أجسام المشركين، لتنفذ إلى قلوبهم فتحرقها وتجعلها رماداً تذروه الرياح في كل جانب؟!..

لا!..

إن قريشاً لا تملك هذه القوة..

= ينساب في واديه جدول ماء، يعبره من الشرق إلى الغرب، ويتقطَّع هذا الجدول في أماكن متفرقة، فيشكل آباراً كان المسافرون يقيمون من حولها سدوداً صغيرة لتصير على شكل أحواض، يقضون منها حاجاتهم ويسقون مطاياهم.
وقد جعل الماءُ من بدرٍ محلةً مشهورةً، فكانت تقام بها مواسم العرب، يجتمعون فيها مرة كل عام لإقامة سوق واسعة يتمّ فيها تبادل السلع والبضائع على اختلافها.

لأن هذه القوة للمسلمين وحدهم.. فهم يملكون نورَ الإيمان الصادق بالله تعالى، ومع هذا الإيمان فلا خوف من عديدِ جُندٍ، ولا بأسَ من كثرة عتاد.. فأصحابها مشركون، وكفى بهم شركاً يؤدي بهم إلى الخذلان والخسران...

ولكنَّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إنسانٌ واقعيٌ، وقائدٌ حكيم، ولا يقبل بأن يدفع بجيشه الفتِيِّ إلى معركة سوف تكون حامية الوطيس قبل أن يطلعه على الحقائق تامة، وبخاصّةٍ في إظهار الفروقات بينه وبين جيش المشركين.. فأخبرهم بعزمه الثابت بما عند قريش، وأبانَ لهم نقاط قوتها ونقاط ضعفها، كما أوضح نقاط ضعف المسلمين من الناحية المادية، وقوتهم من الناحية الإيمانية، ثم نبَّههم إلى أن مكة قد ألقت إليهم بأفلاذ أكبادها برمَّتها، وهم يتربصون بهم العداوة والبغضاء رغم ذهاب عيرهم، ونجاة أموالهم...

وهذه المصارحة الحكيمة من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نفذت إلى القلوب فزادتها قوةً وإيماناً إلاَّ بعض القلوب الضعيفة فقد دخل الشيطان يوسوس في نفوس أصحابها ويوهنهم ويُريهم ما هم عليه من ضآلة العدد، وضعف الأُهبة، وقلّة السلاح بينما يزين لهم ما تتمتع به قريش من قوة في العدد والعدّة، واستعدادها للقتال وأنها لم تخرج إلاَّ ونية الحرب غايتها القصوى... وحيالَ هذا الفارق ماذا يمكن أن تكون النتيجة لو التقى الجيشان، ودارت رحى الحرب تطحن الرجال والأبطال؟!.. ألا تكون لصالح قريش حتماً؟!...

وزادَ تلك الجماعة القليلة من المسلمين نفوراً من القتال وجودُهم في مكان بعيد عن الماء، يفصل بينهم وبينه كثيب من الرمل لا يُمكن قطعُه، إذ تغوص فيه الأقدام، فلا تقوى على المشي... ولم تعلن هذه الجماعة المخاوف التي امتلكتها بل راحت تتحيّن الفرصة المواتية لإظهار ما أضمرت.. فإذا انقضى بعض الوقت، وفقد منهم الماءُ، وأعوزتهم الحاجة إليه للشُرْب وللوضوء والصلاة (إذ لم يكن قد رُخِّص بعد بالتيمُّم)، عادَ الشيطان من جديد يوسوس في الصدور، ويلقي الرعب في القلوب، مما قد يصيبهم من عطش يقطّع الأمعاء ويهدُّ القوى، فيكون السبيل مفتوحاً للمشركين كي يتحكَّموا في مصيرهم كيفما شاؤوا.. عندها ظهر أصحاب تلك النفوس الضعيفة لأنهم لم يعودوا يطيقون اصطباراً، وتحملاً على ما يداخلهم من تخوّف، وراحوا يجادلون النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في فائدة قتال لا تكافؤَ فيه بينهم وبين الأعداء، وكانت حججهم قد تركّزت حول حاجتهم إلى الماء، وهو مادة الحياة للإنسان، فكيف إذا وجد في الصحراء وفي ظرف مثل ظرفهم! وأي جيش يقدر على

مواجهة عدوٍ إذا فقد الماء؟ أفلا يجعله ذلك يفقد أعصابه قبل فقدان حياته؟ وأية نفوس يمكنها أن تدخل معركةً وهي مزعزعةٌ مهزومةٌ في داخلها، لِمَا يخالطها من مثل هذا الحرج، ومن مثل هذا القلق؟!...

لقد برزت تلك الفئة في جيش المسلمين تريد العودة إلى المدينة بلا قتال، وفيها نزل قول الله تعالى:

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}[1]...

وقوله سبحانه وتعالى:

{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}[2].

وإذا كانت للشيطان غوايةٌ تمكِّن له أن يرميَ أقوى النفوس بسهام الضعف، وأن تصيبَ الجماعةَ المتلاحمةَ المتكاتفة بالخوَر والهوان، فإنَّ سلطان الحق يبقى أقوى وأشدّ، وإنّ فِعْلَه هو الغالب في نهاية المطاف..

لقد أمكَنَ للشيطان أن يُدخل الشك في نفوس جماعة من جند المسلمين وتربَّعَ يقهقه في تلك الساعة، لشدة نشوة انتصاره، إلاَّ أن قهقهته ما لبثت أن تحولت إلى صراخٍ وعويل، وهو يرى نَجْدةَ السماء تجيء المسلمين، إذ أنزل الله سبحانَه عليهم المطر مدراراً، فتأمَّن لهم الماء، يشربونه رقراقاً صافياً، ويملأون به قُرَبَهُم، ويسقون به إبلهم، ثم يقومون متطهرين مُصَلّين، وهم يشكرون الله على نعمائه، ويلعنون الشيطانَ على وسوسته..

وينتهي المسلمون من صلواتهم، فيشدون الرحالَ من جديد، إذ بلَّل المطرُ الرملَ تحت أقدامهم، فتلبَّد وصار السيرُ عليه سهلاً ممكناً لا يثقل الأقدام ولا يتعب الأجسام، فعاجلوه قطعاً حتى لا يجفّ تحت أشعة الشمس، وما زالوا يغذُّون السير، حتى وصلوا واديَ بدر، فنزلوا في العدوة الدنيا مما يلي المدينة.. وهم يريدون راحةً مما أصابهم من جهد، واطمئناناً مما أقلقهم من حرج.. إذ كان صعباً عليهم أن يروا بين صفوفهم جماعةً داخَلَ قلوبَها الضعفُ واعتوَرَ عزيمتها الوهنُ، وكانت قاسية، حرجةً تلك اللحظات، التي استبدَّ بها

---

1 سورة الأنفال، الآيتان: 5 – 6

2 سورة الأنفال، الآية: 7.

الخوف في تلك الجماعة حتى رأت العودة دون ملاقاة قريش... أما الآن وقد ركن إليهم السكون، فإنَّ في ذلك عزاءً لهم، وإن كانوا لا يزالون يشعرون بأن الاطمئنان غير كامل.. إذ ما زال في الأجواء تلبُّد غيومٍ كثيف، ولكنهم لا يدرون مصادره..

وفيما هُم وتلك الهواجس المقلقة يتصارعون، إذْ أصابتهم غشيةٌ من النعاس فانقلبوا نياماً..

نعم، ناموا فجأة، وبقدرة قادر، خيَّمَ عليهم سُباتٌ عميق..

ناموا وكأنهم لا يحفِلون بأيِّ أمرٍ من أمور الدنيا، وكأنهم في بيوتهم وبين عيالهم وأبنائهم، لا بين أذرع الفَلاة أو في أجواء الحرب والقتال..

.. ثم صَحَوْا من النوم!...

الله أكبر، ما هذا النعاسُ الذي غشاهم، فاستفاقوا من بعده، وحالهم غيرُ حال!..

إنهم جميعاً، وبلا أدنى ريبٍ أو شَكٍّ يشعرون بأنّ عليهم مواجهة قريش، وإعطاءها درساً في الذل والهوان لا تنساه أبداً ما عاشت!...

فأين إذن ذلك الخوف الذي استبد بهم حيناً؟!..

وما هذا الأمن وهذا الأمان اللذان يرفرفان بأجنحتهما فوق رؤوسهم؟!

وأين ذلك القلق وقد تلألأت أشعة الشمس تغطيهم طمأنينة وسعادة؟!..

وأين ذلك الخور والتعبُ اللذان رافقاهم طوال الطريق، ونزلا معهم في كل منزلة نزلوها، ونفوسهم الآن تطفح بالصلابة والعزم؟!..

وأين تلك الوسوسة التي زيّنت لهم الإياب إلى الديار، وها هي الشهادةُ تشدُّهم إلى ملاقاة العدو؟!...

نعم أين ذلك كله، وقد بات نَسْيًا منسياً!...

صحيح إنَّ المطر قد أذْهَب من طريقهم بعض الصعاب التي ظنوها كأداء، وبدَّدَ كثيراً من الغيوم التي تلبّدت في سمائهم سوداءَ، ولكنَّ هذا النوم الذي أتاهم، قد جعلَ الأمور تختلف اختلافاً كلّياً. فهو لم يُزِحِ الأثقالَ عن صدورهم وحسب، ولم يحطّم كل حاجز أو عائق وقف يَحولُ بينهم وبين هدفهم الذي يريدون، بل جعلهم كتلةً واحدةً، وإن تمثلت في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً.. تلك هي قدرة الله، وآياته العظمى دليل ساطع، على تبدُّل حال المسلمين، إذ نزلت تلك الآيات تنطق بحكمته عزَّ وجلَّ:

{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}[1].

الله أكبر ما أعظم حكمته، وما أجَلّ قدرته..

بأمره الجليل، وفي برهةٍ من سناء تقديره، تغيرت الأحوال، فعادَ المسلمون إلى حقيقتهم، مسلمين حقاً لله، وجنوداً لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لا شيء في كيانهم، إلاَّ حبّ الله العظيم وطاعة رسوله الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم..

أَلا ما أجمَلَ هدأة النفس بعد قلق يصيبها، وما أروع عودة اللُحمة إلى صفوف الجامعة بعد علامات تنذر بالتشتت والتصدع.. وليس عيباً ما يحلُّ بالإنسان في ساعة ضعف يخذله بها الشيطان ما دام نداءُ الحق يبقى قائماً في داخله، وهو وحده كفيل بأن يعيده إلى حقيقته، وأن يقدِّم له سُبُل الغلبة على ضعفه، فيطرد الشيطان خاسئاً خاسراً.. ولقد مكّن الله سبحانه وتعالى للمسلمين في تلك الواقعة من قوة الإيمان ما يستطيعون به أن يطردوا الشيطان ويُلحقوه بصفوف المشركين كي يزيدهم هَوَساً وضياعاً.. وإنَّ في نفوسهم ما تمتلىء به استجابةً لندائه الخبيث.

نعم، لقد أذهبَ الله سبحانه رِجْزَ الشيطان عن المسلمين، فأسرَعَ اللعينُ إلى جُنْد المشركين يزيّن لهم أعمالهم، ويصوّر لهم خروجهم من مكة على تلك المظاهر التي خرجوا فيها من القوة والخيلاء، ويجذبهم إلى إدلالهم بالغطرسة والصلافة والتوهُّم بأنهم قادرون على سحق المسلمين في أقل وقت، وأهون سبيل...

وظنَّ المشركون أنهم فعلاً هم الأعزَّة الذين لا يذلُّون، وأنهم كانوا وسيظلون أهل الحرم وسَدَنَةَ البيت، فإن جاءَ محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، بصحبه لينزع عنهم هذا الشرف التليد، فلسوف يرى أيَّ سوءِ عاقبة ينتظرُهُ، وأيَّ مصيرٍ سيلقى، إنها ستكون ضربتهم الشديدة للقضاء عليه وعلى إسلامه..

هكذا كان فعل الشيطان في نفوس المشركين، كما يُبيّنه قول الله سبحانه وتعالى بقوله:

{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ}[2]...

---

1 سورة الأنفال، الآية: 11.

2 سورة الأنفال، الآية: 48.

وخُبْثُ الشيطان لا يقف عند حدود، إذا وجد التربة الصالحة لنفث سمومه.. وهل أكثر من نفوس أهل الشِّرْك قبولاً بوساوسه وتزيينه، ما داموا أنصاراً له ولباطله؟!...

وهل يهتمّ الشيطان لمصير أنصاره هؤلاء؟!...

إنه عدوٌ للإنسان، أياً كان هذا الإنسان، ومهما كان معتقده..

وإنَّ له مأرباً في تلك الساعة الجهنميّة، وهو أن يفتك ببني الإنسان قدر ما يستطيع، طالما أن الفرصة سانحةٌ له.. وإذا كان قد أوهَمَ معشَرَ قريشٍ بمظاهر القوة الخادعة، فإنه ينوي في الوقت نفسه، أن يبذُر الشقاق في نفوسهم، وأن ينشر الخلاف في صفوفهم، حتى يستبِدّ بهم ضعفٌ يؤدي إلى تقتيلهم شرَّ تقتيل...

وها إنَّ هؤلاء القرشيين يختلفون فعلاً في ما بينهم.. فقد تلقوا خبراً من أبي سفيان بن حرب يقول لهم: «يا معشر قريش، إنكم خرجتم لتمنعوا العير وتحموا الأموال، وقد نجّاها الله لكم، فارجعوا»..

وتلقى فريقٌ منهم هذا الخبر بفرح وسرور، إذ فيه ما يتيح لهم العودة إلى حياة الدَّعة واللذة، وإلى ليالي الغناء والطرب والجواري، وأين منها هذه الإقامة في البطاح، وبين كُثبان الرمال، حيثُ يفترشون الأرض بحرِّها في النهار، ويستظلّون السماءَ ببردها في الليل.. لا!.. ليست هذه هي الحياة التي يحلُمُ بها أبناء قريش وقد اعتادوا يسيرَ العيش ورغد الأيام..

ولكنَّ هذا الموقف لم يُرضِ أصحاب التكبُّر والخيلاء، ولم يقنع ذوي الغطرسة الجوفاء، إذ كيف يقبلون بالرجوع إلى مكة، وقد رابط محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه في الناحية الثانية، ولا يُقدمون على ملاقاته!...

هنا وقف أبو جهل بن هشام يَصيحُ في وجوه دعاة الرجوع بلا قتال، وهو يقول: «يا معشر قريش، أتحسِبون وقد عُدتم أنْ تظلَّ لكم مكانةٌ عند العرب تسودون فيها عليهم، وتتصدون بعدها لطمع المسلمين؟!..

يا معشر قريش، والله لا نرجع حتى نَرِدَ بَدْراً، فنقيم عليها ثلاثاً، ننحر الجُزُورَ، ونطعمُ الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، فتسمع العرب بنا وبمسيرتنا وجمعنا، حيث ما تزال العرب تهابنا أبداً»...

واشتدَّ النزاعُ بين القوم، فوقف فريقٌ دونَ أبي جهل لا يوافقه على رأيه في القتال لأنه يعرف أن الرجل لا يريد إلاّ تحقيق مآرب خاصة وفي طليعتها زعامة قريش، فعندما وجده أصحاب

هذا الفريق على إصراره وعناده، تركوا القوم وقفلوا راجعين إلى مكة، وكان من بين هؤلاء بنو عدي وبنو زهرة، الذين اتبعوا قَسْورَةَ الأخنسَ بن شريف، وكان فيهم مُطاعاً، فلم يشتركوا في القتال، ولم يشهد بدراً زهري واحد.. عادَ هؤلاء بينما اتَّبعت سائرُ قريش أبا جهل، تحذو حذوه، وتسير على خطاه، رغبةً بملاقاة المسلمين وتقتيلهم، وخوفاً من لؤم أبي جهل وبطشه، أو هرباً من تشنيع بعض سفهائهم! لكنْ، وأياً كانت الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك المنزلق الخطير، فإنهم ساروا، وهم يعلنون عن أنفسهم بسائر المظاهر المزيفة، وشتى الوسائل الخادعة، حتى وصلوا وادي بدر، فنزلوا بالعُدْوة القصوى من ناحية مكة..

وهكذا اجتمع الفريقان في وادي بدر.. المسلمون بالعُدْوة الدنيا، والمشركون بالعدوة القصوى... ولم يكن هذا الاجتماع، بعدما ذهب الدافع إليه، وهو عِيْرُ قريش بأموالها، إلاَّ تدبيراً من الله سبحانه، فله التدبير والحكمة العليا في كل ما يشاء، وقد كانت مشيئته سبحانه الجمعَ بين المؤمنين والمشركين في تلك الناحية، من غير موعد اتفقوا عليه:

{وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنْتُم بِالْعُدْوَةِ الْدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ}[1].

وإن هذا اللّقاء ليكاد يكون صِنْوَ المعجزة.. فجنود محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وأنصاره إلى الله، عِدَّتُهُم قليل، بالقياس إلى جنود المشركين وقوة استعدادهم.. وإنَّ كل عوامل النصر في ظاهره اجتمعت إلى جانب المشركين، بينما ظهرت كل عوامل الهزيمة إلى جانب المؤمنين.. والإعجاز فيه إرادة الله الغالبة، بأن تجري المعركة بين الكثرة المشركة والقلّة المؤمنة، لتكون فرقاناً بين تصوُّرَين مختلفَين، وتقديرَين متناقضَين، أحدهما يعتمد العقيدة مسلكاً، والآخر يتخذ دروب الضلالة مأرباً، ليتبيَّن للناس أن النصر دائماً للعقيدة الحقة الصادقة، ما دام منطق هذه العقيدة الإيمانَ بالله الواحد الأحد وبقدسية الحق الذي يبعثه من عنده سبحانه.. فيكتب الله النصرَ للمؤمنين مؤيداً، كما يدل عليه قوله تعالى في محكم كتابه المبين:

{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ

---
1 سورة الأنفال، الآيتان: 41 – 42.

الْمُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[1].

إلى ما هنالك من آيات مُحْكَماتٍ في القرآن الكريم، تدلّ كلها دواماً على حقيقةٍ قد يتعامى عنها الناس، أو قد يتغافلون عن مضمونها أو فهمها، وهي الحقيقة الساطعة بأن الغلبة للحق، وأن الهزيمة للباطل.. فإن ظنَّ الناسُ أو اعتقدوا بأن الحق للقوة أو للكثرة والعتاد، وخدعتهم المظاهر، فذلك وهمٌ يخالف الحقيقة لأن القوةَ للحق، والغَلَبةَ للحق ويجب أن تكون للحق، لأنَّ الحق من عند الله تعالى، وهو سبحانه مع الحق أبداً:

{وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}[2].

أما رسول الإسلام، محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، فكان أعرف الناس بتلك الحقيقة، ولذا كان أوثق أصحابه وجنده إيماناً بنصر الله تعالى... فبات أصحابه نياماً، وبقي هو ساهراً، قائماً على الصلاة داعياً ربَّه تعالى أن ينجز ما وعده به.. وطلع الفجرُ، والنبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، ما زال يصلي، فهبَّ الجيش بأسره، يصلي وراء هذا الرسول العظيم، والقائد الحكيم، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى إذا أتمَّ صلاته بهم خرج إلى ماء بَدْرٍ يريد أن يسبق قريشاً إليها، فلما جاء أدنى ماءٍ نزل به.

وكان الحبَّابُ بن المنذر بن الجَموح في جيشه، وكان عليماً خبيراً بالمكان. فلما رأى النبيَّ، صلى الله عليه وآله وسلم، ينزل حيث نزل، تقدم وسأله: «يا رسول الله، أهذا المنزلُ أنزلَكَهُ الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة»؟!..

فقال له رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

فقال الحَبَّاب: «يا رسول الله، إنَّ لي خبرة في هذه الأمكنة، فقد غشيتها مراتٍ عديدة في حياتي، وأعرف المواقع جميعها فيها، فإن شئت موقعاً أكثر توافقاً لنزول المسلمين، فانهض بهم حتى نأتي أدنى ماء من القوم، وافر المياه، غزيرها، فننزله، ونُغَوِّر ما عداه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً نملأه ماءً، فنشرب ولا يشربون»...

واستحسن الرسول الكريم ما قاله حبّابُ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد أشرتَ بالرأي يا حبّاب»...

---

1 سورة الأنفال، الآيات: 7 – 10.
2 سورة يوسف، الآية: 21.

وعلى الفور أصدر النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، الأوامر، فانتقل القوم إلى الناحية التي ارتآها الحبّاب، فنزلوا بها، حتى صاروا أقرب منزل من قريش، لا يفصلها عنهم إلاَّ كثيب من الرمل.. فباشرت جماعة ببناء الحوض على البئر، وقامت جماعة أخرى بطمس ما وراء ذلك من آبار.

واستقرَّ المقام بالمسلمين، فجاءَ سعدُ بن معاذ، يشير على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يُبْتَنَى له عريشٌ، يمكنه منه الإشراف على المعركة، وإصدار الأوامر والتوجيهات، ويكون في الوقت ذاته المكان الآمن من غدر العدو.. فقال سعد: «يا نبيَّ الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ويصُدُّ عنك المهاجمين، ثم نلقى عدوَّنا، فإن أعزَّنا الله وأظهَرَنَا عليه، فذلك النصرُ من عند الله، وإن كانت الأُخرى، جلستَ على ركائبك، فلحقتَ بمَن وراءنا من قومنا، فقد تخلَّف عنا أقوامٌ ما نحن بأشدَّ حبّاً لك منهم، ولو ظنوا أنك ستلقى حرباً، ما تخلفوا عن المسير بين يديك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك، ويجاهدون معك»...

أوَليس رأيُ سعدٍ كرأي الحبّاب؟ بلى، إنه من المقوّمات التي يرتكز عليها سير المعركة، كما نعرفه في عصرنا؛ ألا يكون همُّ الجيش المحارب قطع الإمدادات عن العدو، وإنَّ أهمَّ إمداد آنذاك هو الماء في تلك الصحراء، ثم ألا تكون للقادة الذين يُسيّرون المعركة، غرفة للعمليات عنها تَصدر الأوامر والتعليمات، وفيها يُؤْمَنُ على هؤلاء القادة من العدو؟!...

إذن فالمسلمون اعتمدوا الأساليب الحربية الصحيحة، التي من شأنها أن تؤمِّن لهم النصر.. فكان قطع الماء عن قريش، وكان بناء العريش للنبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، يشرف منه على المعركة ويسيرها لأنه القائد المنوط به إعطاء الأوامر، وإصدار القرارات، فأي فكر أدعى للإعجاب من هذا الفكر، وأي إيمان يكفل النصر كهذا الإيمان الإسلامي!...

وأثنى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، على سعد، كما أثنى على الحُباب، فبُنِيَ العريش على تلَّ مُشرف يشكِّل ظَهرُه حمايةً طبيعيةً، ويُقبِلُ وجهه على المعركة بحيث يرى مَنْ فيه كلَّ ما يجري أمامه بوضوح...

انتهت تلك الترتيبات، فقام الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يسوِّي الصفوف، وينظِّم ترابطها بطريقة جعلت جنوده يتوجهون لناحية الغرب بحيث تكون الشمس من ورائهم، حتى إذا أقبل المشركون كانت الشمس في وجوههم، ثم دفع برايته إلى مصعب بن عمير، وأشار إليه بأن يضعها في المكان الذي عيَّنه، ثم وقف صلى الله عليه وآله وسلم، ينظر إلى تلك

الصفوف وقد رُصّت وسوّيت، فانشرح صدرُه لذلك المنظر الرائع، فطَفِقَ يتفرَّسُ في هذه الوجوه المؤمنة، ويرقبُ هذه الثُلَّة المتقدمة التي وقفت على أهبة الاستعداد، فحمدَ الله وأثنى عليه ثم خطب يحثُّ على القتال، ويرغّبُ في الأجر، فقال:

«أما بعدُ، فإني أحثكم على ما حَثَّكم الله عليه، وأنهاكُم عما نهاكُمُ الله عنه. فإنَّ الله عظيم شأْنُهُ، يأمر بالخير، ويحبُّ الصدق، ويُعطي الخيرَ أهلَه على منازلهم عنده. وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله تعالى فيه من أحد إلاَّ ما ابتغى به وجهه. وإن الصبر في مَواطن البأس ممَّا يُفرّجِ الله به الهمَّ، وينجّي به من الغمّ، وتُدرَك به النجاةُ في الآخرة... فيكم رسول الله يحذركم ويأمركم، فاستحوا اليوم أن يطَّلع الله عزَّ وجلَّ على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله تعالى يقول:

{لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكمْ}[1].

وابْلُوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته، فإن وعدَه حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين».

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يخططون استعداداً لبدء المعركة، كانت قريش قد أقبلت منصبَّةً من كثيبها إلى الوادي، ونزلت منازل القتال.. وهكذا صار الفريقان في موقع المواجهة...

وأراد أبو جهل أن يتبيّن عدد المسلمين، فاختار لذلك عمير بن وهب الجمحي، وكان فارساً شجاعاً وكلَّفه بالقيام بجولة استطلاعية أمام جيش المسلمين، فجاء هذا الفارس القرشيُّ يجول بفرسه قبالة عسكرهم، ثم رجع إلى أبي جهل يقول له:

«إنهم في العدد لا يزيدون على ثلاثمائة إلاَّ قليلاً. ولا كمينَ لهم ولا مورد، ولكنهم قومٌ ليس لهم مَنَعَةٌ إلاَّ سيوفهم، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلاً مثله.. إنهم، وما يبدون، نواضحُ يثرب قد خرجت تحمل الموت الناقع، ترونهم خُرْساً لا يتكلمون، ويتلمَّظون تلمُّظ الأفاعي.. فإن أصابوا منا أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟!».

1 سورة غافر، الآية: 10.

وسُرّ أبو جهل لخبر قلة المسلمين، ولكنْ لم يُعجبه كلامُ عمير بن وهب، فقال له بعدما أنهى كلامه: «كذبت وَجبنت.. فما هم بقادرين على قتالنا.. ما هُمْ إلا أَكْلَة رأس، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد»!...

وأرادَ رسولُ الله أن يُشهِدَ ربَّه على أنه أوفى بالحسنى، وأنه وإنْ كانت قريش عدوَّة دينه وعدوه اللدود، فإنه لا يريد إهراق الدم، إن كان ثمة وسيلة للسلم والتفاهم أو ما يوصل إلى تقبُّل الحقيقة والانصياع لحكمها، فبعث إليهم برسول يقول لهم:

«يا معشر قريش، إن رسولَ الله يدعوكم للرجوع إلى دياركم، فإنه يكره أن يبدأ بكم، فخلُّوه والعرب حتى يرى أمره فيكم»!..

ورأى عتبة بن ربيعة صدقاً فيما بعث إليهم محمدٌ، فصاحَ في قومه: «ما ردَّ هذا قومٌ عقلاءُ قطُّ.. فأفْلِحوا يا معشر قريش!...».

ثم ركب جملاً له أحمر اللَّون، وراح يجول بين المعسكرين، ناهياً عن القتال، فنظَر إليه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: «إنْ يَكُ عند أحدٍ خيرٌ، فعند صاحب الجمل الأحمر، وإنْ يُطيعوه يَرشدوا».

وبعدما جالَ عتبة بن ربيعة على جَمَلِه مراتٍ عديدة، وقف يخطب في قومه وهو يقول:

«يا معشر قريش! أطيعوني اليوم واعصوني الدّهرَ. إنَّ محمداً له إلٌّ [= عَهْدٌ] وذمة، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته.. فارجعوا وخلُّوا بينه وبين العرب. فإن يَكُ صادقاً، فهو ابنُ عمٍّ لكم، وأنتم به أعلى عيناً. وإن يكُ كاذباً كفتكُمُ ذؤبان العرب أمرَه، وذلك الذي أردتم»..

وثارت ثائرة أبي جهل لما يسمع، وخاف أن يُفسد عليه عتبةُ ما دبره لقتال محمد، فطلب عامرَ بن الحضرمي ـ أخا عمرو الذي قتل على يد رجال سرية عبدالله بن جحش ـ يؤجّجُ في صدره نار الثأر لأخيه، وهو يقول له: «أرأيت يا عامر! هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس. وقد رأيتَ ثأرك بأمِّ عينك، قم فانشد مقتل أخيك».

وركب عامر على فرسه، وراح يصرخ في ملأ قريش: «واعَمْراه! واعَمْراه!...»...

وتواثبت صرخة الثأر من نفس إلى نفس، تُهيّج حَمِيَّةَ الجاهلية، ولبَّى نداءَها زعاقُ الموت عويلاً خانقاً، فدوَّت في جنبات بدر أصداءُ المنايا وهي تهتف بالرجال: «هلموا إلى حتوفكم فقد دنت مواسمُها»..

وانبرى من بين صفوف المشركين، رجلٌ صعَقَهُ هتافُ الثأر، يدعى الأسود بن عبدالأسد المخزومي، واندفع نحو المسلمين، يريد أن يهدم حوض الماء الذي أقاموه، وهو ينادي: «لأُعاهدنَّ آلهة قريش: لأشربَنَّ من حوضهم ولأهدمَنَّهُ أمام عيونهم، أو لأموتَنَّ دونه»... وقهقهت آلهة قريش ساخرةً من استنجاده بها، وطلب كرامتها، ثم قذفتْ به كمثل كرة تتدحرج، فتلقّاه الحماةُ الأشاوسُ الذين وقفوا متأهبين لكل هجوم، حتى إذا اقترب من الحوض، اندفَعَ إليه حمزةُ بن عبدالمطلب كاللَّيث الجسور، يستقبله بضربةٍ من سيفه فيقطع ساقَهُ، فيسقط على الأرض يشخَبُ دمُهُ، ثم يعاجله بضربة أخرى، تقضي عليه، وتُرديه جثة هامدة لا حراك فيها..

ورأى أبو جهل ما حلَّ بالأسود، فاستشاط غضباً على عُتبة بن ربيعة، وراحَ يكيل له الشتائمَ، ويُلصق به أشنعَ التهم وهو يقول له: «أرأيت أيها الشيخ الهرم ما فعلَ سحرُك وجبنُك؟ لقد حرَّضت القوم على الرجوع إلى مكة لتقاعسٍ منك وخوف، فما أنتَ إلاَّ حقير لا يقوى على قتال»...

ووقف عُتْبةُ في وجهه يردُّ عليه شناعته: «أيها اللئيم الخبيث، أمثلي يجبن؟ ستعلم قريش أيّنا جبان مفسدٌ لقومه!.. لقد زرعت الفتنة ونجحتَ ولكنك ستحصد شرَّ ما زرعت»..

فلم يلبث عُتبةُ بعدها إلاَّ أن دعا أخاه شيبة وابنَه الوليد، واستحثَّهم على المبارزة، ثم انطلق أمامهما نحو صفوف المسلمين وهو ينادي: «يا محمد... ها نحن سادةٌ من قريش قد جئنا نقاتلك، فهلّا بعثت إلينا أكفاءنا من قريش؟»...

وما كادَ يُنهي مناداته حتى وجد قبالته ثلاثة شبان خرجوا إليهم وهم: عوف ومعوّذ ابنا عفراء وآخر معهما من الأنصار. وتفرَّس عتبة في وجوههم، فلم يعرفهم، وكان هؤلاء الشبان قد انحدروا نحوه وصاحبَيه قادمين يريدون مبارزتهم، فقال لهم:

«ما أنتم من أهل مكة، ولا من معشر قريش!»...

فانتسب الشبَّانُ، وعرَّفوا بأنفسهم بأنهم من أنصار محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وأنهم يريدون قتالهم. فأبى عتبة ذلك وقال لهم: مالنا بكم من حاجةٍ يا أهل يثرب، إنما أكفاؤنا من قومنا، فهلاَّ بعثتموهُمُ إلينا!...

وكان النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يرقب المشهد، ويسمع ما يدور من قول، فقال لمن حوله: «عجيب أمر عتبة، لقد عَدَلَ عن خطة المسالمة وكان منذ قليل يدعو إلى العودة

عن القتال...». ثم نظرَ إلى عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وهو يومئذٍ في السبعين من عمره، وقال له: قم عبيدة!...

وتطلَّع إلى عمه حمزة بن عبدالمطلب وقال له: «وأنتَ يا عمُّ، انزلْ إليهم».

ثم جال بناظريه في المسلمين، ودعا عليَّ بن أبي طالب (عليه السلام) بالوثوب نحو القوم وهو يقول لهم:

«هيَّا يا أصغَرَ السِنّ وأبطشَ الذراع»!..

ولبَّى القُرشيُّون الأبرارُ (رضي الله عنهم) أمرَ نبيّهم، فاندفعوا إلى ساحة المعركة، بنفوس مؤمنة، صادقة، تتوقّد شجاعة وعزيمة، فاختارَ عبيدةُ مواجهة عتبة، بينما اختار حمزةُ مواجهة شيبة، واختار عليٌّ (عليه السلام) مقاتلةَ الوليد.. هنا وفي أشدّ الظروف وأحلك الساعات نجد السلوك الإسلامي قويماً مستقيماً يبرز في اختيار الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، للصحابة الثلاثة بعدما رأى أولئك المبارزين من المشركين، فبعث إليهم من هُمُ صِنْوٌ لهم قوةً وسِنّاً، ومن أبناء عشيرتهم بالذات كما أرادوا... ووقف كلّ من الأبطال الثلاثة في مواجهة نظيره تماماً، الشيخ قبالة الشيخ، والفتى في مواجهة الفتى، والرجل أمام الرجل، ولكنَّ الفارق ما لبث أن برز سريعاً في البطولة فإن هي إلاَّ جولة وكان حمزة وعليٌّ بعدها قد أجهزا على عدوَّيهما في مثل ومَض البرق إذ عَاجَلاَ بسيفيهما ذَينَك الكافرين وجندلاهما على الثَّرى، ثم التفتا نحو عبيدة وعتبة، فإذا هما قد وقعا على الأرض، وقد نالَ كل منهما الآخر بضربة، فتقدما لا يمهلان عتبة، بل يهويان عليه بضربة واحدة توردِه حتف المنون، ثم حملا عبيدة إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، والدم يسيل من ساقه المقطوعة، فأفرشه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ركبته الشريفة، وبشّره بالجنة حين كان يتربَّع على أكفِّ الشهادة الحقة في ذلك اليوم المشهود.. بينما هوى ثلاثةً من أعاظم رؤوس الكُفر والضلال إلى قعرِ جهنم وغضب الله فانكسرت بهذه الضربة البِكْر شوكةُ قريش وذلَّت رقابهم إذ إنهم قد خسروا ثلاثة من أكابر زعمائهم وأبطالهم المقاتلين..

... ورأى المشركون ما حلَّ برجالاتهم الثلاثة من مصير، فاندفعوا نحو المسلمين كالسيل الجارف، وأبو جهل من ورائهم يحرِّضهم وهو يزعق كالغراب: «لا تعجلوا ولا تبطروا كما بطر أبناء ربيعة. عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزراً. وعليكم بقريش فخذوهم أخذاً حتى ندخلهم مكة، فنذيقهم مُرَّ العذاب، فيعرفوا أيَّ منقلب ينقلبون».

فيا لجهالة هذا الرجل الذي يُدعى أبا جهل بن هشام!..

أفبعدَ ما رأى بأم عينيه هذه البطولة النادرة لنفرٍ من المسلمين كيف تُسّول له نفسه أن يبرز إلى المعركة إلاَّ أن يكون قد ركبه الضلالُ وحدّد الوهمُ خطاه، ثم زيّن له هذا الوهم القدرة على تحقيق النصر.. ألم يكن يُمنِّي النفس بأن يسوق المسلمين من أبناء قريش أسارى بين يديه إلى مكة فيمثِّل بهم حسبما تشتهي أهواؤه الخبيثة، ونيّاته الشيطانية؟ ولكن أهذه كانت منه حماقة أم جهالة؟ أم هو حقد دفين شرس في نفسه أطاش حُلمه وأذهب صوابَه؟.. لا وصف ينطبق عليه! أليسَ هو أبا جهل.. وجهالته تكفي للدلالة على ما تضمُّ جوانحه من فساد؟!.. على أن المشركين لم يكونوا في معظمهم؛ أقلَّ توهماً من زعيمهم أبي جهل.. فقد ظنوا بأن في كثرة عددهم ما يُدخل الرعبَ في قلوب أعدائهم، وبأنهم إذا ما رأوهم يندفعون نحوهم كالسيل العَرِمِ، تراجعوا أمامهم وولّوا الأدبار.. ولكن أين منهم ذاك الوهمُ، والمسلمون في انتظارهم يتحرقون شوقاً لملاقاة هذا العدو الغاشم.. وها هُم، وقد رأوا هجومَه نحوهم، بقوا في أماكنهم ثابتين، بسواعدَ شدَّت على الأقواس لتمطرَ الزاحفين بوابل من السهام والنبال، فتخترق منهم الضلوع، وتصيب الرؤوس والأحشاء، فيهوي منهم من يهوي، ويفلت من يفلت، ثم ينقضُّون عليهم كالنسور تهبط من أعاليها، وقد شرعت مخالبها للقنص الوفير..

واعتلى محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، التلَّة قرب عريشه، يحرِّض المسلمين على قتال أعداء الله، وهو يُلقي على أسماعهم قولَ الحق، ويقول: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يقاتلهم اليوم رجل واحد، فيُقتَلُ صابراً محتسباً، غير مُدْبِرٍ، إلا أدخله الله الجنة»...

ثم لا ينسى النبيُّ الكريم، ورسولُ الحق، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى في هذا الموقف الحرج، ومن خلال نداء تحريضه وحضِّه على القتال، أن يهيب بالمسلمين ألاّ يقاتلوا إلاَّ عَدْلاً، فلا يقتلوا من يقع في أيديهم أسيراً، أو من يسلِّم نفسه إليهم، وأن يتحاشَوا مصارع قوم ذبّوا [= دافعوا] عنهم في مكة ومنعوهم.. وأن لا يتوخَّوا من قتالهم إلاَّ الذود عن دين الله، وحماية الإسلام من الكافرين..

ذلك هو الخُلق المحمديُّ يتلألأ مِشعَلَ نورٍ على جبين الدهر، يُضيء جوانب الظلام كلما خيَّمَ على حياة الإنسان..

فهو في أول معركة يخوضُها الإيمانُ ضد الكفر لم يغفلْ عن نَفرٍ في عداد قريش قد وقف يوماً إلى جانبه يذودُ عنه وعن المسلمين في أحلك الظروف وأشدِّها صعوبة.. ولم يكن ذلك النفرُ إلاَّ بنو هاشم ومن شايَعَهم من قريش أو وقَفَ مثل مواقفهم.. فإنهم ما كانوا يوماً إلْباً [= القوم تجمعهم عداوة واحدٍ] على المسلمين في مكة، يتهددون وجودهم وكيانهم.. بل على العكس كانوا الحماة يوم أرادتها قريش حملةً شعواءَ لا تُبقي ولا تَذَرْ..

أوَليسوا هُم الذين عاشوا النكبة مع المسلمين عندما فرضتها قريش مقاطعةً لا تحمل إلاَّ القهر والتجويع ولا تبتغي إلاَّ النفي والمذلَّة؟.

بل يكفي أنّهُمُ لم يشتركوا في تعذيب المسلمين، وفي إلحاق الأذى بهم، لكي يحفظ لهم رسول الله ذلك الصنيعَ الجميل، فكيف وقد كانت لهم تلك المواقف الرائعة منه ومن أصحابه إبَّان المحن والنكبات؟!.. فهل يعاملهم رسولُ الحق، صلى الله عليه وآله وسلم، في قتالٍ قد يكون فُرض عليهم كُرهاً من شياطين قريش بمثل ما يعامل هؤلاء؟!...

لا والله لا يكون ذلك.. فهو محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الإنسان العادل، الذي يحفظ العمل الجميل، ويفيه حقَّه يوم يقدر على الوفاء.

ومِثْلَ بني هاشم أيضاً، كانت لنفرٍ من قريش أيادٍ بيضاء على المسلمين، يوم سعى هذا النفرُ لإيصال المؤن والمياه إلى المحاصرين متحمِّلاً المخاطر في سبيل ذلك، ويوم حرَّض على نقض صحيفة المقاطعة غير آبهٍ لعنَتِ المتعنِّتين من زعماء قريش أو لصلافة المتكبرين منهم..

نعم، ومن أجل ذلك، كان نداءُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لأصحابه، وهم يشدُّون على المشركين، ألاَّ يقاتلوا أصحابَ الصَّنيع الحسن، وهم معروفون منهم، بمثل ما يقاتلون به رؤوس الشِّرْك وأسيادَ الكفر، ومَن نزا نزوتَهم الحاقدة على الإسلام..

وإذِ الْتقى الجمعان، تردَّد في آذان المسلمين نداءُ رسولهم، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يَعِدُهُم بالجنة، ويوصيهم بقتالٍ شريفٍ عادل، فهفتْ قلوبهم إلى الشهادة وأخذت تتنسَّمُ مشاعِرُهم رياحَ الخُلْد، فإذا الحياة الدنيا عندهم بلا قيمة إلاَّ بما تمكِّن من عبورٍ سريعٍ للدخول في رحاب الله الفسيحة، العابقةِ برحمته ورضوانه..

بل أخذتْ تهتفُ في أعماقهم الطمأنينةُ فَرِحةً جذلى، فتردِّدُ حناجرُهم ذلك الهتافَ الرائعَ، وكُلُّهم يتغنَّى بلسان عمير بن الحمام: «بَخٍ بَخٍ!... [= اسم فعلٍ للرضا والإعجاب

والاستحسان] أفما بيني وبين الجنة إلاَّ أن يقتلني هؤلاء؟ إيهِ أيتها التمرات الطرية في يدي: اذهبي، لئن أنا حييت حتى آكلكِ، إنها لحياة طويلة»..

ولم يَرْمِ عمير تمراتِه من يده فقط.. ولم يلفظ ما كان قد وضعه في فمه منها وحسب، بل تأبَى عليه مشاعره إلاَّ أن يعبِّر عما يجول في صدره، وصدور إخوانه، في تلك الساعة، وهم يندفعون نحو الأعداء، فيهتف منشداً:

ركضـاً إلى الله بغير زادِ

إلاَّ التُّقى وعمـلِ المعادِ

والصَّبر في الله على الجهادِ

وكلُّ زاد عُرضَة النَّفادِ

غير التُّقى والبِرّ والرشاد

ويشتد احتدام المعركة؛ فهنا يطير هامٌ عن جسد وهناك يهوي فارسٌ وبجانبه ينكبُّ راكبٌ، ويرتمي راجِلٌ.. ومن تحت الأرجل والحوافر يرتفع الغبار، فيغطي الأجواء!! الكلُّ في كرٍّ وفرٍّ، وصيحات الرجال تختلط بقعقعة الدروع وصليل السيوف، حتى ليخيّل للرائي بأن الأرض قد مادت تحت الأقدام، وأنَّ السماء تُنزل اللَّعنات على المشركين الفاسقين...

ووقف النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في عريشه يشهد تلك الواقعة الحقيقية، وهو يلعَنُ سفهاءَ قريش الذين أرادوها معركة شرسة، وفضَّلوها على الانصياع لدعوة الحق، والاهتداء إلى الإيمان.. وكان يُداخِلُهُ بعض الخوف على مصير الدِّين والمتدينين، وهو يرى المشركين يلتفُّون بأعدادهم الكثيرة حول المؤمنين بقلة عددهم، فيصعِّد بناظرَيه نحو السماء، ويتوجه بخالص فؤاده إلى الله سبحانه وتعالى، خاشعاً، متضرعاً، مبتهلاً، مستعيناً بقدرة الله أن تؤيد المسلمين بالنصر... ثم يأتيه الاطمئنانُ، استجابةً من ربِّه تعالى، بكلمات صادقة كريمة:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ}[1].

ويستبشر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالنصر، فيتعالى صوته يشقُّ عنان الفضاء، ويَغلب على قعقعة الحديد، وصهيل الخيول، وصيحات الرجال، ويصلُ إلى

1 سورة الأنفال، الآية: 65.

المسلمين قبساً روحانياً، ويحُلُّ في نفوسهم قوة وعزيمة، فإذا بهذه القوة المعنوية تشعُّ من نفس محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، لتنبت في نفس كل مسلم قوى مضاعفة، حتى ليحِسَّ واحدُهم بأنه كفوءٌ لعشرة رجال، وأنَّ يد الله سبحانه فوق يده تحرِّك سيفه فيضرب، وتسدِّدُ رميته فتُصيب، وأنه ليس وحيداً مع إخوانه المسلمين في المعركة، بل هُم في حشد من جنود الله الخفية، لا يُدركون كنهها، ولا يعرفون مقدارها، بل يُحِسُّون بوجودها تقاتل معهم جنباً إلى جنب.

وتَضعُف في عيون المؤمنين شكيمةُ المشركين العاتية، وتتضاءل في نفوسهم قُواهم الباغية، فيفرّقون صفوفهم ويشتّتون جموعهم، ويكتسحون دفاعاتهم كما يكتسح السيل العَرِمُ الغُثاءَ الأحوى، وهم يبحثون عن زعماء قريش وأسيادهم، حتى يكونوا الهدف الذي يريدون استئصاله واقتلاعه من جذوره، فلا يعود من بعده للكفر معقل في بلادهم.. ويلمحُ بلالٌ، في هذا البحث، أميَّةَ بن خلف وإلى جانبه ابنه علي، فيندفع نحوهما، ويصرخ في وجهَيهما، يذكرهما بما كانا يفعلان به في مكة حتى يفتناه عن دينه، فيقول لأمية: إيهِ يا رأس الكفر، ألا تحمل الصخرة العظيمة اليومَ بين يَديك، تريد بها صدر بلال الحبشي؟!... فوالله لن أدعَك تفلت من يدي وأنت على كُفرك الجهنمي حتى أُوردك نارَ جهنم..

وتَصدَعُ صرخةُ بلالٍ أميةَ، فترتعد أوصالُه ويُدرك أن ساعته قد دنت، فيتطلع حوالَيه يريد هرباً، فإذا به يلمح عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه)، وكان صديقاً له في مكة، فينطلق نحوه وهو يصرخ بابنه أن يتبعه، حتى إذا كان على مقربة منه، صرخ فيه يستجيره، ويطلب حمايةً له ولابنه، وكان عبدالرحمن يحمل أدرعاً اغتنمها، فيقول له أمية: «هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدرع التي تحمل»؟. وقد وعده بأن يعطيه إيلاً كثيرة اللبن إن أنجاه وابنه.

ويحاول عبدالرحمن أن ينجده، فيطرح الأدرع وهو يقول له: «نعم والله، فقد كنتَ صديقاً».. ولكنَّ بلالاً (رضي الله عنه) كان قد لحق بأمية، وهو ينادي بأعلى صوته: «يا أنصار الله، هذا رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا»...

وكان المسلمون يعرفون مقدار ما عاناه كثيرٌ من المسلمين على يد أمية اللعين من أذى وعذاب، ويعلمون مدى ما يضمرُهُ من حقدٍ على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى دعوته.. فما إن سمعوا صرخة بلال تنطق باسم ذلك الكافر، حتى جذبتهم تلك

الصرخة والتفَّت جماعة من حوله مثل التفاف السوار من حول المعصم.. وحاوَلَ عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه)، أن يخفف من غلواء القوم كي يدعوا الرجل أسيره، فلم يأبهوا له، بل تقدموا من ابن أمية فأردوه قتيلاً.. ويرى أميَّةُ ابنه يهوي أمام عينيه مضرجاً بدمائه، فيصرخ ملهوفاً: واإبناه!.. وتلتقي صرخته بصرخة عبدالرحمن بن عوف وهو يدعوه إلى الهرب قائلاً:

«أُنجُ بنفسك يا أمية، وإلاَّ فلا نجاة بعد الآن، فوالله ما أغني عنك شيئاً». ولكن سيفَ بلال كان أسرع من الصرخات، وأسبق من التحذير، إذ تلقَّف رقبة أميَّة بن خلف بضربة المؤمن الذي ذاق لوعة التعذيب، فجعله يتدحرج تحت سنابك الخيل، وأخفاف الجِمال.. فيشق إذ ذاك صوت بلال (رضي الله عنه) عنان السماء وهو ينادي: أَحَدٌ أَحَدْ!.. ويردد المسلمون من ورائه هذا النداء: أحدٌ أحد..

وينظرُ عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه) إلى ما حوله: فإذا الأمرُ قد انتهى إلى غير ما يشتهي، فكان يقول: «رحم الله بلالاً، ذهبَتْ أدرعي وفجعني بأسيرَيَّ».

هوى عتبة بن ربيعة، كما هوى أمية بن خلف، وكانا من أشد شياطين قريش عنتاً على المسلمين، ولكنّ رحى المعركة لم تتوقف، بل ما زال في الفريقين أبطالٌ يشدُّون ويخوضون غمارَ القتال..

ثم يخوضها حمزة وعلي، وعمرُ، وأبطالُ المسلمين (رضي الله عنهم جميعًا)، تلك المعركةُ الهائلة، معركة الحق مع الشِّرْك، ويلتقون في خِضمّ القتال بعض الذين أوصاهُم رسولُهم الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، الرفقَ بهم، فيجهدون لأخذهم أسارى دون قتلهم إلاَّ من أرادَ قتلَ نفسه، لِعِلّةٍ أو لأخرى، كما فعل أبو البختري بن هشام، عندما لقيه المجذَّرُ بن زياد البَلَوِيّ، حليف الأنصار فناداه:

«يا أبا البختري إن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد نهانا عن قتلك إذ كنت عوناً أيام الشدة، وما أحب إليَّ إلاَّ أن تخلي ساحة الوغى يرحمك الله، أو تذهب إلى رسول الله تتفيَّأ بعطفه وشفقته...».

وتهدُّ هذه الكلمات أبا البختري، فيلتفت إلى جنبه ويقول للمجذّر:

«وصاحبي هذا جنادة الليثي وقد لازمني منذ خروجي من مكة، وما زال برفقتي»؟.

قال المجذّر: «وهل أعانك صاحبك هذا يوم نقض الصحيفة»؟.

قال أبو البختري: لا والله!..
قال المجذّر: «إذن فسَلْهُ، هل يريد الانصياع لأمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويذهب إليه صاغراً، شاكي السلاح»؟.
وهنا أجاب جنادة: لا!.. لن أفعل، وتُعيّرني قريش!..
عندها قال المجذّر لأبي البختري وهو ينهاه عن مؤازرة صاحبه:
«أوَقد سمعتَ ما قال الرجل يا صاحِ، فخلِّ بيني وبينه، واذهب لأمرك».. ولكنَّ أبا البختري بن هشام، لم يمتثل لنصيحة المجذّر، بل قال له:
«ما أنا بتاركٍ لصاحبي، ولأموتنَّ أنا وهو حتى لا تتحدث عني نساء مكة، بأني آثرت الحياة على الوفاء بالعهد».
وهكذا اختار أبو البختري المصير الذي رآه، فاشتبك مع المجذّر في قتال أودى بحياته، ولم يكن نصيبُ صاحبه من الحياة بأوفرَ حظّاً منه، إذ لقي مصرعه أثناء المعركة..
فالقتالُ يتأجج لهيبُهُ، واحتدام الغضب يشتدُّ سعيرُهُ، وهنا رؤوس تتطاير، وهنالك هامات تتدحرج.. ولكن أين رأس الفتنة أبو جهل بن هشام في كل هذا؟.
إنه في وسط المعركة مثل الأفعى يتلوى من ناحية إلى ناحية، وهو يحاول ألاَّ يدخل في اشتباك مباشر، أو في مواجهة حاسمة... بل يحرِّض قومه، متجنِّباً الضربات، ويشدّ عزم قريش، متفادياً الهجمات، حتى شدَّ عليه مُعاذُ بن عمرو بن الجموح من الأنصار وأمكنه أن يصل إليه بضربةٍ أطنَّت (= قطعت) قدمه بنصف ساقه، ولكن ابنه عكرمة كان من ورائه، فتقدم من معاذ يضربه على عاتقه فقطع يده وبقيت معلّقة إلى جنبه بِجِلْدةٍ لها، فلم يعد قادراً على قتال... ويرى معوّذ بن عفراء ما حلَّ بمعاذ، فيهجم على أبي جهل، يرميه بضربة وهو يقول: «لقد أرسلك الله إليَّ يا مفسد القوم، فخذها من يد المؤمنين جزاءاً وفاقاً لما عذبتموهم في مكة؟ ويهوي أبو جهل على الثرى مثخناً بالجراح، فيظنهُ معوّذ قد قتل وذهب إلى الجحيم، فيبتعد عنه ليواصل القتال ذوداً عن دين الله..
وفي هذا الجو المحموم، وفي حُمّى هذا الوطيس، كان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ما يزال على موعد مع ربه، يناجيه، ويضرعُ إليه أن يؤيد المسلمين بنصره المؤزَّر، حتى لا تعلو كلمة الكفر، وتحول دون نشر دينه الحق.. ولكنَّه في الوقت ذاته لا ينفكُّ قائماً على

تحريض المسلمين، وشحذ هممهم، ووعدهم بثواب الله الأوفى.. فيأخذ، صلى الله عليه وآله وسلم، حفنةً من الحصى ويرمي بها وجوه قريش وهو يقول:
«شاهَتِ الوجوه».
فلا يلبث بعدَها المشركون ساعةً من وقت، إلا وتخور منهم القوى، وتوهن العزائم... فيجدون أن العديد من أشرافهم قد سقطوا صرعى، وأن الأشداء من فتيانهم صاروا جثثاً هامدة، وهم يَجْهدون في مواصلة القتال، منهكين، لاهثين، ولكن دونما جدوى.
ويتطلعون فيما حولهم، فإذا كل شيء قد تصدَّع، وصاروا مثل ثوب خَلِقٍ ممزَّق.. وحيالَ هذا الواقع، لم يَروا أجدى لهم من الفرار يتخذونه سبيلاً، ومن الهرب من وجوه المسلمين، يعتمدونه طريقاً... فولّوا وجوههم نحو كثبان الرمال يحاولون النجاة، وهم يلقون بأحمالهم وأسلحتهم حتى لا تعوقهم عن الهروب.. ولكن أنَّى لهم نجاةٌ أو هربٌ والمسلمون في أثرهم يجدُّون ويلاحقونهم بنفوس حميَّة، وقلوب أبيَّة، فيأسرون منهم من يأسرون، ويغنمون منهم ما يغنمون؟ وما زالوا بهم يشتتون قواهم، ويبددون عزائمهم، حتى انجلت بدر في عصر ذلك اليوم، السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة عن هزيمة ساحقة للمشركين، ذهب فيها من الرجال سبعون قتيلاً من الأعداء، ووقع في أيدي المسلمين مثل عددهم أسارى، فضلاً عما خلّفوه من متاعٍ وزادٍ وعدةِ حربٍ كانت كلها غنائم للمسلمين.. ومقابل هزيمة قريش كان نصرُ الله للمؤمنين، فقد وعَدَ به رسوله الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، وأيده بقوى خفية، حققت لهم ذلك النصر العظيم..
وأقبل النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والمسلمون يتفقدون الجرحى من الفريقين، علّهم يجدون من يسعفونه وينقذونه من الموت، وفيما هم في تفقدهم ذاك، إذا بعبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) يجد أبا جهل مطروحاً على ظهره وما زال به رمقٌ من حياة، فصعد على صدره، وأمسك بلحيته يشدها إليه... فأخرج هذا الشدُّ اللعين أبا جهل من غيبوبته، وفتح عينيه ليرى عبدالله فوقه، فيقول له: «لقد رقيت مُرتقىً صعباً يا رويْعِيَّ الغنم»... ولم يتلفَّظ بأكثر من ذلك حتى انفصلت روحه الخبيثة عن جسده النتن، فحزَّ عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) رأسه عن رقبته، وحمله يركض به مهلّلاً مكبّراً، ليضعه بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وليشفي به قلوب المؤمنين الذين ذاقوا كثيراً من مرارة ما

أصابهم به هذا الرجل من أذى وعذاب، وعانوا طويلاً من شدة ما حرَّض به على عداوتهم وقتالهم...

تلك هي معركة بدر التي لم تزد عن بضع ساعات من نهار يوم الجمعة صبيحة السابع عشر من رمضان.. ولكن لا تؤخذ قيمتها على أنها واقعة حربية وحسب، بل على أساس أنها أحدثت، رغم قصر زمنها، من الآثار والنتائج ما هي جديرة بأن تبقى ماثلةً في أذهان المسلمين، بل والناس أجمعين، كي يستقوا من مَعِينها الدافق عِبَراً وعِظاتٍ يفيدون منها في مواجهة الحياة، كلَّما تبدى النزاع أو الاختلاف حول شأن من الشؤون التي حفلت بها معركة بدر...

فمن دروس بدر القيِّمة، نستخلص أهمية وثوق الجماعة بالقائد، واعتمادها على صدقه، وحسن تقديره لمجرى الأمور.. فالمسلمون يوم خرجوا من المدينة كانوا يطلبون أموال قريش التي تمدُّها بالقوة المادية والمعنوية، وهي القوة التي كانت ما تزال العقبة الأشدَّ في طريق الإسلام.. فلما تبين لهم نجاةُ تلك الأموال وهروبها من وجههم، رأى بعضهم الرجوع، بينما رأى قائدهم، رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الثبات ومواجهة قريش، بعدما جاءت ترابط على قرب منهم، وتعرض مظاهر القوة والخيلاء، متحدّية مشاعرهم، ومهددة وجودهم.. وكانت عظمة المسلمين بإجماعهم على موافقة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، فيما رآه، حتى لم يشذَّ عن هذا الإجماع رجل واحد...

وبخلاف ذلك كان وضع المشركين، إذ لم تكن لهم قيادة موحَّدة، بل كان لكل قبيلٍ قائدٌ، وقد اختلف قادتُهم رأياً ومنهجاً وعملاً... ففي حين أقرّ البعض الرجوع إلى مكة بعد نجاة الأموال ـ وقد رجعوا فعلاً ـ أصرَّ البعض الآخر على لقاء محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه، كي يلقنوه درساً لا ينساه، وتكون بذلك نهايته ونهاية الدعوة التي يحملها على عاتقه... وكان بين هذا الفريق وذاك، مَنْ وقف موقفاً لا يهتم معه لأمر الأموال أو لقتال محمد، بل يهتمُّ بخلاصه من ضغط بعض زعمائه، أو نجاته من الموت، بعدما تأكد له عزم المسلمين على خوض المعركة واستهانتهم بالموت، غير آبهين لأية تضحية مهما غلت، وغير عابئين لأية قوة مهما عظمت...

وهكذا برزَ عامل رئيسي يميِّز بين الطرفين.. ففي طرف قائدٌ واحدٌ هو صاحب الأمر والنهي فيه والجميع من حوله مطيعون لأنهم مؤمنون بقدرة قائدهم وحكمته وإخلاصه،

وطرف توزع أشتاتاً بين قيادات مختلفة، كلٌّ منها ينزع نحو الغاية التي يراها توافق مآربه وأهواءه..

وتوحي لنا بدر أيضاً بأهمية الأسلوب واعتماده كأحد مقومات الحرب الرئيسية.. والأسلوب في الحرب يعتمد أصلاً على التخطيط والتنظيم.. فبقدر ما يجري من تخطيط سليم للمعركة، وبقدر ما يحصل تنظيم في القوى والوسائل المستخدمة، بقدر ما يتيح ذلك من تحقيق للنصر.. ولقد تميَّز أسلوب المسلمين في معركة بدر، باعتماده على التخطيط والتنظيم.. فقد منعوا عدوَّهم من التزوُّد بالماء، وهو عنصر أساسي في الحياة عامة، فكيف به في وقت القتال وفي الصحراء القاحلة.. وقد اعتمدوا الشمس وسيلةً لإرباك العدو بحيث يستقبلها في عيونه فتعيقه عن سرعة الحركة واقتناص العدو.. وقد نظَّموا أنفسهم جماعاتٍ جماعاتٍ، جماعة للنبال، وأخرى للسيوف، وغيرها للرماح.. وأوكل إلى كل جماعة موقعٌ تشترك منه في المعركة.. وكانت خطتهم المحكمة أن يجعلوا عدوَّهم هو البادىء في الهجوم، والجيش المهاجم يتعرّض عادة لخسائر أكثر بكثير من عدوِّه إذا كان العدو كامناً له متربِّصاً به.. وهذا ما حصل فعلاً يوم بدر، إذ عندما هجم المشركون انهالت عليهم النِّبال مثل المطر المدرار تفتك بهم وتثخنهم بالجراح، حتى إذا تقدَّموا نحو المسلمين كان هؤلاء بانتظارهم بحرابهم وسيوفهم، فانقضُّوا عليهم يطيحون الهامَ عن الأجساد، ويجعلونهم أشتاتاً متفرقة..

وحيال هذا التكتيك الحربي السديد، قد تُغني القِلّة عما لا تغني عنه الكثرة.. فأية فائدة من كثيرٍ لا يستجمع العناصر التي تُحيل كثرتَه قوةً فاعلةً، وأي نفعٍ من الأعداد الغفيرة إن لم تتوفر لها عوامل التعبئة والاستعداد والغاية؟!... أوَليس في واقعنا ما يعبِّر عن تلك الحقيقة عندما نجد العدوَّ الصهيوني، على قلّة عدده، يهزم العرب أحياناً على كثرتهم؟!..

وتبقى أهم الفوارق بين طرفين متنازعين القوة المعنوية والدوافع التي تحرّكها.

فالمسلمون كانوا يتمتعون بقوة معنوية عظيمة دافِعُها الإيمان وصدْق العقيدة، بينما لم تكن للمشركين قوة معنوية سوى حقدهم على الإسلام.. وهذا الحقد لم يكن دافعهم الوحيد يوم خرجوا من مكة، بل كانوا يريدون، كما رأينا، حماية الأموال، فلما وجدوها قد نجت، ضعفت عزيمتهم عن القتال، وكان الأهم من ذلك، بالنسبة لقوتهم المعنوية، أنهم يوم خرجوا كان الخلل مستفحلاً في أعماقهم بتأثير أوهام وخرافات كانت تتلبَّس عقولهم وأفئدتهم.. فقد ضربوا

القِداحَ قبل خروجهم فجاءت في غير صالح هذا الخروج، وهذا ما جعلهم يتشاءمون ويَفْرقون... وكانت الشائعات قد سرت فيما بينهم عن رؤى كثيرة جعلتهم يتطيرون من الخروج.. فقبل أن يأتيهم نذير الاستنفار الذي بعث به أبو سفيان بن حرب، كانت عاتكة بنت عبدالمطلب قد رأت في المنام بأن «رجلاً أقبل على بعير له ينادي: يا آل غالب!.. اغدوا إلى مصارعكم في ثلاث.. ثم صعدَ هذا الرجل ببعيرٍ له على جبل أبي قبيس، فأخذ حجراً ضخماً، دحاه من موضعه، فاندفع نحو مكة لا يترك داراً من دور قريش إلاّ وأصابه بِفِلْذَةٍ»..

وانتبهت عاتكة فزعة، خائفة، ثم انطلقت إلى العباس تخبره بما رأت في منامها.. وحمل العباسُ رؤيتها إلى عُتبة بن ربيعة يقصُّها عليه، فقال عتبة: «هذه والله مصيبة تحدث في قريش».

وفَشَتْ تلك الرؤيا في القوم، فهلعت منها القلوب، حتى وصلت إلى أبي جهل بن هشام، فقال ساخراً: «هذه نبيَّةٌ ثانيةٌ من بني عبدالمطلب.. واللات والعِزّى لننتظرنَّ ثلاثة أيام، فإن ظهر أن ما رأته يدلُّ على شيء اعترفنا بأنها قالت حقّاً، وإلاَّ لنكتبنَّ كتاباً بيننا: أنه ما مِنْ أهل بيتٍ في العرب أكذب رجالاً ونساءً من بني هاشم»... وخابَ ظن أبي جهل، إذ لم تمرّ الأيامُ الثلاثةُ الموعودة إلاّ ووقفت قريش ترتعد فرائصها لاستغاثة ضمضم الغفاري في بطن الوادي... وهؤلاء نفرٌ من بني هاشم، الذين أراد تكذيبهم والنيل من كرامتهم، يخرجون معه، وهُمْ في أنفسهم كارهين، لأنهم يعرفون الرجل ومقدار خبثه ودهائه اللَّذين قد يؤذيهم بهما إن لم يخرجوا... وكان ممَّن خرج من بني هاشم مع قريش العباس بن عبدالمطلب، ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وعقيل بن أبي طالب.. وتخلَّف أبو لهب، وقد تيقَّن صِدْق رؤيا عاتكة، فكان يقول لمن حوله: «إنما رؤيا عاتكة أخذٌ باليد»..

وأثناء طريق قريش إلى بدر، انفردَ جُهمُ بن الصّلْت ببعض أصحابه يروي لهم أنه رأى في منامه وكأنَّ راكباً أقبل على فرس ومعه عِيْرٌ [= حمير وبغال]، حتى وقف فوق رأسه، وهو يخبره بأن جمعاً من سادة قريشٍ قد قُتلوا، وبأن أشرافاً منهم قد أُسروا.. وما زال فوق رأسه يُعدِّد من أسماء القتلى والأسرى حتى ذكر كثيرين، ثم راح يضرب خنجره في لُبّة بعيره [= مَنْحرِه] ويرسله بين عسكرهم، والبعير يطوف بين الأخبية، فلم يبقَ خِباءٌ [= بيتٌ من الشَّعْر أو قُبّةٌ] واحد إلاّ وأصابَهُ من دمه...

وانتشرت هذه الرؤيا في معسكر القرشيين، فأراد كثيرون منهم التخلّف والعودة من منتصف الطريق، ولكنَّ مناياهم كانت قد سبقتهم إلى بدر، فشدتهم إليها، تَحولُ بينهم وبين العودة التي رغبوا فيها.

ومثل رؤيا عاتكة وجهم، كانت واحدة لضمضم الغفاري نفسه، وهو الذي أعلنَ نداء الاستغاثة، إذ قال للحارث بن عامر، وهم في الكثيب الرملي، على قرب من بدر: «أتدري يا حارث أني أفقت من نومي ليلة البارحة وأنا أرتعدُ خوفاً وغماً»؟!.

فسأله الحارث: وممَّ الخوف والغمُّ يا ضمضم؟.

قال ضمضم: من رؤيا بغيضة.. فإني وكاليقظان على راحلتي نظرت إلى واديكم ـ يعني مكة ـ فكأنَّ به دماً يسيل!..

فقال الحارث: ما خَرَجَ أحد وجهاً من الخروج أكره له من وجهي هذا!..

قال ضمضم: ولِمَ لا نجلس؟.

قال الحارث: لو سمعت منك هذا وأنا في مكة، ما خطوت وراءها خطوة واحدة... فاطوِ هذا الخبر وإياك أن تُعلمه لقريش، حتى لا نتعرض لسوء شتم.. فإنهم يتهمون كل من يحاول أن يعوقهم عن المسير!..

تلك كانت حالة قريش النفسية التي رافقتهم في فترة معركة بدر، وهي حالة لا تبعث على أية قوة معنوية، بل على العكس، إنها توحي بأسباب الضعف والهزيمة.. فالقوم ذهبوا إلى الحرب وملء قلوبهم التشاؤم والتطيُّر، ولم تكن لهم غاية مشتركة قد اتفقوا عليها، ولا بدَّ لمن كانوا كذلك أن ينتدبوا الشِقاق سيداً عليهم، وأن يحتكموا للتفرقة تقود خطاهم... ويزيد هؤلاء تصدّعاً تسلط رجلٍ مثل أبي جهل بن هشام عليهم، يخافون حقده وغدره، مثلما يخافون سليط لسانه وشنيع أفعاله... وكانت النتيجة الحتمية لذلك كله ما حلَّ بهم من انكسار وذل، أدَّى لأن يُقتَل من قُتل، وأن يولّي الأدبار من أرادَ النجاةَ خاسئاً مهزوماً.

أما المسلمون، وقد أعزَّهم الله، فقد جمعوا بعد المعركة شهداءهم ودفنوهم ثم جمعوا القتلى من الكفار وحفروا لهم قليباً [= بئرًا] يدفنونهم فيه.. ووقف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فوق ذاك القليب يخاطب أولئك القتلى من الكَفرة: «يا أهل القليب.. لبئس عشيرة النبيّ كنتم أنتم؛ كذَّبتموني وصدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرَني الناس... هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً فإني وجدتُ ما وعدني ربِّي حقاً؟».

قال المسلمون من حوله: يا رسول الله، أتنادي أقواماً قد جيّفوا؟!.
فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أنتم بأَسْمَعَ لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا».
وحانت من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يتفقد أصحابه بناظريه التفاتة نحو أبي حذيفة بن عتبة، فألفاه كئيباً، غطَّت وجهَهُ أماراتُ الحزن حتى لَيكاد الدمعُ أن يفرَّ من مآقيه، فتقدم منه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يواسيه، ويسأله:
«لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شيء؟».
قال أبو حذيفة: «لا والله يا رسول الله، ما شكَكْتُ في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من هذا الأب رأياً وحلماً، فرجوت أن يهتدي إلى الإسلام، ولكنَّه أبى إلاّ أن يبقى على كُفره، وإني أتذكر الآن ذلك فيُحزنني أمرُه.. لَكان خيراً له لو ماتَ مسلماً».
ودعا له النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بالخير، فأذهبَ عنه الحزن..
... وولَّى ذلك النهارُ بخيره وشرِّه.. إذْ كان خيراً على المسلمين، وشرّاً على المشركين... ولكنَّ آثاره ما تزال ترتسم في آفاق الأرض حتى اليوم، بما أنتجت من دروس وعظاتٍ يمكن الاهتداء بها..
واضطجع المؤمنون في مرابضهم بوادي بدر، يستظلُّون تحت النجوم، بنعيم الرحمة التي حفَّهم الله تعالى بها، لتفيء على أفئدتهم ظِلالاً وارفةً من الطمأنينة والسعادة، فينامون قريري العين، تكلؤهم عينُ ربهم الساهرة بالرعاية، بعدما أبلَوا في سبيل دينه القويم بلاءً حسناً، فحُقَّ لهم أن يَقَرُّوا عيناً وأن يهنأوا بالاً..
وطَلَعَ الصبحُ، فارتحل المسلمون قافلين إلى المدينة.. يحفُّون بالركب المحمدي، ومعهم الأسارى من المشركين، وفي حوزتهم الغنائم التي أصابوها... حتى إذا قطعوا بعض الطريق، أمر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أن ينزلوا على كثيب وصلوا إليه، وهناك قسَّم الغنائم (النَّفْل) فيما بينهم سواء بسواء.. فجعل للفَرسِ نصيباً، وللفارس نصيباً، وجعل لِوَرثة المستشهدين من المسلمين حصصاً.. وكانت حصةُ من قام بأعمال غير القتال، مثل حصة من قاتل، ومثل حصة من تخلَّف في المدينة لعذرٍ شرعي أبداه لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقَبِلَه منه.. وقد عجب بعض الصحابة لهذه القسمة بالتساوي، فسألوا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عن عدم تفريقه بين راكب أو راجل، وبين مقاتل أو قائم بعمل، وبين ضعيف أو يتيم، وقالوا:

«يا رسول الله، أتعطي فارس القوم الذي يغيظهم مثل الذي تعطيه للضعيف والبائس؟».
فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «هل تُنصَرون إلاّ بضعفائكم؟» تدليلاً منه، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن الأمرَ ليس كلُّه للقوة قبل كل شيء، بل هو للتضامن والتكافل بين الجماعة، وللوحدة وألفة القلوب وجمع الكلمة، والمصير المشترك. وعن عُبادة بن الصَّامت (رضي الله عنه) أنه قال: فينا أهلُ بدرٍ نزلت «الأنفال» حين تنازعنا في النَّفَل (الغنيمة) وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقسمه بين المسلمين على السواء.
وتابع المسلمون بعد القسمة، السيرَ إلى المدينة، حتى إذا بلغوا «الأُثْيل»، أناخوا يستريحون من وعثاء الطريق.
واختلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى نفسه، يفكِّر حتى مضت ساعة من وقت، فقام يستعرض الأسرى من قريش... فلما انتهى من استعراضه لهم، طلب إلى بعض الصحابة أن يأتوه باثنين منهم، وكانا النَّضْر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْط.. وهما من شياطين قريش، وأكثر من حرَّض على أذى المسلمين وعذَّبهم. وكانا أيضاً أشدَّ من حاول فتنة المسلمين عن دينهم، وطرح المعجزات على النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كي ينالا منه ويسخرا..
ونظر إليهما نبيُّ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نظرةً ارتعدت لها فرائصهما [= جمع فريصة، وهي لحمةٌ بين الرقبة والكتف تُرعَد عند الفزع]، وأيقنا أن الموت حالٌّ بهما.. فأسرَّ النضر بن الحارث إلى مصعب بن عمير ـ وكان قريباً منه ـ أن يطلب إلى محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، عدم قتله... فنظر إليه مصعب شزراً، وقال له: «أوَما حسبت يوماً ينقلب فيه الشر على أهله يا ابن الحارث... أو لعلّك نسيت ما كنت تفعل بالمسلمين؟. اذهب إلى نار جهنم وبئس المصير، لتلقى سوء عاقبة شرِّك المستطير». وحاوَل عقبة بن أبي مُعَيْط أن يستدرَّ الشفقَة عليه، فصرخ بأعلى صوته مخاطباً الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم:
«فمن للصبية يا محمد؟».
قال له الرسول العظيم، صلى الله عليه وآله وسلم: «النار!»..

ثم أمرَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، علي بن أبي طالب (عليه السلام) أن يبتعد بهذين الرجُلين عن أعين الناس، وأن يقتلهما لشدة فتنتهما، فالفتنة أشدّ من القتل.. وهكذا دوماً يكون مصير المفتنين، الظالمين، إذ لا بدَّ وأن يأتي اليوم الذي يلقون فيه العقاب الذي يستحقون، والقِصاص الذي يستأهلون، لأنَّ في القِصاص حياة لأولي الألباب...

وتابع أبطالُ بدر رجوعهم المظفّر إلى الديار، حتى إذا بعدوا عن «الأثيل» بعث رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عبدالله بن رواحة وزيد بن حارثة (رضي الله عنه)، يتقدمانهم إلى المدينة، بشيريْن بما فتحَ الله على المسلمين من نصر موعود وقد قال أسامة: أتانا الخبر حين سوَّينا على رقية بنت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قبرها: وكان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، خلفني عليها مع عثمان بن عفان (رضي الله عنهما).

وطارَ الخبرُ في أرجاء المدينة، فهلّل المسلمون مستبشرين فرحين.. أما اليهودُ والمنافقون فلم يصدِّقوا في بادىء الأمر ما يسمعون، أو لعلَّهم لم يريدوا أن يصدِّقوا خبراً هو أصعب عليهم من القتل، فخرجوا من أوكارهم يزرعون الشك في نفوس المؤمنين، فلم يلقوا إلاّ صدوداً واستهزاءً.. فلما رأوا أن محاولاتهم الدنيئة قد فشلت وافتضح كذبهم ومكرهم، عادوا إلى بيوتهم يقفلون على أنفسهم أبوابها وهم يكادون أن يموتوا من الغيظ...

وخَرَجَ المؤمنون لملاقاة إخوانهم، فاجتمعوا بهم في «الروحاء».. وكان لقاءً معبّراً بين الإخوة في العقيدة، وبين الأهل والخلاَّن.. فقد سالت المشاعرُ متدفقة، وقت تلاقت الأحضان، واعتنقت الوجوه، وتشابكت الأيدي، وشدَّت السواعد... وأقبلوا على الرسول العظيم، صلى الله عليه وآله وسلم، يهنئونه بالفوز العظيم، ويحاولون أن يُبْدوا أعذارهم في تخلُّفهم عن مرافقته، فيقول أسيدُ بن حُضَيْر:

«يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرَك وأقرَّ عينَك. والله يا رسول الله ما كان تخلُّفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوّاً وقتالاً! ولكن ظننت أنها عيرٌ، فقلت يكفيها من خرجوا»...

فقال له رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: صدقتَ.

والتفت مسلمة بن سلامة إلى أسيد يمازحه، وهو يقول:

«وما الداعي للخروج معنا؟ فوالله إن لقينا إلاَّ عجائز صُلْعاً كالْبُدْن المعقَّلة[1]، فنحرناها!».

---

1 المعقّلة: الأضحية المقيَّدة من الإبل والبقر، مفردها بُدْنة.

وتبسَّم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من هذه المداعبة، فقال: «أي ابن أخي، أولئك الملأ»[1].. وكانت في ذلك اللقاء لطائف كثيرة راح الجمع يتبادلونها، تعبيراً عن السرور والفرح اللذين يحقّان بنفوسهم الطيبة...

وترك المؤمنون «الروحاء» يغذُّون السير حتى بلغوا المدينة يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك.. ودخَلها رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على رأس موكبه، مظفراً منصوراً، وقد أعزَّه الله تعالى وأصحابه بما أيّدهم به من نصر، فأقبل من بقي في المدينة من المؤمنين يهنئونه بما أعزَّه الله به، وهم يدعون له بدوام النصر ونشر ألوية الحق...

وكان وصولُ المسلمين إلى المدينة قبل الأسرى بيومٍ واحد. فلما جيء بهم في اليوم التالي، أمرَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بتفريقهم بين أصحابه وهو يوصي بهم خيراً... وامتثلَ المسلمون لأوامر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فكانوا يُكرمون أولئِكَ الأسارى، ويحسنون معاملتهم، حتى لَيؤثرونهم على أنفسهم بطيبات الطعام.. ولم يعاملوهم قطُّ كأسرى إلاَّ في الحد الأدنى من تلك المعاملة التي توجب بقاءهم محتجزين، لا يتمتعون بحرية الذهاب والإياب...

ولم يشعر أسارى قريش بأي استعلاء من المسلمين عليهم، إذ لم يوجِّهوا لهم تعبيراً بهزيمةٍ أو استهزاءً بانكسار، على خلاف ما كان هؤلاء الأسارى وأقوامهم من المشركين ينوون فعله مع المسلمين لو كان لهم النصر...

أوَلم يطلب إليهم أبو جهل ـ لعنه الله ـ بأن يقتلوا الأنصار، وبأن يأسروا المهاجرين حتى يعودوا بهم إلى مكة ويذيقوهم العذاب ألواناً وأصنافاً؟!.. ولكنَّ الله سبحانه كذَّب وعده لنفسه، فثوى في المعركة قتيلاً، وبات في القليب دفيناً، وهؤلاء أبناء قومه أسارى عند المسلمين، ولكن لا يلقون إلاَّ حسن المعاملة، لأن الإسلام، يأمرهم بهذه المعاملة الحسنة، ولأنَّ رسول الإسلام يطبق تعاليمه الحقة، ومن قواعدها الأساسية الرفقُ والرحمةُ بالضعيف والمسكين..

وهؤلاء، وإن ظلُّوا على كفرهم، فإنهم الآن ضعاف، مهزومون، مغلوبٌ على أمرهم، والإسلام العظيم يوصي بالشفقة عليهم والرأفة بهم.. وكما تكون هذه المعاملة عدلاً وقت الأسر، فإنها

---

1 يعني الأشراف والرؤساء.

تبقى هي، هي، عدلاً من أجل إطلاق سراحهم.. فيتخذ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عدة طرقٍ للمنّ عليهم بحرياتهم.. فأما المتعلم منهم فشرَطَ عليه الرسول الحكيم، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يقوم بتعليم عشرة من أبناء المسلمين ثم يطلق سراحه وذلك تقديراً منه، صلى الله عليه وآله وسلم، للعلم وتشجيعاً للقراءة والكتابة، وكان ممن تعلم بهذه الطريقة زيد بن ثابت، وأما الفقراء والمساكين، فقد ردَّهم إلى أهليهم وعيالهم من دون أي فداء.. وهذا أحدهم ـ أبو عزَّة عمرو بن عبدالله بن عمير الجمحي ـ يقول لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «لي خمس بنات ليس لهنَّ شيء فتصدق بي عليهنَّ يا محمد، وإني لمعطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثِّر عليك أبداً». ومنَّ عليه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بما طلب، وأخذ عليه العهد ألاَّ يُظاهر على المسلمين أحداً.. وأما الآخرون فكان على قريش أن تفتديهم، وكان الفداء يومئذٍ من ألفٍ إلى أربعة آلاف فداءً للرجل حسب ما عنده من إمكانيات مادية..

وكان بين الأسرى أبو العاص بن الربيع، زوج زينب ـ ابنة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ـ وهو من رجال قريش البارزين مكانةً، وصاحب مال وتجارة واسعة، فبعثت زوجه بمال تفتديه ومن بينه قلادة لها، ما إن رآها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى عَرَفَها إذ كانت أمها خديجة (رضي الله عنها) قد أهدتها لها يوم زواجها من أبي العاص، فرقَّ لها النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، رقةً شديدة، وقال لأصحابه من حوله:

«هذه قلادة ابنتي زينب، فإن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها قلادتها فافعلوا»...

وأجابه الجميع: نفعل يا رسول الله...

وطلب النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، أبا العاص إليه، بعدما أفلتوه من الأسر وصار حراً طليقاً، كي يتفق معه على أن يفارق زينب وقد فرّق الإسلام بينه وبينها، فنزل أبو العاص صاغراً على أمر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، فبعث معه زيد بن حارثة وصاحباً له، فجاءا بها إلى المدينة...

هذه بعض النفحات من دروس محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، في معاملة الأسرى، وهي تحمل من المعاني الإنسانية ما تسمو به شواهِدُ ثابتة، خالدة، على عظمة ذلك الإنسان، وخِصَاله الفريدة، التي ما كانت يوماً إلاَّ نبراساً وهدى لمن أرادَ التكامل في حياته.. فقد نظرَ إلى الفقير بين الأسارى، ومن له عيالٌ يكفلها، فما فرض عليه فداءً، بل منحه حريته ليعين

العيال والأبناء.. ولم يأبه لصلة القرابة والرحم، فعامَل صهره مثل أي أسير آخر من دون محاباة أو تفرقة إلاَّ بما يتوافق والأسس التي اعتمدها لتلك المعاملة، ولذلك لم يطلق سراحه إلا بعد دفعه الفدية عن نفسه، لأنَّ هذا المال حق للمؤمنين، فلا يعقل أن يفرِّط الرسول العظيم بدرهم من هذا المال، وليس من المتصوَّر أن يأخذ هذا المال حتى ولو من زوج ابنته إلاَّ ليوزِّعه على المسلمين.

نعم هذا هو محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، الإنسان العادل في كل مواقفه، وفي كل أعماله.. وهذه هي عدالته التي جعلته لا يميّز أيضاً بين عمّه العباس بن عبدالمطلب وبين الآخرين من الأسارى، وقد ظنَّ كثيرون أن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، سوف يطلب من أصحابه أن يطلقوا سراح العباس، لأن المهاجرين يعرفونه من ذوي العزيمة الذين منعوا الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ولأن الأنصار يعرفونه أيضاً وقد رافق ابن أخيه محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، ليلة بيعة العقبة حتى يحميه من قريش.. ولكنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كان فوق كل ظنٍّ، وأسمى من كل توهُّم، إذ جعلَ عمَّه بين الأسارى حتى يؤتى إليه بمالٍ يفديه، ويفدي نفراً من أهله وحلفائه الذين خرجوا معه...

وطال الوقت وفداء العباس وأصحابه لم يصل.. فطلب مقابلة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والتحدث إليه. وجيء به إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له:

«يا رسول الله، لقد كنت مسلماً وفي صميم أعماقي مؤمناً بما تدعو إليه، وقد رآني المسلمون أدفع عنهم الكريهة، وأذبُّ عنهم الإساءة، فكيف أُعامَلُ مثل معشر قريش الآخرين؟!».

فقال له الرسول العظيم: «الله أعلمُ بإسلامك يا عمّ، فإن تكُ في جوارحك مسلماً فالله سبحانه وتعالى يجزيك على إسلامك، ولكنَّ ظاهرك كان علينا لأنك ما خرجت إذ خرجت إلاَّ لقتالنا، فوجب عليك افتداءَ نفسك، وافتداءَ ابنَي أخويك: نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وعقيل بن أبي طالب، وحليفك عتبة بن عمرو ـ أُخيّ بن الحارث بن فهر»..

قال العباس: «ما ذاكَ عندي يا رسول الله!».

قال له عليه الصلاة والسلام: «فأين المالُ الذي دفنته أنتَ وأمُّ الفضل؟ لا أظنك إلاَّ ادخرته لأبنائك الفضل وعبدالله وقثم، ولكن صار فيه حقٌّ للمسلمين إذ خرجت لقتالهم».

قال العباس: «يشهد الله ما نويت قتالك أو قتال المسلمين، ولكني أردتُ حماية الأموال، لئلا تقول قريشٌ إنَّ لها فضلاً على بني هاشم، فيعيِّروننا، وينحون علينا باللائمة إن تقاعسنا، وما ذلك من طباعنا، أن نقبل لومة لائم»..

ولكنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أفهَمَ عمَّه العباس أن الخروجَ كان خطأ بذاته، وكان يمكنه وصحبه الرجوع مثلما فعل بنو زهرة حتى لا يشاركوا في القتال.. وإذ ذاك طأطأ العباسُ رأسه خجلاً، وقد ندم فعلاً على بقائه مع قريش، فقال للرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «والله إني لأعلم أنك رسول الله. إنَّ هذا لشيء ما علمهُ أحد غيري وغير أم الفضل، وقد أسررتُ لها بصدق ما بعثك الله به نبياً ورسولاً: فهل لي من عفوٍ يا رسول الله؟ وهل تحسب لي عشرين أوقية مال أصبتموه مني من أصل فديتي عندك وفدية أصحابي؟».

قال له رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «لا!.. فذاك شيء أغنَمَنَا إيَّاه الله تعالى منك».

قال العباس: «سمعاً وطاعة يا رسول الله، فما عرفت ابن أخي إلاَّ صاحب عدل وحق، فكيف إذا كان نبيَّ الله ورسوله».

ودفع العباس الفدية التي طلبها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عنه وعن ابني أخويه نوفل وعقيل ـ وهما في الوقت نفسه ابنا عمَّيْ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم ـ وعن خليفة عتبة بن عمرو...

وما دامت هذه سيرة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قولاً وفعلاً، منهجاً وتطبيقاً، فمن أحق بالمسلمين من اتباعها والسَّير على هداها!.. فهذا مصعب بن عمير، يرى أخاه عزيزاً أسيراً لرجل من الأنصار، فلا يأبه لأسره، ولا يطلب إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يطلق سراحه، بل على العكس يقف منه الموقف ذاته الذي وقفه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، من أقربائه، فيقول للأنصاري وقد رآه يوثقه: «شدَّ يدك به يا أخي فإنَّ أُمَّه ذاتُ متاعٍ، لعلّها تفديه»..

ويدهشُ عزيزٌ لما يسمع، فيقول لمصعب: عجباً يا أخي، أهذه وصايتك بي؟!».

قال مصعبٌ: «إنه أخي دونك»..

ووصَلَ خبرُ أسرِ عزيزٍ إلى أمه، وكانت ذات مال وفير، فسألت: «ما أغلى ما فُدِيَ به قرشي؟».

قيل لها: «أربعة آلاف درهم».

فقالت: «تلك فدية ولدي عزيز...» وبعثت بالأربعة آلاف درهم فدية لابنها هذا..

وعادَ الأسارى كلٌّ إلى أهله، ولهم أن يحدِّثوا بما لاقوه من معاملة حسنة من المسلمين، ومن رأفة بهم، ومن عدالةٍ رأوها بأم العين محقَّقة لم يعرفوا بمثلها في سابق عهودهم..

عادوا وفي نفوسهم مشاعرُ متضاربة، وفي عقولهم أفكارٌ مختلطة، لا يدرون هل هُم فعلاً على حق فيما يفعلون، أم أن محمداً وأصحابه هم على حق؟!... ذلك هو شأنهم الخاص، بما يحدِّثون أو يشعرون أو يفكرون، وأما شأن المسلمين معهم، فسوف لا يكون إلاَّ وفق المواقف التي يتخذون من دينهم!.. ولكنَّ منهُم من أثَّرت فيه معاملة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الحدِّ الذي جعله يعدل عن مواقفه المعادية نحو الإسلام.. فهذا أبو العاص بن الربيع، وقد عادَ من أسره إلى مكة، ليقعد الساعات الطويلة مفكِّراً، مراجعاً لحساباته ومواقفه.. ثم يصمم على أمر، فيجهِّز قافلة من مال قريش يريد بها الخروج إلى الشام، ولكنَّ سوء طالعه جَعلهُ يقع في أيدي سريَّةٍ من المسلمين، عندما كان على مقربة من المدينة، فتصيب ما معه، ويهرب مختبئاً من مكان إلى مكان، حتى يُسدل الليل ستاره، فيدخل المدينة ويقصدُ زوجَه زينب بنت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يستجيرها، فأجارته، وردَّ المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمناً إلى مكة، يردُّه لأصحابه من قريش ثم يقول لهم: «يا معشر قريش! هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟».

قالوا: «لا! جزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيّاً كريماً».

قال: «إذن فأنا تارِكُكُمْ إلى محمد بن عبدالله، فوالله ما منعني من البقاء عنده إلاَّ مخافة أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلمَّا أدَّاها الله إليكم وفرغتُ منها، فإني ذاهب إلى حيث أرى الحق»..

وحمل أبو العاص بن الربيع ما عنده من مال ومتاع، مرتحلاً إلى المدينة، ثم جاءَ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بقلبٍ مؤمن، يُعلن إسلامه وهو يقول له: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»...

ويُسرُّ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بإسلام الرجل لأنه كان أميناً في تعامله مع الناس، وفياً على عهوده مع الآخرين، والإسلام يعتزُّ بأناسٍ يحملون مثل صفات هذا الرجل، فيبارك له إسلامه، ويردُّ عليه زوجه زينب، فيأتيها قرير العين وهو يقول لها: «والله

يا ابنة عمّ، ما خرجت من أسري عند رسول الله إلا وأنا مؤمن بصدق رسالته، حتى إذا أجرتني، علقت بي الندامة حتى كادت تقتلني، ولكن أعانني الله على الصبر حتى عدت سريعاً إلى مَن هم في الناس أشراف، وفي الحسنَى نبراس، وفي العدل ميزان»...

تلك هي معركة بدر ببعض مقدماتها وأحداثها ونتائجها، وهي تحفل بالصور والمشاهد العديدة المتنوعة، ولكن يبقى أهمّها على الإطلاق الإيمان بالعقيدة الحق، واللُّحمة والوحدة بين أصحاب تلك العقيدة بما يرضي الله سبحانه وتعالى فيمدُّها بنصر مؤزَّر في أمور الحياة كلها...

* * *

سلسلة غزوات الرسول

(5)

غزوَة بَني قُرَيظَة

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ آلْرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وفي بني قريظة، قال سبحانه وتعالى:

{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً} .

غزوة بني قريظة

انجلت الشدّة، وتفرّقت الأحزاب من حول المدينة، فدخل المؤمنون إلى بيوتهم يَلقَون الأهل والأحبة، ويحتفون بالنصر الذي حققته إرادة الله سبحانه.. ولكنَّها لم تمض إلاَّ بضع ساعات فقط وتحلّ صلاة الظهر، فيصلّيها الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، من يومه ذاك ثم يأمر بلالاً أن يصعد سطح المسجد وينادي في الناس: «مَن كان سامعاً طائعاً فلا يصلِّينَّ العصر إلاَّ في بني قريظة».

وهبَّ المؤمنون يتخلَّون عن كل شيء، فلا راحةَ ولا هناءةَ وتلك الفئة اليهودية الغادرة الباغية في حصونها أو منازلها تنصب شباك المكر والخداع للإيقاع بالمسلمين والإسلام.

أوليست هي التي نقضت عهدها مع رسول الله ظُلماً وتعدِّياً؟.

أوليس انحيازها إلى الأحزاب جعلهم يثبتون على الحصار، بعد أن كانوا في يأسٍ من أمرهم ويفكرون في الرجوع من حيث أتوا؟!.

ولم يكن من وراء ذلك الثبات إلاَّ الشدة والعذاب على المسلمين حتى شعروا أنه قد حلَّ بهم زلزال عظيم؟!...

لم يطالب المسلمون أن يقف معهم بنو قريظة في القتال، ولا خانوا عهدهم، بل كانوا أوفياء على ذلك العهد، كما يعترف به زعيم بني قريظة، كعب بن أسد ذاته عندما جاءه حُيي بن أخطب يحضُّه على شهر العداء للمسلمين والانضمام إلى الأحزاب، فيقول له: «ويحَك يا حييُّ! دعني فلست بفاعلٍ ما تدعوني إليه؛ فإني لم أرَ من محمد إلاَّ وفاءً وصدقاً».

وإذا كان زعيم بني قريظة قد عاد وآثرَ الانحياز إلى الأحزاب، فإنَّ رجالاً من بني قومه استنكروا عليه ذلك، وحاولوا أن يحذّروه من دهاء ابن أخطبَ وهم يقولون له ولمن اتبعوه: «لا تسمعوا لحُييّ فإذا لم تكونوا تريدون نُصرة محمد، فدعوه وأعداءه»...

ولكنَّ صوت الحقد والرعونة اليهودية كان قد غلب على الأكثرية الساحقة من بني قريظة، فوافقوا كعباً وصاحبه حُييّاً على نقض عهد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لهم، ثم راحوا يستعدون لمقاتلة المسلمين، ولكنَّ الله سبحانه لم يحقق لهم أمانيهم الخبيثة، فدحر الأحزاب ودحرهم، وأوقع بهم جميعاً شر هزيمة، عمّت النفوس والقلوب...

ذلك الموقف الذي اتخذه بنو قريظة والذي لم يكن يهدف إلاَّ إلى طعن المسلمين من الظهر، ما كان لِيَمُرَّ بدون حساب.. إذ كيف يأمن المسلمون بعدها جانب هؤلاء الخونة الغادرين، ويقبلون ببقائهم إلى جوارهم، دون أن يخشوا غدراً قد يكون أكبر، وخيانةً قد تكون أعتى وأشدّ؟!.

لا يمكن للمسلمين أن يتركوا بني قريظة مقيمين بينهم معتصمين في حصونهم، حتى لا يكون هنالك خطر قريب منهم!.

... فمثل هذه الأفكار لم تغب عن أذهان المسلمين من قبلُ ومنذ أن أعلن بنو قريظة الحربَ عليهم، وأنكروا نبوّة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وناصبوه العداء. وإذا كانوا يومئذٍ في ظروف لا يستطيعون معها عمل شيء حيال هذه الجماعة، فإنَّ الساعة قد حانت لتأديبهم وردِّ كيدهم ودفعِ شرِّهم.

ولذلك، ما إن سمع المؤمنون بالنداء لمحاصرة بني قريظة، حتى هبَّ كل من وقف في وجه الأحزاب، ملبياً ومشمّراً للقتال.

وما كان أمرُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالخروج إلى بني قريظة إلاَّ بعد تقديرٍ وحكمةٍ بالغَيْن.. فقد تفكر، صلى الله عليه وآله وسلم ملياً فرأى أنه لا يمكن معاملة هذه الجماعة بمثل ما عامَل به من قبل بني النضير، عندما اكتفى بإخراجهم من ديارهم فقط، وتركهم يذهبون لشأنهم، إذْ لم يقبل بنو النضير برأفة الرسول الكريم بهم، وتركهم سالمين، فراحوا يؤلبون القبائل، ويحزّبون الأحزاب عليه ثم يُجمعون على غزو المسلمين في عقر دارهم، ولذا فإنه إن ترك بني قريظة أحراراً طلقاء، فمن يضمن للمسلمين ألاَّ يفعلوا كما فعل بنو قومهم من قبلهم، فيجمعون الأعداد الغفيرة لقتالهم، وتعودُ تلك الحالة التي أوشكت أن تعصف بالإسلام وأهله لولا رحمة الله وفضله...

ومن منطلق هذا التقدير النبويّ كانت الأوامر بضرب الحصار على بني قريظة، ظهيرة انكشاف الأحزاب عن المدينة، لأنّ في مباغتتهم ما يحول دون إعطائهم الفرصة لاستزادة قواهم واستصراخ غيرهم، فاليهود أهل مكر وخداع وخيانة.. وتراصّت الصفوف أمام المسجد، فأمّرَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عليَّ بن أبي طالب (عليه السلام) على الجند، ودفع إليه الراية، ثم أمره بأن يسير لمحاصرة بني قريظة.

واستوى المهاجرون والأنصارُ في جيشٍ قوامه ثلاثة آلاف راجلٍ وثلاثون فارساً، وما أوشك العصرُ أن يحلَّ حتى كان الحصارُ حول آطام بني قريظة قد اكتمل.

وأُسقِط في أيدي بني قريظة، إذ لم يتوقعوا أن يسارع المسلمون إليهم في ذلك اليوم ذاته، بل كانوا يظنون أنهم يحتاجون إلى راحة لا تقلُّ عن أيام أو أشهر، حتى يمكنهم أن يلتقطوا خلالها أنفاسهم ويستعيدوا قواهم.. أما وقد رأَوهم قد أتوا، وأقاموا من حولهم الحصار، فإنَّ الأمر قد اختلف، وهو أمرٌ يَعِدُ بنذيرٍ مشؤوم.

ولعلَّ تلك المفاجأة قد جعلت كثيرين منهم يفقدون صوابهم، فاندفعوا إلى النوافذ، وطاقات الآطام يكيلون للمسلمين السباب، وينزلون عليهم أشدَّ الشتائم، وكانوا يتعمدون في سبابهم وشتمهم أن ينالوا من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه، ولكن المسلمين لم يردُّوا عليهم إلاَّ بالقول «السيفُ بيننا وبينكم يا معشر يهود»!.

وجاءَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يحيط به نفرٌ من الصحابة الأجلاّء، فراح يتفقَّدُ جنده، ويطوف بين محاربيه، وهو يُحيي فيهم روح العزيمة والمجاهدة، ويحثّهم على الثبات والصبر، فلا يجد بين الصفوف إلاَّ ذوي بأسٍ وشدّة، وأصحاب إيمان صادقٍ خالصٍ.. إنه الإيمان بالله العزيز القدير الذي هزم الأحزاب، وهو الإيمانُ عَينُه الذي يكفل لهم النصر، ليس فقط على هذه الجماعة من بني يهود، وهم لا يحسبون لها أيَّ حساب في القتال، بل على جيش الشِّرك والكفر بإذن الله.

وكانت الخطة التي اعتمدها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، تقوم على عدم شنّ الهجوم على حصون بني قريظة وإجلائهم عنها، بل الاكتفاء بضرب الحصار حولهم، ومنع أي مدد أو نصرة يمكن أن تأتيهم من الخارج.

ومرَّت بضعة أيام ولم يكن هنالك من هجوم، مما جعل بني قريظة يطمئنون بعض الشيء، ويتوهمون بأن المسلمين لا يريدون قتالهم بل يرغبون في التفاوض معهم، وهذا ما يمكّنهم من إيجاد الوسيلة لتقوية موقفهم.. على أن تلك الآمال بدأت تذهب أدراج الرياح، إذ اكتفى المسلمون بالبقاء في حصارهم، من غير أن يبدر منهم ما يدلُّ على أنَّهم راغبون في محاورةٍ أو مفاوضةٍ.. فراحوا يتساءلون: وماذا يريد المسلمون؟!..

وبعد التفكير والتشاور رأى بنو قريظة أن يبدأوا هُم بمدّ سُبُل التفاهم مع المسلمين، فبعثوا إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يعرضون عليه السماح لهم بالخروج مع نسائهم

وأبنائهم، وما حملت الإبل من أموال، كما فعلَ مع بني النضير، فكان جوابه لرسلهم بأنه لا خروج إلاَّ بالنزول على حكمه..

وعادوا يسألونه: الخروج بالنساء والأبناء بلا مال ولا سلاح، فلم يكن ردّه إلا كالسابق: لا.. إلاَّ أن ينزلوا على حكمه...

وأُسْقِط في أيدي بني قريظة، فاشتد عذابهم، وزادت آلامهم بعدما أيقنوا أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، فقال لهم زعيمهم كعب بن أسد: «يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خِلالاً ثلاثاً، فخذوا أيّها شئتم». قالوا: وما هي؟

قال: «نبايع هذا الرجل ونصدّقه، فوالله لقد تبيّن لكم أنه لَنبيٌّ مُرسَل، وأنَّهُ للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم».

قالوا: «لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره».

قال: «فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلُمَّ فلنقتلْ أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مُصلِتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نَهْلِكْ نَهْلِكْ ولم نترك وراءنا نَسْلاً نخشى عليه، وإن نَظْهَرْ فلَعَمري لنتَّخِذنَّ النساءَ والأبناء».

قالوا: «نقتل هؤلاء، فما خير العيش بعدهم»؟.

قال: «فإن أبيتم هذه، فإنَّ الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمدٌ وأصحابه قد أَمِنوا فيها، فانزلوا لعلنا نُصيب من محمد وأصحابه غِرَّةً».

قالوا: «نُفسدُ سبتنا ونُحْدِث فيه ما لم يُحدِثْ مَن كان قبلنا، إلاَّ من قد علمت، فأصابه ما لم يخفَ عليك من المَسْخ».

قال: «ما باتَ رجل منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدةً من الدهر حازماً».

وكان حُيي بن أخطب بينهم، إذ دخل عند كعب بن أسد وفاءً لما عاهده عليه بأن يناصره ويكون معه إن ذهبت الأحزاب أو كان النصر لمحمد، فأشار حُيي عليهم باعتماد خدعة، وهي أن ينتظروا ليلة السبت، يخرجون في غفلةٍ من المسلمين لظنّ هؤلاء بأن اليهود لا يأتون عملاً في هذا اليوم، ويولّون الأدبار، ناجين من القتل، فقال بعضهم: «لا نحلُّ يوم السبت».. وقال آخرون: «وما أدراك يا ابن أخطب أن لا تكون المصيبة أشدّ إن فعلنا،

فهل أنت ضامن لنا عدم يقظة المسلمين وقعودهم عن الترقُّب كما تظن.. إنه لرأي أخرق حقاً» ثم التفت بعضهم إلى بعض يقولون: «انبذوه ولا تستمعوا إليه»..

ودبَّ الشِقاق والخلاف بين دهاقنة بني قريظة، واشتدَّ النزاع بين أحبارهم.. وطال النقاش، واحتدم الجدل، ولم يجدوا فيما استعرضوه إلاَّ ما يورث الندم، حتى اهتدوا إلى رأي أجمعوا عليه، وهو أن يعرضوا على محمد بأن يبعث إليهم أبا لبابة، رفاعة بن عبد، أخا عمرو بن عوف، المنذر الأنصاري الأوسي، فهو نصير لهم، وله عندهم أهل وعيال، فيتشاورون معه في أمرهم.

ووافق رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على ذلك وبعث إليهم أبا لُبابة.. فلما جاءهم وجدهم على حالٍ من الخوف والذعر لا توصف.. فقد هبَّ إليه الأولاد يتمسكون بأهداب ثوبه صارخين، وأحاطت به النسوة تجهش مولولاتٍ ناحباتٍ، أما الرجال فقد بدوا شاكين متألّمين.

ورأى أبو لُبابة ما حلَّ بهؤلاء القوم، فأخذته العاطفة وغلَبتْهُ الشفقة عليهم، فراح يهدّىء من غلوائهم، ويواسي مصابهم.. ولكن هل تنفع المواساة والخطب من حولهم داهم؟! فقالوا له حائرين: «ماذا ترى في حالنا يا أبا لبابة! إنَّ محمداً قد أبى إلاَّ أن ننزل على حكمه فماذا نفعل»؟.

وبدون أن يدري الرجل ماذا يقول، ومن غير أن يعي ماذا يفعل، قال لهم: «انزلوا».. قالها وهو يشير بيده إلى عنقه وهو يريد أنْ يُفْهِمَهُم أنه الذبح.. فعلا الصراخ والنحيب، وكثر البكاء والعويل وقد أيقنوا ما هو حكم محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فيهم!.. وكأنَّ شدة الصراخ والضجيج قد أعادت لأبي لبابة رشده، وأذهبت عنه العاطفة التي غلّفت فكره، فعاد إلى صوابه وأدرك الخطأ الفادح الذي ارتكبه، وهو يفشي سراً للمسلمين ما كان ينبغي لأعدائهم أن يعرفوه، ورجع إليه وعيه فعرف أنه خالف عهد الله ورسوله.. فخرج من عند بني قريظة لا يحفل بأمرهم، وولى هارباً على وجهه، هائماً في أرجاء المدينة حتى قادته قدماه إلى المسجد، فارتبط إلى عمودٍ قريب من منبر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وآلى على نفسه مقسماً ألاَّ يذوق طعاماً أو شراباً حتى يموت أو يتوب الله عليه مما صنع.. فإن لم يُغفر له وبقي على قيد الحياة فإنه سوف لا يطأ ناحية لبني قريظة، ولا يُرى في بلدٍ خانَ فيه الله ورسوله..

ذلك ما كان من أبي لُبابة وهو يعاهد الله مُقِراً بخطأه..

أما المسلمون فقد انتظروه حتى يعود إليهم، ولكنهم استبطأوه كثيراً، فراحوا يتقصّون خبره حتى وجدوه مربوطاً في المسجد، وهو في أشدّ حالة من اللوم والأسى على نفسه، فعادوا يخبرون رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأمره، فقال: «أما إنه لو جاء لاستغفرت له، فأما إذْ فعل ما فعل فما أنا بالذي يطلقه حتى يتوب الله عليه».

واستمرَّ أبو لبابة في رباطه مقيماً على قسمه، ولا أحد يتقدّم منه إلا امرأته التي كانت تأتيه وقت الصلاة فتفك وثاقه حتى يصلي، ثم تعود وتربطه من جديد، حتى انقضت ست ليالٍ، وقد جاءت امرأته وفكت رباطه كالعادة، فوقع مغشياً عليه، خائر القوى، واهي الفؤاد، فأسرعت امرأته إليه تُسعفه، فلما أفاق قعد يبكي ويأسف على نفسه، وامرأته ترقبه راثية لحاله، وهي ترى أن أنفاسه لا تكاد تطلع من صدره إلاَّ بالجهد الجهيد..

لقد كان لوم أبي لبابة لنفسه شديداً، وندمه على ما فعل كبيراً، فتاب توبةً نَصُوحاً مخلصةً، ودعا الله سبحانه بأن يغفر له مقرّاً بذنب اقترفه لغلبة عاطفته عليه وتأثره لملاقاة القوم له..

وهنا تظهر أيضاً، كما في كل مرة، رعاية الله سبحانه لأحوال المسلمين، فُرادى وجماعاتٍ، فغفرَ الله سبحانه لهذا الرجل، وأنزل مغفرته قرآناً على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بقوله تعالى:

{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1].

وحدَّث رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، زوجه أم سلمة بتوبة الله سبحانه على أبي لبابة، فقالت مستأذنة:

«ألاَ أُبشّره يا رسول الله»؟.

فقال الرسول الكريم: «بلى، إن شئت».

فقامت أم سلمة تقف على باب حجرتها، المحاذية لباب المسجد، وتنادي أبا لبابة قائلة:

«يا أبا لبابة! أبْشِرْ فقد تاب الله عليك».

وكان في المسجد جماعةً، فهرعوا يريدون أن يفكّوا وثاقه، ولكنه أبى قائلاً: «لا! لا يفكنَّ أحدٌ وثاقي إلاَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فهو الذي يطلقني»..

---

1 سورة التوبة، الآية: 102.

ثم لما أتاه رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وحلَّه من رباطه، خرَّ أبو لبابة على ركبتيه أمامَه قائلاً:

«والله إني لَنادمٌ يا رسول الله على ما فعلت، وقد آليت على نفسي أن أهجر دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب وأن أتخلى عن مالي».

فقال له الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم: «يجزيك الثلث أن تتصدّق به»..

... وانقضت عشرون ليلةً، والحصار كان ما يزال قائماً، وكلَّما كانت تمر ليلة، كانت أحوال بني قريظة تزداد سوءاً، إذ كان الخوفُ وحده يقيمهم ويقعدهم، والعذابُ يقضّ مضاجعهم، فماذا ينتظرون من دنياهم وشبحُ الموت يخيم فوق رؤوسهم، وما يجديهم البقاءُ على تلك الحال وقد أفلت زمامُ الأمور من أيديهم؟!..

إذن فلينزلوا على حكم محمد!...

وبعثوا إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: لقد نزلنا على حكمك، وها إنا سنخرج رافعي الأيدي مستسلمين..

وبدأ بنو قريظة بالظهور جماعاتٍ جماعاتٍ، وراح المسلمون يتلقّونهم فيوثقون رجالهم بالحبال، ويضعونهم في ناحية، ويقودون النساء والذراري إلى ناحية أخرى، تلبية لأوامر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم...

فلمَّا لم يعد أحدٌ من بني قريظة إلاَّ وخرج، وبعد أن هدأ اللغط وسكن الضجيج، جاء رجالٌ من الأوس . وكان بنو قريظة حلفاءهم، يعرضون على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يعاملهم بمثل ما عامَلَ بني قينقاع، حلفاء الخزرج . وأن يقبل شفاعتهم بهم، كما قبل شفاعة عبدالله بن أبيّ عندما طلب الرأفة ببني قينقاع..

فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معشر الأوس! أترون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم»؟.

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال لهم: «فاختاروا من تشاؤون حكماً»..

وتشاوَرَ رجال بني قريظة وهم في الحبال مربوطين، فما رأوا رجلاً أفضل من سيّد الأوس، سعد بن معاذ، حكماً بينهم وبين محمد، صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان سعد بن معاذ لا يزال في خيمة الجرحى، وهي الخيمة التي كانت تشرف عليها امرأة تدعى «رفيدة» نذرت نفسها لخدمة إخوانها في الدين، فراحت تخدم في ساح الوغى وتقوم على شؤون الجرحى.. وقد كان سعدُ بن معاذ ما يزال في خيمتها منذ جُرِح، إذ طلب يومها الرسول الكريم أن يجعلوه عند «رفيدة» فيعوده من قريب..

فلما طلب بنو قريظة أن يكون سعد بن معاذ حكماً عليهم، أمَرَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بإحضاره، فذهب نفرٌ من بني قومه ـ الأوس ـ وحملوه على دابة، وراحوا في الطريق يلحّون عليه ويرجونه بأن يرأف بحلفائهم بني قريظة، وأن لا يجعل حكمه قاسياً عليهم، وكانوا يقولون له: «يا أبا عمرو!. أحْسِن في مواليك، فإنّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد ولانا أمرهم لنحسن فيهم، فأنت قد رأيت ما فعله ابن أبيّ من أجل حلفائه». وكانوا يلحّون عليه في ذلك وهو ساكت لا يجيب. وما زالوا به على تلك الحال لا ينفكّون عن ترداد شفاعتهم تلك، حتى أخرجوه عن صمته، فقال:

«لقد آنَ لسعدٍ ألاَّ تأخذه في الله لومة لائم».

وانتهوا بسعدٍ إلى مجلس رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأدناه بقربه وراح يطمئن على حاله ثم قال له:

«احكم فيهم يا سعد».

قال سعدٌ: «الله ورسوله أحقّ بالحكم».

قال له الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «قد أمرك الله أن تحكم فيهم».

إذ ذاك قال سعدٌ للمسلمين: «عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه أنَّ الحكم فيهم بما حكمت»؟.

قالوا: «نعم».

قال سعدٌ، وهو يغض الطرف مشيراً ناحية رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إجلالاً له: «وعلى من هنا»..

فقال الرسولُ الأعظم: «نعم».

عندها قال سعدٌ لبني قريظة: «وأنتم يا بني قريظة، أترضون بحكمي»؟.

قالوا: «نعم، وقد ولّيناك حاكماً بأمرنا قبل أن تجيء...».

قال: «عهدُ الله وميثاقه بأنَّ الحكم فيكم ما أحكم به»؟

قالوا جميعاً: «نعم»..

فقال سعدٌ: «فإني أحكم أن تُقتَل الرجالُ، وتقسَّم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء»...
فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات»...
وهلع بنو قريظة للحكم...
فما بال هذا الرجل قد تنكّر لهم!.. ألم يكن حليفهم؟ أوَليسَ هو الذي اختاروه دون غيره من الرجال والحكام كي يرأف بهم؟!.. لا شكَّ بأن هذا الرجل قد فقد عقله حتى يجعل مصيرهم أسوأ مصير عرفوه..
وأراد بنو قريظة الاحتجاج، مبدين التصايحَ ومظهرين الغضب، ولكن دون جدوى، فقد كان حكم سعد بن معاذ، هو حكم الله عليهم، لأنَّ أي حكم آخر لا يمكن أن يوازي غدْر هذه الجماعة وخيانتها، ولا يمكن أن تؤمن عواقبه بما قد يحمل من أخطارهم على المسلمين.
صدر الحكم، فاقتيد الرجال من بني قريظة إلى دار أسامة بن زيد في المدينة، والنساء والذراري إلى دار كيسة بن الحارث، ثم حُمل المتاع والسلاح ووضع في مكان معين..
وأمَرَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن تحفر لمن ينفذ فيهم الحكم حفرٌ كبيرة، فكانوا كلما قتلوا جماعة من رجالهم دفنوهم في حفرة ثم غطّوها بالحجارة والتراب بإحكام حتى لا تنتشر الروائح الكريهة والأوبئة..
وكان حيي بن أخطب بين رجال بني قريظة، إذ جاؤوا به مع كعب بن أسد لتنفيذ الحكم، فنظر إليه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قائلاً: «ألم يمكّني الله منك يا عدو الله»؟!..
قال حيي: «بلى... أبى الله إلاَّ تمكينك مني!.. والله ما لُمت نفسي في عداوتك قطُّ، ولكنه من يخذل الله يُخذَل»..
ثم نظر إلى الجموع المحتشدة وقال:
«أيها الناسُ، إنه لا بأسَ بأمر الله، كتابٌ وقَدَر، وملحمة كتبت على بني إسرائيل» فإذا بأصوات ترتفع وتنادي بالإسراع في قتله وهي تقول:
«ما كان الله سبحانه ليظلم أحداً، وما كان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ليأمر بظلم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»...
وجيء بحيي فضُربت عنقه، وسلمَ الناسُ من شرّه..

وفي ذلك الوقت أسلَمَ ثلاثة رجال من بني قريظة، فأمّنهم رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وصاروا إخوة في الدين..

وكان من بني قريظة عمرو بن سعد، قد وقف ضد الرأي في نقض العهد من المسلمين، وقد شهِدَ بذلك عددٌ من الرجال، فأمَرَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بألاَّ يقتل، بل يطلق سراحُهُ، على ألاَّ يبقى في المدينة، فذهب مولّياً الأدبار، لا يعلم إلاَّ الله سبحانه وجهة سيره، فلما ارتحَلَ قال الرسول الأعظم: «ذاك رجل نجّاه الله بوفائه»..

وكان رفاعة بن السموأل، قد بعَثَ وهو في الأسر إلى أم المنذر الأنصارية أن تجيره، وكانت تلك المرأة تعلم بعض الفضائل التي تميّز بها هذا الرجل عن بني قومه، فلما جاءَها رسولُهُ ذهبت إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، تستوهبه، فوهَبَهُ الرسولُ الكريم.. وكان لذلك أثرٌ كبيرٌ في نفسه، إذ لم يلبث إلاَّ أن تفكّر وأدركَ، فأعلن إسلامَهُ صادقاً..

وهكذا نُفّذ حكمُ الإعدام في رجال بني قريظة، فما جاءَ ليلُ ذلك اليوم إلاَّ وكانوا جميعهم، وهم يزيدون على ستمائة رجل، قد ذاقوا الموت مستحقين..

ثم إنَّ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قسَّمَ أموال بني قريظة، والنساءَ والأبناءَ، على المسلمين، وأمر ببعض السبايا أن تُحمل إلى نجد وبلاد الشام، تباعُ لتأمين السلاح والخيول.. كان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يكره العبودية، وقد عمل على نبذها من قبل، إلاَّ أن الله سبحانه يأمره بأن يعامل الفئة الباغية بمثل ما تُعامِل به المسلمين. وذلك لقوله تعالى:

{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}[1].

فمن قَبْلُ غدرَ أعداءُ الله بالمسلمين في مواقع عديدة، فقتلوا أربعين بلا ذنب، وقبله باعوا اثنين لقريش في مكة، بعد قتل رفاقهم!... فإن لم يظهر المسلمون لسكان الجزيرة، وهم على ما هم عليه من عقلية جاهلية، وطباعٍ وعادات قاسية، أنَّ بإمكانهم استعمال الأساليب التي يستعملها أعداؤهم، لكان ذلك مدعاةً للاستخفاف بشأنهم، وعدم الركون إلى قدرتهم، ومن أجل ذلك اختار رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عدداً ضئيلاً من السبايا وأرسلَهُ للبيع في البلاد البعيدة، ولو أرادَ خلاف ذلك لكان بعث بالسبايا كافة للبيع، ولَمَا كانَ قد أعطى الأوامرَ الشديدة بألاَّ يفرق بين الأم وابنها في القسمة وهو يقول للمسلمين: «لا يفرَّق

1 سورة النحل، الآية: 126.

بين الأم وولدها حتى يبلغوا».. ولما كانَ أيضاً قد جعلَ من ريحانة بنت عمرو، وقد كانت من نصيبه في القسمة، سَيّدةً مصونة، تقيم في بيته، حتى يتوفاه الله سبحانه، وهي ما تزال عنده..

وكانت الأخبارُ بما حلَّ بالأحزاب قد بلغت الجزيرة كلها، فأيقنَ الناسُ أن هناكَ قدرة خفية سماوية ترعى المسلمين، وتكلؤهم بعين الرعاية والحفظ، وإلاَّ لما كانت تسلّط على أعدائهم قوى الطبيعة لتعصف بهم وتبدّد ما يتمتعون به من قوة، في كل مرّة يشتد الخطب فيها على المسلمين..

وكانت تلك الأخبارُ قد تناهت إلى مسامع بني يهود، فقالوا: «لا نحفل بما يجري».. فلما أن عرفوا ما حلَّ ببني قريظة جزاءً لنقضهم العهد، قال أحد زعماء بني النضير، وهو سلامٌ بن مشكم: «هذا كله عمل حُيي بن أخطب.. ما كان أحرى بالرجل أن يترك بني قومه وشأنهم ولكنه أبى إلاَّ أن يناجز محمداً وأصحابه فكانت تلك المصيبة الدهماء».

... الآن قد فرغت المدينةُ من أعداء الله، فحقَّ للمسلمين أن يهنأوا بالظفر وأن يلاقوا الراحة..

لقد عمَّتِ الفرحةُ والسعادة جميع بيوت المؤمنين، فطابت النفوس راضية، واستوثقت بحكم الله قانعة..

وإذا كان الله سبحانه قد أفاءَ على المسلمين بتلك الراحة، فمن أحقُّ بها، بعد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، غير المؤمنين الصابرين المجاهدين؟!..

وهل كان سعد بن معاذ، إلاَّ أحد أبرز هؤلاء المؤمنين؟!..

فها هو يتفكّر بقدرة الله، وبنعمائه السنّية، فيقرَّ عيناً، ويهنأ بالاً...

لقد دعا سعدٌ (رضي الله عنه) ربَّه، ساعة جُرِحَ، وعرفَ أن جُرحَه بليغٌ، وأنه قد يلاقي ربّه بين لحظة وأخرى، بأن يرأف الله سبحانه به فيمنحه فرصة من العمر ليناجز قريشاً إن أرادت حرباً على المسلمين، أو أن يشهد قصاص بني قريظة جزاءً على نقضهم العهد وإنزال الشدة بالمسلمين، ومن بعدها فليمت قريرَ العين وقد اطمأنَّ على الإسلام سيّداً...

... ويتفكّر سعدٌ بدعائه لله سبحانه، فيرى أنَّ الله سبحانه قد استجابَ له، فجعله هو ذاته حكماً على بني قريظة، فيقرَّ عيناً.. ويذهب به الخيال إلى البعيد، وكأنه يريد أن يستشفَّ المستقبل، فيقول في نفسه: «إن رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قائم في المسلمين،

فلا خوف عليهم، وإنَّ الإسلام دينُ الله الحق، فلا خوف عليه، فالله تعالى ناصرٌ دينه لا محالة».. وتسري الطمأنينة في وجدان هذا الصحابي الجليل فيقول: «لم يبْقَ لي مطمع إلاَّ في الشهادة»..

ولقد كُتبت له الشهادة منذ أن جُرِحَ قرب الخندق.. فما أن توجَّهَ بدعائه الخالص المخلص، ساعتئذٍ، ورجا ما يرجوه من ربّه، حتى كانت الملائكة قد حملت ذلك الدعاءَ كلماتِ حقٍ على أبسطة من نور، فتنشرها في الوجود كله أصداءَ نفسٍ تحبُّ الله ويحبها الله سبحانه، فتستبشر الملائكة فَرِحةً وهي تقول: «بارك الله لسعدٍ ابن الأرض فقد بات يستحق بأن يكون عبداً لله سبحانه»..

ولقد كانت الاستجابة السنية عظيمة لدعاء سعد..

وكيف لا تكون وسعدٌ قائم في وسط الشدّة والكرب، لا يعبأ بدمائه تنزف، ولا يهتمُّ أن لا أحد يستطيع وقف هذا النزف، بل تصبو نفسه إلى أملٍ واحد، وهو أن ينصُرَ الله سبحانه الإسلام..

فللَّه درُّ هذا الصحابي ما أعظم إخلاصَهُ في إيمانه، وما أقربه إلى ربه.. فأمَّا أن يكون الله تعالى قريباً من عبده، فهذا أمر بديهي، شاءته العزة الإلهية منذ أن خلقت الإنسان، بقوله تعالى في محكم كتابه العزيز:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[1]..

فلا وجودَ أبداً لمسافة تفصل الخالق عن مخلوقه، لأنه سبحانه أقرب إليه من خفقان قلبه.. وهذا هو السرُّ الذي قد يخفى على كثير من الناس، ولا يدركونه، فيذهبون مندفعين في طلب الدنيا، متنكرين لخلقهم، وما هم عليه من صنع دقيق وإتقان عظيم، ومتناسين تلك العطايا الكبيرة التي منَّ الله تعالى عليهم بها عندما سألوه: {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}[2].

نعم! أن يكون الله تعالى قريباً من عبده، فهذا الحق المطلق، وأما أن يكون العبد قريباً من ربّه، فهنا حكمةُ الإنسان وهدايته... وليسَ أوجَب على هذا الإنسان، وحتى يبلغ هذا القرب إلاَّ أن يكون مستجيباً لخالقه كما هو مطلوب منه، وهذه الاستجابة هي التي تؤمن له القرب من ربه، لقوله تعالى:

---

1 سورة ق، الآية: 16.

2 سورة إبراهيم، الآية: 34.

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[1].

ويبرز سعدُ بن معاذ على مدار الزمان إنساناً استجاب لربه.. فآمن بالإسلام، وصدق رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء هو لرفع كلمة الحق، وبذَلَ كل ما مَنحهُ الله تعالى من نفسٍ ومن نفوذٍ ومالٍ، في سبيل الله.. فهل ثمَّةَ أحسنُ استجابةً، وأخلصُ عبوديةً، وأشدُّ إيماناً من ذلك؟!..

وكيف إذن لا يستجيب الله سبحانه لدعائه؟!..

بلى: والله إن سعداً من الشهداء الأبرار.. قرّت عينُه بالحكم الذي هداه الله إليه، فنامَ قريرَ العين، يغفو في طيب الشهادة. وتحين ساعةُ حملِ جثمانِه، فيعجب الناسُ من حملِهِ الخفيف، فيقول بعضُهم لبعض:

«والله إنه كان لَبادِناً [= سميناً]، وما حملنا من جنازةٍ أخفّ منه».

ذلك أنَّ الميت يثقل حملُهُ، ويزيد هذا الثقل إن كان بديناً، كما كان سعد بن معاذ (رحمه الله)، ولكنَّ جثمانَ سعد وهو منقولٌ إلى قبره، لا ثقل له!... فيعجب الناسُ، ولكنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو العالم بالأمر لا يأخذه أي عجب، بل يقول للناس، ليُذهِبَ عنهُم ما يخالطهم من تساؤلات: «إنَّ له حَمَلةً غيرُكُمْ. والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد، واهتزَّ له العرش»..

... نعم، نزلت الملائكة تخفُّ بجثمان سعد بن معاذ، وتحملُهُ إلى الخلود، وهي مستبشرة بهذه الروح الكبيرة تشع إيماناً خالصاً وتتوهج نوراً قدسيّاً..

فهنيئاً لك أيها المسلمُ الصادق، يا سعد بن معاذ، على هذه المكانة الرفيعة التي منحك إيّاها ربك، وألهم الله تعالى أهلَ الإسلام كي يسيروا على خطاك وينهجوا نهجك حتى يحظوا بالمكانة التي حظيت..

ولم تُحزن المسلمين شهادةُ سعد بن معاذ، بل على العكس كانت لهم سِمةَ عزةٍ وكرامةٍ، لأنها الشهادة التي تثبت رعاية الله لجنده، وتحقق للمستشهدين الكرامة عند ربهم..

إنهم جميعاً رجالٌ عاهدوا الله.. فمنهم من قضى نَحْبَه، ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلاً. فحقّ لهم فيما قضوا، وفيما ينتظرون أن ينعموا بالفخار والسؤدد..

---

1 سورة البقرة، الآية: 186.

هكذا، وبالقضاء على بني قريظة، خلت المدينة من الأعداء وارتاحت من المنافقين، بعد أن فقدوا المؤلّبَ والنصير، ولاذوا بأنفسهم يحتمون من الخطر على حياتهم، فلم تعد لهم أصوات تُسمَعُ، أو شأن يبرز.. لقد كانت لهم شوكة ولكنها انكسرت إلى الأبد، فلا تقوم لهم بعْدها قائمة على الإطلاق.

وبالمقابل راحت أمور المسلمين تستوي شيئاً فشيئاً، وتسير في طريق أقلَّ تعثراً وأكثر أمناً. وأخذت الدعوة الإسلامية تتسم بطابع القوة والغنى والاعتزاز، بدلاً من طابع الضعف والفقر والاستكانة الذي رافقها في مراحل عديدة من حياتها السابقة..

فسلاح المشركين والخائنين الذين استولوا عليه، وما أضافوا إليه من عتادٍ وعدَّةٍ صنعوها، وفَّرت لهم القوة الكافية، والأموالُ والأمتعة التي أصابوها أمّنت لهم أسباب العيش الوافرة.. وإنه لو لم تكن غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، وما آلتا إليه من الناحيتين المادية والمعنوية، لما كان للدعوة ذلك الطابع الجديد. ومما لا شك فيه بأنَّ الفضل كله في تينك الغزوتين كان لله تعالى ولرسوله العظيم.. ففي غزوة الأحزاب قال عزَّ وجلَّ:

{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً}[1].

وفي بني قريظة، قال سبحانه وتعالى:

{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً}[2].

* * *

1 سورة الأحزاب، الآية: 25.
2 سورة الأحزاب، الآية: 26.

غزوة بني لحيان

كانت السنة الخامسة للهجرة قد أشرفت على نهايتها لمّا ظفر المسلمون ببني قريظة وخلصت المدينة من الأعداء، فانصرف الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى تقوية دعائم المجتمع الإسلامي، شأنه في كل مرة تنأى فيها ظروف الحرب والقتال، وتتاح له الفرصة لذلك البناء المجتمعي.

وإذا كان سلطان الإسلام قد بدا قوياً في ذلك الحين، إلاّ أن أعداءه كانوا ما يزالون كثيرين في شتى أنحاء الجزيرة، ولذلك فإن الاهتمام الداخلي لم يصرف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على أن يبقى دائماً على الحذر واليقظة خوفاً من غدر مفاجىء، أو مداهمة سريعة؛ فكانت عيونه منبثة في كل مكان ترقُبُ وترصدُ تحرّك العرب واليهود، حتى إذا حاولوا القيام بعمل ضده، سارع إليهم يأخذهم على حين غرّة، فيشتت قواهم حتى لا يبقى لهم مجال للاتفاق عليه، أو السير إليه في أي حالٍ من الأحوال.

وإذا كان الثأر ما يزال يومذاك من عادات العرب المستحكمة في نفوسهم، فإن الإسلام ولا شك ينبذ تلك العادة الجاهلية ويعمل للقضاء عليها، إلاَّ أنه يأمر في الوقت ذاته بإنزال أشدّ القصاص بأهل الغدر والخيانة إذا قاموا بعمل يستدعي مثل هذا القصاص، وذلك حرصاً على اجتثاث جذور الشر، واستئصال العقبات التي تقف حائلاً دون انتشار الإسلام في المدى الذي يجب أن يصل إليه، أو تسدّ الطرق والمنافذ أمام هُداهُ للناس.. فقد كان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يحرص دوماً على تطبيق هذه القاعدة كلما برز مكان للغَدر وأهله..

ولم ينسَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن بني لحيان قد جاؤوه منذ سنتين مخادعين، يطلبون أن يبعث معهم نفراً من قرّاء المسلمين يعلِّمونهم الدين ويفقهونهم به، حتى إذا أوفد معهم في تلك المهمة ستةً من الصحابة الأخيار، انقضّوا عليهم في ماء الرجيع، فقتلوا من قتلوا، واقتادوا من اقتادوا إلى قريش للبيع والإذلال..

فتلك الخيانة الكبيرةِ لم تكن لتمرَّ بدون قِصاص، فما إن استهلَّ شهر ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة، حتى جهّز رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كتيبة من فرسان

المسلمين، وخرج على رأسها في مئتين من الرجال الأشدّاء، يريد تأديب بني لحيان، الذين ينزلون في وادي «فَزّان» من نواحي مكة بالحجاز. ولقد آثر أن يخفي مقصده حتى لا يعلم به العدو فيتخذ له الحيطة اللازمة، فخرج من المدينة مُيمّماً نحو الشمال، ومظهراً أنه يريد الشام، حتى إذا بَعُدَ به المسيرُ، وصارَ في منأى عن شبهة ذلك العدو وظنونه، عاد وانفتل راجعاً إلى طريق مكة، منحدراً إلى ناحية الجنوب، ومراده الوصول إلى «فزان» في أسرع وقت، إلاَّ أن قوماً كانوا قد رأوه في انحداره ذاك فأسرعوا إلى بني لحيان يخبرونهم بأمره، فأدرك هؤلاء أن محمداً قد جاء يريدهم، فهربوا يعتصمون برؤوس الجبال ومعهم متاعهم، وبذلك فات رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يصيبهم إذ وجد ديارهم خاوية خالية من الناس والعجماوات.. فأقام في تلك الناحية سحابة يومين، بعث خلالهما باثنين من فرسان الإسلام إلى ناحية مكة، فسارا حتى بلغا مكاناً قريباً من مكة يسمى «كراع الغميم» فلبثا قليلاً فيه ثم عادا إلى «فزان»، وبوصولهما أمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الناس بالرجوع إلى المدينة، وقد دخلها بعد غياب أربع عشرة ليلة، في يوم قائظ بلغ من قيظه أن كان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: «آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون. أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال».

* * *

غزوة ذي قرد

لم تكد تمرُّ بضع ليال على أوبة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى المدينة من غزوة بني لحيان، حتى أغارَ عيينة بن حصن في رجال من غطفان على نوقٍ لقاحٍ للمسلمين كانت ترعى بين أشجار «الغابة»[1] في أطراف المدينة...

ولقد كان دافع عيينة إلى ذلك الغزو الخذلان الذي عاد به من غزوة الأحزاب. إذ كانت غطفان قد عوّلت على صلح مع المسلمين تنال فيه من ثمرات المدينة وخيراتها ما يشبع أطماعها، فلما أن أبى المسلمون أن ينيلوها شيئاً من أموالهم، عزمت على أن تأخذ عن طريق السلب والنهب ما لم تستطعه عن طريق الصلح.

وكانت النوق الحوامل في رعاية رجل من بني غفار وامرأته، فقتله رجالُ غطفان وساقوا الإبل واختطفوا المرأة، إلاَّ أن سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي كان قد رآهم بعدما خرج في الصباح الباكر يريد «الغابة» متوشحاً قوسه ونباله، فصرخ بأعلى صوته وهو مشرف على ناحية من «سَلْع»: «واصباحاه»! حتى أسمع ما بين ناحيتي المدينة.

وسمع المسلمون تلك الاستغاثة، فهبَّ جمع منهم وهو ينادي: «يا خيل الله اركبي».. وكان أول الواصلين إلى رسول الله الذين سارعوا يستبقون إلى تلبية النداء، المقداد بن الأسود فأمره رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يخرج ومن جاء من فرسان المسلمين في طلب القوم حتى يجهّز الرجال ويلحق بهم..

أما سلمة فكان قد اندفع بعد ندائه، يلحق بالغزاة حتى أدركهم على ماء «ذي قرد» وهم يستقون، فجعل يرشقهم بالنبال وهو يقول:

«أنا، أنا ابن الأكوعِ والیوم يوم الرُضَّع»[2]

وفي هذه الأثناء كانت طلائع فرسان المسلمين قد اقتربت، فسارع عُيينَة وأصحابه في الفرار من وجوههم نجاةً بأنفسهم، لكن الفرسان كانوا قد أدركوا مؤخرتهم فقتلوا ثلاثة منهم، واستنقذوا بعض الإبل، بينما أفلت الباقون بعيداً عن منازلهم.

---

1 موضع قرب المدينة بينه وبين سلع ثمانية أميال.

2 الرضع: اللئام.

وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد وصل في خمسمائة من الفرسان إلى «ذي قرد»، فأبدى فريقٌ حماسةً واندفاعاً، وهو يريد اللحاق بالغزاة الفارين، إلاَّ أن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ردَّهم عن ذلك بعد أن كان رجال غطفان قد بلغوا منازلهم.

وعَرَف الرسول الكريم ما أبداه سلمة بن الأكوع من ضروب الشجاعة والإقدام، فأثنى عليه وقال:

«خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخيرُ رجّالتنا اليوم سلمة».. وقد أكرمه الرسولُ الكريم على صنيعه الحسن ذاك بأن كان يعطيه سهم الراجل والفارس معاً..

وأقام الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في تلك الناحية يوماً وليلة، ثم قفل راجعاً بالمسلمين إلى المدينة، فما إن دخلوها، حتى كانت المرأة التي اختطفت قد لقحت بهم، إذ استطاعت أن تتغفَّل القوم أثناء انشغالهم بالقتال وتفلت من إسارهم، فسارعت إلى ناقةٍ من نوق المسلمين تركبها وتُغِذُّ السَّيْرَ فارَّة بنفسها.

وجاءت تلك المرأة تقص على النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، خبرها، وتعلمه بأنها نذرت لله تعالى أن تنحر الناقة التي حملتها إن نجَّاها الله سبحانه عليها.. فتبسَّم رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يسمع ما تقول المرأة، ثم قال لها: «بئس ما جزيتها أنْ حمَلك الله عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها، إنه لا نذرَ في معصية الله، ولا لأحد فيما لا يملك.. ارجعي إلى أهلك على بركة الله»..

* * *

مقتل أحد زعماء بني النضير أبي رافع سلام بن أبي الحقيق

وكأنَّ غزوة عُيينةَ بن حصن لأطراف المدينة، قد أوهمت البعض بأن المسلمين ما زالوا أضعف مما يظنُّهُ الناس ومما تنشر الأخبار عن قوتهم، وإلاَّ لما كانوا تركوا بني غطفان يفلتون من أيديهم..

ولاقت تلك الظنون أكثر ما لاقت هوىً في نفوس اليهود، وبخاصة منهم بني النضير الذين لجأوا إلى خَيْبَر بعد إجلائهم عن المدينة، وأحكموا سيطرتهم عليها حتى صاروا أسيادها.. ولذلك رأى أبو رافع بن أبي الحقيق، أحد زعماء بني النضير، أن يخرج ليؤلّب بعض القبائل على محمد، فلعله يستطيع كما فعل من قبل هو وحُيي بن أخطب أن يجمع الجموع من جديد لغزو المدينة واستئصال محمد وأصحابه.. وكان أبو رافع صاحب تجارة واسعة ومال كثير، حتى كان يلقَّب بتاجر الحجاز..

حملَ هذا الرجلُ مالاً وفيراً معه، وراح يتنقّل بين بني غطفان ومن جاورهم من قبائل العرب، وهو يغريهم بالمال كي يستعدوا لقتال محمد من جديد.

وعَرفَ المسلمون بأمره، فجاء إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، خمسة من بني سلمة من الخزرج وهم: عبدالله بن عتيك، وعبدالله بن أنيس، ومسعود بن سنان وأبو قتادة بن ربْعيّ وأسود بن خُزاعيّ، حليفٌ لهم، يستأذنونه في قتل ابن أبي الحقيق حتى يكونوا على قدم المساواة مع إخوانهم من الأوس الذين كان لهم فضل في قتل كعب بن الأشرف، وحتى لا يظلَّ ذاك اليهودي داعيَ إثارة للأعداء.. وأذن رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، للنفر الخمسة الذين جاؤوه بالذهاب إلى خيبر في المهمة التي أرادوها، وقد أوصاهم، صلى الله عليه وآله وسلم، ألاَّ يقتلوا وليداً أو امرأة، ولا ضعيفاً أو كهلاً، ممن لا قدرة لهم على حمل السلاح..

وخرج هؤلاء النفر إلى خيبر، فلمّا بلغوها رأوا أن يكتموا أمرهم متخفين، حتى إذا هدأت الطرقات من المارة وسكنت الحركة قصدوا منزل اليهودي مقدّمين أمامهم عبدالله بن أبي

عتيك لأنه كان يحسن اللغة العبرية، ودقّ الباب، فخرجت امرأته فقالت من الطارق؟ قال: جئنا نلتمس الميرة..

وأسرعت امرأة أبي رافع تفتح الباب، فإذا بها ترى رجلاً يستلُّ السيف في وجهها ويهددها بالقتل إن صاحت أو علا صوتها. وممَّا زاد في خوف المرأة، وعقل لسانها عن النطق أنها رأت وراءه أربعة رجال يحملون سيوفهم، ويأمرونها بأن تدُلَّهم على مكان زوجها، فقادتهم إليه مكرهة، وأرشدتهم إلى حجرته..

ودخل الرجالُ على أبي رافع ليجدوه في بهوٍ فسيح، وقد انشغل في عدّ الأموال بين يديه فتقدموا منه مسرعين، لا يدعون له فرصة لسؤالٍ أو لقول كلمة واحدة، بل يهوون عليه كلٌّ بضربة سيف تزهق روحه، ولم يكتف عبدالله بن أنيس بضربته، بل وقف فوقه وغرز ظُبَّةَ السيف في بطنه حتى بلغ الفراش الذي كان يتمدّد عليه.

.. فلما أيقنوا هلاكه تركوه، وخرجوا على عجالة يلاحقهم صراخ زوج المقتول..

وكان عبدالله بن عتيك رجلاً ضعيف النظر، فزلَّت قدمُه وهو ينزل على السلَّم مسرعاً فأصيبت إحدى رجليه إصابة منعته عن التقدم مع رفاقه، فعادوا إليه يحتملونه حتى أتوا شقاً في الحصن نافذاً، يجري الماءُ فيه، فدخلوه مختبئين.. وسعت في أثرهم جماعة كبيرة من خيبر، تحمل المشاعل وتبحث في الجوانب والطرقات إلاَّ أنها لم تعثر عليهم، فظلوا متخفين عن العيون حتى واتتهم الفرصة فخرجوا يحملون صاحبهم عبدالله، ويقفلون راجعين إلى المدينة، ليأتوا رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويخبروه بالقضاء على أبي رافع العدو الحاقد، إلاّ أَنَّهم اختلفوا في الإجهاز عليه، وكان كل يدعيه لنفسه، فطلب منهم الرسول العظيم أن يعطوه أسيافهم، وبعد أن تأمّلها وفحصها أعادها إليهم وهو يشير إلى سيف عبدالله بن أنيس، السيف الذي أجهز على عدو الله، وقد عرفه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من الآثار التي كانت ما تزال عليه من جوف القتيل..

وهكذا كانت السنة السادسة للهجرة مليئة بالسرايا والمناوشات الدائمة، لا يهدأ فيها المسلمون أبداً، يأمرهم الرسول الأعظم بالخروج، قاصدين مختلف الأنحاء في شبه الجزيرة، حتى أمكنهم الوصول إلى أطرافها، كي يغزوا الأعداء أينما وجدوا، ويداهموهم قبل أن يستعدوا، معتمدين في ذلك عنصرَ المفاجأة حتى تبقى المبادرة بين أيديهم، فلا يفرض عليهم قتال، بل هم الذين يفرضونه أينما أرادوا، ووقت ما شاؤوا..

ولكن العنصر الأهم، والأعلى شأناً في قتال المسلمين، كانت الفضيلة التي اعتمدها الرسول الحكيم، صلى الله عليه وآله وسلم، والتي كان يوصي بها قادة حربه وسراياه. فقد كان، صلَّى الله عليه وآله وسلم، يأمر جيشه بالتأني قبل أن يتقدّم للقتال، وكان يدعو المؤمنين ألاَّ يتمنوا قتالاً، لأنَّ فيهِ امتحاناً للقلوب وهدماً للأجسام، فكان يقول عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «لا تتمنوا لقاء العدو، وإذا لقيتموه فاصبروا»..

وكان، صلى الله عليه وآله وسلم، حريصاً على منع القتال حتى عند أخذ الأهبة له. ونحن نراه، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد زمنٍ من هذه الأيام، يقول لمعاذ بن جبل، وقد أرسله إلى اليمن قائداً: «لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم، فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ثم أروهم ذلك وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا سبيل؟ فلئِنْ يهدِ الله على يديك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس»..

ومثل هذا التوجيه كان من رسول الله في وقت كان الله سبحانه قد أعزَّ الإسلام، وجعله ديناً ثابتاً، موطَّد الأركان والدعائم، لا ديناً يقاتل أتباعه كي يردوا عنهم هجمة الأعداء، ويستميتوا في سبيل حرية معتقدهم..

فسنة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في الحرب كانت دائماً مجسدة في وصاياه التي تحمل الرحمة والرأفة، والشرف والرفعة، وكلّ ما يرتجى منه خيرُ الإنسان. وما كان الرسولُ الكريمُ يأمر جماعةً بالخروج إلى القتال إلاَّ ويوصيهم قائلاً: «انطلقوا باسم الله وعلى بركة الله. لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً ولا امرأة، ولا تَغُلّوا[1] أو تخونوا، وضمّوا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله تعالى يحب المحسنين».

هذه هي تعاليم الحرب الإسلامية، تظهر في وصايا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لجنوده.. ومنها يظهر جليّاً أن الحروب لا يجوز أن تكون إفناءً وإتلافاً، ولا إفساداً أو تحلّلاً من القيود الإنسانية، بل هنالك أهداف يجب أن تكون مشروعة، وقد فرضت الحرب كوسيلة أخيرة لتحقيق هذه الأهداف. أو قد تكون هنالك حقوق مسلوبة، والواجب الديني والدنيوي يفرض استرجاعها.. فلا يجوز أن تكون الحرب من أجل الحرب، أو من أجل المطامع والاستغلال والظلم، ومتى خلت الحرب من المطامع والنزعات الشريرة فلا يمكن أن يباح فيها كل شيء، كما يفعل مجرمو الحرب في أيامنا هذه، حيث يتحللون من جميع القيم،

1 غلّ من المغنم يَغُلّ (بالضمّ) غُلولاً: خان.

ويتخلَّون عن كل الفضائل، ضاربين عرض الحائط بقيم الإنسان، وعاملين على إهلاك الحرث والنسل ومستبيحين كل شيء من أجل أغراضهم الدنيئة..

وقد يأخذ الناسَ العجبُ من الكلام عن الفضيلة في الحروب، فهل يعقل أن تتحكم هذه الفضيلة في العقول والنفوس، إذا ما دوَّت المدافع، وانهالت القنابل، وأُزهِقت الأرواح، واستبيحت الحرمات؟!.. نعم! هل يكون ذلك وفي معتقدات أهل هذه الأيام جنوح نحو الخيال والوهم؟.. هذا التساؤل هو الخطأ بعينه، إذ ينبغي أن يعرف الناسُ أن إبعادَ الفضيلة عن الحروب شَرٌ كله، لأنه لولا ذلك لما كانت الاتفاقات الدوليّة قد عقدت، ولما كانت المؤتمرات والمحافل قد أقيمت بهدف وضع القواعد والنظم التي تنتهي في غاياتها إلى حدٍّ أدنى من الفضيلة في الحروب..

على أنَّ كلَّ ذلك، ومهما كانت دوافعه أو غاياته، فإنه يبقى مقصّراً عن النظام الأمثل الذي وضعه رسولُ الإسلام في الحروب، والذي بانَ جلياً واضحاً في وصاياه وأوامره إلى قادته وجيوشه.. فالرسولُ، صلى الله عليه وآله وسلم، قد قام حقاً بالحروب، ولكنها كانت حروب النبوة المقيدة بقانون السماء، وقد قام بها ليعلّمها للناس من أجل خير الناس، لا لقتل الناس وإفنائهم، ومتى كانت الحرب لخير الناس، ووفق المفاهيم التي أرساها رسول الإسلام، فإنها تكون حينئذٍ رحمة من الله على الناس..

* * *

مُعَاهَدة الحُدَيبيَة

لقد حقق الأسلوب الحربي الذي اعتمده المسلمون في حروبهم، والقائم على عنصر مباغتة العدو ومفاجأته على حين غفلة منه، أغراضَه بنجاح، إذ ما كادت السنة السادسة للهجرة تُشرف على نهايتها حتى كانت هيبة المسلمين قد تمكّنت من النفوس، وأصبحت قبائل العرب تقرُّ لهم بالقوة، وتخاف شدَّة بأسهم، مما أخذ يهيىء لحياة استقرار تقوم على علاقة حسن الجوار، وعلى نبذ الثارات ودفن الحزازات تمكيناً للعيش في أمن وسلام..

وإذا كان الإسلام قد ثبّت سلطانه في المدينة، إلاّ أن قبائل العرب وفي طليعتها قريش، وجماعات أخرى من سكان الجزيرة كبني يهود في خيبر، ما زالت لا تعترف بالإسلام ديناً من أديان شبه جزيرة العرب، ولا تقر لأتباعه ما لأتباع الأديان والمعتقدات الأخرى من حقوق لا سيما حقهم في زيارة المسجد الحرام، والحجّ إليه في الأشهر الحُرُم..

وإذا كانت السنوات الست التي انقضت منذ هجرة محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، من مكة قد تلاحقت مليئة بالحروب والمعارك، فإنَّ ذلك لا يمكن أن يدوم إلى ما لا نهاية، بل يجب أن يحلَّ اليوم الذي يدرك فيه أهالي جزيرة العرب أن محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، ما جاء داعية حروبٍ وقتالٍ، ولا منادياً بالتفرقة وزرع بذور الفتنة بين الناس، بل على العكس من ذلك تماماً، جاء هادياً ليخلّص الناس من أدران الوثنية، وينتشلها من موبقات الجاهلية.. وإذا كانت قريش واليهود قد رفضوا الانصياع لنداء العقل، وأصرّوا دائماً على محاربة الإسلام، فقد آن لهم أن يدركوا خطل عنادهم وبعدهم عن الحق، وقد أثبتت لهم السنوات الأخيرة التي انقضت أن الإسلام كلما تقدمت به الأيام، علا شأنه، وازداد انتشاره، فَلِمَ إذن البقاء على معاداته دونما تفكير في سلامٍ معه؟!..

لا.. لن يكون لأعداء الإسلام أن يفكروا في مهادنته وإقامة علاقات سلام مع أتباعه ما داموا يظنون بأنهم قادرون على محاربته والنيل منه... إلاَّ أن نبيَّ الإسلام وقد وصل إلى المرحلة التي وصل، يريد هذا السلم، وما كان تفكيره منذ جلاء الأحزاب عن المدينة إلاَّ منصبّاً على هذه الناحية.. ولكنه كان يرى أن اليهود في خيبر ما زالوا أبعد الناس عن تقبّل هذه الحقيقة لاعتقادهم أنَّ ما يتمتعون به من قوة كفيلٌ بأن يحقق لهم القضاء على محمد

ودينه يوماً ما.. إذن فلمْ يبق إلاَّ الطرف الآخر في العداوة، أي قريش ذاتها، فمعها يمكن إقامة معاهدة سلام إلى حين من الزمن، حتى تتجلي الحقيقة وتستوي الأمور!..

ولكن كيف السبيل إلى إقناع قريشٍ بإقامة صلح مع المسلمين؟!.

وما عسى أن يصنع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يحقق هذا الغرض؟!. لقد تفكر الرسول الأعظم طويلاً بذلك، فرأى أن يقصد بيت الله الحرام كي يؤدي فريضة الحج، غير راغبٍ في حرب، ولا طامعٍ في قتال، وما على قريش إلاَّ أن تقبل بحجّه أو ترفضه، وإن كانت الدلائل كلها تشير إلى القبول دون الرفض، ما دامت تلك الوحدة التي كانت تتمتع بها قد عراها الضعف، والقوة التي كانت تتعالى بها قد شابها الوهن، فباتت تخشى المسلمين، وترهب جانبهم، بل ويستبدُّ بها القلق وتأخذها الهواجس كلما تناهت إليها أخبارهم، أو علمت بمآثرهم..

فقد عزم رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يتخذ من الحج إلى بيت الله الحرام خطة سلام تمكّنه من الاجتماع بقريش والتفاوض معها على مختلف الشؤون التي تهم الطرفين..

وإنه لفي تدبُّر الطرق الكفيلة بتنفيذ هذه الخطة، إذ برؤيا نبويَّة شريفة تجيئه وهو نائم بأنه سيدخل المسجد الحرام مع أصحابه آمنين، محلّقين رؤوسهم ومقصّرين، لا يخافون عدواً يصدّهم، ولا مانعاً يمنعهم..

وبشَّرَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، المسلمين بذلك، ففرحوا لها كثيراً، وارتسمت أمامهم الآمال واسعة، وأقبلت عليهم الأماني عريضة، فأمَّا الأنصار فقد كان الشوق يغالبهم لزيارة المسجد الحرام منذ ست سنوات، عندما حرموا من تلك الزيارة، ومنعوا من دخول مكة والوصول إلى الكعبة الشريفة للطواف حولها، واللياذ بجوارها آمنين مطمئنين...

وأمّا المهاجرون فلم تفارقهم صورة البيت العتيق منذ أن ارتحلوا عنه مكرهين، فهم على حبّهم للعودة إلى أحضانه، يحنون أيضاً إلى مكة، موطن الطفولة والشباب، وموئل الأهل والأحباب.. ففيها قد خلّفوا شطراً من حياتهم لا يمكن أن يصدأ بنسيان، أو أن يمحوه بُعاد..

وهكذا، ما إن سرت بشرى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في النفوس، حتى كانت العواطف تسيل فيّاضة، وتحنُّ القلوب ملتاعةً.. وإنَّ في روحانية الإسلام، وما يبعثه في

الجوارح من صفاءٍ ونقاوة، ما يزيد في تأثّر تلك النفوس ويجعلها أكثر رهافةً وشفافيةً.. فراح المسلمون يستعدّون للسفر إلى الحجّ، وأعماقهم مليئة بالارتياح والسعادة..

على أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، رأى ألاَّ يذهب بالمسلمين وحدهم في ذلك السفر المشهود، بل أرادَ أن يكون معهم أناس من قبائل العرب التي لم تدخل في الإسلام، ومن كل من يرغب في مرافقتهم حتى تستيقن قريش بأن محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، لم يأت مكة ليغزوها، وإنما جاء إلى الحجّ، ومعه من الناس من ليسوا على دينه.. فإن وقفت في وجهه، وحاولت دون وصوله البيت الحرام فإنَّ ذلك سيكون حجة ضدها، ومنعُها حينئذٍ يجعل الحاجّين يؤمنون بأن الدعوة الإسلامية ليست دعوة عداوة واعتداء، وإنما هي دعوة محبة ووئام، ولا يمكن إلاَّ أن تكون كذلك إن أرادَ الناس أن يقفوا على حقيقتها ويعرفوا جوهرها.. ومن أجل ذلك بعث الرسول الحكيمُ والسياسيُّ العظيمُ إلى قبائل العرب المجاورة للمدينة بأن يشتركوا معه في الذهاب إلى الحجّ في ذلك العام.

وتهيّأت الأجواء للمسير، وتعالى الأذان بالحج، فخرج الناس وراء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة قاصدين بيت الله الحرام في مكة، وقد عقد اللواء لعليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فتقدم المسيرة وقد أخذ معه سبعين بُدْنَةَ من الهَدْي[1] ساقها النبي صلى الله عليه وآله وسلم.. ثم خلّف على المدينة ابن أم مكتوم، وحمل معه من نسائه أم سلمة (رضي الله عنها)؛ كان عدد من خرج من المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم من العرب غير المسلمين ألفاً وأربعمائة رجل، لا يحملون من السلاح إلاّ السيوف في أغمادها . وهي سلاح المسافر عادة في بلاد الصحراء .، وكيف يحملون سلاحاً ومقصدهم الحَجّ وليس القتال أو الحرب؟!..

وتقدَّم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أمام ذلك الموكب على ناقته القصواء، حتى إذا قطع مسافة تقارب الأميال السبعة وقد بلغ محلة تسمى «ذو الحليفة»، هنالك أحرم وأمر بالإحرام فلبّى المسلمون بالعُمْرة: «لبّيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلْك، لا شريك لك».

---

1 الهديُ: ما يُهدى إلى الحرم من الأنعام.

وبعد التلبية والاعتمار، سار الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بركبه نحو مكة، مقدّماً أمامه عباد بن بشر في عشرين فارساً، يرتادون لهم الطريق، فكانوا للحاجّين طليعةَ حذرٍ وانتباهٍ، ورايةَ سلامٍ وأمان..

ولما كان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يريد أن يعرف نيّات قريش من خروجهم، فقد بعث رجلاً من بني كعب، اسمه بشر بن سفيان، يتقصّى أخبارها، ويقف على ردّة الفعل لديها؛ وظلَّ محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، يتابع السير حتى بلغ «عسفان» على بعد مرحلتين من مكة، وهنالك التقاه بشر بن سفيان، عائداً من مهمته لينبئه من أخبار قريش وما عزمت عليه لما بلغَها خبره بالخروج، إذ أخذتها المخاوف، وهي ترى أنه جاء غازياً مكة، كما غزت الأحزاب المدينة من قبل، وإن كان مجيئه تحت ستار الحج إلى بيت الله الحرام، ولذلك قررت أن تحول بينه وبين دخول بلدها، مهما كلفها الأمر من تضحيات؛ وقد ائتمر سادتُها بذلك ودعوا للتأهب للقتال، والاستعداد للحرب، ثم جهزوا جيشاً كبيراً بلغ عدد فرسانه مئتين، عدا الرجّالة والمحاربين من بني قومها، ومن استنصرت بهم من أقوام آخرين جاؤوا يذودون معها عن حياض مكة ويقاتلون المسلمين، وقد خرج الجيشُ الذي أعدته بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل؛ وقد أنهى بشر إخباره للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بقوله: «وقد لبسوا جلد النمر، ونزلوا بذي طُوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم».

فلمّا سمع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ما فعلت قريش، قال: «يا ويح قريش قد أهلكتهم الحرب! ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام داخرين[1]، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يُظهِره الله أو تنفرد هذه السالفة».. قال ذلك وهو يشير، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى صفحة عنقه الشريف قاصداً به أنه سيظل يجاهد في سبيل دين الله حتى ينتصر هذا الدين أو يموت دونه..

وقدَّر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن جيش قريش قد خرج محارباً، يصدُّ المسلمين ويبعدهم عن مكة، وهو يرابط الآن على مسافة لا تبعد أكثر من أميال ثمانية عن مكانهم، فإن تابع مسيره في اتجاهه فإن القتال سوف يقع لا محالةَ، لأن المسلمين لا تنقصهم

1 داخرين: أذلّةً صاغرين.

الحمية، ولا يعوزهم السلاح، وفي أغمادهم سيوف قد تعوّدت الضراب والقتال طوال ست سنوات، فضلاً عن تمرّس كثيرين من أصحابها بأيام العرب وحروبها المتواصلة، وإنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام جيش قريش، وهو يحول بينهم وبين تلك الغاية الشريفة التي جاؤوا لها؛ وهذا كله ما لا يريده محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، لأن خطته هي السلم وليس الحرب!.. فماذا عساه أن يصنع إذن؟.

إنه لا يريد الحرب حقّاً ولكن بإمكانه أن يُظهر للملأ بأن قريشاً تريد الظلم والعدوان وها هي قد بعثت بجيشها لتحول بين هذه الجماعات التي جاءت مسالمة، لا تريد إلاَّ حقاً مشروعاً لا يمكن لأحد أن يمنعها عنه، فإن استبدّت برأيها ومنعت هذه الجماعات من زيارة المسجد الحرام فكأنها بذلك تصرفهم عن عقيدتهم التي هي دين إسماعيل وملة أبيهم إبراهيم (عليه السلام) وإنَّ في ذلك ما يجعل العرب كلها ضد قريش، إذ ماذا يضمن للقبائل ألاَّ تتحكم قريش بمصائرهم، فتمنعهم عن حجهم متى تريد، أو تسمح لهم بهذا الحجّ متى تشاء؟!.. وما افتضاح أمر قريش هذا أمام الرأي العام كله، إلاَّ انتصار للدعوة الإسلامية، وعاملٌ هامٌّ على نشرها بين الناس.. ولذلك آثر رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن لا يحيد عن خطة السلم التي اعتمدها، فإن حيل بينه وبين مقصده، ومنع هو ومن معه من الحجّ، وقدّر الله تعالى هذا المنع، فإنه يريده منعاً سلمياً لا عن طريق الحرب والقتال، وإن قدّر له دخول مكة والوصول إلى المسجد الحرام، فإنه يريده أيضاً دخولاً سلميّاً، لا دخول عنوة وإذلال.

وبذلك كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في تفكيره أبعد نظراً وأكثر حِنكة، وأدق سياسة من أي إنسان آخر...

إذن لن يغيّر الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، الخطة التي اعتمد، فأعلن في الناس ما فعلت قريش، وما بعثت من جيش يرابط في طريقهم، ثم نادى في الجموع: من يخرج بنا على غير طريق جيش قريش التي هو عليها؟

وخرج من بين الناس حمزة بن عمرو الأسلمي قائلاً: «أنا يا رسول الله».

وانطلق حمزة أمام حجاج بيت الله الحرام، يسلك بهم طريقاً وعرة، ضاقت ممراتها، وكثرت نتوءاتها، مما جعل السير فيها صعباً للغاية، لا يأمن السائر على نفسه من الانزلاق بين لحظة وأخرى أو الانحدار نحو أعماق الوادي الذي يمرون فوقه؛ وما زالوا يجهدون في قطع

تلك المسالك حتى وصلوا إلى سهل عند منقطع الوادي فسلكوا ذات اليمين حتى خرجوا على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة. وما إن بلغوا الحديبية حتى بركت القصواء ناقة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، على حين فجأة، فظنها الناس قد جهدت، فجعلوا يصيحون بها لتنهض، إلاَّ أنها ظلت في مكانها باركة، مما أدهش الناس فقالوا: «لقد خلأت القصواء» . أي حزنت لا تريد القيام . ولكنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قال لهم مستدركاً: «ما خلأت وما ذلك لها بِخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة! والذي نفس محمد بيده ما تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم، وتعظيم حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

ثم دعا الناس إلى النزول وإقامة معسكرهم في الحديبية... وأثناء إقامة المعسكر وجدوا أن لا ماءَ حيث ينزلون، فجاؤوا رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يشتكون مما قد يصيبهم من العطش والجفاف، فأشار عليهم أن يبحثوا عن الآبار الموجودة هناك، وهي كثيرة، وأن ينقبوا عن الماء في أعماقها، فلعلّ الله سبحانه يهديهم إلى ماء وفير.. وبالفعل صدق تصور الرسول العظيم، إذ وجدوا في قعر بعض تلك الآبار من الماء ما يكفيهم للإقامة ما طاب لهم أن يقيموا، فزالت العقبة التي كانوا قد خالوها سبباً للضعف وقلة الثبات..

أما جيش قريش فما إن بلغه تحوّل المسلمين عن وجهة سيرهم، واتخاذهم مسلكاً يؤدي بهم إلى الحديبية، حتى أخذه الخوف والفزع، من تجاوزهم له واقتحامهم حدود مكة، فأصدر قادته الأوامر سريعاً بالاندفاع للتصدّي لهم، والوقوف في تلك الناحية التي يمكن أن يشنوا منها الهجوم ما دامت خالية من الجيش الذي يمنع ذلك الهجوم.

وهكذا صار كل فريق في ناحيته. المسلمون في الحديبية، وجيش قريش على مدخل مكة، وصار كل فريق تراوده شتى الأفكار لما يمكن أن يقوم به أصحاب المعسكر الآخر.. فأما أصحاب الحديبية فقد كانت أوامر الرسول لهم صريحة واضحة.. لا قتال ولا حرب، ولا مظاهر للعنف أو القوة، وأنهم جاؤوا حاجّين ولن يغيروا إلا بعد أن تهاجمهم قريش أو تغدر بهم، وعندها لا يبقى إلاَّ امتشاق السيوف وإنزال الضربة القاضية بالمعتدين.

وأما قريش فكانت ما تزال تصرُّ على موقفها، وهو محاربة المسلمين وردّهم عن بلدها ولو أدى إلى فنائها على بكرة أبيها.. لكنها وبعد مضي مدة وجيزة، وقد رأت أن محمداً ومن معه ما زالوا في الحديبية، لا يتقدمون نحو مكة، راحت تراجع حساباتها وهي في حيرة من

أمرها، لا تعرف ماذا تصنع، فعاد رؤساؤها إلى دار الندوة يتشاورون في الأمر ولكنهم لم يستقروا على رأي، فقد اعتبروا أن السماح للمسلمين بدخول مكة والحج إلى المسجد الحرام مذلة تصِمُهم بالعار مدى الحياة، وإن قاتلوا المسلمين فإنهم لا يضمنون النصر. وكلا الأمرين أشدُّ من الآخر، ولذلك سيطر عليهم الحنق حتى كاد يقتلهم، واستبدَّ بهم التردّد حتى كاد يودي بهم..

وكانت كلما مرت الأيام شعر المسلمون من جانبهم بالضيق والتململ، وهم يرون أن قريشاً لن تمكّنهم من زيارة المسجد الحرام راضية، بل إنها تصرُّ على منعهم بعناد، وهم لن يظلوا في مكانهم ساكنين ينتظرون بلا جدوى، فلِمَ إذن لا يقاتلونها كي يردّوها عن غيها، فتستوي الطريق آمنة أمامهم لزيارة بيت الله الحرام؟!..

وجاءَ نفرٌ كبير منهم يعرض على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فكرة القتال تلك، فرفض بشدّة مؤكداً أنه لن يحيد عن خطة السِّلم التي رسمها منذ أن أعدَّ للعمرة عدتها، وأنه يؤثر الانتظار لمعرفة ما ستفعله قريش!..

ولما طال الانتظار من الجانبين، وقريش قد استبدَّ بها القلق، رأت أن ترسل إلى محمد من يقف على مدى قوته ويتعرف على حقيقة نيّاته، فبعثت بُديْل بن ورقاء في رجال من خزاعة ـ وخزاعة من قبائل العرب الموالية لمحمد، مسلمها وكافرها ـ يسألونه عما جاءَ به وماذا يريد؟!.. فأقنعهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد مفاوضة قصيرة أنه ما جاء لحرب وإنما زائراً للبيت العتيق، معظماً لحرماته، وهو يقول لهم: «إنّا لم نأتِ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، فإن شاءت قريش ماددناهم مدة ويخلّوا بيننا وبين الناس، وإن أبوا فوالذي نفس محمد بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي».

لقد اتضح موقف محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وبانَ صدقه جلياً، فعاد ذلك الوفد إلى قريش قائلاً: «يا معشر قريش! إنكم والله تعجلون على محمد، إنه لم يأتِ لقتال وإنما جاء زائراً للبيت». ولكنَّ قريشاً اتهمت رجال خزاعة بالمراوغة، مُمالأةً ونُصرةً له، فقالت لهم: «وإن كان قد جاء لا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث عنا العرب بذلك».

فأوفدت قريش من جديد مكرز بن حفص، أخا بني عامر، فما سمع هذا الرجل من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ ما سمعه وفد خزاعة، فعادَ يحدث قريشاً بالحقيقة ولكنها لم تؤمن به...

لا... لن تقنع قريش بأن محمداً جاء مسالماً.. وكيف تقبل بمثل هذه الفكرة وفي أعماقها لا يوجد إلا الحقد والضغينة عليه.. إذن فهي لا ترضى إلاَّ بقتاله واستئصاله هو وأصحابه من الحياة!... ولكن أوليس كل من ذَهَب إليه رجع يؤكد لها موقفه السلمي؟!..

وعادَ القلق يستبد بقريش والتردد يمسك بأعناقها حتى يكاد يخنقها.. إنها لا تدري ماذا تصنع، ولكنّها هل تقف مكتوفة الأيدي ولا تقدم على ما يحقق لها مأرباً؟!.. طبعاً لا، ولن يعوز أشرارها تدبر ما يحقق مآربها.. ولذا رأت بعد أن ائتمرت وتشاورت، أن ترسل لمفاوضة محمد، الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، وغرضها من ذلك إثارة حفيظة هذا الرجل عليه إن فشل معه في المفاوضة، فيعود حانقاً ليقود بني قومه لقتال محمد وأصحابه، فيريحونها منه ومن الهمِّ الذي جاءها به...

هذا ما عوَّلت عليه قريش، وهي أن تدفع الأحابيش في وجه محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، مغضبين، مقاتلين، ولكنَّ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كان يدرك خلفيّة تفكير قريش في كل من تُوفِده إليه، فلما علم بأمر الحليس انتظر حتى أطلَّ الرجل من بعيد، فأمرَ بأن يُطلق الهديُ أمامَه ليكون دليلاً مادّياً محسوساً على حسن نيته وصدق ما يبدي..

ورأى الحليسُ الهدْيَ مقبلةً في عرض الوادي وقد أخذت سبيلها للرعي لشدة ما أصابها من جوع بسبب حبسها، وتطلع إلى معسكر الحديبية فما وقع بصرُه إلاَّ على معتمرين، تحف من حولهم مظاهر العبادة، وتنتشر في أجوائهم نفحات الأمان، فثارت نفسه لتلك المشاهد المؤثرة التي لا يراها صاحب نفسٍ صافية إلاَّ ويشعر بأنها قد نفذت إلى أعماقه، لتزيل منها كل كوامن الحقد والضغينة..

ووقف الحليس يرقب ويتأمل، ثم لم يلبث أن يعود منقلباً إلى مكة من غير أن يلقى رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويأتي قريشاً طالباً إليها أن تخلي بين محمد ومقصده لأنه جاء طالب عبادة حقاً... ولكنَّ الحليس أغاظ قريشاً بما أبداه، فقال له أشرافها: «اجلس فإنما أنت أعرابيّ لا علم لك».

وأحسَّ الحليس بالمهانة... إنّ قريشاً تصفه بالغباء لأنه لا يعرف شيئاً من مكيدة محمد، وها هي توجّه إليه التوبيخ على جهالته، فيشعر بالضيق وينفر في وجوههم مُغضِباً وهو يهدّدهم قائلاً:

«والذي نفس الحليس بيده لتُخَلُنَّ بين محمد وما جاء له أو لأنفرنَّ بالأحابيش عن مكة نفرةَ رجلٍ واحد».

ووقعت قريش في سوء فعالها، وخافت من مغبة الأمر..

فهذا الحليس يهددها بالنفور عن مكة في الأحابيش، ولئن فعل فإنها ستخسر قوماً محاربين، أشداء في القتال، فتضعف قوتها، وتخور عزائمها، وبذلك تصبح لقمة سائغة لمحمد، يستطيع أن يقضي عليها قضاءً تاماً... إذن فلتستدرك الأمر!...

وقام سادة قريش إلى الحليس يسترضونه، وهم يرجونه بأن يمهلهم بعض الوقت حتى يفكروا فيما يرون من أمر... وأجمعت قريش بعد التشاور على أن تبعث إلى محمد رجلاً حكيماً حازماً، تكون لديه القدرة على إقناعه بالعودة من حيث أتى دون أن يدخل مكة، فما رأت رجلاً أفضل لذلك من عروة بن مسعود، سيد بني ثقيف، فلما حدّثوه في الأمر، قال عروة: «ما أرى إلاَّ الرجل يعرض عليكم خطة رُشْدٍ فاقبلوها»... وما كان رأيه ذلك إلاَّ مما رأى من تغرير قريش لمن أوفدتهم وعادوا إليها بالرأي الصواب... ولكنَّ قريشاً قالت لعروة: «إن محمداً لا يقصد إلاَّ إذلالنا وأنت خير من يقدر على معرفة نياته».

قال عروة: إذن فسآتيه.

قالوا: فأتِهْ..

وجاء عروة الثقفي يلقى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ويقول له: «يا محمد! إني تركت قومك قد استنفروا لك، وهم يقسمون بالله لا يُخَلّون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وإنما أنت من قتالهم بين أمرين: إما أن تجتاح قومك ونحن لم نسمع برجل اجتاح قومه قبلك، وإما أن يخذلك من ترى معك، فإني لا أرى معك إلاَّ أوباشاً من الناس لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم».

وكان أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) جالساً خلف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يحتمل تلك الإهانة بل ردّها على الرجل، وقام يؤكد له أن أياً من المسلمين لن يتخلى عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أو يموت دونه، وكان مما قاله له: «ويحك يا

عروة، أنحن نخذل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وننهزم عنه؟! لا والله يا من تعبد الصنم ونحن نعبد الله»...

ونظر إليه عروة حانقاً وهو يقول له: «أما والله لولا يَدٌ كانت لك عندي يا ابن أبي قحافة لكافأتك بها ولكن هذه بها».. وكان عروة يشير بذلك إلى أنه كان يحمل ديّةً فأعانه فيها أبو بكر (رضي الله عنه) وكان ينوي أن يردها إليه ولكنَّ إهانته له كانت مقابلها...

وراح عروة بن مسعود يحاور رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في محاولة لإقناعه بالعودة عن مكة، والرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يردُّ عليه بكل أناة وصبر، داحضاً ما يبدي من حجج، بالمنطق السليم والقول المتزن، مما جعل النقاش يطول بينهما... وكان في الجمع الذي يحيط برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، المغيرة بن شعبة ـ ابن أخي عروة ـ وقد وقف فوق رأس النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وسيفه بين يديه، فخفي أمره على عمه من المغفر الذي وضعه على وجهه.. وكان المغيرة يرقب كل حركة بدقة وانتباه، فرأى أن عروة يحاول أثناء الحديث أن يمسك لحية رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بيده جرياً على عادة العرب في الملاطفة، والرغبة في التحية والتواصل، فإذا به يمنعه عن ذلك ويضرب يده بكعب السيف ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك... فأجفل عروة وأبدى مضايقة ونفوراً من الرجل المقنع، فقال له: «ويحك ما أفظّكَ وما أغلظك»...

ثم التفت إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يسأله: من هذا الرجل؟.

فابتسم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له: إنه ابن أخيك: المغيرة بن شعبة...

فدهش عروة وقال: ويحَك يا ثقفي!.. إن حبَّ محمد عند أصحابه فوق حبهم لأهليهم...

ولم يجرؤ عروة بعد ذلك أن يمد يده نحو وجه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، خوفاً من أن تقطع، ولكنَّه لدهائه، ظلَّ يجادل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويفاوضه، مستعملاً شتى الأساليب، وأفانين الحيل كي يوقع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يحتجُّ به عليه، ولكنه لم يسمع منه إلاَّ جواباً واحداً: السلم.. ولم يجد عنده إلاَّ شيئاً واحداً: الحجّ إلى بيت الله الحرام...

وأفرغ عروة بن مسعود كلَّ ما في جعبته دون أن يحصل على ما يريد، فقام عائداً إلى قريش، والذهول يأخذه مما رأى، فما كادَ يصل إليهم حتى بادرهم قائلاً: «يا معشر قريش!

إني جئت كِسْرى في مُلْكه، وقيصرَ في مُلْكه، والنجاشيَّ في مُلْكِه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قطّ مثل محمد في أصحابه، ما أمرهم بأمرٍ ابتدروه وإذا توضَّأ ثاروا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له، ولا يسقط من شعره شيء إلاَّ أخذوه وإنهم لَيُقَبِّلُونَ التراب الذي تدوسه قدماه، وإنهم لن يسلموه لشيء أبداً، وإنه قد عرض عليكم خِطَّة رُشْدٍ، فأقبلوها وهذا رأيي، فَرُوا رأيكم».

وأسقط في يد قريش ولم تعد تجد لها ذريعة تحتجُّ بها... خزاعة، وعامر، والأحابيش، وثقيف... جميعاً بعثت إلى محمد، وجميعاً عادوا مصدّقين لمحمدٍ ومثبتين صفاء سريرته في مجيئه، فماذا تصنع؟!..

.. وطالت المشاورات في قريش، وطال بها تشتت الرأي وتوزع الكلمة.. فلا أمراً تجمع عليه، ولا خطة تهتدي إليها، لقد غلبها محمد حتى أفلت من يدها كل حجة، فباتت حائرة مترددة، لا تعرف ماذا تفعل...

ورأى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أن قريشاً لم تعد تبعث أحداً لمفاوضته، فأراد أن تكون المبادرة منه، فأرسل إليها خراشَ بن أمية الخزاعي ليقف على ما وصلت إليه، ولكنها ما إن رأت رسول محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى ذهب كل تباين في رأيها وامَّحى كل تقلّب في فكرها، فكان إجماعها على ردّه... فقاموا إليه يعقرون جمله، ويريدون قتله لولا أن تدخّل الأحابيش ومنعوهم من ذلك، فخلّوا سبيله...

واحتمل الرسول الأعظم ذلك الخطأ الكبير الذي اقترفته قريش، رغم أن مهانة الرُّسل لا تُحتمل ولا تُغتفر، وغفَر لها تلك الحماقة التي ارتكبتها... ولكنَّ هذا لم يزدها إلاَّ إمعاناً في الغرور والكراهية، فراحت تبعث في جوف اللَّيل سفهاءها يرمون عسكر المسلمين بالحجارة، ويُسمعونهم شتى أنواع الشتائم وأقذر السباب، والمسلمون ساكنون لا يردون عليهم بشيء، حتى كانت إحدى الليالي وجاء خمسون رجلاً من قريش كعادتهم للتحرّش بالمسلمين، فقاموا إليهم يمسكون بهم ويقودونهم إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كي ينظر في أمرهم، فما كان منه، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ أن عفا عنهُم وطلب إطلاق سراحهم... تلك الفعال الشنيعة من قريش، وما قابلها من سماحة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وخلقه العظيم، كانت لها أصداؤها المدوِّية على الرأي العام في مكة، حتى باتت غالبية هذا الرأي في جانبه، ولو أرادَ دخولها في ذلك الحين لوجد أنه لا يقف في وجهه كثيرون، بل

على العكس يلقونه مرحبين، ويستقبلونه معتزِّين... ولكن مقاصدَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كانت بعيدة، فترك لقريش أن تثوب إلى رشدها، وأن ترعوي عن غيّها، وتفكر فيما آل إليه أمرها، من استنكار الناس لأفعالها، والاستهجان من مواقفها، وأدركت قريش ذلك، فغلب عليها السكون، وارتضت بالمفاوضة والركون إلى السلام..

وأرادَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يمتحن قريشاً مرة أخرى، ففكّر في أن يبعث رجلاً إن أتاها ركنت إليه واطمأنت لمفاوضته، وقد يكون عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هو ذلك الرجل، فلما عرض عليه الرسول الكريم هذا الأمر يستشيره فيه، أبدى عمر عذره في عدم الذهاب بقوله: «يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي لها وغلظتي عليها».

ودعا رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إليه صهره زوج ابنته، عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وأوفده إلى قريش مفاوضاً..

فذهب عثمان (رضي الله عنه) إلى مكة، فلمّا بلغها لقيه أبان بن سعيد، فطلب إليه أن يجيره، فأجاره أبان، الوقت الذي يفرغ فيه من أداء رسالته.. وقصد عثمان (رضي الله عنه) أبا سفيان بن حرب، واجتمع إليه في عدد من أشراف قريش، يخبرهم بأن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لا ينفك يريد زيارة المسجد الحرام.. ولكنَّ القوم ثاروا في وجهه وأبوا ذلك قائلين: «يا عثمان! إن شئت أن تطوف أنت بالبيت فطُفْ».. فأجابهم عثمان (رضي الله عنه):

«ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: إنما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظّم حرماته، ولنؤدي فرض العبادة عنده. وقد جئنا بالهَدْي معنا فإذا نحرناها رجعنا بسلام»..

ورفضت قريش مُصرّة على عنادها.. ورفض عثمان (رضي الله عنه) أن يفارق مكة قبل أن يصل إلى ما يمكّن من تقارب وجهات النظر، وبذلك طالت المفاوضات بينه وبينها ثلاثة أيام، الأمر الذي أقلق المسلمين عليه، ثم سرت الإشاعة بأنَّ قريشاً قد غدرت بعثمان بن عفان وقتلته، وكانت تلك الإشاعة كافية لأن تهيج غضب المسلمين، وأن يطلبوا من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يعزم على القتال... إلاَّ أن الرسول الأعظم كان لا يزال يصرُّ على تنفيذ خطة السِّلم، وقد أعطى لقريش كل الفرص كي تأنس منه هذا

الموقف، وهو لا يريد أن يفقد الأمل مع أن الفرصة آتية لا شك فيها، ولكن عليه أن يحسب لجميع الاحتمالات حسابها فهو وإن كان يستبعد قتل قريش لعثمان، إلاَّ أن ذلك لا يمنعه من اتخاذ التدابير التي يمليها الموقف. لذلك عزم على القتال إن تأكد له غدْر قريش بصاحبه، فقال لمن حوله: «لئن فعلت قريش فلا نبرح حتى نناجز القوم»..

ولكي يهدّىء رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من ثائرة غضب المسلمين، ويمنَعَ ذلك الهياج الذي سيطر عليهم، دعاهم إليه، ثم وقف تحت شجرة وطلب إليهم أن يبايعوه.. ولبّى المسلمون طلب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأقبلوا يبايعونه جميعاً، ألاَّ يفروا حتى الموت.. وقد أبدوا من عميق الإيمان أخلصه، ومن قوة العزيمة أصدقها، ودُعيت تلك البيعة ببيعة الرضوان، وفيها نزل قولُ الله تعالى:

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}[1].

لقد كانت نفوس المسلمين قد عزمت على القتال، ولكنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كان يؤمّل السلم الذي أراده، فألهمه الله سبحانه وتعالى أن يطلب منهم البيعة، وهم على تلك الحالة، فإذا هي سكينة تنزل عليهم من السماء، وتفعل هذه السكينة فعلها حتى يعودَ عثمان بن عفان (رضي الله عنه) سالماً، لم تتطاول عليه قريش بسفاهة، أو تنل منه بأذى، بل عاد موفور الكرامة، مرفوع الجبين وقد أدَّى تلك المهمة الصعبة التي انتدبه لها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.

.. وتناهى سريعاً خبر البيعة إلى قريش، فخافت على نفسها، ورأت أنَّ الأمر لم يعد يحتمل التسويف والمماطلة، لأنَّ المسلمين قد ملُّوا الانتظار وهي ما تزال تعاند في مواقفها. ولذلك ائتمرت وأقرّت بأن تفاوض على صلح يقيم التوافق بين مطالبها ومطالب محمد، ويكون سبيلها للتخلّص من المأزق الذي أوقعت نفسها فيه.. ولكنَّ قريشاً، ورغم الضيق الذي كانت تشعر به، فقد أرادت أن تحفظ ماء وجهها، فوضعت المطالب التي تريدها، ثم بعثت سهيل بن عمرو، أخا بني عامر، ليفاوض في تلك المطالب، وهي توصيه قائلةً: «ائتِ محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلاَّ أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً».

---

1 سورة الفتح، الآية: 18.

وجاء سهيل بن عمرو إلى الحديبية يطرح مطالب قريش على بساط المفاوضات.. وعرف النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بتلك المطالب فوافق على البحث فيها، لأنه رأى أن مجرد إقامة عهد بينه وبين قريش إنما يحقق المقصد الذي أراده، فلا يضيره أن يزور هو والمسلمون البيت الحرام هذا العام أو أن يزوره العام المقبل، إن شاء الله تعالى، فذلك أمرٌ مفروغ منه، ولكنَّ الأهمَّ أن يجعل قريشاً توقع على العهد، لأن في هذا التوقيع اعترافاً منها بالإسلام ديناً من أديان جزيرة العرب، وبحقوق أبناء هذا الدين في زيارة البيت العتيق، بل وهم أولى من غيرهم بزيارته بعد أن جعله الله سبحانه قِبلةً للمسلمين فأعطاه قدسية أعلى من قدسية قريش له، لأنها وهي تقدِّسه فإنها لا تقدّسه للعبادة وحسب، بل لغاية دنيوية أيضاً، وهي الحفاظ على مكانتها بين العرب، تلك المكانة التي نالتها بفضل هذا البيت ووجوده في بلدها مكة. كما أن إقامة صلح ما بين محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وقريش من شأنه أن يعزل اليهود في خيبر، الذين لا يزالون يطمعون في محاربته والقضاء عليه، وتلك العزلة ستحول بينهم وبين التزلّف لقريش وإغوائها على الوقوف بجانبهم في الحرب ضد محمد، صلى الله عليه وآله وسلم. وأهم من ذلك كله، أن الرسول الكريم سيفرض في شروط صلحه ما يمنع قريشاً من الوقوف في وجه انتشار الدعوة الإسلامية، فتنطلق تلك الدعوة آمنة من الغدر ونصب المكائد لها..

من أجل هذه المقاصد البعيدة، رضي رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يفاوض في مطالب قريش كما عرضها سهيل بن عمرو، فقال لأصحابه من حوله مستبشراً الخير: «قد سهُل أمركم.. القوم ماتّونَ إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصُلحَ، فابعثوا الهَدْيَ وأظهِروا التَّلبية، ولعلَّ ذلك يلين قلوبهم».

.. واهتزّت أرجاء الحديبية بأصوات التلبية، فحملت الرياح الأصداء تنشرها في أجواء مكة، وتنفذ إلى داخل بيوتها، فترتعد أوصال ساكنيها، وترتجف قلوبهم لوعةً وأسى...

ودخل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في المفاوضات مع سهيل بن عمرو.. فكان سير تلك المفاوضات شاقاً للغاية، إذ كان ابن عمرو يُبدي كثيراً من التشدّد، ويجهد في فرض المطالب التي يرجو تحقيقها، وقد أعلن أكثر من مرة رغبته في التوقف والانقطاع عن المفاوضة، إلاَّ أن الرسول الأعظم، وبما عهد فيه من حكمة وحنكة، وبما عرف عنه من دقة في السياسة، وقدرة على المحاورة، كان يحول بين ابن عمرو ورغبته تلك، مبدياً

من التساهل، ما أدهش الصحابة، ومن التسامح ما عقلَ ألسنتهم، وإن كانوا في قرارة أنفسهم مُغضِبين على ابن عمرو لصلافته وتشدّده، وكأنه يمثّل أصحاب القوة الغالبة ومن بيدهم اتخاذ القرار بينما الواقع هو خلاف ذلك تماماً..

ومهما يكن من أمر، فقد تتابعت المفاوضات، وجرت مناقشة المسائل المطروحة كافة، حتى التأم الأمر على الصلح، ولم يبق إلاَّ كتابة المعاهدة. فدعا الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عليَّ بن أبي طالب (عليه السلام) ليكون كاتب الوثيقة فجلس أمام رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى جانبه سهيل بن عمرو، وقد أحاط بهم جمع غفير من المسلمين ومن المشركين..

وبدأ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، قائلاً لعليّ: «اكتب: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم»..

فقال سهيل بن عمرو: «أمسك! لا أعرف من هو الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم».

وتابع قائلاً: واكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسولُ الله سهيل بن عمرو».. فعاد ابن عمرو يعترض ويقول: «أمسك! لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكنْ اكتب اسمَك واسم أبيك».. فوافق الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على ذلك وأشار إلى علي قائلاً: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو».

.. وكان الصحابة يرقبون ما يجري، والدم يغلي في عروقهم من اعتراضات ابن عمرو، ولكنَّ ثقتهم المطلقة برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقناعتهم التامة بصدقه، وبُعد تفكيره، قد عَقَلَتْ ألسنتهم، فمنعتهم من الجهر بما يجيش في صدورهم، فظلوا صامتين.

وتابع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يملي على علي (عليه السلام) نصَّ المعاهدة حتى اكتملت، فجاء أبرز بنودها:

1 ـ إقامة هدنة بين المسلمين وقريش لا يجوز أثناءها أن يجري قتال أو تدور حرب.

2 ـ من أسلَمَ من قريش وأتى محمداً بغير إذن وليّه ردَّه عليه، ومن ارتدَّ من المسلمين وجاءَ قريشاً فلا يردّونه عليه.

3 ـ من أحبَّ من العرب محالفةَ محمد فلا جُناحَ عليه، ومن رغب في محالفة قريش فَلَهُ ذَلك.

4 ـ رجوع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا، على أن يعودوا إليها في العام التالي، فيدخلوها ويقيموا فيها ثلاثة أيام وليس معهم من السلاح إلاَّ السيوف في أغمادها، ولا سلاح آخر.

5 ـ مدة المعاهدة عشر سنين من تاريخ توقيعها.

وجرى التوقيع، وأشهد الشهود: رجال من المسلمين ومن المشركين..

ومن جرائها حالفت خزاعة محمداً، بينما حالف بنو بكر قريشاً.

لكنّ تلك المعاهدة برغم توقيع الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على وثيقتها، وقبوله بشروطها، لم تُرضِ كثيرين من المسلمين، حتى أنَّ بعضهم ضاق بأمرها صبراً، فثارت ثائرتهم، وعلا معسكرَهم الهياجُ، وهم ينددون بقريش وصلافتها، فأتى عمر بن الخطاب النبيَّ، صلَّى الله عليه وآله وسلم، بعد نقاش جرى بينه وبين أبي بكر الصديق (رضي الله عنهما) يبادره بقوله: ألستَ برسول الله؟.

قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: بلى!.

قال عمر: أولسنا مسلمين وهم مشركون.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: بلى.

قال عمر: فعلام نعطي الدنيَّةَ في ديننا؟.

قال رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا عبدُ الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يُضيِّعني».

وكأنما أرادَ الله سبحانه أن يمتحن صبر المؤمنين وقوة وفائهم للعهد الذي أخذه النبي الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، على نفسه فبعث إليهم في تلك الساعة التي اضطربت فيها النفوس أحد المسلمين، وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو ذاته، رئيس وفد المفاوضة، وقد جاء هارباً من مكة يرسف في قيوده، مؤملاً أن يلحق بإخوانه المسلمين ويذهب معهم قبل مغادرتهم الحديبية، بعدما بلغه نزولهم هناك، فعمل ما في طاقته حتى يفلت من السجن، وقد وافته الفرصة لذلك، فهرب يلوذ بالجبال، ويتجنب الطرقات، حتى قدر على إدراك الحديبية، ولكن في ساعة كان العهدُ فيها قد جرى توقيعه، وأصبح ملزماً للطرفين..

وراه المسلمون يندفع نحوهم على تلك الحال المزرية، فتلقَّوْه مهللين، مكبرين، وكأنه جاء تنفيساً عن الكرب الذي يملأ نفوسهم في تلك الساعة.

وكان سهيل بن عمرو يرقب احتضان المسلمين لابنه، فجنَّ جنونه لمرآه، وأطاح الغضب برشده، فتقدّم إليه يضربه على وجهه بأقسى شدّة، مما زادَ في غضبهم، وجعلهم يحيطون بذلك الأب القاسي، ليمنعوه عن أخيهم في الدين، فإذا بسهيل بن عمرو يصرخ بأعلى صوته: «يا محمد! هذا أول من قاضيتك عليه، ردّه».. وهنا تدخل رسولُ الله في الأمر، فطلب إلى ابن عمرو أن يترك أبا جندل وشأنه بعيداً عن العهد وشروطه، ولكنَّ ابن عمرو أبى عليه ذلك، وعادَ إلى ضرب ابنه من جديد؛ وحاول رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يثنيه عن رأيه فقال له: «هَبْه لي أو أَجِرْه من العذاب»، فما نفع ذلك شيئاً مع ابن عمرو، بل قال: لقد تمَّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا.

فراح أبو جندل المسكين يصرخ:

«يا معشر المسلمين أَأُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني عن ديني»!..

ولكنَّ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، رمق أبا جندل وقال له مواسياً: «يا أبا جندل! اصبر واحتسب فإنَّ الله جاعِلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنّا لا نغدر بهم»..

ولم يكن أمام أبي جندل إلاَّ الرضوخ لحكم الله، فخفض صوته ولاذ بالصمت، وأسلس الزمامَ لأبيه يُعيده إلى مكة كما جاءَ يَرْسُفُ في القيود..

لقد حزن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، على أبي جندل كما حزن عليه سائر المسلمين، وتمنَّى أن يخلّصه من كربته، ولكنَّ قسوة الأب قد غلبت وهو يحتجّ بالعهد، مما اضطره للسكوت وفاءً لهذا العهد، الذي ما وقعه إلاَّ لِمَا رأى فيه من خيرٍ ومصلحة الأمة التي يجب احترامها والحفاظ عليها إذا ما تعارضت ومصلحة الفرد. لقد كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مطمئناً إلى ما فعله، ولكن ما أغاظه هو ما بدر من المسلمين من هياج وعدم رضى على العهد، دون أن يتفكروا في النتائج التي سيحققها في مستقبل أيامهم، فذهب إلى خيمته وما تزال آثار الغيظ بادية عليه، فسألته زوجه أم سلمة (رضي الله عنها) عما به قائلة: «ما شأنك يا رسول الله»؟!..

فأخبرها، صلى الله عليه وآله وسلم، بما عليه الناس من غضب وهلع، فقالت:

«يا رسولَ الله، أنت القدوة لأبناء أمتك، وما رأيت مؤمنين أكثر إخلاصاً لرسالتهم، ولا أشدَّ حبّاً لله ولرسوله من هؤلاء المسلمين الذين تخلوا عن الدنيا ومباهجها واتبعوا دعوتك. فعلى

بركة الله يا رسول الله تَخْلِقْ وتَتَحلّل، فستجدهم بعون الله راضين، يُقبلون على ما تقبل عليه، ويفعلون مثل ما تفعل».

وزادت طمأنينة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بحديث أم سلمة (رضي الله عنها)، فخرج وحلق إيذاناً بالعُمرة، وقد امتلأت نفسه بالسكينة والرضا.. وما إن رأى المسلمون صنيع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تواثبوا ينحرون ويحلقون، وإن تخلّف البعض عن ذلك مُقصِّراً.. ولاحظ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك، فقال: «يرحم الله المحلِّقين».

فسألوه: والمقصّرين يا رسول الله؟.

فأعاد: «يرحم الله المحلقين».

وخافت الجماعة التي قصّرت، فجاءت تسأله مسترحمةً: والمقصرين يا رسول الله؟.

فقال، صلى الله عليه وآله وسلم: والمقصرين..

ولما أرادوا أن يعرفوا منه لِمَ خصَّ بالرحمة المحلّقين أولاً، أجابهم: «لأنهم لم يشكُّوا»...

لقد استجاب المسلمون، فنحروا الهَدْي، وحلقوا الرؤوس، وأحلوا من الإحرام، ولكنَّهم كانوا في قرارة نفوسهم لا يزالون على مضض من أمر الصلح الذي أنفذه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم... فقد وجدوه مجحفاً بحقهم، وقد أوقع فيهم الحيف والغبن، فتساءلوا: ولم ذلك؟!.. أمِنْ أجل إقامة صلح مع قريش وهي الأضعف والأذلّ، أم من أجل سلامتهم وهم لن يتوانوا عن قتال، ولم يقصروا عن حرب؟!...

ولشدة ما كان يعتمل في نفوسهم، جاؤوا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يستجلون الحقيقة، فقالوا له: «يا رسول الله، لقد وعدتنا بزيارة المسجد الحرام، وها نحن عائدون ولم ندخله»...

فكان جوابه: «أكنت حدثتكم أنكم تدخلونه هذا العام؟».

قالوا: لا...

قال: فإنكم ستدخلونه، وتطوفون به إن شاءَ الله...

قالوا: وكيف نردُّ إلى الكفار من جاءنا مسلماً، ولا يردون علينا من جاءهم مرتدّاً؟.

قال: من ذهب منّا إليهم فلا ردّه الله، ومن جاءنا منهم فرددنا، فإن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً.

وأدخَل حديث الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بعض الطمأنينة إلى نفوسهم، فهدأوا وسكنوا، وراحوا يتهيّأون للرحيل...

وكانت إقامة المسلمين في الحديبية قرابة عشرين يوماً، أذّن بعدها مؤذن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بالعودة إلى المدينة. وقد شاءَ الله سبحانه، حتى لا يبقى في نفوس المسلمين أثر للقلق مما أنفذ رسولُه من عهد، أن يجعل الأمن في قلوبهم، والسكينة في نفوسهم، فأنزل على رسوله الكريم وهم في طريق العودة «سورة الفتح»... نزل بها جبريل الأمين على قلب الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، فتلاها على مسامع المسلمين آياتٍ بيّناتٍ مباركاتٍ من أولها إلى آخرها وهي قوله تعالى:

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً}[1].

إلى آخر السورة الكريمة...

وما أن فرغ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من التلاوة حتى أيقن المسلمون أن معاهدة الحديبية كانت فتحاً مبيناً حقاً للمسلمين، وأدركوا أن الجموحَ الذي أخذ بأنفسهم لفترة من الوقت، إنما كان هفوةً ارتكبوها، فاستغفروا الله وأثنوا عليه...

وهكذا حقق الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، الأغراض التي قصدها من معاهدة الحديبية، وقد تجلت بما يلي:

1 ـ غيّرت الرأي العام من عداوته للدعوة الإسلامية إلى قبولها واقعاً لا مفرَّ منه، وذلك ليس عند قريش وحسب، بل عند العرب عامة، وهذا القبول يشكل الاعتراف بالإسلام ديناً، وبمحمد بن عبدالله رسولاً لهذا الدين.

2 ـ الاعتراف بمكانة المسلمين، والإقرار من قريش بأنهم فريق قوي يُتَّفَقُ معه على مفاوضات، وتُبْرَمُ معه المعاهدات.

3 ـ أكّدت قوة إيمان المسلمين وشدَّة إقدامهم على المخاطر. إذ لا ينبغي التجاهل بأن قريشاً كانت أقوى قبائل العرب وألدّ أعداء الإسلام، وأنَّ ذهاب المسلمين إلى مكة، معقل قريش بالذات، يبيّن ذلك الإقدام، والاستهانة بالموت في سبيل الله تعالى.

4 ـ فَصَلت اليهود عن قريش وأبعدت كل تحالف بينهم في المستقبل.

---

1 سورة الفتح، الآيات: 1 ـ 3.

5 ـ جعلت المسلمين المستضعفين داخل مكة يشكلون جيباً داخل معسكر العدو، إذ خففت قريش من ظلمها لهم، وتركت لهم بعض الحرية التي سلبتهم إياها من قبل بصورة كاملة...

6 ـ بيّنت للمسلمين أن المناورات السياسية هي من وسائل الدعوة الإسلامية، وأن الطريقة في السياسة هي من جنس الفكرة: صِدقٌ ووفاءُ عهدٍ.. لكن الوسيلة يمكن أن يتخلّلها دهاء، بإخفاء الغايات الحقيقية عن العدو، والسُّبل التي يمكن اعتمادها للوصول إلى تلك الغايات.

ولكنَّ أبرز النتائج التي حققها صلح الحديبية، وأبعدها أثراً، يبقى ذلك الفتح المبين على الإسلام والمسلمين... فالإسلام منذ أن ظهر ديناً للقضاء على الشِرْك، قامت ضدّه العرب بأجمعها، لا تتورع عن استخدام أي عمل أو القيام بأي شيء يمكّن من منْع هذا الدين أن يُبصر النور، ويُعَرّف من اعتنقه بأنه سيلاقي الظلم والاضطهاد حتى من أقرب الناس إليه، ومع ذلك راح أتباعه يتكاثرون شيئاً فشيئاً حتى شكلوا القوة التي تقف في وجه أعدائه.. وقريش كانت العدوّ الأول، وهي يومئذٍ صاحبة الكيان السياسي الأقوى في شبه الجزيرة، تتأثر القبائل الأخرى بمواقفها، وربما تحذو حذوها في كثير من الأحايين... وهذا أمر واقع في حياة الدول والشعوب، نراه اليوم، كما كان قائماً في الماضي..

ولذا فإن عقد صلح مع قريش، سيكون من جرائه نزع تلك العداوة من نفوس قبائل العرب ضد الدعوة الإسلامية مما يؤمن لها سبيل الانتشار بعيداً عن العوائق والسدود في وجهها، إذْ يجد المسلمون الفرصة لكي يقوموا بنشر دينهم، بعد أن شغلوا خلال السنوات الماضية بالحروب التي شنّت ضدهم، وأخذت غالب أوقاتهم. وهذا ما حققته بالفعل معاهدة الحديبية، إذ كان الصلح حقاً، فتحاً مبيناً للمسلمين، أتاحه الله سبحانه لهم بفضل حكمة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وبُعد نظره ودقة فهمه السياسي.

* * *

سلسلة غزوات الرسول

(3)

غزوة بَنِي النضير

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ آلرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

*{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُواْ لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ}.*

غزوة بني النضير

انتهى يوم أُحد، وخيَّمَ الليل على المدينة، ففريق نام من أهليها، وفريق سهر..

فأما المسلمون فقد أوَوْا إلى منازلهم، يُخلدون إلى السكينة، وقد لفَّتهم الأحزان، وخيمت الكآبة على حياتهم.. وأما المنافقون وبنو يهود، فلم يناموا، بل تواعدوا على السهر والسمر.. وكيف يطيب لهم نومٌ، وقد تحققت الآمال التي حلموا بها، وعادت المطامع تراود أحلامهم؟!..

إنها مناسبة عظيمة قد جاءت مزدوجة: فهزيمة المسلمين نصرٌ لهم.. ويومُ أُحُدَ يومُهم.. ثم تزدادُ أهمية هذا اليوم في أعينهم لأنه لم يهزم الأعداء وحسب، بل هو يوم القداسة لأنه كان يومَ السبت..

وإن أهمية المناسبة تفرض عليهم الاحتفاء بها وفق ما يشتهون.. وها هو الليل قد حلَّ، فتلألأت الأنوار في ديارهم، والتهبت الألحان في نواحيهم.. فقد اجتمعوا في عدة دور معيِّدين، فصدحت الأنغام، وغنّت القيان، فأوغلوا في اللذة والابتهاج، وانتحى في كل دارةٍ جمعٌ من شيوخهم ودُهاتهم يتحدثون شامتين..

فمن قائل:

ـ لقد سعينا بعد رجوع محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وجماعته لتفريقهم عنه بكل ما أوتينا من قوة...

ومن قائل:

وبذلنا ما في وسعنا في زيادة فجيعة ذوي القتلى على موتاهم.. إلى قائل: ونحن لم نألُ جُهداً في إسماعهم شتى ألوان التشفِّي والشماتة، وزدناهم لوماً، وأظهرنا بأننا كنا قوماً أشدَّ حزماً وأكثر حكمة، حين رجعنا من الطريق ولم نمضِ معهم إلى القتال.. وأوجعناهم تأنيباً ونحن نُشيع بينهم بأنهم لو سمعوا لنا وأطاعونا ما قُتلوا..

بمثل هذه الشماتة باتوا يتقوّلون، هازئين، ساخرين، وبمثل ذلك الفرح كانوا يبتهجون.. ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ كان يرقب كل ما يقولون وما يفعلون، فأنزل فيهم من القرآن الكريم ما يُبيّنُ خَطَلَ ما يدَّعون، ويتوعدهم بالحق الذي لن يفروا منه، فقال عزَّ مِنْ قائل:

{الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[1].

نعم هكذا كانت فعال بني يهودَ والمنافقين.. فقد سعوا، بعد عودة المسلمين في نهار الأحد، أن يشكّكوا في رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وفي دعوته، فراحوا يردّدون على المسامع: «لو كان نبياً ما ظهروا عليه، ولا أصيب منه ما أصيب، ولكنه طالبُ مُلكٍ تكون الدُّولة له أو عليه»!.. ولم تكن نيّاتهم الخبيثة تلك، لتخفَى على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ولا على المسلمين، ولكنهم آثروا السكوت لأن الظرف لا يساعدهم على التصدّي لدسائسهم. إلا أن ذلك السكوت، لم يمنع على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يبيت ساهراً تلك الليلة، متفكراً فيما يجب عليه فعله حتى يعيد للمسلمين هيبتهم التي بدا للناس أنها تضاءلت، وللإسلام مكانته التي تراءى لهم أنها أُزيلت، لأنه إن لم يفعل شيئاً، فإن الأمور سوف تتعاظم وقد تُسوِّل لهؤلاء المنافقين نفوسهم، ولغيرهم من قبائل العرب التي ما تزال على عداوتها للدعوة، أن ينقضّوا على المسلمين ويتمكّنوا من القضاء على كيانهم!.. وما من شكٍّ بأنه لا يمنعهم مانعٌ من القيام بعملٍ سريع وحاسم يتخذونه، فتتمكن تلك الجماعات والقبائل من تحقيق أهدافها العدوانية، ولذا صمَّمَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يزيل أثر الوهن من نفوس المسلمين، وأن يعيد إليهم الثقة في ثباتهم للدسائس والمناورات، فعزم على الخروج في أثر قريش، رغم ما في المؤمنين من قَرْح، وما هم عليه من إعياء..

ولقد قدَّر، صلى الله عليه وآله وسلم، أن النتائج التي ستعقب ذلك الخروج، تتركَّز في هدفين: قطع الطريق على المرجفين في المدينة، وإشعار قريش ومَنْ والاها، وكل مَنْ عداها من الأعداء، أن المسلمين لم يضعفوا كما يتوهمون، بل لا تزال عندهم قوة يستطيعون بها أن يُرهبوا عدوّ الله وعدوَّهم...

وطلع صباح غدِ يوم أحد يقع لست عشرة خلت من شوَّال، فإذا صوتُ مؤذِّن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يتعالى في أرجاء المدينة يدعو المؤمنين للخروج!.. وهبَّ المقاتلون، وكأنهم بهذه الدعوة الصارخة، قد ذَهَبَ الوهنُ عنهم، وخرجوا يمتشقون أسلحتهم،

1 سورة آل عمران، الآية: 168.

ويتدافعون نحو المسجد، فيلاقيهم إخوانهم قائلين: إن رسول الله يأمر أن لا يخرج أحدٌ إلاَّ إذا كان قد حضر يومنا بالأمس...

وأطاعَ المسلمون أَمْرَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فعاد من تخلَّف عن أُحُد، بينما اجتمع المقاتلون ينظِّمون الصفوف، ويشدُّون العزائم، فخرج إليهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في لباسه الحربي ونادى فيهم: «ألا عصابَة تشدُّ لأمر الله تطلب عدُوَّها وتطارده فإنها أنكى للعدو وأبعد للسمع؟...».

ثم استخلف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ابنَ أم مكتوم على المدينة، ودفع اللواء إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) وسار في طليعة جيشه على بركة الله..

وهكذا سار جيش المسلمين يريد اللحاق بقريش وفي النفوس توقٌ لمواجهتها، وفي المشاعر اندفاع لقتالها...

لقد خرجوا جميعهم ـ مُعافين وجرحى ـ يلبون النداء، من غير أن يكترث أحدهم لإعياء، أو يهتمَّ لألم.. بل إنَّ الجرحى كانوا أكثر حماساً، كما يصوّر حالهم أحدُ الصحابة من بني عبد الأشهل فيقول: «شهدت أُحُداً أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين.. فلما أذَّن مؤذن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالخروج في طلب العدو، وتليت علينا الآيةُ التي أنزلها الله تعالى على نبيّه الكريم:

{وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ}[1]..

نعم لما أُنزلت تلك الآيةُ المباركة تواعدنا على ألاَّ تفوتنا غزوة مع رسول الله، وخرجنا نلحق بالمؤمنين، ونحن نكاد نزحف وراءهم على أرجلنا زحفاً..

ثم يتابع الصحابي الجليل:

«وكان أخي رافعٌ أكثرَ مني جراحاً، فضعف عن السير، بعد أن قطع مسافة من الطريق، فتقدمت أحمله على ظهري، وأنا أجهدُ في المسير كي أريحه، حتى لا أعود أقوى على احتماله، فأُنزله عن ظهري، ليمشي قليلاً، وأستريح أنا، ثم لا ألبث أن أعودَ وأحمله من جديد.. وما زلنا كذلك حتى وصلنا إلى معسكر المسلمين، فأتينا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نعتذر عن تأخُّرنا.. ولكنَّ الرسولَ العظيم ما إن رآنا على تلك الحالة، حتى

---

1 سورة النساء، الآية: 104.

عظُمَ عليه الأمر، فراح يواسينا ويدعو لنا بالخير، ثم قال: إن طالت بكم مدة كانت لكم مراكبَ من خيل وبغال وإبل وليس ذلك بخير لكم».

فقد تمكن هذان الأخوان من بني عبد الأشهل من اللحاق بإخوانهم المقاتلين في معسكرهم الذي أمر رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يقيموه في مكان بَلَغَهُ يدعى: «حمراء الأسد» وهي من المدينة على ثمانية أميال، ثم طلب إلى المقاتلين أن يجمعوا الحطب، ويجعلوه أكواماً متفرقة في شتى أنحاء المعسكر، حتى إذا جن الليل، وأسدلت الظلمة خيوطها، أمرهم جميعاً بأن يوقدوا النيران في أكوام الحطب، ففعلوا، وعَلَت ألسنة اللهب تدلُّ على وجودهم للبعيد البعيد.. حتى ليظنّ من يراها أن المسلمين أعداد لا تُحصى، وأنَّ لهم قوة لا يستهان بها..

وانقضت تلك الليلة ونيران المسلمين لا تنطفيء.. وعادوا إليها في الليل التالي، مما جعل أخبارها تصل قريشاً، فتهِنُ منها العزيمة، وتفترُ القوى، فكان ذلك أحد العوامل التي كبتَ الله قريشاً به..

وعادَ نهارٌ ثالث يطلُعُ من جديد، فيمرُّ بقرب «حمراء الأسد» رجلٌ من خزاعة يدعى معبد الخزاعي.. فقصد رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، متوخياً التشرُّف بمجالسته وقتاً قبل أن يتابع سيره، وكان بعضٌ من أبناء خزاعة قد دخلوا في الإسلام، بينما كان أكثرهم لا يزالون على الشرك، ولكنَّهم جميعهم كانوا يحبون محمداً ويجلُّونه، ولا يُضمرون عداوة لدعوته، ولا حقداً على أصحابه.. فجاء معبدٌ، ولم يكن قد أسلم بعد، يجالسُ النبيَّ الكريم، ثم يقول له مواسياً:

«والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في نفسك وفي أصحابك، ولوَدِدْنا أنَّ الله أَعْلَى مقامك، وأنَّ المصيبة كانت بغيرك».. فأثنى عليه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لتلك العاطفة الصادقة، وراح يسأله عن بني قومه، وعن وجهة سيره، ويحدّثه في شتى الشؤون حتى مضت ساعة من الوقت، فقام معبد يودع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مستأذناً بالذهاب...

وسارَ معبد في طريقه، يقطع مسافة طويلة ـ ثمانية وعشرين ميلاً ـ بعيداً عن «حمراء الأسد» حتى يبلغ «الروحاء»، حيث يعسكر المشركون، فعرَّج عليهم يريد معرفة أخبارهم، فوجدهم قد أجمعوا الرجوع لقتال محمد وأصحابه.. وأرادَ أن يتأكّد من صحة هذا الرجوع،

فجلس إلى أبي سفيان بن حرب يسأله إن كان حقاً ينوي ذلك الرجوع لمعاودة القتال، فيقول له أبو سفيان:

ـ «أصبنا حدّ أصحاب محمد وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟.. لنكرنَّ على بقيتهم، فلنفرغنَّ منهم».

ويسكت معبدٌ ولا يجيب، فيسأله أبو سفيان: وما وراءك يا معبد؟.

فقال معبد: «لقد رأيت محمداً وقد خرج يطلبكم في جمعٍ لم أرَ مثله قطُّ يتحرقون عليكم تحرقاً.. فقد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا».

ويصمت معبد عن قصد منه، فيقول له أبو سفيان:

ـ تابع يا معبد.. ولِمَ توقفت عن الحديث؟!..

فيعود معبد ويقول:

ـ وإني قد أيقنت أنَّ في نفوس القوم من الحنق عليكم شيئاً لم أرَ مثله قَطَّ ولم تعرفه العرب من قبل..

فصرخ أبو سفيان في وجهه:

ـ ويلك ما تقول يا معبد؟

قال معبد: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل!..

قال أبو سفيان: ولكنّا أجمعنا أن نكرَّ عليهم ثانية، فنبيدهم على بكرة أبيهم..

قال معبد: لا أخالك قادراً على ذلك يا أبا سفيان. وأنا ناصحٌ لك ألاَّ تفعل! فوالله قد حملني ما رأيت من المسلمين أن قلت فيه شعراً.

قال أبو سفيان: وما قلتَ؟!

فارتجل معبد على جَرْيِ اللسان وعلى الفَور:

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي

إذ سالت الأرضُ بالجُرْد الأبابيل[1]

ترْدِي[2] بأُسدٍ كِرامٍ لا تنابلةٍ[3]

---

1 الجُرْد: جمع أجرد، وهو الفرس القصير الشعر، والأبابيل: الفِرَق الكثيرة.

2 تردي: تسرع.

3 تنابلة: جمع تنبال، وهو القصير.

عند اللقاء ولا ميلٍ[1] مَعازيلِ[2]

فظلتُ عَدْواً أظنُّ الأرضَ ماثلةً

لما سَمَوْا برئيسٍ غير مخذولِ

فقلتُ: وَيْلَ ابنِ حربٍ من لقائِكُمُ

إذا تغطمطت[3] البطحاء[4] بالخيلِ

إني نذرت لأهلِ البسْلِ[5] ضاحيةً

لكل ذي إربَةٍ منهم ومعقول[6]

من جيشِ أحمدَ لا وَخْشٍ[7] قنابلة

وليس يوصَفُ ما أنذرتُ بالقِيل

... وخيَّم السكوت.. ووجم القائل والمستمع.. ثم ما لبث معبد بعدها إلاَّ قليلاً، ثم ارتحل مخلّياً أبا سفيان في همٍّ وقلق..

وراح أبو سفيان يَروي لقومه ما حدَّثه به الرجل الخزاعي، فأجفلت قلوبُهم، وباتوا ليلتهم يتفكَّرون: هل يتخلّفون عن الرجوع إلى مقاتلة محمد فيخبو وميض النصر الذي حققوه، أم يسيرون إلى الديار فيحافظوا على هالة ذلك النصر، وتبقى لهم السمعةُ الظافرة؟!..

وارتأى القوم الحل الثاني، فإذا هم يشدّون الرحال ويتوجهون إلى بلدهم، فيلاقون ركباً من عبدالقيس، فيسأل أبو سفيان:

ـ أين وجهة أصحابنا؟

قالوا: المدينة لنمتار.

فقال: أما أنتم مبلِّغون عني محمداً رسالةً، وأحمّلكم على إبلكم هذه زبيباً بعكاظ غداً إذا وافيتموه؟.

---

1 الميل: جمع أميل، وهو الجبان الذي لا سيف معه.
2 المعازيل: جمع معزال وهو من لا رمح معه.
3 تغطمطت: اهتزت وارتجت.
4 البطحاء: السهل من الأرض.
5 البسل: الحرام، يعني مكة.
6 الإربة: العقل.
7 وخش: رذال الناس وأخسّاؤهم.

فأجابوا فرحين: نعم!...

قال أبو سفيان: إذا جئتم محمداً فأخبروه أنَّا قد أجمعنا أن نعيد الكرة عليه وعلى أصحابه نستأصلهم..

... وتابع أولئك النفر من عبدالقيس مسيرهم حتى بلغوا «حمراء الأسد»، فتوقفوا يبلِّغون محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، ما أوصاهم به أبو سفيان، فلم يزد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على أن قال: «حسبنا الله، ونعم الوكيل».

وانقضت أيام ثلاثة: (الإثنين والثلاثاء والأربعاء) والمسلمون ينتظرون رجوع قريش ولكنها لم ترجع، بل عادَ نَفَرُ المسلمين الذين بعثهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يترصدون أخبار الأعداء، ويرقبون تحركاتهم، ليخبروه بأن قريشاً قد سار ركبها إلى مكة مرتحلاً، ولم يتخلّف أحدٌ عن هذا المسير... عندها أمر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، برفع المعسكر، وجمع الأمتعة، والاستعداد للعودة.. فأنزل الله تعالى قرآناً كريماً، يَعِدُ أولئك المؤمنين، الذين خرجوا على رغم جراحهم لمقاتلة العدو الكافر، بالأجر العظيم الذي يستحقون، ويصف حالهم عندما جاءَهم أناس يوهنون منهم العزم، ويثيرون الخوف في النفوس، فما زادهم ذلك إلاَّ إيماناً واحتساباً، فقال عزَّ وجلَّ فيهم:

{الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[1].

... وسارَ ركب المسلمين عائداً.. وشاءت عدالةُ السماء أن يُلاقوا في طريق العودة أبا عزّة ـ الشاعر الجُمحي ـ الذي خان العهد، وراح يظاهر على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويُكثر عليه، فأمسكوا به واقتادوه إلى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ليرى أمره فيه..

واندفَعَ ذاك الشاعرُ المنافق يريد أن يُظهر للرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بأنه لم يكن راغباً فيما فعل، بل إنّ صفوان بن أمية هو الذي أغواه عندما قال له: «يا أبا عزة! إنك

1 سورة آل عمران، الآيات: 172 ـ 175.

امرؤ شاعر فأعنّا بلسانك.. لئن خرجت معنا، فلك عليَّ عهدٌ إن رجعت لأعيننّك في بناتك»..

فقال له بعض المسلمين:

ـ ورضيت بعهد ابن أمية لك، ونقضت عهدك مع رسول الله!.. أليس كذلك؟!... فما جزاء من ينقض عهد رسول الله؟!..

فقال مخادعاً: يعفو عني محمد...

فقال له الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عندئذٍ: «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين. لا يلدغ المؤمن من جُحْر مرتين».

ثم أمر أن يأخذوه جانباً وتُضرب عُنقه.. وتابع الركب مسيرتَه...

* * *

القضاء على الفِتن والاضطرابات

وعادَ المسلمون من غزوة «حمراء الأسد» أرفعَ رأساً وأعزَّ جانباً.. فقد طاردوا العدو، ولبثوا بضعة أيام ينتظرون رجوعه إليهم، ولكنه آثر ـ رغم النصر الذي حققه ـ عدم مواجهتهم من جديد، فولّى إلى دياره ذاهباً..

واعتقد المسلمون بأن تلك المطاردة، سوف تخفف من غلواء أعدائهم، في المدينة وخارجها، ولكنَّ أولئك الأعداء كانوا قد أيقنوا بصورة قاطعة أن المسلمين قد هُزموا نهائياً، وأن مظاهر القوة التي أبدوها في المطاردة لا تُزيل الضعف الذي داخَل صفوفهم، فزاد تنكُّرهم لهم... وراح المنافقون واليهود في المدينة يتحرَّشون بهم، ويفتعلون المشاكل، في محاولات حثيثة لمناوأتهم والنيل منهم؛ ولم تكن قبائل العرب، خارج المدينة، بأقلَّ تنكراً، أو أخفَّ معاداة، إذ ما لبث معظمهم أن نقض المواثيق التي عقدها معهم محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وانقلبوا إلى سابق عهدهم من العداوة، وراحوا يستعدون لمهاجمته وقتاله..

ولم يكن ذلك كله ليغيب عن بال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بل كان يعلم علم اليقين ما يُعِدُّه أعداء الداخل والخارج من مؤتمرات ضد الإسلام، ومن استعدادات ضده وضد أصحابه، ولذلك راح يبث العيون في كل النواحي حتى يقف على الأخبار كافة، ويكون على بينة مما يجري، فإذا ما حانَ الوقت أمكنه أن ينزل أشدَّ العقاب بأولئك الذين تسوّل لهم نفوسهم الحاقدة استصغار شأن المسلمين والاعتداء عليهم...

وانقضى شهر كامل على أُحد، والأوضاع المستجدة ما تزال على حالها من عدم الاستقرار... فهنالك مشركون يتربَّصون الدوائر بمحمد ويريدون الانقضاض عليه.. وههنا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يرقب ويتفكَّر ويخطِّط.. فلما جاءه من يبلغه أن بني أسد يريدون غزو المدينة، وغرضهم اقتياد غنم المسلمين وهي ترعى في الأطراف، دعا إليه على عجلٍ أبا سلمة بن عبدالأسد، وعقد له لواء سرية بلغت مائة وخمسين مقاتلاً من خيرة أبطال المسلمين وأكثرهم شجاعة، أمثال أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص، وأسيد بن حضير.. وغيرهم، وغيرهم من الرجال الأشدَّاء، وأمرهم بالمسير إلى بني أسد، ليغزوهم في عقر دارهم، قبل أن يقوموا هم بغزوهم في المدينة... وقد وضع لهم خطة لذلك، بأن

يسيروا في الليل ويقعدوا النهار، وبأن يسلكوا طرقاً غير مألوفة، ويستخْفوا عن الأنظار، فلا يطَّلع أحد على خبرهم، وبذلك يُمكنهم مفاجأة العدو على غِرَّة منه...
وسارت تلك السرية المباركة تنفِّذ أوامر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بحذافيرها، فلا تكترث لوعورة المسالك، ولا تخاف ضياع الطريق، حتى أمكنها بلوغ منازل بني أسد، فضربت حولها نطاقاً في عماية الصبح، واندفع قائدها أبو سلمة أمام رجاله، يحضّهم على الجهاد في سبيل الله، والنيل من أعدائه... ولبَّى الأبطال نداء الواجب المقدس، فانقضوا على العدو يرهبونه، ويشتِّتون شمله، حتى أنزلوا به الهزيمة، وألحقوا به الخسارة، في ساعة ما رأى مثلها في حياته قط...
وانقضت تلك الغزوة، فحمل المسلمون الأموال التي غنموها بقوة بأسهم، وعادوا يهلِّلون بالظفر، ويهزجون بالنصر، فاستقبلهم إخوانهم على أبواب المدينة، مكبِّرين، مسرورين، وهم يشعرون بالثقة تعود إلى نفوسهم، وبالاطمئنان يسري في جوارحهم..
ثم لم يمرَّ وقت طويل على سريَّة أبي سلمة، حتى بَلغ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أنَّ خالد بن سفيان الهذلي، يستعدُّ هو أيضاً لغزو المدينة، وقد أقام بعُرْنة، يجمع الناس من حوله لهذا الغرض... فبعث رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عبدالله بن أنيس ليقف على حقيقة الخبر وقد ترك له حريّة الخيار في التصرُّف، وفق ما يراه ويرتئيه...
وذهب عبدالله في مهمته، مُخفياً أمره عن الناس، حتى بلغ مكان خالد الهذلي، فسأل عنه، فقيل له: إنه في جماعة من النسوة يرتاد لهنَّ منزلاً، فقصده..
ووصلَ عبدالله والْتقى خالداً، فسأله هذا:
ـ من أنت أيها الرجل، وما تريد منا؟
قال عبدالله: أنا رجل من العرب، وقد سمعت بجمعك لمحمد، فجئت للانضمام إليك...
وبانَ الزهو على وجه خالد الهذلي، فقد تراءى له في تلك اللحظة أن أمرَه قد بلغ مسامِعَ البعيد من قبائل العرب، وأنه بات مشهوراً عندها، فقال لعبدالله متفاخراً:
ـ نعم أنا أجمع على حرب محمد، ولسوف يرى هو وأصحابه فعل الهذلي...
فقال عبدالله متحذلقاً: وأنا ما جئتك إلاَّ لهذا الأمر!...

وعادَ الغرور يملأ نفس الهذلي، فدعا عبدالله إلى الجلوس بقربه، وراح يبيِّن له حقده على محمد، وعزمه على قتله حتى يريح العرب بأسرها من همِّه، وعبدالله يستمع إليه، ويُبدي إعجابه من تصميمه حتى شعر بأنه اطمأنَّ إليه تماماً، فقال له مستدرجاً:

ـ أرى أنك تجهد نفسك كثيراً يا خالد ولا أخالك ترفض نزهة قصيرة في هذه الفلاة الرحبة تذهب عنك التعب، وتزيل العناء...

قال خالد: لعلك ممن يدرك السرائر فوراً يا أخا العرب، فأنا مجهد، ويطيب لي أن أرافق أمثالك من ذوي الفهم والحذق...

قال عبدالله: إذن هيّا بنا...

وهبَّ خالد يتمايل بخيلائه وسار برفقة عبدالله حتى قطعا مسافة ليست بقصيرة... وصارا بعيدين عن عيون القوم.

وهنالك ووراء كثيب من الرمل، استلَّ عبدالله سيفه، وقفز على خالد وهو يقول له:

ـ أيها الكافر! لقد أعمى الغرور بصيرتك فظننت أنك قادر على بلوغ أمانيك الخبيثة من محاربة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وإراحة العرب من همِّه. ولكنك خسئت فيما ظننت، فها أنذا مبعوث محمد إليك، قد جاء يطلب حتفك، فخذها ضربة تسلبك الحياة وترديك في أسفل الجحيم.. ثم ضربه بالسيف، فشق هامه، وتركه على الثرى يتخبط بدمائه، ومضى في سبيله، مرتاح النفس، قرير العين، حتى بلغ المدينة، وأخبر رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما فعلَهُ فهنَّأه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على سلامته، ودعا له بالخير..

وتناقلت الأخبارُ ما حلَّ ببني أسد، وبزعيم بني هذيل، فهدأت ثائرة القبائل منفردةً ومجتمعة، ولم تعد تجرؤ واحدة منها على الاستعداد لمهاجمة المدينة، لئلا يعرف محمد بأمرها، فيأتيها جنده، وتقع الواقعة عليها.. إلاَّ أنَّ القبائل وإن لاذت إلى السكينة خوفاً، فإنها راحت تنتظر الأيام بما تأتي من جديد، وترقب الأحداث بما تغير من أحوال... وإن كان ذلك لم يمنع بعضها من التفكير في أساليب ملؤها المكر والمخادعة، كما فعلت قبيلة تجاور بني هذيل، إذْ أوفدت إلى المدينة رهطاً منها يقابل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويعرض عليه أمر قبيلته قائلاً: «يا محمد! إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يعلّموننا أحكامَهُ ويقرئوننا القرآن».

ولم يكن للنبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يتأخَّر عن تلبية نداء واجب الرسالة، مهما حمل من تضحيات، فدعا إليه ستة من كبار الصحابة، وأمرهم بالذهاب مع أولئك الرهط، فامتثلوا راضين، وساروا لأداء المهمة المقدسة، ولكنهم ما إن بلغوا الحجاز، ونزلوا على ماءٍ لهذيل، في ناحية تدعى «الرجيع»، وهو موضع بين عسفان ومكة، حتى استصرخ الرهط الذي يرافقهم هذيلاً عليهم، فجاءت تغشاهم بالسيوف.. ورغم المفاجأة، ورغم المداهمة التي لم يكونوا ينتظرون فقد استلَّ أولئك الصحابة سيوفهم ليقاتلوهم، فقالوا لهم: لكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم. فأجابهم بعض المسلمين: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً. وراحوا يقاتلون المهاجمين الغادرين، ولكنه كان قتالاً بلا جدوى، إذ أنَّى لهم الفوز والأعداء من حولهم كثيرون، وجمعُ قبيلة بكامله كان ينتظرهم!... ولكنهم دافعوا عن أنفسهم، وقاتلوا ما وسعهم القتال، فاستشهد ثلاثة منهم هم: عاصم بن ثابت، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن بكير الليثيّ، بينما وقع في الأسر الثلاثة الباقون وهم: عبدالله بن طارق، وخبيب بن عدي الأوسي البدري، وزيد بن الدثنة...

وأخذت هذيل هؤلاء الأسرى، قاصدة مكة لتبيعهم من قريش، ولكنهم بينما كانوا في الطريق اغتنم عبدالله بن طارق غفلة القوم عنه، فانتزع يده من الغِلِّ، وامتشق سيفه يريد مقاتلة القوم، فلم يمكِّنوه منهم، بل قتلوه شرَّ قتلة، وتركوه في الفلاة، متابعين السير إلى تحقيق غرضهم الدنيء...

والتفَّت قريش في مكة حول الأسيرين، تهزأ بهما وتشمت، وتثني على بني هذيل وتمتدح، حتى وقف صفوان بن أمية يصرخ في الجمع:

ـ يا قوم، إشهدوا عليَّ بأني ابتعت أحد أصحاب محمد لأقتله بأبي أمية...

وسارع يجذب إليه زيداً، ثم يسلمه إلى بعض الغلمان كي يقتلوه على مرأى من الناس جميعاً...

فتقدم منه أبو سفيان بن حرب، وقال:

«يا زيد! أنشدك الله، أتحب أن محمداً الآن عندنا في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟

فانطلقت صرخةُ زيد بِدَوِيٍّ يهزُّ كيان أبي سفيان قائلاً:

ـ والله ما أحبّ أن رسول الله الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي!..

فاهتاج أبو سفيان لسماعه ذلك وقال: واللهِ ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً...

ثم التفت إلى صفوان وصرخ فيه: إيه يا صفوان، ألا تأمر بقتله؟!

ولم يكن حقد ابن أمية بأخف من حقد أبي سفيان، فأمر نسطاس فقتل زيداً، فذهب شهيد أمانته لدينه ولنبيِّه.

أما خبيب بن عديّ فقد اشتراه حجير بن أبي إهاب التميمي ليقتله بأبيه إهاب وحبَسهُ عنده مدة من الزمن، كانت خلالها، مولاةٌ له تدعى ماوية، تأتيه بالطعام والشراب، فتجده وقد جلس يتهجَّد بالقرآن، فتقف بعيدة عنه تصغي لقراءته، حتى يرقَّ قلبها وتبكي..

وذات يوم، بينما خبيبٌ كعادته يقرأ ويصلي، إذ به يرى باب سجنه يفتح، ودخل عليه القوم يقتادونه، فسألهم بكل عزم وثبات:

ـ يا معشر قريش أتريدون قتلي؟

قالوا: نعم! وما نفعل بمثلك غير أن نذيقه طعم الموت الزؤام.

قال: لكم ما أردتم. ولكن ذروني أصلي ركعتين قبل أن ألقى وجه ربِّي.

ونزل القوم على رغبته فصلَّى ركعتين وهو مقيَّد بالأغلال، ثم رفع رأسه بأنفةٍ وخاطبهم قائلاً:

ـ أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت الصلاة جَزعاً من القتل لاستكثرت!.. فتعجبوا من أنه لم يكترث وهو يقتل في سبيل الله وهزَّت رباطة جأشه نفوس المشركين، فاندفعوا إليه يرفعونه على خشبة ويشدُّون وثاقَهُ فأنشد قائلاً:

فلستُ أُبالي حين أُقتل مسلماً

على أيِّ جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأْ

يباركْ على أوصالِ شِلْوٍ ممزَّع

وقبل أن يسمِّروا يديه ويصلبوه، نظر إليهم بعين غضبى، وصرخ فيهم ورفع رأسه نحو السماء وقال بصوت مرتفع: «اللَّهم أحصِهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً». وأُرْتج عليهم من صبحته تلك وشعروا وكأن اللعنة تصيبهم، ثم عاجلوه بالقتل..

وكان مصرع خبيب (رحمه الله) في صفر من السنة الرابعة للهجرة.. حيث استشهد في سبيل الله وفي سبيل دينه الحق، كما استشهد قبله بشهور قليلة إخوة له، يوم سقطوا صرعى في «الرجيع» في شهر شوّال من السنة السابقة، ولم تكن دماء الشهداء في أُحُد قد جفَّت بعدُ.

إنها قوافل من الشهداء تترى في مسيرة التاريخ لتثبّت دعائم الدين في صراعه مع الشِّرك، وتتعاقب مع مجرى الأحداث لتنير طريق بني البشر، جاعلةً من أجسادها مشاعل النور والهداية، ومن دمائها مداد هذه المشاعل.

فبالأمس هناك... واليوم هنا... وغداً في كلّ مكان! تُزرع أجساد الشهداء تحت التراب... ولكن، وأيَّانَ كان المثوى، فهو المزار للمؤمنين من أهل الأرض، يتنشَّقون منه عبير الشهادة فيسري في النفوس هدىً وإيماناً.. فبالله عليك يا غادياً إلى الشهادة: أما شعرت بذلك العبير رجفةً في أوصالك، وهزَّة في كيانك، وأنت تذكر مآثر الشهداء، وترتسم أمام مخيلتك صورة أهل بدر، وأُحُد، ومشهد أبناء الرجيع، وصرخة زيد، وصلاة خبيب؟!..

لقد كانوا رجال الإسلام، وغدوا شهداء الحق، فبارك لهم، وسبِّح لربهم ولكنْ: كُنْ مثلهم، فلا تبخلْ في العطاء...

وحزن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لأهل «الرجيع» وتألم لفاجعة هؤلاء الأخيار، من ذوي الفقه في الدين، والجودة في قراءة القرآن.. وممّا زاده حزناً قتلهم غدراً ونفاقاً. والأسلوب الرخيص الذي استعمله الأعداء في امتهان كرامة رجال وهبوا نفوسهم لله تعالى وحده... وحزن المسلمون على إخوانهم، وأحسّوا بالجرح يصيبهم في الأعماق، ولكن هذه هي دربهم جميعاً: التضحية والفداء حتى تعلو كلمة الله سبحانه وتعالى...

وكان حَريّاً بتلك الأحداث أن تهدَّ كيانهم، وهي تتسارع عليهم منذ أُحد، لولا أن آيات القرآن كانت تتنزل تباعاً، فيتلوها عليهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويبيِّن لهم ما تحمل من مواساة لمصائبهم، واطمئنان لنفوسهم، ويوضح لهم ما تَعِدُ به الصابرين منهم على طاعة ربهم، من جنّاتٍ غرس الله سبحانه أشجارها بأمره، وأسال أنهارها بتقديره، وجعلها المقام الدائم الذي لا يزول للخالدين فيها من أهل طاعته وحَمَلة دعوته..

وكان يُريح المؤمنين، ويزيد في اطمئنانهم، إيمانهم القوي بأن الله تعالى هو وليُّهم، وأنه يُدخِل من يشاء في رحمته، وأنّ الظالمين ما لهم من وليٍّ ولا نصير...

وكانت آثار حادثة «الرجيع» ما زالت تتفاعل، عندما قَدِم على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أبو براء، عامر بن مالك بن جعفر العامري، المعروف بمُلاعِبِ الأسِنّة، فعرض عليه الرسول العظيم أن يدخل في الإسلام، ولكنَّ أبا براء من غير أن يظهر عداوة للإسلام استمهل الرسولَ قائلاً:

ـ يا محمد! إني أرى أمرك هذا حسناً وقومي خلفي، فلو بعثت لهم نفراً من أصحابك لرجوت أن يتَّبعوا أمرك ويستجيبوا لك!...

وفكّر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في الأمر. إنه واجب الدعوة وهو مقدس... ولكنَّ أهل نجد ظهروا ذوي غدر لما فعلوه في «الرجيع» فهل يأمن مثل هذا الغدر على صحابة آخرين لو أجاب أبا براء إلى ما سأله؟!..

ولم يُخفِ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حرصه على سلامة أصحابه، فذكَّر الرجل بما حصل في الأمس القريب، ولكن أبا براء انبرى يؤكد نيّاته السليمة، وعزمه على الذود عنهم، وحرصه على سلامتهم.. وبلغ منه التأكيد لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن أعلن جِواره لهم وهو يقول للرسول:

«أنا جارٌ لمن تبعث يا محمد، فلْيفِدوا داعين لأمرك».

لقد كان الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، يعرف أن أبا براء رجل مسموع الكلمة في قومه وأنه من أهل الشجاعة، ويحفظ العهد الذي يأخذه على نفسه، وقد اشتهر بذلك بين العرب حتى دعوه «مُلاعِب الأسنَّة».. فهو أهل لمن يُجِير، ولا خوف منه أن يخون الأمانة والعهد... ولذلك، ورغم أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كره استجابة طلبه، إلاَّ أنه فضَّل إجابة نداء الواجب، فانتدب للمهمة المنذر بن عمرو، أخا بني ساعدة، وأمره بالخروج في أربعين من خيار المسلمين وقرائهم، كي يذهبوا إلى بني عامر ـ قوم أبي براء ـ يدعون إلى الإسلام ويفقهون في أمور الدين. وكان خروج هذه البعثة من المسلمين في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة، فساروا ملبين نداء الواجب حتى بلغت بهم الطريق مكاناً يدعى «بئر معونة» قريباً من بني عامر، فنزلوا عنده يستريحون، ولم يلبث بعدها قائد السرية أن دعا إليه حرام بن ملحان، وطلب منه أن يحمل كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى عامر بن الطفيل، ابن أخي أبي براء، وفيه شرحٌ لما دار بين هذا الرجل ورسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم. وذهب حرام بكتاب رسول الله، صلى الله

عليه وآله وسلم، حتى أتى عامر بن الطفيل في نُزُلِه وأعلمه بأمره وغرضه، فما كان من الرجل إلاّ أن طرح الكتاب أرضاً ثم أمر جبار بن سلمى فقتله. وكان هذا سبب إسلام جبّار، إذ يروى عنه أنه قال: «إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم يومئذٍ برمح بين كتفيه، فنظرت إلى سِنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فُزْتُ وربّ الكعبة، فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألسْتُ قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لعمر الله، وكانت كلمته سبباً لإسلامي». فانتشر الخبر في مضارب بني عامر، فتجمع هؤلاء القوم يستفسرون سبب قتله لهذا الرسول، فأعلمهم بأمر جِوار أبي براء لتلك الجماعة من المسلمين واستصرخهم ليشدوا عليهم في بئر معونة فيبيدوهم على بكرة أبيهم.. فأبوا عليه ما يرغب، ولم يستجيبوا له، بل خذلوه قائلين: «والله لا يُخفَرُ جِوار أبي براء»..

عندها انطلق عامرٌ اللعين إلى قبائل مجاورة لهم، من «بني سليم». و«ذكْوان»، و«رِعل»، يستحثهم للقضاء على تلك الجماعة من المسلمين التي جاءت تفتن الناس عن دينهم. ولم تتوانَ تلك القبائل عن الاستجابة لنداء ابن الطفيل، فانطلقت إلى بئرِ معونةٍ وأحاطت بالمسلمين من كل جانب، ثم انقضَّت عليهم، تنزل بهم تقتيلاً؛ والمسلمون لا يجدون من يناصرهم أو يذود عنهم فشرعوا بالدفاع عن أنفسهم ما وسعهم الجهدُ، حتى إذا خارت قواهم، ولم يعودوا قادرين على القتال، تكاثرت عليهم تلك القبائل، تضرب فيهم بكل حقد وضغينة، حتى لم يبق منهم إلاّ من كتب الله سبحانه له النجاة، وكانا اثنان لا ثالث لهما، عمرو بن أمية الضمري، الذي رأى ابن الطفيل أن يُبقي على حياته، وأن يعتقه عن رقبة كان يزعم أنها على أمه، وكعب بن زيد الذي أغمي عليه من كثرة ما أصابه من جراح فظنه المشركون مقتولاً فتركوه.

وقفل عمرو بن أمية راجعاً إلى المدينة، بعدما رأى بأم العين أن جميع رفاقه قد ذهبوا شهداء، فراح ينهب الأرض نهباً ليخبر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بحقيقة ما جرى وهو لا يصدق أنه نجا حقاً من تلك الواقعة الخبيثة حتى بلغ به المسيرُ مكاناً يدعى «القرقرة» فنزل عليه يلتقط أنفاسه، وفيما هو يستريح من عذابه، إذا برجلين يقبلان وينزلان بجانبه، فيعرف من حديثهما أنهما من بني عامر.. فثارت نفسه لوجودهما بقربه وأراد أن يذهب، ولكنَّ نفسه سوَّلت له القصاص من هذين الرجلين على فعلة بني قومهما بإخوانه،

فظلَّ في مكانه يرقبهما حتى إذا سنحت له فرصة انقضَّ عليهما وقتلهما، ثم انطلق إلى المدينة يخبر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالمصيبة التي حلَّت بهم، وبما جدَّ معه في طريق عودته، فيلوم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عمراً على ما فعله بالرجلين، بعد أن تأكد من وصفه لهما، بأنهما الرجلان اللذان أجارهما.. ويقول له: «لبئس ما صنعت يا عمرو، قد كان لهما مني أمان وجوار».

وأسف عمرو أشدَّ الأسف، وحزنَ كثيراً على ما قام به.. ولكن من أين يعرف أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد أجار هذين الرجلين، بينما مجرد سماع ذكر بني عامر يثير في نفسه الغضب والحقد؟!

ولم يجد أمامه إلاَّ الاعتذار لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأمره الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بالانصراف.. وحزن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على الصحابة الشهداء الأبرار حزناً شديداً.. فما ذنب هؤلاء الصحابة حتى يقتلوا من غير أن يأتوا بمنكر، بل كان هدفهم خير الناس وهدايتهم!..

إنها الرعونة التي كانت تستبدّ بالقبائل، فتتخلى عن كل الأعراف والشرائع، حتى العادات التي هي قَوامُ حياتها باتت تتنكر لها، فلم تعد ترعى للجوار حرمة، ولا تقيم للشرف مكانة!.

... في هذه الأثناء كان أبو براء يعاني من فعلة ابن أخيه أشدَّ المعاناة، حتى لم يعد يقدر على الاحتمال فمات حنقاً وأسفاً.. ورأى ابنه ربيعة ما حلَّ بأبيه، فانطلق إلى عامر بن الطفيل، يقتله ثأراً لأبيه، ويجعله عبرةً لكل من لا يحفظ حرمة الجوار[1]..

---

1 وروي غير ذلك بحادث موت عامر بن الطفيل، فقد روي أنَّ وفداً من بني عامر جاء المدينة، يعلن إسلامه، بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة وكان فيه عامر بن الطفيل، وقد جاء يريد الغدر برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد أن أفشى ذلك لبني قومه، وقد اتفق مع أربد بن قيس على مساعدته في تنفيذ ذلك الغدر. فلمَّا كانا عند الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، راح عامر الخبيث يفتعل المراوغة حتى يُقدِم أربد على تنفيذ ما اتفق عليه، إلاَّ أنه لم يجرؤ. وقد خرجا بعد ذلك، يشتم أحدهما الآخر، فتوفي عامر بمرض الطاعون في بيت امرأة من بني سلول، بينما خرج أربد بعد مدةٍ لبيع جمل له، فنزلت عليهما صاعقة وأحرقتهما.

أما نحن فنستبعد قدوم عامر بن الطفيل في هذا الوقت، وبياتُه النية على الغدر برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لأسباب ثلاثة:

1 ـ إن عامر بن الطفيل هو الذي قتل على بئر معونة، سبعين رجلاً من خيرة قراء المسلمين، جاؤوا بأمر من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ليهدوا بني عامر إلى الإسلام، فليس من المعقول أن يترك الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عامراً هذا، من السنة الرابعة للهجرة حتى السنة التاسعة، ولا يقتصّ منه على جريمته النكراء تلك، لأنه، صلى الله عليه وآله وسلم، عوّدنا أن يتعقّب كل من آذى المسلمين، ومنعهم عن متابعة دعوتهم، فكيف إذا كان قاتلاً كافراً على تلك الصورة من القتل العَمْد، وبلا ذنب ارتكبه أولئك المسلمون القرّاء.

2 ـ إن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد أهدر عند فتح مكة دم أي مشرك قام بعمل إجرامي كبير، سواء على الصعيد الفردي أم على الصعيد الجماعي، فهل بعد أكثر إجراماً من ذاك القتل الذي قام به عامر بن الطفيل اللعين =

وكان وقع المصيبة بشهداء الصحابة كبيراً على المسلمين، كمثل وقعها على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم. كان أولئك الشهداء وعددهم سبعون رجلاً من الأنصار، إذا جنَّهم الليل أَوَوْا إلى مَعْلَمٍ بالمدينة فيبيتون يدرسون، ويبقون كذلك حتى يطلع عليهم الصباح، فيذهبون إلى أعمالهم.. إنها مصيبة آذت المسلمين حقاً، وجعلتهم يعيشون في دوامة من القلق والقهر والحزن... إذ باتوا محاطين بالأعداء من كل ناحية، ومهدَّدين بالأخطار من كل جانب، ما إن يدفعوا أحدها حتى تداهمهم أخطار كثيرة.

ويزيد في قلقهم ذاك، ما راح المنافقون يفتعلونه في المدينة من مشكلات، وما أجمعوا عليه من استعداد، حتى صاروا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويستعدون للانقضاض عليهم لتشتيت شملهم، والقضاء عليهم، بصورة نهائية..

... ويتفكر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما يعده المنافقون واليهود في المدينة من مخططات، وبما يحيكون من مؤامرات، فيرى أن أمرهم لم يعد مُطاقاً، وأنه إن أفسح لهم في المجال، فسوف يلجأون إلى استنصار الأعداء من الخارج، ثم تكون حربٌ أهلية في المدينة تلتهم كل شيء، وتقضي على الجميع.. لذلك قرَّر معالجة الشأن الداخلي، ليكون بعدها قادراً على معالجة الشؤون الخارجية..

* * *

وضع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، خطة تحرُّكه لمعالجة الوضع الداخلي، فاستدعى إليه نفراً من الصحابة، بينهم أبو بكر وعمر وعليّ (رضي الله عنهم) وخرج بهم إلى بني النضير، أقوى جماعة من اليهود، يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر، اللذين ذهبا ضحية جهل عمرو بن أمية الضمري لجواره لهما، ما دام أنَّ بين بني النضير وبني

= على بئر معونة؟!.. ولم يبين أحدٌ من المؤرخين أن اسمه كان بين النفر الذين أهدر دمهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.

3 ـ إن عامر بن الطفيل، وإن كان قد تجرأ على القيام بما قام به، بعد أربعة أشهر من معركة أحد، عندما بدا لضعاف العقول والنفوس، أن المسلمين صاروا في حالة ضعف تمكّن من النيل منهم، فإنه لا يمكن التصور إطلاقاً أن يجرؤ عامر بن الطفيل أن يقدم إلى المدينة في السنة التاسعة هجرية، والنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والمسلمون جميعاً يعرفون خبرَهُ. والأغرب من ذلك أن يكون قد أتى وهو ينوي الغدر برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في وقت كانت دولة الإسلام في أوج مجدها وأقصى حالات عزّها، وهي التي خافها الروم، بما لهم من دولة عظمى في ذلك العصر. لهذه الأسباب، وغيرها، نستبعد بقاء عامر بن الطفيل على قيد الحياة إلى السنة التاسعة للهجرة، ومجيئه مع وفد بني عامر، في مقصد غدر برئيس دولة الإسلام، رسول الله، محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم.

عامر، عقوداً وأحلافاً قائمة، وما دام أن ذلك يدخل في إنفاذ الاتفاق الذي تمَّ العهد عليه ما بينهم، وفيه يتعاونان على أداء الديات..

وتلقى بنو النضير رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وصحبه مرحّبين، يبدون كل الاستعداد لتلبية مطلبه في الدية.. وبعد أن أكرموا وَفادَته متظاهرين بكل ضروب الوفاء والتقدير، استأذنوه كي يجمعوا المال ويأتوه به، ثم قاموا وخلَّوْه وصحبه إلى جانب جدار من دارة أحدهم.. ودخل بنو يهود تلك الدارة يتشاورون في أمرهم، فغلب عليهم طبع الخيانة والغدر وتآمروا على أن يعتلي أحدهم سطح الدارة التي يجلس قربها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يدفع بصخرة كبيرة عليه...

وأدرك رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن وراء تريثهم سرّاً يخبئونه، فنهض من مكانه وراح يتفقد تلك الناحية بنظره، فتراءى له خبثُ القوم، وأتاه الخبر من السماء بما عزموا عليه من شر، فأشار إلى أصحابه بالبقاء، وانتظاره ريثما يعود من أمرٍ يريده.. وكان بنو النضير قد أنهوا اتفاقهم على تنفيذ المكيدة، فخرج بعضهم إلى محمد وصحبه، يريدون الاطمئنان على بقائه في مكانه فلم يجدوه.. وفي هذا الحين كان الصحابة قد استبطأوا رجوع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إليهم فقاموا في طلبه، وقد خلَّوا بني النضير في عَمايةٍ من الأمر، وراحوا يبحثون عنه في كل ناحية، فلا يجدونه، ولكنهم رأوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه، فقال لهم: نعم رأيته يدخل المدينة...

وأسرعَ الصحابة إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهم في حيرةٍ من أمرهم، ولكن حيرتهم تبدَّدت عندما أخبرهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما عزم عليه بنو النضير من خطة لاغتياله، والغدر به.. وحنق الصحابة على تلك الفئة الباغية، فهبُّوا يريدون قتالها، ولكن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أمرهم بالهدوء ثم دعا إليه محمد بن مسلمة، وقال له: «اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله أرسلني إليكم: أن اخرجوا من بلادي. لقد نقضتم العهد الذي جعلتُ لكم بما هممتم به من الغدر بي. لقد أجّلتكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه».

وتشاوَرَ بنو النضير فيما يفعلون، وداموا على ذلك بضعة أيام، رأوا أثناءها أنه لا قِبَلَ لهم بقتال محمد وأصحابه، فراحوا يستعدون للخروج لولا أن جاءهم خبرٌ من عبدالله بن أبيّ يحرضهم فيه على البقاء ويقول: «لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم،

فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم أو يموتون عن آخرهم قبل أن يصل أحدٌ إليكم، وتمدّكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان».

وأثار خبر ابن أُبيّ الجدال بين القوم، بين مؤيد للبقاء، وبين داعٍ للخروج، حتى وقف كبيرهم حُيَي بن أخطب وقال: «كلاَّ لن نخرج... وما علينا إلاّ أن نرُمَّ حصوننا وندخل إليها ما شئنا وندرب أزقتنا وننقل الحجارة إليها، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة، وماؤنا لا ينقطع، ولن يحاصرنا محمد سنة كاملة».

ثم بعث إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من يقول له: «إنا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك».

وكان ذلك إيذاناً للمسلمين بالهجوم، فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «حاربَتْ يهودُ»... وأَذّن المؤذن، بالاستعداد للقتال، فما جاء وقتُ العصر إلاّ والنبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، يصلي بالمسلمين بفضاء بني النضير، بعدما سار إليهم، وقد دفع رايته إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم...

وطال الأمرُ عدة أيام، وبنو النضير ينتظرون قدوم الإمدادات التي وعدهم بها ابن أبيّ، ولكنَّ أحداً لم يتقدَّم لنجدتهم، لا من بني يهود ولا من العرب، فأيقنوا أن الخذلان قد حلَّ بهم، ولكنهم آثروا الانتظار أياماً أخرى، علَّ تلك الإمدادات تصلهم..

وأنزل الله سبحانه بعبدالله بن أبيّ وحلفائه اليهود قرآناً:

{أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُواْ لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ}[1].

وفي هذه الأثناء كان المسلمون يضيقون الحصار على بني النضير شيئاً فشيئاً. ويتقدمون نحو حصونهم وهم يقطعون نخيلهم، حتى يوهنوا قوى العدو، ويبعثوا الرعب في قلبه، وبإزالة النخيل الذي يعترض تقدمهم يصبح العدو مكشوفاً لهم، لأن النخيل يسدل ستاراً على حصونهم، ويكون حجاباً يمنع المسلمين من رؤيتهم بوضوح. فلما رأى بنو النضير ذلك، وعرفوا أنه لن تكون لهم نجدة من أحد، وكان اليأس قد ملأ قلوبهم رعباً، سألوا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يؤمّنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من

1 سورة الحشر، الآيتان: 11، 12.

المدينة، فقبل بذلك على أن يخلوا السلاح ولا يأخذوا منه شيئاً، فامتثلوا لأمره صاغرين، وارتحلوا عن المدينة منخذلين، فنزل قسم منهم في خيبر وعلى رأسهم حُيَيّ بن أخطب، وسلام بن الحقيق، وكنانة بن الربيع، وثلاثتهم من زعماء بني النضير، بينما سار الآخرون إلى أذرعات بالشام، تاركين وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من الغلال والسلاح والأرض التي كانوا يملكون، وفي ذلك أنزل الله تعالى قوله عز وجل:

{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِّن حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُواْ يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ * وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}[1].

ولم تُعتَبر تلك الأرض أسلابَ حربٍ، ولذلك لم تقسّم بين المسلمين، بل كانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء.

وهل يمكن أن يضعها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاّ حيث يجب أن تكون؟... فهؤلاء المهاجرون بلا أرض ولا منازل، وقد احتملهم إخوانهم الأنصار سنوات طويلة لا يفرقون بينهم وبين أنفسهم في شيء، وها قد أفاض الله بنعمائه على المسلمين جميعاً، فلِمَ لا تكون تلك الأرض للمهاجرين، فيصبحون بغنى عن الأنصار، ويصبح الجميع متساوين في الثروة؟!...

ووقف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، خطيباً في المسلمين، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وعاد فذكّر بما قدمه الأنصار لإخوانهم المهاجرين، وما صنعوا لأجلهم، وكيف آثروهم على أنفسهم، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاءَ الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم».

ووقف سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، نائبين عن الأنصار، فقالا لرسول الله:

«اقسمه يا رسول الله بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا»..

---

1 سورة الحشر، الآيات: 2 - 5.

ونادت الأنصار من خلفهما: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله..
فقال الرسول الكريم: «اللّهم ارْحمِ الأنصار وأبناء الأنصار»..
وهكذا كان. فقد قسّم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الأرض على المهاجرين وحدهم إلاّ رجلين من الأنصار بديا ذَوَا حاجةٍ، وهما سهل بن حنيف وأبو دُجانة فأعطاهما رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مثلما أعطى للمهاجرين من حصص..
وفي هذا الفيء والفضل السماوي، أنزل الله تعالى في سورة الحشر قولَه:
{وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[1].
وانقضى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، بعد أن شهد جلاء بني النضير عن المدينة، حين خانوا المواثيق، وتآمروا على أشد فِعلةٍ وأقبحها شرّاً، فصَفَتْ بجلائهم أجواء الداخل، واستقامت الأمور، مما أراح المسلمين كثيراً، وجعل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يفكّر في تدبير أمر السياسة الخارجية، كما تمَّ تدبيره للسياسة الداخلية.
وعاش المسلمون بعد ذلك فترة سكينة وهدوء بضعة شهور، حتى إذا استدار العامُ على أُحُد، كان قد حلَّ الموعد الذي ضربه أبو سفيان بن حرب يوم نادى بالمسلمين في تلك الواقعة: «يومٌ بيومِ بدرٍ والموعد العامَ المقبل».. فجمع الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أصحابه، وذكرهم بتهديد قريش، فأجمع الصحابة على الخروج وأذّن المؤذن بالاستعداد للحرب، وما هي إلاّ أيام قليلة حتى كان جيش المسلمين بأحسن التجهيز، وأتمّ التأهّب. فجعل الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على المدينة عبدالله بن رواحة، وخرج بالمسلمين يغذّون السير حتى بلغوا بدراً فنزلوا فيها ينتظرون قريشاً.
وكانت قريش من جانبها قد خرجت من مكة بقيادة أبي سفيان، في أكثر من ألفي رجل، حتى وصلت «عسفان» على مسيرة يومين من مكة. ولكن أبا سفيان كان على ما يبدو متخوفاً من لقاء المسلمين، بعدما تناهت إليه أخبارهم واستعداداتهم، وتشوقهم لمقاتلته وجيشه، فجمع قومه ونادى فيهم: إن هذا العام عامُ جَدْبٍ لا يصلح لنا الخروج في مثله،

---
1 سورة الحشر، الآيتان: 6 – 7.

ولا يصلح لنا إلا عامٌ خصيبٌ ترعى فيه الأنعام ونشرب ألبانها، وإني أرى الرجوع إلى مكة خيراً، فاستجاب له أكثر من كان معه، فرجع بهم، فسماهم أهل مكة جيش السّويق؛ يعنون أنهم خرجوا لشرب السويق لا للحرب.

وانتظر المسلمون قدوم قريش، لكنها لَم تصل، وعلموا من المسافرين أنها أجمعت على العودة، فلم يتركوا معسكرهم، بل ظلوا قائمين فيه لثمانية أيام، راحوا خلالها يتَّجِرون ويربحون، حتى لا يذهب الوقت سُدىً..

ومما لا شك فيه أن رجوع قريش، وخوفها من مقابلة المسلمين، كان هزيمةً تفوق هزيمة بدر. وقد مَحتْ هذه الهزيمة كل أثر لأحُد، وبات المسلمون هم الأقوياء وأصحاب النصر، مما جعلهم يستعيدون هيبتهم، ويستردون مكانتهم.

وعرفت قبائل العرب بانهزام قريش، فلاذت إلى السكينة لا تجرؤ على التظاهر بأيٍّ من مظاهر القوة، ولا تتطاول بأي حال من الحالات على المسلمين، إلاّ من زيَّنَتْ لهم نفوسُهُم القوةَ والقدرةَ، واستبدَّ بهم الظنُّ أنهم ما زالوا قادرين على حرب محمد، أمثال بني محارب وبني ثعلبة من غطفان في نجد، إذ راحوا يعدون العدة لمقاتلة المسلمين..

ووصلت أخبار هذه الجماعات إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فخرج لهم في أربعمائة من رجاله حتى نزل «ذات الرقاع». وإذ رأوه على تلك الحالة في عِدّة حربه، وأيقنوا أن الموت مُداهِمهم، لاذوا بالفرار متفرقين، تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم غنيمةً سائغةً أخذها المسلمون، وعادوا إلى المدينة، مؤيدين بنصر الله تعالى وفضله.

ثم خرج الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد ذلك إلى غزوة «دومة الجندل» على الحدود الواقعة بين الحجاز والشام، ليؤدّب القبائل التي كانت تُغير على القوافل، ولكنه لم يظفر بها، لأنها ما لبثت حين سمعت بقدومه أن أخذها الفزع وولّت هاربة وتركت أموالها، فأخذها المسلمون غنائم لهم بأيسر حال..

وهكذا استقامت الأمور لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إذ استطاع أن يقضي على المقاومة الخارجية، فهدأت ثورات القبائل، واختفت مقاومتها، ولم يعد في المدينة عدو يتخفَّى وراء المكايد والأحابيل، بل أدرك الكلُّ بأن سلطان الإسلام قد قام حقاً، ولم يعد من سبيل للوقوف في وجهه.

وبذلك أتيح لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يعيد هيبة الدولة الإسلامية إلى نفوس المنافقين في الداخل، والأعداء في الخارج، وأن يعود إلى متابعة التنظيم الذي أراده ثابتاً على الدوام..

لقد انصبَّ اهتمام رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في تلك الفترة من الهدوء، حيث لا حروبَ ولا معاركَ، على تقوية البناء المجتمعي حتى يأتي متوافقاً مع البناء الإيماني، وهما اللذان يريدهما الإسلام صحيحين، سليمين، من أجل البشرية جمعاء..

ولم يكن، صلى الله عليه وآله وسلم، ورغم مواجهته لِخِضَمِّ الشؤون العامة، ليُغفِل أيّ شأنٍ عرف به من شؤون الأفراد الخاصة، بل هو كما عرفه أصحابه، صاحب قلبٍ كبيرٍ، وصدرٍ رحبٍ، يتسع لهموم سائر الناس ومشاكلهم..

فكانوا يأتونه فُرادى وجماعاتٍ، يُفضُون إليه بما يعانونه من مشكلات حياتية وعائلية، فيجدون عنده النصح الرشيد، ويستمدون منه العلاج المفيد..

وفيما كان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، جالساً يوماً في بيته، إذ طرق عليه الباب زيدُ بن حارثة، ودخل والقلق بادٍ عليه، والهمُّ ظاهرٌ في عينيه، فبادره الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بالسؤال عمّا به من شحوب الوجه والمعاناة، فأخبره زيد بأن مشكلته مع زوجته زينب بنت جحش هي نفسها، ولكنها استفحلت هذه المرة إلى حدٍّ لم يعد يقدر معه على الاحتمال، ومن أجل ذلك قرَّر أن يطلقها.. ولكنَّ الرسولَ الكريم أبى عليه ذلك من جديد، ونهاه عنه بقوله:

{أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}[1] يا زيد..

ويسكت زيدٌ ولا يجيب.. فهذا أمرُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وعليه الإطاعة..

ويذهب زيدٌ مغموماً، حزيناً، فيجلس وحيداً، يسترجع ذكريات الماضي لسنوات خلت.. فتتراءى له الصور وهي تتسارع ماثلةً أمام عينيه، عندما جاء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد هجرته إلى المدينة، يخطب منه ابنة عمته زينب بنت جحش، فيبتسم له رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويعده خيراً..

ويعلم زيدٌ بعد ذلك أنَّ زينب رفضت الزواج منه في بادىء الأمر، متذرعة بأصلها القرشي، وبأنها ابنة عمة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم ـ أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم ـ

1 سورة الأحزاب، الآية: 37.

وبأنّ زيداً كان في ما مضى مَوْلَى لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فلا تكافؤ ولا تجانس في زواجهما، فتقول للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله، لا أرضاه لنفسي وأنا من قريش.

ولكنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يقول لها: إني قد رضيتُ به..

فتنزل زينبُ على أمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وتقول له: إني قد رضيتُه امتثالاً لأمرك...

وينزل قولُ الله تعالى مؤيداً لحكم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يقضي به بين المسلمين:

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً}[1].

ويتزوج زيدٌ من زينب، ويقدِّم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لهما هدية عرسهما: عشرة دنانير وستين درهماً، ودرعاً وخِماراً، وملحفةً وإزاراً، وخمسين مُدّاً من التمر.. ولم يكتف، صلى الله عليه وآله وسلم، بذلك، بل أَوْلَمَ لأجلهما الولائم، وأطعم المساكين خبزاً ولحماً..

وتتراءى لزيد تلك الأيام الهنيئة التي عاشها في ظلال البيت الزوجي، وقد حظي بزينب، فيطفح وجهُهُ بالبشر، ولكنه لا يلبث في وحدته تلك أن يعاوده الأسى، وهو يرى شريط حياته، بعد ذلك، حافلاً بالنكد والتعاسة، إذ لم تمرّ فترة طويلة على زواجهما حتى راحت زينب تُعيّره بالفارق الاجتماعي بينهما، وتبيّن له بصراحة أنها لم تكن لترضى به زوجاً لولا أمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.. ويظل على هذا الدأب، حتى لتكاد حياته تتحوَّل إلى جحيم لا يطاق...

وينتظر زيد بضعة أيام بعد تلك الخلوة إلى نفسه، ثم يذهب إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مُصِراً على الطلاق، لأنه أَدْعى لكليهما أن يتخذ كلُّ واحد سبيلاً يرتاح إليه...

ويتفكّر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في أمر الزواج من أساسه، فلا يجد في ما فعله إلاَّ خيراً.. أَوَلم تكن غايته منه تمتينَ قواعد المجتمع الإسلامي وتقوية أواصر الصِلات بين أفراده، حتى يقضي على العادات والتقاليد السيئة التي كانت تقوم على الاعتزاز

1 سورة الأحزاب، الآية: 36.

بالحسب، والتفاخر بالنسب؟ أوَليس الإسلام مبدأ الإنسانية الذي لا يحفل بمثل هذه العادات، بل يلفظها ليرسي بدلاً منها قاعدة التفاخر والتكريم بالتقوى وحدها، مصداقاً لقوله تعالى:

{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[1].

أوَليس محمدٌ هو رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يسنُّ للناس الأساس السويَّ، النابعَ من القاعدة السماوية حين لا يجعل لعربيٍ فضلاً على أعجميٍ إلا بالتقوى؟...

نعم لقد أراد الرسول العظيم أن يتخذ من زواج هذين الشخصين واقعاً حياتياً يُتَمَثَّلُ به ويُحْذَى حذوَه في كلِ الأزمان.. ولكن بالطريقة السليمة التي تنْبُذُ التمايز الطبقي، وقد أيَّده الله تعالى من عليائه بتصرفه الحكيم الذي جاء طبقاً لما قدَّر وقضى...

ولكنه الآن يرى زيداً تعيساً فيأسَى له... ويأسى أيضاً لابنة عمته زينب التي لم تشعر بالسعادة التي أرادها لها... فما العمل إذن وهو يحبُّ أن يعوِّض على هذين الشخصين ما فرط من هنائهما العائلي؟ لينتظر أمر السماء.. وأخذ صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله ينتظر... وينتظر... ولم يُفصح عن شيء، ولا أبانَ أمراً يعتمل في نفسه، مع أن أمراً هاماً كان يعتمل في نفسه ولم يصرح به لأحد من أقرب المقربين إليه، لأنه ما كان ليسبق أمر ربه في كل أمر، وفي كل حال... وإنه، وإن آذاه حالُ الزوجين، لَيقلِقُه أن يحاول استباق بيان أي حكم لله، قبل أن يحين وقته ويأتي ظرفه الذي قضاه الله عزّ وجلّ...

فليصبرْ، وليس أقدر منه، صلى الله عليه وآله وسلم، على الصبر، ولا أرحب من صدره في سائر العالمين صدر...

أما الزَّوج الذي يعاني الآلام النفسية في حياته الزوجية، فهو مولاه، وهو المسلم المؤمن المطيع لله ولرسوله، والراضي القانع الذي تفعل كلمة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في نفسه أكثر مما يفعل السيف، ولذا فلا يضيره أن يصطبر امتثالاً لأمر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، المُطاع، لأن طاعته فرض عليه وعلى كل موحِّدٍ مؤمن بالله وبرسوله، ولذا فهو يمسك زوجه عليه مُغَلِّباً أمر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، على شقائه، لأنه يرى السعادة كلّ السعادة في رضى الله تعالى ورضى نبيّه...

---

1 سورة الحجرات، الآية: 13.

وفي هذه الفترة من الانتظار وقد كان صعباً على الزوجين بمعنى، وغير صعب بمعنى آخر، وثقيلاً على نفس الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وغير ثقيل، إذ هي فترة سيُلقي الله تعالى فيها على رسوله قولاً ثقيلاً، وحُكْماً جليلاً كان سبحانه قد قدَّره في جملة أحكامه الشريفة لبني البشر..

نعم في هذه الفترة نزل قوله تعالى لنبيّه، صلى الله عليه وآله وسلم:

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}[1].

لقد نزل القول الكريم يؤنس نفس النبي العظيم، فلا يخشى بعده شيئاً مما يتقوله الناسُ إن رخَّص لزيد بطلاق زوجته... بل الله سبحانه وتعالى أحقّ أن يخشاه.. وهو يأمره بأن يفسح المجال لهذا الطلاق الذي سيكون تمهيداً لبيان الحكم السماوي الذي عرفه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وكتمه في نفسه خشية مما يتقوله المتقولون...

نعم وقع قول الله تعالى موقع الفصل الذي ليس بعده تعقيب وليس بعده حكم. وانفصل الزوجان وعادت زينب إلى رتابة العيش في بيت أخيها عبدالله بن جحش... ومع الأيام راحت تشعر بالقلق والضيق، لأنها تعلم أن الأسياد يتقاعسون عن خطبة يدها رغم جمالها الفائق لأنها كانت زوجةً لمولىً وربيبٍ أخذه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بالتبني وهم يأنفون الزواج من مُطلّقة المولى.. ولذا لم يتقدم أحد للزواج منها رغم شهرتها بين لِداتِها (= مُجايلاتها) بالحسن والشرف والرفعة، فهي أُمّ الحَكَم وبنت عمة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أميمة بنت عبدالمطلب، وهي وإخوتها من المهاجرين، ومع ذلك فقد كانت تحسُّ حقاً بالمرارة، ولكنها ما دَرَتْ ـ وأنَّى لها أن تدري ـ أن امتناع الأسياد عنها كان لحكمةٍ وتقديرٍ من الله سبحانه وتعالى، لأنه قُدِّر في سابق عِلْمِه إعدادُها لأن تكون نموذجاً لحكم عظيم من أحكام الإسلام، وأن تكون زوجة لأعظم رجل في الإنسانية!...

وجاء اليومُ الموعود لتظهر الحكمة المقدّرة... فقد كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في بيته، فجاءته غشية ثم سُرّي عنه فاستيقظ مرتاح النفس، وقال: «من يذهب إلى زينب ويبشرها أن الله تعالى قد زوَّجنيها من السماء؟..

ثم يتلو قوله تعالى:

---

1 سورة الأحزاب، الآية: 37.

{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً * مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً}[1].

فسبحان الله الذي قرر بهذا التنزيل قواعد التشريع لتسفيه كثير من التقاليد التي كان يعاني منها المجتمع الجاهلي، إذ ظهر أمر الله تعالى، وهو يأمر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بالزواج من زينب، حتى يكون في هذا الزواج القضاءُ على جملةٍ من التقاليد الموروثة التي كانت تسبب مشاكل اجتماعية وخُلُقية، فأراد الله أن يمحو من أذهان المسلمين ما ظلّ عالقاً منها، وأبرزه:

(أ) فكرة التبنِّي التي كانوا يعطونها غير معناها الذي أراده الله تعالى. فالابن بالتبني ليس ابناً بالحقيقة، ولكنه ربيبٌ لا أكثر ولا أقل. فهو ليس من محارم العائلة التي تتبنَّاه، ولا ترثه ولا يرثها، ولا يربطها به أكثر من الإحسان إليه في الصغر قُرْبةً لوجه الله تعالى، وسوى معرفة هذا الجميل من قِبله في الكبر.

(ب) التقليد السائد بين الجاهليين من أنَّ الربيب بالتبني لا يمكن أن تتزوجه ابنة سيد شريف في القوم، وإذا حصل وشذَّت سيدة شريفة عن هذا المبدأ، فإنها تكون مَرْمى لسخرية الناس وانتقاداتهم اللاذعة. أما إذا طلَّقها أو مات عنها، فإنهم كانوا يأنفون خطبتها ويُعّدون ذلك حِطَّةً بقدرهم وتحقيراً لشأنهم. فكيف إذا خطبها من كان سيده ووليّه..

(ج) العرف العام بأن أكبر العار يلحق بالسيد في قومه إذا زوج ابنته بمولىً فقير لا يملك من الدنيا شروى نقير... وأنه إذا رضيت السيدة في أسرتها أن تنزل إلى مستوى قبول الزواج بربيب مسكين ثم فارقته بسبب طبيعي، فهل يعقل أن تعود فتصعد إلى سُدَّة السيادة ويخطبها أجلاء قومها؟ أجل لقد جاء هذا الحكم ليلغي فوارق كثيرة، وليقيم أحكاماً كثيرة، وليؤثّل (= يؤصِّل في الشرف) عقيدة متينة يكون النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، هو المثل المحتذى فيها لسائر العالمين، لأنه رسول الله لسائر الخلق أجمعين.

لقد كان زواج الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وزينب أمرٌ من السماء غايته القضاء على فكرة التبني، وعلى التحرج من التزوج بمطلقة المُتبنَّى. وهنا تبرز قاعدة من قواعد التكافؤ الاجتماعي في الزواج وفي غيره مما يتناوله موضوع هذه الحادثة الفذة التي طبَّقها

1 سورة الأحزاب، الآيتان: 37، 38.

نبيُّنا العظيم بنفسه، وعلى مولاه ـ ابنه بالتبني ـ وعلى سيدة شريفة من كرائم أسرته الشريفة.
ومثل هذه الأمور التي هي على غاية كبيرة من الأهمية، يقتضي أن يكون لها شخص قادر على تطبيقها وتأكيدها، وليس أكفأ ولا أقدر من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على القيام بهذا التطبيق.. فهو قبل الإسلام كان تبنى زيد بن حارثة، وكان من عادة العرب أنَّ من يتبنى غلاماً فإنه يصبح كابنه المولود من صُلْبه، فلا يعود له الحق أن يتزوج امرأته من بعده. وقد شاء الله تعالى إبطال هذه العادة، فنزل قوله سبحانه:
{وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}[1].
وجاء من يخبر زينب بتزويج رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بها من السماء. فسجدت شاكرة الله، وجعلت عليها لله نذراً أن تصومَ شهرين عرفاناً بهذا الفضل وهذه المنّة.
ونقلها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في صَفَر من السنة الخامسة للهجرة. ودعا إلى وليمة عنده احتفاءً بهذه المناسبة الكريمة، فجاء الصحابة ملبّين، وبأفراح رسول الله مستبشرين... وجلسوا إلى المائدة.. وطال جلوسهم.. وكيف لا يطول وجلسة الأنس أخذت منهم مأخذها!... ولكن الله العليّ القدير رفض أن يكون الاجتماع في بيت النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كسائر الاجتماعات في مختلف البيوت، لأنه بيت له شرف النبوّة وشرف رسالة السماء.
ولذا نزل قوله تعالى:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُواْ وَلاَ مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ}[2].
أجل نزل الحكم الذي ينظم سلوك الآخرين تجاه بيت النبوَّة ومنزل الوحي ومهبط الملائكة الذي له قدسيته وشرفه، فليس لأحد أن يدخل بغير إذن، وليس له أن يجيل طَرْفَه هاهنا وهاهنا في أركان البيت، كما أنه ليس للنبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يقضي وقتاً طويلاً في أمور لا تقتضي منه إطالةً، فالشؤون العامة كثيرة وهي بحاجة إليه، ولكنه

1 سورة الأحزاب، الآيتان: 4، 5.
2 سورة الأحزاب، الآية: 53.

يستحي من جلسائه لما حباه الله تعالى من حُسن الخلق وأدب المعاشرة، بيد أنَّ الله سبحانه لا يستحي من الحق، فنزل أمره بأن ينفضّوا حتى يفسحوا لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالتفكّر والاهتمام بالشؤون الكبيرة!..

إنها حوادث لو أخذناها بالمنظار البشري لوجدناها عادية تحفل بها حياة الناس كلَّ يوم!.

ولكنَّها في ميزان السماء على خلاف ذلك، فهذه عناية الله سبحانه وتعالى، ترافق النبي وأصحابه في كل بادرة من بوادر حياتهم، وفي كل شأن من شؤونهم: فزيدٌ يسميه الله تعالى باسمه في تنزيله العزيز... والصحابة يأمرهم بأن لا يسترسلوا في الاستئناس في حضرة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم... ونساء النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يجب أن يكون لهنَّ شأن خاص، يتميّزن به عن سائر شؤون خلق الله حتى يكُنَّ جديرات بالرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وبعظيم مكانته عند خالقه... وذلك لمحبته العظيمة له، وإكمالاً لعطاياه السنية. ثم تعيش زينب، بعد مرارة الأيام، في كنف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، هانئة سعيدة، ويزيد في هنائها وسعادتها شعورها بأن الله سبحانه قد زوَّجها به من السماء، وقد تُردِّد على مسامعه، صلى الله عليه وآله وسلم، أحياناً: «يا رسول الله، إني والله ما أنا كأحد من نسائك، ليست المرأة من نسائك إلا زوَّجها أبوها أو أخوها أما أنا فقد زُوِّجْتُكَ من السماء».

وكانت أيضاً تردّد هذا القول على مسامع زوجات النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم: «زوجكنّ أهلُكُنّ وزوجني الله من فوق سبع سماوات».

ولئن كان يبدو في أحاديث زينب بعضُ المفاخرة على نساء النبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ أنها كانت تحترمُ منزلته وتقدر شخصيته وهي تقرن حقيقة الزوجية بحقيقة النبوة...

* * *

غَزوَة بني المُصْطلق

وحلَّ شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة..

وبلغ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن بني المصطلق، وهم فرعٌ من خزاعة، يتآمرون عليه، وأن زعيمهم الحارث بن أبي ضرار، قد جمع بعض الجموع لحربه، وهو يتأهَّب لإعلان القتال، ويوشك أن يسير لغزو المدينة.. فنادى مؤذن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بالاستعداد للخروج. وعلى الفور لبَّى جيش الإسلام النداء، والتف حول راية الهدى لينطلق سريعاً تحت قيادة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى حيث يدعوه واجب الجهاد. واصطحب (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) معه في هذا الخروج زوجه عائشة (رضي الله عنها) التي وقعت القرعة عليها لمرافقته لأنه كان، صلى الله عليه وآله وسلم، يحب أن ترافقه إحدى زوجاته في الغزوات لتقوم على شؤونه الخاصة... وكان بين الصفوف عدد كبير من المنافقين، الذين لم يخرجوا يوماً معه لقتالٍ، ولكنهم بعدما آنسوا منه القوة، أغراهم الطمع بالغنائم، فخرجوا هذه المرة...

ونزل المسلمون على ماءٍ قريب من بني المصطلق يقال له «المريسيع» من ناحية قُدَيد إلى الساحل... ولم يلبثوا بعد راحة قصيرة أن عالجوا القوم بالإحاطة بهم ومحاصرتهم دونما قتال، إذ شاء النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يوثق لهم عهداً بالأمان، ويرغِّبهم في الإسلام، فأمر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن ينادي في أولئك القوم، أن قولوا: «لا إله إلاّ الله، تمنعوا أنفسكم وأموالكم»... ولكن هذه الجماعة من المشركين استخفّت بالنداء، وحسبته تقاعساً عن القتال، فامتشقت السهام تنبلُ بها المسلمين ولكنها لم يُقدَّر لها أن تصيب أحدهم بأذى...

عندها أمر الرسول العظيم، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يشدّوا عليهم، فحملوا حملةَ رجل واحد، يفرقون الجماعات التي جاءت تناصر بني المصطلق، فتولّي الأدبار هاربةً بينما يقع هؤلاء القوم بِشَرّ كَيْدهم، إذ لم تمض ساعة من وقت، حتى قتل منهم عشرة رجال، وألقى الآخرون السلاح مستسلمين تحت وطأة ذلك الضغط القويّ الذي داهمهم... فأخذهم المسلمون أسارى وهم حوالي أهلَ مائتي بيتٍ من الرجال والنساء والذراري، وغنموا أموالهم،

وقد بلغت ألفي بعير وخمسة آلاف شاة... وكانت بين الأسرى ابنة زعيمهم الحارث بن أبي ضرار، واسمها جويرية التي وقعت في نصيب أحد الأنصار وقت القسمة، وهو ثبات بن قيس الشماس.

لقد ظفر المسلمون بهؤلاء الأعداء، وأوقعوا بهم الهزيمة كاملة، فأخلدوا إلى الهدوء على ذلك الماء يَنشُدون الراحة... ولكن من أين تأتي الراحة، والمنافقون قد اندسّوا بين صفوفهم، وهم لا يطيب لهم أن يُسَرَّ المسلمون ويهنأوا، ويأبوا إلاّ أن يعكروا صفو السرور، ويُذهِبوا نشوة النصر؟!... وها هم يجدون الفرصة سانحة لتحقيق غرضهم الخبيث، فيستغلون حادثة فردية بسيطة، ليجعلوا منها أمراً عظيماً يكاد يطيح بوحدة المسلمين، ويقضي على تآلفهم وتماسكهم...

ذلك أنه حصل، بعد انتهاء الموقعة، تنافر بين أجير لعمر بن الخطاب، يقال له جهجاه من بني غفار، وبين سنان الجهني مولى لبني عوف من الأنصار، وهما يتزاحمان على الماء، حتى وصل بهما الحال إلى التضارب والتصايح...

فصرخ سنانٌ: يا معشر الأنصار!...

وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين!...

ولم يأبه المسلمون لهذه الدعوة الجاهلية، ورأوا فيها ما يدعو إلى التفكهة أكثر ممّا يثير الاهتمام، إلا أن رجلاً من المهاجرين، من ذوي البساطة والسذاجة، يقال له جُعَالُ، أبت عليه نفسه إلاّ أن يندسّ بين الرجلين.. ورآه عبدالله بن أبيّ، فاغتنمها فرصة سانحة وتقدم منه يستثيره ويقول له: أما إنّك لهتّاك!..

فيقول جعالٌ: وما يمنعني أن أفعل ذلك؟... ثم أكثر في القول على ابن أبيّ الذي كان يستحثه بخبث ودهاء، حتى بدا أنه لم يعد يحتمل جُعالاً فثار في وجهه غاضباً مؤنباً شاتماً... ورأى بعض الرجال أن الأمر قد تجاوز الحدود، فأقبلوا يريدون أن يأخذوا ابن أبي جانباً، فوجدها الخبيث فرصةً جديدة ليثير الفتنة بين المهاجرين والأنصار، وكان له ما أراد فتجمع فريق من هؤلاء، وفريق من أولئك وعلا الصراخ، واشتد الصياح، حتى ملأ المعسكر، وبلغ ذلك سمع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فهب مقبلاً على الجمع يصرخ فيهم: «ما بالّ دعوى الجاهلية»؟!..

وسكن القوم لمجيء الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنهم راحوا يخبرونه بحقيقة ما جرى، فما كان منه إلا أن قال: «دعوا هذه الكلمة فإنها فتنة».

وهدأت ثائرة النخوة، وتعانق الإخوة، وعادت الأمور إلى مجاريها الطبيعية...

ولكن هل هذا ما كان يريده ابن أبيّ؟.

أم أنَّ نفسه الشريرة كانت تحدثه بإثارة الفتنة التي تذهب بوحدة صفوف المسلمين وألفتهم؟.

وهل يخبو لهيب حقده قبل أن يجد وسيلة الانتقام لحكمه الذاوي؟.

إنه ما زال يعدُّ ويفاخر بأنه السيد في قومه، لا تُرَدّ له كلمة.. وها هو اليوم يبدو أمام الناس مهدور الكرامة، وقد تطاول عليه ذلك الساذج من المهاجرين، المدعو جعالاً، وجعله أضحوكة بين القوم...

إذن فلن يهدأ ولن يستكين، وإن استطاع محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يسوّي الأمور في كل مرة يثيرها فتنة شعواء.

وراح ذلك اللعينُ يجمع أصحابه ويقول لهم: «والله ما رأيت كاليوم مذلة! فقد نافرونا وكاثرونا في بلدنا وأنكروا منّتنا (وهو يقصد المهاجرين)، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: «سمِّن كلبك يأكلك»، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلّ»!!!

ولم يقف عند هذا التأليب وإثارة الفرقة، بل راح يلوم قومه ويعنّفهم وهو يقول لهم:

«هذا ما فعلتم بأنفسكم. أحللتموهم بلادكم، وأنزلتموهم منازلكم، وواسيتموهم في أموالكم حتى استغنوا... أما والله لو أمسكتم عن جُعالٍ وأمثاله فضْلَ طعامكم لتحوَّلوا إلى غير بلادكم، ولحقوا بعشائرهم ومواليهم، ثم لم ترضوا بما فعلتم معهم من حُسنى، حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا، فقُتِلْتُمْ دونهم، فأيتمتُمْ أولادكم وقَلَلْتُمْ وكَثُروا.. فلا تنفقوا على من حول رسول الله حتى ينفضوا جميعاً عنه ويدوروا في أقطار الأرض يفتشون عن أرزاقهم بعد أن تدركهم الحاجة».

وكان فيمن حضر مجلسه، فتى في مقتبل العمر، هو زيد بن أرقم، فلم تطاوعه نفسه أن يسكت على فتنة الرجل، فقال لابن أبيّ: «أنت والله الذليل القليل، المبغض في قومك، ومحمد صلَّى الله عليه وآله وسلم في عزٍّ من الرحمنِ ومودة من المسلمين... والله لا أحبك بعد كلامك هذا».

بهذه النفس الصافية، جابَهَ ذلك الفتى الأبي كبيرَ المنافقين، فلم يجرؤ هذا الدسّاس على توجيه لوم له أو تأنيب، بل قال له، متحايلاً، كاذباً: «اسكت يا غلام فإنما كنت أقول هذا من شدة غيظي، وإنما أنا لا أقصده»...

ولكنَّ زيداً كان يعرف قصد الرجل على حقيقته، فذهب إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يخبره بأمره، ويحدّثه بما سمع منه...

وكان عند رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نفرٌ من المهاجرين والأنصار، وقد أخذهم ما رأوا من تغيّر لون وجه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فسكتوا إذ لا كلامَ لهم بوجوده...

وفكّر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، قليلاً، وقال في نفسه: «لعلّ الغلام لم يفقه كلام ابن أبيّ»... فأراد أن يتأكّد مما يسمع، فقال لزيد: «يا غلام! لعلّك غضبت عليه»...

قال زيدٌ: «لا والله لقد سمعت منه».

قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «لعله أخطأ سمعُك»!

قال الغلام: «لا يا نبيَّ الله»...

قال رسول الله: «لعله شُبِّه عليك»...

قال زيد: «لا والله، لقد رويت لك ما سمعته بأذني منه يا رسول الله»..

وقامَ ذلك النفرُ من عند رسول الله، يَلْقَوْن إخوانهم بوجوه مكفهرة، عابسة، فيسألونهم عن الخبر، فيعلمون ما قاله عبدالله بن أبيّ. ثم يشيع ذلك في المعسكر كله، حتى يصبح الشغل الشاغل لهم، ويروح كلٌّ منهم يفكّر في طريقة تريح المسلمين من ابن أبيّ، فيأتي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ويُشير على رسول الله أن يأمر عبّاد بن بشر فيقتل الرجل، ولكنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يأنفُ ذلك الرأي ويقول له: «فكيف يا عمر! إذا تحدث الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه»؟!...

ويسكت الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، قليلاً، ثم يقول لعمر: «أَذِّنْ بالرحيل»..

وسمع الناسُ نداء الارتحال، وهم في ساعة لم يكن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يرتحل فيها أبداً، فأيقنوا أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، غضبان محزون. فأتته جماعةٌ من الأنصار، ومعهم عبدالله بن أبيّ، فقال له الرسول العظيم:

«ما هذا الذي بلغني عنك يا عبدالله»؟!.

قال ابن أبيّ: «والذي أنزل عليك الكتاب بالحق ما قلت شيئاً من ذلك قطُّ، وإن زيداً لكاذب»...

فنعوذ بالله من هذا الرجل الشرير الذي يُقسم بالله كذباً، ويدَّعي في قَسَمِه معرفة الحق!! فما تلك القباحة التي تعشش في نفسه؟!.. ثم أهذه هي أول مرة يقول أو يدّعي كذباً، رأس المنافقين هذا ابن أبيّ ابن سلول؟ أبداً، لأن المسلمين ما عهدوا منه إلاّ الخداع والمكر والنفاق. فقد كان له في المدينة مقام يجلس فيه كل جُمُعة ولا يتركه شرفاً له في نفسه وفي قومه ـ كما كان يدّعي ـ فكان إذا خطب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يوم الجمعة قام ابن أبيّ فقال:

هذا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزّكم به، فعزِّزوه وانصروه واسمعوا له وأطيعوه. ثم يجلس، وظل على ذلك حتى خرج المسلمون يوم أُحُد، وكان منه ما كان، فلما أراد بعده أن يفعل كالسابق، أخذ المسلمون ثيابه من أطرافها وأجلسوه عنوة وهم يقولون له: اجلس، أيْ عدو الله. لست لذلك بأهل. وقد لَقِيَهُ مَرَّةً رجلٌ من الأنصار بباب المسجد، فقال له: ما لك؟ ويلك! قال: قلتُ هَجْراً. قال الأنصاري: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فتأمل نفاقه وكيف يعلن غير ما يبطن. وها هو الآن يخدعُ جماعةً من الأنصار بقسمه أمام رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فتقوم فتقول: «يا رسول الله، إنه شيخنا وكبيرنا، ولا تصدق عليه كلام غلام من غلماننا، عسى أن يكون هذا الغلام قد فهم خطأ»!...

وسكت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يجب... فظنَّت تلك الجماعة أنه أعذر ابن أبيّ، مما كان له أسوأ الأثر على زيد بن الأرقم، إذ فشت الملامة من الأنصار عليه، وهو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.. وكان الاستعداد للمسير قد انتهى، فجاء أسيدُ بن حضير إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فحيَّاه بتحية النبوة. ثم قال له: «يا نبيّ الله، أراك وقد رحت في ساعة مبكرة، ما كنت تروح في مثلها»؟!.

فقال له رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «أو ما بلغَك ما قال صاحبكم»؟

قال أسيد: «وأي صاحب يا رسول الله»؟

قال: «عبدالله بن أبيّ»...

ثم تجهَّم وجه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، والتفت إلى أسيد يقول له: «لقد زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ»!..

فقال أسيدٌ: «فأنت رسول الله! والله نخرجه منها إن شئت.. هو ـ والله ـ الذليلُ وأنت العزيزُ.

وأراد أسيدٌ أن يواسي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: «هلاَّ ترفَّقت به يا رسول الله، وأنت أهل الرفق والرحمة.. فوالله لقد جاءنا الله تعالى بك، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز ليتوِّجوه، فإنه يرى أنك قد استلبته مُلْكاً».

وما كانت تلك المواساة، أو خلافها من الأعذار، يبديها الصحابة، لتشفع لابن أبيّ، فالرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يعرف مقدار نفاقه وكذبه، ولكنَّه يأبى أن يقتل الناسُ بعضُهم بعضاً من جرّاء فتنٍ يقوم بها مثل هذا الرجل، الذي يتظاهر بالصحبة والمحبة.. فسار بالناس يومهم ذاك حتى أمسى، فلم يأمر بالوقوف.. وتابعوا ليلتهم تلك حتى أصبح الصباح، فظل متابعاً إلى انقضاء صدر النهار، وكان التعب والإرهاق قد أخذ منهم كلَّ مأخذ، والشمس قد آذتهم بحرارتها اللاهبة، آنئذٍ أمر بالنزول... ولم يكن من أولئك الناس، لمّا مسَّتْ أجسادهم الأرض، إلاَّ أن راحوا نياماً... فظهرت حكمةُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من ذلك المسير المُضني، إذْ أرادَ أن يُشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من ابن أبيّ، فما وجدَ أفضلَ سبيل لذلك، إلاّ جعلهم ينحنون على أنفسهم، ويشغلون بأمر ما يصيبهم من تعب. وهكذا كان، فما استفاق الناسُ من النوم إلاّ وكان كثيرٌ من اللغط والتشويش قد ذهب...

وأدرك بعضُ الصحابة الأخيار غاية رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مما يفعله، ورأوا أن يعرضوا عليه أمراً لعلّه يوافقهم فيه الرأي، فجاؤوه يطلبون بأن يأذن لهم بقتل عبدالله بن أبيّ... ولكنّه نهاهم عن ذلك وقال لهم:

«بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

وراحَ الأنصارُ إلى ابن أبيّ يروون له حرص رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على سلامته والترفق به، وهم يأملون أن يرتدع عن غيّه، فيذهب إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نادماً، معتذراً، ويثوب إلى رشده، فيستغفر له الله سبحانه. ولكنه أنكر عليهم ذلك المطلب، وراح يلوي رأسه مستكبراً وهو يقول:

«أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت، فما بقي إلاّ أنْ أسجد لمحمد»...

وكان الله سبحانه وتعالى يحصي على هذا الرجل حركاته، فنزل قوله مُبيّناً فسقه ونفاقه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْاْ رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}[1].

أوَبعد تلك يا ابن أُبيّ من ادعاء بالعزة؟..

أوَبعد تلك الآيات البينات تخفي نفاقك؟..

لقد كذَّبك الله تعالى من عليائه، فعش في هذا التكذيب الربّاني مخذولاً..

وأنت يا زيد بن الأرقم، أيها الصادق الصدوق، هل ما زلت تتباعد عن القوم، وتتحاشى الاحتكاك بهم؟!..

لا! يا غلام الأنصار، وحقك ما قلت إلاّ الصدق، وهذا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الكريم يبعث من يأتي بك، فهلمَّ إليه يبارك جرأتك، ونفحة إخلاصك..

ويُقبل زيدٌ على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وما زال الخفر يعلو وجهه، فيسأله وهو مطأطىء الرأس:

ـ أوَتأمرني بشيءٍ يا رسول الله؟

ويبتسم له الرسولُ الكريم، ويدنيه إلى جانبه فيؤذِّن بأُذُنه، وهو يملأ نفسه بالعطف والحنان، ويقول له:

«يا غلام! صدق قولك، ووعت أذناك ما وعى قلبك، وقد أنزل الله فيما قلت قرآناً».

وفرح زيدٌ، وحمد الله على أن أبانَ صدقه، وشكر لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، تحببه وحنانه له، ثم بَعُدَ إلى وسط القوم، يتلقّونه بالترحاب، ويُسَرُّون عنه ذلك الهمّ الذي حمله في طيات قلبه طوال الطريق..

---

1 سورة المنافقون، الآيات: 5 ـ 8.

وجاءَ إلى عبدالله بن أبيّ من يخبره قائلاً: «لقد نزل فيك آيٌ شدادٌ، وتلاها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على مسامع المسلمين».

فقال مأخوذاً: وما هي تلك الآيات؟..

فلما أسمعوه إيّاها شعر وكأن الأرض زلزلت به زلزالاً عظيماً، وأوشك أن ينهار ويسقط عن راحلته، ولكنَّ عنفه وقساوته جعلاه يتماسك ويتابع المسير..

في هذه الأثناء، وقد ظهر الحق من الباطل، ظنَّ الناس أن رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قاتِلٌ ابنَ أبيّ لا محالة.. فجاءه ابنُه، وكان اسمه عبدالله، كاسم أبيه، يقول له:

«يا رسول الله! لقد بلغني أنك تريد قتل أبي. فإن كنتَ فاعلاً، فمُرْني به، فأنا أحمل لك رأسه. فوالله لقد علمتِ الخزرجُ ما كان بها رجلٌ أبرَّ بوالديه مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبيّ يمشي في الناس، فأقتله. فأكون قد قتلت رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار»..

وعادَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يردد على مسامعه، ما قاله لنفر من الصحابة قبله، بأنه لا يرغب في قتله، وإنما يترفق به ما بقي مع المسلمين..

وشكَرَ عبدالله بن عبدالله بن أبيّ للرسول كرمَهُ ورأفته، ثم انطلق إلى أبيه يَسدُّ عليه طريق الدخول إلى المدينة، يصرخ فيه أبوه:

«مالك ويلك»؟!.

قال الابنُ: «والله لا تدخلها إلاَّ بإذن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم».

وظَلَّ ذلك الابن الوفيُّ لرسالته، المخلص لنبيّه، معترضاً طريق أبيه، حتى جاءه خبرُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: أنْ خلِّ عنه يدخل..

عندها نَظَر عبدالله إلى أبيه وقال له:

«أما إذا جاء أمرُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فنعم»..

وهكذا رجعَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من غزوة بني المصطلق، وهو على عجلة من أمره، حتى لا يدَعَ مجالاً للمنافقين لينفذوا منه إلى وحدة الصف الإسلامي، فتقع المصيبة الدهماءُ التي قد تفوق بآثارها كل الحروب والغزوات.. ومن أجل ذلك كان يُسرعُ في الطريق، حتى يصل الناس المدينة، ويتفرقوا، فتخفَّ جدَّةُ اللغط، وتخبو جذوةُ التلاسن.. ولم يقف في طريق العودة، إلاَّ بعدما رأى الناس وقد أنهكهم تعب المسير، فلم يعودوا

يقوون على التقدم.. ولكنه، ما إن استفاقوا من نومهم الذي نالوا فيه قِسطَ راحة، حتى أمرهم بالمسير الفوري، وهو لا يحفلُ بأمر، إلاَّ بذلك الذي يشغلُ بالَهُ، وهو تآلف المسلمين وتماسكهم، حتى أن تلك الغاية، قد شغلته عن الاهتمام بأمر زوجه عائشة، فلم يُولها العناية الكافية في ذلك الرجوع، ما دامت في هودجها بين القوم، ويسير بها بعيرها، مثل الآخرين..

كان وصول المسلمين إلى المدينة في الصباح. فذهب كل في شأنه، ودخل رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بيته، على أن تلحق به زوجُهُ عائشة بعد أن تنزل من الهودج..

ولكنَّ البعير الذي يحمل هودجَها ظلَّ واقفاً، ولم تدخل عائشة البيت، فخرج رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يتفقدها، فلم يجدها..

ودعا إليه من كان يقود هودجها، فقالوا: لقد أخذ بزمام البعير ونحن نظن أن السيدة عائشة في داخل هودجها.

وشدَّ نفرٌ من الصحابة عزمهم يريدون الرجوع إلى الطريق بحثاً عن زوج رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا بها تطلُّ ويراها الناسُ راكبةً على بعير صفوان بن المعطل، وهو يجرُّهُ من أمامها..

وكان الخبرُ قد انتشر في المدينة كمثل انتشار النار بالهشيم، فأقبل عبدالله بن أبيّ بن سلول، وقد رآها أقوى مناسبة ليثأر من محمد خاصة، ومن المسلمين عامة، بعد الذي عاناه من إهاناتهم، ونبذهم له في تلك الغزوة، فسأل متماكراً وهو بين القوم: من هذه؟

قالوا: إنها عائشة زوج رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال بكل قحةٍ ووقاحة: «امرأة نبيّكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاءَ يقودها»..

ودخلت عائشة (رضي الله عنها) بيتها فجاءَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يسألها عن سبب تأخرها، فقالت له:

«لما غشي القومَ النعاسُ، نمتُ، ولكنني استفقت بعد وجيز من الوقت، فذهبت بعيداً عنهم لقضاء حاجة لي، فسقط لي عقد، فرحت أبحث عنه والظلام دامسٌ، فما وجدته إلاَّ وكنت أبطأت عن مسير القوم.. وخفتُ إنْ ركضتُ لاحقة أن أضلَّ الركب، وراودني الفكرُ بأنك سوف تفتقدني فلا تجدني، فترسل إليَّ من يطلبني في مكان النزول، فلا يجدني، ويعودُ إليك الخبرُ، فتتأخر بالرجوع في المسلمين؛ ولما كنت أعلم أنك معجّلٌ في العودة، فقد آثرت

البقاءَ في مكان الركب مُتَلَفِّفَةً في جلبابي، ورحتُ أنتظرِ مذعورة، مقهورة، حتى سمعت صوت حركة، فصرخت من مكاني: ها أنذا هنا، عائشة، زوج رسول الله..

ورأيت رجلاً يتقدم نحوي، فسألته من يكون؟ فقال لي: صفوان بن المعطل السلمي يا سيدتي، وقد تخلّفت عن الركب لحاجة بي..

ثم قدّم لي بعيره، وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون..

ولم يلبث الرجل أن انطلق يقود البعير، حتى وصلتُ الآن في وسط النهار»..

وسكت الرسولُ، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو لا يرى في الأمر ما يضير..

وجاءَ المساءُ، وخرج إلى صلاة المغرب، فإذا ببعض الصحابة يخبرونه بأن المنافقين، وعلى رأسهم عبدالله بن أبيّ، يشيعون كلام السوء عن السيدة عائشة (رضي الله عنها)، ويوغلون في الإفك والإرجاف حولها، فغُمَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لذلك كثيراً، وتألَّمَ له أشدَّ الألم، ولكنه احتسب الله وعادَ إلى بيته، مهموماً، حزيناً..

وظل أهل النفاق كلهم في المدينة، يكثرون من الإفك، حتى لم يعد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يحتمل ذلك الأذى الشنيع، فأهمل زوجَهُ عائشة (رضي الله عنها) ولم يعد يَعْتَنِ بها فمرضت من جراء ذلك، وضاقت زوج الرسول ذرعاً بما تجده من مجافاة، دون أن تدري له سبباً، ولذلك وافقت أمها أن تستأذن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن تنقلها إلى بيت أبيها لتتولى تمريضها، فأذن لها الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم.

وإزاء هذا الوضع الخطير الذي حبكه المنافقون، والذي شقَّ كثيراً على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، خطب في المسلمين، وكان مما قال: «أيها الناس! ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق؛ والله ما علمت فيهم إلا خيراً، وما علمت من ذلك الرجل سوءاً، ولم يدخل بيتاً من بيوتي إلاَّ وأنا معه»..

ولما انتهى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من خطبته وقف أسيد بن حضير، وقيل سعد بن معاذ، وقال: يا رسول الله، إن يكن الذين يتحدثون بهذا الحديث من الأوس نكفيك إياهم، وإن كانوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك فيهم. فأثارت مقالته سعد بن عبادة زعيم الخزرج فقال: والله إنك لم تقل ما قلت إلا وأنت تعلم أنهم من الخزرج (ويعني ابن أبيّ وجماعته وهم من الخزرج) ولو كانوا من قومك لم تقل ذلك.. وكاد أن يقع بينهما الشر لولا أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد أمرهما بالسكوت، وبأن يتركا الأمرَ لله تعالى.

فهو القادر ـ سبحانه ـ على أن يظهر الحق، ويميز الخبيث من الطيب، والمنافق من المؤمن..

وطالت المدة، وعائشة ما تزال عند أهلها.. تراهم بالكآبة مُكبَّلِين، وبالهمِّ محزونين، فتسألهم عن السبب، فلا يجيبونها.. وتستطيل غياب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عنها، فتقول لأبيها: أين زوجي، ألم يسأل عني؟ ولكنها أيضاً لا تسمع إجابة من هذا الأب الحنون، البار، فتداخلها الريبة، ويأخذها الشك فتقول في نفسها: إنَّ في الأمر سوءاً!..

وتأخذ أمّها على انفراد، تسألها، وتلحُّ عليها في السؤال: ماذا في الأمر يا أمي؟ أرى إعراضاً عني، وهمساً يدور حولي. فهلاّ أخبرتني بجلية الأمر؟..

وتصمتُ الأم، والدموع تنهمر من مآقيها، فيمتلىء قلب عائشة فَرَقاً ووجداً، وتنكبُّ على أمها تسترحمها وترجوها ألاَّ تخفي عنها ما تكتمه، وما يكتمه الناس جميعاً عنها..

وترى الأم أن لا مَناصَ من إعلامها بحقيقة ما يدور حلوها، وما تلوكها به الألسنة في شرفها، فيقعُ عليها الخبر كوقع الصاعقة، وتذهل للمفاجأة غير المنتظرة، فلا تنبس شفتاها بكلمة واحدة، بل تركض إلى غرفتها باكية، ناحِبَةً، شاكية..

ويطول الأمرُ بها على هذه الحال، ويأتي أبوها في المساء، فيدخل غرفتها ويسألها، فتعيد على مسامعه ما قالته لرسول الله حرفياً..

وترى عائشة أن أباها لا يحاول أن يساعدها في ردّ التهمة الباطلة عنها، وفي نفي الإفك بحقها، فتثور في وجهه قائلة: أحْلِفُ بالله العظيم إني لصادقة..

وتنزل دمعة الأسى والحزن على خدي الوالد المتألم.. فتقول عائشة:

ـ إني أشكو أمري إلى الله، وأنتظر حكمه العادل بي..

وتمضي فترة أُخرى، والآفكون في غِيّهم ما زالوا ممعنين، وعائشة المكلومة تذوي يوماً بعد يوم، حتى داهمَها المرضُ، وخاف عليها أبواها من الاعتلال...

عند هذا الحدّ، ولما وصل الأمر إلى ما وصَلَ إليه، جاءَ الفرج بوحي من السماء. ونزلت براءة عائشة، براءة خالصة، ناصعة، مثلما نزل الإثم بعصبة الإفك، يلحق بهم الخزي والعار، ويتوعدهم بعذاب عظيم، في قوله تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[1].

ولكن من هو الذي تولى كِبْرَه من عصبة الإفك تلك، وله العذاب العظيم؟..

أوَليس هو عبدالله بن أبيّ بن سلول، كبير المنافقين، وشيخ الأفاكين؟.

لقد استعمل كل أسلحة الغدر والخيانة حتى ينال من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فما قدر.

فأراد أن يؤذيه في عرضه، ولكنَّ الله أظهر إفكه وبهتانه..

فماذا بعدُ لابن أبيّ أن يفعل؟.

لا، لم يعد لديه أي سلاح يقوى فيه على محمد.. وجل ما بقي له ذلك الحقد الدفين في قلبه، ولكنه حقدٌ لم يعد قادراً على الاحتباس في قلب ذلك الرجل المنافق، المخادع، الكاذب، فانفجر يمزّق القلب الذي حبسه، ويقطع أوصالَ صاحبه ليذيقَهُ الموت الزؤام ويقذف به إلى العذاب العظيم الذي أعدَّه له الله تعالى، جزاءً على أفعاله المنكرة..

صَدَقَ الله العظيم وهو يقول لرسوله:

{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُواْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[2].

وقال الله تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}[3].

وهذا الخير كله من فضل الله، الذي أماتَ عبدالله بن أبيّ ليرتاح المسلمون من نفاقه وكذبه..

وهذا الخيرُ من نعمة الله، وهو ينزل في سورة النور آيات بينات، لتكون شرعاً دائماً في الإسلام الذي يريده الله ويريده رسولُهُ شرعاً سوياً للناس كافة..

فحادث الإفك، كما هو معروف اسمه، لا يعدو كونه أمراً عادياً غير جدير بأن يُثير شبهة إذ إنه لم يزد، في وضعه الطبيعي، عن أن سيدة فاتها الركبُ، على حين غفلةٍ منها ومنهم، فأدركها تابع للركب، فاحتملها حتى ردَّها إلى مأمنها..

---

1 سورة النور، الآية: 11.
2 سورة النور، الآية: 23.
3 سورة النور، الآية: 11.

ولم يكن ينبغي لأحد أن يكون عنده أدنى شك في أمر تلك السيدة لأنها زوج رسول الله، وفي أمر ذلك الرجل، لأنه من الصحابة الأبرار.. وهاتان الميزتان تكفيان بذاتهما لإبعاد أي تصور غير عقلاني، وغير مستساغ لا ذوقاً ولا إحساساً، وحتى ولا فكراً.. لأنه من الطبيعي، أن يصادف التخلُّفَ عن جماعةٍ أياً منهم، وهذا ما تحفل به حياتنا اليومية باستمرار، فكيف والأمر يتعلق ببيئة صحراوية لها ظروفها وطبيعتها؟!..

وإذا كان في الحادث ما يلفت إلى معالجة الشأن الفردي، وهو تقديم يد العون والمساعدة لأي محتاج لها، سواء كان امرأة أو رجلاً في الحياة، فإن القرآن الكريم لم يقف عند هذا الحد، ولم يكتف بنفي التهمة، وإبعاد سوء الظن عن النفوس ـ وعن السيدة عائشة بالذات في ذلك الظرف الذي وجدت فيه ـ بل عالج موقفاً إنسانياً من جميع جوانبه، وكان العلاج بالحكمة البالغة التي تصون للأعراض الطاهرة حرمَتها، وتقطع على الألسنة الكاذبة أراجيفها، وتحفظ للمجتمع الإسلامي سمعته وكرامته..

وكان ذلك العلاج الدائم في كتاب الله الكريم.. وهو وحده أحق بتقديم علاجات أهل الأرض جميعهم.. فقد بدأت آيات سورة النور بتحديد العقوبة الزاجرة لحد الزّنا، وأمرت بإيقاعها على الزناة بلا شفقة ولا رحمة.. وأن يجري ذلك على مرأى من الناس ومسمعهم، حتى تكون فيه الموعظة الكافية، والعبرة الوافية.. فإنّ الزنا ليس من الأمور السهلة، بل هو جريمة تدنّس الناس، وتترك أسوأ الأثر في إفساد المجتمع، وإهدار الكرامة، وتضييع النسل..

ومثل هذه الجريمة لا يأتيها إلاّ من خبثت نفوسهم، وماتت ضمائرهم، وتلوّنت عقيدتهم.. أما المؤمنون الأطهار، فهم يحكم إيمانهم وتقواهم، أبعد ما يكونون عن هذه الفاحشة الكبرى..

لقوله تعالى:

{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}[1].

ثم أعقبت الآيات المباركات ذلك، بتحصين المجتمع الإسلامي من شر أولئك الفُسّاق الذين يَلِغون في أعراض الناس بغير علم، ويهدرون كرامات البيوت الشريفة بغير إثم، فألزمتهم

1 سورة النور، الآية: 2.

بإقامة الدليل القاطع، والبرهان الذي لا يقبل الشك على صدق ما يتقوّلون به على الناس، وذلك بأن يأتوا بأربعة شهداء.. فإن لم يأتوا بهؤلاء الشهود الأربعة، فإنَّ لهم العقاب الرادع، والهوان اللاذع، حتى يتوبوا عن الخوض في أعراض الناس. وفي هذا نزل قوله تعالى:

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1].

ولما كانت الأعراض مما ينبغي أن يُصان، والحديث حولها مما قد يسرُّ ضعاف النفوس، ويستهوي الفسَّاق والمستهترين.. ونظراً لما في الخوض فيها من خطورة على المجتمع، قد تُعرّض سمعته للهدر، وتؤدي بكرامات الناس للضياع!.. فقد خَتَمَ الله سبحانه وتعالى ـ الخبير الحكيم ـ هذا الموضوع، بهذه القاعدة الاجتماعية العامة التي تهدم التهمة من أساسها، والتي تصلح ميزاناً للحكم على كل فرد، وعلى كل جماعة، في كل زمان ومكان، بقوله تعالى:

{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلْطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[2].

هذه حادثة الإفك كما صوّرها القرآن الكريم. وهي في ظروفها وملابساتها، كانت سبباً لكي يُشرّع الله سبحانه ما شرّع من الحدود لحماية المجتمع الإسلامي من عقوبة الزنا ومن عقوبة القذف في أعراض المؤمنات، وشدّد ما شدَّد في إثبات هذه الجريمة المنكرة، حتى لا يؤخذ البريء فيها بفريةِ مُفْترٍ أو إرجاف مُرجِفٍ، وحتى لا تكون أعراضُ الناس منالاً لكل حاقد، وهدفاً لكل رامٍ، وعرضة لكل أفَّاكٍ أثيم...

وارتاحَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مما أتعبه وأضناه، فقد أزاحَ الله تعالى كل ما اكتنف حادثة الإفك من غموض وظهرت الحقيقة جليةً ناصعة، وردَّ كيد المنافقين وأخزاهم، فكان في ذلك رضاء لنفس رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فشعر بالارتياح، وحقَّ له أن يخلد إلى فترة من الهدوء والسكينة...

ولكنْ مَنْ كان كمحمد، صلى الله عليه وآله وسلم، أي ذلك الإنسانُ السامي أبداً في فكره إلى حقائق الوجود، الراني دوماً ببصيرته إلى عظمة الله اللامتناهية، والذي يكفيه أنه

---

1 سورة النور، الآيتان: 4، 5.

2 سورة النور، الآية: 26.

الرسول الأعظم، الذي يحمل دعوة الله العظمى، هل يطيب له قرار من عيش، إن لم تبلغ هذه الرسالةُ المدى الذي يريدُهُ الله تعالى أن تبلُغَه؟.

فلا يمكنُ للرسول الأعظم إلاَّ أن يبقى دائم التفكير بهذا العالم المنحرف، حتى يصلَ به إلى الإيمان الحق الكفيل بأن يُخلِّصَهُ من الأثقال التي ترهق كاهله، وأن يحرره من القيود التي تعيق تقدمه، ويجعله صاعداً في معارج النضوج الفكري والسمو النفساني..

وإذْ كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، منشغلاً في مثل هذا التطلع السامي استأذنت عليه امرأة ودخلت تقول له بصوتٍ تملأه نبرات الشكوى والاستعطاف:

«يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث، سيد بني المصطلق، وقد أصابني من البلاء ما قد علمت، فوقعت من نصيب ثابت بن قيس الشماس فكاتبني على تسع أواقٍ من الذهب فجئت أستعينكَ لتدفعها عني وتردَّ إليَّ حريتي»..

فأطرق رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قليلاً، ثم طلب من المرأة أن تعود إلى دار الصحابي الذي وقعت في نصيبه حتى ينظرَ في أمرها...

وخرجت المرأة، وفكَّرَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما يجب عليه عمله...

فبنو المصطلق أسارى عند المسلمين، وما كانوا ليرحموا أحداً من المسلمين لو كُتِبَ لهم الظفر في القتال.. ولكن.. هذا نظام العبودية يسودُ الأرض كلّها، وقد قبلته البشرية نظاماً قائماً تتوارثه الأجيال، ولكنه نظامٌ فاسدٌ، ليس من شأنه إلا أن يؤخر الإنسان في ممارسة إنسانيته الحقة. إنه واقع ثابت، والخروج عليه دفعةً واحدة ليس بالسهل اليسير. ولكن لمَ لا يكون هنالكَ عملٌ، ولو على نطاقٍ ضيقٍ محصور، يتبين منه أن الخيرَ كل الخير هو في تحرير الإنسان وليس في عبوديته؟!...

وبعد التفكير الحصيف في هذا الموضوع، بعثَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من يطلب إليه «ثابت بن قيس» فجاءه ملبياً على جناح السرعة، فقال له:

«أدفع لك كتابتك لجويرية وأتزوجُها. فما تقول يا ثابت»؟

قال ثابت: سمعاً وطاعة يا رسول الله. وإني أعتقها منذ الآن إكراماً لك وبلا أية فدية..

ثم انطلق ثابت بن قيس إلى منزله، ونادى على المرأة قائلاً:

«أنت حرة يا ابنة الحارث»...

وبُهتت المرأة ولم تصدِّق... فسألت الرجل:

وهل دَفَعَ لك رسولُ الله ما كاتبتني عليه؟.

قال الرجل: بل وهبني أفضل مما هو من المال ومن قناطير الذهب والفضة؟.

فسألته جويرية بدهشة:

ـ لا أفقه معنى ما تقول أيها الرجل!

قال الرجل: لقد أكرمني رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن طلبك زوجاً مني.

وصعقت المرأة للخبر، ولم تدرِ ما تقول، ولكنَّها عادت تستجمع قواها لتسأل:

ـ أحقاً ما تقول يا أخا العرب! وهل صحيح بأن رسولَ الله يريد الزواج مني؟!...

قال الصحابي: إي والله..

وعادت الدهشة تعقل لسان المرأة، وإن لم تعطّل إدراكها، فراحت تحدِّث نفسها:

«هل حقاً ما أسمع؟ لقد كنت أتوقع أيَّ أمر في حياتي إلاَّ أن أكون زوجة لنبيّ الإسلام، فهذا ما لم يكن في حسباني أبداً وهو ما يفوق كل تصوراتي وأحلامي»..

وتراءى لجويرية أنها في شبه حلم، فراحت تتلمس وجهها بيديها، وتفرك عينَيها، حتى تتأكد من أنها في عالم الواقع لا في عالم الأحلام، فأدرك الصحابيُّ ما يستبدُّ بها من مشاعر فقال لها:

ـ إنها الحقيقة يا أختاه، فأنتِ منذ الآن السيدة المصونة الطاهرة التي رفعها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى هذه المرتبة العالية.

وتجد جويرية في نبرات الرجل ما يُبعد عنها أي شك أو خيال، فتحسُّ في أعماقها خلجات راحةٍ واطمئنان، وتشعر في قلبها وهجَ الإيمان، فترفع ناظريها نحو السماء، وتقول والعبرات تتلاحق من مآقيها: «أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

ويطير الصحابي فرحاً بإسلام جويرية، فيقول لها:

ـ هنيئاً لك إسلامك يا أختاه، وهيَّا بنا إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فهو بانتظارنا..

... ويشهد أهل المدينة زواج رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من جويرية بنت الحارث، فيقول المسلمون:

وكيف نسترقُّ بعدُ أصهار رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم؟.

ويقبلون على الأسرى من بني المصطلق معتقينهم ومحررين إياهم من رق العبودية.

ويدرك بنو المصطلق عظيم ما فعله المسلمون، وهم يمنحونهم الحرية بلا قيدٍ أو مِنَّةٍ، فيقبل جمع كبيرٌ منهم على الإسلام مهتدين، وتكون جويرية هي صاحبة البرِّ بهم، كما قالت عنها السيدة عائشة (رضي الله عنها): «ما كانت امرأة أبْرَكَ على قومها من جويرية.. لقد أُعْتِقَ بها مئة بيت من بيوت قومها».

وهو صحيح أن جويرية كانت مباركة على بني قومها.. ولكن بفضل تقدير رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وتدبيره.. فهو ببصيرته النافذة ورؤيته الصادقة قد وازن بين ذل العبودية وكرامة الإنسان، فرأى أن الخير كله في السعي لتحقيق هذه الكرامة، وقد قارن بين الحقائق فما وجَدَ حقيقة أصدق ولا أسمى من الإسلام، فهو وحده كفيل بأن يهدي إلى سائر الحقائق الأخرى، ومن منطلقات الإسلام كان عليه أن يتخذ زواجه من جويرية بنت الحارث سبيلاً لتحرير بني قومها، خصوصاً وهو لا يريد أن يُلزم المسلمين إلزاماً بهذا التحرير، بل يدعه ينطلق من قناعتهم، تماماً كما جاءت الأحداث تثبت صدق يقينه فيما قدَّر وفعل..

ولم يكن هذا الموقف الرائع في التصوّر لتحقيق مقصد من مقاصد الإنسانية النبيلة هو الأول من نوعه في حياة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فمِنْ قبلُ كان قد تزوّج من زينب بنت خزيمة العامرية الهلالية، بعد وفاة زوجها عنها، عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف الذي استشهد يوم بدر.. وكان زواج النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من هذه المرأة التي لم تكن ذات جمال ـ وقد تخطت سن الشباب ـ من أجل غاية واحدة هي التشجيع على الصنيع الجميل، ذلك أن المرأة كانت قد اشتهرت بطيب المعشر، والإحسان للفقراء والحَدْب على الضعفاء حتى لقبت بـ«أم المساكين»، فمن أوْلى منها أن تحمل لقب «أم المؤمنين» وهي على هذه الصفات الحميدة، والخصال النبيلة؟... ولفتاتُ محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، في العمل الإنساني أكثر من أن تُعدَّ أو تحصى.. وما كان زواجه من أم سَلَمة إلاَّ من هذا القبيل.. فهذه المرأة هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم، وقد مات عنها زوجها أبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد بن عمرو بن مخزوم، وأمُّهُ برَّة بنت عبدالمطلب وكان قد هاجر بأهله إلى الحبشة، وله أربعة أولاد زينب وسلمة وعمر ودَرّة، وكان أخا النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من الرضاعة، أرضعتهما وحمزة، ثوبية مولاة أبي لهب. وفي معركة أُحد بعد أن أبلى بلاءً حسناً، جرح فيها، غير أنه انتصَرَ على جراحه وعادَ يقود إحدى الكتائب لغزوة بني أسد، فيكتب الله سبحانه له النصرَ والظفر بهم،

ولكنَّه لم يلبث طويلاً بعد رجوعه إلى المدينة، حتى التهب عليه جرحُهُ القديم فقضى عليه، مخلّفاً وراءه امرأة ذات عيالٍ كثيرين، ليس عندهم من يعولهم. فقد كانت أم سلمة منقطعةً عن ذويها، ولذا لم يكن لهم أهل يؤوونهم ولا مالٌ يحميهم من غائلة الجوع. وكانت أحوال المسلمين في تلك الأيام أميل إلى الحاجة والفقر، بسبب توزيع موارد العيش بين المهاجرين والأنصار، فما رأى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، سبيلاً يرد بها عن هؤلاء الأطفال غائلة الجوع والحرمان، ويبعد عنهم مرارة الحياة، خيراً من الزواج من أمهم، حتى تكون قادرة على توفير الرعاية الصالحة لهم. نعم إن عطف النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ومحبته للأقربين والأبعدين، قد دفعته إلى الزواج من أم سلمة لأنه ليس أحق من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يكون صاحب العطف والشفقة، وصاحب الرحمة والحنان، وهو،صلى الله عليه وآله وسلم، قد اشتهر بذلك منذ حداثته..

هذه بعض آثار محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، الإنسانية، السامية..

فتارة ينشدُ تدعيم أسس السلوك السوي والخلق السليم، كما اشتهرت بهما زينب بنت خزيمة، وتارة يهدف إلى تشييد صروح الحدب والرحمة، كما فعل مع أبناء أم سلمة، وها هو مع بني المصطلق يروم تحرير الإنسان فلا يُسجل عليه تكريس الرق، بل يقاومه، فيكون ممنوعاً إلى الأبد، ولو كان الأعداء يسترقون من المسلمين، فكان أن رأى، صلى الله عليه وآله وسلم، وجوباً عليه الزواج من جويرية، حتى يضع أول الأسس لإلغاء الرق في العالم كله..

* * *

سلسلة غزوات الرسول

(8)

فَتحُ مكَّة

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ آلْرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا}.

فتح مكة

إن الدخولَ الجماعي في الإسلام، الذي شهدته قبائل العرب المتاخمة لبلاد الشام، والذي أقبلت عليه بعد غزوة «مؤتة» لم يَهُزَّ قريشاً وحلفاءها، كما كان جديراً بهم أن يهتزّوا له؛ بل ولم تتفكر قريش بما قد تصير إليه الأحوال في قاصي الجزيرة ودانيها، فظلت على الوهم بأنَّ المسلمين قد هزموا في موقعة «مؤتة» هزيمةً نكراء، وأنهم باتوا في حالة يُرثى لها، أقلّها الضعف والهوان.. وهذا ما أعادها إلى مراجعة حساباتها، وردَّها إلى طريق التفكير بحرب محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ونبذ مواقفها السابقة معه.. وهي المواقف التي أُجبرت فيها بعدَ «الحديبية»، على التخلّي عن السيطرة التي كانت لها، والتي أفقدتها الهيبة، وخسارة مكانتها الأولى، بعد «عُمرة القضاء».. فما عليها إذن، والحالة تلك، إلاَّ العمل لاستعادة تلك السيطرة كاملة، واسترداد الهيبة والمكانة غيرَ منقوصتين، وهذا لن يكون إلاَّ بمقاومة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، مقاومة ضارية، والشروع في قتال من دخلوا معه، بحكم عهد الحديبية.

ولمَّا كانت خزاعة هي التي دخلت في عقد النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وبنو بكر هم الذين دخلوا في عقد قريش، فقد رأى هؤلاء، أن الفرصة باتت مؤاتية بضعف المسلمين، لأنْ ينقضّوا على خزاعة، ويصيبوا منها بثاراتهم القديمة، التي كانت ما تزال تغلي في النفوس منذ حروب الجاهلية وأيامها، وإن كانت قد هدأت مع ظهور الإسلام، وصرفهم هذا الظهور للانشغال به، عن القتال في ما بينهم.

ولم يُخْفِ بنو الدّيل من بني بكر بن عبادة نيّاتهم تلك عن بعض سادة قريش، فوافقوهم على غزو خزاعة وتقتيلها، بل وراحوا يحرضونهم، ويمدونهم بالسلاح، حتى يُقْدِموا على ما يُضمرون..

وهكذا كان، فخرج نوفل بن معاوية الدّيلي في بعض من قومه قائداً، وخرج معهم جماعة من قريش كان فيهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وحويطب بن عبدالعزى، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، ومكرز بن حفص، حتى أَتوا خزاعة، في الليل، وهم على ماءٍ لهم بأسفل مكة يدعى «الوتير». وفوجىء بنو خزاعة بالمهاجمين ينزلون بهم

الطعن والتقتيل، فقاموا يدافعون عن أنفسهم، إلاَّ أنهم وجدوا أن الفرار هو خير سبيل لهم للنجاة؛ فأدركوا البيت الحرام يحتمون به. وكان الأعداء ما زالوا في أثرهم، فما إن رأوهم دخلوا البيت الحرام حتى توقفوا، وقال بنو بكر لقائدهم نوفل بن معاوية: «يا نوفل! إنا قد صرنا في حرم البيت العتيق، إلهَكَ، إلهَكَ».

فما كان من ذلك الكافر اللعين إلاَّ أن قال: «لا إله له اليوم. يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه».

ولمَّا رأى بنو خزاعة أن أعداءَ الله لا يأبهون لحرمة بيته المقدس، وأنهم ما زالوا وراءهم يريدون تقتيلهم، انقلبوا إلى بيت أحد زعمائهم، بديل بن ورقاء، ودار مولى لهم يُقال له رافع، بعد أن كان قد قتل منهم ما يزيد على عشرين رجلاً..

وانتهت أخبار عدوة بني الدّيل وحلفاء قريش إلى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في الغداة إلى المدينة، وأتى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو جالسٌ بين الناس في المسجد، يقصُّ عليه ما حدث، ويستنصره على أولئك الذين نقضوا عهده وقتلوا حلفاءه.

وكان مما قاله شعراً:

يَـا رَبِّ إِنِّــي نَـاشِدٌ مُـحمَّدا

حِلْفَ أَبينا وأبيه الأَتْلَدَا[1]

قَــدْ كُنْتُمُ وُلْـــداً وكنـــا وَالِداً

ثُمَّتَ أَسْلَمْنا فَلَم نَنْزِعْ يَدَا

فانصُرْ هَداكَ الله نَصْراً أَعْتَدَا[2]

وادْعُ عِبَادَ الله يَأْتُوا مَدَدَا[3]

فِيــهمْ رَسُولُ الله قـــد تَجَرَّدا[4]

---

1 الأتلدا: القديم العهد.
2 الشيء العتيد: الشيء القوي الجسيم.
3 المدد: العون.
4 تجرّد: تهيّأ.

إنْ سِيمَ[1] خسْفاً[2] وجْهُهُ تَرَبَّدا[3]

في فَيْلَقٍ كالبحر يجري مُزْبِدا

إنَّ قُريشاً أَخْلَفوكَ المَوْعِدا

وَنَـقَضُـوا مِيْثاقَـــكَ المُـؤَكَّدَا

وَجَعَلوا لي في كَداءٍ[4] رَصَدَا[5]

وَزَعَمُوا أَنْ لستُ أَدْعُو أَحَداً

وهُــمْ أذلُّ وأقــلُّ عَـــدَدَا

هـم بيَّتونا[6] بالوَتِيرِ هُجَّـدا[7]

وقَتَلُونـا رُكَّعــاً وَسُجَّـــدا[8]

فانْصُرْ هَداكَ الله، نصراً أَيِّدا

فرغ عمرو بن سالم من شكايته وطلبه للنصرة، فقال له رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «نُصرت يا عمرو بن سالم». ولم يلبث أن جاءَ، بعد عمرو، زعيم خزاعي آخر هو بُدَيْل بن ورقاء، في نفرٍ من خزاعة، ليشكوا الأمر نفسه إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما أصابهم من بني بكر، ومظاهرة قريش عليهم، فطمأنهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وهدّأ من غضبهم وألمهم..

فماذا على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يفعل، وهذه قريش ومن دخل في عهدها، نقضوا معاهدة الحديبية؟ لقد أعطى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لقريش في تلك المعاهدة الكثير مما طلبت وأصرَّت عليه، لا لشيء إلاَّ ليجعلها ترتدُّ عن الضلال، وتثوب إلى الرشد، فيعمُّ السلام والأمان في ربوع شبه الجزيرة، ولكنها بدت الآن ـ فيما فعل

1 سيم: طُلب منه وكلف.
2 الخسف: الذل.
3 تربدَ: تغير إلى الغُبرة.
4 كداء: موضع بأعلى مكة.
5 رصَدَ الشيء: راقبه.
6 بيّتونا: غدروا بنا ليلاً.
7 هُجَّداً: نائمين.
8 ركعاً وسجداً: كان فيهم مسلمون يصلون لله تعالى.

بعض قادتها ـ لا تعبأ بسلام، ولا تحفل بمواثيقَ أو عهود، بل تعمل على إعادة العداوة المستفحلة، وتفتعل الشرَّ راضية، وإنها ولا شك ستزيد في غِيِّها وضلالها إن لم يعاجل إليها بعمل يقهرها، ويفرض عليها الاستسلام والخضوع. ولقد رأى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن لا شيء يجعل قريشاً مرغمة على إقامة السلام الذي يريد، ونشر الدين الذي يحمل، كما أنه لا شيء يعادل نقضَها للعهد، إلاَّ الزحف عليها في عقر دارها، وفتح مكة أمام المسلمين والعالم أجمعين، إذا شاء الله ربُّ العالمين.. نعم هذا ما عَزَم عليه الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، بعدما تناهت إليه أخبار نقض العهد، وبعد أن استنصره حلفاؤه.

وعَرَفت قريش بأن بني خزاعة هُرعوا إلى المدينة يخبرون محمداً بما حصل، فإذا بتفكيرها ينقلب على غير ما كانت وجهته السابقة، فقد اجتمع حكماؤها وأهل الرأي فيها يتشاورون في ما بينهم، فأدركوا أن ذلك النفر الذي حرّض بني بكر، وساعدهم على قتل خزاعة، قد أوقعها في الخطر.. فقد عادَ أصحاب الرأي هؤلاء يعون ما لمحمد، صلى الله عليه وآله وسلم، من قوة، وما عنده من عزم، وهو لن يسكت أبداً على ما قام به أهل الفتنة ولن يكون أمامَهُ إلاَّ حربٌ شعواء يشنها عليهم، قد لا تُبقي ولا تذر..

إنَّ هذا التقدير حصل في حسبان أولئك العقلاء من قريش وجعلهم يبعثون بزعيمهم أبي سفيان بن حرب إلى محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، كي يثبت المعاهدة ويطيل في مدة الهدنة..

وخرج أبو سفيان من مكة حاملاً هموم قريش على عاتقه يريد المدينة، حتى إذا كان في محلة تدعى «عسفان» رأى من بعيدٍ بُدَيْل بن ورقاء وأصحابه، فخاف أن يكون هؤلاء القوم قد أتَوْا محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، قبله، وأخبروه بما حدث، مما يجعل مهمته أصعب، فإذا به يستحثّ راحلته ويتقدم منهم سائلاً:

«من أين أقبلت يا بُدَيل؟».

وأدرك بُدَيْل ما يريده أبو سفيان بن حرب، فقال، محاولاً أن يعمي عنه الحقيقة:

«سرت في خزاعة في بطن هذا الوادي...»..

قال أبو سفيان:

ـ أوَما أتيتَ محمداً؟.

قال:

ـ لا..

ثم لم يلبث بُدَيل ورفاقه أن خلّوه منصرفين عنه، ولكنهم ما كادوا يمضون في طريقهم حتى قال أبو سفيان في نفسه: «لئن كان قد جاء المدينة فقد علف بها النوى»، فعمد إلى بَعْرٍ راحلته يفتحه، فإذا به يجد حدسَهُ قد صدقه، فيقول: «أحلف بالله لقد جاء بُدَيلٌ محمداً». وشعر أبو سفيان بخوف شديد، ولذا آثر ألاَّ يأتي محمداً ويلقاه مباشرة، بل يتوسل إليه لدى شخص عزيز عليه.

وعلى هذه النية تابع أبو سفيان طريقه حتى دخل المدينة، فذهب من فوره إلى بيت ابنته أم حبيبة (رضي الله عنها) زوج رسول الله، وفي نيتِه أنْ يستريح عندها من وعثاء السفر، ومن ثمَّ يطلب إليها أن تكلم زوجها بأمره.

دخل أبو سفيان على ابنته، فقامت تتلقاه بالترحاب، ثم تدعوه إلى الجلوس. فتقدّم أبو سفيان يريد أن يجلس على فراشٍ وَجَدَه ممدوداً، فإذا به يرى ابنته تسرع وتطوي هذا الفراش عنه. فأجفل من هذا التصرف، وقال لابنته بدهشة واستغراب:

«إيه بنية، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عني؟!»..

قالت أم حبيبة المؤمنة الصادقة:

«بل هو فراش رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله».

وفوجىء أبو سفيان بن حرب بما لم يكن يتوقعه في حياته، فأم حبيبة هي ابنته، وهي ذاتها التي توجه إليه المهانة والذلّ، فتمنعه من الجلوس على الفراش الخاص برسول الله؟.. فلم يتمالك نفسه أن يبدي ما داخَلَهُ من إحساس، فقال لها:

«أما والله، لقد أصابكِ شرٌّ يا بنية»..

قالت:

ـ «بل هداني الله تعالى للإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر. واعجباً منك، وأنت سيد قريش وكبيرها»!.

قال:

«أأترك ما يعبد آبائي وأتّبع دين محمد؟».

فقالت:

«بل هو دين الله الواحد الأحد. وهو الدين الذي يخلِّص من الشوائب والأدران، ويحفظ المكانات والكرامات».

ولم يعد أبو سفيان قادراً على الاحتمال، فخرج مُغضِباً، يجرُّ أذياله، مضعضعَ النفس، كليمَ الفؤاد، لا يدري ماذا يفعل، ولكنه جاءَ في مهمة لا يستطيع أن يتخلَّى عنها، فسعى إلى المسجد يريد محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم. ودخل عليه من فوره يكلمه في توثيق المعاهدة وفي زيادة مدتها، إلاَّ أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لم يردَّ عليه بشيء.. وألحَّ أبو سفيان في الكلام، والنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لا يجيب، حتى قنع أن لا جدوى من كلامه، فقام خارجاً والصدمة تكاد تقتله، لقد نالَ أول صدمة من أقرب الناس إليه، من ابنته أم حبيبة، وها هي ذي صدمة أخرى تقع على رأسه بأشدّ من تلك، فما هذا العذاب الذي ينزل به؟!..

تلك كانت أحاسيس أبي سفيان، وهو يسحب نفسه سحباً في طريقه إلى بيت أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) علَّهُ يجد عنده ما يواسي به جراح نفسه، ولكنه لم يجد إلاَّ الرفض، إذْ أبى عليه الصدِّيق أن يكلم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بأمره، فذهب إلى دار عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وعرض عليه أمره.. وكان الحالُ هنا أسوأ من قبل، إذْ ما إن كلَّمَ عمرَ حتى أغلظ له في الردّ، وقال له:

«أأنا أشفع لكم إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ[1] لجاهدتكم به».

وضاقت الدنيا في وجه أبي سفيان بن حرب، وهو يرى في إعراض الناس عنه ما يرى، إذ أحسَّ بنفسه حقيراً، ذليلاً، لا كيان له، ولا كرامة. إنَّ أحداً لا يعبأ به، وإن خاطبوه فبأنفةٍ واستعلاء، أو كراهية ومجافاة! وإذا كان هذا شأن الناس في المدينة فماذا عليه بعدُ أن يفعل؟ هل يخرج إلى قريش ولم يصل بعد إلى حلٍّ؟ لا! إنها مسألة حياة أو موت، فمصير مكة وقريش متوقف كله على مساعيه هنا..

... ولم يرَ أبو سفيان إلاَّ الذهاب إلى بيت علي بن أبي طالب (عليه السلام) فلعله الرجل الأخير الذي يلقاه ويجد عنده ما لم يجده عند صاحبَيه أبي بكر وعمر.. ودخلَ أبو سفيان

---

1 الذّر: صغار النمل.

على علي (عليه السلام) ليجده مع زوجه فاطمة ـ بنت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم ـ وبين يديها ابنها الحسن (عليه السلام) طفل صغير ما زال يدبّ، فقال له: «يا عليّ، إنك أمسُّ القوم بي رحماً، وقد جئت في حاجة فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً. إشفع لنا عند محمد». فقال له علي (عليه السلام): «ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على أمرٍ فلا نستطيع أن نكلّمه فيه»..

وأدرك أبو سفيان حراجة الموقف، فالتفت إلى فاطمة (عليها السلام) قائلاً:

«يا بنت محمد، هل لكِ أن تأمري بُنَيَّكِ هذا ـ يعني الحسن (عليه السلام) ـ فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟».

قالت فاطمة الزهراء: «والله ما بلغ بُني هذا أن يجير بين الناس، وما يجير أحدٌ على رسول الله».

قال: «يا أبا الحسن! إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني».

قال أبو الحسن: «والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم إلحق بأرضك».

قال: «أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟».

قال أبو الحسن: «لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك».

وقام أبو سفيان، فأتى المسجد، قائلاً: «أيها الناس! إني قد أجرت بين الناس».

ولم يلبث أن خرج يركب بعيره وينطلق عائداً إلى مكة، خالي الوفاض، يجرُّ أذيال الخيبة، إذ لم يستطع أن يحقق شيئاً ممَّا جاءَ إليه.

وقدم أبو سفيان على قومه، فسألوه: «ما وراءك يا أبا سفيان؟».

قال: «جئت محمداً فكلمته، فوالله ما ردَّ عليَّ شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً. ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم. ثم جئت عليَّ بن أبي طالب فوجدته ألين القوم وقد أشارَ عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا يُغني»!

قالوا: «وبما أمرك؟».

قال: «أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت».

قالوا: «فهل أجاز محمدٌ ذلك؟».

قال: لا!

قالوا: «ما زاد الرجلُ أن لعب بك، فما يُغني عنا ما قلت».
قالَ: «والله، ما وجدت غير ذلك»!.

صحيح أنَّ أبا سفيان بن حرب قد ترك المدينة، وفي نفسه الألمُ والذلُّ، وعادَ إلى قريش ليخبرها بسوءِ الحظ الذي حالفه، رغم كل ما بذله من جهد كي يشفع لها عند محمد!.. ولكن ما درى أبو سفيان أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وإن لم يكلمه في شيء إلاَّ أنه لم يكن ليريد شرّاً بمكة وأهلها.. وكيف يدري ورسولُ الله يريد من وراء فتح مكة، فتحاً للقلوب على الإيمان، وهدىً للأنفس إلى الحق. إنه يريده فتحاً بدون قتال، ولا مقاومة، فلا تراق فيه قطرة دم واحدة إلاَّ أن يكون هنالك من أهل الشرك مَن وجب قتلهم بالحق. ومن أجل هذه الغاية، ولكي لا يشيع الأمرُ في الناس، وتستعدّ قريش للمقاومة، ويكون القتال أمراً مفروضاً لا مفرَّ منه، نعم من أجل هذه الغاية، لم يشأ أن يحادث أبا سفيان بن حرب في زيادة مدة المعاهدة، لأنه يريد أن ينهيها ليقيم مكانها سلاماً مبنياً على العدل والحق والشريعة، يدوم إلى أبد الدهر، ما دام في مكة إنسان، وما دام على وجه هذه الأرض أناس..

ومن أجل هذه الغاية أيضاً، وزَّع رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الحراس على مفارق الطرق، ومداخل المدينة، يرقبون كل قادم إليها، أو مارٍّ بجوارها، فلا يدعون غريباً يدخل، ولا يتركون أحداً يمرُّ إلاَّ ويردّونه..

لقد أرادَ أن يكون أمره سراً، حقناً للدماء، وصوناً للأنفس، حتى أن ما عَزَمَ عليه من فتح مكة لم يَقُلْه لأحد من الصحابة، بل كان يخطط، صلى الله عليه وآله وسلم، بتأنٍ ورويَّة، حتى تأتي العواقب سليمة والنتائج محققة.

وكان فيما يخطط له رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن تسير معه حشودٌ كبيرة من الناس إلى مكة، فبعث إلى مَن حوله من القبائل وإلى الأعراب في البادية أن يأتوا ويحضروا رمضان في المدينة. وما إن بلغت دعوة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، تلك القبائل حتى راحت تتوافد، ومعها الرايات، إلى أرض المدينة وتقيم فيها المضارب بعضها إلى جانب بعضٍ حتى غصت المدينة وضواحيها بالوفود.. ولما رأى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن الجموع التي لبَّت النداء كثيرة، وأنها تكفي للمسيرة التي أرادها، أعلم الناس بزحفه إلى فتح مكة، وأمرهم بالتهيؤ والاستعداد للخروج.

وفيما أخذ الناسُ يتأهبون للمسير، وتأكَّدَ لحاطب بن أبي بلتعة أن هذا المسير بات وشيك الوقوع، عمد إلى امرأة من «مُزينة»، يسلّمها كتاباً أوصاها بأن توصلهُ لقريش وفيه يعلمهم بما أزمع عليه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم؛ وأن تُبقي أمر هذا الكتاب سراً وتخفيه في مكان آمن حتى لا يطّلع عليه أحد. ولكي يأمن إيصال هذه المرأة لكتابه، دفع إليها بعض المال وعادَ يكرر وصيته بأن تكتم سره ولا تعلنه لأحد..

فأخذت تلك المرأة الكتاب، وأخفته في ضفار شعرها، ثم خرجت تسلك طريقاً بعيداً عن عيون الحراس. ولكن ما إن غادرت المدينة، حتى علم رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأمرها، إذ جاءه الوحي بما فعله حاطب، فدعا على الفور إليه عليَّ بن أبي طالب وقال له: «إنَّ أحد أصحابي كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، وقد كنت سألت الله عز وجل أن يعمي أخبارنا عنهم، وقد حملت الكتاب امرأة سوداء، سلكت طريقاً غير مألوف، فهيَّا أدركْها ثم انتزعِ الكتاب منها، وبعد ذلك خلِّ سبيلها».. ثم استدعى الزبير بن العوام وأمَرَه أن يخرج مع علي (رضي الله عنهما).

وانطلق الصحابيان تعدو بهما خيلهما يبحثان عن المرأة، فأدركاها بـ«الخليقة»، وتقدّم منها الزبير يسألها عن الكتاب، فأنكرت وأقسمت أن أحداً لم يعطها كتاباً لقريش. ولكنَّ الزبير لم يأبه لما قالت، بل انكبَّ على رحالها يبحث فيه، ويحاول أن يجد الكتاب الذي تخفيه.. ورأت تلك المرأة أن تتخلص من الرجلين، فراحت تذرف الدمع باكية، وهي تندب حظّها الذي أوقعها في ورطة لا تعلم عنها شيئاً، وتبدي ضعفها وقلة حيلتها تجاه أناس يَسْتَعْدُونَ عليها.. وأفلحت تلك المرأة بالكذب والمراوغة، وبالتظاهر بالمسكنة والفقر، وبوقع هذه التهمة الشنعاء عليها حتى جعلت الزبير يتأثر لحالها، ويرق قلبه لها، بشكل كادَ معه أن ينسى المهمة التي جاءَ من أجلها فارتدَّ نحو علي (عليه السلام) يقول له: «ما أرى يا أبا الحسن معها كتاباً، فارجع بنا إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نخبره ببراءة المرأة»..

وما كاد علي (عليه السلام) يسمع ذلك حتى قال له:

«ويحك يا زبير، أيخبرني رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأنها تحمل كتاباً، ويأمرني بأن آخذه منها، وتقول أنت إنَّهُ لا كتاب معها»؟!.

ولم يلبث عليٌّ (عليه السلام) أن اخترط السيف، وتقدم من المرأة قائلاً، وعيناه تقدحان بالغضب: «أما والله لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنكشفنَّكِ، ثم لأضربَنَّ عنقك بسيفي هذا»..
وحاولت المرأة أن تراوغ معه كما فعلت مع صاحبه، إلاَّ أنها رأت عنده من الانفعال والإضرار، ومن الجدية فيما يقول، ما جعلها تثق بأن الرجل متأكد مما معها، وأنها إن لم ترضخ له، فلسوف تنال عقاباً قد يكون الموت.. وإزاء تخوفها على حياتها قالت: «أَعْرِض بوجهك عني»..
وأشاح عليّ (عليه السلام) بوجهه عن المرأة الماكرة، فإذا بهل تحلُّ ضفائرها وتخرج منها الكتاب ثم تدفعه إليه، فيأخذه علي (عليه السلام)، دون أن يقول لها شيئاً، ثم يأتي الزبير، ويذهبان إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يسلمانه الكتاب.
فتحَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الكتاب وقُرِىءَ له ما فيه، فدعا حاطباً يسأله: «ما حملك يا حاطب على هذا؟»..
وأسقط في يد حاطب وأطرق مأخوذاً، فلم يدرِ بما يجيب.. وبعد لأيٍ جاهد فيه نفسه، قال لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، والغصة تكاد تقتله: «يا رسولَ الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيّرت وما بدّلت، ولكني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصلٍ ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم، وكان مَن معك من المهاجرين (ممن له أهل ومال بمكة) لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إن فاتني النسب في قريش أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا ارتضاءً بالكفر بعد الإيمان».
ذلك هو العذر الذي أبداه حاطب بن أبي بلتعة، فهل كان حقاً معذوراً؟.
وهل يُعذر مَن يخالف أمرَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، رغم ما يحمله هذا الأمر من إخفاء خبر الفتح ابتغاء سلامة الناس، وتحقيقاً للهدف الأعلى الذي هو نشر الدعوة وتثبيتها؟
ولئن عُذِرَ أحدٌ من عامةِ الناس، قد يَجْهَلُ حقيقةَ الدعوةِ وسموّ مَرامِيها، فهل يُعذرُ صحابيٌّ جليلٌ رافق الدعوة في مختلف مراحلها ورافق الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في شتى الحالات التي مرَّ بها؟.

نعم لقد كان حاطب ممَّن صاحبوا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، آمَنَ به وبالدين الذي يدعو إليه، وجاهد في سبيل هذا الدين حق الجهاد، وحضر المعارك كلها، بما فيها معركة بدر، وتحمَّل المسؤولية التي عهدت إليه يوم حمل كتاب النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى المقوقس عظيم القِبْط. ومن هنا تأتي الغرابة فيما قام به من تصرف، والاستهجانُ لِمَا فعل..

ولكن! أليس في الإنسان ضعف؟.

بل أوَليست حالات الضعف عند بني البشر عديدة ومتنوعة، حتى لا تكاد تقع تحت حصر، وحتى ليمكن القول بأنه ما من مخلوق بشري إلاَّ وعنده نقطة ضعف تتأصَّلُ في أعماقه فتؤثر فيه دائماً؟ بل وأحياناً تسيطر عليه إحدى حالات ضعفه فتجعله يتصرف بأعمال لا يرضاها هو لنفسه؟ أوليسَ في الناس من يكون ضعفه تجاه المال، أو النفوذ وحُبِّ السلطة والحكم، حتى ليضعف أمام أي شيء في سبيل تحقيق هذه النزعة؟ أو قد يكون الضعف حيال المرأة التي يشتهيها، فتغلب عليه شهوته وتستبد به حيال أبسط الحركات التي قد تأتيها؟ أو قد يأتي هذا الضعف من حب الإنسان لعياله وعاطفته تجاه الآباء والبنين؟..

بلى، هذه حالات من ضعف بني البشر، وهي تختلف عند الواحد عن الآخر، باختلاف تكوينه الشخصي، والعوامل الذاتية أو المؤثرات الخارجية، التي تفعل فعلها في الشخصية الإنسانية.

فإذا كان هذا هو الإنسان في تكوينه، فإنَّ حاطب بن أبي بلتعة يكون قد مرَّ بحالة من الضعف تجاه أهله في مكة وخوفه عليهم من قريش . إذا كان صادقاً فيما ادَّعاه . إذ ربما توهَّمَ بأن قريشاً إن أدركها خبرُ زحف المسلمين لفتح مكة، سوف تعمد إلى قتل المسلمين المستضعفين في مكة، فرغب في أن يكون هو الذي يبعث هذا الخبر إليها، تفادياً لما قد يصيب أهله، وهم ممن ليس عندهم أحد يحميهم أو مال يردُّ عنهم!..

ومما لا شك فيه بأنه كانت لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، معرفة تامة بأحوال بني البشر، وبالعوامل الذاتية والخارجية التي تؤثر في تكوين شخصيتهم، أو في دفعهم إلى القيام بعمل من الأعمال. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ربَّاه على عينه (وهو القائل: ولتُصْنَعَ على عيني)، ليعدّه لأعظم رسالة سماوية إلى الأرض، إلاَّ أنَّ هذا الإعداد الإلهي

هو نفسه الذي حمل في ذات الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، المعرفة بالنفس الإنسانية، وبما تحفل به هذه النفس من مشاعر، وبما يعترضها من مؤثرات.. ولقد رأى في اعتذار حاطب ما ينمُّ عن حالة من الضعف اعترته خوفاً على الأهل والولد. وهذه الحالة، لا بد وأن تكون عابرة، لأن ماضي الرجل كله يشهد على صدق إيمانه، وجهاده في سبيل الله، وحسن بلائه في الذود عن رسول الله، وعن حرمات هذا الدين الذي أنزله الله رحمةً للعالمين.

ورأى الرسولُ الأعظم أن ما ارتكبه حاطب من خطأ، وإن كان فادحاً، إلاَّ أن هذا الخطأ لا يعدل ذلك الماضي الحافل بالتضحية والعطاء، وإنَّ في عدالة بني البشر ما يأخذ بالأسباب التخفيفية، وحتى بالأسباب التي تمنع أحياناً العقاب، فإذا كانت هذه عدالة الناس، فكيف يجب أن تكون عدالة النبوة؟..

وأرادَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يظهر عفوه عن حاطب، فقال لمن حوله: «أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به»..

أما حاطب، وكان الندمُ قد أخذ منه كل مأخذ، فأبدى بتأثّر شديد أنه لن يرتكب بعد اليوم خطأ، وأثنى على كرم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ورحمته به، وحَمد الله سبحانه على غفران خطيئته..

وفي هذه الحادثة أنزل الله تعالى في أول سورة «الممتحنة» من القرآن الكريم، حكمه الذي يحذّر فيه المؤمنين من موالاة أعداء الله ومصانعتهم، ومن إفشاء بعض السرّ لهم أيّاً كان الدافع للموالاة، ومهما كان السبب للإفشاء، لأن العدو عدوٌّ حيثما كان، ومهما اختلفت أوضاعه وأحواله، وإن التقرب إليه وموادّته أو محاباته إنما هي خيانة ما بعدها خيانة، فقال سبحانه وتعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم

بِالسُّوءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ * لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[1].

وانتهت حادثة حاطب بن أبي بلتعة بالعفو عنه، فقد شفعت له أعماله وتضحياته في سبيل الدعوة. وعزم الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، على المسير، فاستخلف على المدينة أبا رُهَم، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، ثم خرج لعشرٍ خلَون من شهر رمضان سنة 8هـ في نحو عشرة آلاف من المسلمين، كان فيهم المهاجرون والأنصارُ وكل من جاء المدينة من قبائل العرب، خرجوا مؤلفين أكبر جيش عرفته المدينة حتى ذلك التاريخ..

وسار جيش المسلمين تعجُّ به الطرقات، لا يضرب خيامه في بطاح إلاَّ واكتست أرضها حتى لا يكاد يبدو منها شيء للناظر.. كانوا يسعون إلى مكة، ولا يرغبون بسفك دمٍ ولا بقتْلِ بريء، ولا يعتزمون سلْبَ مالٍ أو اغتيال حق، بل على العكس من ذلك كله كانت غايتهم سامية وهي فتح أغلاق البلد الحرام، ورفع الحواجز والسدود التي أقامتها قريش، فيكون ذلك البلد ـ كما أراد له الله سبحانه وتعالى ـ مثابةً للناس وأمناً، يسوده دينُ الحق الذي أُنزل على قلب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، محمد بن عبدالله، سيّد المرسلين وخاتم النبيين، ليُخرج الناس، كل الناس، من الظلمات إلى النور، ولذلك كان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يدعو إلى الله في تلك المسيرة: «اللَّهم خُذِ العيونَ والأخبارَ عن قريش حتى نَبْغَتَها في ديارها»..

وكانت تلك الأيام في شهر رمضان، وهو شهر الصوم المبارك، فخرج الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، والمسلمون صائمين، ولكن ما إن بلغوا الكُدَيْدَ ـ ما بين عُسفان وأمج ـ حتى أفطر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لأن في شرع الإسلام أنَّ من كان على سفر رُخّصَ له أن يفطر، بدليل قوله تعالى:

{فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}[2].

والله سبحانه وتعالى يحب أن تُؤتى رُخصُهُ (= كما يحبُّ أن تؤتى عزائمُه)، فما دام قد رخَّص للمسافر بالإفطار فعليه ذلك، لأن الصيام في السفر وفي الصحراء خاصة يكون

1 سورة الممتحنة، الآيات: 1 - 3.
2 سورة البقرة، الآية: 184.

شاقاً ومضنياً، لكثرة ما يلاقي المسافر الصائم من إجهاد قد لا يحتمله، ولذلك كانت حكمة الله تعالى ـ وهو الرؤوف بعباده، الرحيم بخلقه ـ الترخيص بالإفطار في السفر، إبعاداً للنفس عن المشاق، وتمكيناً للجسم من الاحتفاظ بقواه.. وعلى هذا فالأَوْلى بمَنْ خرج للجهاد أن يفطر، لأن الجهادَ، أو القتال في سبيل الحق، يتطلب استجماع سائر القوى الجسدية والمعنوية، وإن الأجساد ولا شك تتعرض للفتور، وقد تخور من عدم تناول الطعام والشراب، فَدَرْءاً لإضعاف المجاهد، وتمكيناً له من القيام بواجبه وجب عليه أن يُفطر، وهكذا الأمر في كل حالة تتطلب من الإنسان بذل الجهد، وتوفير القوة، في سبيل نفعه الشخصي أو في سبيل النفع العام، ولكن بشرط أن يتقيَّدَ الإنسان في حدود الله وأحكام شريعته، لا أن يتخذ من أي عمل أو مسعىً شاقٍّ يقوم به ذريعة لكي يفطر، غير عابىء برُخص الله سبحانه التي لا يجوز تجاوزها في أي حالٍ من الأحوال، لأن للإفطار في السفر شروطاً ينبغي التقيد بها حرفيّاً.

نعم، قد أفطَرَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في الكُدَيْدِ لأنه صارَ على سفر، ولكنَّ بعض المؤمنين من غير العارفين تحرَّجوا من الإفطار. فهم في شهر رمضان، شهر الصوم والتوبة والمغفرة، ويريدون أن يصوموا كي ينالوا الثواب على هذا الصيام.. وأدرك الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ما يعتمل في الأنفس، فطلب إليه إناءً، واعتلى على راحلته في وضح النهار، فشرب أمام الناس. فلما رأوه، أفطروا.

وعادَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يتابع طريقه في المسلمين، فلقيه في محلة تدعى «نيف العقاب» ـ فيما بين المدينة ومكة ـ بعض ذوي قرابته كان منهم أبو سفيان الحارث بن عبدالمطلب (ابن عم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة (ابن عمة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، عاتكة بنت عبدالمطلب ـ وهو أيضاً أخو أم سلمة (زوج النبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم) من أمها.

وكان قد خرج مع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من أمهات المؤمنين السيدتان أم سلمة وأم حبيبة (رضي الله عنهما)، فجاء عبدالله بن أبي أمية إلى أخته أم سلمة، يطلب إليها أن تكلم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كي يأذن له ولصاحبه بالدخول عليه في قبته، فأتته أم سلمة وقالت: «ابن عمك وابن عمتك يلتمسان الدخول عليك يا رسولَ الله»، فأجابها:

«لا حاجة لي بهما. فأما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال»..

لماذا يرفض رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك وهو المسامحُ الكريم؟!..

إن عودةً إلى الماضي، وإلى أيام مكة بالذات، تُبين ما لاقى المسلمون عامة، والنبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، خاصة من عنتِ قريش وصلافتها، وما لجّت فيه من عذاب ومقاومة، وما غالت فيه من سخرية وأذى، حتى لم يبق أحدٌ من المسلمين إلاَّ ونالَهُ ما ناله من تلك المآسي.. وكان أبو سفيان الحارث بن عبدالمطلب شاعراً، فاستغلَّ خبرته الشاعرية وانبرى يهجو النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بأقذع القول وأمرِّه، حتى وصلت به القحة لأن ينالَ منه في عرضه وشرفه، مما آلم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وساءه.. وأما عبدالله بن أبي أمية فقد تعمَّد السخرية منه على مرأى من الناس، يوم جاءت قريش تطلب منه المعجزات لتصدقه وتؤمن بنبوته، فطلب منه يومذاك عبدالله ما ينمُّ عن الحقد والإذلال، إذ قال: «والله ما آمنت بك حتى تتخذ سُلَّماً إلى السماء، فتعرج فيه وأنا أنظر إليك ثم تأتي بصكٍّ وأربعة من الملائكة يشهدون بأن الله أرسلك»..

هذه المواقف الخبيثة، من الحارث وعبدالله، ومن كل رجال قريش، لم تكن لتسيء إلى شخص رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وحسب، بل هي التي عرَّضت المسلمين للأذى، ووقفت في مسيرةِ الدعوة تمنعها من الانطلاق، وتقيم الحواجز فيما بينها وبين الناس، ولذا لم يكن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لينسى أصحابها، أو ليسامحهم، لمجرد أن أتوا يلتمسون الدخولَ عليه، فكان رفضه لذينك الرجلين..

وخرج الخبرُ لهما: «إنَّ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يأبى أن يراكما».. فما كان من الحارث بن عبدالمطلب بعد أن سمع ذلك، إلاَّ أن أمسك بيد ابن صغير له يدعى جعفراً، كان معه، وهو يقول: «والله ليأذنَنَّ لي أو لآخذنَّ بُنيَّ هذا ثم نذهبَنَّ في الأرض فنموت عطشاً وجوعاً»..

وعادت السيدة أم سلمة تخبر رسولَ الله بأمر ابن عمه، وما عزم عليه وبرفقته صغيره، فإذا بقلبه الكبير يرق لهما، ويرحم الصغير جعفراً. أوَليس هو النبيُّ الذي أرسلَهُ الله تعالى رحمةً للعالمين ـ فيأذن لهما بالدخول عليه.. ويتقدم منه الحارث وعبدالله، يبديان العذر عما

أسلفا، والندَم على ما فعلا، ثم أعلنا إسلامهما بين يديه، صلى الله عليه وآله وسلم، فكانت هذه أول بركة من بركات المسير لفتح مكة..

وعاد رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يتابع المسيرة، فلقيه في الطريق عمُّهُ العباس بن عبدالمطلب خارجاً في عياله إلى المدينة إذ كان العباس قد بقي في مكة يقوم على السقاية، ولكن عندما عادَ أبو سفيان بن حرب بعد ذهابه للمدينة طالباً توثيق معاهدة الصلح، وأخبر قريشاً بما جرى معه، قام بينهم الجدلُ والنقاشُ، فمنهم من يرى إيجاد وسيلة لمفاوضة محمد، ومنهم من يرى . وكانوا الأغلبية . بأن محمداً سوف يزحف عليهم بما لا قِبَلَ لهم به، وكان العباسُ يدرك قوة المسلمين، فآثر ألاَّ يدخل مع المشركين في الجدال، بل أن يتركهم ويخرج في عياله، علَّه يجد هو الطريق التي تنجي قريشاً مما ينتظرها، فلما لقيَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في الطريق، وكان في محلة تدعى «الجُحْفة» أَمَرَ بأهله أن يُصحبوا إلى المدينة، وعادَ هو مع جيش المسلمين الساعي إلى مكة..

وكان هذا اللقاء مصادفة مباركة، لما قام به العباس من دور هام، في حقن الدماء، وتيسير الأمور، وتذليل العقبات في طريق الفتح.. فقد مضى جيش المسلمين حتى بلغ «مُرَّ الظهران»، وهنالك أمر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بالنزول، وكان الوقت عشياً، فطلب إلى الناس أن يشعل كل واحدٍ ناراً له، وكانوا عشرة آلاف نفس، فامتثلوا، تلبية لأمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.. وإنه ليس يسيراً علينا أن نتخيَّلَ منظرَ عشرةِ آلافِ نار موقدة!، ولا ما تحدثه ألسنة اللهب المتصاعدة من أنوار تسطع في جوف الظلمة فتحيل فضاءَ الصحراء متلألئاً وهّاجاً، وأطرافها منيرة وضّاءة. كما أنه ليس يسيراً عَلينا أن نُقدّر ما يبعث هذا المنظر من رعب في القلب، وخوفٍ في النفس، لمن يكون عدوّاً لأصحاب هذه النيران.. لقد كان ذلك كله فوق ما نتصوره، لأننا لم نره فعلاً أو لم نصادفه..

ونظَرَ العباس فيما حولَهُ، وامتدت أنظارُه تلاحق الأبعادَ التي تمتدُّ إليها الأنوار، فأيقنَ أن قريشاً هالكة لا محالة، إنْ هي أصَرَّت على الغيّ والعناد..

نعم أدرك أبو الفضل، العباس بن عبدالمطلب، أنَّ الخطر قد بات حالاًّ، وهو لن يداهم قريشاً وحدها، بل وأهل مكة جميعاً، مُنزلاً فيهم أفدَحَ الخسائر في الأرزاق والأعناق، وهذه نتيجة حتمية للظلم والضلال، إذ مهما تطاول الظالمون، ومهما ظنوا أنَّهم قادرون، فلسوف يأتي يوم يسحق فيه الظلمُ أهله، ويقضي القهر على صانعيه..

وأخذَ التفكير بالعباس فيما يجب عليه فعله كي يوفر على المسلمين مشقة القتال، ويؤمِّن في الوقت نفسه أهلَ مكة بإنقاذهم من الهلاك المحتوم.. ويُفصحُ العباس عما دار في خلده من وساوس ساعتئذٍ، فيقول: «واصباحَ قريش! والله لئن دخل رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مكة عنوةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر».. وأسرع من فوره يعتلي بغلةً بيضاء لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويخرج عليها، راغباً في الذهاب إلى «الأراك» علَّهُ يجدُ حطّاباً أو صاحب لبن، أو أي إنسان، فيبعثه إلى مكة، كي يخبر أهلها بمكان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

ولم يكن خروج رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد بَلَغَ قريشاً إلى هذه اللحظات، فقد عميت عنها الأخبارُ، بفضل تدبّر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقدرته على التخطيط، ولم يصل إلى مسامعها شيء عن مسيرة جيش المسلمين، ولكنها كانت تعيش في الوساوس والقلق، فخرج في تلك الليلة ثلاثة من رجالها هم: أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، في محاولة لاستطلاع أخبار المدينة، ومعرفة ما إذا كان محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، قد خرج عليهم بجموع المسلمين.

وقد تكون نية بديلٍ مختلفةً عن غاية صاحبيه في ذلك الخروج، فهو يتمنى الزحف وينتظره، بينما هما يخافانه ويرجوان ألاَّ يكون، إلاَّ أنَّ ثلاثتهم اتفقوا على شيء واحد وهو معرفة الأخبار، فكانوا يتحدثون فيما بينهم، عندما اقترب منهم العباس، وأنصت لهم، فعرف من يكونون، فإذا به يسمع أبا سفيان يقول: «ما رأيت كالليلة نيراناً قطُّ ولا عسكراً!». فيجيب بُدَيْلٌ: «هذه ربما خزاعة قد حَمَشَتْها[1] الحرب». فيقول أبو سفيان: «خزاعة أذل وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها».

وإذ ذاك تقدم منهم العباس منادياً على أبي سفيان بكنيته: «يا أبا حنظلة»!..

وعرفَهُ أبو سفيان، فردَّ عليه متسائلاً: أبا الفضل؟.

قال: نعم، وها قد جئتكم..

وما إن وصل العباس حتى بادره أبو سفيان يسأل بدهشة:

ـ ما لك، فداك أبي وأمي؟.

---

1 حمشتها: حزمتها وأحرقتها.

قال: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في الناس، واصباحَ قريشٍ والله!

قال: فما الحيلة؟.

قال: والله لئن ظفر بك ليضربَنَّ عنقك، فاركب في عَجُز هذه البغلة حتى آتيَ بك رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأستأمنه لك.

وأردف العباسُ أبا سفيان خلفه ثم طلب إلى صاحبَيه أن يعودا إلى مكة. وجاءَ به إلى معسكر المسلمين، وكان كلما مرَّ على نارٍ من نيرانهم يقولون: من هذا؟ ولكن عندما يرون بغلة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، والعباسُ على ظهرها، يستدركون قائلين: «عم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على بغلته».. وما زال العباسُ على الدابة، وأبو سفيان خلفه، حتى مرَّ أمام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فقال عمر: «من هذا؟».. ثم تقدَّم يعترض الطريق أمامَهُ، فلمَّا عرفه حيَّاه، وسأله عمَّن يصحب معه، فلما وجده أبا سفيان صرخ في وجهه: «أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد» ثم خرج يريد أن يأتيَ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قبلهما، فأسرع العباسُ على البغلة فسبقه، ولكن ما إن أدخَلَ أبا سفيان على قبة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى كان عمر في أثره، فدخل يبدي الغضب ويقول: «يا رسولَ الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني أضرب عنقه»..

وتدخل العباس، فقال: «يا رسولَ الله، إني أجرته».

ثم جلس العباس إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يأخذ برأسه وهو يقول في نفسه: «والله لا يُناجيه الليلة دوني رجل»..

ولم يسكت عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، بل أخذ يلحُّ في قتل أبي سفيان حتى يريح المسلمين من شرّه، والعباس بن عبدالمطلب يأبى عليه ذلك، وما زالا يتجادلان في شأن الرجل، حتى قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم:

«اذهب به يا عباس إلى خيمتك، فإذا أصبحنا فأتني به».

وبات أبو سفيان تلك الليلة في خيمة العباس. فلما نودي بالفجر هبَّ الناس من رقادهم يلبّون نداء الصلاة، ففزع أبو سفيان وقال للعباس: ما يريدون؟ قال له: سمعوا النداء بالصلاة فهبّوا يلبون؛ فلما أبصرهم أبو سفيان يركضون ويسجدون وراء النبي، صلى الله

عليه وآله وسلم، قال: يا عباس، ما يأمرهم بشيء إلاَّ فعلوه.. فقال له العباس: لو نهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه. وطلع الصباح وأتى العباسُ إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له الرسول الأعظم: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأنِ[1] لك أن تعلم أنه لا إله إلاَّ الله».

قال أبو سفيان: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد علمت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئاً بعدُ».

قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يَأْنِ لك أن تعلم أني رسولُ الله؟».

قال أبو سفيان: «أما هذه، فإنَّ في النفس منها شيئاً».

والتفت إليه العباسُ مُغضِباً، وقال له: «ويحك يا أبا سفيان! أسلمْ واشهدْ أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك».

وتفكَّرَ أبو سفيان بن حرب قليلاً، وهو مطرق إلى الأرض، ثم رفع رأسه ونظرَ إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يشهد شهادة الحق: «لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله».

وسُرَّ العباس بإسلام أبي سفيان، فقال للنبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم: «يا رسولَ الله، إن أبا سفيان هذا رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً».

وهنا يبرز العباس رجل حكمة وبصيرة. فقد رأى بأنه لو أتيحت لأبي سفيان، وهو زعيم قريش، وسيّد مكة، ميزة عن غيره، فإنها قد تكون إحدى السبل لدخول المسلمين مكة بلا مقاومة أو قتال، إذ عندما ترى قريش بأن رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كان حليماً مع أبي سفيان فلم يقتله، وكان كريماً معه فمنحه مكانة معينة، فإنها سوف تطمئن على مصيرها، وتستقبل النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والمسلمين لا كأعداء فاتحين، بل هُداةً، مسالمين، آمنين... ولعلَّ نية العباس كانت تلتقي مع تصميم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جاء لفتح مكة بدون إهراق نقطة دم أو قتل أحد إلاَّ بالحق. وإنه للرسولُ الحكيمُ، الذي لا تفوته لفتةٌ، فأدرك ما يرمي إليه عمه العباس من طلبه «أن يجعل لأبي سفيان شيئاً»، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم، من دخل منزل أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابَهُ عليه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».. فلمعت عينا العباس

1 يَأنِ: يَحِنْ.

بالفرح، وقام يستأذن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يصحب أبا سفيان إلى آخر المعسكر، فقال له الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم[1] الجبل حتى تمرَّ به جنود الله فيراها»، وكانت غاية النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من هذا الحبس أن يرى زعيم قريش ما عند المسلمين من قوة، فيسارع إلى بني قومه فيحدثهم بما رأى بالعين المجرَّدة، وبالبيّنة الدالة، لكي يعلموا أنه لا جدوى لهم من المقاومة إن ابتَغَوْا مقاومة.

واتخذ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كل أُهبة لدخول مكة، ثم أَمَرَ بالمسير، فأخذت القبائل تمرُّ براياتها أمام العباس وأبي سفيان الذي حبسه في مضيق الوادي كما أمره رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم. فكانت كلما مرّت قبيلة، سأل أبو سفيان:

ـ من هذه؟.

فيقول العباس:

ـ هذه سُلَيْم..

فيقول أبو سفيان:

ـ ما لي ولسُلَيْم.. ثم يسأل: ومن هذه؟.

ـ هذه مزينة!.

ـ ما لي ولمزينة..

ـ ومن هذه؟.

هذه قبيلة بني غفار.. و... و...

وما زالت القبائل والكتائب تمرُّ، حتى مرَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في كتيبته الخضراء، وقد لبس أصحابها الدروع والحديد فلا يُرى منهم إلاَّ الحِدَقُ، فبُهر أبو سفيان، وسأل:

«سبحان الله! ومن هؤلاء يا عباس؟»..

قال: «هذا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في المهاجرين والأنصار».

قال أبو سفيان: «ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك الغداةَ عظيماً».

---

1 خطم الجبل: المكان الذي يضيق به الطريق.

قال له العباس بغضب: «يا أبا سفيان! إنها النبوَّة».

قال: «فنعم إذن»..

قال العباس: «النجاءَ إلى قومك».. هيَّا يا أبا سفيان إليهم بسرعة منجية وإلاَّ فهم هالكون..

واندفع أبو سفيان إلى مكة يصرخ بأعلى صوته: «يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»..

وهُرِعت زوجه هند بنت عتبة، أم معاوية بن أبي سفيان، تأخذه من لحيته وشاربيه وهي تصيح: «يا آلَ غالب! اقتلوا هذا الشيخ الأحمق، ولا تدعوهم، بل قاتلوهم دفاعاً عن أنفسكم وبلدكم. قُبِّح هذا الرجل من طليعة قوم»[1].

وصاح فيها أبو سفيان: «ويلك، أسلمي وادخلي بيتك»، ثم عادَ ينادي في الناس: «ويحكم لا تفرقكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»..

قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟.

قال: «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

وتشاور الناس فيما بينهم، فأجمعوا على أن أبا سفيان صادق اللهجة هذه المرة، وأنه لا يريد بهم إلاَّ خيراً، فانصرفوا يتفرقون، منهم من دخل داره، ومنهم من ذهب إلى المسجد ليحتميَ فيه..

وتناهت صرخة أبي سفيان إلى مسامع أهل مكة جميعاً، فسمع أبو قُحافة والد أبي بكر الصديق، وكان لا يزال على الشرك، وقد بلغ من الكِبر عِتيّاً، وطلب من حفيدةٍ له أن تأخذ بيده ـ لأنه يومها كان مكفوف البصر ـ وأن تصعد به على جبل «أبي قبيس». فلما صارَ الشيخ هناك، جلس وبجانبه صغيرته واقفة ترقب البعيد البعيد، فسألها: «ماذا ترين؟».

قالت: «أرى سواداً».

قال: «تلك الخيل».

قالت: «لقد انتشر هذا السواد».

فقال: «تلك الخيل قد دُفِعَت إلى مكة، فأسرعي بي إلى بيتي».

---

1 طليعة القوم: حارسهم أو سيدهم.

وفي هذه الأثناء، كان جيش المسلمين قد انتهى إلى «ذي طُوى»، وأشرف على أبواب مكة، مزوّداً بأوامر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، التي تمنع القتال، إلاَّ إذا فرض عليهم هذا القتال فرضاً ولم يجدوا إلى ردّه من سبيل، أو وجدوا في دخولهم أحداً من جماعة باغية قد سمّاهم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كُلاًّ باسمه، فهؤلاء يقتلونهم ولو وجدوهم متعلقين بأستار الكعبة.

وفرَّق الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، الجيش على مداخل مكة بشكل يمكنه معه أن يُطْبِق عليها من جميع النواحي، فجعل الزبيرَ بن العوام على الجناح الأيسر وأمره الدخول من ناحية الشمال، وجعل خالد بن الوليد على الميمنة وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وجعل سعد بن عبادة على فرقة الأنصار وأمره أن يدخل من جانبها الغربي، ثم قدّم بين يديه أبا عبيدة بن الجراح ليدخل هو، صلى الله عليه وآله وسلم، من أعلى مكة، في ناحية «أذاخر»..

وتقدمت فرق الجيش الإسلامي كل فرقة بطريقها، فلما بلغ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، «الأبطح» أمر أبا عبيدة بالتوقف، ثم طلب أن تُضربَ له قبته، فنزل فيها مع أهله، ولما قيل له: «يا رسول الله، ألا تدخل دارك»؟ قال: «وهل أبقى لنا عقيل من دارٍ؟»..

ومضت فرق الجيش تدخل مكة بدون أدنى مقاومة، وقد أخذت الحمية سعد بن عبادة وهو يمرُّ أمام أبي سفيان بن حرب، فقال: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستَحَلُّ الحُرُمة».. وتردَّدَ قولُهُ هذا بين المسلمين مستهجنين، فنقلوه إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّ فيه ما يخالف أوامره الصريحة بعدم القتال، فجاءه نفرٌ من الصحابة المقربين، كان فيهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنهم) يقولون: «يا رسولَ الله، ما نأمن أن يكون لسعدٍ في قريش صولة»!. فأمَرَ الرسول الحكيمُ ابنَ عمه، عليَّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن يأتي سعداً فيأخذ منه الراية ويعطيها لولده قيس وأن يقول أمام الفرقة: «اليوم يوم المرحمة». ولقد كانت غاية النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ألاَّ يكون في نفس سعدٍ شيءٌ لانتزاع الراية منه، فإن أعطيت لابنه فتكون كأنها أخذت منه إليه، ولأنه أراد، صلى الله عليه وآله وسلم، ألاَّ يحمل راية الأنصار إلاَّ أنصاري حتى يكون لهم مقام الفتح برجالهم وقادتهم.

وظلت فرق جيش المسلمين في تقدمها وسط الأمان والهدوء، ما عدا فرقة خالد بن الوليد، إذ اعترضتها جماعة من قريش على رأسها صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وهؤلاء كانوا من أشدّ الناس عداوة للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والإسلام، وهم الذين اشتركوا في تحريض بني بكر ليغيروا على خزاعة، بل كانوا معهم في الإغارة، وإنهم لم يكونوا أبداً راغبين في الإسلام، ولا في دخول محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، مكة، بل ظلوا مكابرين وأبَوا إلاَّ أن يُعِدّوا للقتال عدّته، حتى إذا مرت فرقة خالد بن الوليد، انبروا يمطرونها بالنبال، إلاَّ أن الحظ لم يسعفهم إذ اتخذ خالد التدابير التي تحمي فرقته، ثم أمرها بالانقضاض على هؤلاء المعتدين وإنزال أشدّ العقاب بهم، وإنْ هي إلاَّ فترة وجيزة، حتى قتل منهم ما يزيد على اثني عشر رجلاً، فلما رأى صفوان وعكرمة وسهيل، أن الدائرة قد دارت عليهم وعلى جماعتهم لاذوا بالفرار تاركين أصحابهم للقتل، ولكنَّ هؤلاء لم يلبثوا إلاَّ قليلاً وتفرقوا مولّين الأدبار، وبتفريقهم وهروبهم هدأ الوضع تماماً، ولم تبدر من غيرهم أدنى إشارة بالمقاومة، إذ أسلست قريش كلها القياد وهدأت راضية بالنجاة والأمان..

وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يرقب من أعلى مكة مجرى الأمور، فلما بصرَ بتلماع السيوف في أسفل مكة غضب مُنكراً أيَّ قتال، فأرسل من يستطلع له الخبر، حتى إذا علم باستعداء تلك الجماعة من قريش على فرقة خالد، قال: «قضاء الله خير».

نعم كانت الخيرة فيما اختارَه الله سبحانه وتعالى، كما ذكر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد اختارَ الله تعالى لمكة أن تكون بلداً آمناً فيدخلها يوم الفتح ويصون فيها المقدسات والحرمات، مذهباً عنها كلَّ غلٍّ وحقد، مزيلاً كل أسباب العداوة والبغضاء، فلا انتقامَ ولا قتلَ إلاَّ لمن بغى وأفسَدَ فهؤلاء كتب عليهم القصاص ليكونوا عبرة لغيرهم ولمن بَعُدَ عن الحق ورام باطلاً. ومن أجل ذلك كان أمرُهُ أيضاً، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن تقتل جماعة باغية، قام أفرادها بأعمال إجرامية تستوجب إهدار دمهم، وإنزال القصاص بهم، وإن طالت المدة بين ارتكابهم لتلك الجرائم وبين اليوم الذي أمكن فيه الله تعالى لرسوله أن يطالهم وينالَ منهم.

ولعلَّ التذكير السريع بأعمال هؤلاء الأشخاص يبين مدى فداحة ما ارتكبوه، فأحدهم عبدالله بن أبي سَرْح، كان قد دخل في الإسلام ثم ارتدَّ مشركاً. وقد لجأ يوم الفتح إلى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وكان أخاه في الرضاعة، فغيّبه حتى هدأ الناس، ثم أتى به رسولَ

الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يستأمنه، فأعرض عنه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يجب بشيء. وما زال عثمان يلحُّ في طلب الأمان له حتى قال النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم». وقد رغبَ (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) أن يقوم إليه أحد الصحابة فيقتله إذ قال لهم: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا، حيث رآني كففتُ، فيقتله؟».
قالوا: «ما يُدرينا، يا رسول الله ما في نفسك، هلاَّ أَوْمَأْتَ إلينا بعينك».
قال: «إنه لا ينبغي أن يكون لنبيٍ خائنة الأعين، وما كان لنبيٍ أن يقتل بالإشارة».
ومنهم عبدالله بن خطل، وكان اسمه «عبدالعِزّى» فلمَّا أسلم سمّاه رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، «عبدالله». وبعثه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، مصدّقاً، أي يجمع الصدقات، وكان معه مولى له مسلمٌ، فلمَّا نزلا منزلاً طلب إلى مولاه أن يذبحَ ويصنع له طعاماً، أي يُعدّ له طعاماً، وعندما أفاق ولم يجده قد أعدَّ له ما طلب، عدا عليه وقتله عمداً ثم ارتدَّ إلى قريش مشركاً، وأقام بعد ذلك في مكة يهجو النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بشعره. وكانت له قينتان تغنيانه بهجاء النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت إحداهما تدعى فرتنا والأخرى قريبة. فلما كان يوم الفتح قتله سعي بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي. أما جاريتاه فقتلت منهما قريبة، واستؤمن رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لفرتنا فأمّنها.
ومن تلك الجماعة عِكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، فقد كانا من أشدّ الناس عداوة للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وللمسلمين. فأما عكرمة، فقد أسلمت زوجه أم حكيم، وهي ابنة عمه الحارث بن هشام. فلما كان الفتح هرب عكرمة وصفوان نحو ساحل البحر يريدان الذهاب إلى اليمن، إلاَّ أنهما أعيدا والسفينة على أهبة إقلاعها، إذ لحقت بعكرمة زوجه المؤمنة بعدما استأمنت له النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كما لحق بصفوان ابن عمه عمير بن وهب الجُمَحي بعد أن أخذ له الأمانَ من النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أُتيَ بهما رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأسلم عكرمة، وطلب صفوان من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يمهله بالخيار شهرين فقال له: «أنت بالخيار أربعة أشهر».
ومنهم أيضاً الحويرث بن نُقيذ، وقد كان يُعظّم القولَ في النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ويكثر من أذاه في مكة. قتله علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). وقتل من هذه الجماعة

أيضاً مِقْيَس بن صبابة. فقد كان له أخ يسمى هشاماً، ظن رجل من الأنصار، في غزوة «ذي قرد»، أنه من العدو فقتله خطأ، فأعطاه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ديتَهُ، ورغم ذلك عاد مِقْيس وقتل الأنصاري بأخيه ثم رجع إلى قريش مرتداً إلى الكفر. فكان جزاؤه القتل على يد رجل من بني قومه يدعى «نميلة بن عبدالله الليثي».

ومن هؤلاء الذين أَمَرَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بقتلهم كعب بن زهير بن أبي سلمى، فقد كان مثل أبيه شاعراً ولكنه سخَّر شعره لهجاء النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والنيل من أعراض المسلمين، وكان له أخ مسلم يدعى بَجيراً، فكان يؤذيه لإسلامه. فلما كان يوم الفتح هرب كعب من مكة، وما زال متخفياً حتى عاد الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى المدينة فجاءه مسلماً، تائباً. وقد أنشده قصيدته المعروفة بمطلعها: «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول».

وفي هذه القصيدة مَدَحَ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ومن جملة ما قال فيه:

نُبّئت أن رسول الله أوعدني

والعفو عند رسول الله مأمولُ

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ

قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنِّي بأقوال الوُشاة ولم

أُذنب ولو كثرت فيَّ الأقاويل

إن الرسول لَنُورٌ يُستضاء به

مهنَّدٌ من سيوفِ الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم

ببطن مكة لما أَسلموا زولوا

وأحدهم أيضاً هبّار بن الأسود، كان ـ من شدة أذاه للمسلمين ـ أنِ اعترضَ مع الحويرث بن نقيذ راحلة زينب بنت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يوم هجرتها إلى المدينة، فنخس الراحلة حتى أجفلت وأوقعت ابنة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أرضاً، مما

آذاها كثيراً فأسقطت جنينها، وما زالت منذ يومها مريضة حتى توفاها الله تعالى. وقد جاءَ هبّار إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نادماً، تائباً، فعفا عنه.

وكان الحارث بن هشام ـ أخو أبو جهل ـ وزهير بن أمية، من أشد الناس في كفرهما وفي الاعتداء على المسلمين، وقد هربا يوم الفتح واختبآ في بيت أم هانىء، بنت أبي طالب، فجاءت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، واستأمنتهما ثم أتت بهما بعدها إليه فأسلما تائبين.

وآخر رجال هذه الجماعة هو وحشي بن حرب، قاتل حمزة بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) غدراً يوم أُحد. وقد هرب يوم فتح مكة إلى الطائف، حتى كان دخول النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إليها، فجاءه مسلماً، فقال له النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تُرِيَنِّي وجهك». فخرج من حضرة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وهام على وجهه في البلاد حتى توفاه الله سبحانه في حمص.

ومن النساء اللواتي أمر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بقتلهن كانت مولاةً لعمرو بن هشام بن عبدالمطلب تدعى سارة، فقد كانت تغني أيضاً بهجاء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد استؤمِن لها فأمَّنها وعفا عنها (عليه وعلى آله الصلاة والسلام). ومن هذه النسوة كانت هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان بن حرب. وقد اشتهرت بأنها أكثر النساء عداوة للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وللمسلمين، وكان من فعالها المعروفة أن مثّلت بسيد الشهداء حمزة ولاكَتْ كَبِده. وقد حاولت يوم الفتح أن تهيج قريشاً وتدفعها للقتال ولكنها خسئت ولم تفلح، فارتدت إلى داخل بيتها تقعد ملومة مكظومة. وقد استؤمنت من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأمّنها.

فثلاثة رجال وامرأة لاقوا القتل فقط ممن أهدر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يوم الفتح دمهم، وفي هذا أكبر دليل على ما يحمل الإسلام من تعاليم سامية في التسامح والعفو عند المقدرة.

على أنه لم يكن لمقتل هؤلاء الأفراد، ولا لمقاتلة تلك الجماعة من قريش في أسفل مكة، أيُّ أثر على مسيرة الفتح المبارك، فهذه جيوش المسلمين تدخل مكة وهي تحمل معها الأمن والسلم، وتنشر في ربوعها الهدوء والطمأنينة..

لقد جاؤوها مسلمين، يفتحون أحضانهم لمن آذوهم وهجَّروهم، ولمن تحزَّبوا عليهم وقاتلوهم، لا يرغبون في ثأر ولا يريدون انتقاماً، بل ليناً في المعاملة ورأفة وتسامحاً.. وهذه هي العلاقات التي أرادها النبيُّ الكريم بين جيشه الفاتح وبين أهل مكة. ولقد تشدَّدَ في هذه العلاقة وأرادَها، لأنها تنبع من وجدانه الإنساني، وتفيض من نبوَّته السمحاء. وإنَّ في تصرفه، ومسلكه، ما يفرض على جيشه الاقتداء به. فها هو الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، يدخل مكة، لا كما يدخل الفاتحون من ذوي الكبرياء والجبروت، بل بخشوع وتواضع، مكبّاً على راحلته، حتى ليكاد رأسه الشريف يلمس قَتَبَ الراحلة، وفي ذلك الخشوع والتواضع آيات الشكر لله تعالى على ما أنعم عليه من هذا الفتح المبين، وما أنزل به من هذا الفضل الكبير.

لقد رأى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في دخول جيش المسلمين مكة بلا كبيرِ قتالٍ، نعمةً عظيمةً أفاضها الله سبحانه عليه، فكانت هذه النعمة دافِعَة للتواضع، والقيام بحقها وشكرها، لأنَّ الشكر لكل نعمة لا يكون إلاَّ بنعمةٍ من قبيلها أو توازيها. فشكر القوة يجب أن يكون بالرفق والعدل، وشكر الرفعة يجب أن يكون بالتواضع والتسامح، وهذا ما برز به محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، عظيماً إلى أبعد حدود العظمة، فقد أوتي القوة والرفعة في فتح مكة، فكان تواضعه، وكان عفوه، أسمى من القوة والرفعة، فشرّفها جميعها وشُرِّفت به، لأنه لا أحد في العالمين غيره اجتمعت له التربية الربانية إلى التربية الذاتية لتجعله أعظم إنسان في الخلائق، فلا يبدر منه إلاَّ ذاك الذي شهده أهل مكة وجعلهم يشهدون له بأنه النبيُّ الحليم، والرسول الكريم.

لقد عاد محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى البلد الذي عذَّبه وآذاه وهجَّره، عزيزاً منتصراً، ولكنَّ هذا كله قد ذهب إلى ما لا رجعة، وها هي الجبال والأغوار التي تلقّى فيها الوحيَ تستقبله بين أحضانها فخورةً والشعابُ التي أوى إليها وقت الظلم تبتسم مُعْتزَّةً، وها هو البلد الحرام يفتح له الأبواب مشرعةً، ومسجده في البيت العتيق يدعوه لتثبيت دعائم الإيمان وتحطيم أصنام الشِّرْك وأوثان الكفر، فنزل (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) من أعلى مكة، على ظهر ناقته القصواء، وأمامه لواؤه الأبيض ورايته السوداء «العُقاب» ليفتح مكة ويدخلها والمسلمون آمنين، مطمئنين، فسارَ به الركب، وهو يقرأ «سورة الفتح» ليكون، كما أرسله الله تعالى شاهداً ومبشراً ونذيراً للعالمين..

نعم نزل الرسول العظيم لفتح مكة، شكوراً بقراءة «سورة الفتح» وانتهى إلى الكعبة الشريفة، يحفُّ به الناسُ من جميع الجوانب، فاستلم الحجر الأسود وكبَّر، فكبَّر المسلمون وراءه حتى ارتجت أركان مكة لهذا التكبير، ثم راح يطوف على راحلته، وهو في كل طوافٍ يستلم الحجر الأسود، ويعود بعده إلى طواف جديد، حتى أكمل سبعة أشواط. ولقد كان للعرب حول مكة أصنام كثيرة، بلغت ستين وثلاثمائة صنم، راح النبيّ أثناء طوافه يطعنها بمحجن في يده ويقول:

{قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[1].

{وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً}[2].

نعم هذا هو الحق من رب العالمين، وما يبدىءُ الباطلُ وما يُعيد؟!..

فتلك الأصنام والأوثان التي عبدها العربُ، ومثلهم عَبَدْتها أمم وشعوب في الأرض كثيرة، ها هي تهوي بضربة محجنٍ[3] من يد رسولٍ كريم، ونَبِيٍّ عزيز، بُعِث ليمحوها من حياة الناس، فلا يكون بعدها جاهلية ولا كفر أو شِرْك، بل دينٌ لله الواحد الأحد، يُسلم فيه الإنسان لربه، ويسيرُ به على صراط مستقيم حتى تكون له السعادة في الحياة الدنيا، ويفوز بالنعيم في جنات خلدٍ عرضها السموات والأرض في الحياة الآخرة..

وهذا الحق هو الذي جاء محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، يفتح به ولأجله مكة، فكان له هذا الفتح مؤيداً بنصر عزيز من الله سبحانه، فينزل بعد الطواف حول البيت الحرام عن راحلته، ويقبل إلى الكعبة الشريفة يريد دخولها، فيتقدّم منه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وقد جاءه بالمفتاح يضعه بين يديه، ولكنَّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يدعو إليه حاجب الكعبة، عثمان بن طلحة، ويطلب إليه أن يفتح هو الباب، فيمتثل عثمان ويدخل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ومعه أسامة بن زيد ومؤذنه بلال..

وينظر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى رحاب الكعبة الشريفة، فيرى الأصنام والأوثان، ما تزال في جوفها، فيأمر من فوره بإخراجها وتحطيمها. ويتقدم هو، صلى الله عليه وآله وسلم، من تمثال حَمامةٍ من عيدانٍ فيكسرها بيديهِ ويلقيها إلى الأرض، ثم ينظر إلى صورة إبراهيم وإسماعيل (عليه السلام) وقد نقشت على الجدار تظهرهما يستقسمان

---

1 سورة سبأ، الآية: 49.
2 سورة الإسراء، الآية: 81.
3 محجن: عصا منعطفة الرأس.

بالأزلام، فيقف أمامها مليّاً ويقول: «قاتلهم الله، جعلوا النبيِّين يستقسمون بالأزلام! والله ما استقسما بها أبداً. ما شأن إبراهيم وإسماعيل والأزلام! ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين». فأمر بالصورة، وبصور الملائكة على شكل إناثٍ ذوات جمالٍ أن تطمس كلها وأن تمحى. وكان هُبلُ كبير آلهة قريش ما زال في داخل الكعبة، فجرى تحطيمه. وما زال الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يأمر بإخراج الأصنام وتحطيمها حتى طهّر البيت الحرام منها، وأتمَّ بذلك وفي أول يوم لفتح مكة القضاء على الوثنية في البيت الحرام، ثم أغلق باب الكعبة على نفسه، واستقبل الجدار قبالة هذا الباب، حتى إذا كان عنه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلَّى.

وما كاد رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يفرغ من صلاته هذه، حتى عادَ يدور في رحاب البيت، مكبّراً ثم يفتح باب الكعبة الشريفة ويقف مخاطباً الناس، فقال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعَى فهو تحت قدميَّ هاتين إلاَّ سدانة البيت وسقاية الحاجّ. أَلا وقتل الخطأ مثل العمد، السوط والعصا فيهما، الدية مُغلّظة فيها أربعون خلفة[1] في بطونها أولادها.

«يا معشر قريش! إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب. يقول الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[2].

«يا معشر قريش!! ويا أهل مكة! ما تظنون أني فاعل بكم؟».

قالوا: «خيراً.. أخ كريم وابن أخ كريم».

قال النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: «أقول كما قال أخي يوسف: لا تَثريبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغفرُ الله لكمُ وهوَ أَرْحَمُ الراحمينَ. إذْهَبُوا فأنتم الطُّلقاء»..

هذه هي العظمة وروعة التسامح، فقد أمكن الله تعالى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من رقاب قريش عنوةً، فلم يبادلهم الأذى والعذاب والعداوة، وكلَّ ما أرادوه به من شرٍّ بمثله، بل أعتقهم منها جميعها، وأحلَّهم من كل الأخطاء وحرَّرهم من جميع الجرائم، التي ارتكبوها

---

1 خلفة: ناقة حامل.

2 سورة الحجرات، الآية: 13.

بحقه وبحق أصحابه وأتباع دعوته، ولذا سُمُّوا الطُّلَقَاء، فكان حقاً أوَّل فاتح في التاريخ ضرب مثلاً أعلى في هذا العفو، وما أجمل العفو عند المقدرة!.

لقد خطب رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في أهل مكة، وأعطاهم الأمان، مضمّناً خطبته بعض الأحكام الشرعية مثل القتل الخطأ، وماهية الديّة، ومركّزاً فيها على العلاقة الطيبة، وهي التعارف بين الشعوب والناس، إذ في هذا التعارف نفع للإنسانية وخير للبرية، ولكن مهما عمل الإنسان، وأقام من علاقات، فإنَّ أعلى مرتبة يصل إليها وينال المكرمة على أساسها هي التقوى.

وبعد هذه الخطبة دعا إليه عثمان بن طلحة، فأعطاه مفتاح الكعبة وقال: «خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة».

ويروي عثمان بن طلحة بنفسه، تسليم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، له مفتاح الكعبة، وهو يسترجع ذكرى أيامٍ مضت كان له فيها من محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، مواقف معينة، فيقول: «كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يومي الإثنين والخميس، فأقبل الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يوماً قبل هجرته إلى المدينة، يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فاعترضْتُهُ مغلظاً في القول، حتى نلت منه، فحَلمَ عني وقال: «يا عثمان! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت». ورددتُ متطاولاً عليه في الأذى فقلت له: «لقد هلكتْ قريشٌ يومئذٍ وذلَّتْ». فقال لي: «بل عمرت وعزَّت يومئذٍ». ووقعت كلماته في أذنيَّ موقعاً أحسست بصدقها. ثم تتالت الأيام حتى كان يوم الفتح، فدعاني نبيُّ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إليه وقال لي: «يا عثمان! ائتني بالمفتاح».. فامتثلت مسرعاً أناوله مفتاح الكعبة وأنا أتذكر ذلك اليوم الذي اعترضته فيه، وقال لي ما قال، فلم أجرؤ على النظر إليه. وبعد أن أخذ المفتاح، وعادَ فدفعه إليَّ قال: «خذوها خالدة تالدة. يا عثمان! إنَّ الله تعالى استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف». فقلت: نعم يا رسولَ الله. وانصرفت من أمامه، فاستوقفني وقال: «ألم يكن الذي قلت لك يا عثمان، سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت». فقلت: بلى يا رسولَ الله، وأشهد أنك رسولُ الله صلَّى الله تعالى عليك وسلّم».

هذا ما رواه عثمان بن طلحة عن مأثرةٍ من مآثر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذه الرواية ما يدلُّ الناسَ على صدق رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يأتيه الوحي من السماء، وما يبيّن تسامي النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، عن سلوك البشر، فلا يحفل بموقف عدائي، كموقف عثمان بن طلحة، بل يرتفع إلى ذرى الإنسانية التي تزخر بالتسامح والمحبة والخير.. وليس أدلَّ على هذا التسامي لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ معاملته، ليس فقط لعثمان، بل ولأهل مكة جميعاً، وما منحهم من عفو عام، وعفو خاص حتى لبعض الذين أهدرَ دمهم وطلبَ قتلهم.

وبعد أن أعطى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة، دفع السِقاية إلى عمه العباس بن عبدالمطلب، وكانت من قبلُ لأبيه، وقد قام بها العباس خير قيام، ثم كانت لابنه عبدالله من بعده. وتلك السقاية كانت تقوم على ملء أحواض من الجلد بالماء العذب فيشرب منها الحجيج، أو يطرح فيها تمرٌ وزبيب في بعض الأحيان، فيأكل الناس.

وكان وقت صلاة الظهر قد حان، فصعد بلال فوق ظهر الكعبة مؤذناً للصلاة. وتجاوبت أرجاء مكة لنداء الإيمان حتى يبقى هذا النداء خالداً على الأزل بأن: لا إله إلاَّ الله، وبأن محمداً رسول الله. وهو النداء الذي يهْدي المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها إلى دعوة الفلاح والخير، ويذكرهم بأن الله سبحانه وتعالى هو وملائكته يصلُّون على النبي، فأولى بكم أيها المؤمنون أن تصلّوا عليه وتسلّموا تسليماً.

وصلَّى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بالمؤمنين، ثم نادى مناديه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلاَّ كسره». وبعد هذه المناداة لإزالة كل معالم الشِرْك والكفر في مكة، بعث النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، سراياه لتحطيم الأصنام في كل ناحية وجدت فيها حول مكة، وقد كان العرب قد اتخذوا لهم أصناماً كثيرة، وجعلوا لها بيوتاً، يعظمونها فيها، ويهدون إليها، ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة، فذهبت تلك السرايا تكسّر الأصنام وتمحو كلَّ أثر لها حتى يستقر الإسلام ديناً لله وحده في جزيرة العرب.

وأتى رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد ذلك الصفا يدعو الله سبحانه، على ما أنعم عليه وجزاه به من فتح مبين. وكان الأنصارُ يرون كل ما يجري، فلمَّا انصرف النبي،

صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الدعاء على الصفا، راحوا يقولون فيما بينهم: «أترون أنَّ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إذ فتح الله أرضه وبلده يقيم فيها؟».

لم يكن تهامسُ الأنصار فيما بينهم إلاَّ حباً برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ورغبةً أكيدة في ألاَّ يتخلى عنهم، حتى تظل لهم المكرمات بجواره، والاعتزاز بالإحاطة به. وقد عرف رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد إتمامه الدعاء مخافتهم تلك، فقال لهم: «معاذَ الله المَحْيا محْياكم والممات مماتكم».. فسلام الله عليك يا رسول الله ما أعظمك وما أوفاك..

فأيُّ جانب من جوانب حياة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، لا يحفل بالعظمة.. أوَليس الوفاء هو أحد عناصر العظمة في حياة الإنسان؟ وهل أعظم من وفاء محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، عندما يؤثر البقاء في المدينة، بين أولئك المؤمنين الذين ناصروه، رغم ما يحمل هذا البقاء من تخلّ عن الموطن مكة، حيث موطن الآباء والأجداد، ومثوى الأهل والأحبة، وحيث نشأ وترعرع وتلقّى الوحي من السماء! هذا الوفاء وما فيه من التضحية بالمشاعر الشخصية، هو الوفاء المحمدي، فكان قراره، صلى الله عليه وآله وسلم، بأنه سيعيش بين الأنصار ما دام فيه عرقٌ ينبض بالحياة، حتى إذا توفاه الله سبحانه وتعالى ومات، طلب أن يدفنوه في أرضهم، لأن قوله كان صريحاً وواضحاً للأنصار: «المحيا محياكم والممات مماتكم».

وعادَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من الصفا، فجلس في المسجد، يأتيه الناسُ مبايعين على الإسلام، وداخلين في دين الله أفواجاً. ولقد استقبل، صلى الله عليه وآله وسلم، أولاً الرجال في تلك المبايعة، يُسْلِمون على يديه مهتدين. وكان أن تقدم أحد الرجال، فلمّا صار بين يديه أخذته الرعدة، فقال له النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: «هَوِّنْ عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد». وكان ممن بايعه في ذلك اليوم على الإسلام، معاوية بن أبي سفيان وأبو قحافة، عثمان بن عامر التيمي (والد أبي بكر)، فقد ذهب الصديق وجاء بأبيه، فأعلن أبو قحافة إسلامه يوم الفتح، بعد أن انقضت عشرون سنة على إسلام ابنه الصديق.

ولما فرغَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من مبايعة الرجال، بايع النساءَ، وكانت بيعته لهن أَنْ وضعَ إناء بين يديه، ولمَّا أخذ عليهن البيعة وأَعطينه إياها، غمس يده في الماء ثم

أخرجها، فغمست النساء أيديهن بعده. فإنْ دلت بيعة النساء على شيء فإنما تدلّ على أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لم يكن يصافح النساء ولا يَمسّنَّ امرأة إلاَّ إذا كانت حِلاً له أو ذات محرم منه، فإن ذلك محرَّم في شرع الإسلام.

وكان بين النسوة، وقد اجتمع عدد كثير منهنَّ، هند بنت عتبة (زوج أبي سفيان بن حرب، وأم معاوية) جاءت متنقبة، متنكرة، خائفة من النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لفعالها الشنيعة السالفة، فلمّا اجتمعن إليه قال لهنّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم:

«تبايعنني على ألاَّ تُشركن بالله شيئاً».

فقالت هند: «وإنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنُؤْتيكَهُ».

وتابع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من غير أن يردَّ عليها فقال: «ولا تَسْرقْنَ».

فقالت هند: «إنَّ أبا سفيان رجل شحيح يا رسول الله».

فعرفها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: «وإنك لهند؟».

قالت: «نعم! فاعفُ عما سلَفَ، عفا الله عنك».

وعاد يخاطب جميع النساء فقال: «ولا تَزْنيْنَ».

فعادت هند تقول: «أَوَ تَزْني الحُرَّة؟».

وتضاحك بعض مَنْ كان في المسجد وهم يرون أن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لم يبد اعتراضاً على المرأة.

وتابَعَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قوله للنسوة: «ولا تقتُلْنَ أولادكنَّ بوأْدٍ ولا إسقاط».

وقالت هند: «ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت أعلم».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تأتِين ببُهتانٍ تفترينَهُ بين أيديكن وأرجلكن».

قالت هند: «وإن إتيان البهتان لقبيح».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تَعْصينني في معروف».

فقالت هند: «ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف».

تلك كانت بيعة النساء، وهي بيعة هامة لأن الإسلام ساوى فيها بين الرجال والنساء. وما دامت البيعة من الأمور العامة المهمة، فإنه يكون قد فرض وجوب مشاركة المرأة للرجل في هذه الأمور. ومن هنا تتبدى أهمية بيعة النساء ولا سيما أيضاً فيما حفلت به من إقرار النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لمجموعة من القواعد العائلية والمجتمعية والإنسانية التي

تبرز المرأة عنصراً فاعلاً في المجتمع، يتوقف إلى حد بعيد، على سلوكها وتصرفها، صلاح هذا المجتمع أو فساده.

فالمرأة من خلال البيعة هذه، يجب أن تكون مؤمنة بالله، فلا تشرك به شيئاً، وأن تكون أمينة على المال والحقوق فلا تسرق، وأن تكون شريفة في عرضها فلا تزني، وتحفظ النسل السليم، ولا تقدم على قتل المولود، إنْ جنيناً وإنْ بعد الولادة، حفاظاً على قدسية الحياة، وصوناً لأبناء المجتمع من الهلاك، وأن تكون صادقة لا تقول إلاَّ الحق بعيدةً عن زور أو بهتان أو ادِّعاء باطل، ولا تعصي الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم ـ والحاكم عامة ـ في معروف.. وذلك كله بتنزيل الخالق العزيز في محكم كتابه الكريم:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1].

وإنَّ في بيعة النساء على هذا النحو ما يحفل بأمور الحياة كلها، مما يعطي للمرأة الدور الهام والكبير في المجتمع، ويبرزها ذلك العنصر الفاعل في بناء الإنسانية السامية.

وفي مبايعة الرجال والنساء على الإسلام، كان اطمئنان قريش على مصيرها قد اكتمل، فلم يعد عندها أدنى خوف من النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ولا قلق على حياتها، إذ رأت من عفوه ورحمته فوق ما كانت تتصور، ومن حسن صنيعه أبعد مما كانت تعتقد، فأقبلت على الإسلام، رجالاً ونساءً، قانعة راضية.

ولما كان الغدُ من يوم الفتح، عثرت خزاعة على رجل من هذيل، وهو مشرك، فقتلوه. فغضب النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقام في الناس خطيباً فقال:

«يا أيها الناس. إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لامرىءٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد[2] فيها شجراً.. ولم تُحْلَلْ لأحد كان قبلي، ولا تُحَلّ لأحد يكون بعدي، ولم تُحْلَلْ لي إلاَّ هذه الساعة غضباً على أهلها ثم رجعت كحُرمتها بالأمس، فليبلّغ الشاهدُ منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلَّها لرسوله ولم يُحللها لكم يا معشر خزاعة.

1 سورة الممتحنة، الآية: 12.
2 يعضد: يقطع.

ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع. لقد قتلتم قتيلاً لأَدِيَنَّه، فمن قتل بعد مقالي هذا فأهله بخير النظرين: إن شاؤوا فدمُ قاتله، وإن شاؤوا فَعقْلُه»[1].

وأقام النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في مكة يهدي الناس للإيمان، ويفقههم في الدين، مطبقاً الأحكام الشرعية بصورة تامة وكاملة لا هوادة فيها، ولا مراعاة ولا تهاون. فعندما أقدمت امرأة من قريش على السرقة، وهي مخزومية اسمها فاطمة، وثبتت عليها التهمة، كان لا بُدَّ من وجوب تطبيق الحكم الشرعي عليها بإنزال حد السرقة وهو القطع، والقطعُ جابرٌ للسرقة.

وقد فرضت هذه العقوبة لأن مفهوم السرقة في الإسلام هو أخذ المال خُفيةً عن مالكه أو نائبه على شرط أن يكون نصاباً عليه، وأن يخرج من حِرْزِ مثله، وأن لا تكون في هذا المال شبهة سواء أخذ المال ليلاً أو نهاراً، وسواءٌ دخل السارق إلى المكان بالخلع أو بغيره، مقنّعاً أو ظاهراً، مسلحاً أو أعزلَ. فكل أخذٍ للمال على وجه الْخُفية يعتبر سرقة، ويوجب إنزال العقوبة بالسارق، أي حد السرقة، لأن هذا الحد لله تعالى ولو كان فيه حق لآدمي، ولذلك لا يسقط بإسقاط صاحب الحق.

والآية على عقوبة السرقة صريحةٌ لقوله تعالى:

{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا}[2].

ولأن موجب القطع ثبتَ، فوجب من غير مطالبة، بدليل حادثة المخزومية، إذ قرَّر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وجوب إنزال عقوبة قطع يدها.

ولكنَّ قريشاً، كانت ما تزال حديثة عهد بالإسلام، أفزعها الأمرُ وصَعُبَ عليها كثيراً أن تقطع يدُ سيدة من نسائها، فجاء نفرٌ من أشرافها إلى أسامة بن زيد، يتوسّطون لديه حتى يستشفع بها عند رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لعلمهم بحبِّ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، له، وذهب أسامة يفاتح النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بالأمر فغضب الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له: «أتشفع في حدٍّ من حُدود الله؟».

واستدرك أسامة خطأه، فقال: «أستغفر الله يا رسولَ الله»!...

1 العقل هنا مقصود فيه عدم مطالبة أهل القتيل بدم القاتل، ولكن تدفع الدية لهم.
2 سورة المائدة، الآية: 38.

فلما كان العشي قام رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «ما بالُ أقوامٍ يشفعون في حدّ من حُدود الله، فإنما أهلكَ مَن كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، فوالذي نفسي بيده لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

هذا هو التطبيق الأمثل لمن أراد أن يقيم مجتمعاً صحيحاً تسوده العدالة والمساواة. وما هلاك الشعوب من جراء ما يستشري فيها من فوضى، وما ينزل بها من جور وفساد وظلم إلاَّ بالتباعد عن العدالة والمساواة اللتين يُقضى عليهما بتضييع حدود الله، أو بعدم الاهتداء إلى هذه الحدود وجعلها الأسس للبناء العام..

ولو ألقينا نظرة على واقع دول هذا العصر، لرأينا أنها جميعها، حتى أكثرها تقدماً ومدنية ـ كما تدّعي ـ قد تحكمت فيها نزعات الظلم والتفرقة والفوضى والتسيُّب إلى أبعد الحدود، لأن المخارج التي أوجدتها لمعالجة أمراض مجتمعاتها كافة كانت لا تتعدى نظريات وضعية تلاقي القبول والإيجاب بصور متفاوتة ولكن من غير الإجماع على جدواها بصورة مطلقة، بخلاف حدود الله عزَّ وجل التي لو طبقت لجعلت الناس جميعاً سواسية أمام القانون وفي تطبيق النظام بحيث ينالُ كل ذي حقٍّ حقه بلا منازع..

ولعلَّ الأحداث التي يشهدها العالم المعاصر تدلُّ على فشل الأنظمة السائدة فيه. لو أخذنا مثلاً جزئياً، حادثةَ انقطاع التيار الكهربائي في مدينة نيويورك في الولايات المتحدة الأميركية، وهي من كبريات مدن العالم وتبلغ أعلى المستويات في التنظيم وفي مظاهر التمدّن والتقدّم.. فتلك الحادثة، إن دلّت على شيء هام، فإنما تدلُّ على اللاأخلاقية الحادة التي ظهرت في الحرائق التي أشعلت في الأسواق، والسرقات التي حلَّت بالمتاجر، وقضت في بضع ساعات، على أموال تقدر بملايين الدولارات الأميركية، وكان ذلك بفعل المواطنين في المدينة أنفسهم، حتى قيل إن الشرطة ـ وهي المطلوب منها المحافظة على الأمن والنظام ـ عادت وشاركت في تلك الأعمال التخريبية..

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لحادثة معينة، وفي مدينة معينة، فما بالنا بما يقع في أقطار الأرض كلها من سرقات، يقدم عليها الأفراد، وتقوم بها العصابات المجرمة، التي اتخذت لنفسها منظمات للإرهاب والسطو، تارة على المصارف، وتارة على المتاحف والمعارض، وطوراً على البيوت الآمنة، أو على المحلات والمكاتب أو أي مكان آخر ترى

فيه غنيمة تسرقها أو كريمةً تسلبها من أصحابها... وقد بلغت هذه العصابات حدّاً من القوة، عجزت السلطات العامة، في أغلب بلدان العالم عن إيقافها عند حدودها، رغم كل الجهود التي تبذلها، والمخططات التي تضعها للتصدّي لها والقضاء عليها.

ولو أخذنا الأمر من جانب آخر، وفكرنا بما يدفعه العالم من نفقات باهظة على صناعة الأقفال والخزائن الحديدية، المختلفة الأشكال والأنواع، والمتقدمة في تقنيتها، وكل ذلك من أجل حفظ الأموال والوثائق والسندات من السرقة، لقدّرنا كم هي الأموال التي تهدر لمواجهة السرقة.. وكذلك الأمر بالنسبة لكميات الأجور والرواتب التي تدفع سنوياً، للحراس من قبل السلطات والشركات، والأفراد، لصيانة أموالهم وممتلكاتهم من الاعتداء عليها بالسرقة.. فقطعاً إنَّ ما ينفق في هذا السبيل يبلغ مئات الملايين من الدولارات سنوياً.. وهذه كلها هَدر للجهد والمال بسبب فشل الأساس المعتمد لمنع السرقة..

أما في الإسلام فإننا نجد الأساس السليم فيما شرَّع من حدِّ السرقة، وقد قضي على هذه الجريمة، في كل مرة طبق هذا التشريع في دنيا الناس، وما نشهده اليوم في المملكة العربية السعودية لَخيرُ دليل وأوضح مثال على منع الناس عن السرقة، إن لم يكن بالشكل المطلق والباتّ، فبأعلى نسبة في العالم بدون جدال..

هذا هو حدُّ السرقة ومدى أثره في حفظ المجتمع الإنساني في جانب واحدٍ من جوانبه الهامة.

* * *

حدود الله تعالى

في مكة المكرَّمة أتمّ الله سبحانه وتعالى حدوده. وقد طبَّقَ رسولُ الإسلام، محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، هذه الحدود، كما رأينا في تطبيق حد السرقة على المخزومية، رغم أنَّ قريشاً كانت ما تزال في بداية عهدها بالإسلام. وما هذا التطبيق، إلاَّ لأن حدود الله سبحانه، هي السياج الحق للدولة الإسلامية. فبإتمام هذه الحدود وإقامتها، تكون إرادة الله تعالى، قد حَصَّنت الدولة الإسلامية، بالحصن الفكري، وبالنهج العملي.. وهذه عين الرعاية من الله تعالى لهذه الدولة. فالله سبحانه وتعالى قد جعل رعايته التامة للدولة التي تطبق أحكامه السماوية، وأحكام الدين الذي ارتضاه للبشرية في آخر عهودها من النضج والوعي: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمِ».

ولكي تبقى هذه الرعاية الإلهية رضىً من الله سبحانه ورحمة، كان لا بد للإنسان من أن يحيط نفسه بالسياج الفكري، وأن يحمي ذاته بالنهج العملي، فإن لم يفعل فإنما يكون قد تعدّى على حدود الله، وخرج على السياج العام. ومن يتعدَّ على هذه الحدود فجزاؤه العقاب الشديد في الدنيا، يُفرض على شكل عقوبة مادية تنزل بالمعتدي حتى يعود إلى سواء السبيل، وفي الآخرة حسابُه على ربه عزَّ وعلا.. ومن أجل ذلك فإن هذا العقاب الشديد كان ينطوي على غايتين: فهو، في ذاته، زاجر قوي عن الحرمات (وفيها التَّعدي)، وهو في عقوبته المادية تحرير للإنسان من جرمه، إذ إنَّ هذه العقوبة تجبر الفعل القبيح الذي ارتكبه الإنسان. فيتبين جلياً أن التهديد يكون لكل غافل وظالم لنفسه، عند إقامة حدود الله، وذلك لقوله تعالى:

{وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[1].

فحدود الله تعالى هي إذن لصالح الفرد، مثلما هي لصالح الجماعة. ولذا فهي تشكل الأهداف العليا التي تصون المجتمع الإنساني. وقد أنزلها الله تعالى تشريعاً سماوياً، مكرّسة بكتابه العزيز، ليكون لها تشريع سماوي ثابت، غايتُه هداية الإنسان وخيره المطلق. ومن هنا فإنَّ هذه الحدود ليست من صنع الإنسان، ولا يمكن أن تكون من صنع الإنسان، بل

1 سورة الطلاق، الآية: 1.

إنها من أوامر الله ونواهيه، فكانت ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل، ولا يمكن أن يطرأ عليها أي تعديل.

وإذا كان لا بد لكل مجتمع إنساني من أهداف عليا يكون فيها دوامه واستقراره وتقدمه، فإن أهداف المجتمع الإسلامي العليا لا يمكن تحقيقها إلاَّ بتطبيق حدود الله. ومن هنا كان علينا أن نوضِّح أحكام هذه الحدود والتاريخ الذي وجبت فيه هذه الأحكام.

فما هي هذه الحدود، وما مفهوم كل منها؟.

إن أصلَ الحدِّ هو ما يقام بين شيئين فيمنع اختلاطَهما. فحدّ الدار أو الأرض ما يميزها عن غيرها، وكذا حدّ كل شيء، هو ما يحيط به ويميزه عن غيره ويتميَّز به.

وقد تطلق الحدود ويُراد بها المعاصي لقوله تعالى:

{تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا}[1].

وتطلق أيضاً على شرائع الله ومحارمه، لقوله تعالى:

{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[2].

فحدود الله تعالى هي محارمُهُ..

والحدود اصطلاحاً هي عقوبات مقدرة شرعاً في معصية لتمنع من الوقوع في معصية مثلها.

أما المعاصي التي تستوجب الحدود أو إنزال العقوبات فهي ثمانية:

الزنا وقد فرض حدُّه للحفاظ على صحة نسل الإنسان.

والقذف وقد فُرِضَ حدُّه للمحافظة على الكرامة الإنسانية.

والسرقة وقد فُرِضَ حدّها للحفاظ على الملكية الخاصة.

والقتل العمد وقد فُرِضَ حدّه للمحافظة على حياة الإنسان وحرمة نفسه.

والردّة وقد فُرِضَ حدّها للحفاظ على الدين.

وقطع الطريق وقد فُرِضَ حدّه للحفاظ على الأمن.

والبغي وقد فُرِضَ حدّه للحفاظ على الدولة.

وشرب الخمر وقد فُرِضَ حدّه للحفاظ على العقل.

---

1 سورة البقرة، الآية: 229.

2 سورة الطلاق، الآية: 1.

وهذه الحدود التي تعني العقوبات التي تنزل بالفاعل، لا تطبق إلاَّ في المعاصي الخاصة التي يكون لله تعالى حق فيها، فلا تطبق على غيرها، ولذا لا يصح فيها العفو، لا من الحاكم ولا من الذي اعتدي عليه أو على ماله، فهي حق لله سبحانه، ولا يملك أحد من الناس إسقاط هذا الحق بحال من الأحوال.

ولقد ضربنا مثلاً على تطبيق عقوبة السرقة أو حد السرقة فيما سبق، فلنحاول الاهتداء سريعاً إلى الحدود الأخرى، ثم ينتهي التركيز على حدّ شرب الخمر، لما في الخمر من أحكام استدلَّ بها البعض خطأ، للقول بإمكانية تطبيق الأحكام الشرعية في الإسلام على دفعات، وليس تطبيقاً كاملاً في كل مرة يسودُ نظام الإسلام.

فأما عقوبة الزنا أو حد الزنا، فهي ثابتة في قوله تعالى:

{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِأْئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}[1].

وحد الزنا عام، لأن لفظة «الزاني» و«الزانية» من الألفاظ المفردة التي يراد بها العموم أو الجمع، ولذا فهذا الحدّ يشمل المُحْصَنَ وغير المُحْصَن من الرجال والنساء على السواء. ويثبت الزنا بأحد ثلاثة أمور: الإقرار، والشهادة من أربعة رجال مسلمين أحرار عدول بدليل قوله تعالى:

{وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ}[2].

والحبلُ عند المرأة. ولكلٍّ من هذه الأمور الثلاثة أحكامه الخاصة في الفقه..

وأما عقوبة القذف فهي من الناحية المادية ثمانون جلدة، ومن الناحية المعنوية عدم قبول شهادة من يرمي بالقذف كذباً، واعتباره فاسقاً.

والقذف هو الرمي بالزنا، سواءٌ كان رمياً للرجل أو للمرأة، وقد وجب على من يرمي بالزنا أن يأتي بأربعة شهود من المسلمين أحرار عدول، كما في حالة الزنى، فإن قذف ولم يأتِ بالشهود، كان قذفه بهتاناً وأُنزل به حدّ القذف أو العقوبة.

وقذفُ المؤمنات الغافلات المحصنات حرامٌ قطعاً. ولكنَّ من قذف زانية وأتى بشهداء فلا يُعد قاذفاً. وقد جاء تحريم القذف في الكتاب والسنة. ففي الكتاب هو في قوله تعالى:

---

1 سورة النور، الآية: 2.
2 سورة النساء، الآية: 15.

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[1].

وفي قوله تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُواْ فِي الْدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[2].

وروي عن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «اجتنبُوا السَّبْعَ الموبقَات». قالوا: «ما هُنَّ يا رسولَ الله؟». قال: «الشّرك بالله، والسِّحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق، وأكلُ الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يومَ الزَّحف، وقذفُ المحْصنات الغافلات».

وهنا يَرِدُ اللِّعان بدلاً عن القذف، وذلك بأن يرمي الرجلُ زوجته بالزنى، لا غيرها من النساء. فيجب عليه في هذه الحال أن يحلف أربع مرات أنه صادق فيما يرمي به زوجته.

وقد نزل قول الله تعالى في اللِّعان:

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الْصَّادِقِينَ}[3].

ولقد نزلت آيات حد الزنى، وحد القذف، قبل غزوة بني المصطلق أو أثناءها، وهي الغزوة التي عقبها حديث الإفك وطبّق فيها الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، حد القذف على ثلاثة أشخاص ارتكبوا إثم القذف. والملاحَظُ أن العقوبة نزلت لمن ثبت عليهم الكلام، وقام الدليل على تصريحهم بالقذف، بخلاف عبدالله بن أبيّ بن أبي سلول، الذي تولى كِبْرَ الإفك ولكنه كان داهية، مخادعاً، كان يوعز بالإثم بين الناس وهو متكتم لا يُظهره صراحة، مثله مثل المنافقين في كل زمان ومكان، قد يسلمون من العقاب على آثام يرتكبونها ولكنَّ مصيرهم إلى الله سبحانه وتعالى، فهو أعلم بما تُخفي الأنفس وبما في الصدور.

وأما حَدُّ القتل فيجب التفريق فيه بين أنواع القتل وهي أربعة: عَمدٌ، وشبه عَمدٍ، وخطأ، وما أجري مجرى الخطأ. فعقوبة قتل العمد هي قتل القاتل جزاء على ما ارتكب من جريمة، ما

---

1 سورة النور، الآية: 4.
2 سورة النور، الآية: 23.
3 سورة النور، الآيات: 6 - 9.

لم يَعْفُ أولياء المقتول، فإن عفوا فَدِيَةٌ مُسَلَّمةٌ إلى أهله إلاَّ أن يَصدقوا، وذلك لقوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}[1].

وقوله عَزّ وجَلّ:

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[2].

وقد قال النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم: «العَمْد قَوَدٌ إلى أن يعفوَ وليُّ المقتول».

وأما عقوبة القتل شبه العمد فَدِيّةٌ مغلّظة، وهي مئةٌ من الإبل (أو ما يقابل ثمنها اليوم)، ولا يقتل صاحبه لأن القتل شبه العمد هو ما يقصد به الإيذاء دون القتل، فإن أفضى فعل الإيذاء إلى قتل، وقع على القاتل حد القتل شبه العمد، ويقال له: «عمدُ الخطأ وخطأ العمد» لاجتماع العمد والخطأ فيه.

وقد قال النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم: «قتل شبه العمد مُغلّظٌ مثل العمد».

وعقوبة القتل خطأً تختلف باختلاف أحد نوعيه:

فالأول هو أن يأتي الشخص فعلاً لا يريد به إصابة المقتول فيصيبه ويقتله، كما لو كان يصطاد فأصاب إنساناً فقتله، وعقوبته دفع الديّة وهي مئة من الإبل وعتق رقبة، في الكفارة، فإن لم يجده فصيام شهرين متتابعين.

والثاني أن يقتل أحدٌ شخصاً يظنه كافراً حربيّاً، ويتبيَّن أن هذا الرجل قد أسلم وكتم إسلامه.. فعقوبة هذا النوع الكفارة فقط لا الديَة. ودليل ذلك قوله تعالى:

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً}[3].

وأما ما أجري مجرى الخطأ فهو أن يصدر من الشخص فعل بغير إرادته فيتسبب عنه قتل شخص، كما لو لعب أحد بالسلاح فانفلتَ منه طلقٌ جبراً فقتل إنساناً، أو كما لو أفلتت مكابح السيارة فدهست شخصاً وقتلته.. فحكمهُ حكمُ النوع الأول من القتل الخطأ، أي أن

1 سورة البقرة، الآية: 178.
2 سورة البقرة، الآية: 179.
3 سورة النساء، الآية: 92.

الدية فيه مئة من الإبل، وتجب فيه الكفارة وهي عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين. والقتل يثبت بالإقرار والبيّنة..

فالقصاص شُرّعَ وجوبُه في السنة الثانية للهجرة، إذ نزل قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[1].

ومن مُجمل أحكام القتل يُستنتَج بأن القتل محرَّمٌ بغير حكم شرعي، وأما القصاص بحكم القصاص فإنَّه يجوز، وقد استباحت خزاعة أن تأخذ بثأرها من بعض بني بكر عند الفتح، فقتلت، فنهاها النبيُّ نهياً قاطعاً ودفع دية القتيل. ولقد قال النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أعدى الناس من قتل بذحول الجاهلية» (أي بأحقاد وثارات الجاهلية).

ثم تتابعت أحكام القرآن تبيِّن حدود الله سبحانه، وجعلت حد المرتد القتل. والمرتد هو من رجع عن دين الإسلام. فمن ارتدَّ من الرجال والنساء، وكان عاقلاً بالغاً دعي إلى الإسلام ثلاث مرات، وضُيِّق عليه، فإن رجع نجا وإلاَّ قُتل. ولذلك أمر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بقتل بعض المرتدين وذوي الجرائم يوم فتح مكة، ولم يقتل منهم إلاَّ أربعة، وتاب الأحد عشر الآخرون فنجَوْا. قال الله تعالى:

{وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[2].

وقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «من بدّل دينه فاقتلوه». والتوبة تقبل من المرتدّ إذا لم تتكرر ردَّتُه. والذي تكررت ردَّتُه لا تقبل توبته لقوله تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً}[3].

ويكون حدُّ أهل البغي فَرْضَ القتال عليهم حتى يرجعوا. وأهل البغي هم الذين خرجوا على الدولة الإسلامية . والخارجون على القانون في كل دولة دستورُها الإسلام . ولهم شوكة

1 سورة البقرة، الآيتان: 178، 179.
2 سورة البقرة، الآية: 217.
3 سورة النساء، الآية: 137.

ومنعة، أي هم الذين شقوا عصا الطاعة على تلك الدولة وشهروا في وجهها السلاح معلنين العصيان والحرب. فعلى الخليفة أو الحاكم أن يراسلهم فيسألهم ما ينقمون عليه، فإن ذكروا مظلمة أزالها، وإن ادَّعَوا شُبهة كشفها، وإن أُلبسَ عليهم فاعتقدوا أن ما فعله مخالف للحق، أبان لهم دليله وأظهر لهم وجه الحق، فالإسلام أمرَ أن يُشهَرَ السيف أو السلاح في وجه الحاكم إذا رأت الرعية منه كفراً بواحاً[1] عندهم فيه من الله سبحانه برهان، أو إذا لم يطبق أحكام الإسلام. فإن خرجوا بشيء من ذلك إجابة لطلب الشرع فعليه أن يبيِّن لهم وجه ما يشتبهون فيه أو يعود عن خطأه، فإن رجعوا عن البغي تركهم لأنه لا يجوز بقاؤهم على خروجهم، وإن لم يرجعوا قاتلهم وجوباً، ولكن لا قتالَ حربٍ وإنما قتال تأديب. ولذا يَحْرُم قتالُهم بما يؤدي إلى إفنائهم أو إتلافهم إلاَّ لضرورة. وإن الأصل في حد البغاة قول الله تعالى:

{وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[2].

وإذا كان في الرعية من يخرج على الطاعة فيكونون بُغاةً طمعاً في الحكم، فإنَّ فيها أيضاً من يخرج طمعاً في السلب والنهب وترويع الناس وهم قطَّاعُ الطُّرق الذين يتفقون على القتل والسرقة وتكون لهم قوة يقاومون بها الدولة. فهؤلاء فعالُهم كلها إفسادٌ وسعيٌ وراء الشر، والعقوبات التي تنزل بهم أو ما يسمى حد الحرابة: القتل أو القتل والصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، والنفي من الأرض. وتكون العقوبة بحسب الذنب المرتكب، ويحصر هذا الذنب في ثلاثة: القتل، وأخذ المال، وإخافة السبيل، فمن قَتَلَ وأخذَ المال قُتِلَ وصُلِبَ، ومن قتل ولم يأخذ المال قُتِلَ، ومن أخذ المال ولم يَقْتُلْ قُطِعَتْ يدُه ورجلُه من خلاف، وإن أخاف السبيل ولم يأخذ مالاً يُنْفَى من الأرض.. فإن لم يفعلوا غير إخافة السبيل فلا حدَّ عليهم، لأن الحدَّ عقوبة مقدَّرة بحسب النص، لقوله تعالى:

{إِنَّمَا جَزَاؤُواْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ}[3].

---

1 بواحاً: أي جهاراً.

2 سورة الحجرات، الآية: 9.

3 سورة المائدة، الآية: 33.

وقيل إن جماعة من «العرنيين» قتلوا راعي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، واستاقوا النّعَم فبعث في أثرهم إحدى السرايا، فأعادتهم، وأنزل بهم حدَّ قُطّاع الطُّرق وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة.

ويبقى من حدود الله السماوية حدُّ شُرب الخمر، وهو ما اختلفت فيه الآراء بين اتجاهين: اتجاه أول يقول بوجوب تطبيق الأحكام الشرعية، بما فيها الحدود تطبيقاً كاملاً إذا ما أريد إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح ووفقاً لأحكام الكتاب والسنَّة، واتجاه آخر يقول بإمكانية تطبيق الأحكام الشرعية بصورة تدريجية مستندين في ذلك إلى ما نزل في القرآن الكريم من آيات تتعلق بالخمر، ومعتبرين هذه الآيات بمثابة تحريم تدريجي جاء على دفعات ولم يكن دفعة واحدة. ومثل هذا الاتجاه القائم على فهم معين لأحكام الخمر إن هو إلاَّ تفسير خاطىء لما تضمنته الآيات القرآنية من معانٍ، وخلافاً لما حصل في تاريخ الإسلام، إنْ في عهد الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وإنْ في عهد الفتوحات الكبرى.. ولا نخال أحداً يروم اتجاه التطبيق التدريجي إلاَّ لغاية أبعد ما تكون عن الإسلام، ألا وهي ترقيع أنظمة الحكم التي يطبقونها في بلدانهم وتعامل مع القوانين الوضعية التي تسود هذه الأنظمة الأرضية. هذا إن اعتبرنا أن القانون هو السيد في نظام حكم ظاهره الادِّعاء بالإسلام وباطنه أكثر ما يكون بُعداً عن الإسلام. ولذا، ودرءاً للمفاهيم الخاطئة في تطبيق الأحكام الشرعية، كان لا بُدَّ من توضيح معاني الآيات التي ذكرت الخمر والمُسكر على السواء، حتى نهتدي إلى حكم تحريم الخمر، وهل كان بمنهج متوالٍ أم بمنهج واحد ثابت، وبآيةٍ واحدة لا غير!.. فقد وردت في القرآن الكريم، في «سورة النحل» الآية المباركة:

{وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ في ذَلِكَ لآَيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[1].

ففي هذه الآية ذكر الله تعالى رزقاً حسناً في مقابل رزقٍ سيِّىء. فوضع «السكر»، وهو كل شراب مسكر يمكن أن يتخذ من ثمرات النخيل والأعناب مقابل الرزق الحسن الذي يؤخذ من ثمرات النخيل نفسها كالخلِّ والشراب والرطب والتمر والزبيب وغيرها، وفي هذا التقابل تلميح صريح إلى أن السكر سيِّىء. لأن ما يضاد الرزق الحسن يجب أن يكون رزقاً سيِّئاً. إذ إنَّ الرزق الحسن هو شيء آخر ومختلف تماماً عن الرزق السيِّىء.

1 سورة النحل، الآية: 67.

فهنا جاءت مجرد لمسةٍ من بعيد، للضمير المسلم الوليد، ليس فيها أي تحريم للخمر وإنما هي إشارة فقط إلى أن الشراب المسكر من بعض الثمرات هو رزق سيِّىء.

وكان نزول الآية في مكة قبل الهجرة..

ثم نزلت بعد ذلك في المدينة ـ بعد تساؤل وإلحاح الصحابة عن الخمر والميسر ـ الآيةُ المباركة في «سورة البقرة»:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا}[1].

فإذا كان الناس يتساءلون جاءهم الجواب من رب العالمين أنَّ ما يسألون عنه هو الضرر بعينه. لأن معنى «الإثم» الضرر، مقابل كلمة «منافع». فيكون الضرر في الخمر والميسر أكبر بكثير من النفع. إذن فالله سبحانه وتعالى يذكر الضرر والنفع، وليس في ذلك لا تدليل ولا تلميح ولا إشارة أو إيماء لتحريم أو تحليل. فهو بيانٌ من الله تعالى للجماعة الإسلامية بأن ما يسألون عنه، هي أشياء ضارة، ومن رأى الضار فعليه الابتعاد عنه من أجل نفعه ونفع الجماعة على السواء، فلا يهدر المسلم قواه في أشياء ضررها أكبر بكثير من نفعها.

ثم كان بعد ذلك تنبيهٌ من الله العزيز، أنَّ على المؤمنين، وهم من يريد بهم الخير، ألاَّ يأتوا الصلاة وهم سكارى، أي تائهي العقلِ، شاردي الذهنِ حتى يعلموا ما يقولون، وكان ذلك التنبيه بتعبير قرآني رائع، واضح المعنى، سهل الفهم، ليس فيه لَبْسٌ ولا تعقيد، وهو قولُه تعالى في «سورة النساء»:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً}[2].

فإذا كانت الصلاة هي صلة المخلوق بالخالق، وهي الصلة التي يبرهن فيها هذا المخلوق عن عبوديته لذلك الخالق العظيم، فإنَّ على المؤمن أن يحترم قدسية هذه الصلاة، التي

1 سورة البقرة، الآية: 219.
2 سورة النساء، الآية: 43.

تجعله في حضرة الله تعالى، واقفاً بين يديه على أهبة الاستعداد، وبكامل القوى والمدارك، غير غافل عمَّا يقول أمام هذه الحضرة القدسيّة السنيَّة، وعالماً بما يصدر عنه أمام ذي العزة والجلال.. وحريٌّ بنا أن ننطلق من واقع الحياة التي نعيشها، فندرك كم يكون اهتمامنا إنْ في الهندام، أو في اللياقة، أو في الانتباه والحذر عندما نتحدث إلى صاحب شأنٍ من بني الإنسان، أو لمن نريد منه قضاء حاجة. فإننا نتدارك كل نبرة تصدر عنا، وكل عبارة نريد أن نتفوه بها.. فإذا كان هذا شأننا مع إنسان مثلنا لا يتعدى كونه صاحب نفوذ أو مقدرة معينة، فكيف يجب أن يكون شأننا ونحن بين يدي الله عز وجل: خالقنا، وصاحب السلطان المطلق، القدير، المتعالي، صاحب الفضل والمنِّ علينا في كل شيء، حتى في الكلام الذي نتوجه به إلى أهل الأرض!.. إننا بالحقيقة نجلّ المفاضلة، أو المقارنة بين مخلوق وخالقه، ولكن لعلَّ في التفكر وفي العودة إلى النفس الإنسانية وما تعيشه في واقعها ما يفرض القناعة والاهتداء إلى الحكم السليم.. فالصلاة هي الصلة بالله تعالى، وعلى الإنسان أن يكون كامل الوعي والإدراك في صلاته حتى يعلم ما يقول وهو في حضرة الله العزيز الحكيم. وإن هذا الوعي والإدراك ينبئان عن معنى العبادة الصحيحة، فمن أرادَ أن يعيش لحظات السناء في هذه العبادة، وجب عليه أن يُعطي لهذه الصلاة حقها، ولا يمكن أن يؤدي حقوقها إن جاءها تائه العقل لا يعرف ما يقول..

وإنَّ في الآية الكريمة ما يدلل على حب الله تعالى لعباده المؤمنين، الذين يوجه لهم التنبيه بالانتهاء والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يضيّع العقل، وليس في هذا التنبيه تركيز على الخمر، حتى ولا أتت الآية أبداً على ذكر الخمر، بل كانت الآية بياناً للمسلم بألاَّ يقرب صلاته وهو شارد الذهن..

وهنا نجد أيضاً أن لا تحريم للخمر، بل نهي عن الاقتراب إلى الصلاة بغير وعي كامل. فكل ما يُذهب هذا الوعي، سواء كان شراباً مسكراً أم حدثاً محزناً أو مفرحاً مرّ في حياة الإنسان، وأثّر فيه، فعليه أن يجلوَهُ عن عقله وعن ضميره عند الصلاة، حتى تكون هذه الصلاة الصلة الخالصة ما بين الإنسان وخالقه.

وهكذا نجد أن في «سورة النحل» بياناً للرزق الحسن من الرزق السيِّىء.. وفي «سورة البقرة» بياناً للضرر والنفع.. وفي «سورة النساء» محبة من الله ولطفاً بالتنبيه على إقامة الصلاة بعقل سليم وإدراك تام.. وليس في هذه الآيات مطلق تحريم للخمر، بل لم يذكر

الخمر في سورتي النحل والنساء بتاتاً.. بل يأتي التحريم للخمر في سورة المائدة بقوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُم مُّنْتَهُونَ}[1].

فسبحان الله كم هو لطيف بعباده، يتوجه إلى المؤمنين بالمخاطبة المباشرة الدَّالة على أن الخمر هي رجسٌ.. وأي رجس؟!.. رجسٌ من الشيطان.. فأي مؤمن بعد هذه المخاطبة المعبِّرة يقبل بأن يدنِّسه هذا الرجس الشيطاني الخبيث.. ثم لا تقف محبة الله لعباده المؤمنين بتحذيرهم بالابتعاد عن هذا الرجس، بل يأمرهم بالابتعاد عنه بصورة كاملة إذا ما أرادوا فلاحاً. ويتكامل العطف الرباني وهو يحذِّر من غواية الشيطان يتخذ له مسرباً لنشر العداوة والبغضاء بين المؤمنين بالخمر والميسر، وليس فقط غاية الشيطان زرع هاتين الآفتين الكفيلتين بالقضاء على الحياة السليمة بين الناس، بل وصدّ المؤمنين عن ذكر الله، وعن الصلاة، حتى يحلَّ بهم غضب الله.

إن هذا البيان الرباني، وما يحمل من أبعاد سواء في التعامل بين الناس، أم في علاقتهم بخالقهم، لا يكتفي بذلك، بل يتكامل بالأمر الصارم: فهل أنتم منتهون؟.. وهذا هو التحريم..

نزلت الآية بتحريم الخمر بعد غزوة بني النضير في السنة الرابعة للهجرة، فبلَّغها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، للناس، فاندفع المسلمون إلى زقاق الخمر يكسرونها، ويريقون ما فيها إلى غير رجعة..

فقد جاء الأمر بالتحريم فامتثل المؤمنون وانصاعوا عن قناعة ورضىً، لأن نفحة الإيمان لا توازيها مقادير من النشوة مهما كبرت.. إنها النفحة التي ترتقي بصاحبها في معارج الإشراق الروحاني حتى يحقق السعادة الحقيقية، وكل سعادة ما خلا رضا الله باطلة ولا يمكن أن تكون سعادة.. عن وائل بن حجر أن طارقاً بن سويد الجعفي سأل النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، عن الخمر، بقوله: «إنما أضعها للدواء».. فكان جواب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الناهي الجازم: «إنه ليس بدواءٍ ولكنه داء»..

---

1 سورة المائدة، الآيتان: 90، 91.

وهكذا يمكن القول بأن تحريم الخمر، لم ينزل على دفعات، وفي عدة مناسبات، بل كان التحريم في الآيتين من «سورة المائدة» وأما غيرهما فلم تكن مقدمات، وإنما تمهيدٌ لتحريم الخمر، وتبيانٌ لمسائل تتعلق بالخمر وبكل شيء مسكر، وما يكون له من أثر على الإنسان إن من الناحية الصحية أو الذهنية أو الدينية.. وهذا تأكيد على عدم صحة الاعتقاد القائل خطأ بتطبيق الأحكام الشرعية على دفعات، استناداً لتأويل خاطئ وفهم معين للآيات القرآنية التي تناولت أحكام الخمر والمسكرات..

يبقى أن نذكر عقوبة شارب الخمر.. فمن البديهي . والخمر محرَّم . أنه يجب الحدّ على من شرب الخمر، لما روي عن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «من شرب الخمر فاجلدوه». وقد انعقد إجماع الصحابة على أن حدّ الشارب لا ينقص عن أربعين جلدة ولا يزيد على الثمانين. ولا يجب الحدُّ حتى يثبت شرعاً بأحد شيئين: الإقرار أو البيّنة، ويكفي أن يشهد أحد الشاهدين على شرب الخمر والآخر على القيء.

تلك هي الحدود التي حدّها الله لصيانة المجتمع الإنساني، والتي لم تكن إلاَّ عقوبات تنزل بمن يخالف أوامر الله ونواهيه لأنه يضرُّ نفسه ويضرُّ أبناء مجتمعه.. ورفعاً لهذا الضرر الفردي والجماعي كانت العقوبات في الإسلام زواجر وجوابر. أما الزواجر فلزجر الناس عن ارتكاب الجرائم، وأما الجوابر فلكي تجبر عن المسلم عذاب الله تعالى يوم القيامة.

وكون العقوبات زواجر ثابت بالنص القرآني لقوله تعالى:

{وَلَكُم فِي الْقِصَاص حَيَاة يا أولِي الأَلْبَاب}.

فتشريع القصاص في الحياة معناه أن إيقاع القصاص هو الذي يكون أبقى للحياة الصحيحة السليمة، ولا يكون ذلك في إبقاء الحياة لمن وقع عليه القصاص، لأن في القصاص قد يكون موته، بل حياة مَنْ شاهدَ وقوع القصاص، وهذا ما يعني كون العقوبات زواجر، أي أنها تزجر الناس عن ارتكاب الجرائم وذلك بالامتناع عن ارتكابها خوفاً من نزول القصاص بهم.

وكون العقوبات جوابر، أنها تدرأ الخطر عن المجتمع، وتطهر الإنسان من أخطائه، ولقد ثبت عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال عن المخزومية بعد أن طبَّقَ عليها حدّا السرقة: «إن يدها طهرتها وسبقتها إلى الجنة». وذلك أن تلك المرأة قد أسلمت وحسن

إسلامها بعد قطع يدها، فكان تطبيق حد القطع عليها بداية لصلاح نفسها وسلوكها، وكان هذا الصلاح طريقها إلى الجنة..

ولم تكن إقامة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في مكة إلاَّ إقامة قصيرة لا تزيد على ثمانية عشر يوماً من الفتح، ورغم هذه الإقامة الوجيزة قام بتطبيق الإسلام كاملاً، وشهدت مكة لأول مرة في تاريخها موازين العدل والحق تقوم بين الناس، لا فرق بين قوي وضعيف، ولا بين صاحب نسب أو غير صاحب نسب، بل الكل سواسية في الإسلام، ولا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلاَّ بالتقوى..

وأكثر ما أدهش أهل مكة معاملة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لهم. فقد وقف محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، من هؤلاء الناس الذين كانوا ألدَّ الأعداء لدعوة الإسلام، وأشدَّ الناس إلباً عليه وعلى المسلمين، موقفاً فريداً في تاريخ الفاتحين، وقد جاء موقفه الفريد متلازماً مع إنسانيته ومع نبوته فهو لم يكن مَلِكاً ولا قائد احتلال يبتغي إرضاخ الشعوب لإرادته، وكسب الأمجاد والثروات، وإنما كان رحمةً من الله أرسلها لعباده. فهو (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام) صاحب العفو والرحمة، وأينما حلَّ حلّت الرحمة في أثره لتشمل الصديق والعدو، والمؤمن والكافر، يأخذ كل واحد منها بحظّه كما تأخذ بقاع الأرض من بركات الغيث المنهمر، فيثمر خصبها أو يلطف جوها، أو تلين قوتها.. ولم يكن إقبال الناس على الإسلام، خائفين أو مكرهين، بل إن تلك المعاملة المحمدية هي التي دفعتهم إلى هذا الدين، وهم يرون في النبيّ الذي يبلّغه، وفي الرسول الذي ينشره إنساناً لا يستوي معه بشريّ في الخُلُق. نعم كان إقبالهم بفعل محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وحُسْنِ صنيعه فيهم، وذلك قبل أن يستقر الإيمان في القلوب، وتهوي إليه الأفئدة، فتتخذ من هذا الإيمان، ومن ترشيد محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، إليه، الأساس الذي يثبت ويدوم ليصير عقيدة راسخة في النفوس وفي العقول..

... نعم نزل عفو النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وتسامحه، برداً وسلاماً على قلوب قاسية طالما اضطرمت عليه بالعداوة والبغضاء، ولطالما أعماها الحقد، حتى أبعدها عن التجاوب مع الإيمان، ومع حامل الدعوة لدين الإسلام.. لقد عادَ أصحابُ تلك القلوب إلى أنفسهم فوجدوا أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قد ظلَّ نيّفاً وعشرين عاماً ينشد

هدايتهم، ويستعمل شتى الوسائل والطرق لإيصال الخير والحق لهم، ولكنهم ظلوا عنه متباعدين، وعن دعوته عمياً وصمّاً لا يفقهون، يقولون:
{قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}[1].
ووجدوا أن محمَّد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، كان كلما قدّم لهم المودة، بادلوه بالكراهية، وكلما أراد إقامة علاقة حسنى جابهوه بالإساءة.. فكذبوه وقاطعوه، وقاتلوه، وألّبوا عليه القبائل والأحزاب، وظلوا طوال تلك السنين العشرين يتربصون به الدوائر، ويتحينون شتى الفرص للإيقاع به.. فلما أظهره الله تعالى عليهم، وأمكنه من رقابهم، لم يأبَهْ أبداً لما سلف منهم، ولم يقف مطلقاً عند ما فعلوه، بل قضى على كل ما كان منهم بصفح جميل، وعفو شامل، لم يكونا ليصدرا إلاَّ عن نفس عظيمة وعن نفس محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، بالذات، بدليل قوله تعالى:
{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[2].
وهكذا وبرحمة الله ورأفة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، لم يكن فتح مكة، فتحاً لبلد عدوٍ، بل كان في صميمه فتحاً من الله تعالى لقلوبٍ مُغْلَقَةٍ وطيّاً لعنان نفوسٍ مستكبرة، وإذا بالغالبية الساحقة من تلك النفوس قد غدت تفيض بالحب والإخلاص، وتدين بالطاعة والولاء، ثم راحت تنضوي تحت لواء رسول عزيز هو منها ولها، طائعة مستسلمة تدخل في دين الله راضية مطمئنة، وصدق الله العظيم، حيث يقول:
{وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[3].
ولقد فتحت مكة أبوابها، كما فتح أهلُها قلوبهم، فإذا كلمة الله هي العليا، ودينه صاحب السلطان الأوحد، وإذا كل المقاليد ملقاة بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فلا شِرْك بعد اليوم، ولا صدَّ عن بيت الله الحرام، وكان ذلك هو النصر المؤيد من الله تعالى، والفتح المبين... ودانت مكة لدولة الإسلام، ولم يبقَ في شبه الجزيرة إلاَّ بعض الجيوب الداخلية في حنين والطائف، فلا بدَّ أن يكون التوجُّهُ إلى تلك النواحي..

1 سورة فُصِّلت، الآية: 5.
2 سورة التوبة، الآية: 128.
3 سورة فُصِّلت، الآية: 34.

سلسلة غزوات الرسول

(9)

غَزوَة حُنَين وَالطَائف

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ آلْرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذلِكَ جَزَآءُ الْكَافِرِينَ}.

غزوة حنين والطائف

لقد كانت الأيام التي قضاها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنون في مكة، بعد الفتح المبين، قليلة في عددها، ولكنها كانت رحيبة، كبيرة بأجواء الإيمان، وبإقامة العلاقات الطيبة، وفي شتى جوانبها.. فهذا البيت الحرام، وقد طُهّر من الأصنام والرجس، يرتفع فوق ظهره الأَذانُ بإعلان الشهادتين والدعوة إلى الصلاة، ويؤمُّ رحابَهُ المؤمنون يؤدون الفريضة وراء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يلتفون حوله مهتدين إلى نور الحق، الذي أضاءَ شعلته هذا الرسول الكريم ليبقى السناءَ المُشعَّ إلى آخر الدهور..

وكان حريّاً بالناس، وهم يعيشون في ظلال هذه الأجواء، ألاَّ يبقوا على عداوتهم للإسلام، وعلى بغضائهم للنبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، بل أن يتخلوا عن ذلك كله، وأن يتحوّلوا في أفكارهم ومشاعرهم نحو الدعوة ورسولها، منكرين عبادة الأصنام، واقفين على ما كانت تزين لهم نفوسهم من زلل وشطط..

وإذا كان من أشقّ الأمور على الإنسان وأصعبها، التخلي بين ليلة وضحاها عن المفاهيم الراسخة في نفسه، فإن التخلّي عن العقيدة الدينية هو أشدّها، لما فيه من صراع داخلي يقف فيه الإنسان على مفترق الطرق في تقرير مصير حياته في الدنيا، وما سيؤول إليه أمره في الآخرة.. وإذا كان أهل مكة قد تخلوا عن عقيدتهم الدينية السابقة فإنَّ ما رأوه من فعل محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، في المعاملة، وما سمعوه منه من قول، كان له أكبر المؤثرات والدوافع التي جعلتهم يرتضون ذلك التخلّي، وأن يُقبلوا على الإسلام راضين، قانعين.

ولم يقتصر تحطيم الأصنام وإزالة معالم الشِّرْك على ما في داخل مكة، بل إنَّ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بعث عدداً من السرايا إلى جوار مكة لمحو آثار أعظم أصنام العرب وأكثرها شأناً عندهم. فخرج خالد بن الوليد إلى أرض «نخلة» لاقتلاع «العُزّى» وتكسيرها، وكانت شجرةً كبيرةً عَبَدتْها قريش وكِنانة، وبالقرب من بيتها وثنٌ تعبده غطفان. كما خرج عمرو بن العاص إلى «رهاط» من أرض نخلة لهدم «سُواعَ» صنم هذيل، وكذلك

سعد بن زيد الأسهلي الأنصاري ذهب إلى جبل «المشلل» على ساحل البحر لهدم «مُناةَ» صنم كَلْبٍ وخُزاعة..

وكان بَعْثُ تلك السرايا لأيام قلائل بقينَ من شهر رمضان، وقد عادت كلها ظافرة متممة المهامَّ التي أوكلت إليها من دون أن تلقى مقاومةً قطُّ، مما جعل داخل مكة يلتقي مع البقاع المجاورة على الإيمان يسري في كيان الناس، إلاَّ أولئك المؤلَّفة قلوبهم الذين دخلوا الإسلام إمّا رغبةً أو رهبةً، فإنهم كانوا غير مخلصين له بكلّيتهم، ولكنهم مع ذلك ارتضوا الواقع الجديد، رغم ما يحمل من تحوّل في العادات والتقاليد، وتبدل الأمور والشؤون..

على أنه مهما بدا من إقبال الناس على الإسلام، أو مهما ظلّ في بعض النفوس من كمائن دفينة، فإنَّ سلطان الإسلام قد حلَّ ومعه السلام والأمان لقريش وغيرها من قبائل العرب، إلاَّ بعضاً من هذه القبائل التي ظلت تتوهم في نفسها قوةً، تَقدِرُ من خلالها على محاربة المسلمين وتحول دون وصول هذا الركب السائر في شبه جزيرة العرب إلى ديارها..

وكان من تلك القبائل هَوازِنُ التي تقيم على مقربة من مكة، في الجبال الواقعة إلى جنوبها الشرقي. فقد عرفت بفتح مكة، ودخولها في الإسلام، فخافت على نفسها من كارثة تحلُّ بها، إذ لا يمكن أن يتركها المسلمون وشأنها، بل سوف يغيرون عليها، ليرغموها على الدخول في دينهم، وهذا ما لا ترضاه ولا تقبل به.. ولذلك رأت هوازن أن تستعدَّ للحرب، فجمع مالك بن عوف النضَري هوازنَ وثقيفاً إليه، ودعا قبائل نضر وجشم، فانضمت كلها ولم يتخلّف عن هذا الانضمام من هوازن إلاَّ كعبٌ وكِلابٌ..

وكان مالك بن عوف هذا شاباً لا يتجاوز الثلاثين من عمره، قوي الحمية، شديد المراس، فرأى ألاَّ يخرج بمن اجتمع حوله إلى المعركة إلاَّ ومعهم النساء والأبناء والأموال، ليكون في ذلك مَدْعاةً لحماسة الرجال، واستماتتهم في الذود عن الحُرُمات والأرزاق.

وكان في القوم دُرَيْدُ بن الصُمّة، زعيم جُشَم، هذا الرجل الذي حنكته التجارب وضرّسته الحروب، قبل أن يفقد بصره، ويصير شيخاً هرماً، ولم يعد قادراً على قيادة المعارك، كما كان يفعل أيام بأسه وقوته.. فسارَ مالك بالقوم مذكياً فيهم روح القتال، حتى نزلوا بوادٍ لهم، فسأل دريد بن الصمّة:

ـ بأي وادٍ أنتم؟.

قالوا: بأوطاس..

قال: نِعم مجال الخيل، لا حَزْنٌ[1] ضِرْسٌ[2] ولا سَهْلٌ دَهْسٌ[3]، ولكن ماليَ أسمع رُغاءَ البعير ونُهاق الحمير وثُغاء الشاءِ وبكاء الصغير؟.

قالوا: إن مالك بن عوف ساق مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم حتى يقاتل كل منهم عن أهله وماله.

قال: راعي ضأنٍ ورب الكعبة، إئتوني به!..

وجاءه الرجلُ، فقال له: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك وإِنَّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام. مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وثغاء الشاءِ وبكاءَ الصغير؟..

قال مالك: سُقْتُ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم..

قال دريد: ولمَ ذاك؟.

قال مالك: أردت أن أجعل خلفَ كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم.

قال دريد: وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلاَّ رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك..

ولم يجب مالك، فعادَ دريد يسأل: وما فعلت كعبٌ وكلابٌ؟.

قالوا: لم يشهدها منهم أحدٌ..

قال: غاب الحدُّ والجدّ، ولو كان يومَ عَلاءٍ ورِفعةٍ لم تَغِبْ عنه كعبٌ ولا كلابٌ، ولَوَدِدْتُ أنكم فعلتم ما فعلوا، فمن شهدها منكم؟.

قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر!.

قال: ذانك الجذعان[4] من عامر لا ينفعان ولا يَضُرّان!..

ثم توجَّهَ بالكلام إلى مالك فقال له:

ـ يا مالك! إنك لم تصنع بتقديم الجماعة إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى مُتَمَنَّع بلادهم وعَلْيا قومهم، ثم الْقَ الصُبَّاء[5] على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك..

قال مالك محتدّاً: والله لا أفعل ما تقول، إنك كبرت وذهب عقلك وعلمك..

---

1 الحزن: المرتفع من الأرض.
2 الضرس: الذي فيه حجارة.
3 الدهس: اللين، الكثير التراب. وهو يعني بذلك أنه مكان صالح للحرب.
4 الجذعان: الضعيفان في الحرب.
5 الصُبّاء: يقصد المسلمين الذين صبأوا أي تخلوا عن دين الجاهلية.

ثم التفت إلى الناس يقول لهم:
والله لتُطيعُنَّني يا معشر هوازن أو لأتّكِئَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري.
فقالوا: أطعناك.
فقال دريد بن الصمّة: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْني..
وانصاعَ الناسُ لرأي مالك بن عوف، فراح يدبّر شيئاً من الخطة التي أشار عليه بها دريدُ بن الصمّة، بأن فرّق المقاتلين في قمم حُنَيْنٍ، وقدَّم كميناً عند مضيق الوادي، لكي يكون بإمكانهم إذ ما أقبل المسلمون عليهم أن يشدّوا عليهم شَدّةَ رجلٍ واحد، يرشقونهم السهام والنبال، ويُنزِلون بهم بالطعان، فتتضعضع صفوفهم، ويتشتت شملهم، فيهزموهم شرّ هزيمة..
وبعد أن رتّبَ مالكٌ أمورَ حربه، بعث بجواسيس له يتقصّون أخبار المسلمين، فجاءته الأخبار ناصحة له بالعودة، ولكنَّه لم يأبه للنصح بل رمى المخبرين بالجُبْن، وحبسهم عنده مخافَةَ أن يُشيعوا الأمر في الجيش، فتثبط الهمم وتخور العزائم.
أما المسلمون في مكة فقد بلغتهم استعدادات هوازن ومن معها للحرب، فبعث الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عبدالله بن أبي حَدْر الأسلمي، يدخل بينهم ويقف على أخبارهم، ولم يغب عبدالله أكثر من يومين إذ عادَ يحدِّث الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بما جهزه أولئك القوم من عدّة وما عبّأوا من قوى، فأمَرَ عليه وعلى آله الصلاة والسلام بالتهيؤ للخروج ونادى مناديه بإعلان التعبئة للقتال.
وجاء من يذكر لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن عند صفوان بن أمية دروعاً وأسلحة كثيرة، فبعث يسأله أن يعيرها له، فجاءه صفوان يقول: أغصباً يا محمد!.
قال: بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك.
قال صفوان: ليس بهذا بأس.
وذهب صفوان إلى بيته، فأتى بمئة درع يعيرها للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم..
وكان لدى نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، ابن عم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، رماحٌ كثيرة بلغت ثلاثة آلاف رمح، ما إن طلبها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، منه، حتى جمعها سريعاً إليه، فنظر إليها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال لابن عمه: «كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين».

وأتمَّ المسلمون استعدادهم للخروج بوقت قصير، فعبّأ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، الصفوف، ووضع الألوية والرايات في أهلها، فدفع بلواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) وبلواء الأوس إلىُ أسيد بن حضير، ولواء الخزرج إلى حُباب بن المنذر، كما أعطى رايةً لعمر بن الخطاب ورايةً لسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنهم) وغيرهم ممن حمل رايات القبائل العديدة.

ثم استعمل على مكة عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أميَّة أميراً على الناس وقال له: يا عتّاب، أتدري على من استعملتك؟! استعملتك على أهل الله، ولو أعلم لهم خيراً منك استعملته عليهم، وكان عمره إذ ذاك نيفاً وعشرين سنة، وكان رجلاً صالحاً. روي عنه أنه قال: أصبتُ في عملي هذا بُردَيْن معقَّدين كسوتهما غلامي، فلا يقولنَّ أحدكم أخذ مني عتاب كذا، فقد رزقني رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كلَّ يومٍ درهمين فلا أَشبَعَ الله له بطناً مَنْ لا يُشبعه كلَّ يوم درهمان. وترك مُعاذَ بن جَبَلْ الأنصاري يعلمهم ويفقّههم إذ كان عالماً بالقرآن، متبحِّراً بالدين.

وخرج رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من مكة لستٍّ خلون من شهر شوّال سنة ثمانٍ للهجرة، في عشرة آلاف ممن جاؤوا معه لفتح مكة، وألفين ممن أسلموا بعد الفتح..

خرج جيش المسلمين تحفُّ به مظاهر القوة، وتبدو عليه سِماتُ التفوق والاعتزاز، فظنَّ البعض أن النصرَ حليفهم لا محالة لكثرة عددهم، فقالوا: «لا نُغلَبُ اليومَ عن قِلّة»..

ولم يكن هذا الاطمئنان لكثرة العدد هو وحدَه ما دلَّ على ذهنية مهتزّة لدى الكثيرين ممن خرج إلى حُنين، بل إن تلك الجماعة من قريش وهي تخرج لأول مرة تحت إمرة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد نَبَتْ بها روح الإيمان حتى أنها لتبدو أقرب إلى الجاهلية منها إلى الإسلام، إذ ما إن أطلّت على «ذات أنواط» وهي الشجرة العظيمة التي كانوا يأتونها كل سنة فيذبحون عندها ويعتكفون عليها يوماً بأسره، حتى عاودتهم نزعة الجاهلية، فتنادوا من جنبات الطريق، وأقبلوا على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يقولون له: «اجعلْ لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط»..

ونهاهم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، عن هذا التفكير الأخرق، فقال: «الله أكبر! قلتم، والذي نفس محمد بيده، كما قال قوم موسى: [اجْعَلْ لَنَا إلهاً كما لهمْ آلهةٌ. قالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تجهلون].. إنها السُنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَن كان قبلكم»..

وإذا كان ما أبدته تلك الجماعة من قريش لم يُدْهِش الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لِمَا يَعْلَمُ مِن أحوالها، فإنَّهُ أيضاً لم يشأ أن يقسو على أصحابها حرصاً على وحدة الصف، فتابع تقدمه بالجيش حتى وصل في المساء إلى حُنين، فاستراحوا، وناموا قسطاً وافراً من الليل، فلمَّا كان السَّحَر، وفي عتمة الفجر نهضوا من الرقاد، ولم يلبثوا أن تحركوا بانحدارٍ نحو وادي حنين، وهمُّهم أن يفاجئوا العدوّ قبل طلوع الصباح.. ولكنهم على خلاف ما ظنوا كان العدوّ يتربص بهم، فلم ينم ليله، بل بقي ساهراً بانتظارهم، حتى إذا قربوا منه، انهالت عليهم السهام والنبال مثل وابلٍ من المطر، ثم اندفعت الكتائب تنحطّ من شعاب الوادي وأحنائه ومضايقه، وفي مقدمتهم رجل على جملٍ أحمر، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل، كلما أدرك المسلمين طعن برمحه، وهوازن وثقيف وأنصارهما منحدرون وراءه يطعنون مثل طعانه...

ولم يكن المسلمون يتوقعون هذا الهجوم الشديد عليهم، حتى إذا كانت المباغتة، اعترتهم الدهشة، وأذهلهم الخوف، فيما كانت الحيرة تستبدُّ بهم وتقذف في نفوسهم البلبلة والاضطراب، ففقدوا التنظيم، ونسوا الواجب المقدس، وارتدوا إلى الوراء، يمضون في الهروب وقد سيطرت عليهم أحاسيسُ ملؤها الوخز في الصدور والوسوسة في الأفئدة، بينما كان العدو يلحق بهم بخيله ورجاله، ممعناً الضرب والطعن في ظهورهم، وكان أكثر المتضررين بنو نصر بن معاوية من بني رئاب فقد أصابهم الشيء الكثير...

ورأى رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، هلعَ الناس وتدافعهم القهقرى بغير وعي، كما رأى الإبل تحمل بعضها على بعض، فراح ينادي: أيها الناس! هلمَّ إليَّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله!..

ولكنَّ الناس في جزعهم كانوا لا يسمعون، وفي خوفهم لا يدركون، بل ظلوا يمعنون في الارتداد والهروب، لا يلوون على شيء بل وقد لا يعرف أحدٌ صاحبه، ولا ينضوي تحت لوائه، حتى انكشفوا عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو في مؤخرة الجيش على بغلته البيضاء «دلدل»، ومضوا عنه إلى البعيد، فلم يبقَ معه إلا نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، كان منهم وزيراه أبو بكرٍ وعمر (رضي الله عنهما)، وأقرباؤه علي بن أبي طالب (عليه السلام) وعمه العباس بن عبدالمطلب، وابنه الفضل بن العباس، وابن عمته أبو سفيان بن الحارث، وابنه ربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن أم أيمن،

مولاة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وحاضنته، وقد استشهد في تلك المعركة ذوداً عن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم..

وفي هذا الموقف الصعب، وفي النفر القليل الذي وقف يحمي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ذوداً عنه بالأرواح والأنفس، قال العباس:

نصرنا رسولَ الله في الحرب تسعة

وقد فرَّ من قد فرَّ عنه فأقشعوا

وقولي إذا ما الفضلُ كرَّ بسيفه

على القوم أخرى يا بنيَّ لِيَرجعوا

وعاشِرُنا[1] لاقى الحِمام بنفسه

لما ناله في الله لا يتوجع

أجل، كان فرار الجيش الإسلامي، بكليته، لا فرق بين الصحابة وبين مُسْلِمَةِ أهل مكة أو غيرهم من الناس، فالكل أغواه الشيطان فما رام إلاَّ النجاة بنفسه، مولّياً الأدبار لا يلوي على شيء. ووقفت فئة قليلة من قريش، تنظر إلى تقهقر المسلمين والغبطة تأخذها، وترى تشتت صفوفهم والسرور يملأ نفوسها..

كانوا من الجُفاة الذين لم تتطهر قلوبهم بالإسلام فتُخلص لله الواحد، وممَّن خذلهم انتصار المسلمين بالأمس على قريش، فلم تصْفُ نيّاتهم، فإذا بهم يُظهرون ما اختزنوا في الجوارح من غِلَّ وحقد، ويُفصحون عما يفرحهم من شماتة بوقوع الهزيمة، فيقول أبو سفيان بن حرب: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر».. ويقول كَلَدَة بن حنبل: «ألا بَطَلَ السحرُ اليوم!». وكان قريباً منه أخوه لأمه صفوان بن أمية، وكان ما زال على شركه، لم تنتهِ المدة التي جعَلها له الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ليختار، فردَّ عليه قائلاً: «اسكت فضَّ الله فاك! فوالله لأن يَرُبّني[2] رجل من قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرُبّني رجل من هوازن».. أما شيبة بن عثمان بن طلحة، وهو من كان أبوه قد قُتل يوم أُحد، فقال: «اليوم أدرك ثأري من محمد».. وليس من غير المتصوّر أن يكون هذا الخبيث، قد حاول النيل من النبي، صلى

1 عاشرهم كان أيمن ابن أم أيمن رحمه الله.

2 يربّني: يملكني ويسوسني.

الله عليه وآله وسلم، ولكنَّ شيئاً جرى على لسانه، بعد أن غشّى فؤاده فلم يعد قادراً أن يطيقه، مما أوقر في ذهنه أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ممنوع منه، ومن غيره من بني البشر فلا يطاله مكروهٌ، ولو تألّبت عليه قوى الشر كلها، لأنَّ الله سبحانه وتعالى حاميه وناصره. وقد اعترف بذلك فقال: «فأَدَرتُ برسول الله لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشَّى فؤادي، فلم أطق، فعرفت أنه ممنوع»..

كانت هذه الأحاديث تدور على ألسنة أولئك الضالّين، والنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ما زال في مكانه، يشهد مرور القبائل به الواحدة تلْوَ الأخرى وهي مولِّيةً الأدبار لا تلوي على شيء، فإذا به يقف في هذه اللحظة الفاصلة، وفي أحرج الساعات، أعظم موقف وأروعهُ، إذ قرر البقاء في ميدان المعركة، ومجابهة الأعداء، ولو لم يقتحم القتالَ معه إلاَّ ذلك النفرُ القليل الذي يحيط به، ولكنه رأى ألاَّ يترك وسيلة إلاَّ ويستعملها علَّ الناسَ تعود إلى صوابها، فطلب إلى عمه العباس، وكان جهوري الصوت، قَوِيَّه، أن ينادي في الناس بما يعيد إليهم الوعي، ويثيبهم إلى الرشد.. ووقف العباس، يصرخ من قلب محنق وبأعلى صوته: «يا معشر الأنصار الذين آوَوا ونصروا! يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة! إن محمداً حيٌّ فهلمُّوا»..

وكرّر العباس النداء حتى تجاوبت في كل جنبات الوادي أصداؤه، وبلغت مسامِعَ الفارّين، فإذا بالرعدة تدبُّ في أوصالهم، وتحيي في نفوسهم الروح الشمّاء التي أَلِفَتْهم في شتى المعارك والحروب، وإذا بتلك الوسوسة الشيطانية تندحِرُ أمام صحوة الإيمان، فيُذْهِبُ الله سبحانه وتعالى عنهم مشاعِرَ الخوف، ويحلّ في نفوسهم السكينة، بوساطة ملائكته الذين هم جنودُ الله تعالى، يملأ بها النفوس المؤمنة التي تغفلُ في ساعة من الساعات عن أَداء الواجب، لتعيدها إلى صدقها وإخلاصها فتمضي ملبية نداء الحق مستبشرة برحمة الله ورضوانه.

وحلّت قدرة الله في جنوده الأوفياء، فإذا بنداء العباس وهو يدّوي في الآذان، تهتزّ لأصدائه أوتار القلوب، فيرجع المؤمنون وهم يتصايحون من كل صوب: «لبَّيك لبَّيك يا رسول الله»... ويرتدّون إلى المعركة مستبسلين..

وراح المؤمنون يخوضون غمار المعركة ببسالة نادرة، ويَصْلَونَ نارها بشجاعة فائقة.. وفي حُمّى القتال اندفع علي بن أبي طالب (عليه السلام) وراء رجُل الجمل الأحمر من هوازن،

الذي راح ينكبُّ على المسلمين بالقتل والطعن، حتى إذا تخلف عنه قومه رفع رايته على رمحه فاتبعوه، ثم تقدم يرتجز:

أنا أبو جرول لا براحْ أقاتل الأعداء في الصباح

حتى نُبيحَ القومَ أو نُباحُ

اندفع فارس الإسلام علي (عليه السلام) وراء فارس المشركين حتى لحق به، فهوى على عرقوبي جَمَله بضربةٍ شديدة جعلته يقع على عَجُزه. ثم وثب على أبي جرول يعاجله بضربة سيف لا تخطىء، فتشطره نصفين، ويخرُّ متخبطاً بدمائه، فينظر إليه علي (عليه السلام) ويقول:

قد علم القومُ لدَى الصباحْ أني في الهيجاء ذو نِطاحْ

وكان الصباح قد انبلج وطفا النور على عماية الفجر، عندما صارت هوازن وثقيف ومن معهما وجهاً لوجه مع المسلمين في الوادي، يلتحمون بقتالٍ عنيف، وعراك دموي شديد، ولكن بعزم واندفاع من المسلمين، وخُوارٍ وضَعفٍ من المشركين، ذلك أن المسلمين كانوا قد استعادوا الثقة بأنفسهم واستردوا اللُّحمة التي فقدوها، فهان عليهم الموت في سبيل الله، وأقدموا على اقتحام المعركة موقنين بأنَّ النصر لهم لا محالة.

وكان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يرقب مجرى القتال، بقلبٍ ملؤه الإيمان، وبعزمٍ لا يُضاهى، تطيب نفسه بعودة الوعي إلى نفوس المؤمنين، والشجاعة إلى صدورهم، فيعبِّرُ عن شدة هذا الصَّدام، ويقول: «الآن حميَ الوطيس»[1]، ثم يطلب إلى عمه العباس، الذي ظلَّ يلازمه كظله لا يفارقه أبداً، أن يناوله حفنة من الحصى، فيأخذها ويلقي بها نحو الأعداء ويقول: «شاهَتِ الوُجوه».. ولا يلبث الرسول الشجاع طويلاً في مكانه، بل ينزل إلى ساح الوغى، محرّضاً المؤمنين على الثبات، والبلاء الحسن، بقوله:

أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبد المطلبْ

ورأى المؤمنون نبيَّهم في قلب المعركة، فتنادوا صارخين: الله أكبر.. يا للمهاجرين! يا لَلأنصار!.. واشتدت السواعد، وتضاعفت القوى، وعظم البلاءُ الحسن، فإذا بجوّ المعركة

1 يعني استعرت الحرب. وهي من الكَلِمِ التي لم يُسْبَق النبيّ إليها.

يتحوّل من هزيمةٍ إلى نصر، وإذا بهوازن وثقيف ومن معهما يجدون أن كل مقاومة لم تعد ذات جدوى، وأنهم معرضون للفناء عن آخرهم، فما كان منهم إلاَّ أن أخذوا يفرون منهزمين، لا يلوون على شيء، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.

ولحق المسلمون بهؤلاء الأعداء يطاردونهم، وزادهم إغراءً بهذه المطاردة أن أعلن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: أنَّ من قتل مشركاً فله سَلَبُهُ.. وكان ابن الدغنة ممن يلاحقون فلول المنهزمين، فرأى جملاً عليه رَكْبٌ ظنَّ به امرأة طمع في سَلَبها، فأناخ الجمل، ليجد شيخاً كبيراً، تتفطّر ملامحه بالأسى والحزن.. فسأله هذا الشيخ:

ـ ماذا تريد بي أيها الرجل؟.

قال ابن الدغنة: أقتلك.. قال: ومن أنت؟ قال: ربيعة بن زُمَيع السُّلَمي. ثم ضربه بسيفه ـ وكأنَّ سِنِيَّ عُمْرِ هذا الشيخ الفاني جعلت يده ترتجف ـ فلم يصبه..

فقال له: «بئس ما سلّحتك به أمك! خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ فإني كذلك كنت أضرب به الرجال. ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمّة، فرُبَّ والله يوم قد منعتُ فيه نساءك».. ولكنَّ ذلك لم يُجدِ دريداً شيئاً، إذ عادَ ابن الدغنة فقتله لأنه مشرك..

وتابع المسلمون الأعداءَ حتى سهل أوطاس، وهنالك كانت نهاية المعركة حيث أوقعوا بهم الضربة القاضية، وهزموهم شرَّ هزيمة، وسَبَوا النساءَ والأولاد، فاحتملوهم إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم.

أما مالك بن عوف، فقد فرَّ وقومَه مع هوازن، وأخيراً افترق عنهم عند نخْلة، ثم ولَّى وجهه نحو الطائف يحتمي بها.

وكذلك كان نصرُ الله للمؤمنين نصراً مؤزَّراً. وكانت هزيمة المشركين تامة ساحقة، وكان الفضل في هذا النصر لله سبحانه وتعالى ولنبيّه الكريم في ثباته، ولتلك الفئة القليلة من ذوي القربى والصحابة الذين أحاطوا بالنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يمنعونه، ويذودون عنه، فيقوَوْن به، ويقوى بهم، وكذلك الأخيار يشدُّ بعضهم أَزْرَ بعضٍ في الملمَّات والصعاب، فتكون لهم وقفة عزٍّ تميّزهم عن الناس.

وفي هذه المعركة نزل قول الله تعالى:

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ}[1].

ولم يكن هذا النصرُ سهلَ المنال، بل دفع المسلمون ثمنَهُ غالياً من مُهَج الرجال وأرواحِ الأبطال الذين استشهدوا في الموقعة، وقد كان عددهم كبيراً، حتى قيل إن قبيلتين من المسلمين أُفنيتا، أو كادتا أن تُفْنَيا، وقد صلَّى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عليهم، داعياً لهم الله سبحانه أن يُدخلهم الجنة جزاءً على ما قدَّموا من تضحيات..

أما النتائج المادية للموقعة فكبيرةٌ، لقد كانت الغنائم التي حَصَلَ عليها المسلمون كثيرة، وقد أحصيت يومئذٍ فكانت اثنين وعشرين ألفاً من الإبل، وأربعين ألفاً من الشاءِ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، هذا عدا عن الأسرى الذين بلغ عددهم حوالي ستة آلاف من الرجال والنساء، نُقِلُوا مع الغنائم إلى وادي الجعرانة، حيث آووهم إلى أن يقضيَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أمرَه فيهم..

وبعد هزيمة هوازن، لم يبقَ إلاَّ الطائف وفيها ثقيف، ومالك بن عوف الذي هرب إليها مُحتمياً، فأَمَرَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بالمسير إلى الطائف في شهر شوَّال ذاته من سنة ثمان للهجرة..

وكانت الطائف من أشهر مدن العرب في شبه الجزيرة، بخصب أرضها، ولطيف مناخها حتى أنها كانت لتشكِّل بكرومها وأعنابها واحةً في وسط الصحارى، وهذا ما جَعَلَ أهلها ذوي ثروة طائلة، فحصّنوها وجعلوا لها أبواباً تُغلَق عليها كأكثر مدن العرب في ذلك العصر، وقد أدَّى بهم هذا التحصين المنيع لاكتساب دراية بحرب الحصار وخبرة في الدفاع عن مدينتهم.. فلمَّا بلغها المسلمون، كانت الحصون قد أغلقت في وجوههم، فأمر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يقيموا معسكرهم على مقربةٍ منها. وفيما هم منهمكون في ترتيب المعسكر، كانت ثقيف قد اعتلت جدران الحصون وراحت ترشقهم بالنبال حتى قتلت جماعة منهم وجرحت أخرى، عندها أمر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بالمعسكر فانتقل بعيداً عن مرمى النُّبل، وفي هذا المكان ضُربت قُبَّتان لزوجتيه أم

1 سورة التوبة، الآيتان: 25، 26.

سلمة وزينب، اللتين كانتا معه منذ ترك المدينة. وبين هاتين القُبَّتَين كان النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يصلِّي. فأقيم بعدها في المكان نفسه مسجدٌ في الطائف تيمّناً وتبرّكاً..

كانت الحصون منيعة، فلم يفلح معها الحصارُ، خصوصاً وأن ثقيفاً كانت لخبرتها ودرايتها أذكى من أن تخرج للقتال، فظلت في مواقعها، تمنع المسلمين من الاقتراب نحو الحصون.

وأقامَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ينتظر مع الصحابة، ما الله صانِعٌ بهم وبعدوِّهم، حتى مرَّت فترة والحال كما هي لا تتبدّل، فجاءه أحد الأعراب يقول له:

«يا رسول الله، إنما ثقيف في حصنها كالثعلب في جُحره، لا سبيل إلى إخراجه منه إلاَّ بطول المُكْث، فإن تركته لم يلحقك منه ضُرٌّ».

ولم يلْقَ هذا العرضُ بترك الحصار تجاوباً لدى النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، فراحَ يتفكّر في وسيلة تمكّنه من إصابة ثقيف. وكان معه في الحصار الطفيل الدوسي، الذي صحبه ولم يفترق عنه منذ غزوة خيبر، فأوفده النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى بني قومه يستنصرهم، لعلمه أن بني دوس، المقيمين في أسفل مكة، عندهم علم بالرماية بالمنجنيق وبمهاجمة الحصون في حماية الدبابات[1]. وذهب الطفيل فجاء بطائفة من قومه ومعهم أدواتهم، وكان ذلك بعد أربعة أيام من حصار المسلمين للطائف.

ورمى المسلمون هذه المدينة بالمنجنيق، فلم يكن لرماياتهم أثرٌ يذكر. فزحفوا إليها بالدبابات يريدون الوصول إلى جدرانها ليخرقوها، ولكنَّ رجال الطائف لم يمكنوهم من هذا الخرق، إذ سارعوا يُحْمُون الحديد بالنار حتى إذا انصهرت قطعه ألقوا سائلها على الدبابات فأحرقتها، مما اضطر المسلمين للتراجع من تحتها خيفة أن يحترقوا، وأثناء تراجعهم رمتهم ثقيف بالنبل فقتلت جماعة أخرى منهم وكان عبدالله بن أبي بكر الصديق قد أصيب في هذا الحصار، مع من أُصيبوا وجرحوا، فلم يندمل جرحه بعد ذلك حتى توفي منه في المدينة، بعد انتقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الرفيق الأعلى.

فشلت محاولات المسلمين في دخول الطائف، وحالت حصونُها دون فتحها، ولكنَّ ذلك لم يفتّ في عَضُد النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فارتأى اعتماد وسيلة جديدة علَّها تكون الأجدى في قيادة ثقيف إلى الاستسلام. وقد كانت خطته رغم أنه يكره قَطْع الشجرة ـ كما

---

1 الدبابات يومئذٍ عبارة عن صناديق كبيرة من الخشب عليها جلد، وفيها ثقوب صغيرة للرؤية، يدخل تحتها الرجال ويدبون بها حتى يقتحموا الحصون، فكانت وسيلة لاتقاء النبال والسهام.

ظهر جلياً في وصاياه إلى جيوشه من قبل ـ أن يأمر بتقطيع كروم ثقيف وإحراقها، لأن الشجرة وإن كانت مصونة عند النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ أنها لا تعود كذلك إن اعتمدت وسيلة لمحاربة العدو، وتحقيق النصر في المعركة. وبالفعل نفّذ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، خطته فأَمَرَ المسلمين بالكروم يقطعونها. ورأت ثقيف ما يحلُّ بأحد أهم مواردها الاقتصادية، وتبيّن لها أن محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، جادٌّ في هذا الأمر، فبُعث إليه أن يأخذ هذا الرزق لنفسه إن شاء أو أن يدعه لله وللرَّحم لما بينه وبينهم من قرابة..

عندها أمرَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بالتوقف عن القطع، وبعث من ينادي في ثقيف: «إن رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مُعتقٌ من جاء إليه من الطائف».. ففرَّ إليه قرابة عشرين من أهلها، وكان هذا الفرار وطلب العدو أن يترك أرزاقهم بداية لكسر شوكة ثقيف وإذعانها لمشيئة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فيما بعد..

ثم انقضى شهر وما زال المسلمون على حصار الطائف، وبانقضائه كان ذو القعدة قد أهلَّ والأشهر الحرم قد آذنت، فآثر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يرفع الحصار وأن يرجع بجيشه إلى أن تنتهي تلك الأشهر الحرم، فيكون بعدها الأمرُ لله سبحانه، فإمّا أن يعود لقتال ثقيف وفتح الطائف، وإمّا أن يكون أهلها قد اهتدوا وجاؤوه مسلمين.. وقد قال للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف: «يا رسول الله؛ ادعُ عليهم»، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون، اللَّهم اهْدِ ثقيفاً وأْتِ بهم».

ونزل المسلمون بالجعرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم. وإنهم لفي ذلك النزول إذ جاء وفدٌ من هوازن قد أسلموا، يرتجون أن يردَّ عليهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، نساءهم وأبناءهم وأموالهم، بعدما ذاقوا أشدَّ العذاب لفراقهم، وأبشع الهوان والذلّ لأسْرِهم.. جاءَ هذا الوفد يبدي إسلامه وشكايته، فقال رجل: «يا رسول الله، إنما في الحظائر [1] عماتك وخالاتك وحواضنك اللواتي كُنّ يكفلنك. ولو أنَّا مَلَحْنا[2] للحارث بن أبي شمِر الغساني، أو للنعمان بن المنذر[3]، رجونا عطفه وعائدته[1] علينا وأنت خير المكفولين»..

1 الحظائر: الأمكنة التي وضع فيها السبي.
2 مَلَحْنا: أرضعنا.
3 الحارث بن أبي شمر الغساني هو ملك الشام من العرب، والنعمان بن المنذر ملك العراق.

وسأل الرسول عن حواضنه، فقيل له: إنَّ أختك من الرضاعة بين السبايا، فطلب أن يأتوا بها، فلمَّا جاءت عرف حقاً أنها أخته، الشيماء بنت الحارث بن عبدالعُزّى، التي طالما حملته ودغدغته على ذراعيها، يوم كان صبيّاً في المهد، وأمها حليمة ترأف به وتحنو عليه.

فماذا يفعلُ محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، يا ترى وقد وَجَدَ هذه الأخت بين السبايا؟!..

لقد قام من فوره يبسط لها رداءه ويجلسها عليه، ثم يدنو منها محباً، عطوفاً، مؤانساً، يتذكران أيام الطفولة في ديار بني سعد من هوازن، وكيف عاشا سويّة هناءة تلك الأيام، ويسألها عن أمه حليمة، وعن زوجها الحارث، وعن إخوته وأخواته في الرضاعة، والناس من حوله يتطلعون ويسمعون، متفكرين بإنسانية رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ووفائه، وبخصاله النبيلة، التي تسمو على الخصال، وتعلو على الصفات مهما كبرت عند بني البشر، فيحمدون الله تعالى أن هداهم إلى الإيمان بفضل هذا الرسول الكريم..

وبعد أن اطمأنت الشيماءُ وفرحت بلقاء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، خيّرها إنْ أحبت أبقاها عزيزة مكرمة، يكفل كهولتها، ويردُّ عنها غائلة الدهر، وإن أحبت متَّعها وأَرجَعَها إلى قومها، فاختارت الرجوعَ إلى قومها.

ولم يكن هذا العطف المحمدي ليقتصر على الشيماء بنت الحارث وحدها، بل وَجَبَ أن يشملَ كلَّ من جاؤوه من هوازن مسلمين، نادمين، فقال لهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟». قالوا: «يا رسول الله، خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا! بل تردّ علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحبُّ إلينا». فقال لهم: «أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم وإذا ما أنا صلَّيت الظهر بالناس، فقوموا وقولوا: إنا نستشفع رسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم».

ولما كان الظهر وانتهت الصلاة، وقف رجال هوازن يستشفعون في أبنائهم ونسائهم، فقال الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «وأما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم».

فقال المهاجرون: «وما كان لنا فهو لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم».

وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم».

---

1 عائدته: فضله.

فقال الأقرعُ بن حابس: «أما أنا وبنو فارة فلا»..
وقال عباس بن مُرداس: «وأما أنا وبنو سُلَيم فلا»..
ولكنَّ بني سليم رفضوا موقف ابن مرداس، وقالوا: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.
وهنا قال رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «أمَّا من تمسَّك منكم بحقه من هذا السَّبي، فله بكل إنسان ستُّ فرائض من أولِ سَبْي أصيبه، فردّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم».
وكذلك رُدَّتْ نساءُ هوازن وأبناؤها إليها، وكان ذلك بفعل إسلامها، وبفعل عظمة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وإنسانيته التي لا تضاهى..
وسأل رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عن مالك بن عَرْف، ماذا فعل؟ فقيل له إنه ما يزال بالطائف مع ثقيف، فقال لوفد هوازن: «أخبروا مالكاً إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مئة من الإبل».
ولم يُعتِّمْ مالك حين أتاه خبر عفو النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، عنه ـ إن أتاه مسلماً ـ أن تجهّز سرّاً، حتى لا تراه ثقيف، ثم خرج من الطائف في وسط الليل حتى قدم على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأعلن إسلامه، فردَّ عليه أهله وماله، وأعطي فوقها مئةً من الإبل. وقد عبّر مالك عن مشاعره بعد إسلامه، فقال:

ما إنْ رأيتُ ولا سمِعْتُ بِمِثْلِهِ
في الناسِ كلِّهم بمثْلِ مُحمَّدِ
أَوْفى وأَعْطى للجَزِيل إذَا اجْتُدِي[1]
وإذا تَشَا يُخبِرْكَ عَمَّا في غدِ
وإذا الكَتِيبةُ عَرَّدتْ[2] أَنْيابُها
أَمَّ العِدَى فيها بكُلِّ مُهنَّدِ[3]
فَكَأَنهُ ليثٌ لَدَى أَشْبالِهِ

1 اجتُدِي: سُئل الجدوى أي العطية.
2 عرَّدت أنيابُها: غلظت واشتدت.
3 المهنَّد: السيف المصنوع من حديد الهند.

وَسْطَ الهَبَاءَةِ[1] خادِرٌ في مَرْصَدِ[2]

ورأى الناس أن رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يعطي كلَّ من جاءه من هوازن أهلَهُ ومالَهُ، فخافوا أن تُنقِصَ هذه الأعطيات قسمتهم من الغنائم، فسرى الهمس بينهم، يُريد كل واحدٍ أن يأخذ فيْئه، حتى بلغ ذلك الهمسُ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فوقف إلى جانب بعير، وأخذ وَبَرَةِ من سنَامِهِ فجعلها بين إصبعيه، ثم رَفَعَهَا وقال: «أيها الناس، والله مالي في فيئكم ولا هذه الوبرة إلاَّ الخُمْس، والخُمْسُ مردود عليكم».

ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن يردَّ كل واحد ما غنم، حتى تقتسم الغنائم بالعدل، وهو يقول للناس: «فمن أخذ شيئاً في غير عدل ولو كان إبرةً، كان على أهله عاراً وناراً وشناراً إلى يوم القيامة». ونادى منادي الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «من أخذ شيئاً فليرده حتى الخيط والمخيط»..

وتدفق الناس يردون غنائمهم، فجاء رجلٌ من الأنصار بكبّة من خيوط الشعر، فقال: «يا رسول الله، أخذت هذه الكبَّة أعمل بها برذْعة بعير لي» فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أما نصيبي منها فلك». فقال الأنصاري: «أما إذْ بَلَغَتْ هذا، فلا حاجة لي بها، ثم طرحَها من يده بين الغنائم».

وكان عقيل بن أبي طالب، قد أتى بإبرةٍ وأعطاها لزوجه، فاطمة بنت شيبة بن ربيعة، قائلاً: «دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك».

فلما سمع المناداة بإعادة كل شيء، رجع إلى امرأته يقول لها:

«ما أرى إبرتك إلاَّ قد ذهبت»..

ثم أخذها وألقاها في الغنائم..

وأتى رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فخمَّس الغنيمة، ثم فصل الخُمْس لنفسه، ووزع الباقي على الناس. فكان نصيب المجاهد لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاةً، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة. ووزع من خُمسه على قادة القبائل بُغْية تأليف قلوبهم وقد كانوا إلى الأمس القريب أشدَّ أعدائه، وهم الذين وقفوا في أتون المعركة ينظرون، وبعضهم يبدي الشماتة، فأعطى لهؤلاء أكثر من المجاهدين، فكانت مئة من

1 الهباءة: الغبار يثور عند اشتداد الحرب.

2 خادر في مرصد: مقيم في عرينه.

الإبل لكل من أبي سفيان بن حرب، وابنه معاوية، والحارث بن الحارث بن كَلَدَة، والحارث بن هشام بن المغيرة، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبدالعُزَّى، والسائب بن أبي السائب، وغيرهم من رؤساء بني بكر، وقيس، وسليم، وغطفان، وفزارة، وتميم.. حتى لم يبق أحدٌ من أشراف القبائل وزعماء العشائر، ممن تألف بعد فتح مكة، وحضر وقعة حنين، إلاَّ وأعطي مئة من الإبل، وبعض الفضة.

وكان نصيبُ مَن دُونَ هؤلاء شأناً، خمسين من الإبل، وقد بلغ عددهم عشرات..؟.

وبينما كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يعطي هؤلاء الناس المؤلَّفة قلوبهم قام رجل من تميم يقال له «الخُوَيْصرة»، فقال: اعدلْ يا رسول الله!..

فقال النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم: وَيْلَكَ إنْ لَمْ أَعْدِلْ أنا فَمن يعدل؟!..

فقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله، ألا أقتله؟».

قال له النبي الرحيم: «دَعْه، فإنه سيكون له أتباعٌ يتعسفون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية»..

وقد كان عطاء الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لهؤلاء المؤلفة قلوبهم كبيراً إلى حدٍّ قضى لهم جميع حاجاتهم. فقد أعطى صفوان بن أمية مئة من الإبل، ثم مئة، ثم مئة.. ونظرَ إليه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد هذا العطاء الكبير فرآه يرمق شِعْباً مملوءاً نِعماً وأغناماً، فقال له:

«أَعجَبَكَ هذا الشِّعْب يا أبا وهب».

قال: نعم..

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «هو لك بما فيه»..

عندها قال صفوان: «إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا، ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلاَّ نبيٌّ، أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنك رسولُ الله»..

فكان كرمُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، هذا سبباً في إسلامه، قبل انقضاء المدة التي استمهله فيها ليختار بين بقائه على الشِّرك أو يدخل في الإسلام..

على أنَّ هذا الذي تألَّف به النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قلوب تلك الفئة من قريش ومن قبائل العرب، لم يعجب بعض المسلمين، ولم يدركوا الحكمة من ورائه، مما جعل الأنصار يتحدث بعضهم إلى بعض، حتى قال قائلهم: «لقيَ والله رسولُ الله قومَه».

ولشدة تأثُّر الأنصار بما صنعَ الرسولُ، صلى الله عليه وآله وسلم، جاءَهُ سعد بن عبادة يبلّغه وجْدَ أنفسهم عليه وهو يقول: «يا رسول الله، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، فقسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار شيء»..

فقال له الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «وأين أنت منهم يا سعد؟».

قال سعد: «إنما أنا رجل أيَّدَ قومَه فيما يقولون».

فقال له الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «اجمع لي قومك».

فلما اجتمع الأنصار وقف النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يخاطبهم قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، ووجَدةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألّفَ الله بين قلوبكم؟».

قالوا: بلى! الله ورسولُهُ أمنُّ وأفضلُ.

قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار!.

قالوا: بماذا نجيبك يا رسولَ الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضلُ.

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتُمْ ولَصُدِّقْتُم. أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أوجَدْتُم يا معشر الأنصار في لُعَاعةٍ (الشيء اليسير) من الدنيا تألّفتُ بها قوماً ليُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار. ولو سلك الناسُ شِعْباً وادياً وسلكتِ الأنصارُ شعباً وادياً لسلكتُ شعْبَ الأنصار ووادِيها. الأنصار شِعار، والناس دِثار. اللَّهم ارحم الأنصارَ، وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار».

هذا الصدقُ المحمديُّ، وهذا الوفاءُ النبويُّ جعلا الأنصارَ يبكون بحرقة في العيون حتى اخضلّت لِحاهُم من الدمع، فقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً.

وقاموا إليه، يتقدمهم الشيوخ والسادة، يقبلون يديه، ويرجونه مسامحتهم وهم يقولون: «رضينا بما قسمت يا رسول الله وهذه أموالنا بين يديك فإن شئت فاقسمها على قومك، وإنما قال من قال منا مِنْ غير وغْر صدرٍ، وغلّ في قلب، ولكنهم ظنوا سخَطاً عليهم، وتقصيراً منهم، وقد استغفروا الله من ذنوبهم، فاستَغْفِر لهم يا رسول الله».

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللَّهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار» وقد أعادَ هذا التسامحُ السكينة إلى نفوس الأنصار، فرجعوا إلى رحالهم راضين مستبشرين.

إن هذا الموقف بين رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وبين الأنصار، كان أبلغ درسٍ في السياسة الرشيدة التي كان يعتمدها صلى الله عليه وآله وسلم في معالجة شتَّى القضايا والأمور، والتي كان من خلاها ينفذ إلى القلوب فيريحها، وإلى النفوس فيملأها بالطمأنينة، وإلى العقول فيتملَّكها ويأسرها بالإيمان بالله وبه رسولاً، ذلك كان نهجه الدائم في كل مرة كانت القلوب تحتاج فيها إلى الراحة، والنفوس إلى الاطمئنان، لأنه هو نهجه الذي لا يحيد عنه إذ يخاطب الفكر والعقل في كل مرة يقتضي المواقف العقلانية في المنهجية والتطبيق..

ولقد كانت تلك المعالجات تتم بالصدق والإخلاص المعروفين عن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وتوزن بالميزان المحمدي العادل، الذي لم تعرف البشرية في تاريخها، لا من قبلُ، ولن تعرف من بعدُ، مثل هذا الميزان لأنَّ في إحدى كفتيه دائماً حكم السماء، وفي الكفة الأخرى فِعال البشر، ولا يمكن لهذه الفعال أن تستوي في نظر محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم إلاَّ إذا توافقت مع حكم الله تعالى، لأنه وحده الحكم، الثابت، الأزلي..

وهذا الميزان المحمدي كان يطبقه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على نفسه، مثلما يطبقه على الآخرين. فعندما جَمَعَ إليه الأنصار، ذكّرهم أول ما ذكّرهم بفضله عليهم، هدايةً، وغِنىً، وتأليفاً للقلوب بإرادة الله سبحانه وحكمته، ثم عادَ يذكرهم بفضائلهم هم عليه ونصرتهم للدعوة، وجهادهم في سبيل إعلاء كلمة الله، وكل ذلك بلا أي تردّد أو تحفظ، بل إظهاراً للحقوق والفضائل..

ولقد أثبتَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن مخاطبته الصادقة لهؤلاء الأنصار كانت بمنزلة الدواء للوجد الذي أحسّوا به، وشفاءً لوهْمِ الإجحاف الذي ظنّوه، فإذا هم الأتقياء، الأصفياء، المخلصون المستغفرون، وإذا هو الرسول الأعظم الذي ارتفع بهم إلى أعلى مراتب السمو الإنساني التي تعلو بهم على المال والجاه، وتنأى بهم عن الغنائم والمتاع، وعن كل ما يُغري الناس ويتدافعون عليه من متاع الحياة الدنيا.

ولم يكن الأنصار وحدهم قد ساورهم بعض الظن في صنع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أثناء توزيع الفيء، بل إنَّ بعض الصحابة أتوه قائلين: «يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس مئة، وتركتَ جُعَيْلَ بْنَ سُراقَةَ الضمَّري».

فقال: «والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من مثل عيينة والأقرع، ولكنّي تألفتهما ليُسلما، ووكلتُ جعيل بنَ سُراقة لإسلامه».

على أنه مهما تكن الظنون التي رافقت نفوس الناس، أو الاعتراضات التي ظهرت على تقسيم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، للغنائم، فإنَّ أمراً جوهرياً يجب ألاَّ يغيب عن الأذهان، وهو أن عطاءه صلى الله عليه وآله وسلم للمؤلّفة قلوبهم كان من الخُمس الذي هو حق خالص للرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يضعه حيث يشاء ويعطيه لمن يشاء من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل! بدليل قوله تعالى:

{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ}[1].

فقد استعمل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، خُمُسَه في أسمى وأعلى غاية، ألا وهي هداية فئة من الناس إلى الإيمان الحق، فقد وجد أن الدعوة الإسلامية توجب تأليف القلوب، وقد شهد موقعة حُنَين جماعة من سادة قريش وقادة قبائل العرب الذين لهم منزلة في قومهم، فلماذا لا يعطيهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، من هذا الفيء العظيم، إن كان في هذه العطاءات، ومهما بلغت، ما يزيل الضغينة التي ما زالت في قلوبهم على الدعوة . وقد بدت جلية في مقالتهم أثناء احتدام المعركة . ويجعلهم على طريق الإيمان الحق، بما يتناسب مع جوهر الدين الإسلامي الذي لا يحفل إلاَّ بصاحب الإيمان الصادق وليس بمن يدخلون فيه لسبب أو لآخر، دون أن يلامس ذلك الإيمان قلوبهم؟!...

فتلك هي العبر في ذلك التوزيع، وتلك هي العِظات في تصرف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، هذا فضلاً عن أنَّ إعطاء المؤلفة قلوبهم هي فريضة من الله، واجبة من الصدقات الدائمة في الإسلام، وليس فقط من الغنائم التي تحصل في ظرف معين، وذلك لقوله تعالى:

{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[1].

---

1 سورة الأنفال، الآية: 41.

وكما كانت الدروس الهادية التي أعقبت غزوة حنين والطائف، كذلك كانت أحداثها مليئةً بالدروس الهادفة المربِّية.. فقد خرج المسلمون للجهاد في سبيل الله، ودَحْر الشرك في بعض الجيوب الداخلية، بعد فتح أَغلاق مكة، وبعدما دانت قريش القوية المتغطرسة لسلطان الإسلام، ومكَّن الله سبحانه لرسوله وللمؤمنين من نواحي هذا العدو ومن نواحي غيرهِ من العرب.

لقد خرجوا، وهم في فوْرة الفوز بالفتح المبين، وفي سوْرة العُجب بما كانوا عليه من كثرة العدد وقوة العتاد.. وقد نظروا إلى كثرتهم تلك فأعجبوا بها، واطمأنوا إليها، معتقدين أن هذه الكثرة هي مصدر القوة وسبيل النصر.. إلاَّ أنهم ما لبثوا أن فروا من وجه هذا العدو حين فاجأهم بانحداره إليهم، مولِّين الأدبار، لا يلوُون على شيء، يتدافعون أمامه تدافع السيل، ويتكبكبون تكبكب الأنقاض من البناء الشامخ الذي انهار أعلاه على أسفله. ومما لا شك فيه أن الهزيمة كانت قد حلّت بهم لولا ثبات النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ومعه تلك الفئة القليلة التي باعت أنفسها لربّها، وأحاطت بهذا النبي الكريم الدائم الصلة بربه، فمدَّها بالثقة واليقين، وتوجه بقلوبها إلى الباري، فاستمدت منه العون والمؤازرة.. نعم لقد كان لإخلاص هذه الفئة القليلة، وحُسْن صِلتها بالله وبرسوله، والتجائها إلى الإيمان، أكبر الأثر في تسيير الموقعة، إذ أمدَّها تعالى سريعاً بالمدد اللازم وهو يوقظ سبحانه وتعالى الضمائر في صدور الفارين، ويزيل الغشاوة عن بصائر الهاربين، فينزل السكينة على قلوبهم، ويعيدهم إلى القتال ليبدلوا اليأس بالبأس، والضعف بالقوة، وتتحول الهزيمة إلى نصر مؤزر.

لقد ركن المسلمون إلى أنفسهم ساعة من الزمن، فوكلهم الله إلى تلك الأنفس، وكانت النتيجة غلبة العدوِ لهم، رغم كثرة العدد. ولكنهم لمَّا رجعوا إلى ربهم واستعانوا به، جاءهم العون فكان لهم النصر الكريم والفوز العظيم..

وأدرك المسلمون أن النصْرَ حقاً بيد الله وحده، ومصدر هذا النصر هو دائماً صدق الإيمان بالله، وحسن الاعتماد عليه، أما الكثرة والعتاد، والتعبئة، وحسن التنظيم، وما إلى ذلك من الأمور والشؤون التي يكون التوسلُ بها والاعتماد عليها فإنها كلها، أو كل واحدة منها، لا تكفي لإحراز النصر، ولا تأتي إلاَّ في المقام الثاني من أسباب القوة لخوض المعارك

1 سورة التوبة، الآية: 60.

وتحقيق الانتصارات، إذ يبقى المقام الأول، بل الأساس الثابت هو الاعتماد على الله سبحانه، لأنْ لا قوةَ تستمد إلاَّ من الله، ولا نصرَ إلاَّ من عنده.

هذه حقائق لا ينبغي أن تغيب عن أذهان المسلمين، فهل يدركون هذه الحقائق؟ وهل يشعرون اليوم بمقدار ضعفهم أمام أعدائهم؟ وهل يعرفون سرَّ ما هم عليه من ضعف، على رغم كثرة ما هم عليه من العدد، وما عندهم من الإمكانيات والقدرات، التي يمكن أن تتحكم إلى حدٍّ بعيد بمصير العالم كله لو أحسنوا استعمالها واستغلالها؟.

قد يكون جُزافاً القول بأن هنالك سرّاً لضعف المسلمين يجب عليهم إدراكه... والحقيقة أنه لا سرَّ هناك على الإطلاق، ما دام الأمر واضحاً وضوح النهار، وبمثل هذا الوضوح لا يبقى مجال لأن يُغمض المسلمون أعينهم، ويحاولوا نكران ما هو ظاهر لهم، أو يطالبوا بالأدلة على صدق هذا الظاهر.. فإذا كان لا يصح في الأذهان شيء للتدليل على النهار والشمس ساطعة، فإنه كذلك لا يصح في أذهان المسلمين شيء للتدليل على واقع ضعفهم وتشرذمهم في هذه الأيام.. فقد هجر المسلمون دينهم ونسوا الله خالقهم وبارئهم، فأنساهم سبحانه وتعالى أنفسهم حتى غدوا كزرعٍ غاض ماؤه، وانقطع عنه غذاؤه، فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيءٍ مقتدراً.

إن موقف المسلمين اليوم، كموقف السابقين في بداية معركة حُنين، ولكن الفارق الذي يبقى بين الموقفين هو أن مسلمي حُنين أفاقوا من الغشية التي أصابتهم، وسارعوا بالرجوع إلى ربهم، فسارع إليهم نصرُ الله تعال وتأييده، فالله سبحانه لا يغيِّر ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم.

أما مسلمو اليوم فطالما أن هذا التغيير مفقود عندهم، وطالما أن رجوعهم إلى ربهم ما زال مفقوداً، فإنهم سيظلون كثرة لا غنى فيها، وأينما نظرنا إليهم سنراهم فئاتٍ مغلوبةً على أمرها، يتحكم فيها أعداؤها وأعداء دينها، وينعمون دونها بخيراتِ أوطانها، ويسخرونها في منافعهم كسُخرة الأسياد للعبيد، ويتحكمون بمصائرها وتقرير مصير حياتها بمثل ما يريدون ووفق ما يرغبون.. فكأن المسلمين قد أصبحوا يعنيهم الشاعر بقوله:

ويُقضَى الأمرُ حين تغيب تيمٌ

ولا يُستأذَنون وهم شهودُ

وستبقى شعوب الإسلام عاجزة عن اتخاذ القرار رغم كل تمثيلها في المنظمات الدولية والإقليمية، ورغم كل حضورها في المؤتمرات، أو إبرامها للمعاهدات، لأن في ذلك التمثيل أو الحضور، وفي هذا الإبرام، يبقى ما هو خفيّ عنها، وعاملٌ ضد مصالحها، أكثر مما هو ظاهرٌ لها ومطلعة عليه..

فهل آن الأوان بعد هذه الرؤية الواضحة، لأن يستيقظ المسلمون، كلُّ المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، من سُباتهم العميق، ويفيقوا من غفلتهم الطويلة، حتى يستعيدوا الثقة بأنفسهم، ويصلوا ما بينهم وبين ماضيهم المجيد، وعزهم السالف، وأيامهم الميمونة؟!...

لا! لم تصل الأمور بعدُ إلى درجة اليأس، فتباشير اليقظة تلوح في الأفق، والوعي بدأ يدبُّ في العالم الإسلامي، مبشراً بفجر جديد، وبمطلع من مطالع النور لهذه الأمة الحائرة في أمرها. والحيرة أيتها الأمة الكريمة هي: الظلام الدامس بعينه، وهي التي تأخذ بيد صاحبها إلى ساحة التردد لإبعاده عن جادة الهداية.. ولكن على المسلمين، وقد أنعم الله تعالى عليهم بنور الهداية، أن يهتدوا بشعاع هذا النور، فيخرجوا من الظلمات التي تحيق بهم، ويتعرفوا على دينهم وما أودع الله تعالى فيه من ذخائر القوة والعزة والسعادة، وبذلك تكون لهم القوة بعد الضعف، والعزة بعد المذلة، والسعادة بعد الشقاء. حقق الله أماني المسلمين الواعين، المدركين، وهدانا جميعاً إلى الصراط المستقيم.

ولئن كان هذا الربط بين ماضينا وحاضرنا ضرورياً ونحتاجه إلى إعادة الوعي فينا، فإن سيرة خاتم الأنبياء، محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، تبقى ذخراً حيّاً لنا، نستمدُّ منها الإلهام والعبرة، والنهج والطريق، في كل ما نحتاجه، وما نتطلع إليه.. ولقد أظهر محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ما يفوق حدَّ التصور من بعد النظر وحسن السياسة، أثناء حنين والطائف وبعدهما، وذلك مكَّنه من العودة بألوف المسلمين من العرب وكلّهم راضيةٌ نفسُه، مطمئنٌ قلبُه، يعظّم الله سبحانه، ويحمد رسوله الكريم، ذلك الرسول الأعظم الذي أقام في الجعرانة، بعد إيذان الأشهر الحرم بالمجيء، فترة من ذي القعدة، حتى إذا خرج من الجعرانة إلى مكة، كان معتمراً فلما قضى عمرته، وثبّت عتابَ بن أُسيد في استخلافه على مكة، وخلّف معه معاذ بن جبل ليفقّه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، عادَ هو والأنصار والمهاجرون إلى المدينة لست ليالٍ بقين من ذي القعدة سنة ثمانٍ للهجرة.

عادَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى المدينة، بعد فتح مكة وانتصاره في حُنين وحصاره للطائف كما فصَّلنا سابقاً بعد أن اعتمر في الجعرانة وسار إلى مكة حتى إذا فرغ من عمرته، رجع إلى المدينة، وهو في ذلك كله مطمئن إلى تأييد الله سبحانه، وإلى النصر المؤزر الذي حققه في تلك المسيرة التاريخية التي جعلت الجزيرة برمَّتها خاضعة لسلطان الإسلام، أو على طريق الخضوع لهذا السلطان. ولقد قاسى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنون في تلك المسيرة، فترة طويلة من العناء والمشقة، إلاَّ أنه صلى الله عليه وآله وسلم تحمَّل منها النصيب الأكبر، بوصفه القائد الأعلى لجيشه، والحاكم في شؤون الناس، والمرشد إلى الدين، فكان بحاجة إلى فترة يهدأ فيها بعد التعب، ويرتاح من ثقل الأعباء، وهموم المسؤوليات.. ولكن! مَنْ كان هو محمد، صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي يحمل على عاتقه أكبر تكليف نزل من رب العالمين، فهل يركُنُ إلى الراحة طلباً للراحة، أم أنه يتخذ من تلك الراحة، خلوة إلى النفس، يستجمع فيها الأفكار ويقوِّمُ الأعمال، ويرسم السُّبلُ التي تقوي صروح الإيمان، والطرقَ التي تدعّم أركان الدولة، فتنطلق بهما الدعوة إلى آفاق جديدة، وإلى بقاع خارج حدود شبه الجزيرة؟!.

إنه لمن حقه أن يقضي بين أهله والمؤمنين وقتاً من السكينة، ولكنها تبقى في جميع أحوالها، سكينةَ المعرفة التي تتلقى الوحي، وهَدْأَة الراحة التي تدرس الماضي وعِبَره، وبساطة العيش التي ترتقب المستقبل وتطلعاته وتعدُّ له عدته.. وحقيقة هذه المعرفة بشموليتها واتساعها، وفي جوهر ما تحتويه من أمور الدنيا، وأخبار الآخرة، إنما كانت دائماً وأبداً قبساً روحانياً يهبه الله تعالى إلى نبيه الكريم، ومنهجاً عملياً يرشد به رسوله العظيم..

ولكي يمكن لبني البشر إدراك هذه المعرفة، والوقوف على حقيقتها، فإن عليهم الاهتداء بنورانية القرآن الكريم.. ومن هنا نرى أن المعرفة تقوم على درجات ثلاث:

أولاها: علم اليقين، أي المعرفة التي تقوم على الخبر الصادق الأكيد، كما لو عاد شخص صادق من مكة المكرمة وأخبر عما رأى خلال زيارته لبيت الله الحرام، فتكونت لدى سامعه فكرة صحيحة عما أُخبرَ عنه، ثم راح يرويها كما سمعها، فهذه الفكرة هي بمنزلة علم اليقين عنده، وذلك مأخوذ من قوله تعالى:

{كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}[1].

أي لو كنتم تعرفون المسائل على حقيقتها لكنتم كأنكم تنظرون إلى نار جهنم وترونها رأي العين.

والثانية: عين اليقين: أي المعرفة التي تقوم على المُشَاهَد المحسوس، وعلى الرؤية بالعين المجردة، كما لو ذهب من تكوَّن لديه علم اليقين بنفسه إلى الحج، ووقف بنفسه على معالم هذا الحج، وذلك مأخوذ من قوله تعالى:

{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[2].

أي من المؤكد أنكم سترونها بأعينكم حين تعرض عليكن، وبعينها وبذاتها، فتحصل لكم المعرفة اليقينية بالعين والذات..

والثالثة: حق اليقين: أي المعرفة التي تقوم على التجربة والممارسة الفعلية، كما لو قام قاصد الحجّ بالطواف على الأماكن، وتأدية الشعائر والمناسك التي تستلزمها هذه الفريضة، حتى تتكوَّن لديه المعرفة بالأماكن ويتوفّر له العمل الفعلي بأداء الواجب ممَّا يجعله يتحقق يقيناً من كل ما لمسه وقام به، وذلك ينطبق عليه قوله تعالى:

{إِنَّ هذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[3].

أي الحق الذي توصلت إلى معرفته الحواس بأجمعها فصار حقاً ممثلاً في الإدراك ومجسّداً في الفكر، ويلامس الحواس كلّها، ويستولي اليقين، أي التصديق الحازم به على الكيان والعقل والحواس جميعها حتى صار عقيدة.. وإذا كانت درجات المعرفة هذه تواجهنا في جميع شؤون حياتنا، فإن القرآن الكريم أرادها للتدليل على حقيقة البعث، ولإقناع الناس بأن هناك فعلاً نشأة أخرى بعد النشأة الأولى... فالقرآن الكريم في «سورة التكاثر» كما في سورة «الواقعة» وكما في غيرهما من موارد الكلام عنه، يخبر الناس بأنهم مبعوثون لا محالة.. فالمؤمنون المصدّقون تتكون لديهم المعرفة عن هذا البعث، وتكون معرفتهم هي «علم اليقين»، باعتبار أنهم قد آمنوا بما جاء به محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وأيقنوا بصدقه وعلموا أن ما يقوله هو الحق بعينه.

1 سورة التكاثر، الآيتان: 5، 6.
2 سورة التكاثر، الآية: 7.
3 سورة الواقعة، الآية: 95.

فإذا كان الموت، وبُعث الناس، ووجدوا أن ما أخبرهم به القرآن حقيقة يرونها بأم العين، ويحيونها بالحواس فإنهم هنا يكونون قد وصلوا إلى معرفة «عين اليقين»، التي لا ريب فيها ولا شك.. حتى إذا تفرّقَ الأحياءُ المبعوثون، كلٌّ إلى مصيره، وصار هؤلاء في النعيم، وزُجَّ أولئك في الجحيم بنتيجة الأعمال في الحياة الدنيا كان هذا «حق اليقين».. فسبحان الله الخالق العظيم، الذي هدانا إلى الحق والمعرفة ولولاه لما كنا نهتدي..

ولقد كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يحيا بالقرآن وحياً وتنزيلاً، وتوجيهاً وعملاً. فعن طريق «علم اليقين» جاءته الرؤية الصادقة والخبر اليقين من ربه تعالى بفتح مكة. وبمقتضى معرفته بهذا الفتح عقد معاهدة الحديبية التي اعتبرها بعض الصحابة جائرة بحقوق المسلمين حتى إذا كان الموعد وتحقق الوعْدُ الصدق، ودخل النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنون إلى مكة في عمرة القضاء، كان ذلك «عين اليقين». فلما دانت مكة بالإسلام، ومورست فيها شعائره، وطبقت أحكامه، كان ذلك هو حق اليقين.. فتلك المعرفة القائمة على التوجيه الربَّاني، وعلى الهدي القرآني، هي التي قادت خطى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في أعظم مسيرة عرفها التاريخ البشري، فانطلق يرسي حقائق لم يألفوها فيما سلف، حتى جعلَ الناسَ تقرُّ حقاً بسمو الرسالة التي يحمل، وبصدق الدعوة التي إليها يدعو.. ولقد بلغ تأثير الإسلام في الناس حداً، جعل وفود القبائل في شبه الجزيرة تقبل على المدينة طائعةً راضية، لتدخل في الدين الجديد ولتقدم الولاء للرسول الأعظم.

* * *

وفد طيء

قدم إلى المدينة وفد من طيء وكان على رأسهم سيدهم «زيد الخيل» فأقبل زيد على النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يحدثه فأحسن الحديث وأجاد في إتقان أدب الموقف بين يدي الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ذُكر لي رجل من العرب بفضلٍ ثم جاءني إلاَّ رأيتُه دون ما يقال فيه إلاَّ زيد الخيل فإنه لم يبلَّغ كلُّ ما فيه». ودعاه «زيد الخير» بدلاً من «زيد الخيل».

ولقد أقطعه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، «أرضين»، وكتب له كتاباً بذلك، وكان ذلك الإقطاع . فيما يظهر . إقطاع منفعة، لاستخراج المعادن والزيوت، وزرع ما يصلح للزراعة. وكان النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يفعل ذلك في الأراضي النائية عن المدينة، ليُمَكِّن الناس من استغلالها، وإخراج ينابيع الثروة من باطنها، فكان منهم من يُعطى الأرض لقاء أجر، ومنهم من يكون إعطاؤه لتأليف القلوب.

وخرج «زيد الخير» من عند رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، راجعاً إلى قومه كي يدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «إن ينجُ زيدٌ من حُمَّى المدينة»، فلما انتهى من بلاد نجد إلى ماء من مياهه يقال له «فردة» أصابته الحمَّى، فمات بها، فلما توفاه الله سبحانه عمدت امرأته إلى الوثائق التي كتبت بين رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وبين زوجها «زيد الخير» فأحرقتها جميعها، وبلَغَ خبر عملها هذا علمَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فبعث، في ربيع الثاني سنة تسع للهجرة، عليَّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) في مئة وخمسين فارساً إلى طيء، يدعوهم للإسلام، فإن استجابوا أمَّنهم وعاهدهم، وإلاَّ غزاهم وحقَّقَ أمرَ الله . سبحانه . فيهم. ولم يأبَهْ بنو طيء لدعوة علي (رضي الله عنه) فشَنَّ عليهم غارة عاجلة، وفي طليعة الفجر، انتهت باستسلامهم، فتقدَّم وفرسانه يهدمون صنمهم «العُلْس»، ويأخذونهم أسرى إلى المدينة؛ ولم ينجُ إلاَّ عدي بن حاتم الطائي . وكان على النصرانية . ففرَّ بأهله إلى بلاد الشام. وكانت بين أسرى طيء ابنة سيدها الشهير حاتم الطائي، وتدعى «سَفَّانَة» فاحتجزت مع السبايا في غرفة بجانب المسجد، حتى مرَّ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على الأسرى،

فأعلنت عن نفسها، ورجَتْه أن يمنَّ عليها وهي تقول: «يا رسولَ الله، هلك الوالِدُ وغاب الوافِدُ فامنُنْ عليَّ منَّ الله عليك». ومثل هذا الرجاء جعلَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يتفكَّرُ بما كان لوالد الأسيرة من سمعة طيبة بكرمه وحسن ضيافته بين العرب، فأمَرَ على الفور بتسريحها من ضيق أسرها إكراماً لشرف بيتها وسماحة أبيها، ثم كساها كسوة حسنة، وبعث بها إلى بلاد الشام حيث يقيم أخوها عديّ.

وجاءت «سفَّانَة» تلتقي هذا الأخ، وتحدّثه عن عفو محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ورأفته بها، فيسألها:

ـ وما ترين في هذا الرجل يا أختاه؟.

فأجابته: «أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإنْ يَكُ نبيّاً فللسابق إليه فضيلة، وإن يك ملكاً فلن تزال في عز اليمن، وأنت أنت»..

فقال، بعد تفكير طويل: «والله هذا هو الرأي».

ولم يعتّم عدي بن حاتم الطائي أنْ ارتحل بأهله إلى المدينة، وأقبل على النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يُسلِم على يديه، وذلك لِفضل حسن معاملته وإكرامه لمن يستحق الإكرام من أصحاب البيوتات التي فيها نسمات خير يأمل أن تنضوي تحت لواء الإسلام العظيم..

وهكذا أقبلت القبائل، وأقبل ساداتها بعد فتح مكة، على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يقرُّون له بالرسالة ويدينون بدين الإسلام، وهو في مقامه بالمدينة مطمئن إلى نصر الله وإلى شيء من سكينة الحياة العابقة بالهناءة، الزاخرة بالتطلعات.

ويشاءُ الله سبحانه، أن تدخل على هذه الفترة من حياة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، سحابة من الحزن الشديد، والألم العميق، إذ توفيت ابنته زين (سلام الله عليها) بعد ذلك المرض الذي لم يفارقها منذ أن تعرّض لها مشركان خبيثان، يوم خروجها من مكة، وأجفلا بها راحلتها حتى وقعت أرضاً، فاعتلّت منذ ذلك اليوم، إلى أن وافتها المنية في هذه الفترة.

هذا الحادث أثَّر في نفس النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أشدَّ الأثر، لما كانت تختزنه هذه النفس الصافية من مشاعر إنسانية، تفيض على القريب والبعيد.. فقد كان، صلى الله عليه وآله وسلم، رحيماً إلى أقصى غاية الرحمة، يشارك كل ذي ألم ألمه، وكلَّ ذي مصاب مصابه، فلا يترك في المدينة، ولا في أطرافها مريضاً إلاَّ عاده، ولا بائساً إلاَّ واسَاه، يأسو جِراح الكليم، ويريح قلب المتعب، ومن هنا كان حزنه شديداً على ابنته، خصوصاً وقد فقد

بفقدها كل عَقِبٍ له، من ذكر وأنثى، إلاَّ فاطمة الزهراء وولديها الحسن والحسين (عليه السلام) جميعاً، فقد بقوا قُرّة عينٍ، وأحِبَّةَ فؤاد.

ولكنَّ ربَّ محمدٍ، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يرعاه من عليائه، لم يشأ جَلَّ وعلا أن يتركه لأحزانه، فرزقه من مارية القبطية غلاماً، دعاه إبراهيم، تيمّناً باسم إبراهيم (عليه السلام) أبي الأنبياء، وصاحب الحنيفية السمحة. ولم تكن ولادة إبراهيم حدثاً عادياً، فأزواج النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، جميعاً بعد السيدة خديجة (سلام الله عليها) لم يلدن له، رغم أنه كانت فيهن الفتاة الفتية، والنّصف[1] التي أعقبت من قبلُ. فعلى امتداد سنوات عشر، ظلت حياة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، خلواً من مولود جديد، حتى وُلد إبراهيم، فوجد فيه أُنساً لقلبه الكبير، وراحةً لنفسه الرضية.

ولقد أحبَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، طفله إبراهيم (عليه السلام) حبّاً كبيراً، فكان يمرُّ كل يوم بدار مارية ليراه، وليزداد أنساً بابتسامته البريئة الطاهرة، ومَسرَّةً بنموّه وجماله، فيحمله بين يديه، ويأخذه إلى زوجاته، كي يرينه، ويرين شبهه العظيم به. ولكنَّ هذا الحب للطفل البريء، لم يُنْسِهِ قطُّ واجباته تجاه أزواجه، بل ظلَّ يقوم على معاشرتهن بالمعروف، وبالرحمة التي يعرفنها فيه، ضارباً في هذا العيش الكريم أعظم مثل وأروعه في المعاملة والتربية التي يؤديها في بيته، كما يؤديها في أمته. وكان يقول: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

ومن معالم هذه التربية أنه ما ظهر إنسان في التاريخ يأخذ بيد المرأة كي يعلي من شأنها ويصل إلى بلوغ أسمى مكانة في حياتها كالنبي محمد، صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد عبّر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن هذه المكانة الرفيعة، التي جعلها، صلى الله عليه وآله وسلم لنسائه والتي لم تكن معروفة قط عند العرب، إذ حدّث فقال:

«والله إنْ كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمراً، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم. فبينما أنا في أمر أَأْتمره، إذ قالت لي امرأتي: لو صنعت كذا وكذا! فقلت لها:

«ومالك أنتِ ولِمَ أنت هاهنا، وما تكلّفك في أمرٍ أريده!» فقالت لي:

ـ عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تُراجَعَ أنت وإنَّ ابنتك (حفصة) لتُراجع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يظل يومه غضبانًا.

---

1 النّصَف: من كان متوسّط العمر.

قال عمر: فأخذت ردائي ثم خرجت، فدخلت على حفصة، فقلت لها: يا بنيّة، إنك لتراجعين رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يظلَّ يومه غضباناً؟.

فقالت حفصة: والله إنا لنراجعهُ.

فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسول الله. يا بنيّة لا يغرنّك هذه التي قد أعجبها حسنُها وحب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إياها..

ويتابع عمر (رضي الله عنه) حكايته، فيروي:

ثم خرجتُ حتى أدخل على أمِّ سلمة لقرابتي منها، فكلّمتها، فقالت لي أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأزواجه!... قال عمر:

فأخذتْني أَخْذاً كَسرَتْني به عن بعض ما كنت أجد، فخرجت من عندها».

ففي هذا الجو الإنساني الرحيب، وفي هذا السموّ المجتمعي، كانت تعيش أزواج رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم. ولكن هذه الحياة، وإن كانت في جوّ النبوة، وفي بيوت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لم تكن لتقضي على المشاعر البشرية، والهواتف النفسية عند بعض الزوجات (رضي الله عنهن) فقد كان يبدر منهن، أن يشجر بينهنَّ، ما لا بد أن يشجر في قلوب النساء في مثل هذه الحال. فمن قبيل ذلك ما روي عن تعلق زوجات الرسول به، وغيرتهن من بعضهن البعض.

فقيل إن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كان يمكث عند زوجه زينب بنت جحش، ويشرب العسل. فاتفقت عائشة وحفصة على تنفيره من ذلك المكوث وعلى إبعاده عنه، وذلك بأن تقول أية واحدة منهما يدخل عليها: «أكلت المغافير[1]. إني أجد منك رائحة مغافير» وقد نفّذت إحداهما ما اتفقت عليه مع صاحبتها، فلما سمع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك قال:

«لا، ولكنني شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود إليه».

فأنزل عليه قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[2].

---

1 المغافير: مفردها مِغفَر أو مُغفُر: صمغ يسيل من بعض الشجر.

2 سورة التحريم، الآية: 1.

ومهما يكن من أمر فإن الرواية تدل على المكانة الرفيعة التي جعلها النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، لنسائه، حتى أجازَ لهن مراجعته بشتى الأمور التي تواجههنّ، مهما كان شأن هذه الأمور، صغيراً أم كبيراً، فكان يستمع إلى آرائهن، ويحافظ على مشاعرهنّ، لتكون التربية العائلية التي يريدها، تربية سليمة، تقوم على احترام كيان المرأة، واعتبار شخصيتها.

ورغم تلك المعاملة، في أرفع مستوياتها، ورغم ما كانت تفيض به من رفق وحنان قلَّ نظيرهما، فقد ظلت المشاعر البشرية تلجّ بأزواج النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أعظم لجاج، حتى إذا زادَ هذا اللجاج، وبلَغَ حداً لا يجوز أن يشغل به النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقته، رأى أن يلقي عليهن درساً يكفل ردَّ الأمور إلى نصابها، ويبعد هؤلاء الزوجات عن تصرفات لا تليق بهنّ، فاعتمد لأجل ذلك الصرامة والحزم، وقرر هجرهن، فإن نفع هذا الهجر وثُبنَ إلى رشدهن فذاك، وإلاَّ متَّعهن وسرّحهنَّ سراحاً جميلاً.

وانقطع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عن نسائه شهراً كاملاً، لا يكلّم أحداً في شأنهنَّ، ولا يجرؤ أحد أن يفاتحه في حديثهن. وإنّه، صلى الله عليه وآله وسلم، يوماً لفي خلوته إلى ربه وإلى نفسه، كان بعض الصحابة يجتمعون في المسجد ويتحدثون باعتكاف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وفراقه لأزواجه، وقد استبدَّ بهم القلق، وأخذهم الهمُّ لأجله، فيقولون: طلّق رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نساءه.

ولم يحتمل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نفسه ساكتاً على هذا الأمر، فترك رفاقه وقصد النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في مقامه طالباً إلى خادمه رباح أن يستأذن له في الدخول. ولكنَّ رباحاً خرج من غير أن يقول شيئاً، فعرف عمر أنه لم يأذن له. وكرر عمر النداءَ، ولم يجب رباح مرة أخرى، فرفع عمر صوته قائلاً: «يا رباح!! استأذن لي عندك على رسول الله فإني أظنه ظنَّ مجيئي من أجل حفصة، والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربنَّ عنقها».

وأذن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فدخل عمر، يجلس بين يديه، ثم ذكر من أمر المسلمين بالمسجد ما يقلقهم ويحزنهم، عندها كشف له النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، الحقيقة، وهي أنه لم يطلّق نساءه، بل أرادَ تأديبهنَّ بما يبعدهن عن أي لجاج، فزاد سرور عمر واستأذن بأن ينزل إلى المسجد ويفضي بالأمر إلى أولئك المقيمين فيه، يتفكرون، وينتظرون بأسىً وحزن.

وفي هذه الأمور التي تتناول حياة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في بعض شؤون بيته، نزل قرآن كريم:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُّؤْمِناتٍ قَانِتاتٍ تَائِباتٍ عَائِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكَاراً}[1].

وأدركت أزواج النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، خطأهنَّ، وثاب إليهنَّ رشدهن، فاستوت الحياة في بيوته مليئة بالسكينة. وهي السكينة التي يحتاجها كل إنسان ليقدر على مواجهة الحياة، وتحمّل الأعباء، فكيف إذا كان مثل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يحمل أعظم رسالة وأكبر أمانة من السماء إلى الأرض؟

فما أروع الفترة التي يعيش فيها الناس مع السماء، والسماء تتدخل في أمرهم علانية وتفصيلاً. تسأل إحدى أزواج النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله! من أنبأك بأنني حدّثت بما أسرّيت لي؟ قال: نبأني العليم الخبير.. نعم هذه هي الصورة الرائعة لتدخُّل السماء، هذا التدخل الجليل، الذي يهدف لتسوية كل وضع، ولبيان الحكم الإلهي فيه، حتى يكون قاعدة ثابتة أزلية على الزمان تدل أن الله سبحانه يحيط بكل شأن من شؤون الإنسان، وبكل سكنة من سكناته، فهو أقرب إليه من حبل الوريد.

وما أروعها صورة من الحياة البيتية للنبي الكريم، الذي كان ينهض بإنشاء أمة وإقامة دولة على غير ما هو معروف في دنيا العرب، بل وفي دنيا الناس كافة، أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة، وتنشىء في الأرض مجتمعاً ربانياً قِوامُه الأسرة السليمة من العاهات الاجتماعية، في صورة واقعية يحياها الناس.

1 سورة التحريم، الآيات: 1 - 5.

وما أشرفها صورة من حياة إنسان عظيم، يزاول إنسانيته في الوقت الذي يزاول فيه نبوته، فلا تفترق هذه عن تلك، لأن إرادة الله جرت بأن يكون بشراً رسولاً، حينما جرت بأن يحمِّلَهُ الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير.

وليست هذه الصورة في ترجمتها الحية إلاَّ لكي تكون حياة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، كتاباً مفتوحاً يقرأه الجميع وتراجعه الأجيال بعد الأجيال، فيكون الأثر عميقاً في نفوس المسلمين، ليؤدوا واجبهم في بيوتهم من حيث التربية، والتوجيه، والتذكير، وليقوا أنفسهم وأهليهم من عثرات الحياة، وليأمنوا نار الآخرة وعذاب الجحيم.

على أنه مهما كانت الأمور التي كانت تمرُّ بها حياة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في بيته، فإنّها لم تغيّر شيئاً من سير الشؤون العامة التي ظلّت تسير على المنهج الذي يوحي به الله تعالى لرسوله وهو يقوم ببناء أمة الإسلام، مزودة بالإيمان الراسخ، قادرة على احتمال كل ما ينشأ عن مقاومة الظلم وإقامة العدل من تبعات، دون أن تَنِيَ عن مطاردة الشر بكل صوره وأشكاله، وإشاعة الخير بكل آفاقه ومعانيه.

وبمقتضى هذا المنهج الرباني، تأسست دولة الإسلام في المدينة المنورة، بعد هجرة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إليها، ووضعت لها القواعد التي تضمن سلامة مجتمعها من كل آفة، وحماية أرضها من كل غازٍ، وإعداد أفرادها ثقافياً وعسكرياً، ليكونوا على مستوى المسؤولية، في النهوض بأعباء الأمة المثالية الخيّرة.

ولم يطل الوقت حتى قامت دولة الإسلام، بكل المقوّمات التي تؤلف كيانها المستقل، سواءٌ على صعيد التكيّف الداخلي مع منهج السماء، أو على صعيد تطلعاتها بأطرافها القريبة والبعيدة تدين بالإسلام، أو بالنسبة لمطامع الدول الكبرى التي راحت تعمل جاهدة لمنع أي حكم قوي يمكن أن يقوم بجانبها. فتلك الدول، ولا سيما دولتا الفرس والروم، كانتا صاحبتي السلطان المطلق، ولهما وحدهما الحق بتقرير مصائر الشعوب من حولهما. فلما ظهرت دولة الإسلام، وتمتعت بالقوة والسيادة، أوجس الفرس والروم خيفةً منها، لأن وجودها يعني منافستهما على السلطان، إن لم يكن للقضاء على ذلك السلطان..

ولم تقف مخاوف هاتين الدولتين عند هذا الحدّ، بل رأتا في وجود دولة الإسلام ما يهدد مصالحهما إن من الناحية السياسية أو من الناحية الاقتصادية. فمن الناحية السياسية، كانت تقوم على أطراف الجزيرة قبائل من العرب، على شكل ممالك تدين للروم أو للفرس،

وتأتمر بأوامرهم، فكان الغساسنة في بلاد الشام أتباعاً للروم، وكان المناذرة في العراق أتباعاً للفرس، وهذه الممالك قد تدين بالإسلام، مما يجعل خطر دولته حالاًّ لا محالة. أما من الناحية الاقتصادية، فكانت التجارة التي تقوم بها قبائل العرب، ولا سيما قريش، تذرع أطراف البلاد التي تخضع لدولتي الروم والفرس، ناقلة إليها المواد والسلع على اختلاف أنواعها. فإن انقطع العرب عن تلك التجارة، فإنَّ انقطاعهم يسبب لها خسارة كبيرة في موارد العيش، وفي شتى المنافع الاقتصادية التي تجنيها من وراء ذلك.

ولقد أمكن لدولتي الروم والفرس أن تفرضا إرادتهما على شبه الجزيرة، وساعدهما على التحكم بمصائر قبائلها، ما كانت عليه تلك القبائل من حياة قبلية، منعت قيام الوحدة الجامعة بينها، وحالت دون جمع شتاتها وتوحيد كلمتها، فخلت من وجود الكيان السياسي، الذي يكفل إقامة الدولة على أراضيها. وظلَّ عربُ شبه الجزيرة أحقاباً طويلة على تلك التفرقة، لا تهتم كل قبيلة إلا بشؤونها الخاصة، أو بإقامة تحالف مؤقت مع قبيلة أخرى، فضلاً عن العداوة الدائمة التي يفرضها شظف العيش، ويدفع إلى الغزو والسلب، ممّا أبعد كل فكرة لإقامة الدولة السياسية.

نعم، أدرك الروم والفرس هذا الواقع، فعملت الدولتان على بقائه واستمراريته. ومن هنا كان ظهورُ الإسلام الذي يحث على التكتل لا التفرقة، نذيرَ خطرٍ عليهما، فلما أخذ سلطانه يتوسع شيئاً فشيئاً، وانتشرت الدعوة فياضة في نواحي الجزيرة كلها، ثم لما كان فتح مكة وما أعقبه من زوال قوة قريش أقوى عدوّ للدعوة، فقد أيقن الروم أن الخطر بدأ يزحف عليهم، ويوشك أن يوقع بهم. ولذا رأوا أنه لا بُدَّ من عمل سريع لدرء هذا الخطر قبل أن يستفحل أمره.

وكان الروم يومئذٍ في أوج المجد والعنفوان، وكانوا يظنون أنهم قادرون على تحطيم دولة الإسلام، بفضل ما عندهم من القوة والعتاد، فلا بُدَّ إذاً من القيام بهذه الخطوة سريعاً، حتى يمكنهم القضاء على كل أمل لتلك الدولة في البقاء. ومن أجل ذلك راح الروم يعدون العدة، ويهيّئون لغزو حدود العرب الشمالية بما يحقق لهم أغراضهم.

واتصل نبأ تهيئة الروم لهذا الغزو برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مجسّماً أيَّما تجسيم، فقرَّرَ مواجهة هذه القوة بأشَدَّ منها، ورأى أن يذهب بنفسه لمواجهة الروم، على رأس الجيش الذي يعدّه.

* * *

سلسلة غزوات الرسول

(6)

غزوَة خَيبرَ

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ آلْرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

غزوة خيبر

عادَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من الحديبية، مطمئنّاً إلى ما هداه الله تعالى إليه، وما منَّ عليه به من فتح مبين. وإذا كان ذلك الفتح قد أرضى نفسه وملأ وجدانه، فإن خطته التي اعتزم تنفيذها لم تكن قد اكتملت بعدُ.. فقد كان بلغه قبلَ خروجه قاصداً الحجَّ، أن اليهود وقريشاً يأتمرون به، ويُعِدُّون العدّة لغزو المدينة من جديد. ولذلك كان من مقاصده في ذلك الخروج إقامةَ سلامٍ مع قريش حتى يأمن غدرها من ناحية الجنوب، فلا يبقى أمامه إلاَّ معالجة أمر يهود خيبر المقيمين في ناحية الشمال من المدينة.. فلما كان له ما أراد، وأقام عهد الحديبية، عادَ إلى المدينة يتفكّر في شأن هؤلاء اليهود، والطريق الذي يسلكه معهم.. وقد دار في خَلَد الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إقامة صلحٍ معهم على غرار الحديبية، إلاَّ أنه رأى ذلك غير مفيد، لما في نفوسهم من ضغينة عليه، ولِما لهم من ثارات قديمة تدفعهم إلى البقاء على عداوتهم كلما تذكروا الخسائر التي حلّت بهم، والهزائم التي لحقتهم من جراء تلك العداوة التي جعلتهم ينقضون العهود.. كما أن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، رأى أنه لا يمكن ترك أولئك اليهود على حالهم، لأنه لا يُؤمَنُ لهم جانب، فهم في حصون منيعة، وعندهم من الثروات والأموال، ما يجعلهم قادرين على الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، والحؤول دون انتشارها. كما أنه ليس ما يمنع هؤلاء اليهود بعد أن نفضوا يدهم من قريش الآن، من أن يتوجهوا إلى الملوك خارج جزيرة العرب، يوغرون صدورهم بالحقد على الإسلام ونبيّه، ويقنعونهم بإعلان الحروب ضده، وتجييش الجيوش لقتاله، إذ يبيّنون لهم أنه يقيم سلطاناً قد يهدِّد كيانهم وعروشهم بالزوال.. إذن فإن صالح الدعوة يستوجب القضاء على شوكة يهود خيبر قضاءً تاماً، حتى لا تقوم لهم بعد ذلك ببلاد العرب قائمة أبداً.

وهكذا لم يمكث رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالمدينة، بعد عودته من الحديبية، إلاَّ بضع عشرة ليلة، حتى أمَرَ الناس بالتجهيز لغزوة خيبر، على ألاَّ يغزو معه إلاَّ من شهد الحديبية. أما غيرهم ممَّنْ يريدون الخروج غزاةً متطوعين فلهم ذلك، ولكن لا يكون لهم من الغنيمة شيء..

وفي وقت قصير اكتمل الاستعداد، فاستخلف الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، ثم انطلق في شهر المحرّم من السنة السابعة للهجرة في ألف وستمائة مقاتل فيهم مئتا فارس. وأخرج معه عشرين امرأة من نساء الصحابة، لمداواة المرضى، وإسعاف الجرحى، وتقديم الماء والطعام أثناء القتال. فراحوا يُغِذّون المسير مسرعين حتى يفاجئوا العدو، على حين غرة، قبل أن يعلم بخروجهم؛ فما انقضت ثلاثة أيام حتى كانوا قد قطعوا الطريق ما بين المدينة وخيبر، ونزلوا «بالرجيع» ليحولوا بين أهل خيبر وغطفان إذ كان هؤلاء مظاهرين لهم على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يقدرون على مدّهم بما يعوزهم في الحرب..

وكان وصول المسلمين إلى خيبر ليلاً، ولذلك لم يُغِر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، تطبيقاً للنمط الذي اتّبعه وهو أنه، صلى الله عليه وآله وسلم، كان إذا أتى قوماً بليل لم يُغِرْ حتى يُصبح..

أما اليهود فكانوا يتوقعون أن يغزوهم محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، بعدما أقام عهد هدنة مع قريش، وقد تشاوروا في الأمر فرأى بعضهم أن يوحّدِوا قواهم مع يهود وادي القرى وتيماء، فيشكلوا كتلة واحدة للتصدّي لجيش المسلمين عندما يغزوهم، بينما رأى البعض الآخر أنَّ إقامة حلف مع محمد هو أجدى وأحسن، إذ يأمنون به خطره ويحولون دون خروجه إليهم. ولكن غلب عليهم الحقد الدفين في نفوسهم وأخذتهم الغطرسة، فآثروا الحرب على سِلْم محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فباتوا مطمئنين إلى مِنعةِ حصونهم، وشدّة قوتهم، ينتظرون خروج المسلمين إليهم، حتى يذيقوهم من العذاب أمرّهُ، ومن الهوان أشدّه.. وبهذا الاطمئنان عمَّى الله تعالى عليهم البصر والبصيرة وسدَّ منافذ التفكير، فلم يشعروا بنزول الجيش الإسلامي قرب حصونهم، حتى إذا كان الصباح، وقد خرجوا إلى أعمالهم في زراعة الأرض والنخيل وقد حملوا معاولهم ومكاتلهم إذ بهم يفاجأون بذلك الجيش أمامهم، فيولّون الأدبار وهم يتصايحون وينادون:

«محمد والله.. محمد والخميس.. لقد جاء محمد بجيشه»..

ورآهم المسلمون ينكصون على أدبارهم هكذا، فأراد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يزيد في فزعهم، وفي تخويفهم، فراح يصرخ فيهم قائلاً: «الله أكبر خرجت خيبر!.. الله أكبر إنا إذا نزلنا بساحِ قومٍ فَسَاء صباح المنذرين». وكان رسول الله، صلى الله عليه وآله

وسلم، عندما وطىء أرض خيبر، قد نزل عن راحلته، ثم رفع يديه نحو السماء يتضرع إلى الله سبحانه، ويسأله النصر على الأعداء مبتهلاً بهذا الدعاء:

«ألَّلهم ربَّ السمواتِ وما أَظْلَلْنَ، وربَّ الأرضين وما أَقْلَلْنَ، وربَّ الشياطين وما أَضْلَلْنَ، وربَّ الرياح وما أَذْرَيْنَ. نسأَلُك خيرَ هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرِّ ما فيها».

ووقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهبين للقتال، ولكن لم يتبيّن لهم الأمر جليّاً، ولا قرَّروا بأيٍّ من تلك الحصون يبدأون، ولا في أيٍّ منها تجمعت مقاتلة اليهود وقواها، ذلك أنَّ حصون خيبر ومساكنها كانت موزعة في مناطق ثلاث، وفي كل منطقة أقيمت الحصون المنيعة، على سفوح الجبال أو على رؤوس الهضاب.. في منطقة «النطاة» قامت ثلاثة حصون كانت: حصن الناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن الزبير، ويقال له حصن فلّة. وفي المنطقة الثانية التي كانت تدعى: «الشق» برز حصنا «أبيّ» و«البريء». أما في المنطقة الثالثة وهي «الكتيبة» فقد قامت حصون: الوطيح، والسَّلالم، والقموص ويقال له حصن نزار. ولقد ساعد على إقامة تلك الحصون انتشار قرى خيبر في واحة كبيرة خصبة، ذات ماءٍ وفير، وزروع ونخيل كثيرة، وهذا ما جعلهم يبنون الحصون المنيعة والبيوت المتينة، وقد أقاموها لتشكل خِصّيصاً معاقل لهم تمنع عنهم العادين، وتردّ الغازين. وقد أمكن ليهود خيبر بفضل ما منحتهم طبيعة تلك البلاد من منعة وخيرات أن يتدربوا على فنون الحرب، ويتمرّسوا على ضروب القتال حتى برزوا أقوى بني يهود في جزيرة العرب، وأعلاهم شأناً وأوفرهم مالاً وسلاحاً.

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يترقبون بحذر ويقظة، كان اليهود قد أسرعوا يُلجئونَ النساءَ والأولادَ، ويجمعون الأموال في حصون «الكتيبة» بينما يستعدُّ مقاتِلوهم في حصون «النطاة» وقد عقدوا لواء القيادة لأحد زعمائهم: سلام بن مشكم..

ولئن كان المسلمون قد أمضَوْا بعض الوقت، لا يعرفون الحصن الذي تجمَّع العدو فيه للقتال، فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد مهَّدَ لهم هذا الأمر، إذ رأَوا اليهود يعتلون حصن «الناعم» في منطقة «النطاة»، كأنهم كانوا يدلّون على أنفسهم ومكان حشودهم، فاندفع المسلمون إلى ذلك الحصن يريدون اقتحامه، إلاَّ أن اليهود كانوا قد أعدّوا العدة فراحوا يرمونهم بالسهام والنبال، ويرمونهم بالحجارة، فقتل محمود بن سلمة بِرَحَى أُلقيت عليه،

وتقهقر المسلمون إلى الوراء يحتمون خلف دروعهم، وهم يردّون على العدو بمثلِ السلاح الذي كان يرميهم به.

ومضت بضع ساعات على تلك المناوشات المتبادلة، رأى أثناءها اليهود عدم الجدوى منها، إذ إنها في الواقع لا تصيب المسلمين بخسارة، بل تضيّع السلاح اليهودي وتذهب به بدداً، وهم أضنُّ من أن يفقدوا شيئاً منه لحاجتهم الماسّة إليه في مثل هذا الظرف العصيب.

إذن ماذا يصنعون؟.

هل يبقون على تلك الحال داخل الحصن؟ ولكن إلى متى وهم لا يمنّون النفس بمددٍ يأتيهم من البعيد، أو بعونٍ يقدمه لهم أحد من القبائل؟.

وثمّة أمر هام يعوّلون عليه أيضاً وهو اعتدادهم بالقوة واعتزازهم بالخبرة في القتال، مما يجعل كرامتهم تأبى عليهم الاكتفاء بموقف الدفاع، والظهور بمظهر الجبن والتخاذل.. هذا ما تفكّر به زعماء اليهود فائتمروا بالخروج إلى المسلمين ليجعلوها معركة طاحنة تقتل منهم من تقتل وتُجلي الناجين عن أرضهم!.

وهكذا انطلق اليهود خارج الحصن، فتلقَّاهم المسلمون بمقاومة عنيفة، ودار بين الفريقين قتال شديدٌ مريرٌ، إذ كان كلُّ فريق يريد أن يُنزل بعدوه الضربة القاضية، ولكنه لم يقدر على ذلك، فاليهود بألوفهم العديدة وبغرورهم بأنفسهم كانوا يتوهمون بأنهم سيسحقون المسلمين. وهؤلاء بقوة إيمانهم، وببسالة أبطالهم كانوا يرجون تحقيق النصر.. ولكنَّ أيّاً من الفريقين لم ينَلْ من الآخر إلاَّ عندما قُتِل قائد اليهود سلام بن مشكم، فإذا بهم يرتعدون لمقتله، ويهلعون لفقده، فيرتدّون سريعاً إلى الوراء، ويدخلون الحصن وهم يُحكِمون إغلاقه خوفاً من لحاق المسلمين بهم. وينقضي أول يوم للقتال على ذلك النحو، فلا المسلمون قدروا على فتح الحصن، ولا اليهود قدروا على التغلب عليهم.. ومرَّت بضعة أيام أخرى، كان اليهود يخرجون أثناءها من حصن «الناعم» صفوفاً مدججة بالسلاح، ويهجمون على المسلمين، والأوهام كانت لا تزال تأخذ بعقولهم وهم يرددون: «محمد يغزونا! هيهات! هيهات!».. فيلقاهم المسلمون بالمقاومة التي ألفوها، وبالشدّة التي تمرّسوا بها، فلا يلبثون أن يرتدوا إلى حصنهم خاسئين كما خرجوا منه خائفين.. ودامت تلك الحال سبعة أيام متواصلة، فرأى المسلمون بعدها أنهم قد أُجهدوا فعلاً، وقلَّ معهم الزاد، مما قد يؤثر على

صمودهم واستمرارهم في القتال.. وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يعطي كلَّ يوم لواءه لأحد الصحابة كي يقود المسلمين إلى فتح الحصن، فيرجع ومن معه منهوكي القوى، تعبين، دون أن يقدروا على فتحه.. فقد أُعطي اللواء في اليوم الأول إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) فقاتل ومن معه قتالاً شديداً، ولكنه عادَ بدون جدوى، فأعطاه من بعده في اليوم الثاني إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقاتل وأصحابه قتالاً أشدَّ من قتال الأولين، ولكنه عجز عن فتح حصن «الناعم».. فبدا للمسلمين أن هذا الحصن ـ لمنعته ـ قد بات مستعصياً عليهم. إلاَّ أن الرسولَ الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، بدَّدَ تلك الفكرة من رؤوسهم عندما قال لهم:

«أمَا والله لأدفعنَّ غداً بلوائي إلى رجل يحب الله ورسولَه ويحبُّه الله ورسولُه، ولَنْ يرجعَ حتى يفتح الله عليه». فارتاح المسلمون قاطبةً لهذه البشارة بالفتح، ثم اشرأبَّت أعناق القوم ـ من أبطال المسلمين ـ تتطلَّع إلى من يُعطي الرايةَ في غدٍ ليفتح الله على يديه، وليكون الفائز بحب الله ورسوله له!..

فما إن صلّى رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، صلاة الغداة من اليوم الثاني حتى دعا إليه عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، فجاءه وهو أرمدُ العين، وجَلَسَ بين يدَيه، فأمسك الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، برأسه، وراح يمسح على عينيه ويرقيه بتلاوة آيات من القرآن الكريم، وهو ينفخ فيهما، ويُمسّدهما بشيءٍ من ريقه الشريف، حتى شعر عليّ (عليه السلام) بأنه قد برىء من الرمد، وأن رأسه قد صفا، ونظره قد قوي، فوقف أمام رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، متأهباً، مستعداً، وهو في أحسن حال، فناوله الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، اللواء، وأمَرَه أن يقود المقاتلين لفتح ذلك الحصن الذي ظنَّ اليهودُ أنه استعصى على المسلمين.. ولقد شاءَ عليٌّ أن يتقدّم وهو على بيّنةٍ من أمره، فسأل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «علامَ أقاتلهم يا رسول الله؟».

فقال له الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «على أن يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسولُ الله بحقها، فإن فعلوا حقنوا منَّا دماءهم وأموالهم، وحسابُهم على الله عزَّ وجلَّ».

واندفع عليٌّ (عليه السلام) إلى حصن الناعم في مقدمة الجيش، فما إن رآهم اليهود حتى خرجوا إليهم، يسبقهم فارس مقدام، عليه مغفر يمانيٌّ قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وهو

يمتشق من السلاح سيفاً ودرعاً ورمحاً وخناجر على جانبيه، فكان كأنه في إقدامه يهب الموت لعدوّه قبل أن يلقاه.

وقبل أن يقترب ذلك الفارس صرخ عليّ (عليه السلام) باليهود، داعياً إياهم إلى الإسلام، فذهبت صرخاتُهُ أصداءً في الفضاء، لا تقع في مسامع العدو موقع قبول ولا رضى.. وكان الفارس اليهودي قد اقترب من صفوف المسلمين وأخذ يرتجز:

قد علمت خيبر أني مرحبُ   شاكي السلاحِ بطلٌ مجرَّبُ

أطعنُ أحياناً وحيناً أضربُ   إذا الليوث أقبلت تلهَّبُ

إنَّ حِمايَ للحِمَى لا يُقْرَبُ

فانطلق عليّ (عليه السلام) للقائه بقوة المؤمن الصادق وبعنفوان البطل الأبيّ، وهو يردُّ عليه راجزاً:

أنا الذي سمَّتني أمي حيدرهْ   أكيلكم بالسيف كيل السَّندرة[1]

ليثٌ بغاباتٍ شديدٌ قَسْوَرَهْ

ثم الْتقَى البطلان، وثار النقع تحت حوافر فرسَيهما، وارتفع الغبار فوق رأسَيْهما في مبارزة عنيفة مريرة، كان يشهدها المقاتلون من الفريقين فتهلع لها قلوبهم، وترتعد لمرآها فرائصُهم، فاستطاع مرحبُ اليهودي أن يقارب علياً (عليه السلام) وأن يوجه إليه ضربة أرادها كالصاعقة، ولكنَّ علياً أمكنه تلافيها وهو يحيد عنها فذهبت في الهواء طائشة خائبة، ثم لم ترتدَّ يدُ صاحبها منها، حتى كانت الضربة النجلاءُ، من مُبارزه عليٍّ (عليه السلام) قد هوت فوق رأسه تفدُّ المغفر الذي عليه، وتفلقه شقَّين حتى تصل إلى الأضراس في حلقه، فهوى محربُ، بطلُ اليهود الأكبر، عن ظهر فرسه، مجندلاً على الثرى، يفور منه الدم الغزير ليَرويَ التراب من تحته..

ورأى المحاربون اليهود ما حلَّ ببطلهم مرحب، فاندفعوا نحو المسلمين في هجمة شرسة عاتية، وقد استبدَّ بهم الحقد، وهاجت في نفوسهم الضغينة، فأرادوا أن يستأصلوا أعداءهم من على وجه الأرض استئصالاً.. ولكن من أين لهم ذلك الوهم الخادع، وكل واحد من المسلمين بطلٌ مقدامٌ بحيث كانوا ينقضُّون عليهم كالليوث الكاسرة، فيفرقون صفوفهم،

---

1 يعني أقتلكم قتلاً ذريعاً. والسندرة: ضرب من الكيل.

ويشتتون جموعهم.. ولكنّ واحداً منهم كان يدور حول عليّ (عليه السلام) ويلحقه ويترصّده من مكان إلى آخر، وهو يريد أن يختلسه بضربة تعجل عليه، ثم ما زال كذلك حتى أمكنه الدنوّ منه، فأهوى عليه بسيفه، فتلقّى عليٌّ ضربته بدرعه، غير أنها وصلت إلى مقبضه فقطعته وأطاحت به من يده، فما كان من علي (عليه السلام) إلاَّ أن عاجله بسيفه البتّار، وأهوَى عليه بإحدى ضرباته البكر النجلاء، لتفلق هامه وتَذَرَهُ على البطحاء شطرَين..

ولم يكن اليهود قد شهدوا في سالف أيامهم مثل تلك الضربات التي تفلق هام الرجال، فراعهم الهلع، وأخافهم الفزع، فتقهقروا إلى الوراء مرتدين إلى الحصن، فارّين لهول ما رأوا، ثم حاولوا إغلاق بابه وإحكام إقفاله من الداخل، ولكنَّ علياً (عليه السلام) كان أسرَعَ من أن يمكِّنهم من إيصاده جيداً، إذ اندفع نحو الباب يشدُّ به إلى الوراء حتى اقتلعه بيديه ثم حمله يتترس به، ويهجم على الأعداء يدحوهم به دحواً حتى أبعَدَهُم عن المدخل، فرجع وجعل الباب جسراً على الخندق الذي كان أمام الحصن كي يعبر عليه المسلمون، ويلاحقوا الأعداء من ناحية إلى ناحية، ومن زاوية إلى زاوية، حتى قتلوا منهم عشرات الرجال وفرَّ الباقون من أمامهم، فطاردوهم حتى أجلوهم عن الحصن تماماً ولم يبقَ منهم فيه أحدٌ.. وعندها هدأ القتالُ وانتهت تلك المعركة بفتح حصن «الناعم» على يدَي علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه)، فدعاه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إليه، يضمُّهُ إلى صدره، فرِحاً بقوة بأسه وشجاعته، شاكراً الله تعالى على ما أنعَمَ عليه وعلى المسلمين من نص عزيز..

وكان شاعر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حسان بن ثابت، يرقب ذلك الحنان يُفيضُه رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على حبيبه وأخيه علي (عليه السلام) فينفُذُ أثره إلى مشاعره، ويلتقي في ذهنه مع صور جولات علي (عليه السلام) وصولاته، فاستأذن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وأنشد في ذلك شعراً معبّراً، صارخاً، كان من جُملته:

وكان عليّ أرمدَ العين يبتغي

دواءً فلما لم يحسّ مداويا

شفاه رسول الله منه بتفلةٍ

فبورك مَرْقيّاً وبورك راقيا

وقال سأعطي الراية اليوم صارمًا

كميّاً مُحباً للرسول مواليا

يحبُّ إلهي والإله يحبه

به يفتح الله الحصونَ الأوابيا

فأصفى لها دون البرية كلِّها

عليّاً، وسمَّاه الوزيرَ المؤاخيا

واطمأنَّ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، واطمأنَّ معه المسلمون إلى ذلك الفتح العظيم، وحقَّ لهم أن ينالوا قسطاً من الراحة بعد جهاد دام عدة أيام، فأخلدوا إلى السكون في ديار خيبر، وقد وقف الحراسُ مترقبين لكل حركة، حذرين من أي غدر قد يفاجئهم به العدو..

ولكن ما شهدوه من بطولة علي بن أبي طالب (عليه السلام) وشجاعته في ذلك اليوم كان عجيباً حقّاً، فقضوا سهرتهم يتحدثون بتلك القدرة الفائقة، وكانوا يتساءلون: كيف أمكن لعليّ (عليه السلام) أن يقدر على قلعِ ذلك الباب الضخم ورَفْعِهِ بين يديه، والهجوم به على الأعداء يدحوهم به دحواً.. فقام نفرٌ من ثمانية رجال، بينَهم أبو رافع، مولى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وذهبوا إلى الباب يريدون أن يرفعوه، فما قدروا على أن يقلبوه قلباً، وحاولوا ذلك مرات عديدة، فأعجزهم ثقلُ الباب، حتى أن أحدهم قال: كنا عشرين نحاول رَفْعهُ كما رفَعَهُ عليٌّ فلم يستطع الضوء أن ينفذ من تحته!.. وكانوا كلّهم أمناء صادقين، فعادوا إلى الرجال يتحدثون بما حاولوا ولم ينجحوا، وراحوا يثنون على قوة عليّ (عليه السلام) ويحمدون الله سبحانه على ما مَنحَ أحد أبطالهم من القوة حتى أمكنه فتح الحصن..

ثم باتَ المسلمون تلك الليلة هانئين، مرتاحين.. وما إن طلع الصباح وأدَّوا فريضة الصلاة، حتى راحوا يتهيأون للقتال، فما كاد عمار بن ياسر يفرغ من استعداده حتى شعر بدافع يلحُّ عليه برؤية علي (عليه السلام) والتحدث إليه، فقصد خيمته ودخل عليه فوجده قد وضع أمامَهُ بعض الخبز اليابس ووعاءً فيه ماءٌ لتناول طعام الفطور. ودعاه عليّ (عليه السلام) لمشاركته في الأكل، فشكره مبدياً الشبع، ثم جلس بجانبه يريد البدء في الحديث، فإذا به يرى ما يدهشه ويعقل لسانه عن الكلام. فقد كان عليٌّ (عليه السلام) يأخذ الرغيف اليابس

بين يديه، ويجهد بكسر قطعة منه ليضعها في فمه فلا يقدر فيكسره على رُكبته. ويراقب عمار ذلك المشهد في تكراره فلا يرى علياً (عليه السلام) إلاَّ وقد صعب عليه كسر رغيف الخبز اليابس.. وتعجب عليّ من تحديث عمّار به، فسأله:

ـ يا عمار! لماذا تحدّق فيَّ وأنت دَهِش؟!..

فقال عمار: والله لقد أخذني العجب مما رأيته بالأمس وما أراه اليوم؟!..

قال عليٌّ: وماذا رأيت بالأمس وماذا ترى اليوم؟.

قال عمار: لقد شهدت معك البارحة فتح الحصن، فرأيت جبلاً عظيماً لا يقف في وجهه شيء مهما عظم، وأرى اليوم إنساناً عادياً، يأخذ رغيف الخبز اليابس كي يكسره فلا يكاد يستطيع ذلك!.. لا، ليس من السهل عليَّ أن أصدِّق بأن داحي باب خيبر يعجزه رغيف يابس!..

فابتسم عليٌّ (عليه السلام) وقال: يا عمرا! بالأمس كنت أقاتل لله تعالى فكانت قدرة الله تعضدني والآن أبذل جهداً لنفسي فهذه قدرتي.

ها هنا تكمن العظمة في نفوس العظماء..

ليس من الصعب على الرجل ـ أي رجل ـ أن يكسر رغيف خبز يابس... ولكنَّ أَبَ المائدة، وتقديرَ قيمة لقمة العيش التي جعل الله تعالى فيها حياة الإنسان هي بعض شمائل الرجال العظماء. ولم تكن شيمة علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلاَّ التأدب أثناء تناول الطعام، وإعطاء لقمة العيش قدرها الحقَّ، فلا يعقل أن يكون قاسيَ القلب وهو يحاول كسر الرغيف، بل يأخذه على هون ويكسره بلين، حتى ليبدو لناظره بأنه واجدٌ صعوبة في ذلك.. ولكن ليس هذا المهمّ، وإن كان ينمُّ عن أرفع الأخلاق وأسماها، بل إنَّ ما يستوقف الإنسان، ويجعله متأملاً، متفكراً، ذلك الإيمان العميق في قلب عليّ (عليه السلام) وهو يؤكد أن الله سبحانه يهب لرجاله المخلصين من القوة ما يجعل أعمالهم كالمعجزات، عندما تكون الغاية خالصةً لله، ويكون الجهد مرصوداً لنصرة دين الله تعالى.. أما في الشؤون الخاصة، وفي الأمور المتعلقة بحياة الإنسان الشخصية، فيشمخ عليٌّ (عليه السلام) في بساطته، وفي تقشفه، ولا سيما في تواضعه، فلا يفاخر بأنه أتى عملاً عظيماً أبداً، وإنما يجعل الفضلَ كله لله تعالى وحده.

نعم هذا هو الإيمان الصادق، الذي يستحق صاحبه تلك المكرمة السنية فيكون محبّاً لله ولرسوله، وحبيباً لله ولرسوله..

نعم ذاك هو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه). بطلُ خيبر الأول الذي استطاع أن يدحر اليهود مع رفاق أوفياء في حصن «الناعم»، ويضطرونهم إلى ترك الحصن والفرار منه، يلتحقون بحصن «الصعب» ويحتمون في داخله.. ولكنْ هل تكون لهم حمايةٌ في ذلك والمسلمون جادّون في أثرهم؟!.. لا، ما كان اليهود قادرين على تأمين سلامتهم حين لاذوا بذلك الحصن هاربين، فقد كان المسلمون أقدر على اقتحامه، وأسرع في فتحه من حصن الناعم، إذ لم يكادوا يضربون الحصار عليه لمدة وجيزة، حتى أظفرهم الله تعالى بالغلبة على عدوِّهم، فأخذوا منه الأسارى، وغنموا الأموال والخيرات.. ولقد كان زاد المسلمين قد نفد أو أوشك على النفاد، وكاد الجوعُ يعضُّهم بنابه، وأوشك الجفافُ أن يرهقهم بشدته، ولذلك ما إن فتحوا حصن «الصعب بن معاذ» ووجدوا ما وجدوا فيه من تمْرٍ وعسل وسمن وزيت وقمح، وشتى أنواع المؤن ومختلف أصناف المتاع، حتى أقبلوا يسدون الجوع مُشبَعين ويُذهِبون العطش مرتوين.. وفوق المتاع والمؤن الوفيرة، عثر المسلمون في ذلك الحصن على دهليز قادهم إلى كهفٍ مليءٍ بآلات الحروب وأدواتها من السيوف والدروع والحراب والنبال، وفي جانب منه وضع منجنيق كبيرٌ، ندر وجوده في بلا العرب، فسُرّ المسلمون بالعثور عليه سروراً عظيماً..

لقد كانت ذخائر الحصن كثيرة، وأصبحت غنائم للمسلمين، وكادت تغريهم بحَمْلِها وتشغلهم عن متابعة القتال ـ تماماً كما حدث يوم أُحُد ـ في حين أن حصون الأعداء كانت ما تزال عديدة ولم يفتحوها بعد.. من أجل هذا، ولكي لا يكون هنالك توانٍ من المسلمين في أداء الواجب، بعث رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من ينادي في الناس بأمر منه أن: «كُلوا واعلُفوا ولا تَحْمِلوا». فكان ذلك تطبيقاً لقاعدته، صلى الله عليه وآله وسلم، عندما أعلن: «لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرَّتَين».. إذ لا مجال للانصراف إلى الغنائم، والانشغال بها، ما دام إخضاعُ اليهود، والاستيلاء على بلادهم لم يتمَّ بعدُ..

... وفرَّ اليهود بعد سقوط حصن الصعب بن معاذ إلى حصن الزبير الذي يقوم على رأس قمة عالية، تجعل مهمة اقتحامه أمراً صعباً، والوصول إلى داخله أمراً شاقاً.. وبالفعل واجهت المسلمين عقباتٌ كأداء في حصارهم لذلك الحصن، إذ كان عدوّهم يعلو فوقهم،

مسدداً إليهم السهام والنبال التي كانت تنزل عليهم كوابلٍ من المطر، فتمنعهم من التقدم، وتجبرهم على البقاء في أماكنهم، حتى دام الحصار ثلاثة أيام وهم على تلك الحال. ثم بعث الله سبحانه أحد أسرى اليهود يخبرُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بوجود جدول وراء الحصن يزوِّدُ أهلَهُ بالماء، فأمر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، على الفور بالحؤول دون وصول اليهودِ المحصورين على الحصن إلى ذلك الماء. فوجد اليهود أنه لا يمكنُهم البقاء بعد ذلك داخل الحصن معتصمين فيه، مَخافَةَ أن يموتوا عطشاً، فخرجوا لمواجهة المسلمين، ودار قتال عنيفٌ بين الفريقين، قتل فيه لليهود عشرة رجال مقابل رجل واحد من المسلمين، ثم دارت الدائرة في النهاية على اليهود وغُلبوا على أمرهم، ففروا إلى الحصون الأخرى، ودخل المسلمون حصن الزبير، وبسقوطه في أيديهم صارت منطقة «النطاة» وحصونها جميعاً تحت سيطرتهم.

وكان فرار اليهود في هذه المرة إلى حصن «أبيّ» في منطقة «الشق»، فاندفع المسلمون يصعدون جبل «شمران» الذي يقع على رأسه ذلك الحصن، فيحاصرونه من جميع الجهات، ثم لا يلبثون أن يشنّوا عليه هجوماً عنيفاً، بقيادة أبي دجانة الأنصاري، لا ينتهي إلاَّ بفتحه وهروب المقاتلين اليهود من فوق الجُدُر التي كانت توصلهم إلى حصن آخر هو «حصن البريء» حيث يستجمعون قواهم، ويستعدون للقتال من جديد، محتمين بمناعة الحصن، معتمدين على متانة بنيانه.

وزحف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بجيشه وراء عدوه الهارب، فتلقّاهم اليهود بالنِّبال والحجارة التي كانت تسقط عليهم مثل وابل المطر، حتى أن نَبْلاً أصاب ثوبَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وعلق به. وإذْ رأى، صلى الله عليه وآله وسلم، أنَّه لا قبل للجيش على التقدّم وإلاَّ تعرض لخطر شديد أمر بالمنجنيق فنُصِب. وعندما رأى اليهود أن قذفهم بتلك الآلة الهدامة لا محالة واقعٌ، انتابَهُمُ الهلعُ، فولّوا هاربين، وللحصن وراءهم مخلّين.. عندها دخله المسلمون دونما حرب، وراحوا يشكرون الله تعالى على ما أيَّدهم به من نصر عزيز.. وباستيلاء المسلمين على حصن «البريء» تكون منطقة «الشق» قد سقطت في أيديهم، كما سقطت منطقة «النطاة» من قبلُ، ولم يبق أمامهم من بلاد خيبر إلاَّ المنطقة الثالثة والأخيرة وهي منطقة «الكتيبة» التي لاذ اليهود في أشدّ حصونها منعة، وهو حصن «القموص» الذي كان لبني الحقيق وتحت إشرافهم وهم يعتبرون أبرز زعماء

اليهود وأعلاهم قدراً، فجمعوا النساءَ والذراري فيه، وخبَّأوا الكنوز والثروات... وتحوَّل المسلمون إلى ذلك الحصن وأخذوا يضيّقون الخناق على أصحابه في حصارٍ شديد دام بضع ليال، أمكنهم بعدها فتحه على يدي علي بن أبي طالب (عليه السلام) أيضاً، فاندفعوا إلى داخله يقتلون من اليهود بضعة عشر رجلاً، ويسبون النساءَ والذراري ويأسرون عدداً من الرجال والمقاتلين كان بينهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، الذي أبى أن يفارق الحصن مفضِّلاً الأسر على تركه..

وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يعرف أن كنانة هو الذي حمل كنز بني النضير يوم أجلاهم عن المدينة، فلما جيء به أمامه، صلى الله عليه وآله وسلم، سأله عن الكنز فأنكر معرفته بمكانه. ولكنَّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، حذره من إنكارِهِ ذلك وقال له:

«أرأيت إن وجدناه عندكَ أأقتلك؟.

قال كنانة: نعم!..

وراح المسلمون يبحثون عن الكنز من دون أن يعثروا عليه، حتى قادهم شخص إلى خربةٍ كان يرى كنانة بن الربيع يتردد إليها كثيراً، ويقيم الساعات الطوال فيها، فحفرا في تلك الخربة فوجدوا الكنز، عندئذٍ أَمرَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أحد الصحابة، محمد بن مسلمة، أن يضرب عنق هذا اليهودي الخبيث عقاباً له على كذبه وعداوته.

وكان بلال . مؤذن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، . قد اقتاد من الأسرى والسبابا امرأتين، إحداهما صفية بنت حُييّ بن أخطب ـ زوج كنانة بن الربيع ذاته وقد اقترن بها بعد فراقها عن سلام بن مشكم وهي ما تزال في سن السابعة عشرة من عمرها ـ والأخرى ابنة عمّ لها. وقد خطر لبلال أن يمرَّ بهاتين المرأتين على قتلى اليهود حتى تريا مصارع قومهما، وما حلَّ بهؤلاء القوم لشدة كيدهم للإسلام وتآمرهم على نبيّه الكريم، فإذا بقريبة صفية، وما إن رأت ذلك المشهد القاسي حتى أخذت بالعويل والصراخ، ثم ارتمت على الأرض تحثو التراب على رأسها، وتشدّ بشعرها، وتمزق ثوْبها، وبلغت بها الفجيعة أن كادت تقتل نفسها، فأخذها بلال من يدها، وقادها أمام رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهي على تلك الحال، فما إن نظر إليها الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى كره ما تفعل، فصرخ بمن حوله أن يبعدوها عنه وقال لهم: «أُغربوا عني بهذه الشيطانة».

والتفت رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى صفية، فإذا هي شابَّة في ريعان الصبا، يتهلل وجهها بالجمال والوقار، وتنطق قسماته بالألم والحزن، إلاَّ أنها تأبى أن تظهر ذلاً أو مهانة، بل كانت تتماسك وتتجالد بأنفةٍ وكبرياء، مما جعله يرحم مشاعرها، ويغضب لما فعله بلال بها وبرفيقتها فأنَّبه بقوله: «أُنزِعت منك الرحمة يا بلال حتى تمرّ بامرأتين على قتلاهما؟»!.

فأجاب بلالٌ آسفاً: «ما ظننت أنك تكره ذلك يا رسول الله. وأحببت أن تريا مصارع قومهما».. ثم راح يبدي ندمه، ويقسم بألاَّ يعود إلى ذلك أبداً، فصَرَفه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الرحيم بالناس من وجهه. لقد كانت صفية ابنة سيّدٍ في قومه، وسليلة نسب نبوي، فهي تعود في نسبها إلى «هارون بن عمران» أخي موسى (عليه السلام)، وأمها بَرَّة بنت سموأل أخت رفاعة بن سموأل من بني قريظة، فأراد الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن ينزلها منزلة كريمة، وأن يعاملها معاملة حسنة، بما يخفف عنها الأسى، ويقلِّل من شأن المصاب عليها، فأمر أن تُنحى جانباً عن السبايا، وأن يوضع عليها رداؤه، فكان ذلك إعلاناً منه بأنه اصطفاها لنفسه.

أجل، فُتِحَ حصن «القموص» ولم يبقَ أمام المسلمين إلاَّ حصنان هما: «الوطيح» و«السلالم». فأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، جرياً على ما كان يفعل كل مرة، أن يُضرب الحصار عليهما، وأن يزيدوا في تشديد ذلك الحصار بما يفرض على القوم الاستسلام العاجل..

ورأى يهود خيبر أن ملاذهما الباقي أصبح يمثِّله هذان الحصنان، فهما آخر معاقلهم، والمطاف النهائي لمقاومتهم وقتالهم، فإن خسروهما خسروا كل شيء، وحلَّ بهم الخراب والشتات.. ولذلك صمّموا على متابعة المقاومة والموت دونهما، وقرَّروا أن يبذلوا كل ما تبقّى لهم من قوة منعاً لسقوطهما في أيدي عدوِّهم، إلاَّ أن شيئاً من ذلك لم يُجْدِهم نفعاً، وذهبت جميع محاولاتهم وجهودهم أدراج الرياح، إذ لم تعد عندهم قوة كافية لصد الهجوم، وسلاحهم قارب على النفاد، وأبطالهم الذين يعوّل عليهم قتلوا، وزعماؤهم وقادتهم تهاوَوا واحداً إثر واحد.. لقد أمكنهم الثبات أياماً ثلاثة، إلاَّ أنهم فقدوا بعدها كل جَلَد وصَبْر، فرأوا أن الكارثة قد حلّت ولم يعد منها مفرّ، وأن بقاءهم على المقاومة يعني الهلاك التام وقَطْع دابرهم نهائياً.. حيال هذا الواقع . ولمّا لم يعد بيدهم حيلة . رضخوا إلى الاستسلام وطلبوا

الصلح حقناً لدمائهم، فخرج نفرٌ يحمل رايةً بيضاء، فقادوهم إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى ينظر في أمرهم..

لقد جاء هؤلاء النفر من يهود خيبر يطلبون من النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، الصلح على أن يحقن دماءَ المقاتلين منهم، وأن يترك لهم الذرية، وعلى أن يخرجوا من خيبر، ويخلّوا وراءهم كل ما لهم من أراضٍ وزروع، وما عندهم من أموال وأسلحة وخيول..

وقبل رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بهذا الصلح لأنَّ مقصده الأول والأخير من غزو خيبر إنما كان لقطع دابر الفتن، والقضاء على مصادر المؤامرات التي كان يحيكها اليهود ضدّه، وضدَّ الدعوة. وها قد أظفره الله تعالى بهذه الفئة الباغية، التي أنكرت تعاليم كتبها، وحاكت جميع المكائد للمسلمين، وتفنَّنت في مقاومة الإسلام خلافاً لتلك التعاليم، فلِمَ لا يقبل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بهذا الصلح وهو الرسولُ الذي بُعث رحمة للعالمين، وهو رؤوف بسائر العالمين.. وخصوصاً بعد أن دفع الله تعالى عنه وعن المسلمين كيد هذه الفئة الباغية الضالَّة؟.

ولا رَيْبَ في أنّ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لم يرغب يوماً في قتال، ولا في معارك أو حروب، بل كان عمله المتواصل أن يصدِّق أهل الجزيرة بدعوته، وأن يؤمنوا بأحقية هذه الدعوة، ويخلّوا سبيلها كي تنتشر بلا عوائق، ولكنَّ المشركين واليهود أبَوا ذلك، وقاموا يحاربون الدعوة في سبيل القضاء عليها واستئصال الداعين إليها، ولذلك لم يكن ثمّة مفرٌّ من إعداد القوة التي تردُّ هجمة الأعداء، وتلزمهم بالرضوخ لسلطان الدَّعوة، فمن أراد ذلك بالسِّلم سالموه، ومن ابتغى القتال كان السيفُ الحدَّ الفاصل بينهم وبينه.. ولذلك لما جاء يهود خيبر مستسلمين يطلبون صلحاً لم يبخل عليهم نبيُّ الإسلام، صلى الله عيله وآله وسلم، بهذا الصلح، ولكنه اشترط له فقال: «وبرئت منكم ذمة الله ورسوله إن كتمتوني شيئاً».. فوافقوه وصالحهم..

وبفتح حصون «الكتيبة» واستسلام اليهود، انتهى ما كان لهم من سلطان سياسي، ومن قوة مادية، في المدينة من قبل، وفي بلاد خيبر الآن.. إذن ليرحلوا عن أرض الجزيرة كلِّها، لأنه لا يمكن لهم البقاء فيها إلى جانب الإسلام.. إلاَّ أن اليهود، بعدما عزموا على الخروج من تلك البلاد، عادوا إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يستعطفونه بالسماح لهم في البقاء ببلادهم، ويبدون رغبتهم عن الهجرة إلى غيرها، على أن يعملوا في الأرض ويأخذوا

نصف ثمارها مقابل عملهم، فوافقهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على ذلك ولكنه حذّرهم ونبّههم إلى أنه إذا شاءَ أن يخرجهم خرجوا، فقبلوا راضين.. ولقد كان أيضاً في جملة مقاصد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من تلك المصالحة مع اليهود توفير الأيدي العاملة، وتأمين الخبرة اللازمة، لاستغلال أراضي خيبر حتى تبقى معطاءة، والمسلمون مجنّدون في غالب الأوقات للدفاع عن الدعوة والعمل على نشرها، مما كان يستنزف جهودهم وبصرفهم عن السعي وراء المعاش إلاَّ في فترات قليلة من السنة، ولولا فضل الله تعالى عليهم، بما يهبهم من نصر، ويفيء عليهم من غنائم لكانت المجاعة قد حلَّت بهم..

وأما اشتراط الرسول الأعظم على اليهود إخراجهم متى شاء، فكان من أجل ردعهم عن التآمر، وإبعادهم عن المكائد، لأنه وإن كان قد أمِنَ بأسهم بسقوط خيبر، وآمَنَ بأن لن تكون لهم قوة مانعة بعدها، إلاَّ أنهم يبقون أهل دهاءٍ ومكرٍ وخبث، ولا يتورعون عن سلوك شتى الطرق الملتوية، واستخدام مختلف الوسائل المنحطَّة والأساليب الدنيئة للوصول إلى أغراضهم والنيل من كرامة الآخرين، فحتى لا يكون لهم سبيل إلى ذلك، ولكيلا تسوِّل لهم أنفسهم معاودة التآمر . وما داموا قد طلبوا عدم الخروج . من أجل ذلك كله كان شرطُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي اشترطه سيفاً مُصْلَتاً فوق رؤوسهم، يهددهم دائماً بطردهم النهائي من جزيرة العرب حين يشاء..

وكان بين الغنائم التي أحرزها المسلمون في حصون خيبر، صحائفُ مقدسةٌ من التوراة، فلما رأى اليهود معاملة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، الحسنة لهم، زادتهم طمعاً به، فطلبوا أن يعيد لهم تلك الصحائف التي من بينها صحف تحتوي على وصية موسى (عليه السلام) لبني إسرائيل من بعده، وكان بنو النضير قد حملوها معهم عند إجلائهم عن المدينة.. فأمر الرسول الكريم بردِّ تلك الصحائف إليهم، مما يدل على ما كان لهذه الصحائف في نفس رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من المكانة العالية، الأمر الذي جعل اليهود يشيرون إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة 70 ميلادية إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضاً

صحف التوراة، بل يتذكَّرون ما فعله بُخْتُنْصّرَ من قبلُ حين قتل اليهود وأسر الرجال والنساء والأطفال، وهدم الهيكل وأحرق ودمَّر.. وهم الآن يَرون البون الشاسع بين أولئك الفاتحين وبين رسول الإسلام عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام لما وجدوا في تعامله معهم من رحمةٍ ولطفٍ وخُلقٍ سمحٍ رفيع..

ولمَّا فرغ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من إعطاء الصلح ليهود خيبر، بعث إلى أهل «فَدَك» . وهي قرية يهودية تقوم بالقرب من خيبر وفيها قوم من بني مرة، وقوم من بني سعد بن بكر، أن يدخلوا في الإسلام أو يسلِّموا أموالهم. فوقع الذعر في قلوبهم عندما جاءتهم رسلُ النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم كانوا يعلمون ما حلَّ بأهل خيبر، وما وصلت بهم الحال لمقاومتهم وعنادهم، فارتضوا بالتناول عن نصف أموالهم من غير قتال. وبذلك كانت «فدك» خالصة لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه لم يوجف عليها بخيل أو ركاب، أي لم يهاجمها ولا أعمل فيها حرباً ولم تؤخذ بقتال، بخلاف خيبر التي أصبحت فيئاً بين المسلمين لما جاهدوا في سبيل الله حتى أمكنهم فتحها بالقوة. ولذلك فقد قسَّمَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، غنائمها بين المسلمين، بعد أن خَمّسها، فأعطى الراجل سهماً، والفارس ثلاثة أسهم: له سهم ولفرسه سهمان، كي يحثَّ المسلمين على اقتناء الخيول والاعتناء بها لتكون أداة مفيدة مساعِدَةً لهم في حروبهم مع المشركين والأعداء. ثم أعطى من خُمسِهِ ما أراده الله تعالى لذوي القربى من الأهل، رجالاً ونساءً، كما أعطى للسائل واليتيم وابن السبيل، وكذلك أعطى شيئاً من تلك الغنائم لبعض النسوة والموالي ممن شهدوا خيبر، دون أن يسهم لهم، واستبقى فدك لنفسه كما قُلنا لأنها مما أفاء الله تعالى عليه..

لقد كانت مغانم خيبر كثيرة زادت على كل المغانم التي كسبها المسلمون حتى ذلك الوقت، وقد قدّر عبدالله بن رواحة الذي أقامه رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وكيلاً على بلاد خيبر، يقسم الغلال كلَّ عام، أنَّ ما في خيبر من تَمْرٍ فقط بلغ حوالي أربعين ألف وَسَق (الوسق حمل بعير)، هذا من التمور عدا المتاع الكثير ومختلف أنواع الغلال والمؤن والأموال.. وبذلك جرى تقسيم تلك المغانم، على المسلمين ممن شهدوا الحديبية وخيبر معاً، تطبيقاً لأمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إذ دعا للخروج إلى غزوها من كانوا معه في الحديبية، كما ذكرنا سابقاً، إلاَّ من شاءَ أن يخرج غازياً متطوعاً فلا يكون له سهم

في الغنائم، ولكنه ـ وهو نبيُّ الرحمة ـ قد أعطى منها كلَّ من وجده بحاجة، أو كانت أحوالُه تفرض عطاءه.. ومن هؤلاء الذين برَّهم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، المهاجرون إلى الحبشة، فقد كان قبل خروجه إلى خيبر قد أرسل كتاباً إلى النجاشي، يطلب فيه أن يبعث المهاجرين من المسلمين، فوصَلَ هؤلاء بصحبة جعفر بن أبي طالب المدينة، والتقوا مع أبي موسى الأشعري وقومه، فلما علموا بخروج الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى خيبر لحقوا به إلى هناك، ولكنهم وصلوا عندما كان النصرُ قد تمَّ للمسلمين، فقام النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يستقبلهم بالسرور والبهجة، ويفرح جزيل الفرح لعودة جعفر، فيقول له: «ما أدري بأيهما أنا أُسَرُّ، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر؟»، فقسمَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لهم من الغنائم ما أراده الله سبحانه وتعالى..

وفي التدليل على مغانم خيبر الوفيرة، قصةُ رجل من المسلمين جاءَ يوماً إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يطلب أن يزوجه إحدى النساء، دون أن يكون لديه صِداقٌ معجَّل لها. فلمَّا سأل المرأة عن القبول بذلك وافقت، فقال للرجل:

«أترضى أن أزوجك فلانة؟» (ولم يذكر مَهراً).

قال الرجل: نعم يا رسول الله.

فسأل المرأة: «أو ترضين أن أزوجك فلاناً؟».

قالت: «نعم يا رسول الله»..

وعاشا زوجين سعيدين حتى إذا أتاه الأجل أوصى الرجل قائلاً: «لقد زوّجني رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من امرأتي من غير أن أعطيها شيئاً، وإني أشهد أنني أعطيتها من صداقها سهمي بخيبر».

وبعد وفاة ذلك الرجل، أرادت أرملته أن تبيع سهمه في خيبر فبلغ ثمنه يومذاك مئة ألف درهم.

هكذا كان فتح خيبر الذي أفاض الخيرات على المسلمين، كما دلّت قصة الأرملة التي باعت سهماً واحداً من فَيْءِ تلك البلاد بمائة ألف درهم!.. فلم يكن ذلك الفيءُ إلا نعمة كريمة من الله سبحانه منَّ بها على جنوده المخلصين، لتبقى نفوسهم متوثبة دوماً لنصرة دينه العزيز، ولا تشغل بأمور الدنيا ولو كانت من الأمور الضرورية للكسب والمعاش، لأن الوقت كان حرجاً، والظرف على الدعوة كان صعباً، فإن لم تجد من يذود عنها، ويحمل

لواءها، فلا يمكن أن يكتب لها النجاح، ولذا فإنَّ شأنها كان بلا ريب أهمَّ من الكسب والمعاش، حتى إذا بلغت مداها، وأراد لها الله تعالى أن تستقرَّ، عادت القاعدة العامة، وهي الالتفات إلى الكسب والرزق الحلال، بما تفرضه سنَّة الحياة.

وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لا يزال مقيماً في خيبر يرتب شؤونها، ويبعث برسُلِه إلى اليهود من حولها، عندما أتته هدية زينب بنت الحارث، امرأة سلاَّم بن مشكم، وكانت تلك الهدية شاةً مشويةً أرادت أن تخصَّ بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجلس ومن حوله أصحابُه ليأكلوا.. ولكن، ما إن تناول رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قطعة من ذراع تلك الشاة، ولاك منها مضغة حتى لفظها، لأنه لم يُسغ طعمها، وأحسَّ فيها رائحةً غير مقبولة، بخلاف ما فعل أحد الصحابة، بشر بن البراء بن معرور، الذي كان قد ازدرد ما تناوله من الشاة وأكله.. فأَنِفَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لحم تلك الشاة، وأمر الصحابة ألاَّ يتناولوا شيئاً منها وقال لهم: «إن هذا العظم يخبرني بأنه مسموم».. ثم دعا إليه صاحبة الهدية، يسألها عمَّا وضعت في الشاة حتى صار لها طعم غريب ونكهة غير مألوفة، فلم تُنكر زينب بنت الحارث أنها وضعَت فيها السمَّ، بل اعترفت بجريمتها وقالت: «لقد سألتُ عن أي عضوٍ من الشاة أحب إليك، فقيل لي: الذراع، فأكثرت فيه السُمّ، ثم جعلته في سائر الشاة».

وسألها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «وما حملكِ على ذلك يا امرأة؟».

قالت: بلغتَ من قومي ما لم يَخْفَ عليك، فقلت: إن كان كاذباً أو ملكاً استرحنا منه، وإن كان نبياً فَسَيُخْبَر ولم يَضُرَّه».. وسواء كانت تلك المرأة صادقة فيما قالت، أو أنها احتجت به حتى تخفف من عقاب جريمتها، فإنَّ الجريمة قد وقعت ومات بشر بن البراء بسبب السم.. فأراد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يقتلها به، ولكنه عادَ وتجاوز عنها أنفةً من قتل النساء، وتقديراً بأن لديها دوافع للغدر به، فهي امرأة موتورة، قد قُتِلَ أبوها وزوجها، وأُخْضِعَ بنو قومها، وفي ذلك ما يكفي لملء قلبها بالحقد، والتفكير بتدبير تلك الحيلة الخبيثة..

فماذا يريد اليهود بعد هذا التسامح الكريم من محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم؟.

لقد حرص على أن يقيم معهم العلاقات الطيبة، لأنهم أهل كتاب وقد وجدوا في كتبهم ما يدلُّ على نبوته، ولكنهم بدل أن يؤمنوا به، أو يصدِّقوه على الأقل، شهروا له العداوة،

وأعلنوا الحرب على دعوته.. ثم لمَّا خسروا المعارك أقام معهم المواثيق والعهود، وقد كان أمَّنهم ويؤمّنهم في ديارهم وأموالهم، ولكن بدل أن يحفظوا عهوده لهم، كانوا دائماً ينقضونها ويتآمرون على قتله، ويعملون على استئصال دعوته.. بل لقد أوغلَ اليهود في عداوتهم إلى أن صاروا يشكلون خطراً مستفحلاً على الإسلام، وصار لا بدَّ من كسر شوكتهم وإزالة نفوذهم السياسي والاقتصادي والماديّ، فلمّا غزاهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وهزمَهم شرِّ هزيمة عادَ يصالحهم على البقاء في ديارهم، ولم يَحرمهم من تراث تاريخيٍّ هامٍّ لهم.. وفوق هذا كله، وما يُفاخَرُ به من نبل أخلاق نبيّ الإسلام معهم، أن تلك المرأة الخبيثة التي عملت على قتله مسموماً، نظر إليها بعين التسامح، وعفا عنها.. فهل يطلب اليهود أكثر من ذلك؟.

نعم طلبوا! فرغم الضعف الذي هم فيه، والهزيمة التي لحقت بهم، جاؤوا بعد الصلح يشكون لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن بعضاً من المسلمين يقع في حرمهم، فما كان منه، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ أن جمع المسلمين وخطبهم، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: «يا معشر المسلمين. إن بني يهود شكوا إليَّ أنكم وقعتم في حظائرهم، وقد أمَّناهم على دمائهم وأموالهم التي بين أيديهم، وعاملناهم على أراضيهم، وإنه لا تحل أموال المُعاهدين إلاَّ بحقها».. فكان المسلمون بعدها لا يأخذون من بقولهم وثمراتهم شيئاً إلاَّ بثمن.. حتى بعد فتح خيبر ورجوع المسلمين إلى المدينة، كان اليهود يبدون دوماً الاعتراض، ولا يجدون إلاَّ برّاً بهم ورحمة. فعندما كان يذهب عبدالله بن رواحة لتقسيم الغلال بينهم وبين المسلمين، كانوا يقولون له: «لقد جُرْتَ علينا»، فلا يكون من عبدالله إلاَّ أن يخيِّرهم: «إن شئتم فلكم، وإن شئتم فلنا».. فلا يكون جوابهم إلاّ القول: «بهذا قامت السموات والأرض»..

وهكذا كانت معاملات الفاتح الرحيم محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، لبني اليهود، ولا نظن أن فاتحاً غيره في التاريخ كانت له مع الشعوب التي أَخْضَعها والبلدان التي احتلها المعاملة ذاتها، ولقد كان حريّاً باليهود بعد تلك المعاملة أن يرجعوا إلى تعاليم التوراة، فيصدِّقوا محمداً ويتخذوا الإسلام ديناً، ولكنهم ظلُّوا مكابرين، معاندين: {حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}[1]..

---

1 سورة البقرة، الآية: 109.

... وأخيراً انتهى رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من تثبيت الأمور في «خيبر»، واطمأنَّ إلى رضوخ أهل «فدك»، فأذّن مؤذنُهُ بالانصراف، ثم عزم أن تكون عودته للمدينة عن طريق «وادي القرى»، الوادي الذي تتوزع فيه قرى صغيرة عديدة، تسكنها جماعات من اليهود، تقوم حياتها على الزراعة لما فيها من تربةٍ خصبةٍ، وعيون وآبار في تلك الأراضي الواقعة ما بين خيبر وتيماء... ونزل الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بالجيش الإسلامي قريباً من «وادي القرى» وبعث إلى أهلها يدعوهم إلى الإسلام، فأبوْا وتجهزوا للقتال، فما كان منه، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاّ أن أمر بمحاصرتهم وتضييق الخناق عليهم، حتى دام ذلك الحصار أربعة أيام، شن بعده المسلمون هجوماً شديداً عليهم، فلم يستطيعوا دفعه، بل أذعنوا إلى الاستسلام بعد أن قُتل منهم أحد عشر رجلاً. وطلب أهل «وادي القرى» الصلح من النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كما فعل مع أهل خيبر، فأعطاهم الصلح بالروحية ذاتها من الرحمة والشفقة على الناس.. وعندما رأى أهل «تيماء» أنه لم يبقَ غيرهم من اليهود، وأنه لا قِبَلَ لهم على مواجهة المسلمين وقتالهم، بعثوا إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يطلبون الصلح دون أي قتال، فوافقهم عليه مقابل جزية يدفعونها كل عام.

وبذلك سقطت بلاد اليهود، وانتهى كل ما كان لهم من نفوذ في جزيرة العرب، وأصبح المسلمون بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام، كما أمِنوا بعد صلح الحديبية ناحية الجنوب.

وهدأت المعارك، ولم يعد من قتال في هذه النواحي، بينما كان سُعر المعركة ما زال يحتدم هناك في نفوس قريش، إذ لم تكن أخبار فتح خيبر، وسقوط معاقل اليهود قد وصلتها بعدُ، ولم يكن قد أتاها من يبدّد ذلك الانقسام الذي شهدته بين رجالها وأبنائها منذ أن تناهت إليها أخبار غزوة خيبر، وقد وقفوا في جانبين: جانب يرى في قوة اليهود، وكثرة عددهم وعدتهم، وفي محالفة غطفان لهم، عوامل تؤمن لهم الغلبة، فيقول: «تظهر يهود وحلفاؤها»، وجانب يأخذ عبرةً من ماضي المسلمين وما عندهم من إيمانٍ قويّ بالدين الذي اعتنقوه، فيرى في هذا الإيمان، وما يمنحه لهم من عزم، وفي قتالهم وما يجهدون بتنظيم أسلوبه ودقة تخطيطه، وعلى الأخص في وحدتهم وتماسكهم واستهانتهم بالموت في سبيل عقيدتهم.. يرى في ذلك كله أكبر الأثر الكفيل بتحقيق نصرهم، فيقول: «يظهر محمد وأصحابه»..

ثم يشتد الحماس عند كل فريق، فيتمسك برأيه، مصرّاً على تقديره، حتى يقع بينهم الرهان الكثير، فتقبع قريش كلها في ترقب وانشغال بال وهي تنتظر أن تصلها الأخبار حتى أنها لتبعث كل يوم جمعاً من رجالها يقفون على مفارق الطرق ليسألوا كل قادم أو عابر عمَّا آلت إليه الحرب بين محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ويهود خيبر، ولكنَّ أحداً لم يعطها الجواب الذي تريد حتى عِيْلَ صبرها، إلاَّ أنَّها لم تملَّ الانتظار ولم تقلع عن الترقب..
وظلت قريش على تلك الحالة حتى قدم عليها الحجاج بن علاط السُّلمي..
وكان الحجاج قد دخل حديثاً في الإسلام، فلم يعرف بأمره أهلُ مكة. وقد شهد خيبر مع إخوانه المسلمين، فلمَّا أتمَّ الله سبحانه لهم فتحها، أتى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يستأذنه في الذهاب إلى مكة، قائلاً:
«يا رسول الله، إنَّ لي بمكة مالاً أودعته أم شيبة بنت أبي طلحة، وديوناً متفرقة عند تجار أهل مكة، وقد جئت أستأذنك بالذهاب لمكة واسترداد مالي»..
وأعطاه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، الإذنَ بالذهاب، إلاَّ أن الحجاج لم يتحرك من مكانه، بل عادَ يستأذن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن يقول شيئاً. وأجابه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى ما طلب، فقال: «ولكن لا بد لي يا رسولَ الله من أن أقول». وأدرك النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ما يرمي إليه الحجاج، فهو يريد أن يوارب في الحديث، ويحابي في الحقيقة حتى يأمن قريشاً على نفسه، وحتى يكون له سبيل إلى جمع ماله، فأذن له النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بذلك قائلاً: «قل...»:
وقدم الحجاج إلى مكة، حتى إذا كان في محلة تدعى «ثنية البيضاء» على إحدى مداخلها، وجد رجالاً من قريش ما إن رأوه قادماً نحوهم، حتى هبُّوا واقفين، وقد سمعهم يقولون: «هوذا الحجاج بن عِلاط عنده ـ والله ـ الخبر»..
وكان الحجاج يتوقع من قريش أن تستطلع منه الأخبار، بل وأن تلحَّ عليه في السؤال، ولذلك لمَّا بادروه قائلين: «أخبرنا يا حجاج عما وراءك. فقد بلغنا أن محمداً ـ القاطع لرحمه ـ قد زحف على خيبر، بل على اليهود وريف الحجاز»، ردَّ عليهم الحجّاج قائلاً:
يا معشر قريش.. قد عرفت ذلك، وعندي من الخبر ما يسرُّكم».
ومثل ومض البرق، انكبَّ عليه أولئك الرجال، يمسكون بزمام ناقته، ويحيطون به من كل جانب، وهم يلحّون عليه في السؤال: «إِيه يا حجاج! أتخبرنا بما عندك؟».

قال الحجاج بدهاء: «هُزِمَ هزيمة لم تسمعوا بمثلها قطُّ، وقتل أصحابُه شرَّ مقتل، وهو الآن أسيرٌ بين يدي عدوه، يقولون: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيثأرون منه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم».

لم يذكر الحجاج اسم النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنَّ رجال قريش أيقنوا أنه يقصد محمداً، فأطار الخبرُ صوابهم، وراحوا يركضون نحو منازل مكة وهم يصيحون، ويصرخون: «يا معشر قريش! يا معشر قريش! لقد جاءكم الخبر. وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدَم به عليكم فيُقتل بين أظهركم».

وإنْ هي إلاَّ تلك الصيحات، حتى خرجت مكة بأسرها إلى الساحات يملأونها، وإلى الأزقة يعجُّون بها، وهم يزغردون بالفرح، ويهزجون بالنشوة.. إنه منتهى الأمل الذي يصبون إليه.. هزيمة محمد هي وحدها ذلك الأمل، فلِمَ لا يفرحون، ولِمَ لا ينتشون؟!...

عمَّ الابتهاج أنحاء مكة فرقصوا وغنوا.. وتناسى أصحاب الرهان ما تراهنوا عليه: فأمَّا من كان يقول بأن محمداً سينتصر فلم يعد يهمه الآن (وقد بلغته هزيمته) أن يخسر لأنه على استعداد لأن يدفع أضعافاً مضاعفة من رهانه طالما أن محمداً قد هُزم.. وأمَّا من كان يقول بأن الغلبة ستكون لليهود فلا يعبأ برهان يأخذه طالما أن الخبرَ عنده أهم من أي مالٍ!...

هكذا سيطرت عليهم الأوهام، فطابوا بها نفساً، وأقبلوا على الحجاج، وهو من زفَّ لهم البشرى، يريدون أن يولموا له الولائم، ويقيموا المآدب على شرفه.. ولم يمانع الحجاج بن علاط بذلك بل رجاهم التريث في الأمر، ولكي يزيد في إيهامهم، راح يتذرع برفض الدعوات قائلاً:

«يا قوم! إن أردتم تكريمي فأعينوني على جمع مالي بمكة من غرمائي، فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فِلِّ محمد[1] وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هنالك».

وانطلت على قريش حيلة الحجاج، فراحوا يعينونه على جمع ماله بكل طيب خاطر، ثم إنه لم يلبث أن قصد أم شيبة، يطرق بابها، ففتحت له بقلب مفعم بالسرور، ودعته إلى تناول الطعام، ولكنه رفض قائلاً: «يا أم شيبة هلاَّ أعطيتني مالي المودع عندك علَّني أَلحق بخيبر فأصيب من فرص البيع ما لا يفوِّت عليَّ ربحاً كبيراً؟».

---

1 فِلِّ محمد: ما بقي من أثر محمد، أي ما تبقى مما أخذ من محمد، صلى الله عليه وآله وسلم.

وقامت أم شيبة من فورها، تدفع إليه بماله، وهي تودِّعه بأماني النجاح في طريقه، فانصرف عنها، ليطوف على من بقي من تجار مكة يستوفي منهم ديونه، حتى إذا كان عند أحدهم جاءه العباس بن عبدالمطلب، باحثاً عنه في كل مكان حتى التقاه، وما كاد الحجاج يراه حتى عرف ما يريد منه، فتقدم نحوه مسرعاً، وأشار إليه بالانفراد جانباً. وفي غفلة من القوم، بادره العباس سائلاً: «يا حجاج! ما هذا الذي جئت به؟».

قال الحجاج: «وهل تحفظ ما أضع عندك؟».

قال العباس: لستُ متهماً..

قال الحجاج: «إذن فاستأخرني حتى أفرغ..».

وبقي الحجاج ملحاحاً في طلب ماله، محتجاً بالعجلة والذهاب للمتاجرة به، فلمَّا كان له ما رغب وفرغ من جمع ذلك المال، ذهب يلتقي العباس قائلاً:

«احفظ عليَّ حديثي ثلاثاً يا أبا الفضل ـ فإني أخشى الطلب ـ ثم قل ما شئت».

قال له العباس: «أَفعل».

قال الحجاج: «فإني ـ والله ـ تركت ابن أخيك عريساً على بنت ملكهم، ولقد افتتح خيبر وأحرز ما فيها وصارت له ولأصحابه».

قال العباس بلهفة ودهشة: «ما تقول يا حجاج؟!».

قال له: «إي والله، فاكْتُمْ عني. ولقد أسلمتُ وما جئت إلاَّ لآخذ مالاً لي خفتُ من أن أُغْلَب عليه. فإذا مضت ثلاثٌ فأَظْهِر أمرك فهو ـ والله ـ على ما تحب».

خرج الحجاج من مكة مطمئناً إلى ماله الذي جمع.. وانتظر العباس بفارغ من الصبر، حتى إذا انقضى اليوم الثالث من خروج الحجاج، لبس أجمل حلة لديه، وتطيّب بالعطر، ثم حمل عصاه وخرج حتى أتى الكعبة طائفاً.. ورأته قريش على تلك الحال، فظنت أنه يريد أن يموِّه وقع المصيبة على نفسه، ويُذهب عنه الحزنَ لهزيمة ابن أخيه محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فجاؤوا يقولون له: «هذا ـ والله ـ التجلّد لِحَرِّ المصيبة». فما كان من العباس إلاَّ أن قهقه في وجوههم وقال: «كلا، والله الذي حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبرَ، وتُرك عريساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم!».

قالوا متعجبين: «هراء!.. ومن أتاك بهذا الخبر الكاذب؟!».

فقال لهم العباس: «الذي جاءكم بخبركم.. فلقد دخل عليكم مُسْلماً فأخذ ماله وانطلق، هازئاً بكم، ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معهم»!..

قالوا مغضبين: «يا لعباد الله!!.. لقد سخر بنا عدو الله وقدر على أن يستغفلنا؟.. أَمَا والله لو عَلِمْنا، لكان لنا وله شأن».

وهمدت قريش مكظومة، حتى أن كثيرين لم يريدوا أن يصدِّقوا ما قاله العباس، واعتبروه إيهاماً لهم.. ولكنَّهم لم يلبثوا بعده إلاَّ قليلاً حتى جاءهم الخبر اليقين. فقد توافد القادمون إلى مكة من جميع الجهات، وكانوا كلُّهم يؤكدون خبرَ العباس بن عبدالمطلب، حتى لم يبق مجال للشك عند قريش بنصر محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، على بلاد خيبر، فقعدت ملومة، محزونة..

لا، لم تكن قريش لتتوقع أن تنهار خيبر بهذه السرعة، وهي على ما هي عليه من التحصين والمنعة، ولم تكن لتعتقد بأن محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، قد بلغ وأصحابه هذا الحد من القوة.. فَنَصْرُهُ قد أذهلها حقاً، وجعلها تبدّل أفراحها بالحزن، وابتهاجها بالكآبة..

ولئن كان خبر انتصار المسلمين ذاك قد أدهش قريشاً وأذهلها، فإنه بالحقيقة انتصار يدعو إلى التأمل والتفكير.. فاليهود كانوا من القوة الظاهرة بحيث يُظن أنهم لا يُقهرون.. كان عندهم عشرة آلاف مقاتل مدرّبين على فنون القتال وضروبه، ماهرين في الرمي، أشدّاء في الاقتحام حتى عُرفوا كأشدّ الطوائف اليهودية بأساً في الحروب.. وكانت لهم حصون كبيرة، منيعة، ملئت بآلات الحرب على اختلافها، وبالمؤن الوفيرة على تنوعها.. ولم تكن لتنقصهم أسباب الحمية التي تدفعهم للاستهانة بالموت حماية للحرم، أو ذوداً عن الوطن أو دفعاً للعدوان.. ولذلك لم يكن متوقعاً لهم أن يُهزموا وهم على تلك الأحوال، بخلاف المسلمين الذين لم يزد عددهم، عندما جاؤوا يغزون بلاد خيبر وما جاورها، على ألف وستمائة مقاتل، لا يحملون معهم من آلات الحرب إلاَّ السيوف والرماح والقِسِيَّ والنبال، وقد ولجوا أرض المعركة ولا حصونَ تحميهم، ولا معاقلَ تمنع عنهم، إلاَّ ما حملوا في جوارحهم من بأس وعزيمةٍ كانا أقوى من الحصون وأمنع من المعاقل.

وعلى رغم هذا الاختلاف بينهم وبين اليهود، ومع وجود ذلك البون الشاسع في تكافؤ القوى وتهيؤ الأسباب، فقد استطاعوا أن يحققوا ذلك الانتصار الباهر. وعلى مَن؟ على ذلك

الشعب الذي استبدت به روح الغرور وطغى عليه عنفوان الغطرسة، حتى ظَنَّ بنو يهود أنهم هم الأقوى و«أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهمْ مِنَ الله، فأتاهم الله مِنَ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا»، بعدما قذف في قلوبهم الرعبَ وزلزل بهم، فكانوا فِرقاً أشتاتاً.

هذا النصرُ الرَّباني هو ما أذهل قريشاً، وأدهشها بعد أن تحققت خبره. ومثلها بُهِرَتْ بهذا النصر قبائلُ العرب وجموعُهم، فقالوا متعجِّبين: «خيبر تسقط؟!».

وكان يأخذهم العجب أكثر، فيزيدون: «وتذعن اليهود في شتى ديارهم، وفي سائر أماكن وجودهم: في «فدك» و«تيماء» مستسلمين بلا قتال، وتنهارُ «وادي القرى» ببضعة أيام... إنه حقاً لَلْعَجبُ العجاب؟!»..

نعم لقد أَخَذَ هذا النصرُ من رب العالمين بألباب الناس، وجعلهم يُقِرُّون بأنه بات للمسلمين قوة يُخشى بأسُها، وشدة يُرهبُ سلطانها. إنهم لا يقيمون للكثرة وزناً، ولا تردهم الحصون أو تعوقهم القدرات، بل إن أيديهم تضرب بسرعة مذهلة حتى أنه لا يقف بوجههم حائل، ولا يَعوق تقدمَهم مانع..

ولئن سيطرَ الذهولُ والانبهارُ على قريش فأطارا صوابها، إلاَّ أنها عادت تستفيق من الذهول لتدرك الحقيقة المرة وهي أن حلفاءها اليهود وشركاءها في عداوة الإسلام قد قضي عليهم حقاً، وزال كلُّ ما لهم من نفوذ سياسي واقتصادي وعسكري في أقاليم الحجاز، أو أنَّ هذا النفوذ قد تقلَّص إلى الحد الذي ينبىء بمحو آثارهم، وآثار أفكارهم الدينية.. فماذا يمكن لقريش أن تفعل حيال هذا الواقع المرير؟.

هل تقدرُ بعدُ على إشهار العداوة للمسلمين، وفرض القتال عليهم كما كانت تفعل من قبل؟ لا لن تقدر قريش بعد اليوم على القيام بما كانت تبديه من صلافة وغطرسة، بل إنها تجد نفسها حيال قوة المسلمين ملوية العنق، واطئة الجبين، وتحس كأنَّ أيديها قد غُلَّت إلى أعناقها.. وتحاول أن تفتش عن سبيل للخلاص فلا تقع عليه وفي مواجهتها هذا السيل الجارف الذي لا تستطيع له صدّاً، وتضيع أمام هذا القضاء النازل الذي لا تملك له ردّاً.. لقد فاتتها الحيلة بالمقاومة، وبعدت عنها الطريق إلى القرار، فلا ترى إلاَّ الاستسلام للأمر الواقع، والمكوث في ديارها منتظرة ما قد يداهمها به القدر من أحداث...

تلك كانت الآثار التي خلّفتها غزوة خيبر على المكابرين والمشركين..

أما بالنسبة للمسلمين فقد كان الأمر مختلفاً تماماً، إذ جاءت النتائج عظيمةً مشجِّعة للغاية.

فإلى جانب النصر وما ينطوي عليه من تعزيز الثقة بالنفس، كان ذلك الفيءُ الكبير من المغانم التي أذهبت عنهم الفقر والحاجة إلى حد بعيد، ولكن الأهم من ذلك كله هو أن شعورهم بالاطمئنان إلى ولوج الدعوة شتى الدروب التي باتت تمهّد لانتشارها داخل جزيرة العرب وخارجها، قد أخذ طريقه إلى النفوس والقلوب.

لم تستغرق غزوة خيبر وما جاورها من بلاد اليهود إلاَّ نحواً من شهر ونصف الشهر، فقد ذهبت إليها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في أوائل المحرم من السنة السابعة للهجرة ورجع منها ظافراً في النصف الثاني من صفر.

وكان النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قد اختار أثناء تلك الغزوة، من سبايا خيبر صفية بنت حييّ بن أخطب لِما وجد فيها من علائم الاحترام والاعتزاز بالكرامة، فأكرمها إلى أبعد حدود الإكرام، ورفعها إلى أعلى مراتب الإنسانية فأعتقها، وترك لها بعد عتقها أن تختار ما بين الإسلام فيتزوجها أو اليهودية فتبقى في بني قومها.. ولقد اختارت صفية ما هو أقرب إلى نفسها، وما رأته أوثق إلى الحق، فقالت للنبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، بلهجة واثقة: «يا رسول الله! لقد آمنت بالإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صِرْتُ إلى رحلك، وما بي في اليهودية أرب، وما لي فيها والدٌ ولا أخٌ، وقد خيَّرتني بين الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب إليَّ من العتق وأن أرجع إلى قومي.. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»..

ودخلت صفية في الإسلام طائعة، مختارة، فعقد عليها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قرانَهُ ولكنه لم يُعرّس بها على الفور لانشغاله في ترتيب الشؤون العامة، بل أنزلها في رحله عزيزة الجانب، موفورة الكرامة، يسعى جاهداً أن يؤمِّن لها الراحة، وأن يُدخل الطمأنينة إلى نفسها، حتى يذهب عنها الحزن والأسى لما حلَّ بها من نكبات ومصائب. فلمّا كان في طريق العودة إلى المدينة، ونزل العسكر في مكان يقال له «تبار» على بعد ستة أميال من خيبر، مالَ، صلى الله عليه وآله وسلم، يريد أن يعرّس بها. فرآها لا تزال في جوِّ ذكر المواقع والحروب والقتلى، فتركها حتى بلغ المكان المسمى «الصهباء» فنزل يأخذ قسطاً من الراحة، فأقبلت صفية عليه، صلى الله عليه وآله وسلم، تبدي استعدادها وتهيؤها للعرس، مما جعله، صلى الله عليه وآله وسلم، يطلب من أم سليم بنت ملحان ـ والدة أنس

بن مالك ـ أن تقوم على تهيئتها، وقال لها ولمن كان معها من نساء: «عليكنَّ بصاحبتكنَّ فأمشطنها»..

ونشطت أم سليم للمهمة مسرورة، ولكن لم يكن معهم فسطاط ولا سُرادق، فأخذت عباءتين وشدّتهما وسترت بينهما إلى شجرة، فمشطت صفية وعطَّرتها، حتى إذا فرغت ظهرت صفية عروساً مجلوّة، فقالت أم سليم، إنها لم تَرَ بين النساء أضوأ منها، ولم تشمّ رائحةً أطيَب من رائِحتها منذ ذلك اليوم.

وأُدخلت عروس محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، عليه في خيمته، فقام يستقبلها بوجه يطفح بشراً، ويجلسها بجانبه يحدثها حديث الاطمئنان، ويُقبل عليها بالعطف والحنان، فتستجيب بنفس راضية وبقلب ملؤه السعادة. وبقيت صفية في عالم الأحلام حتى أعادتها كلمات رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الواقع إذ سألها: «ما هذا؟»، مشيراً إلى آثار لكمة قرب عينيها كانت ما تزال باقية، فتنهَّدت طويلاً وقالت: «يا رسول الله، إنِّي رأيت في المنام، ليلة عرسي كنانة بن الربيع وكأنَّ قمراً أقبل من يثرب حتى وقع في حِجري. وفي الصباح أفقت وما زال ذلك الحلم في مخيلتي لا يفارقني، ترتسم صورته أمام ناظريَّ فأحسُّهُ وكأنه حقيقة راهنة أشهدها في اليقظة، مما أشعرني بالسعادة، ورجوت أن يشاركني زوجي هذه السعادة فأقبلت أقصُّ عليه رؤياي في المنام، فإذا به يُجَنّ جنونه بعدما سمع مني ما قلت، وينهالُ عليَّ بالضرب وباللَّكمات واللَّطمات على وجهي مما جعل آثار إحدى لطماته باقية حيث ترى، وكان لا ينفك أثناء ضربه يصرخ بي ويقول: [ما هذا إلاّ أنك تمنين ملك الحجاز محمداً] وما زال بي كذلك حتى أفلتُّ من بين يديه وأنا أبكي من اللَّوعة والحرقة».

وراح النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يطيّب خاطرها، ويخفف عنها وقع ألم الذكرى وهو يتمنى لها بأن يعوّضها الله سبحانه مَن هو خير من كنانة.. فأقبلت عليه سعيدة، تريد أن تدفن كل ماضي حياته في ظلِّه الظَّليل. ثم سأل رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بتؤدة: «ما حملَك يا صفية على الامتناع في المنزل الأول؟»..

فقالت بحزم: «ما حبسني يا رسول الله، إلا خشيتي عليك قرب اليهود»..

إذن فقد كانت المرأة حكيمة، وفية، مخلصة لإيمانها ولرسول دينها الجديد، فخافت عليه من غدر اليهود. ومضت تلك الليلة المباركة، واستيقظ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في

الصباح الباكر، فإذا به يسمع حركةً حول خيمته، فيسأل عن صاحب الحركة فإذا به أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، فيخرج الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لملاقاته ويستفسر منه عما أبكَرَ به في تلك الساعة، فيسكت أبو أيوب قليلاً ثم يقول للرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «الحقيقة أنني لم أنمْ ليلتي يا رسول الله، وإنما بقيت ساهراً، أطوف حول الخيمة، وقبضة يدي على سيفي، أحاذر كل حركة، وأرقب كل سكنة»..

ولكن ما الذي يؤرق أبا أيوب ويجعله ساهراً متيقظاً، محاذراً؟ فعندما سأله الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عن السبب في ذلك قال: «يا رسول الله! لقد خفت عليك من هذه المرأة، فقد قتل أبوها وزوجها، وأظفرنا الله سبحانه ببني قومها، وأنها لا تزال حديثة عهد بالإسلام، فخفت عليك منها يا رسول الله»..

لقد أفرَحَ هذا الوفاءُ قلبَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وزادَه اطمئناناً، فدعا لأبي أيوب بما يستحق على الوفاء والمحبة قائلاً: «اللَّهمَّ احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني».

وأَزِفَ موعدُ المسير، فأُذِّن في العسكر للعودة إلى المدينة محفوفاً بنصر الله ونعمائه..

وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد رأى ألاَّ تقيم صفية مع إحدى زوجاته فلما وصَلَ المدينة أنزلها في بيت أحد الصحابة «حارثة بن النعمان» حتى يبتني لها حجرة قرب المسجد أسوة بنسائه الأخريات..

فلم يكن زواج النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من أم المؤمنين صفية حدثاً عابراً، بل كانت له مقاصده البعيدة التي يرمي إليها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إن من الناحية الإنسانية أو الاجتماعية أو السياسية، وإن كانت تصبُّ كلها في نطاق الدعوة وصالحها، شأنه في الزواج من سائر أمهات المؤمنين قبلها. إلاَّ أن هذا الزواج من صفية بنت حيي بن أخطب قد ارتدى طابعاً خاصاً بالنسبة لنساء المدينة جمعاء، لكثرة ما سمعن عن جمالها وحسن أخلاقها وأدبها. ولذلك أردن بعد نزولها في منزل «حارثة» أن يقفن بأنفسهن على جمال زوج الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، الجديدة، وأن يرينَ عن كثب إن كانت حقيقتها تطابق الأصداء التي ذاعت عنها، فرحن يتوافدن على منزل «حارثة» ويجلسن إلى أم المؤمنين صفية، وكلهن إعجابٌ بما وهبَ الله سبحانه وتعالى لها من حسن الخُلق، وجمال الخَلْق.

وكانت الغيرة قد أخذت من نفس أم المؤمنين عائشة كل مأخذ، حين كانت تسمع ما تتحدث به النساء عن محاسن صفية وجمال خصالها، فصممت على أن تذهب لرؤيتها، وخرجت من منزلها متنقِّبة على حذر، إلاَّ أنها لم تعلم بأن رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كان قد رآها أثناء خروجها، وأدرك ما ترمي إليه، فلما عادت دخل عليها يسألها: «كيف رأيت يا شقيراء؟»..

قالت، والغيرة ما تزال تملأ قلبها: «رأيت يهوديَّة»!..

ولكنَّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، نهاها عن ذلك قائلاً لها: «لا تقولي ذلك فإنها أسلمت وحَسُنَ إسلامها».. وفي الوقت الذي كان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يُعِدُّ لعقيلة بني النضير ـ أم المؤمنين صفية ـ بيتها الزوجي، كان يُعِدُّ في الوقت ذاته لبيت زوجي نبويٍّ آخر، يُدخِل فيه زوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب التي كانت قد عادت مع مهاجري الحبشة في صحبة عمرو بن أمية الضمري الذي كان مبعوث النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى النجاشي كي يعقد له قرانه على أم حبيبة ويعود بها وبمن بقي في تلك البلاد من المهاجرين الأولين.. وكانت أم حبيبة قبل هجرتها إلى الحبشة قد تزوجت من عبيدالله بن جحش، وأقامت مع زوجها في مكة حتى بعث الله محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، نبيّاً فآمنا به ودخلا في الإسلام، رغم معارضة أبيها أبي سفيان بن حرب، أحد زعماء مكة، وقائد المشركين فيما بعد.. وقد جاءها هذا الأب الكافر، مراتٍ عديدة يقول لها: «ابنتي رملة، اتركي دينَ محمد بن عبدالله وتخلَّصي من هذا الصابىء عبيدالله، وأنا أكفل لك عزة العيش وأجعل أسياد قريش يطلبون يدك»!..

ولكنَّ رملة لم تستجب لتوسلات أبيها، ولا لإغراءاته، ممّا عرَّضها وزوجَها لظلم قريش واضطهادها، حتى إذا حاقَ بهما العذاب، مثل سائر المسلمين، هاجرا مع من هاجر إلى بلاد الحبشة..

وأقامت «رملة بنت أبي سفيان بن حرب» مع زوجها عبيدالله بن جحش في ديار الهجرة ردحاً من الزمن، ثم لم يلبث عبيدالله أن ارتدّ عن دينه الجديد الذي من أجله هاجر، واعتنق النصرانية، دين أهل الحبشة في ذلك الوقت. وسعى عبيدالله أن يَرُدَّ زوجه رملة عن الإسلام، إلاَّ أنها أبتْ عليه ذلك وخذلته شرَّ خذلة، فتفارقا كلٌّ في حال سبيله، لتعيش رملة

مع طفلتها حبيبة، وحيدة في تلك الديار، تذوق مُرَّ العزلة والفقر، وتلاقي من الصعاب ما يجعل أيامها تمتلىء بالهموم، ولياليها تثقل بالتعاسة..

وفي خضم هذا الظرف العصيب الذي كانت تعيشه تلك المرأة الصابرة، جاء يوماً من يطرق بابها، فإذا هي جارية قد بعثها النجاشي إليها بأمر هام. ودخلت تلك الجارية حجرة «رملة» تقول لها: «يا سيدتي، إن الملك يقول بأن نبيَّ العرب قد بعث إليه يخطبُك منه، فاختاري من تشائين ليكون وكيلاً عنك في هذا الزواج إن أردتِه»..

وأحسَّتْ أم حبيبة بدوارٍ في رأسها وأوشكت أن تهوي على الأرض مُغمىً عليها.. هل حقاً ما تقول هذه الجارية؟!... سبحانك يا رب!... يا من أنت وحدك قادر على أن تغير بين لحظةٍ ولحظة، الأحوال والأقدار.. أنتَ الإلهُ، وعينُك ساهرة على خَلْقك، فرحماك يا صاحب الرحمة والنعمة...

وهل بعدُ من رحمةٍ أوسعَ وأعظمَ من أن تنتقل أم حبيبة من مآسي الوحدة، ومهانة الاغتراب وذل الفقر إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، فتصير زوجاً للرسول الأعظم محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنها حقاً لمفاجأة مذهلة لأم حبيبة، ولكنّها بعد أن أفاقت من الذهول واستيقنت من البشرى، أقبلت على الجارية تخلع سواري الفضة من يدها وتقدمهما هدية لها على بُشراها، ثم لم تلبث أن أرسلت في طلب «خالد بن سعيد بن العاص بن أمية» أحد المهاجرين من بني قومها، لتوكّله بأمر تزويجها.. وجاء خالد بن سعيد يقول للنجاشي بأنه وكيل أم حبيبة، فبعث ملك الحبشة في طلب جعفر بن أبي طالب ليكون شاهداً على عقد التزويج.. وتمَّ العقد وأصدقَ النجاشي أمَّ حبيبة أربعمائة دينار عن النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، ثم دعا إليه جميع المسلمين في الحبشة وأولم لهم وليمة الزواج قائلاً:

«اجلسوا وأولموا، فإن سنَّة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعامٌ على التزويج»..

وفي صبيحة اليوم التالي جاءت جارية ملك الحبشة تحمل إلى أم المؤمنين «أم حبيبة» هدايا نساء الملك من عود نَدٍّ وعنبرٍ وطيبٍ، وقد رغبت أم المؤمنين أن تهدي تلك الجارية خمسين ديناراً من صِداقها، إلاَّ أن الجارية رفضت أن تقبلها وقالت لها: «إن الملك قد أجزل لي العطاء، وأمرني أن لا آخذ منك شيئاً، كما أمَرَ نساءه أن يبعثن إليك مما عندهن من طيب، فحملتُه إليك».

ولقد احتفظت أم المؤمنين «أم حبيبة» بتلك الهدايا لكي تحملها معها إلى بيتها بجوار النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أرادَ أن يعوِّض على ابنة زعيم قريش ـ أبي سفيان بن حرب ـ عما لاقته من مرارة الهجرة وقساوة الوحدة والاغتراب، فما رأى إلاَّ رفعها إلى أعلى المراتب بين النساء، وإدخالها البيت النبويَّ زوجةً عزيزةً موفورة الكرامة، عليَّة المكانة أين منها مكانة أبيها بل ومكانة سائر أشراف العالم وزعمائهم..

وعاشت «أم حبيبة» كما عاشت «صفية» مثل سائر أمهات المؤمنين، في كنف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يغدق عليهن من الحنان والرأفة، ومن المحبة والألفة، ما يجعلهن راضيات، هانئات.. ولم تكن أجواء الطمأنينة مقصورة على آل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وحدهم، بل كانت تعمُّ المسلمين جميعاً، ما دام الرسول الأعظم يرعى شؤونهم كافةً بالرعاية ذاتها لأهل بيته، ولا سيما تلك الرعاية الدائمة على التثقيف بأمور دينهم وأحكامه، وترسيخ المفاهيم الإسلامية في مجتمعهم المناهض لمجتمع الجاهلية وعاداتها.

وعاشَ المسلمون في تلك الأجواء الرحبة، ملتفِّين حول النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، متحابين، متآلفين حتى لَيندر أن توجد وحدةٌ مثل وحدتهم، أو لُحمة مثل لُحمتهم عند أيٍ من الأمم والشعوب الأخرى.. فكلُّهم على طريق واحد ومصير واحد، وجميعهم يعملون من أجل هدف أعلى مشترك وهو إعلاء كلمة دين الله عزّ وجلّ، بلا تنافر ولا تنابذ فيما بينهم، بل تنافس أبداً على الإخلاص للدعوة، وتسابق على محبة الله ورسوله. وإنّ في جدال عمر بن الخطاب وأسماء بنت عميس (رضي الله عنهما) لأروع مثلٍ على ذلك التسابق.. فقد جاءت أسماء مع زوجها جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)، الإنسانِ الحبيبِ إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مع من جاؤوا من مهاجري الحبشة في صحبة عمرو بن أمية الضمري على سفينتين أمَّنهما عليهما نجاشي الحبشة، ليقيموا مع الأهل والإخوان في المدينة، بعيداً عن الاغتراب والوحدة، ينعمون في ظلال الوحدة الإسلامية، ويحيون بأنفاس اللحمة المحمدية، رغم تفرقهم في الجاهلية إلى بطون مختلفة من قريش وغير قريش، ورغم تباعدهم، قبل دخول الإسلام، في الحسب والنسب.. إلا إنهم الآن جميعاً مسلمون، وليس في مدينة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ أجواء إسلامية، قوامها المحبة والتعاون، والألفة، والاجتماع..

وفي هذه الأجواء الطيبة، التقت أسماء بعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) وهي في زيارة لابنته حفصة زوج رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.. فقد دخل عمر (رضي الله عنه) عليهما هانىء البال، رخي العيش، يُسلّم والسرور بادٍ عليه.. وكأنه رغب في سروره هذا، أن يلاطف أسماء زوج جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنهما) فقال: «الحبشية هذه، البحرية هذه؟» أي يقصد أنها جاءت من الحبشة منقولةً مع المهاجرين على سفينة في البحر..

وردت عليه أسماءُ، ملاطفةً أيضاً، وهي تقول: «نعم!..».

فتابع عمر (رضي الله عنه) قائلاً: «سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم»!.

وعندها نفرت أسماءُ وقالت: «كلا والله! كنتم مع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يُطعم جائعكم، ويعظُ جاهلكم. وكنا في دار البيداء والبغضاء بالحبشة، وذلك في الله ـ تعالى ـ ورسوله. وأيمُ الله لا أطعم طعاماً ولا أذوق شراباً حتى آتيَ رسولَ الله وأسأله. لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه».

وقامت أسماءُ من فورها، تأتي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وتخبره بما دار بينها وبين عمر بن الخطاب، وتسأله: أي من المهاجرين أولى بالفضل؟ فقال لها الرسول الأعظم: «ليس بأحقَّ منكم، فله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

وكان ذلك هو التنافس بين المؤمنين.. تنافس على كسب الفضل والأجر، وعلى محبة الله ورسوله. وفي هذا التنافس موطن الشرف ومؤمل الفخار، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون..

هاجروا مع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أوفياء، أمناء، فنالوا نعمة الموعظة وشرف الجهاد..

وهاجروا وحدهم لواذاً واحتساباً، فذاقوا ألم العزلة ووحشة الغربة.. ولكنهم عندما عادوا إلى موطن الدعوة، يحملهم الإيمان ذاته الذي ارتحل بهم إلى البعيد، عادوا ينضوون، مثل سائر المهاجرين الآخرين، تحت لواء القائد الأعلى، والرسول الأعظم، ليشاركوا في حمل عبء الرسالة، ويَحْيَوا الجهاد ونُصرة الدين.

فأصحاب الهجرة، وأصحاب الهجرتين، كانوا مسلمين صادقين، ولكنَّ الأجر كان على قدر المشقة والبلاء.. فمن كان له هجرتان فحقه بالأجر والثواب أكثر ممن له هجرة واحدة،

وتلك هي حكمة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، تنبع من صدق إيمانه وسموِّ فكره، فكفى بهم جميعاً جنوداً لدين الله، أحباءَ لرسوله، وكفى بالمتنافسين في سبيل إعلاء كلمة الله والإخلاص لرسوله اعتباراً وافتخاراً.. نالوا جميعاً الفضل والأجر، فهنيئاً لهم على ما نالوا، ونعيماً لهم على ما استحقوا..

في هذه الأجواء التي تعبق بالإخلاص والتفاني، وفي هذه الرحاب التي تزدان بالمحبة والوئام، عاش المسلمون في ظلال الإسلام، وفي رعاية الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، حياة نقية، طاهرة، تبقى على الزمان مثالاً خالداً لكل أمة أرادت أن تعيش الحياة الحقة، ولكل شعبٍ رامَ المجدَ والسؤدد.. وكيف لا يعتلي الإسلام بأبنائه إلى ذرى المجد، وكيف لا يشُقُّ لهم طريق الحياة الأفضل، وهو يرعى الفرد في أدقّ شؤون حياته مثل رعايته لشؤون الجماعة كلها، وها هي تلك الرعاية تبرز فيما انبثق عن عهد الحديبية من حوادث فردية، وما كان لها من آثار على حياة الجماعة عامة.. فقد تضمن ذلك العهد أحكاماً كان النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، حريصاً على الالتزام بها بصورة كاملة، إلاَّ أنَّ ما خرج على تلك الأحكام، ولم يكن فيه للفرد الإسلامي أو للجماعة الإسلامية مصلحة، لم يكن ليقيِّد الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في شيء، وإن خالف مصالحَ قريش ومآربها.. فإذا كان عهد الحديبية قد قضى بردِّ كل مسلم من قريش يخرج من غير إذن وليه، فإنَّ ذلك العهد لم يتطرق في أحكامه إلى النساء، ولم يأتِ على ذكرهنّ، ولذلك لم يقبل رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن تُردَّ المهاجراتُ إليه من قريش، إن جئنه مؤمنات، مهتديات.. فقد هاجرت بعد الحديبية إليه نسوة كثيرات من قريش، ترفضن البقاء على الشِّرْك مع أزواج مشركين، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط إحدى تلك المهاجرات. ونظراً لمكانة أهلها بين القوم ـ إذ كان أبوها من أشراف مكة وسادة قريش، وأخوها عثمان بن عفان من الأم ـ خرج أخواها عمارة والوليد، ابنا عقبة بن أبي معيط، يطلبان إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يردَّها إلى قومها بحكم عهد الحديبية، ولكنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، رفض ذلك، مبيّناً لهما أن العهد لا ينطبق حكمه على النساء، وأن النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن، والأهم من ذلك، أن المرأة إذا أسلمت لم تعد حِلاً لزوجها المشرك ووجب التفريق بينهما..

ولذلك ردّهما الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يسلِّمهما أم كلثوم، بعد هجرتها إليه مؤمنة.

على أنَّ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كان يقبل المرأة المهاجرة، ويمتنع عن ردّها بعد امتحانها للوقوف على صحة إيمانها. وقوام ذلك الامتحان أن تُستحلف المرأة بأنها لم تهاجر، ولم تفارق زوجها ناشزاً، وإنما هاجرت لله ورسوله، مفَضلَةً الإسلام على كل شيء.. ففي هذه الحالة يصبح من الواجب عدم إرجاعها إلى زوجها الكافر لأنها لم تعد حِلاً له، ولم يعد هو حِلٌّ لها.. وفي ذلك نزل قول الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنْفَقُواْ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُواْ مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُواْ مَا أَنْفَقُواْ ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[1].

هذه هي أحكام الله سبحانه وتعالى، تسوِّي العلاقات العادلة حتى في حالة الاختلاف في العقيدة وفي نمط الحياة وأسلوب التعايش بين الأمم والشعوب.. فالمؤمن والمؤمنة حقوقُهما مصونة، وكذلك الكافر حقوقُه مصونة، في ظلِّ هذا الحكم الإلهي، عندما يتوجب الافتراق بين الرجل والمرأة.. وتلك أحكام الله ثابتة في شرع الإسلام، ومنها يتَّضح صريحاً أنْ ليس من عقيدة أو مبدأ إلاَّهُ ـ الإسلام ـ إن رُمنا عدالةً في الخلق..

على أنه ـ بالمقابل ـ كان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حازماً في تطبيق ما نصت عليه معاهدة الحديبية، حريصاً على الإيفاء بجميع شروطها، وذلك انسجاماً مع خُلقه العظيم، وتكريساً منه لإقامة العلاقات السليمة واحترام المواثيق والمعاهدات، وتنفيذ أحكامها دون أي إخلال بمنطوقها عملاً بأوامر الله سبحانه وتعالى، ومنها قوله تعالى:

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً}[2].

فقد أتاه يوماً وهو، صلى الله عليه وآله وسلم، في المدينة، رجلٌ يدعى أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية ـ حليف بني زهرة ـ وكان قد أسلم وحُبِس بمكة، إلاَّ أنه استطاع الإفلات، فخرج منطلقاً إلى المدينة، بدون إذن مولاه. وعرف المشركون بأمره، فبعث أزهر بن عوف

1 سورة الممتحنة، الآية: 10.
2 سورة النحل، الآية: 91.

والأخنس بن شَريق، رجلاً من بني عامر ومولى له إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ومعهما كتاب كي يردَّ أبا بصير إلى قومه. فلما وصله كتاب ذينك المشركَيْن، دعا إليه أبا بصير وقال له: «يا أبا بصير. إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ، ولا يصح في ديننا الغدر، وإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك».

قال أبو بصير: «يا رسول الله! أتردُّني إلى المشركين يفتنوني عن ديني؟».

فعاد الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يؤكد عليه بقوله: «يا أبا بصير! انطلق فإنَّ الله سبحانه سيجعل لك ولمن معَكَ من المستضعفين فرجاً ومخرجاً»..

وامتثل أبو بصير لأمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وخرج مع الرجلين يجرُّ رجليه جرّاً وفي نفسه لوعة وأسى عما ستفعل به قريش بعد إرجاعه لها..

إنه يتصور ما سيلاقي من ألم وشقاء، ويتخيّلُ العذاب الذي سينزل به كي يُفتن عن دينه، فيزيد ذلكَ في آلامه، ويجعله تائهاً عن صاحبَيه اللَّذين يقودانه إلى ذلك العذاب.. وفيما هو غارق في همومه تلك إذا بفكرة تلمع في خاطره، فيتحول فجأة تجهّمُ وجهه إلى ارتخاء، وعبوسه إلى تبسُّم، ويقبل على الرجلَين، محدثاً، ممازحاً، يتذكر ما عنده من طرائف فيحكيها، وما حصل معه من حوادث فيرويها، حتى آنسا منه صُحبةً وسُرّا لرفقة طريقه..

وظل أبو بصير على ثرثرته وتحدثه، حتى بلغوا «ذا الحليفة»، وهنالك أمكنه أن يغافل الرجلين، ويعاجل بامتشاق سيف العامريّ بيده، ثم يهوي عليه بضربة قاتلة، تُردِيْهِ من فوره..

ويلتفت أبو بصير إلى المولى يريد الإجهاز عليه أيضاً، إلاَّ أنه لم يجده بجانبه، فقد رأى ذلك المولى ما حلَّ بالعامري، فانطلق مسرعاً يطلب النجاة بنفسه، وكان قد بَعُدَ كثيراً في طريقه إلى المدينة عندما وقع نظر أبي بصير عليه، فاشتَدَّ في أثره ليلحقَ به..

لقد اندفع ذلك المولى يريد المدينة، فلمّا بلغها توجه إلى المسجد يريد الوصول إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كي يحتمي به ويشتكي إليه، وما إن رآه النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، مقبلاً على تلك الحالة حتى قال للصحابة من حوله: «إنَّ هذا الرجل قد رأى فزعاً».. فما أن تقدم منه حتى سأله: «ويلك ما لك؟».

قال المولى: «لقد قتل صاحبُكم صاحبي»..

وطلب النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من الرجل أن يهدِّىءَ من روعه وأن يخبره بما حدث، فراح يروي ما حصل في الطريق، وكيف قتل أبو بصير صاحبه العامري، وهو لا يكفُّ عن اللهث والتأوّه.. في هذه الأثناء كان أبو بصير قد طلع، متوشحاً السيف، فأسرع يتقدم من النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ويَمْثُلُ بين يديه وهو يقول:

«يا رسول الله، قد وفيت ذمتك، وأدّى الله عنك. أسلمتني للقوم وقد امتنعتُ بديني أن أُفتن أو يُعبث بي».. فلم يكن من النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ أن قال: «ويلُ أُمِهِ، مُسعِرِ حربٍ لو كان معه رجال»..

فخاف أبو بصير مما قاله رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وشعر بأنه لن يتأخر عن تسليمه إلى قومه، فالتزم بالصمت. ثم خرج من حضرته منطلقاً إلى البراري والطرقات حتى نزل العيص على ساحل البحر، في طريق قريش إلى الشام..

وكان المولى الذي جاء مع العامريّ قد خرج أيضاً عائداً إلى مكة يخبر المشركين بما أصابَ صاحبه على يد أبي بصير، وكيف خرج هذا إلى البراري والقفار لا يلوي على شيء، ولكنه يتمتع بالحرية بعيداً عن الظلم والجَوْر.. وإذا كانت أخبار هذا المولى قد أغضبت قريشاً وأحنقتها، إلاَّ أنها وقعت في مسامع المستضعفين من المسلمين، المغلوبين على أمرهم، مثل النسائم تهبُّ على تائهٍ في وسط الهاجرة، لتشُدَّ من عزمهم، وتجعلهم يتحفّزون لاغتنام الفرص والإفلات من قيود المشركين، هاربين من جورهم إلى البعيد.. وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو أول من استطاع الهرب بعد تلك الحادثة، فلم يأتِ المدينة خوفاً من أن يردّه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى قريش، بل راح يبحث عن أبي بصير حتى اهتدى إليه، فأقام معه.. ومثل أبي جندل خرج كثيرٌ من مستضعفي المسلمين، الواحد تلو الآخر، حتى بلغ عددهم حوالى سبعين رجلاً، التقوا كلُّهم حول أبي بصير وأقاموا معه على مناوأة قريش والتصدّي لها، لا يتركون لها عيراً تمرُّ إلاَّ اعترضوها، يقتلون من استطاعوا من رجالها، ويأخذون ما وصلت إليه أيديهم من أموالها.

وأفزَعَ أمرُ هؤلاء الرجال قريشاً، وهم يغزون قوافلها، ويهاجمون تجارتها، حتى باتوا يشكلون مصدر خطرٍ ليس فقط على الأرواح، والأرباح التي يجنون من تلك التجارة، بل وعلى حياتهم كلِّها، لأنهم إن استمروا في ذلك، فإنهم سوف يحرمون قوافلهم من الخروج، ويوقعونهم في الحاجة والفقر..

ورأت قريش أنها عاجزة عن القضاء على هؤلاء الرجال، فبعثت إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، تسأله بأرحامها إلاَّ آوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمناً، وتطلب إليه الرِّفق بها والعطف عليها حتى لا تقع في التهلكة..

ولكم كان ارتياح رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كبيراً وهو يتبلَّغ رسالة قريش تلك. فهي لا تنطوي فقط على الضعف وقلة الحيلة، بل تحمل أيضاً تنازلاً صريحاً عن الشرط الذي أصرَّت عليه في معاهدة الحديبية وهو أن يردَّ إليها كل من أتاه من المسلمين في مكة بغير إذن وليّه.. نعَم سقط ذلك الشرط، وأصبح الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في حلّ منه، يستقبل من يأتيه من المسلمين مهاجراً من عنت قريش وظلمها، كما يستقبل المهاجرات المؤمنات، بلا قيد ولا شرط..

اطمأنَّ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى سقوط الشرط الجائر، فبعث إلى أبي بصير يطلب إليه القُدُوم ومن معه إلى المدينة، وأن لا يعترض بعد اليوم أحداً من رجال قريش، أو يتعرَّض لعيرها... ولكنَّ أمر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، كان قد بلغ أبا بصير وهو مشرفٌ على فراق الدنيا لمرض أصابه، فتلقَّاه برضًى واطمئنان ثم أغمض عينيه مرتاح الضمير لأنه قدر على أن ينجو من عذاب قريش، وأن يتخلَّص من فتنتها له عن دينه، ثم ينتصب لها هو وأصحابه قوةً تهدد كيانها، وتزرع الأخطار في دروبها، حتى جعلها تذلّ، وتنزل عن تلك الغطرسة التي تتعالى بها وتتفاخر..

ودُفِنَ أبو بصير في المكان الذي كان فيه، ثم ارتحل أصحابه إلى المدينة، نزولاً على أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعادَ طريق الشام آمناً أمام قوافل قريش..

هكذا كانت الأوضاع تسير بعد معاهدة الحديبية، من حسن إلى أحسن، ومن انتصار إلى انتصار.. كل ذلك والإسلام آخذ في الانتشار في الجزيرة، لا تخلو منه بقعة من بقاعها، ولا يغيب عنه حدثٌ من أحداثها.. فقد استوى سلطانه مترامِيَ الأطراف، بعد القضاء على نفوذ اليهود، حتى عمَّ أقاليم الحجاز كلها، إذ لم تعد قريش تشكل تلك القوة التي تستطيع الوقوف في وجه الدعوة، ولم يعد لليهود ذلك الشأن الذي يعرقل مسيرتها..

* * *

سلسلة غزوات الرسول

(7)

مَعْرَكة مُؤتَة

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ آلْرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلْنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً} .

وتأييده سبحانه وتعالى:

{هُوَ الَّذِي أَرْسَل رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} .

عمرَة القضَاء

وكرّت الأيام، بعد معاهدة الحديبية وغزوة خيبر، يُمناً وبركةً على الدعوة الإسلامية، إذ حفلت الشهور المعدودة التي أقامها بعدهما الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في المدينة بالأعمال المثمرة. فبعد أن أمِنَ صلواتُ اللّهِ عليه مقاتلة قريش وغدر اليهود، انصرف للبناء الداخلي في مجتمعه، فأخذ يعزّز قواعد التعامل السويّ بين الناس، ويسنُّ الأحكام العامة وفق وحي السماء، أو كما يهديه إليها عقله النيّر، ثم يستقبل الوافدين إليه إيماناً بالإسلام واقتناعاً بنبوَّته، وذلك كله من غير أن يهدأ تفكيره في الطرق والوسائل التي من شأنها إيصال الدعوة إلى جميع الأقطار والأمصار البعيدة، فيرسل الدعاة ليتصلوا بالناس يدعونهم إلى دين التوحيد، دين الإسلام العظيم.

على أن تلك الشهور لم تكن لتخلو من بعض المناوشات التي كانت بعض قبائل الأعراب تتجرأ على القيام بها طمعاً في الغنيمة والسلب، فيسيِّر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، السرايا لتأديبها وإبعادها عن طرق القوافل والناس وعن شتى أنحاء الجزيرة التي أصبحت تحت نفوذه، وذلك لكي يكون في تأديب تلك القبائل عبرة لغيرها فتستقر الأوضاع، ويسود الأمان والاطمئنان في سائر الربوع والمناطق.. وإذا كانت تلك السرايا قد أدت إلى استشهاد بعض المؤمنين المجاهدين، فإنَّ ذلك أمر طبيعي، لأنه ما من قتالٍ ينشب أو حرب تقع، أو احتكاك مسلح يحدث، إلاَّ ويكون من النتائج إصابة أو موت أشخاص كثيرين من فرقاء النزاع.

وفيما عدا تلك المناوشات، ظلت الدعوة الإسلامية طوال السنة السابعة للهجرة، تسير من حسن إلى أحسن، ومن تقدم إلى تقدم، ومن توسع إلى توسع، مكرِّسة هيبة الدين في النفوس، موطِّدة دعائم الإيمان في القلوب. وبانقضاء تلك الشهور كان الحَوْل قد دار على عهد الحديبية، وحان الموعد لخروج المسلمين حاجّين إلى بيت الله الحرام، كما قضى ذلك العهد. فما إن أهلَّ شهر ذي القعدة من السنة السابعة حتى أعلن رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الاستعداد إلى عمرة القضاء، على أن لا يتخلف عنها أحدٌ ممَّن شهد الحديبية..

وهذا الإعلان جعل الفرحة تعمر القلوب وتنعش النفوس.. فها هي الفرصة قد وأتت لرؤية ذلك البيت المقدس الذي غُرست محبته في قلوب المؤمنين فلا تفارق صورته الأذهان أبداً. وها هي الأماني التي ساروا في العام الفائت لتحقيقها تعود من جديد لتحفزهم على السير وتشدهم إلى الذهاب معتمرين..

واندفع جميع المؤمنين، من أصحاب الحديبية، يتهيأون للخروج الميمون ولم يتخلف منهم أحد قطُّ إلاَّ من كان الله سبحانه قد توفاه أو أناله الشهادة في خيبر أو في سرية من السرايا أو أي عمل كان يقوم به مؤدياً فريضة واجب الجهاد المقدس.. وقام مع هؤلاء المؤمنين جمعٌ من المسلمين ممن لم يشهد الحديبية يُبدي رغبته في زيارة المسجد الحرام، فصار العدد كبيراً حتى بلغ حوالي الألفين من الرجال عدا النساء والفتيان والأولاد.

ولم تدم فترة التهيؤ تلك طويلاً، كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في آخرها قد استخلف على المدينة أبا ذر الغفاري (رضي الله عنه). فما هي إلاَّ أيام معدودات حتى أقبل يوم المسير، فأحرم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على باب المسجد، ثم خرج في تلك الجموع على هدى الله وبركاته..

وسار ذلك الركب الإسلامي يتدفق على الطرقات بأعداده الغفيرة، ويملأ الأجواء بتلبياته ونداءاته.. خرجوا معتمرين ينشرون في الدروب البرَّ والسلام، ويمضون عازمين، متقلدين السيوف والدروع والرماح، لا تنكّراً لعهد الحديبية وهو يقضي بألا يحملوا معهم إلاَّ السيوف في أغمادها، ولكن حذر غدر قريش ولؤمها، لأن تجارب الماضي تشهد بأنَّ هؤلاء القوم لا يتورعون عن ارتكاب الذميمة، وافتعال الشر إذا وجدوا الظروف مؤاتية، والأوضاع مساعدة.. ويسوقون معهم من الهَدْي ستين بُدْنةً، ويقودون من الخيول مئة، لا ليُرجفوا بها على أولئك القوم، وإنما تماشياً مع واجب الحيطة واليقظة، وإعلاناً عن هيبة الدعوة وعلوّ شأوها..

أجل، كانت وجهة الركب زيارة بيت الله الحرام، فلا قتال، ولا حرب، بل البيت الحرام وحده مقصدهم.. ولكن ما إن بعدوا عن المدينة قرابة سبعة أميال، وبلغوا جوار إحدى القرى، حتى دعا الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إليه كلاً من قائد السلاح بشير بن سعد، وقائد الخيالة محمد بن مسلمة، وطلب إليهما التقدّم طليعةً للمسلمين على ألاَّ يتخطيا بمن معهما حرم مكة، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مرَّ الظهران إلى وادٍ قريب منها. ومضت خيول

المسلمين تلك، تغذُّ السيرَ حتى بلغت الأماكن التي عيَّنها لهم رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا بهم يلتقون نفراً من قريش، ما إن رأوهم حتى أرجفهم الخوف، وأربكم الفزع، فطمأنهم المسلمون قائلين: «لا تخافوا، ولا تجزعوا: هذا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يصبّح هذا المنزل غداً إن شاءَ الله»..

ولكنَّ ذلك الاطمئنان لم يهدّىء من هلع قلوب نفر قريش، فخلُّوا المكان وسارعوا إلى مكة يخبرون قومهم بأن المسلمين قادمون بالخيول والسلاح، فإذا الخوف يعمُّ أرجاء مكة كلها، فيقول بعضهم لبعض: «والله ما أحدثنا حدثاً! وإنا لعلى كتابتنا ومعاهدتنا، ففيم يغزونا محمد وأصحابه؟»!.

وكان الركب قد وصلَ إلى حيث نزل الفرسان وحاملو السلاح، فأمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بإناخة الرحال لأخذ قسط من الراحة. أما قريش فكان قد استبدَّ بها القلق، فعاجلت توفدُ مكرز بن حفص في عدد من الرجال كي يلتقوا محمداً، ويسترحموه، مذكِّرين بالعهد القائم، وبحفاظهم عليه لا يبتغونه نقضاً، ولا يرجون قتالاً.. وجاء ذلك الوفد يعرض على النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، استرحام بني قومه، قائلين: «يا محمد! ما عُرِفْتَ صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح على قومك وقد شرطت لهم ألاَّ تدخل إلاَّ بسلاح المسافر، السيوف في القرب!».. فتبسَّمَ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال بلهجة الصادق الواثق: «لا أدخل عليهم إلاَّ بالسيوف». ولما سأل وفدُ قريش عن السلاح، عرفوا أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، سوف يضعه خارج مكة، ولن يدخل به حفاظاً على عهده. عندها أحسَّ ذلك الوفد بأن كلمات رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد نزلت على قلوبهم برداً وسلاماً.. إنه يقول لهم: لم يأتِ غازياً، ولا يريد قتالهم، وهم قد عرفوه صادقاً، لا يقول إلاَّ صدقاً، ولا يفعل إلاَّ حقاً، فما دام يطمئنهم، فليطمئنُّوا!.. نعم لقد هدأ الخوف في نفوس وفد قريش، فالتقط رئيس الوفد «مكرز» أنفاسه، فقال للرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «وهذا الذي تُعرف به من البر والوفاء».. ولم يعتِّم أن قام يدعو أصحابه بالعودة، ليقول لبني قومه: «يا معشر قريش! إن محمداً على الشرط الذي شرط لكم.. فلا تخافوا، ولا تجزعوا، فما محمدٌ بالذي ينقض عهوده، ولا بالذي يخون أمانته، إنه جاء معتمراً وحسب، وهذا من حقه، فعليكم أن تفوا أنتم بعهدكم وتفسحوا له في الطريق، بلا مضايقات، ولا خبث ولا مكيدة»!..

آمنت قريش بعد عودة مكرز بن حفص أنَّ ما جاء إليه محمد لا يتعدّى زيارة الكعبة، فجلا أشرافها وسادتها عن مكة نزولاً على صلح الحديبية، وصعدوا إلى التلال المجاورة حيث ضربت الخيام وقبعوا ينتظرون.. وإذا كان صلح الحديبية قد شرط على قريش بأن تجلو عن مكة عند دخول محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه إلى الكعبة، فإنّه كان في نفوسهم من الضغينة والحقد ما هو أقوى من شروط المعاهدات، وبنود المواثيق، فمشاعرُ الكراهية تلك هي التي أبت عليهم البقاء في مكة، فقد كانوا يقولون بعضُهم لبعض: «لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه».. وليت معشر قريش جرَّبوا، فبقوا في مكة، لوجدوا أن نبيَّ الإسلام لا يمنع عليهم ذلك البقاء، بل كان يفضله لأنَّ فيه ما قد يؤلف القلوب، ويبعد التنافر.

إذن السادة والأشراف من قريش يعمهون في حقدهم وكراهيتهم، ولكنَّ آخرين غيرهم كان يملأ نفوسهم حب الشماتة، والرغبة في الاستهزاء من المسلمين، بعدما أشيع في مكة بأن المسلمين قد أصابتهم الحمّى فأنهكتهم، فجاؤوا هزالاً، ضعافاً.. ولذا آثرت هذه الجماعات الأخرى البقاء في مكة لرؤية حالة أولئك الضعاف العجاف وما فعل بهم المرض، أو ما نزل بهم من الإنهاك والتعب.. ولكن سرعان ما تغيّر رأيهم وهم يرونهم على خلاف ما تناهى إليهم.. فها هُمُ المسلمون يدخلون مكة بوجوهٍ تطفح بالحيوية، وبأجساد تمتلىء صحةً وعافية، وسواعد مفتولة، ونفوس قوية، أقلَّ ما يبين على أصحابها ذلك الإيمان الذي به يستقوون..

ونظر أهل مكة إلى هؤلاء الأصحاء، الأقوياء، فإذا بالمنظر يغريهم ويُسْلِمُهم إلى التأمل والعجب.. وكيف لا يعجبون لرؤية أناسٍ يحفون بالنبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، فوق ناقته القصواء، وهم يحيطون به بأجسادهم وقلوبهم، لا يتوشحون إلاَّ بالسيوف، ولا يتنقلون إلاَّ بالتوثب، ولا يغريهم شيء من عرض الدنيا إلاَّ محبة هذا النبيِّ الكريم وبلوغ بيت الله الحرام؟!...

ويسير الموكب متهادياً في أرجاء مكة، وأصوات أصحابه تعجُّ بالتلبية لله العلي القدير، الذي منَّ عليهم بهذه العمرة: «لبَّيك اللَّهم لبَّيك».. ويكون عبدالله بن رواحة آخذاً بزمام ناقة النبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، فتأخذه نشوة الفرح، ويملأه الحماس، فيندفع راجزاً في سيره أمام الناقة:

خَلّوا بني الكُفَّار عن سَبيله

خلّوا فكلُّ الخير في رسوله

قد أنزل الرَّحمنُ في تَنْزيله

بأن خير القتل في سبيله

يا ربّ إني مؤمن بقيله

إني رأيت الحق في قبوله

اليوم نضربكم على تأويله

كما ضربناكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

ويرى الرسول في إنشاد عبدالله ما ينمُّ عن صيحة حرب، فيأمره قائلاً: «مهلاً يا ابن رواحة! وقل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعزّ جنده، وخذل الأحزاب وحده».

فنادى بها ابن رواحة بأعلى صوته، وردَّدها المسلمون من بعده بقوة وحماسة، فتجاوبت بأصدائها جنبات مكة كلها، وارتفعت رهبتها إلى قلوب أولئك الحانقين الذين أبوا إلاَّ أنْ يفارقوا بيوتهم لئلا ينظروا ويسمعوا، فيأبى الله سبحانه إلاَّ أن يُسمعهم ما يشاء، وأن يريهم ما يريد رغماً عنهم، وخلافاً لإرادتهم.

لقد كان المشهد فذاً في التاريخ، لم تقع عيون أهل مكة على مثله قط، وكان النداء المنبعث من القلوب، والمدوّي في الآفاق «لبَّيك اللَّهم لبَّيك» يخترق آذانهم بما لم يسمعوا مثله أبداً.. ويبقى ذلك المشهد حافلاً بروعته وبهائه حتى يبلغ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، المسجد، فينزل عن ناقته، ويلتف بردائه، ثم ينتقل بخطوات ثابتة وئيدة حتى يلامس الركن عند الحجر الأسود، فيقول: «اللَّهم ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة»! ثم لمَّا وصل إلى الركن اليماني راح يمشي والجموع معه تمشي بسبعة أشواط، في طوافٍ كانت تحفل به نفوس أصحابه بإيمان عامر، وقوة بادية، وكانت تنظر إليه قريش من فوق التلال، ويرقبه أهل مكة في صفوفهم المكتظة، فيأخذهم منه جميعاً البهر من كل مكان، فيقولون بعضُهم

لبعض: «أهؤلاء الذين تزعمون أن الحمّى أضعفتهم؟.. إنهم لينفرون كما تنفر الظباء»!. وبذلك أدركت قريش أنها تشهد وترى ما يمحو من أفئدتها كل وهم بوهن محمد وأصحابه..

ولما أتمَّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والمسلمون الطواف حول الكعبة المباركة، انتقل بهم إلى السعي ما بين الصفا والمروة في سبعة أشواط، حتى إذا أتمّوها، وقف، صلى الله عليه وآله وسلم، يدعو إلى نحر الهَدْي قائلاً: «هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر».. ونُحِرَ الهديُ عند المروة، وشارك في النحر مع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كل من شهد الحديبية مسلماً. وما كادوا ينتهون حتى حلق النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، رأسه، وحلق أصحابه، متممين بذلك فرائض العمرة. عندها بعث، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى «بطن يأجج» قرابة مائتين من المسلمين لكي يقوموا على حراسة الخيل والسلاح حيث تركوها خارج مكة، بدلاً من إخوانٍ لهم كانوا يحرسونها، فلا يفوت على هؤلاء القيام بمناسك العمرة أسوةً بسائر المسلمين المعتمرين.

وأقبل بعد ذلك رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الكعبة، وفي قلبه شوق للتفيّؤ في ظلالها، وفي نفسه توق للإخلاد إلى السكينة في رحابها.. أوليست الكعبة بيت الله الآمن، وزيارته مباحة لكل قبائل العرب وأبنائها؟ فلِمَ تتعنَّتُ قريش إذن في حرمان محمد وأصحابه من دخوله؟ ولِمَ هذا الظلم والعدوان على المسلمين؟!.. ولكن إذا أمكن لقريش ذلك فيما مضى فإنَّ الله سبحانه أبى إلاَّ أن يخذلها، وأن يدع رسولَه الكريم يعود إلى بيته الحرام معزَّزاً مكرَّماً.. وها هو ذا الرسول الكريم يدخل الكعبة على مرأى من قريش، فيدور في أرجائها، ويتلمَّس مواضع الطهر والعبادة التي كان يقضي فيها كل يوم شطراً من أوقاته، ثم يجلس مستنداً إلى ركن من أركانها وهو يتلو قرآناً كريماً تتردّد أصداؤه في جنبات البيت الحرام آياتِ حقٍّ أنزلت من السماء، لتعيد ذكر الله كما فعل إبراهيم وإسماعيل (عليه السلام) وكما يفعل خاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ليبقى هذا الذكر خالداً ما دامت الأرض أرضاً، والسماءُ سماءً..

وظلَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في محرابه ذاك قائماً على ذكر الله العلي القدير، غير آبهٍ بتلك الأصنام والأوثان المنصوبة في جوف الكعبة تعلن عن أباطيل الكفر والشرك، حتى يحين موعد صلاة الظهر، فيدعو بلالاً ليصعد فوق ظهر الكعبة ويؤذن للصلاة!.

وترددت في أرجاء مكة تلك الكلمات الخالدات: الله أكبر، الله أكبر.. وتلك الدعوات الصالحات: حيَّ على الصلاة، حَيَّ على الفلاح.. فترتجف أوصال قريش، وترتعد فرائصها لهذا الأذان، يرتفع عالياً فوق ظهر الكعبة، التي تستمدُّ منها المكانة بين العرب، والسيادة بين القبائل، فتحسُّ بالقهر والذلّ، وتأبى حتى على جوارحها أن تسمع وأن ترى، فيضع بعضُهم أصابعهم في آذانهم يسدونها، ويغطي آخرون وجوههم بأيديهم يحجبونها، كما فعل سهيل بن عمرو وجماعة معه..

ثم لا تقف قريش في غلوائها ضد نداء الحق عند هذا الحد، بل يدفع الضيق والغيظ بعض أبنائها للتعبير عن مشاعرهم الحاقدة بما يخالف كل مألوف في التصرف قولاً وفعلاً، فيقول عكرمة بن أبي جهل، ذاكراً في هذا الموقف عداوة أبيه للإسلام: «لقد أكرم الله أبا الحكم (يعني أباه) فلم يسمع هذا العبد (بلالاً) يقول ما يقول»!.. ومثله يذكر صفوان بن أمية أباه في حقده ضد الدعوة فيقول: «الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى ويسمع هذا الذي نراه ونسمعه»..

ويتمثّل بهما خالد بن أسيد، فيقول: «الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم حتى يقوم ابن أم بلال ينهق فوق الكعبة»..

آذى المشهد القرشيين ووقر آذانهم، فلم يطيقوا صبراً على احتماله، فاجتمع نفرٌ منهم بعدما تشاوروا، وأتوْا رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حانقين، قائلين: «يا محمد! إنَّ هذا لم يكن في شرط الحديبية».. فردَّهم الرسولُ الأعظم خاسرين، وهو يعلن لهم أن صُلح الحديبية يخوِّله زيارة المسجد الحرام مع ما تحمل هذه الزيارة من حق للمسلمين في إقامة شعائرهم الدينية: عمرةً، وصلاة، وأَذاناً، ونحراً، وأنَّ منعهم من الأذان فوق ظهر الكعبة هو النقض نفسه لمعاهدة الحديبية، فلتكفَّ إذن قريش عن دعواتها الباطلة، وعن افتراءاتها الجوفاء، لأنها لن تجد أي جدوى من ذلك..

واحتملت قريش آلامها على مضض، واعتصرت حقدها على كيد حتى تنقضي الأيام الثلاثة لإقامة المسلمين في مكة طبقاً لما نصّت عليه معاهدة الحديبية، فلاذت بالسكون، ولم تحاول التحرّش بالمسلمين مرة أخرى.

وانطلق المسلمون أثناء مكوثهم في مكة، يروحون ويجيئون آمنين، لا يجرؤ أحد من المشركين على التصدّي لهم بشيء.. على أنه لم تكن هنالك من حاجة لمثل ذلك

التصدي، فهؤلاء المؤمنون لا يأتون من الأعمال إلاَّ ما يدل على البر والتقوى، ولا يتحدثون إلاَّ بما يعبِّر عن القيم والمثل، وهم في ذلك كله مثال الإخلاص لدين الله، ونبراس المحبة لرسول الله.

وما كانت خصال المسلمين الحميدة، وأخلاقهم الفاضلة، إلاَّ لتؤثر في المشركين، فتبهرهم وتدهشهم، فإذا بهم يعجبون بهم حقاً، بل وتمتلىء نفوسهم إعجاباً فيتساءلون:

ماذا فعل الإسلام بهؤلاء الناس؟!..

لم يكن المسلمون يوم هجرتهم من مكة إلاَّ بضع أشتات، يحوطهم الضعف، وينزل عليهم الأذى والعذاب، يفرون من ظلم قريش لهم، ويهربون من استبدادها بهم، فإذا بهم اليوم يعودون، وقد بدّلوا الضعف بالقوة، والشتات بالوحدة، والظلم والاستبداد بالمحبة والتسامح..

إنهم يبدون متآلفة قلوبهم، موحدة أهدافهم، لا اختلاف بين العصبيات، ولا أحقاد بين القبائل حتى أشدّها عداوة في ماضي أيامها، لا يغرّهم تفاخر ولا يوزعهم تدابرٌ، بل تلفّهم إلفةٌ واجتماعٌ، وهم على نهج واحد، ومسيرة واحدة..

نعم هذا ما فعله الإسلام بهؤلاء الناس. وهذا ما سعى إليه محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، وجهد من أجله، إذْ أمكنه حقّاً، بفعل إيمانه وقوة عقيدته، أن يجمع الناس في هذه الوحدة المتماسكة، وأن يجعل قوامها هذا التعاطف والتساند، وأساسها هذا التحرر من الوثنية، والعبودية لله الواحد الأحد.

ذلك ما ظهر لأهل مكة جلياً واضحاً، فقالوا: إنه والله لَدِينُ حق، وإنه لنبيٌّ كريم.. أما سادة قريش فقد أخافتهم مشاعر الناس، وأوجفتهم أحاديثهم فقالوا: لئن بقي محمد وأصحابه في ديارنا ليفتنوننا عن ديننا فلا يبقى أحد في مكة إلاَّ وتَبعَ دينَهُ، فالخير في رحيله عنّا قبل أن يطغى علينا المدُّ وتفرقنا أمواجه الدافقة!.. ولذا، ما كادت الأيام الثلاثة تنقضي حتى أتى سهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزى، موكَلَيْن من القوم، يقولان للنبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم: «يا محمد! لقد انقضى أجلُك فاخرج عنا».

فقال لهما رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «وما عليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه».. إذن فالرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يعرض تمديد إقامته في مكة!.. ولكن إلى ماذا يرمي من وراء ذلك، وما هي مقاصده؟!..

لقد كانت لإقامة المسلمين وعلى رأسهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في مكة خلال تلك الأيام القليلة آثارها البالغة على الناس، مما جعلهم يتأثرون بالمناقب التي أبدوها وبالخصال التي أظهروها.. وكانت أشدّ الناس تأثراً «برّة بنت الحارث بن حَزْنٍ الهلالية» (أبوها أحد أشراف مكة، وأمها هند بنت عوف) فهي سيدة اشتهرت بالفضل والنسب الرفيع، وهي خالة خالد بن الوليد.

كانت «برة» إحدى أخواتٍ أربع، إحداهنَّ أم الفضل لبابةُ، زوج العباس بن عبدالمطلب، أول امرأة آمنت بالرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد أم المؤمنين خديجة الطاهرة (عليها السلام).

في بيت هذه الأخت المؤمنة، الشجاعة، عاشت «برّة» إثر فراقها عن زوجها «مسعود بن عمر» بعدما استحكم الخلاف بينهما على الإسلام، إذ كانت تريد أن تؤمن ويؤمن معها زوجها، ولكنه ركب الضلالة والبغي وأبى عليها وعلى نفسه الهدى حتى انتهى بهما الأمر إلى النزاع والافتراق، فذهبت تعيش عند أختها أم الفضل حتى كانت عمرة القضاء، ورأت من أحوال المسلمين ما أعجبها، ومن شأن النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، ما جعل قلبها يقفز بين جنبيها تقديراً وحباً. وأفضت «برّة» بمكنون قلبها إلى شقيقتها أم الفضل، ورجتها ملحّة أن تتدخل لدى زوجها العباس ليحدثه بأمر أختها وأمنيتها في الزواج منه لتحظى بالمكانة الرفيعة، والشرف العظيم: زوجة لسيد الخلق وأمّاً للمؤمنين..

ولم يتردّد العباسُ في عرض ما تودُّه «برّة» على ابن أخيه محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وما تطمح إليه، فلاقى ذلك قبولاً عند النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، فطلب إليه ابن عمنه جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهو زوج أخت «برّة» من أمها أسماء بنت عميس الخثعمية، وبعثه فخطبها له، ثم تولى العباس من بعد ذلك أمر تزويجها، وهو الذي دفع صداقها أربعمائة درهم.

ورأى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ألاَّ يعرس في مكة إلاَّ بعد انقضاء الأيام الثلاثة المتفق عليها لمكوثه وأصحابه، علَّه يقنع قريشاً بتمديد الإقامة بعد تلك الأيام بغرض تأليف القلوب، وزيادة عُرى التواصل، وانتزاع كوامن الحقد من نفوس هؤلاء القوم، وفي سبيل ذلك كله طلب الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، من مبعوثيْ قريشٍ أن يُعرّس بين أظهرهم، ويدعوهم إلى وليمة العرس..

ولكنَّ ذينك المبعوثين رفضا ذلك بعناد وإصرار.. إذْ أدركا بأن مكة ستفتح ولا شك أبوابها طائعة لمحمد إذا امتد مقامه فيها، لأن اجتماعه بالناس في جو الوليمة الهادىء، والتحدث إليهم في نشوة الأنس سيجعل الوشائج تعود بينه وبينهم، إذ إنه قادر على أن يملكهم بقوة نفسه وسحر بيانه، وأن يزيل ما بينه وبينهم من حواجز جهدت قريش في إقامتها طوال سنواتٍ سبعٍ حتى تبعد الناس عنه، وتمنعهم من الوصول إليه. ولذلك قالا: «لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا، ننشدك الله والعهدَ الذي بيننا وبينك، إلاَّ خرجت عن أرضنا فهذه الثلاث قد مضت».

وأثارت هذه الغلظة سعد بن عبادة سيد الأنصار، فقال: ما بال هذين الرجلين يعرض عليهما رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، المودة والقربى وهما لا يبديان إلاَّ المكابرة والمباعدة؟ ثم قام غاضباً إلى سهيل بن عمرو يصرخ في وجهه: «كذبت لا أمَّ لك، لسنا بأرضك ولا أرض أبيك، والله لا يبرح منها إلاَّ طائعاً راضياً». فابتسم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال لسعد:

«يا سعد.. لا تؤذِ قوماً زارونا في رحالنا»..

وقد كان قول النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، هذا حسماً للموقف، وإعلاناً منه بالرحيل عن مكة، موفياً بذلك ذمته لما عاهد به قريشاً، ومثله من يفي بالذمم والعهود.

وأذّن مؤذن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالخروج من مكة، بعدما خلّف وراءه مولاه «أبا رافع» ليلحق به في صحبة زوجه «برة بنت الحارث» التي أبى عليه القوم أن يعرس بها بين ظهرانيهم..

وما كادَ موكب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يتحرك في المسير، حتى سمع الناس ورأوا فتاةً تركض وهي تصرخ: «يا عم!.. يا عم!..»..

فقد كانت تلك الفتاة عمارة بنت سيد الشهداء، حمزة بن عبدالمطلب، التي وقفت ترقب خروج الموكب النبويِّ وفي عينها دمعة، وفي فؤادها لوعة، تذكر أباها وتتمنَّى لو كان في هذا الركب!. فهي لا تستطيع أن تحبس نفسها عن اللحاق بسيده حين تراه يذهب إلى البعيد وبجانبه علي (عليه السلام) يرافقه.. وحانت من علي (عليه السلام) التفاتة، فرأى عمارة بنت عمه حمزة فأخذها من يدها ثم دفعَها إلى زوجه فاطمة الزهراء (عليها السلام) وقال: «دونك ابنة عمك لحمايتها، فإنا والله لا نترك ابنة عمٍّ لنا يتيمة بين ظهراني المشركين»..

وسُرَّ رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لذلك، وبدت السعادة عليه، فأمر بأن يؤتى بأم الفتاة، سلمى بنت عميس، كي تخرج مع المسلمين، بدل أن تبقى وحيدة في مكة، محرومة من الزوج والإبْنة، وأن تظل بلا أنيس، مهيضة الجناح كسيرة الخاطر، وقد كانت زوجاً لأشهر فتيان قريش وأشجعهم..

نعم، تخلّف مولى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أبو رافع بعضاً من الوقت في مكة حتى هيّأت «برّة» نفسها، ثم عادَ وأدرك الركب في محلة «سرق»، وهنالك أعرس النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بزوجه، وأبدل اسمها من «برّة» إلى «ميمونة» لأنه رأى في زواجه منها مناسبة ميمونة عليه وعلى المسلمين، إذ أمكنهم الله تعالى بهذه المناسبة من دخول مكة وزيارة المسجد الحرام بعد حرمان سبع سنين بسبب تعنت قريش وصلافتها.. ومنذ ذلك الحين أغفل الناس اسم «برّة» لينادوا أم المؤمنين بالاسم الجديد الذي أعطاها إيّاه رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو: «ميمونة».. وقد فرحت أم المؤمنين باسمها الجديد، ورأت فيه حقّاً يمناً وبركة..

لم يكن مجيء عمارة بنت حمزة (رضي الله عنه) حادثاً عابراً بالنسبة إلى بعض الصحابة الأبرار. فقد رأى نفرٌ منهم في مجيئها ما يواسي الألم في نفوسهم على فراق أبيها، وما يدخل السعادة إلى قلوبهم بقربها منهم. ولذلك جاءَ كل من جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة، يطلبها من علي (عليه السلام) حتى تقيم معه موفورة الكرامة، عزيزة الجانب، كما هي عند علي (عليه السلام). إلاّ أنه امتنع عن التنازل عن فراقها راضياً، مما جعل هؤلاء الصحابة يأتون رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويحتكمون إليه بأمر عمارة، وكلٌّ يدعي أنه أحقُّ بها من الآخَرين..

فأما علي (عليه السلام) فقد كان يريد الاحتفاظ بها عنده لأنها ابنة عمه حمزة، وهو الذي أخرجها من عند المشركين فله ولاؤها وولايتها.. وكانت حجة زيد أن عمارة هي ابنة أخيه، لأن الرسول آخى بين حمزة وزيد وقت المؤاخاة بين المسلمين، فهو أحق بأن يكون وصيّاً على ابنة أخيه وأولى الناس بها.. وأما جعفر بن أبي طالب فإن عمارة ابنة عمه، وإن مقامها مع زوجه أسماء بنت عميس هو آنس لها لأنّها أخت أمها سلمى بنت عميس، وهذه الخالة أحنى عليها وأقرب إلى القيام على رعايتها.

وقد عَرَض أولئك الصحابة حججهم، وأبانوا محبتهم، فكان حكم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بينهم أن قال: «أما أنت يا زيدٌ فمولى الله تعالى ومولى رسوله.. وأما أنت يا علي فتشبه خَلقي وخُلقي.. وأنت يا جعفر أولى بها لأنَّ خالتها زوجتك ولا تنكح المرأة على خالتها ولا على عمتها».. لقد قضى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعمارة بنت حمزة لجعفر (رضي الله عنه) مؤثِراً واجب الحكم الشرعي على العواطف والأحاسيس لأنه لو أرادَ أن يكون للمشاعر المكان الأول لكان هو، صلى الله عليه وآله وسلم، أولى الناس بها وباحتضانها، إذ كانت عمارة ابنة أخيه حمزة في الرضاعة، كما أفصح له، صلى الله عليه وآله وسلم، وأبان للصحابة: «وهي ابنة أخي من الرضاعة»، وإنه لا يمكن أن ينسى عمَّه حمزة وهو يقف إلى جانبه في الشدة، ويجاهد معه في سبيل الله، حتى استشهد في «أُحُد» فحزن عليه حزناً شديداً، وبكاه وتأثَّر جدّاً لِمّا لم يكن له بواكي في المدينة.. إن ذكرى هذا العمّ المجاهد باقية في نفسه، عزيزة عليه، فلمّا جاءت ابنته إلى المدينة أرادَ أن يعوضها عما عانته من فقدان الأب، ومرارة اليتم، فأحاطها بالرعاية والحنان وإن كانت في بيت جعفر (رضي الله عنه) الذي أسبغ عليها من المحبة والألفة ما جعلها تطمئن إلى الحياة، ثم لم يشأ إلاَّ أن يُكمل سعادتها، فاختار لها «عريساً» يليق بها، ورجلاً يحفظ كرامتها ويحبها، فزوجها من سلمة بن أبي سلمة مؤمّناً لها مصيرها ومستقبلها..

إنَّ هذا الحدب المحمديَّ على ذوي القربى لا يعادله إلاَّ التفاته الدائم واهتمامه بشؤون كلِّ فرد من أفراد المسلمين.. وإذا كان هذا الاهتمام في الشؤون الفردية هو نهجٌ دائم لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه لم يمنعه أبداً من أن يكون محور فكرِهِ الشأنُ الأكبر والأهمُ، شأن الأمة بأسرها في رعاية شؤونها كافة وإقبالها على الدعوة تحفزها تلك التربية الإسلامية التي يعمِّق الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، جذورها في النفوس: تعاليم هداية، ومصابيح نور، تشعُّ على الناس حيثما كان المسلمون وأينما وجدوا..

وتلك التعاليم، وإشعاعات ذلك النور، هي ما بهرت أهل مكة في عُمرة القضاء.. وإذا كانت هذه العمرة قد سمِّيت عمرة القصاص، لأنها كانت نوعاً من القصاص بسبب صدّ المشركين للمؤمنين عن العمرة، وزيارة المسجد الحرام، إلاَّ أنها تبقى في جوهرها تحلّق في نورها القدسي وهو يعكس على أهل مكة سيرة الإسلام، إذ يرون أثناءها أناساً لا يسيرون إلاَّ سيرة هذا الدِّين، فيؤدون إلى الله تعالى كل يومٍ صلواته، ولا يأتون معصية، ولا يغريهم الطعام ولا

الشراب، ولا تفتنهم في الحياة فتنة! إنهم {لاَ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}..
هذا هو الإسلام وهؤلاء هم المسلمون، وما داموا على تلك السيرة، فلا بدّ إلاَّ أن يؤثِّروا في أهل مكة، فكانَ أن هوت إلى الإسلام نفوسهم، وأدركت عقولهم بأنه الدِّين الحق، وبأن نبيَّه صادق مصدّق.. صحيح أن كثيرين من قادة قريش قد جانبت نفوسهم دعوة الحق التي يبشر بها المسلمون، وأعرضوا عن أسباب الإيمان والمودة والرّحِم التي عرضها عليهم محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ أنَّ آخرين منهم قد سرت تلك الدعوة إلى نفوسهم، وزادهم تطلُّعاً إليها ما يرون من علاء الإسلام وسموّه، ومن هبوط مكانة قريش وأفول نجمها.. وكان من بين هؤلاء الذين هفت نفوسهم إلى الإسلام، ثلاثة رجال معروفين في قريش: خالد بن الوليد بطل المشركين في أُحُد، وعمرو بن العاص مبعوث قريش إلى النجاشي ملك الحبشة، لإغرائه بتسليم المسلمين المهاجرين، وعثمان بن طلحة الموكَلةُ إليه مفاتيح الكعبة المكرمة، بيت العرب المقدس، ومكان حجهم وأمنهم..
هؤلاء الرجال التقوا في صفر من سنة ثمانٍ للهجرة ـ من غير موعد توافقوا عليه ـ واجتمعوا في محلة تدعى «الهدة» ليسيروا معاً إلى المدينة، ويدخلوا في الإسلام.
أما خالد بن الوليد، فيروي قصة إسلامه بأن يقول: «لما أراد الله عز وجل بي ما أراد من الخير، قذف في قلبي الإسلام، وحضر لي رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فليس لي موطن أشهده إلاَّ أنصرف وأنا أرى في نفسي أني في غير شيء، وأن محمداً سيظهر. فلما خرج الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الحديبية خرجت في خيل لأصدّه، حتى إذا وصلنا عسفان، أقمت بإزائه، فصلَّى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نغير عليهم، ثم لم يعزم لنا، وكان فيه خير. وكأنه ارتقب منَّا الإغارة عليهم من جديد، فإذا به يصلِّي العصر بأصحابه صلاة الخوف، فوقع ذلك منّا موقعاً، فقلنا: إن الرجل ممنوع. فاعتزلنا، وعدل عن سير خطنا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أأذهب إلى النجاشي أم إلى هرقل، أم أترك ديني إلى يهودية أو نصرانية؟ أفأقيم في عجم؟ أفأقيم في داري؟!..
وبَيْنَا أنا في ذلك حائر لا أدري ما أفعل، دخل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في عُمْرة القضاء، فتغيبت، ولم أشهد حضوره. وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع أصحاب محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، مكة في تلك العمرة، فطلبني فلم يجدني. فكتب إليَّ كتاباً

فإذا فيه: [بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك، ومثل الإسلام ما جَهِله أحد، قد سألني رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عنك وقال: «أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به فقال: ما مثله يجهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقدّمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة].. فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام، وسرّتني مقالة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ورأيت في المنام كأني في بلاد ضيقة جَدْبة فخرجت منها إلى بلادٍ خضراء واسعة. فلما أزمعتُ على الخروج إلى المدينة لقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب! أما ترى أن محمداً ظهر على العرب والعجم فلو قَدِمنا عليه واتَّبعناه فإن شرفه شرف لنا؟ فقال: لو لم يكن يبقى غيري ما أَتَّبعهُ أبداً. فقلت: هذا رجل موتور قتل أبوه وأخوه ببدر. فلقيت عِكرمة بن أبي جهل، فقال مثل ما قال صفوان بن أمية. فذهبت إلى منزلي وأمرت براحلتي فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن أبي طلحة فقلت: إن هذا لي صديق، فلو ذكرت له ما أرجوه، ولكنني تذكرت مقتل أهله يوم أُحُدُ: أبيهِ طلحة، وعمّه عثمان، وأخوته الأربعة: مُسافع والحلاس والحارث وكلاب.. فكرهت أن أحدّثه، بأمري، ولكنني عدت وقلت في نفسي: «وما عليَّ وأنا راحل من ساعتي». فحدثته بما آلت إليه الأمور قائلاً: «ألا ترى يا عثمان: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحْرٍ لو صُبّ فيه دلو من ماء لخرج؟ ثم أخبرته بما كان موقف صفوان وعكرمة، فإذا به يواعدني على الخروج، ونتفق على محل نلتقي فيه، من يسبق الآخر ينتظره.

وفي الفجر التقينا فغدونا حتى انتهينا إلى «الهدّة» فوجدنا عمرو بن العاص هناك. فقال: مرحباً بالقوم، أين مسيركم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتِّباع محمد. قال عمرو: وذلك الذي أقدمني. فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة، فأَنخْنا بظهر الحِرّة رحالنا فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فلقيت أخي، فقال: أسرع، فإنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد أُخبر بكم فسُرَّ لقدومكم وهو ينتظركم. فأسرعنا المشي، فما زال الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، منذ أطللنا نحوه يبتسم حتى وصلنا إليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد عليَّ السلام بوجه طَلْق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنك رسول الله. فقال الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألاَّ يُسْلِمُكَ إلا إلى خير». قلت: «يا رسول الله. ادع الله لي يغفر تلك

المواطن التي كنت أشهدها عليك. فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله». وتقدم عثمان وعمرو فأسلما».

وكما حدَّث خالد بن الوليد عن دخوله الإسلام، كذلك عمرو بن العاص. فإنه يروي قصة إسلامه، فيقول: «لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوّاً منكراً، وإني لقد رأيت أمراً فما ترون فيه؟

قالوا: وماذا رأيت؟.

قال: أن نلحق بالنجاشي في الحبشة فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا تحت يد النجاشي، فإنه أفضل وأحبّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد. وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلاَّ خير.

قالوا: إن هذا هو الرأي.

قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له.

وكان أحبُّ ما يُهدى للنجاشي من أرضنا الأدم. فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه. فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد بعثه إليه في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع. فقال: مرحباً بصديقي أأهديت إلي من بلادك شيئاً؟.

قلت: نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدماً كثيراً. ثم قربته إليه فأعجبه، وفرّق منه شيئاً بين بطارقته. فلما رأيت طيب نفسه قلت: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول عدوّ لنا قد وَتَرنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه لأقتله.

وما كاد النجاشي يسمع ذلك حتى غضب ورفع يده فضرب بها أنفي ضربةً ظننت أنه كسره، فلو انشقت الأرض لي لدخلت فيها فَرَقاً منه، ثم جعلت أتلقى الدم بثيابي وأنا أقول له: أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك.

قال النجاشي: يا عمرو! أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى (عليه السلام) لتقتله؟.

قلت في نفسي: «عرف هذا الحق العرب والعجم، وتخالف أنت؟».

ثم قلت للنجاشي: أيها الملك، أكذاك هو؟.

قال النجاشي: ويحك يا عمرو أطعني واتَّبعه، فوالله إنه لعلى الحق، وليظهرنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟

قال: نعم.

فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم دعا بطست، فغسل عني الدم، وكساني ثياباً بدل ثيابي التي امتلأت بالدم فألقيتها.

وخرجت على أصحابي وأنا في حلتي الجديدة، فلما رآني أصحابي سروا وقالوا لي: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟

قلت لهم: كرهت أن أكلمه في أول مرة، وقلت أعود إليه. وكنت طبعاً أكتم إسلامي عنهم..

فقالوا: الرأي ما رأيت.

ولكني لم ألبث أن فارقتهم، وذهبت إلى موضع السفن، فركبت واحدة مع جماعةٍ حتى نزلت البر، فابتعت بعيراً وخرجت أريد المدينة، فمررت على الظهران ومضيت حتى إذا كنت بالهدة، فإذا بي ألتقي خالد بن الوليد، وعثمان بن أبي طلحة، فتقدمت وسلمت عليهما وسألتهما: أين يريدان؟ فقال خالد: دخل الناس في الإسلام، فلم يبق أحد، وإني والله أرى أنه قد استقام الميسم وإن الرجل لنبيٌّ، أذهب إليه فأسْلِم.

فقلت: والله ما جئت إلاَّ لأسلم.

ثم قمنا فقدمنا المدينة، فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عنبة يصيح: «يا رباح، يا رباح». فتفاءلنا بقوله، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: «قد أعطت مكة القادة بعد هذَين» فظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد. وولى سريعاً، فظننت أنه ذهب يبشِّر رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بقدومنا، وقد تبين لنا أنه كان كما ظننت. فأنخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر فانطلقنا إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، والمسلمون حوله، قد سُرّوا بإسلامنا، فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة

فبايع. ثم تقدمت، فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياءً منه، فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، فقال: «إن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، والهجرة تجُبّ ما قبلها».

ذلك ما كان من أمر إسلام خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، وعمرو بن العاص..

ولم يكن هؤلاء وحدهم من الذين أقبلوا على الدخول في الإسلام بعد عُمرة القضاء، بل إنَّ كثيرين من العرب، فُرادى وجماعاتٍ، جاؤوا إلى المدينة يُسْلِمون على يدي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فينزلهم في ربوع الإيمان، ويغسل قلوبهم بماء الطهارة، وينقّي نفوسهم بنورانية الحق، فيستوي الإسلام عندهم عقيدة ومنهجاً، ثم يرتحلون إلى المضارب والديار مؤمنين، مخلصين، عابدين، فيراهم الناس على غير حالهم السابقة، ويجدون مسالكهم وتصرفاتهم غير الماضية، حتى إذا عرفوا بأن الإسلام هو صاحب الفضل في هذا التغيير والتبدّل، تأثّروا به كثيراً وأقبلوا عليه قانعين، راضين..

* * *

كُتُب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الملوك والأمراء

وإذا كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد خطَّطَ ودبَّرَ لمهادنة قريش في معاهدة الحديبية، وأعدَّ ونَفَّذَ في خيبر وعمرة القضاء من أجل تثبيت دعائم دولة الإسلام وتقوية هيبتها في النفوس، فإنه كان في الوقت نفسه يتحَسَّسُ الموقف الدولي، ويتفهَّمُ أوضاعه وما يدور فيه من أحداث فيتحرَّكُ وفق مستلزمات الظروف. وعلى ضوء هذا الفهم والتحرك وما يتصِلُ بهما من نتائج كان يُخطِّطُ لإقامة العلاقات خارج حدود دولته، لكي يجعل الترابط قائماً ما بين الاتصال الداخلي والاتصال الخارجي. على أن ذلك الاتصال الخارجي لم يكن منعدماً في الأصل، بل اختلف مداه وزمانه باختلاف الظروف ومسيرة الدعوة. فعندما أقيمت الدولة في المدينة لم يكن هنالك سوى قريش في مكة، واليهود في خيبر وجوارها.. أمَّا قريش فقد انتزع منها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، الصلح انتزاعاً، وأما اليهود فلمّا لم يكن ممكناً إجراء صلح معهم، فقد أُخضعوا لسيطرة الدولة، وبذلك لم يعد لهم من كيان مستقل يعترض ذلك الاتصال..

وها إن الأوضاع بعد الحديبية وخيبر قد تبدّلت واختلفت، وأصبح الاتصال الخارجي ممكناً وذلك بما قد يحصل ما بين الدولة وبين الأقاليم التي تقع على أطراف الجزيرة، والتي تشكِّل إما دولاً قوية، أو إمارات تابعة لتلك الدول، أو كيانات صغيرة مستقلة..

ولكن كيف يجب أن يحصل هذا الاتصال الخارجي إلى ما وراء حدود الجزيرة؟

هل يتوفّر ذلك بإقامة العلاقات الدبلوماسية ما بين دولة الإسلام وتلك الدول والإمارات؟ وهل تلك الدول والإمارات تعترف لدولة الإسلام بكيانها المستقل حتى تقبل بإقامة علاقات معها؟ لا، فإن الاتجاه الفكري يَدُلُّ على انعدام الروابط السياسية كافة ما بين الجزيرة وسائر الكيانات الواقعة على أطرافها، لأن هذه الكيانات لم تعبأ يوماً بما يجري في داخل الجزيرة، ولم تهتم قطُّ لظهور الدعوة الإسلامية وسيرها...

ولكن إذا كان هذا شأن تلك الكيانات، فإن تفكير رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كان دائماً منصبّاً على إيصال هذه الدعوة إلى الأمصار البعيدة لأن الدين عند الله

الإسلام، وهو دين البشر جميعاً، ولأنَّ محمداً هو رسول الله للناس كافة، وهذا هو حكم الله تعالى في عليائه، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلْنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً}[1]

وتأييده سبحانه وتعالى:

{هُوَ الَّذِي أَرْسَل رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[2].

إذن فالإسلام ليس ديناً خاصّاً بالعرب ولا ديناً خاصّاً بالعجم ولا هو دينٌ للشرق أو للغرب، بل هو دين جميع الأمم والشعوب، دين الناس كافة، وأينما وجد هؤلاء الناس وفي أي بقعةٍ من بقاع هذه الأرض.. وما دام الإسلام ديناً للناس كافة، فيجب ألاَّ يبقى محصوراً في نطاق ضيّقٍ لا يتعدى حدودَ جزيرة العرب بل يجب أن ينطلق إلى البعيد البعيد متخطياً حدود الأقاليم، ومتجاوزاً الأبعادَ والفوارق.. فهذا هو الاهتمامُ الذي كان يشدُّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى إيصال الدعوة الإسلامية للناس جميعاً. ولقد ازداد هذا الاهتمام بعد أن تمكَّن من تثبيت دعائم دولته واطمأنَّ إلى تركيز سياستها الداخلية، وإلى إعداد أسباب القوة كافةً لسياسته الخارجية..

في هذا الظرف ومن خلال ترقبه مسير الأحداث التي تجري في الداخل والخارج، وبعد تفكير عميق ودقيق، قرَّر الرسولُ الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يوجه الدعوات إلى كل الملوك والأمراء والحكام في أطراف الجزيرة العربية وما وراءها للدخول في الإسلام..

ويتوقف العالم بأسره عند هذا القرار..

إذ كيف يمكن لمحمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وما تزال دولته في بدء نشوئها، وفي أول عهدها بالقوة والنفوذ، أن يخطر بباله دعوة هرقل ملك الروم لأن يغيِّر ديانته النصرانية، ودعوة كسرى ملك الفرس لأن يتخلَّى عن ديانته المجوسية، مع ما يحمل هذا التخلي وذلك التغيير من تنازل عن السلطان، وفقدان للعرش وذهاب للعظمة؟!...

إنه قرار خطير ولا شك ذاك الذي عزم عليه محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، من مخاطبة أباطرة وملوك عظام في ذلك الحين، بأدق الأمور وأهم القضايا، ألا وهي العقيدة الدينية!..

---

1 سورة سبأ، الآية: 28.

2 سورة التوبة، الآية: 33.

وتتبع خطورة ذلك القرار من كون دولتي الروم والفرس أقوى دول العصر يومذاك. فقد كان لهما من المكانة ما يبعث على الرهبة في النفوس والهيبة في القلوب، حتى لا يخطر على بال أي حاكم إلاَّ التقرب إليهما وطلب وِدّهما ورضاهما.. فأمبراطورية الروم بالإضافة إلى رقعة امتدادها الشاسعة كانت تُخضِعُ لسلطانها بلاد الشام ومصر بأسرهما، وأمبراطورية الفرس بالإضافة أيضاً إلى ترامي أطرافها كانت تُسيطر على اليمن والعراق. ولقد كان لهما وحدهما السلطة في تقرير مصير السياسة الدولية، بحيث تمليان على غيرهما من الدول ما تريانه، دون أن يكون لأي من هذه الدول الحق في الاعتراض أو القدرة على التأثير في مجرى الأحداث.. وما قام خارجهما أو خارج سيطرتهما من ممالك أو إمارات فقد بقيت بعيدة عن القيام بأي دور على مسرح السياسة، كما هو الحال مثلاً بالنسبة إلى اليمامة وعُمان والبحرين، التي كانت إمارات مستقلة، واهنة، ضعيفة أمام دولتي الروم والفرس، أو كما هو الحال بالنسبة إلى تهامة والحجاز، أو إلى نجد والطائف، فقد تفرقت عن بعضها تحت النفوذ القبلي، وكانت لا تعرف الوحدة السياسية، ولا كيان الدولة القوية، فالعلاقات بين هذه الدول والقبائل وبين الدولتين الكبيرتين كانت مقتصرة على العلاقات التجارية وخاضعة لمخططاتهما وموافقتهما.

ومن هنا، ومن انعدام قوى الدول في ذلك العصر ـ باستثناء دولتي الروم والفرس وبفرضهما السياسة التي تريدان، وتحَكُّمهما بمصائر الأمم جميعاً ـ كانت الخطورة التي تفرض على محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، اتخاذ قراره بدعوة هرقلِ الروم وكِسرى الفرس للدخول في الإسلام إلى جانب دعوته للآخرين.

ولكن متى علمنا بأن محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، كان يعمل في سبيل الله بفهم سياسي مستنيرٍ، مستوحىً من الإسلام، فإنَّ أيَّ شأن للأباطرة والملوك يهون في عينيه.. فلقد كان مُحَتَّماً على خاتم النبيّين، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يتوجه بدين الله إلى أولئك الحكام حتى يؤدي الأمانة الكبرى التي عهد الله تعالى إليه بأدائها، وأن يدعوهم إلى اعتناق هذا الدين ليؤمن مَن آمن عن بيّنةٍ، ومَنْ كفرَ وعاندَ فأمره إلى الله سبحانه.. فالغاية تنحصر في إيصال الإسلام إلى الناس، ولا فرق إن كانت هنالك علاقات سياسية بين بلاده والبلاد الأخرى، أو إن وجدت روابط تجارية أو غير تجارية. فهذه كلها بعيدة عن

الغاية التي فيها الخير كل الخير لأولئك الحكام وشعوبهم، ولذلك فإنّ قرار النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يحتم دعوة الملوك والحكام للدخول في الإسلام...

وإنَّ أكثر ما يُبرِز عَظَمة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه اتخذ قراره بدعوة جميع الملوك والحكام، بصورة واضحة وصريحة، لا لَبْسَ فيها ولا غموض، ولا ممالأةَ ولا محاباةَ لأحد منهم أبداً.. وفي الوقت نفسه لم يناصب أحداً منهم العداء في دعوته، بل توجَّهَ إلى الجميع، أقوى الملوك وأضعف الحكام، بدعوة الحق المبين، وبلهجة الحاكم النبيل العادل، وبعزم النبيِّ الأمين الصادق، صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك رغم معرفته بقلة حيلة الملوك الصغار، وبالعداوة الشديدة بين ملكي الروم والفرس، وأثر تلك العداوة على مشاعر أهل الجزيرة، بل على سير الدعوة نفسها..

فقد كان، صلى الله عليه وآله وسلم، منذ مبعثه يعيش الأحداث يوماً بيوم، ويرافق التطورات ساعة بساعة، حتى أيام القهر والأذى في مكة.

ولقد شهدت قريش، وشهدت معها قبائل العرب في السنة الحادية عشرة من نزول الوحي على الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، يوم أن ذهب يعرض نفسه على أهل النُّصرة في مِنىً، كيف أنه أعلم الناسَ بخبر الوحي الذي نزل عليه، والذي أكَّد فيه أن الروم، ورغم الهزائم التي حلَّت بها على أيدي الفرس، سوف تعود وتغلب في بضع سنين.

وتفصيل ذلك أنَّه كان عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، يراقب من جملة ما يراقب الحروب التي كانت تدور رحاها ما بين الروم والفرس، والتي كان من جرائها أن اتخذ المسلمون موقفاً يُظهر ميلهم إلى الروم، بينما كان موقف المشركين يؤيد الفرس..

ولكن لِمَ هذا التناقض في المواقف؟.

الحقيقة أن الروابط السياسية كانت معدومة تقريباً ما بين جزيرة العرب والدول والإمارات المجاورة لها، إلاَّ ما كان يتحدث به الناس عن تلك الحروب التي تدور خارج الجزيرة. ولكن عندما ظهر الإسلام أوجد نوعاً من العلائق الروحية، والمشاعر الدينية، جعلت المسلمين يميلون إلى الروم لأنهم أهل كتاب، بينما جعلت هوى المشركين إلى الفرس لأنهم مثلهم على الوثنية. وذلك الشعور الديني المتضارب أدَّى بالجميع إلى متابعة تلك الحروب باهتمام بالغ، فكانَ كل فريق يتمنَّى غلبة الدولة التي يؤيدها. فالمسلمون يؤملون انتصار الروم، والمشركون يتمنون انتصار الفرس.

ولقد ظهر الموقف جلياً، عندما اجتمع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى بني شيبان يدعوهم للإسلام. وقد انتهى لقاؤه بهم، وهو يخبرهم بأنَّ الله سبحانه وتعالى، سوف يمنح لأهل الإسلام بلاد الفرس وأموالهم، بعد أنْ تكونَ الروم قد غلبت الفرس في أدنى الأرض، وهذه الغلبة ستكون في بضع سنين، وتلا قول الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الْرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ الْنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}[1].

وبُهِتَ الناسُ في بادئ الأمر. فتلك هي الفرسُ تسحقُ الرومَ بحروب طاحنة ولا يؤمل أحدٌ أن يقوم للروم بعدها قيامة، ومع ذلك فمحمد بن عبدالله يُنبىء العكس، ويقول بأنّهم بعد غلبهم سوف يغلبون، وفي مدة لا تتجاوز بضع سنوات!.. فهل هذا معقول؟!..

وذاعَ الخبرُ بين القبائل، وباتَ الناس يرددون: إنَّ محمداً يتنبَّأ بأن الروم ستغلب الفرس في بضع سنين. وصارَ هذا الأمر مدار اهتمام المسلمين والمشركين على حدٍّ سواء نظراً لأهميته البالغة على الجميع. فأما المشركون، وبخاصةٍ قريش، فرأوا فيه مدعاةً للهزء والسخرية، فراحوا يتهكمون على المسلمين وهم يَتَحَلَّقُونَ حولهم ساخرين منهم ومن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وهم يقولون: هاكم محمداً، فقد صار يتنبّأُ، ويعرف الغيب، أليس في ذلك ما يدعو للسخرية؟.. وأما المسلمون، فقد أيقنوا بما تلاهُ رسولهم الكريم لأنه وحيٌ من ربه، فانبروا يحاولون إفهام الناس معاني الوحي، وبأنَّ هذه النبوءة ليست من محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما هي من لَدُنْ عزيز حكيم، وحده يعلم الغيب، لأنَّ بيده الغيب والأقدار والمصائر كلها، فلا تقع ورقة من على شجرة إلاَّ أن يشاء لها الوقوع، ولا تسقط شعرة من رأس إلاَّ أن يشاءَ لها هذا السقوط، ينصرُ من يشاء، ويُعِزُّ من يشاء، لأنه على كل شيء قدير.. ولكنْ أنّى للمشركين أن يفهموا ذلك وهم في الجهالة يعمهون؟.

وأما قضية تلك الحروب ما بين الروم والفرس، فتعود إلى تاريخ طويل.. إذ اعتنقَ الأمبراطور الرومي قسطنطين الديانة النصرانية عام 325م، وجعلها ديانة البلاد الرسمية، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم، في حين رفض الفرس ترك عبادة الشمس والنار.

---

1 سورة الروم، الآيات: 1 - 6.

وتوالت على حكم الأمبراطورية سلالته حتى كان آخرهم الملك «موريس» وكان ملكاً غافلاً، فقام الجيش بثورة ضده بقيادة «فوكاس» وقتله سنة 602 ميلادية ثم أعلن نفسه ملكاً على الروم بعد قضائه على العائلة الملكية كلها، وأرسل «فوكاس» سفيراً إلى أمبراطور إيران «كسرى أبرويز الثاني» ابن «أنوشروان» العادل. وكان كسرى «أبرويز الثاني» صديقاً وفياً للملك موريس، إذ كان قد لجأ إليه بسبب مؤامرة داخلية في الأمبراطورية الفارسية، فقدم له يد العون لاستعادة عرشه. وقيل إنَّ كسرى هذا تزوج ابنة موريس أثناء إقامته ببلاد الروم. فلما عرف بانقلاب «فوكاس» غضب غضباً شديداً وأمر بسجن السفير الرومي، ثم أعلن الحرب على بلاد الروم، وزحفت جحافله عابرة الفرات إلى الشام. ولم يتمكن «فوكاس» من مقاومة جيوش الفرس التي استولت على مدينتي أنطاكية والقدس، مما جعل حدود الأمبراطورية الفارسية تتسع لتصل إلى وادي النيل.

في ذلك الوقت أرسل بعض أعيان الروم رسالة سريّة إلى الحاكم الرومي في المستعمرات الأفريقية يناشدونه إنقاذ الأمبراطورية، فأرسل هذ الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب «هرقل» من قرطاجنّة. وسار هذا الجيش في الطريق البحرية، بسرِّية تامة، حتى إن «فوكاس» لم يَدْر به إلاَّ عندما شاهد الأساطيل وهي تقترب من السواحل الرومانية. واستطاع «هرقل» ـ دون مقاومة تذكر ـ أن يقتل «فوكاس» ويستولي على الأمبراطورية سنة 610 م.

بيد أن «هرقل» ورغم ذلك الانتصار الذي أحرزه، واستيلائه على السلطة لم يتمكن من إيقاف المدّ الفارسي، حتى ضَاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد في شرقي العاصمة وجنوبيّها، ولم يعد العلم الرومي يرفرف على العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى، بل علتها راية الفرس.. وهكذا تقلصت الأمبراطورية الرومية، وعمّ القحط، وفشت فيها الأمراض الوبائية، وتتالت الهزائم النفسية في الداخل والعسكرية في الخارج، واستولى الفرس على الصليب المقدس وأرسلوه إلى المدائن، وحينها بات الروم يخشون ويترقبون ضرب العاصمة نفسها واحتلالها.

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من تلك الأحوال السيئة، وقرر العودة إلى قصره في «قرطاجنة» على الساحل الأفريقي، لأن شغله الشاغل أصبح إنقاذ نفسه، وبالفعل جهّز هرقل لتلك العودة وخرج ليستقلّ إحدى السفن إلى منفاه الاختياري.. وفي هذا الوقت بالذات

جاءه كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح يرشده وينصحه حتى أمكنه إقناعه بالبقاء.. وبإشارة من الجنرال الفارسي «سين» أرسل هرقل سفيراً إلى «كسرى» طالباً منه الصلح.. وكانت قد انقضت تسعة أعوام على الحرب عندما رضي الأمبراطور الفارسي أن يصالح «هرقل» على شروط معينة، تعتبر مخزية جداً للروم.

بعد طلب الصلح بسنتين أي سنة 621م، وبعد استيلاء الفرس على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم، كان وقوع الحدث التاريخي الهام في الجزيرة العربية، عندما تنبَّأ القرآن الكريم بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين، أي في الوقت الذي كان فيه الروم بأشدّ الحالات ضعفاً وانهزاماً، وهو الوقت الذي كان فيه المسلمون أيضاً بمكة في أضعف وأسوأ أحوالهم المادية.. وفي تلك الحالة البائسة، صدرت كلمات من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يتلو قرآناً كريماً ينبىء فيه تلك النبوءة العظيمة. بل وأكثر من ذلك ففي هذه السنة بالذات حدث في داخل هرقل انقلاب نفسي جعله يتحوّل من ملك متخاذل، راكن إلى الدّعة والترف، إلى قائد متحمّس غيور، إذ منعَ عن نفسه جميع الملذات، حتى أنه هجر ابنة أخته «مارتينا» التي تزوجها لشدة هيامه بها، رغم أنها كانت محرمة عليه، ليستعد للحرب، ويضع خطة لقهر الفرس..

وبدأ هرقل بتجهيز جيشه عدةً وعتاداً فلما أكمل استعداداته خرج على رأس جنده، فلم يصدق سكان القسطنطينية ما يرون، بل بدا للكثيرين منهم أن هذا آخر جيش في تاريخ الأمبراطورية البيزنطية.

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعدّ بحريته للإغارة على الفرس من الخلف. وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى أرمينيا، وشن على الفرس هجوماً مفاجئاً في الميدان نفسه الذي هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس لما زحف على أراضي مصر والشام. ولم يستطع الفرس مقاومة غارة هرقل المفاجئة، فلاذوا بالفرار.

وكان الفرس يملكون جيشاً كبيراً في آسيا الصغرى. ففاجأهم هرقل هنا بأساطيله مرة أخرى، وأنزل بهم هزيمة فادحة. وبعد إحراز هذا النصر الكبير عاد إلى عاصمته القسطنطينية عن طريق البحر بعد أن عقد معاهدة مع «الأفاريين».

وبعد هاتين الحربين، قام هرقل بثلاث حروب أخرى ضد الفرس في سنوات 623 و624 و625 ميلادية، واستطاع أن ينفذ إلى أراضي العراق القديم عن طريق البحر الأسود، مما

اضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضي الرومية تقريباً.. وكانت آخر تلك الحروب المصيرية الحرب التي خاضها الطرفان في «نينوا» على ضفاف دجلة في ديسمبر (كانون الأول) عام 627م.

أما من ناحية الفرس، ولما لم يستطع «كسرى أبرويز» مقاومة سيل الروم، فإنه حاول الفرار من قصره «دستكرد». ولكن ثورة داخلية نشبت في الأمبراطورية، واعتقله ابنه «شيرويه» وزج به في سجن داخل القصر الملكي حيث لقي حتفه في اليوم الخامس من اعتقاله.

ولكن «شيرويه» هو الآخر لم يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر، إذ قتله أحد أشقائه، وبدأ القتال داخل البيت الملكي، حيث تولى تسعة ملوك زمام الحكم في غضون أربعة أعوام. ولم يكن من الممكن، أو المعقول، في هذه الأحوال السيئة، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم.. فأرسل «قباد الثاني» ابن «كسرى أبرويز الثاني» يرجو الصلح. وأعلن تنازله عن الأراضي الرومية، وإعادة «الصليب المقدس».

وفي سنة 627م. توجه هرقل إلى بيت المقدس، ليعيد إليه الصليب المقدس، وليفي نذره، فكان الناس يبسطون له البسط ليمشي عليها، وينثرون عليه الرياحين، احتفاءً به وإجلالاً له..

وهكذا يتبين جلياً من مجرى الأحداث أن نبوءة القرآن الكريم التي أعلنها محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو بمكة سنة 621 ميلادية، قد تحققت في بضع سنين عندما استطاع هرقل أن يقهر الفرس في مدة تقل عن تسع سنوات، لأن البضع (في لغة العرب) مدة دون العشرة. وقد وصف أحد مؤرخي الغرب هذه النبوءة بقوله: «لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الأمبراطورية الرومانية»..

وهكذا ومن رؤية الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، للأحداث الدولية عامة، ودقة مراقبته المستمرة لما يدور حول جزيرة العرب خاصة، اتَّخذ قراره بدعوة الملوك والحكام خارج الجزيرة للدخول في الإسلام، وعزم على بعث سفراء له يحملون تلك الدعوة. ثم خرج يوماً على أصحابه وقال لهم: «إن الله تعالى قد بعثني رحمة للناس كافة فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريُّون على عيسى بن مريم» (عليها السلام).

قال الصحابة: «وكيف اختلف الحواريُّون يا رسول الله؟».

قال لهم: دعاهم إلى الذي دعوتُكُم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فَكَرِهَ وجههُ وتثاقل».

ولما تساءل الصحابة عن مقصد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أخبرهم بأنه مرسل إلى الملوك والأمراء: هرقل الروم، وكسرى الفرس، ونجاشي الحبشة، والمقوقس حاكم مصر، والحارث الغساني ملك الحيرة، والحارث الحميري ملك اليمن، رُسلاً تحمل إليهم كتبه التي يدعوهم فيها للإسلام.. وكانت فرحة الصحابة عظيمة جدّاً وهم يسمعون ما عزم عليه الرسولُ الأعظم، فأجابوه لما أرادَ، وقدّمَ كلُّ واحدٍ نفسه للذهاب في المهمة إن شاء الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يوفده بها، وراحوا يدعون إلى الله سبحانه أن ينصُرَ دينه ويُعلي كلمة الإسلام.

واستعدَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه: «محمد رسول الله» ليمهر به كتبه، ثم اختار سفراء له لدى أولئك الملوك والحكام، يحملون إليهم رسالة الدعوة للدخول في الإسلام، وهم: دِحْية بن خليفة الكلبي إلى هرقل، وعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، وحاطِب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وعمرو بن العاص السهمي إلى ملكي عمان، وسليط بن عمرو إلى ملكي اليمامة، والعلاء بن الحضرميّ إلى ملك البحرين، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث الغساني ملك تخوم الشام، والمهاجر بن أمية المخزومي إلى الحارث الحِمْيَري ملك اليمن.

.. وحمل كلٌّ من هؤلاء الصحابة كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يبلِّغه إلى صاحبه، فكانوا أول رُسُل يحملون الإسلام خارج جزيرة العرب.

ولقد تضمنت تلك الكتب النصوص التالية:

صورة كتاب الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى هرقل.

كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى هرقل، ملك الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. وسلام على من اتَّبع الهدى. أمّا بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلِمْ تسلَمْ يؤتك الله أجرك مرَّتَين. فإنْ تولَّيْتَ فعليك إثم الأريسيّين[1]».

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[2].

وحمل دِحْيَةُ هذا الكتاب وسافر ليُلقي به إلى هرقل وهو في مدينة حمص، ذاهباً إلى بيت المقدس ليوفي نذر الحج الذي قطعه على نفسه إن انتصر على الفرس. وتُلي خطاب الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على هرقل وتُرجِم له، فلم يأخذه منه ما يأخذ الملوك عادة من خوف على ملكهم، بل تأثَّرَ به تأثرَ عالِمٍ ينتظر خبراً هاماً له صلة بعمله، ذلك أن هرقل كان رجلاً عنده سعة اطِّلاع ومعرفة بالملاحم وعلم الفلك وأخبار الأنبياء، فلما بلغه كتاب محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، لم يغضب ولم تثر ثائرته، بل بعث من يبحث عن قومٍ لهم صلة بأخبار نبي الإسلام، فذهب الموفدون من عنده يفتشون في كل بلا الشام حتى وجدوا قافلة من قوافل مكة جاءت في تجارة، وكان على رأس تلك القافلة زعيم المشركين يومئذٍ أبو سفيان بن حرب، فدعاهم جنود هرقل إلى مجلس الملك بأمر منه. فلما دخلوا عليه، سألهم بلسان الترجمان:

ـ «أيكم أقرب نسباً بذاك الرجل الذي يزعم أنه نبي؟».

قال أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً إليه أيها الملك.

1 الأريسيون: تعني الخدم والحشم أو الفلاحين. وقيل هم قوم من المجوس لم يعبدوا النار ويزعمون أنهم على دين إبراهيم (ع). وقيل إنهم أتباع عبدالله بن أريس (رجل كان في الزمن الأول) قتلوا نبياً بعثه الله إليهم. وقيل غير ذلك. فيكون قصد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، واحدة من اثنتين إما أن هرقل يحمل إثم رعاياه إن صدهم عن الإسلام وإما أن هرقل يحمل الإثم الذي حمله الأريسيون عندما قتلوا النبيَّ الذي بُعث إليهم.

2 سورة آل عمران، الآية: 64.

قال هرقل، يأمر جنوده: أدنوا مني هذا الرجل، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره.
ثم أمر ترجمانه قائلاً:

ـ قل لهم: إني أسأل هذا (وهو يشير إلى أبي سفيان) فإن كَذَبني فليكذبوه..

وعند سماع أبي سفيان لما قاله الترجمان، تضاربت في نفسه المشاعر، فهو يريد أن يبخس محمداً حقه، لأنه عدوه اللدود، ولكنه يخاف من غضب هرقل إن عرف أنه كاذب.. على أنّ أبا سفيان عادَ وجعل أصالة البداوة، وصفاء الصحراء ينتصران عليه فقال يقنع نفسه: «ولكن الحياءَ يغلبني ولولا هذا الحياء من أن يأثُروا عليَّ كذباً لكنت كذبت، ولكني أفضل الصدق وأجيب به».

وسأل هرقل أبا سفيان قائلاً:

ـ كيف نَسَبُ من يدعي النبوة فيكم؟.

قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب..

قال هرقل: فهل كان من آبائه من ملك؟.

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل قال قوله أحدٌ منكم قطٌّ قبله؟.

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟.

قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم..

قال هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟.

قال أبو سفيان: بل يزيدون.

قال هرقل: فهل يرتد أحد منهم سخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟.

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل هو يغدر؟.

قال أبو سفيان: لا، ولكن نحن معه الآن في هدنة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال هرقل: فهل قاتلتموه؟.

قال أبو سفيان: نعم.

قال هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟.

قال أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينالُ منَّا، وننال منه.

قال هرقل: وماذا يأمركم؟.

قال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً. واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق، والعفاف والصلة.

فلما فرغ هرقل من استجواب أبي سفيان، تفكَّر ملياً ثم أجمل لترجمانه يأمره: «قل لهذا الرجل:

«سألتك عن نسبه فذكرت أنه ذو نسب فيكم.. وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول الذي يقوله.. فذكرت أن: لا.. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسّى بقولٍ قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن: لا.. قلت: فلو كان من آبائه من ملك، فهذا رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول، فذكرت أن: لا.. فقد عرفتُ أنه لم يكن ليذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أأشراف الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن الضعفاء منهم أتباعه، وهم هؤلاء أتباع الرسل. وهل إنهم يزيدون أو ينقصون، فعرفت منك أنهم يزيدون... وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد من أتباع هذا الدين الجديد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن: لا.. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر، فنفيت عنه الغدر.. وكذلك الرسلُ والأنبياء لا تغدر ولا يمكن أن تغدر.

وسألتك: بم يأمركم، فأجبت بأنه يأمر أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فهو ينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بدلاً عنها بإقامة الصلاة والتحصّن بالصدق والعفاف..

«هذا ما قلت لي أيها الرجل ولم يكذبك أحَدٌ من بني قومك.. إذن فلتعلم يا هذا: إن كان ما تقول حقاً، فسيملك رجُلُكُمْ موضع قدميَّ هاتين (يقصد موضع العرش الذي يجلس عليه)..

وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكني لم أكن أظن أنه في العرب، فوالله لو أني أخلُصُ إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه».

وخرج أبو سفيان وصحبه يزفرون بالتأوه، أما هرقل فقد أمر بإخلاء مجلسه، ليقعد وحده متفكّراً بما جاءه من دعوةٍ، وبما سمعه من أخبار صاحب الدعوة، فأيقن أنه حقاً النبيُّ المنتظر، وخاتم النبيين على الأرض، ومثل تلك القناعة قد هيّأته لقبول الحق إذ جاءَه بشيرُهُ إليه، وقد شاءَ أن يتحرَّى عن صدق هذا البشير، فجاءت الصورة واضحة جلية في أخبار من رأَوا ذلك النبيّ وعايشوه، وبما يؤكد صدق نبوته.

نعم أرادَ هرقل أن يقف على الحقيقة فتحرّاها بدقة، حتى كان مثالاً لمن أرادَ أن يقف على الحق، والحق وحده، دون تعصب لفكرة، أو شطط في المعرفة، فلما اكتملت عنده القناعة السويّة ولم يعد لديه من شكٍ بأنّ ما يُعرض عليه هو الحق، قام إلى الملأ من قومه يستشيرهم في أمره، فأمر بالوزراء والمستشارين ورجال الكهنوت أن يحضروا في مجلسه، حتى إذا اكتمل توافدهم، أغلقت عليهم أبواب دسكرته في حمص، فخاطبهم قائلاً: «يا معشر الروم، هل لكم في الفَلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم؟ لئن أردتم ذلك فاتبعوا هذا النبيَّ الذي جاءتنا دعوته»..

وأجفل أهلُ الجمع وخافوا.. لم يناقشوا ملكهم، ولم يحاوروه، بل جُلَّ ما فعلوه وهو يعرض عليهم ما عرض، أن سكتوا وظلّوا مطأطئي الرؤوس، واهني النفوس، لقد قلقوا على مصيرهم ونفوذهم وعلى الامتيازات التي يتمتعون بها، دون أن يأبهوا لدعوة حق أو لداعي إيمان، فأنكروا في قلوبهم ما يقوله الملك، ولكنَّ أحداً لم يجرؤ على البوح له بمكنون نفسه.. ورآهم هرقل على تلك الحال، وأنهم يحيصون حِيصة حُمُرِ الوحش، فأمر بارفضاض الاجتماع.

وقاموا يسرعون في الخروج، فاصطدموا بالأبواب ما تزال مغلّقة في وجوههم.. وأدرك هرقل ما عندهم من نفرة، وأيقَنَ ما في خَلَدِهم من مطامع، وكان يعرفهم أهل دهاء وخبث، وذوي قدرة على صنع المكائد والدسائس، فخاف على نفسه وعلى ملكه منهم، فأمر سريعاً بردِّهم عليه، وأجلسهم يقول لهم: «ما أظن قادة الرأي في ملكي يبلغ بهم الشطط إلى هذا الحد من اختبارٍ أراد مليكهم أن يمتحن به صلابة مواقفهم، وقوة ثباتهم على دينهم. وقد رأيت من ردة الفعل ما يزيدني اطمئناناً، ويزيدني ثقة بكم».

ومثل لمح البصر تبدلت المشاعر، وتغيّر الموقف، فقاموا إليه يسجدون له خاشعين راضين، وبالمجد له داعين.. وهكذا غلبت الشقوة على هرقل، واستحبّ العمى على الهدى.. لقد برق له نور الحق وأضاءَ وجوده، ولكنه كان للحظات، ما لبث أن خيمت عليه ظلماتُ المطامع، وغطّته سُحُبُ الإغراءات، وغلبته شهوة الملك والسلطان.. لقد وقفت الدنيا ومادياتها في وجه هرقل فصدّته عن الآخرة وروحانياتها، منتصرة عليه بحفنةٍ من الدهاقنة وذوي المطامع، فانصاع إليهم هاوياً في الضلالة والتيه.. ولم يكتف هرقل بالمراوغة والمداهنة، بل ظلّ الخوف يسيطر عليه، فحتى يُبعد عنه شبح الاغتيال أو الانقلاب عليه، ولكي يُطمئن أولئك الذين يخافهم، انبرى يقدم لهم البرهان على صدق ما يقوله لهم، وكان ذلك البرهان أمرَهُ بقتل كل مسلم يعثرون عليه في بلاد الشام.

هذا ما كان من موقف هرقل وتباعده عن دعوة الحق التي بعثها إليه نبيُّ الإسلام.

ولكن ماذا جرى لرُسُل النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، الآخرين وهم يحملون كتبه إلى غير هرقل من الملوك والحكام؟.

* * *

كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى كسرى، عاهل الفرس

دخل عبدالله بن حذافة السهمي على كسرى في إيوانه بالمدائن، وقد اجتمع من حوله القادة والوزراء والعظماء، فلما سألوه عما يريد قال بأنه يحمل كتاباً من نبي الإسلام إلى عظيم الفرس كسرى أبرويز بن هرمز. فأمَرَ كسرى أحد وزرائه بأن يأخذ الكتاب ويرى ما فيه، غير مهتمٍ لما يقوله عن نبي هذا الرسول القادم عليه.. ولكنَّ سفير النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، رفض أن يسلم الكتاب وهو يقول:

ـ لقد أمرني رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن أسلِّمه إلى كسرى يداً بيد.

ودهش عاهل الفرس، ودهش من حوله، لجرأة هذا الرجل، فطلب كسرى أن يُدنوه إليه، فلما وقف أمامه، تقدم وناوله الكتاب، ففتحه، وكان عنده كاتب من أهل الحيرة، فدفعه إليه كي يقرأه.

وتناول ذلك الكاتب خطاب النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وراح يقرأه، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد بن عبدالله ورسوله إلى كسرى عظيم الفرس. سلامٌ على من اتَّبع الهدى، وشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبدُه ورسوله. وأدعوك بدعاء الله تعالى، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافةً، لأنذر من كان حيّاً، ويحق القول على الكافرين. أسلِمْ تَسْلَمْ فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

واستبدَّ الغضب بكسرى وهو يسمع ما كتب إليه محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا به يأخذ خطابه ويمزّقه، ثم أَمَر على الفور بكتاب إلى ـ باذام عامله على اليمن ـ يتوعده ويقول له فيه: ألا تكفيني رجلاً خرج بأرضك يدعوني إلى دينه؟ لتكفيَّنه أو لأفعلنّ بك؟؟.

وأمر كسرى بإخراج الرسول فأُخرِجَ وركب راحلته عائداً إلى المدينة يخبر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما فعله كسرى بكتابه فقال: «فرَّق الله ملكه». وكان رسول كسرى قد بلغ اليمن وسلّم ملكها أمر سيده فاستدعى من فوره رجلَين: أحدهما قهرمانه ويدعى «بابويه» وكان كاتباً حاسباً، والثاني رجلُ عضلٍ وقوة واسمه «خرخرة» ثم بعث بهما إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يحملان كتاباً فيه دعوته للذهاب معهما إلى كسرى.

وخرج الرجلان يغذان المسير حتى بلغا الطائف، فالتقيا رجلاً من قريش، فسألاه عن مقام الرجل الذي يدَّعي النبوَّة، فأخبرهما أنه بالمدينة، ولكنه سألهما عما يريدان منه، فأخبراه بأن كسرى عظيم الفرس غاضبٌ منه، وأنهما جاءا يحملانه إليه. وطار ذلك الخبر في أنحاء الطائف، فاستبشر أهلوه بالخير وراحوا يقولون لبعضهم بعضاً: «إن محمداً قد ناصب كسرى ملك الملوك، كُفيتُمُ الرجل».

وَصلَ موفدا باذام المدينة ودخلا على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يقدمان له كتاب سيدهما. فلما قرأه وعرف ما فيه ابتسم لهما، ثم عادَ وسأل: ما حاجتكما إليَّ أيها الرسولان؟

قال بابويه: «إنَّ شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى، قد كتب إلى مليكنا باذام يأمره بأن يبعث من يأتيه بك، وها نحن مكلَّفان بالمهمة، فانطلق معنا، فإن فعلتَ كتبَ إلى كسرى يمنعك ويكفّه عنك، وإنْ أبيت فهو من قد علمت، مُهلِكُكَ ومُهلِكٌ قومك، ومخرب بلادك».

ولم يزد قولُ ذلك الرجل رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ تبسّماً، حتى ظنَّ وصاحبُه أنه وافقهما على الذهاب خوفاً ورهبة. إلاَّ أنهما لم يلبثا أن رأيا جمعاً من الناس يحيطون بهما، ويأخذونهما بعيداً عن مجلس مَن جاءا إليه، فخافا على نفسيهما، وأرادا المقاومة، إلاَّ أن الجميع أبدوا اللِّين والرفق، مما جعلهما يطمئنان، ثم زال عنهما كلُّ همٍّ وقلق، عندما أُدخلا إلى منزلٍ وقُدِّم إليهما الطعام بحفاوة وإكرام..

وبات الرجلان في مكانهما حتى اليوم التالي، فاقتيدا إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بناءً لأمره، فلما مَثُلا بين يديه، قال لهما: «أَتدريان أيُّها الرجلان بأن كسرى أبرويز قد قتله ابنه شيرَوَيْه واعتلى العرش مكانه؟».

ولم يصدق الرجلان.. إلاَّ أنهما نزلا على أمر الرسول وهو يقول لهما: «اذهبا إلى سيدكما باذام واخبراه عني بأن الله تعالى قد أوحى إليَّ بمقتل المليك، وأبلغاه أن ديني سيبلغ مدى ما بلغ كسرى وينتهي إلى الخُفّ والحافر، وقولا له إن رسول الله يقول لك: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملّكتك على قومك».. ثم أمَرَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بهدية، فسلَّمها لهما كي يوصلاها إلى سيدهما ويبلّغاه ما رأيا وما سمعا..

وانطلق الرجلان حائرَين.. إنَّ ما قاله محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ليُدهش حقاً ويدعو إلى العجب، ولكن ما عليهما إلاَّ إبلاغ سيدهما ما كُلِّفا بحمله إليه.. ولم يكن عجب أهل

المدينة بأقل مما أصاب الرجلَين من عجب ودهشة، ولكن هل في الأمر ما يدهش والرسول الأعظم هو الذي قال إن كسرى قد قتل على يد ابنه؟ لا! إنهم يصدقون قولَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وها هم ينتظرون الوافدين من البعيد لتتأكد لهم صحة الخبر عن بيّنةٍ محسوسة، ومرأى من العين.

وكانت دهشة باذام كبيرة أيضاً عندما عاد موفداه يخبرانه بما قاله لهما النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، ويرويان له كل ما وقع تحت أبصارهما وما التقطته آذانهما، فأمعن عامل كسرى على اليمن مفكراً وهو يستمع إليهما ثم قال: «ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبيّاً، فلئن كان ما ذكره عن كسرى حقّاً فإنه لنبيٌّ مُرْسَل. وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا». ولم يمضِ إلاَّ وقت قصير، كان باذام خلاله في حيرة من أمره، حتى قدم عليه من يحمل كتاباً من شيرويه، وقد جاء فيه: «أما بعد، فإني قتلت كسرى، ولم أقتله إلاَّ غضباً لفارس لما كان استحلَّ من قتل أشرافهم ونحرهم في ثغورهم. فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهيِّجهُ حتى يأتيك أمري فيه».

ولقد كان لكتاب شيرويه أبلغ الأثر على باذام. فقد جاءَ يصدّق رسالة ذلك النبيّ في بلاد الحجاز إليه، فوقف متفكّراً: كيف أمكنه أن يعلم بالخبر؟ إن المسافة طويلة بين فارس والحجاز، ولا يمكن أن يصل إليها المسافر بمثل هذه السرعة لينقل الأخبار. ثم كيف اتفق لذاك الرجل وحده أن يعلم من دون سائر الناس، إذْ أبدى كل من سمع ذلك منه أعظم دهشة لسماعهم ما يقول، كما أخبره رسولاه.. ثم ألم يقل له «بابويه»: «ما كلمت رجلاً قطُّ أهيب عندي منه؟».. إذن فليس علم ذلك الرجل إلاَّ نبوءات الأنبياء.. فهو إذن نبيٌّ حقّاً..

تلك الأفكار كانت تجاذبت باذام عندما وصله كتاب شيرويه. فلما انتهى إلى ما انتهى إليه من تفكير وآمن بأن محمداً نبيٌّ حقّاً، أسلم مطمئناً، وأسلم الكثيرُ لله ممن كان معه من فارس باليمن، إذ عاشوا الأحداث ذاتها التي عاشها ملكهم باذام لفترة من الوقت والتي جاءت كلها تدفعهم إلى الإيمان بالنبيِّ محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، قبل أن يروه.

وبدخول هذه الفئة في الإسلام، هيّأ الله أرض اليمن لتكون نقطة ارتكاز قوية لدعوة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في جنوب شبه الجزيرة، كما دلت على ذلك الأحوال بعد عامَين اثنَين.

* * *

كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى النجاشي، ملك الحبشة

أما الكتاب إلى نجاشي الحبشة «أصحمة» فقد كان نصه:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

«من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاَّ هو الملك القدوس السلام، المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى، فخلقه الله تعالى من روحه ونفْخِه، كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله. وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلَّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نُصحي والسلام على من اتَّبع الهدى».

وبعد تلاوة الخطاب ووقوف النجاشي على ما جاء فيه، استأذنه حاملُهُ عمرو بن أمية الضمري يشرح مضمونه وتوكيده، فلما أذن له قال عمرو:

«أيها الملك، إنَّ عليَّ قولاً فأرجو أن تسمعني. أنت كأنك في الرِقّة علينا، ونحن كأنا في الثقة بك. لم نظنّ بك خيراً إلاَّ نِلْناه، ولم نَخَفْكَ على شيء إلاَّ أَمِنَّاه. وقد أخذنا الحجة عليك من فِيْكَ، الأنجيلُ بينَنا وبينَك شاهدٌ لا يُرد، وقاضٍ لا يجور. وفي ذلك الموقع الحزُّ وإصابةُ المِفْصَل، وإلاَّ فأنت في هذا النبيِّ الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرَّق النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، رُسله في الناس فَرَجاك لما لم يَرْجُهم وأَمِنَك على ما خَافَهم عليه، بخيرٍ سالفٍ وأجرٍ ينتظر».

فلمّا انتهى من خطابه، أجابه النجاشي قائلاً:

«أشهد أنه النبيُّ الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس أشفَى من الخبر». ثم حمَّل عمرو بن أمية كتاباً إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم: إلى محمد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من النجاشي أصحمة.

سلام عليك يا نبي الله، ورحمة من الله وبركاته، الله الذي لا إله إلاَّ هو.

أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت في عيسى (عليه السلام). فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت، إنه كما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثتَ به إلينا، وقد عرفنا ابن عمك جعفر بن أبي طالب وأصحابك. فأَشهدُ أنك رسولٌ صادقٌ مصدِّق، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يدَيه لله رب العالمين».

تلك كانت إجابة النجاشي ملك الحبشة، وفيها الدلالة الواضحة على إيمان الرجل بصدق النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وتصديقه، فأسلم، ودعا من معه إلى الإسلام ولكنه لم يُكرههم على الإيمان بما آمَن به، لأنه كان ملكاً عادلاً. وقد استجاب لنداء الحق من غير تباطؤ أو تردد، فكان من ذوي الإيمان الصادق والسيرة الحسنة. وقد رُوِيَ أنَّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، نعاه إلى المسلمين، وصلَّى عليه وذلك في رجب سنة تسع عند الرجوع من تبوك.

* * *

كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم،

إلى المقوقس، عظيم القبط في مصر

حمل حاطِبُ بن أبي بلتعة هذا الكتاب وقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتَّبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعوة الإسلام أَسْلِم تَسْلَم، أَسْلِمِ يُؤتِكَ الله أجرك مرَّتين، فإن تولَّيت فإن عليك إثم أهل القبط. يا أهل الكتاب: تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينكم ألاَّ نعبدَ إلاَّ الله ولا نُشركَ به شيئاً ولا يتَّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولَّوا فقولوا: اشْهَدُوا بأنَّا مسلمون».

قَدِم حاطب على المقوقس، فأكرمه وأنزله منزلة جليلة، ثم جمع إليه بطارقته يستشيرهم في أمر الكتاب، فأشاروا عليه بأن يسأل الرسولَ الذي جاءه بالكتاب عن أخبار النبيِّ الذي بعثه به، فدعا المقوقس إليه حاطباً، وقد دار بينهما الحديث التالي:

المقوقس: هلمَّ أيها الرسول وأخبرني عن صاحبكَ، أليس هو نبيّاً؟.

حاطب: بلى، هو نبيٌّ ورسولٌ لله سبحانه وتعالى.

المقوقس: فما له حيث كان هكذا، فقد بلغنا أن قومه آذوه وأخرجوه من بلده إلى غيرها، فلِمَ لم يدعُ على هؤلاء القوم؟

حاطب: أولست تشهد أن عيسى بن مريم هو رسولُ الله؟

المقوقس: بلى.

حاطب: فما له حيث آذاهُ قومه فأرادوا أن يصلبوه ألاَّ يكونَ قد دعا عليهم؟!..

المقوقس: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم.. هاتِ بعضَ ما عندك..

حاطب: أَودُّ يا عظيم القبط أن أتحدث في أمر الكتاب الذي حملته إليك فأقول: إنه كان في هذه البلاد من قبلُ رجلٌ يزعم أنه الرَّب الأعلى، فأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى، فانتقم الله تعالى به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك.

المقوقس: إنَّ لنا ديناً لن ندعه إلاَّ لما هو خيرٌ منه.

حاطب: ندعوك إلى الإسلام الكافي به الله سبحانه عما سواه، إن هذا النبيَّ قد دعا الناس فكان أشدهم عليه قريشاً وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى. ولعمري ما بشارة موسى بعيسى بن مريم إلاَّ كبشارة عيسى بمحمد بن عبدالله (عليهم جميعهم السلام). وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلاَّ كدعاء أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبيٍّ أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعون وأنت ممَّن أدركه هذا النبيّ.

المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبيِّ مع بطاركتي وأعواني فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب إليه. ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آيات النبوة بأخبارِ الجنِّ والإخبار بالنجوى.. وقد عرفنا ذلك كله قبل قدومكم إلينا، فنحن قد تفحصنا الأخبار في بلاد العرب، ووقفنا على مجرى الأحداث فيها.. وسأنظر..

كان المقوقس أثناء الحديث يحمل كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بين يديه، فلما فرغ من كلامه جعله في وعاء من عاج وختم عليه ثم أمر بحفظه في مكان أمين، ودعا إليه كاتباً يحسن العربية، فملأه كتاباً إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، جاء فيه:

«إلى محمد بن عبدالله من المقوقس.

سلام، وبعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيّاً قد بقي وكنتُ أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتَين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوةٍ ومطيةٍ لتركبها.. والسلام».

وبعد أن ختم الكتاب دفعه إلى حاطب، ثم أمر بالجاريتين والهدايا فأعدَّ الركب، وسار به حاطب عائداً إلى المدينة.

كانت تلكما الجاريتان اللتان أهداهما المقوقس للنبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، «مارية بنت شمعون» لأب قبطي وأم مسيحية رومية وأختها «سيرين» وقد ولدتا في قرية من صعيد مصر تدعى «حفن» قريبة من بلدة «أنصنا» الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين. وقد انتقلتا في مطلع شبابهما الباكر إلى قصر «المقوقس» ـ عظيم القبط ـ وعاشتا فيه، حتى جاء حاطب موفداً من النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يحمل رسالته إلى المقوقس، فبعث بهما المقوقس إلى النبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم.

تركت الأختان بلادهما وفي قلبيهما حزن، وفي عيونهما دمعة، تذكران الأيام التي عاشتاها في البلاد، وتتفكران في الحياة التي تنتظرهما في بلاد جديدة لا تعرفان عنها شيئاً.. ورأى حاطب ما يعتمل في نفسَي الأختين، فأقبل عليهما طوال الطريق يحدثهما حديث الأنس، ويهوِّن عليهما ألم البعد، وكان يمنّيهما بحياة كريمة في ظل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، اللطيف الشفوق، العطوف.. وظلَّ كذلك حتى بلغ الركب المدينة، وقدم على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقرأ كتاب المقوقس وعلم أنه اقتنع بالإسلام ديناً وبمحمدٍ نبيّاً، ولكنه كصاحبه هرقل الروم تردَّدَ في الدخول في هذا الدين إمّا ظنّاً منه ووهماً بأن النبيَّ المنتظر سيخرج في الشام، وإما خوفاً على ملكه وسلطانه..

وأعتق الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، الأختين، فتزوج من «مارية» ثم تزوج «حسان بن ثابت» من أختها «سيرين». وقد ولدت مارية للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، ابنه إبراهيم (عليه السلام) وولدت «سيرين» لحسان ابنه عبدالرحمن.

* * *

كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الحارث بن أبي شمر الغساني

كان الحارث بن أبي شمر الغساني حاكماً على دمشق من قبل الروم عندما جاءه كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مع شجاع بن وهب الأسدي، وقد كتب له فيه.

بسم الله الرحمم الرحيم

«من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر. سلام على من اتَّبع الهدى وآمَن بالله. فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقَ ملكك»..

وقد بلغ شجاع دمشق في وقت كان فيه الحارث يستعد لتهيئة الضيافة لقيصر الذي كان سيأتي من حمص إلى إيلياء حيث كشف الله عنه جنود فارس. وقد انتظر شجاع يومَين حتى أمكنه أن يوصل خطاب الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الحارث، فلما قرأه رمى به وهو يقول: «من ينتزع مني ملكي؟»، ثم أمَرَ بتجهيز الجيش يريد أن يبعث به إلى المدينة لقتال النبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنه عادَ وكتب إلى قيصر يخبره بالأمر فجاءه الردُّ بالتريث.. إلاَّ أنه لم يلبث بعدها إلاَّ قليلاً حتى مات ولم يجب على كتاب رسولِ الله، صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان شجاع قد عادَ وأخبرَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بأمره، فقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «بادَ مُلكه»..

* * *

كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم،

إلى هوذة بن علي الحنفي، حاكم اليمامة

حمل سليط بن عمرو العامري كتاب الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى حاكم اليمامة وقد جاء نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي. سلام على من اتَّبع الهدى. واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافر فأَسْلِم تَسْلَم وأَجْعَلُ لك ما تحت يدَيك».

كان هوذة حاكم اليمامة على دين النصرانية، فلم يرغب في الردِّ على دعوة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، له إلى الإسلام ولكنه بعث إليه جواباً على كتابه قال فيه: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتَّبعك».

وكأنَّ هذا الرجل قد أراد الشركة في النبوَّة، أو استخلاف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، له من بعده. فلما جاء ردُّهُ قال الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «لو سألني بلحةً من الأرض ما فعلت».

* * *

كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم،

إلى المنذر بن ساوى التميمي، حاكم البحرين

بعث النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بكتابه إلى المنذر بن ساوى مع العلاء بن الحضرمي. وهذا نص الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فإني أذكرك الله عزّ وجلّ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رُسُلي ويتَّبع أمرهم فقد أطاعني. ومن نصح لهم فقد نصح لي. وإن رُسلي قد أثنوا عليك خيراً وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم. وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته، فعليه الجزية».

وقد عرض المنذر الإسلام على أهل البحرين، وكانوا هوداً أو مجوساً. وقد دخل في هذا الدين من أحبَّ ومنهم من بقي على دينه. أما مليكهم المنذر فقد دخَلَ في الإسلام وحَسُنَ إسلامه، وقد جاء من البحرين حتى التقى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، واجتمع إليه.

* * *

كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم،

إلى ملكي عُمان جَيْفر وعبد ابني الجلندي[1]

وقد حمل الكتاب إلى هذين الملكين عمرو بن العاص. وقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد بن عبدالله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي. أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام. أسلما تسلما. فإني رسول الله إلى الناس كافةً لأنذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين. وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيتكما. وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن مُلْكَكُما زائل عنكما وخيلي تحلُّ بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما».

فلمّا وصل الكتاب إلى هذين الأخوين الملكين دخلا في الإسلام وأسلم معهما خلق كثير، ووضعت الجزية على من لم يسلم.

تلك هي الكتب والرسائل التي بعث بها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الملوك والأمراء والحكام على تخوم بلاده. ولقد حملت تلك الكتب والرسائل دعوة الرسول الأعظم لهم ولشعوبهم بالتخلِّي عن دياناتهم ومعتقداتهم والدخول في الإسلام، وهو واثق من قوة رسالته ونصر الله سبحانه وتعالى. ولولا تلك الثقة وذلك الإيمان العظيم لما أقدم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، على بعث سفرائه بقلب ثابت وعزم صادق.

وكان من آثار تلك الكتب أن دخَلَ بعضهم في الإسلام، وأن العرب قد أقبلوا على هذا الدين معتنقين له، وقد تتابعت وفودهم على المدينة تعلن إسلامها. أما غير العرب، خارج حدود الجزيرة، فقد كان منتظراً أن يأتيها الإسلام، لمَّا بدأ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يعد العدة ويهيىء القوة لجهادها. والحق أن في كتب محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ورسائله إلى أصحاب النفوذ والحَوْل والطَّوْل، وإلى ذوي القوة والجبروت لآيات تتصدَّرُ على التاريخ إقدام الأبطال، وعزم الرجال، وثقة الأكفياء. وإنها لتبدو في نظر كل باحث عن الحقائق الكونية، والمعجزات الإنسانية والنصر الإلهي، قوى تندفع من عزم

---

1 كان جيفر هو الملك لأنه أَسَنُّ من أخيه عبد. وكلمة الجلندي ليست اسماً وإنما هو لقب وقد تعني «قَيْلاً» أو «كاهناً» في لهجات أهل عمان كما جاء في «تاريخ العرب قبل الإسلام».

محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، لوثوقه وثوق اليقين بأن الإسلام سوف ينتشر ويسود حتى يعمَّ نوره الوهاج فجاجاً بعيدة في العالم.

وتبرز أهمية تلك الرسائل التي وجهها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى أولئك الملوك والحكام، وبخاصة منهم: هرقل، وكسرى، والنجاشي، والمقوقس، في أنهم لم يكونوا أمراء أو أقيالاً يكثر عددهم في زمان ومكان وحسب، بل كانوا أصحاب مكانة عظيمة في التاريخ السياسي لذلك العصر، لما كان لكل منهم من حَوْل وطَوْل، وسطوة ورهبة... وبذلك يكون عمل الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ذا مدلولات بعيدة لا يُقْدِمُ عليه إلاَّ نبيٌّ مأمور من الله مكلف بالدعوة إلى دينه، بعيد عن كل ظل من ظلال الخوف والضعف، تجلى عليه ملكوت السموات والأرض فتراءى له أولئك الملوك أشخاصاً عاديين، لا قيمة في نظره لكل ما يملكون إن لم يستجيبوا لنداء الإيمان، ويسخّروا ملكيتهم تلك لنصرة دين الله والسير على خطى رسوله الكريم.

وإن في وجود الفارق الكبير بين القوى المادية التي كان يملكها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وتلك التي كان يملكها أعداؤه من أولئك الأباطرة والملوك، لأقوى برهان، وأصدق رد على أولئك النفر من المسلمين الذي يشكُّون في نجاح دعوة الإسلام في أواخر القرن العشرين، بحجة أن الإسلام يفتقر إلى قوة دنيوية كبيرة..

والحقيقة الناصعة التي يجب أن يدركها أولئك النفر وغيرهم أن المسلمين في بقاع الأرض لا تنقصهم القوى المادية، فهم إن لم يكونوا يملكون أعظم قوة مادية في تأثيرها على مصير العالم الحاضر، فإنهم دون شكٍ ولا ريبٍ يملكون القوة الأكثر فعالية والأشدّ أثراً من أي قوى مادية، هي تلك القوة الإيمانية التي يتميز بها الإسلام، وهي نفسها القوة الهائلة التي لا سبيل إلى قهرها إن استطعنا إدراكها والعمل بوحيها.. وإنها للقوة نفسها أيضاً التي استطاع المسلمون الأوائل أن ينتصروا بها حيث أقدموا على قتالٍ، أو سيَّروا جيوشاً، أو أرادوا فتح أمصار..

فما أجدر المسلمين اليوم بتدبر هذه الحقيقة.. إن العالم بأسره ليحتاج إلى الإسلام أكثر من أي وقت مضى، وهو يتعطش إلى هذا الدِّين عطش الظمآن إلى الماء الزلال.. فالمادية التي تطغى على عالم اليوم لا تختلف من حيث المضمون والجوهر عن تلك المادية التي

كانت تطغى على العالم أيام ظهور الإسلام. والزمن تغطِّيه دائماً موجات من المادية والروحانية، ومن الإلحاد والإيمان، يتلو بعضُها بعضاً. ولعلَّ هذه اليقظة التي أخذت تدبُّ في عالم اليوم إنما تشير إلى أن موجة الإيمان قد أخذت في الظهور، وأن موجة الإلحاد المادي، الذي أغرق العالم حيناً من الدهر، قد بدأت تنحسر، وأن أمر هذا الإلحاد منتهٍ إلى زوال بإذن الله: «وَتِلْكَ الأَيّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاسِ».

* * *

معركة مؤتة[1]

انقضت بضعة شهور على عودة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من عُمْرة القضاء إلى المدينة، وكانت اهتماماته أثناءها منصبَّةً على كيفية السبل التي يمكن سلوكها لنشر الدعوة خارج بلاد العرب، وعلى المنافذ التي يعبر فيها الإسلام إلى الأمصار البعيدة. ولم يكن هذا التطلُّعُ منه، صلى الله عليه وآله وسلم، إلاَّ بعد أن هيَّأ الأسباب الداخلية لاتصاله الخارجي، وبعث السفراء والموفدين إلى الملوك والحكام على أطراف شبه الجزيرة، بمن فيهم ملك الروم هرقل الذي عادت بلاد الشام تخضع له، وهي البلاد التي رأى الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، أنَّها وما جاورها أفضل المنافذ لعبور الدعوة إلى الخارج، بخاصةٍ بعدما أمِنَ جانب اليمن بإذعان عامل الفرس له ودخوله في الإسلام. ولذلك، وبهذه التوجهات، بعث، صلى الله عليه وآله وسلم، خمسة عشر رجلاً من المسلمين إلى «ذات الطَّلح» على حدود الشام، يدعون بدعوة الإسلام، إلاَّ أنّ جزاءهم على دعوتهم هذه كان القتل الذي لم ينجُ منه إلاَّ رئيسهم، إذ حالفه الحظّ، وأمكن له الفرار من أيدي أولئك الناس.

ولقد تأثَّر رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لهذا الحادث أشدَّ التأثر، إلاَّ أن الواجب المقدس الذي يحمله على عاتقه هو فوق التأثرات والمشاعر، ولذا فإن ذلك الحادث لم يُروّعه، ولم يثْنه عن التطلع إلى بلاد الشام، وجعلها أول بلاد يقتحمها الإسلام بهجمة الإيمان، فعادَ وبعث الحارث بن عمير الأزدي رسولاً إلى «الحارث بن أبي شمَّر الغساني» (عامل ملك الروم على بُصرى، وحاكمها يومئذٍ) بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام. ولكن ما إن نزل موفد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، «مؤتة» حتى اعترض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فسأله: أين تريد؟ قال: الشام. قال له: لعلك من رسل محمد؟.

قال له: نعم.. فجنَّ جنون ذلك الأعرابي من غسان وهو يسمع بأن الرجل من رُسُل محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فأمر على الفور به، فأوثقوه ثم ضرب عُنُقَه..

---

1 مؤتة: قرية تقع الآن على بعد 12 كيلومتراً جنوب الكرك في الأردن. والمسافة بين المدينة ومؤتة 1100 كيلومتر تقريباً. وقد قطعها المسلمون على ظهور الإبل والخيل، وانقطع عنهم المدد والميرة والخبر بعد ما خرجوا من بلدهم، وهم يدخلون في أراضي العدو لقتاله.

وبلغ خبرُ هذا القتل العمد رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فاغتاظ له، واشتدَّ الأمر عليه كثيراً، لأنه ينطوي في ذاته على خرقٍ فاضحٍ للمناقب والقيم التي تمنع قتل الرسل والموفدين، ولأنه يحمل التحدّي الصارخ لمكانة الإسلام، الذي كان في أول مراحل عهده الذي ثبَّت فيه هيبته في النفوس، وفي بداية الطريق التي أمكنه أن يشقّها معتدلةً بين الناس، وأن يرسّخ بها الأفكار لدى القاصي والداني بأن الإسلام ليس عقيدة كسائر العقائد، ولا مبدأً مثل شتى المبادىء، بل هو دين الله، وبأنَّه مؤيد حقاً بنصر الله.. وتلك الأفكار هي التي كان لها فِعْلُها في الناس، وتأثيرها في النفوس، فأقدم الكثيرون يدخلون في الإسلام، منهم من آمن به عن بيّنةٍ واقتناع، ومنهم من دخله استسلاماً للأمر الواقع، وإن كانت هذه الفئة قد عادت وتذوقت حلاوة هذا الدين، بعدما صارت في رحابه الفسيحة، تطمئن إلى هدايته، وتسمو في ذرى نورانيته..

مثل هذه الاعتبارات، التي كان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنون جميعاً، يحرصون على التمسك بها بقوة، هي التي جعلت النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يجد في جريمة شرحبيل بن عمرو، جريمة تمتلىء بالخيانة والغدر، وتحفل بالكراهية واللؤم، وبعناصرها هذه تقتضي القصاص والعقاب، بحيث لا يجوز السكوت عنها، خصوصاً وأنها وقعت في أعقاب ذلك الفعل العدواني الآخر في «ذات الطَّلح»، وفي بلاد الشام، التي هي محطُّ الأنظار لعبور الدعوة ودفعها إلى البعيد، وهي أيضاً البلاد التي أبى حكامها الروم، وعُمّالهم عليها، إلاَّ أن يقفلوها في وجه الإسلام، وراحوا، على خلاف ما كان يُظَنُّ منهم كأهل كتاب، يجهزون الجيوش للزحف على المسلمين ومقاتلتهم.. وإذا كان رجال البلاط الرومي وبطانته، قد خافوا على نفوذهم من قبول دعوة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وراحوا يحثون مليكهم على عداوة الإسلام، فإن عمَّال الأمبراطور الروماني، أمثال شرحبيل بن عمرو وغيره، كانوا مثل أولئك البطانة الطامعين يخافون على سلطتهم ومكانتهم، فرفضوا هداية الدين الذي يتوجه نحوهم، وأبوا إلاَّ أن يقفوا جميعاً في جانب واحد يرتكبون الجرائم بقتل المسلمين، ممن تقع عليه أيديهم، ويتعمدون الكفر برفض الإيمان الخالص..

تلك الأسباب كانت قد تضافرت كلها، وجعلت النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يقدم على إجراء خطوة عسكرية في بلاد الشام، وذلك عندما أعدَّ في شهر جمادى الأولى من السنة

الثامنة للهجرة ثلاثة آلاف من خيرة أبطال المسلمين، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة للمسير ومقاتلة الروم ومن معهم من الأعراب في عقر دارهم.
ولقد كان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يعرف أن تلك الحملة من جيشه سوف تلاقي الأهوال والصعاب، وسوف تجد من الشدَّة ما لم يعهدوا من قبل، ولذلك قال لهم: صلى الله عليه وآله وسلم، «إن أصيب زيدٌ فجعفر بن أبي طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس، فإن أصيب عبدالله فليرتضِ المسلمون رجلاً من بينهم يجعلونه عليهم أميراً»..
وكان ممن حضر الجمعَ والتجييش، وسمع التأمير يهوديٌّ اسمُهُ النعمان بن فُنْحُص، فتقدم من الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: يا أبا القاسم، إن كنت نبياً فسميتَ من سميتَ قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعاً، وإنَّ الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان ففلان يقومُ مَقَامهُ، فلو سمّوا مئة أصيبوا جميعاً».
أجل، ذاك عهد الله سبحانه مع أنبيائه ورسله، ومحمدٌ، صلى الله عليه وآله وسلم، هو خاتم النبيين ويدرك ما يفعل عن حق وإيمان قلَّ نظيرهما في وجود بني الإنسان.. ولا شيء في حكمة الله ومشيئته يمنع هداية نبيه الكريم إلى رؤية الأحداث بعين البصيرة، وارتقاب النتائج بإلهام الوحي، ولا شيء أيضاً يحولُ بين فكر محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، الثاقب وتشوّف المستقبل المنظور، من خلال ما آتاه الله تعالى من ملكات وقدرات جعلته في النبيين والمرسلين حامل أعظم رسالة سماوية إلى الأرض، كما جعلته في بني البشر سيّد القادة والمدبِّرين، والمخطِّطين والمنفذين..

ولم يكن ليغيب عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قطُّ ما لدولة الروم من قوة العتاد والسلاح، ومن كثرة الجيوش والمحاربين، وما حققته جيوشها من انتصارات على الفرس غير بعيدة في الزمان، ولكنه مع هذا الإدراك كان يرى بأن الدعوة تستوجب التضحية والفداء، كما تستوجب الإقدام والمثابرة، وما إرساله لحملة زيد بن حارثة إلا ضمن هذا الإطار من التصوّر الهادف والعمل الفاعل أيّاً كانت التضحيات، لأنَّ المسؤولية الجسيمة التي يحملها الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، هي فوق كل المسؤوليات وتتطلب دائماً حملةً يؤمنون بها، ورجالاً يضطلعون بأعبائها، لا ترهبهم المعوقات، ولا تُقْعِدهم العقبات..

أفبعْدَ هذا يسألُ الرسول الأعظم إن كان يستبق استشهاد قادة جنده أو إن كان يسمي من يخلف الذي يُصاب؟!. ولم يقف ذلك اليهودي عند حدّ سؤاله للنبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، بما سأل، ولكنه عاد إلى زيد بن حارثة (رضي الله عنه) يقول له: إعهد (أوصِ) يا زيد، فإنك لن ترجع إلى محمد إن كان نبياً».. فيقول له زيد (رضي الله عنه): «أشهد أنه رسولٌ صادق بارّ».

ما أحلاه نغماً إيمانياً يتدفق من قلب زيد ومن نفسه، فيدحَضُ كلَّ شك لليهودي أو لغير اليهودي بأن محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، هو نبي الله، وهو خاتم النبيين لأنه لا نبيَّ بعده، فلا يحفل بما يوصي به، بل تكون له الشهادة الخالدة الدالَّة على أن محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، رسولُ الله.

وبكى ابن رواحة، وهو يودع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم. فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حب للدنيا، ولا صبابة إليها، ولكني سمِعت قول الله تعالى:

{وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا}[1].

فلست أدري كيف لي بالصَّدَرِ بعد الورود؟ ثم أنشد:

لكنني أسأل الرحمن مَغْفِرةً

وضَربةً ذاتَ فَرْغٍ تقذفُ الزَّبدا[2]

أو طعنةً بيدَي حَرَّانَ مُجهِزَةً

بحربةٍ تنفذُ الأحشاءَ والكَبدا

حتى يقولوا إذا مرّوا على جَدَثي

يا أرشَدَ اللهُ مِنْ غازٍ وقد رشدَا

ثم وجَّه كلامه إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال:

فثبَّتَ اللهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ

تثبيتَ موسى، ونصراً كالذي نُصِروا

1 سورة مريم، الآية: 71.
2 ذات فرغ: ذات سعة. والزبد هنا: رغوة الدم.

إني تفرَّستُ فيك الخيرَ نافِلةً

والله يعلمُ أنّي ثابتٌ بَصِرُ

أنت الرسولُ فمن يُحرَمْ نوافِلَهُ

والوجهَ مِنْهُ فقد أزرى بِهِ القدرُ

.. استعدَّ الجيش للمسير، فعقد الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لواءً أبيض ودفعه إلى زيد، الذي لم يسبق له أن تولى قيادة من قبل، ثم أوصاه بأن يأتوا مقتل الحارث بن عمير الأزدي، وأن يدعوا مَنْ هنالك إلى الإسلام، فإن أجابوا قبلوا منهم، وإلا فليستعينوا عليهم بالله وليقاتلوهم..

وانطلق هذا الجيش في أول غزوة له خارج حدود شبه الجزيرة، وفيه أعلام من أهل مكة والمدينة، أمثال خالد بن الوليد الذي كان حديث عهد في الإسلام، فإنه آثر أن يعوّض عما فاته من جهاد في سبيل هذا الدين، فكان مع المنتدبين في تلك المسيرة الهامّة..

وتقدّم رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على رأس الجيش حتى بلغ ظاهر المدينة على ثنية الوداع، فوقف يُلقي وصيته على هذا الجيش، ويقول لجنوده: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً. أُغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله. لا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا مكفوفاً، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجرةً، ولا تهدموا بناءً».

تلك كانت وصية رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى جنود الإسلام، وهي وصية يجدر بأهل الأرض، ولا سيما في هذا العصر بالذات، أن يتفكّروا فيها وأن يتخذوها عظة لهم فيما يقومون به من حروب.. فالحرب، إن لم تكن تهدف في الأصل لإعلاء كلمة الله وإرساء دينه الذي ارتضاه، فهي ظلم وعدوان.. ومتى قامت الحرب فلها أصول وقواعد لا يجوز تخطّيها، وفي طليعة هذه الأصول والقواعد، عدم الاعتداء على المستضعفين من طفل وامرأة وكهل ومنعزل عن الناس، ومنها عدم إهلاك الحرث والنسل، وإنزال الدمار والخراب في العمران. فأين منّا هذه القواعد التي أرساها رسولُ الإسلام في كلمات موجزات، وأين منها حروبُ الناس في الماضي البعيد، وفي العصر الحديث، حتى حروب هذا القرن.. التي لم تحمل لبني البشر إلاّ الموت يحصد الملايين، والدمار والخراب يعمُّ

العالمين، والتي تزرع الظلم والقسوة، وتنشر البغي والفساد حتى لا تذر ناحية من نواحي الخير إلاَّ وتقضي عليه؟!..

كلمات قليلة أوحى بها رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنها تناولت الإنسان في حياته وممتلكاته وحقوقه.. ألاَ فلتَكُنْ دستوراً للناس وقانوناً للحياة لكي يدرك أهل الفكر والضمير، وأصحاب الحكم والتقرير، فظاعة الجرائم التي ترتكب بحق الإنسانية وباسمها تحت ستار الشعار الباهت: «الأمن والسلم الدوليَّين»..

... وبعد أن أودَعَ الرسولُ الأعظم وصيته تلك لجنوده، عادَ يدعو لهم، ويدعو معه المؤمنون: «صحبكم الله، ودفع عنكم وردَّكم إلينا سالمين».

وكانت المسيرةِ بأمرٍ من الله ورسوله، انطلق فيها الجيش الإسلامي حتى بلغ «معان» من أرض الشام، فنزل في تلك الناحية، واجتمع قادته يضعون خطة الحرب، فرأوا أن يكون لقتالهم طابع المفاجأة، بحيث يأخذون العدوَّ على حين غرة، أسوةً بما كان النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يفعله في غزواته وجرياً على عادته في مهاجمة أعدائه..

وبينما كان أمراءُ الجيش منهمكين في وضع تلك الخطة، بلغتهم أخبار حشود كبيرة تزحف لمقاتلتهم.. وذلك أن أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم، فقام شرحبيل بن عمرو الغساني يجمع من حوله الرجال والمقاتلين حتى بلغ جيشه المئة ألف مقاتل، ولم يكتفِ بهذا العدد الضخم بل كتب إلى هرقل كي يمدَّه بالجيوش من العرب والإغريق، فلم يكن من هرقل إلاَّ أن أخذه الحماس، فانطلق هو الآخر في مئة ألف رجل آخرين حتى نزل «مُآب» من أرض «البلقاء» وهي كورة من أعمال دمشق..

بلغت أخبار تلك الحشود المسلمين وهم في «معان»، فراعهم الأمر، وراحوا يتفكرون بما يفعلون: هل يرجعون إلى المدينة ما دام ليس لهم قدرة على مقاتلة هذه الأعداد الغفيرة من الجيوش، أم يقدمون على خوض المعارك غير عابئين بالكثرة والحشود؟!.. ورأى البعض أن يكتبوا إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يُعلمونه بواقع الأمر، فإمَّا أن يمدَّهم بالرجال وإمَّا أن يأمرهم بأمره فيمضوا فيه.. وكادَ هذا الرأي يسودُ لولا أن قام عبدالله بن رواحة قائلاً: «أيها المؤمنون! والله إنَّ التي تكرهونها لهي الشهادة التي خرجتم تطلبونها، فإنما هي إحدى الحُسْنَيَيْن: إما ظهور، وإما شهادة»..

ومثل ومض البرق، سرت حماسة الإيمان، واندفعت نخوة الشجاعة إلى الجيش كله، وكانوا قد أمضوا ليلتين في «معان»، قاموا بعدهما يمضون على هدى الله تعالى حتى بلغوا تخوم «البلقاء»، فوجدوا جموع هرقل من الروم والعرب قد تقدمت لتتلقاهم وصارت على مقربة من محلة يقال لها «مشارف»، ولمَّا لم يجدوا في تلك الجهات ما يدفع عنهم؛ عادَ المؤمنون ينحازون إلى مكان أكثر تحصيناً بالنسبة لموقعهم فاتخذوا «مؤتة» منزلاً لهم...

التقت جيوش الضلال من الروم وقبائل العرب أمثال لخم، وجُذام، وبلقين، وبهرا، وبلي في «مُآب» ثم زحفت هذه الجيوش إلى «مؤتة» حيث تمركز المسلمون. هناك في هذه القرية، جرت معارك ضارية ليس فيها تكافؤ في العدد والعتاد.. ثلاثة آلاف يواجهون مئتي ألف، وأين؟ في أراضي بلادهم التي يخبرونها جيداً، والتي خاضوا فيها معارك كثيرة مع أعدائهم الفرس.. ودارت رحى الحرب حامية الوطيس في أعنف قتال وأشدّه، فحمل زيد بن حارثة راية النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، واندفع بها في صدر العدو، يرى تكاثر الأعداء من حوله فلا يَرهبهم، والموت المحتم أمامه فلا يهابه.. إنه يتقدم، ويقاتل هؤلاء الأقوام وهو يعرف أنه ملاقٍ حتفه، ولكنْ ما همَّه موتٌ في هذه الحياة وهو سيلاقي الحياة الأبدية..

وكان زيدٌ يضرب وفي رأسه شريط حياته يدور.. لقد كان عبداً فرفعه محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى مرتبة السادة. ولقد صحبه معه على مدار السنين العديدة الماضية، ينفحه بروح الإيمان، وصدق العزيمة، حتى جاءَ اليوم الذي أمَّره فيه على الناس وجعله قائداً لجيشه.. وها هو الآن وفي هذا المقام الرفيع يُقبل على الموت في سبيل ربِّه وفي سبيل إعلاء كلمة الحق.. فهل أرفع شرفاً له من أن ينال هذه المكانة في سبيل الله ورسوله، وهل أعلى وساماً من وسام الجهاد الأكبر، والحظوة بأنبل مصير في تاريخ بني البشر؟!..

ثم تتكاثر على زيد رماح العدو، وتتألب عليه سيوف الباطل، تفجّر دمه، وتمزق أوصاله، فهوي على أرض «مؤتة» شهيداً، وعيناه ترنوان إلى هنالك في البعيد.. إلى المدينة حيث رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي بعثه إلى الشهادة وهو في المقام الأسمى، فلا تنطلق روحه إلى العزيز في أعاليه إلاَّ وهي تترنّم بأناشيد الوفاء، وتراتيل الإيمان..

ويتقدم جعفر بن أبي طالب، الشاب الوسيم الذي كان في الثالثة والثلاثين من عمره. تقدم لساحة الوغى بقلب شجاع وإقدام بطوليّ. لم يكن لغيره في هذه المعركة أن يتقدم مثله: فقد ورِثَ الجرأة من بيتٍ دعائمه المجد، ولَبِناتُه الفضائل، وظله الودُّ والرحمة، فهو ابن أبي

طالب «عبدمناف» بن عبدالمطلب بن هاشم، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، أول هاشمية وَلَدت لهاشمي، ولقد عايش جعفر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، تحت سقف واحد، ورأى بأم عينيه مكانته عند والده، وما كان يغدقه عليه من الحنان والعطف، وما يمنحه من الرعاية والمحبة، فتأثر بذلك أيما تأثر، فكان مبدأ الأخوة هو السائد المسيطر على العلاقة القائمة بينهما، فلا عجب إن تمتع جعفر بقوة كانت قبساً من نور النبوَّة، كما يدلُّ عليها قول النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لجعفر: «أَشْبَهَ خَلْقُكَ خَلْقي، وأشبهَ خُلُقك خُلقي، فأنت مني ومن شجرتي».. ولا عجب إن انبرى في حمَّى المعركة يقاتل قتال الأبطال الأشداء، ويَذُودُ عن حمى الدين ذود الفارس النبيل، فقد اقتحم المعركة وهو يقول:

يـا حـبذا الجـنةُ واقـترِابُـها

طـيبةً وبـارداً شــرابُـها

والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها

عليَّ إن لاقيتُها ضِرابُها

وما زال يضرب بالأعداء ضربات تطيح بالأعناق، وتقطع الأوصال، حتى يفري الصفوف فرياً وينزل في القلوب الخوف والرعب. ويراه أعداؤه على تلك الحالة فلا يجدون مناصاً من التكاثر عليه والإحاطة به من كل جانب، وعندها يقتحم جعفر الصفوف، وينزل عن فرسه بعدما أصيبت، ثم يقاتل وهو راجل، ولواء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في يمينه فقطعها العدو، فأخذ اللواء بشماله فقُطِعت هي أيضاً، فاحتضنه بعضدَيه، وما زال كذلك حتى قتل، وقد وُجد في جسده الشريف نحو «تسعين طعنة».

فأية شجاعة أعلى من شجاعتك يا ابن أبي طالب، وأيُّ وفاء ذاك الذي يدفَعك ألاَّ تتخلى عن لواء رسول الله حتى بلغ بك الأمر أن تحتضنه في عضدَين قطعت يمناهما واليسرى؟!. هاهنا في «مؤتة» فليشهد التاريخ على البسالة النادرة، وعلى الأمثولات الرائعات.. وها هنا في «مؤتة»، كما في أية أرض أخرى قتل فيها المؤمنون في سبيل الله، لا يعدون أمواتاً، بل هم أحياء عند ربهم يرزقون كما وصفهم الله سبحانه في قوله تعالى:

{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[1].

نعم، هوى جعفر (سلام الله عليه) في أرض المعركة، فاندفعت روحه ترفرف نحو ذرى المجد، لتعبر في أجواء المدينة، تحمل وصية الشهيد وهو يقول: «ألاَّ بلَّغي ابن عمي، رسول الله وخاتم أنبيائه بأنني وفيت في مؤتة، وما وهنتُ وما قَلَيْتُ، وما كان عندي إلاَّ خوف واحدٌ، أن تسقُط رايةُ الإسلام من يديَّ، فحميتها حتى قطعتا، ونثرتْ دمائي على الأرض كي تسقيَ في الدروب غرساتٍ يرفرف على أغصانها الإيمان، وتفرخ في الحقول حبات ينبت على أوراقها الحق»...

ألا يا واصلاً مدينة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قل لهم: هناك في أرض الشام جعفر لم يمت بل هو شهيدٌ يفرح بما آتاه الله من فضله، وبما منحه من أجر، ألا فليهنأ له ذوو القربى والمحبُّون لمكانته الرفيعة في جنة الله ورضوانه.

.. ثم تقدم، من بعد مقتل جعفر، عبدالله بن رواحة فيأخذ الراية وهو على فرسه، فجعلت نفسه تحدِّثه بالموت، وتجعله يتردد بعض التردد، ولكنه سريعاً ما أنشأ يقول:

أقسمتُ يـا نفسُ لتـنزلنَّـهْ

لـتنـزلـنَّ أو لتــكرهنّــهْ

قد طالما قد كنتِ مطمئنةْ

مالي أراكِ تكرهينَ الجنَّةْ

ثم يقول مذكراً برفيقَيه:

يا نفس إلاَّ تُقتلي تموتي

هذا حِمام الموت قد صَليتِ

وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ

إن تفعلي فعلَهما هُديت

1 سورة آل عمران، الآيات: 169 - 171.

ثم لم يَطُلْ تردّدُ عبدالله بن رواحة، إذ ما لبث أن أخذ سيفه من جانبه، وأقبل على القتال، مقداماً غير هيّاب، مطمئناً غير جَزِعٍ، وما زال يقاتل بطلاً عظيماً حتى استشهد، ولحق بزيد وجعفر إلى الخلود.. فهؤلاء هم قادة الجيش الإسلامي في «مؤتة» يستشهدون ثلاثتهم في سبيل الله، وفي موقعة واحدة، مقدمين أبلغ العظاتِ وأسمى الشهادات.. لقد كانوا يعرفون منذ ولاَّهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إمارة المسلمين بأنهم ملاقو الموت ومع ذلك ارتضوا أوامر الرسول مطمئنين مضحين، لأنهم آمنوا بأنَّ ما يسيرون إليه هو الحق، وفي سبيل الحق لا يأبه المؤمن لشدةٍ ولا لموتٍ، بل يرتجي أمراً واحداً ألا وهو إعلاء كلمة الحق المبين.

وأخذ ثابت بن أرقم الراية، بعد مقتل عبدالله، فقال: «يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم»، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل..

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، وكان رجلَ حربٍ مجرَّب، وقائداً ماهراً، ما إن أخذ الراية حتى عمد إلى جمع صفوف المسلمين، بعد أن بدأت تدبُّ بينهم التفرقة، ويداهمهم التشتت، وما زال يداور الأعداء، بعد جمع الصفوف، في مناوشات بسيطة حتى انتهى النهار، وتحاجز الجيشان لطلوع الصباح. وأثناء الليل، تدبَّر خالد الخطة التي يستطيع معها أن يؤمن سلامة جيشه، فوزع عدداً من الرجال غير قليل في المؤخرة، وأمرهم إذا طلع الصباح أن يحدثوا جلبة وضجيجاً يوهمون بهما الأعداء أن المدَدَ قد جاءهم من عند النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم. وبالفعل كانت خطة محكمة تلك التي تدبرها خالد بن الوليد، إذ ما إن سمع الروم الضوضاء في مؤخرة جيش المسلمين حتى ظنوا بأنَّ أعداداً غفيرة قد انضمت إليه في الليل وهذا ما جعلهم يخافون، وعن المهاجمة يتقاعسون، لأنَّ ما لاقوه من شدّة المسلمين وسط المعارك، وما أنزلوه بهم من تقتيل ـ رغم عددهم القليل ـ كان حَرِيّاً أن يخيفهم، وأن يثبط عزائمهم، بعد أن صاروا جيشاً لَجِباً، بتلك الإمدادات الكثيرة التي وصلتهم.. وانتظر الروم أن يبادئهم المسلمون القتال، وأن يشنوا عليهم الغارات، ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يحصل، بل على العكس فوجئوا بهؤلاء الأعداء الأشدّاء ينسَحبون من مواقعهم، مؤثرين الرجوع إلى بلادهم. وبلغ خبر رجوع الجيش الإسلامي على تلك الحالة مسامع المسلمين في المدينة، فوقع في نفوسهم مهولاً مروعاً، وخرجوا من المدينة، كباراً وصغاراً يريدون ملاقاة ذلك الجيش المنهزم بالتأسّي لما لاقاه.. وبالملامة أيضاً.. ولقد بلغ من

تراكض الصبيان ما جعل الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يشفق عليهم من طول ما جرَوا، فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم، واعطوني ابن جعفر». وأخذ، صلى الله عليه وآله وسلم، عبدالله بن جعفر فحمله بين يديه على دابته، وما زال يتقدم الناس حتى بلغوا «الجرف»، وهناك كان استقبال مرير للمقاتلين، إذ أقبل الناسُ عليهم يحثون التراب في وجوههم، وهم يقولون: «يا فُرَّار، فَررتم في سبيل الله؟!».. فيقول الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: «ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى»..

تلك هي عادة الجموع لا ترحم في أحيان كثيرة، بل تندفع وراء المشاعر مُعماةً عن الحقيقة.. فقد ظنت جموع المسلمين أن جيشهم قد هزم، ولكن الحقيقة كانت على خلاف ذلك، بدليل ما أكّده رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ينفي عن ذلك الجيش تهمة الفِرار، وما أثبتته الوقائع أثناء القتال في «مؤتة»..

فلقد كانت أسباب الفرار أمام الجيش الإسلامي متوافرة وعديدة، إذ كان مقدّراً له، بعد مقتل قادته الثلاثة، أن يترك المعركة ويهيهم على وجهه مدحوراً، بما يمكّن العدو من لحاقه وإنزال أقصى الضربات به. ولكنَّ ذلك الجيش لم يفرّ، بل صمد في وجه أعدائه وثبت لمدة سبعة أيام في أعنف قتال وأشد معارك. لقد قابل العدو وهو في حالات من الضعف والخَوَر، وظل ثابتاً أمامه رغم تلك الحالات التي تدفع إلى الشتات.. يضاف إلى ذلك موافقة الجيش لخالد بن الوليد على خطته والبقاء في ساحة القتال، فلو لم تكن في نفوس ذلك الجيش القوة الكافية، وفي قلبه الشجاعة الزائدة لما كان قبل بالخطة، ولكان آثر الانسحاب تحت جنح الظلام، ولو فعل لكان عندها عُدَّ منهزماً. أما وأنه ثبت في مكان المعركة، وبثباته ذاك أجفل الأعداء وأرهبهم، حتى منعهم عن مهاجمته، فتلك هي البطولة حقّاً، وذاك هو الصمود بعينه.. لا، لم يكن مقدراً لثلاثة آلاف أن يهزموا مئتي ألف، ولكنَّ ثباتهم أمام هذه الجحافل يعتبر نصراً بذاته..

وإذا كان هذا هو واقع الجيش الإسلامي عامة، فإن ما قام به قادة هذا الجيش من بطولات ليعتبر فوق التصوُّر، وأعلى من كل نصر للأعداء. لقد أقبلوا على الموت بحماس بالغ النظير، وخاضوا أشد المعارك ضراوة، بإيمان المسلم الصادق الذي يعرف أن دينه يأمره أن يقاتل في سبيل الله، وهي التجارة الرابحة وحدها، كما في قوله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَموالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[1].

نعم ذلك كان الفوز العظيم الذي ناله قادة الجيش الإسلامي، وبفضل هذا الفوز قادوا المؤمنين في القتال الصعب المرير، فهل يُعَدُّ ذلك الجيش فَرَّاراً؟!.. لا والله، بل هو الكرَّار إن شاء الله تعالى...

ولقد حزن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لمقتل الأمراء الثلاثة حزناً كبيراً، وبلغ الألم من نفسه أن بكاهم بأسىً، وبكى المستشهدين معهم في «مؤتة». ولقد طاف، صلى الله عليه وآله وسلم، على بيوت الشهداء، يواسي أهلهم وأبناءهم، حتى انتهى به المطاف إلى بيت ابن عمه جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فدخل على منزل جعفر، وطلب إلى زوجه أسماء بنت عميس أن تأتيه بغلمانها الثلاثة: عبدالله، وعون ومحمد. فلما أتته بهم، راح يقبلهم ويشمهم وعيناه تذرف بالدمع، ثم وضع عبدالله بن جعفر في حجره وأخذ يمسح رأسه وهو يقول: «اللَّهم إنَّ جعفراً قد قدم إليَّ أحسن الثواب، فاخلُفه في ذريته بأحسن ما خلَفْتَ أحداً من عبادك في ذريته». ثم التفت إلى أسماء وقال لها: «يا أسماء.. ألا أبشرك؟».

قالت: بلى.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

قال: «إن الله سبحانه قد جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة».

وكان، صلى الله عليه وآله وسلم، يقصد أن الله تعالى قد أبدل جعفراً (رضي الله عنه) جناحين عوضاً عن يديه اللتين قطعتا وكان يحتضن بهما لواء الإسلام ولواء رسول الله.

رضي الله عن جعفر ذي الجناحين، وصاحب الهجرتين، أبي المساكين، المدافع عن لواء المؤمنين، فقد كان يحب المساكين ويجلس إليهم، يخدمهم ويخدمونه، ويحدثهم ويحدثونه، فكان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يكنّيه «أبا المساكين». وكان يقول عنه: «كان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب ينقلب بنا فيطعمنا ما في بيته» ومثله أولئك «يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً». وصدق الله العظيم الذي يورثهم المجد في الدنيا والآخرة، فيكونون الوارثين عن حق للخلد: «أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون»..

---

1 سورة التوبة، الآية: 111.

تلك كانت معركة «مؤتة»، بما حفلت من مخاطرة وجرأة، ولكنها، رغم المخاطرة والجرأة، كانت ضرورية لإرهاب الروم فيرون فيها بأس المؤمنين وقتالهم وإن قلَّ عددهم، كما كانت لازمة حتى ترتسم أمام المسلمين طريق الجهاد في مقبل الأيام وهم ينشدون نشر دينهم في البلاد، كما دلت عليه الأحداث المتعاقبة.

* * *

سلسلة غزوات الرسول

(2)

غزوَةُ أُحُد

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [1].

[1] سورة آل عمران، الآية 144، م.

غزوة أُحُد

بحلول شهر شوَّال ـ من السنة الثالثة للهجرة ـ وإذ بأخبارٍ تصل من مكة تدعو إلى القلق، وتنتشر كالضباب في الأجواء، فسارع أهل المدينة إلى اتخاذ الحيطة والحذر..
ذلك أن قريشاً كانت قد أنهتْ استعداداتها للقتال، فباعت البضائع التي نجا بها أبو سفيان ابن حرب ـ والتي أدت إلى موقعة بدر ـ بعد أن أوقَفَتْ أرباحَها لتجهيز الجيش الذي سينتقم لقتلى بدر، وأضافت إلى تلك الأرباح ما تبرَّعَ به رجالُ مكة ونساؤها، من أموال وفيرة، أُعِدَّتْ أيضاً لتلك الغاية القتالية؛ حتى إذا استدار العامُ، صار عند قريش جيشٌ كبيرٌ، يضم الآلاف من المقاتلين، وغَدَا مجهزاً بأسلحة كثيرةٍ وأعتدة متنوعة، وقد انضمَّ إليه مَن وَالى القرشيين من تِهامة وكِنانة، ومن حالفهم من الأحابيش أمثال بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة..
وكانت قريش قد طفِقَتْ عامَها ترسل إلى قبائل العرب منْ حولها، تستنصرُها على قتال المسلمين، فأوفدتْ لذلك الرسلَ والداعين، يحرِّضون تلك القبائل، ويوغرون صدور أبنائها بالكراهية على من يريدون أن يخرجوهم عن دين آبائهم وأجدادهم.. وكان من بين أولئك المحرِّضين، الذين راحوا يجوبون مختلف النواحي، متنقلين من ديرة إلى ديرة، ومن مضارب إلى أخرى، أبو عزّة، الشاعرُ المخادعُ الذي رجا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يعتِقَهُ يوم كان بين أسرى بدر، من أجل بناته اللواتي لا معين لهنَّ غيره، وهو يعاهده ألاَّ يُظاهر عليه أحداً ويكثِّر عليه جمعاً، وقد منَّ عليه الرسولُ الكريمُ، صلى الله عليه وآله وسلم، بحريته من غير فداءٍ بعد أن أخذ عليه الميثاق؛ وها هو الآن ينكُثُ العهدَ، وينقُضُ الميثاق، فيكون أوَّل رُسُل قريش إلى القبائل، وإلى كنانة وتهامة خاصة، يدعو للاستعداد لمقاتلة محمد والقضاء عليه وعلى جماعته.
فهل بعدَ فعلةِ هذا الرجل الكاذب، الماكر، من خيانة للعهد، أو تنكُّر لصُنع الجميل؟!...
وكأني بالتاريخ قد أراد أن يحفظ في هوامش صفحاته ذكرَ أبي عزّة الشاعر، حتى يرمز في كل حين إلى الغادرين والسفهاء، ممن يتصدّون للخير ويعادونه ويقفون في طريقه، ويُقبلون على الشر ويؤيدونه ويشجِّعون عليه، ويبعدون عن الحق مرتجىً، ويتخذون الباطل مأرباً..

وهل من غرابة فيما رامَهُ أبو عزّة وهو في وسط بيئة قرشية، قد طُبعت الجهالةُ على قلوب أبنائها، وأعمى الحقد بصائرهم، فلم يعودوا يرون إلاَّ شيئاً واحداً في دنياهم، وهو ضرب محمد والمسلمين الضربة القاصمة التي تقضي عليهم، وتُميت الدعوة التي يحملونها، في مهدها، وتقضي على حَمَلتها؟!.

وهكذا، وبانقضاء ذلك العام، كان لقريش ما أرادت، وغدت على أتمّ أهبة، وأكمل استعداد.

ودقّتْ في مكة ساعةُ النفير للخروج إلى المدينة والقضاء على الأعداء فيها، وبرزت النسوة في قريش يأْبين إلاَّ أن يَسرن مع الغزاة، ويبدو أنهنَّ كُنَّ قد أخفين هذا الأمر عن الرجال، في اتفاق ضمني بينهنّ، لأنه ما إن ظهرنَ يردن الخروج، حتى وقع الجدال بين القوم بين مؤيد ومعارض.

فأما الذين أيَّدوا الخروج فقالوا: «هذا حق، وينبغي أن يغضبكم ويذكِّركم قتلى بدر... ونحن قوم مستميتون لا نُريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه».

وأما من كانوا يعارضون فيه فقالوا: «يا معشر قريش! هذا ليس برأي؛ تعرِّضون حُرَمَكم لعدوِّكم، ولا نأمن أن تكون الهزيمة عليكم فتفضحوا في نسائكم»..

وتضاربت الآراءُ حتى كادتْ أن تَشُقَّ وحدة الصف؛ عندها صاحتْ هندُ بنتُ عتبة، زوجُ أبي سفيان بن حرب، وقد تزعَّمتْ حملةَ خروج النساء، تهاجم من يمانعون في هذا الخروج وهي تقول: «لقد سَلِمتُم بيوم بدرٍ فرجعتم إلى نسائكم! والله لنَخرج فنشهد القتال، ولا يردُّنا أحدكم كما رُدّت الفتيات في سفرهنَّ إلى بدر، فقتلت الأحبة يومئذٍ، ولم يكن معهم من يحرِّضهم».

وهل يمكن لهند أن تصبر على البقاء في مكة لتنتظر الأخبار، ولا تكون مع الجيش؟.

لا!.. إنها لا تُطيق ذلك وفي أحشائها معركة قائمة يتلهب لظاها منذ مقتل أبيها وأخيها يوم بدر؛ وهي لا تقدر على مغالبة ذلك الحقد الذي يَفْغَرُ فاهُ يريد أن يبتلعها إنْ لم تشارك بنفسها في القتال وتثأر من ألدّ عدَّويْن لها، محمد وعمه حمزة، فتروي في نفسها ذلك الغِلّ الذي صبرت على آلامه طويلاً، ويلتئم في قلبها ذلك الجرح الذي تحملت نزفه كثيراً.

لا!.. لن تفوّت هندُ بنت عتبة على نفسها منظرَ الدماء تسيل، وهي وحدها كفيلة بأن تردَّ إليها رونق الحياة.. فهل تقنع إذن بعدم الخروج؟!.

وتصايحت نساءُ قريش من خلفها، يُرِدْنَ ثأراً ممن قتل الأحبَّة والأعزاء.. فلم يرَ القوم إلاَّ النزول على تلك الرغبة الجامحة، والانصياع لتلك الإرادة العاتية..

وتأهَّبَ المقاتلون للسير، ووقف النسوة مستعدات، فإذا الكل في حماسة المَوْتُورِ، وسَوْرَة المُغيظ المُحنِق، همهم الأوحد ملاقاة محمد وأصحابه ليظهروا للعرب وللعالم: كيف يكون القتال العنيد...

وكان قائد الحملة، أبو سفيان بن حرب، أكثر القوم وأشدُّهم حرصاً على بث الروح القتالية، فجاء بني عبدالدار، وكان اللواء لهم، يقول متهكّماً، متوعداً: «يا بني عبدالدار! لقد وُلِّيتم اللواء يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتى الناسُ من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا؛ فإمّا أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلُّوا بيننا وبينه فنكفيكُمُوه».

وهمّوا به، وأرادوا القضاء عليه لولا حراجة الموقف والتهيئة للمسير، فأبعدوه رافضين طلبه، وهم يقولون: «نحن لن نسلم لواءنا لأحد، ستعلم غداً يا أبا سفيان يوم اللقاء، كيف تكون صناعتنا في الحرب»..

وتوزع الجيش في ألوية ثلاثة عُقدت في دار الندوة، فكان على اللواء الأكبر منها طلحة بن أبي طلحة، وعلى الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عِكرمة بن أبي جهل؛ أما الرجّالة فقد وضع على رأسهم صفوان بن أمية..

وكانوا ثلاثة آلاف من المقاتلين، أكثريتهم الساحقة من قريش، والباقون كانوا جماعات من المناصرين والموالي.

ولقد توفرت لهذا الجيش، فضلًا عن ضخامة عدده، كثرةُ سلاحه وعُدّته. فكان معه سبعمائة من الدروع الصلبة الواقية، يلبسها سبعمائة من الدارعين، ويتمنطق مثل عددهم بالزَّرد العريض.. وقد أمكنهم جمع مائتي فرس مع فرسانهم المدربين، وثلاثة آلاف بعير يركبونها ويحملون عليها الأسلحة والذخيرة والأمتعة، وكان يقوم على خدمة هذا الجيش وقضاء حوائجه جمعٌ غفيرٌ من الغلمان والعبيد؛ إلاَّ أن نفراً من هؤلاء أوكلت إليهم أدوارٌ خاصة وهامة، كما هو الحال مع عبد حبشي يُدعى «الوحشي»، كان مولى جبير بن المطعّم، وقد عهد إليه مولاه هذا بأن يترصّد أثناء المعركة حمزة بن عبدالمطلب، عم محمّد، صلى الله عليه وآله وسلم، ويقتله، لأنه قتل يوم بدر عمَّه طعيمة بن عدي بن المطعّم.. وعهدت إليه الدور ذاته، هند بنت عتبة، لأن حمزة كان أيضاً يومذاك قاتل أبيها وأخيها.. ولقد اختاره

لهذه المهمة، نظراً لما عرف به من حسن الرماية والقذف بالحرية على طريقة الحبشة، إذ كان يجيد مثل هذا القذف إلى حد قلّما يخطىء به هدفاً صوّب عليه.. ولقد منّاه سيده جبير، كما منّته هند بالمال الكثير، وبعتقه وإعطائه حريته إن هو قتل حمزة، وذلك عندما قالا له، بلسان واحد: «إن أنت قتلت حمزة عم محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فأنت عتيق»!.

وها هو اليوم، يحمل حرابه، ويقف على أتم استعداد، حتى يكون في ساحة الوغى، ويقتل حمزة فينعم بالحرية الموعُودة والمال الكثير!.. وبئسَ الحرية للعبد تلك التي لا تكون إلاَّ بقتل الأحرار أمثال حمزة بن عبدالمطلب، حامي لواء الحق، والذائد عن قائد دينٍ ما جاء إلاَّ ليحرِّر الإنسان من أشكال العبودية الأرضية كافة، فلا يكون عبداً إلاَّ لخالقه وحده.. وشتّان بين عبودية من هذا القبيل هي جوهر الحرية في دنيا الناس، وبين عبودية اعتمدتها البشرية نظاماً ظاهراً أو خفياً، هي التعدّي على حقوق الناس وكرامتهم!..

ولكن هل يدرك «وحشي» ذلك؟.

أمَا كان قميناً به أن يرفض عبوديته، وينضوي تحت لواء الإيمان، الذي ينادي به محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، لتحرير الإنسان، فلكان حينئذٍ قد أعتق نفسه حقاً، بدل أن يكون قاتلاً مجرماً ليدفع ثمن هذا الانعتاق؟!..

ولقد كان في جيش المشركين، كثيرون ممن هم في قرارة أنفسهم على شاكلة ذلك العبد الوحشي، من الذين وَتَرَهُمُ الحقدُ على محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، فانزلقوا إلى الهاوية، ينضَوُون تحت لواء قريش في ذلك الزحف الجهنمي فكانوا عبيداً لأنفسهم الأمَّارة بالسوء، بل عبيداً للشيطان.. ومن أبرز هؤلاء كان أبو عامر بن صيفيّ الأوسي؛ فلقد كان هذا الرجل فيما مضى، مترهباً، يكثر من الحديث عن ظهور نبي قَرُبَ زمانُه، وكان يقول للناس بأنه يعرف صفات هذا النبيّ، وسيكون أول المؤمنين به وبالدعوة التي يحملها.. ولكنه، ما إن جاء محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى المدينة، وعرف أبو عامر أنه نبيّ حقاً، حتى تبدّلَ موقفُه، وراح يعمل على خلاف ما كان يعتقد، يُشيع بين الناس عدم صحة دعوته ويضمر له البغضاء، ويناصبه العداء، بل زادَ في حسده له، وحنقه عليه ما رأى من إيمان الناس به نبيّاً ورسولاً كريماً، وما جعلَ زعامتَه في الأوس تبدأ في الذبول، ورئاسته للقوم تقترب من الأفول..

ثم لم يكن منافِسُهُ على الزعامة في المدينة، عبدالله بن أُبيّ بن سَلول، زعيم الخزرج، بأقلّ منه حسداً لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وحقداً عليه، ولكنَّ عبدالله هذا قَدِر أن يغالب مطامعه، وأن يسيطر على زمام نفسه، فدخل في الإسلام منافقاً، يُظهر الإيمان به بين الناس، ويُبطن له العداء بين أهله وأصحابه حتى أمكنَهُ بتلك المخادعة ـ وما كان يخدع في الحقيقة إلاَّ نفسه ـ أن يبقى في المدينة، يراقب مجرى الأحداث، ويتحيّن الفرصَ التي تمكِّنه من إظهار ما تُخفيه جوارحُهُ من نفاق.. فكان فعلهُ هذا بخلاف ما فعله سيد الأوس، أبو عامر، إذ لم يقدر أن يتحمَّل وجودَ محمد في المدينة، وإرساءَه لقواعد مجتمع جديد، فارتحل عنها معانداً، كافراً، بعدما أغوى خمسيناً من شباب الأوس وغلمانهم للالتحاق به، والخروج معه..

وذهب أبو عامر إلى أشدّ الناس حقداً على محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأكثرهم عداوة له، وهم معشر قريش.. وقد وَجَدَ في هزيمة قريش يوم بدر، دافعاً جديداً لزيادة كراهيته لمحمد وأتباعه، وسبيلاً لإظهار التضامن مع قريش في استعدادها ليوم قتاله... فراح يُوهِمُ قريشاً بأنه قادر على أن يلعب دوراً هاماً في المعركة، لما له من مكانة عند قومه، إذ يستطيع يوم الملتقى أن يخذل هؤلاء القوم عن محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يخرجهم من صفوف المسلمين؛ وكثيراً ما كان يحدّث عن تلك المكانة التي لا تزال له عند الأوس، وبأنه يكفيه أن يُسمِعهم صوته كي يستجيبوا له، حتى لقد بلغت به الحال أن يقول لقريش، في يقين الواثق المطمئن: «لو قدمتُ على قومي، لم يختلف عليكم منهم رجلان، وهؤلاء نفرٌ معي منهم قادرون»!..

وبهذا الوهم الطائش، تأهّبَ أبو عامر الأوسي للخروج مع الجيش المشرك إلى القتال.. وكانت قريش قد صدَّقت أقاويله وادعاءاته، فأعطته مكاناً بارزاً في زحفها، وهي تمنّي النفس بأن يلعب هذا الرجل الدور الذي وعدها به كثيراً، وأن يقدر على انتزاع قومه الأوس من بين صفوف المسلمين، فيحقّق بذلك أكبر العوامل على تمزيق وحدتهم، وإلحاق الهزيمة بهم..

وهكذا، وبمثل هذه الاستعدادات، وتلكم التأهبات، سارت قريش في أوائل شهر شوَّال ـ لِستٍ خَلَوْن منه ـ تريد غزو المدينة والقضاء على المسلمين..

وكانت قريش، فيما يبدو، قد خرجت على خطة موضوعة، وهي أن تفاجىء المسلمين في عقر دارهم، لأن في تلك المفاجأة ما يشتت قواهم، ويجعلهم غير قادرين على التعبئة التي

تمكنهم من المواجهة.. ولقد حسبت قريش أنه إن أخفق عنصر المباغتة هذا، فإنها تعمد إلى أسلوب آخر قد يكون أشدَّ أثراً وأضمن نتيجةً، ألا وهو التخذيل وإشاعة التفرقة بين المسلمين، معوِّلة في ذلك على أبي عامر الأوسي فيما كان يَعِدُها به، وعلى أمثاله من المنافقين الذين ظلوا في المدينة يتظاهرون بالإسلام. بل لقد ذهبت قريش في التخطيط للمعركة إلى أبعد من ذلك، فإن أخفق أسلوب التخذيل، والتحم الفريقان، فإن أوّل همها سيكون التركيز على قتل محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وكبار الصحابة من المهاجرين، وبذلك تحقق مأربين: القضاء على قَتَلة سادتها يوم بدر، فتكون واحدة بواحدة، ومن ثَمَّ الانقضاض على بقية جيش المسلمين والفتك به، وبذلك تحقق النصر، وتنزل بعدوها الهزيمة الشنيعة..

ولقد أمضى صانعو هذا التخطيط الليالي الطويلة حتى اهتدوا إليه، وأرادوا الإبقاء عليه سراً، حتى تحين ساعة المعركة بالضبط، فيبثّونه بين صفوف مقاتليهم، ويؤكدون على ضرورة تنفيذه.. ولقد حرصوا بشكل أساسي، على ألاَّ يعلمَ بسرهم المسلمون القلائل في مكة، وعلى أن لا يعلم به بنو هاشم بالذات.. ويبدو أن هذا التكتّم، وتلك السرية، كانتا ضرباً من الخيال والتصوّر، فقد كان العباس بن عبدالمطلب، عم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يقف على كل ما يدور في مكة، ويعرف كل ما يأتمرون به ويقررونه؛ ولقد رفض أن يماشيهم في استعدادهم للقتال، وها هو يوم خروجهم يأبى السير معهم، فيبقى في مكة، دون أن يجرؤ أحدٌ على مساءلته عن شيء من ذلك.. وهكذا فإنه ما إن بدأ جيش قريش في المسير، حتى دُفِع إلى رجل من بني غفار، بكتاب وأوكل إليه إيصاله إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في المدينة، وأكّد عليه بأن يذهب متخفياً عن العيون، وأن يصل إلى محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، خلال أيام قليلة، دونما تمهّل أو تباطؤ. فانطلق رسول العباس على جناح السرعة حتى وصل المدينة، فسأل عن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فقيل له إنه في قباء، فذهب إليه يسلِّمه كتاب عمه العباس، فدفعه إلى أبيّ بن كعب يقرأه عليه، فعرف منه ما خرجت به قريش من جيش لَجِبٍ، ومن عدة وعتاد، وبذلك تأكَّدت له الأخبار التي كانت تأتيه ممَّن بثَّهم في سائر الجوانب والأنحاء، ما بين مكة والمدينة، حتى يكون على بيّنة مما يجري عند عدوه اللدود..

وطلب النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، من أُبيٍّ أن يكتم خبر الزحف القرشي، ثم عادَ من توِّهِ إلى المدينة، ودخل على سعد بن الربيع في داره، فقصّ عليه ما بعث به العباس إليه، فقال له سعد: «والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خير»؛ فدعاه النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يكتم الخبر حتى يرى ما يقرّر في الأمر..

وبات الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، تلك الليلة مصلّياً، متفكراً حتى طلع الفجر، فدخل المسجد يُصَلي في الصحابة ثم يُطلعهم بعد الصلاة على الأمر.. والتفَّ الصحابة الأبرار حول رسولهم الكريم، فعرض عليهم ما جاءته به الأخبار من خروج قريش في جيش لجب، تريد غزو المدينة، وطلب إليهم أن يبدأوا الاستعداد لمواجهة شتى الاحتمالات، وأن لا يضيّعوا أية فرصة في الأخذ والرَّد، لأن الوقت قصير، وموعد وصول قريش قد بات قريباً..

وكان نور الصَّباح قد انتشر، فأرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام في طلب بعض الفتية الأشداء، وبعث بهم يترصدون قدوم قريش، ويستطلعون مكان نزولهم.. حتى إذا قارب ذلك النهار على الأفول، عاد أولئك الفتية يخبرون رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن قريشاً قد نزلت ببطن الوادي في أُحُدْ، فأدرك النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أن العدو قد بات على أبواب المدينة، إذ لا تفصل بينها وبين نزوله أكثر من خمسة أميال. ولذا فإن الخطر قد حلَّ، ووقوعه بات وشيكاً..

وكان وصول قريش إلى أُحُدَ يوم الأربعاء في الثاني عشر من شهر شوّال، فحطت الرحال، وركنت إلى الراحة بعد سفر طويل، وعناء شديد، ونامت ليلتها في تلك الناحية، بينما ظلت العيون ساهرة في المدينة، خوفاً من هجوم غادر يفاجىء أهليها، حتى إن بعض الفرسان من المسلمين قد باتوا مدججين بالسلاح حتى في المسجد خوفاً على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بينما استنفر الباقون فضربوا حول مدينتهم نطاقاً يحرسونها من العادين.

وأفاقت قريش في الصباح، تسأل حُرَّاسها عن أخبار أهل المدينة، فقالوا: لم نلاحظ بوادر حركة منهم، ولم نَر بادرة تدلّ على أنهم ينشطون لقتال.. وأدرَك أبو سفيان بن حرب ما وراء ذلك فقال:

«أحلف بالله أنهم جاؤوا محمداً فأخبروه مسيرنا وحذَّروه، وهم الآن يلزمون حصونهم، ولن نصيب منهم شيئًا في وجهنا».

فقال صفوان بن أمية: «إن لم يخرجوا إلينا في فضاء الصحراء عمَدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، وتركناهم ولا أموال لهم، فلا يجتبرونها أبداً، وإن أصحروا لنا (واجهونا في الصحراء) فعددنا أكثرُ من عددهم، وسلاحُنا أفتكُ وأوفرُ من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل لهم، ونحن نقاتل على وِتْرٍ (ثأر) عندهم، ولا وتْر لهم عندنا».

أما رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقد جمع أهل الرأي من المسلمين، كي يتشاوروا فيما يجب فعلُه، وأن يقرروا كيف يلقون عدوَّ الله وعدوَّهم.. فقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «أشيروا عليَّ»!.. وكان في الجمع عبدالله بن أبيّ بن سلول، رأس المنافقين، فانبرى وكان أول المشيرين ورأى التحصَّن في المدينة، وعدم الخروج للمواجهة، وقال: «يا رسول الله، لقد كنا ونحن في الجاهلية نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي [= الحصون]، ونجعل معهم الحجارة ونَشْبِك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية. وترمي المرأة والصبي بالحجارة من فوق الصياصي والآطام، بينما نقاتل العدو بأسيافنا في السِكك، إنّ مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضَّت علينا قطُّ وما دخل علينا عدوٌّ فيها إلاَّ أصبناه، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منها إلاَّ أصاب منا، فدعهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بِشَرّ مَحْبِس، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً، يا رسول الله، اسمع لي في هذا الأمر، فإني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي منهم، وقد كانوا أهل رأي وتجربة».

ووجد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في رأي ابن أبيّ ما يدعو للأخذ به، وهو ما رآه الأكابر أيضاً من أصحاب الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، من المهاجرين والأنصار، فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «نمكث في المدينة، ونجعل النساء والذراري فوق الآطام، إن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، ورُمُوا من فوق الصياصي بالحجارة»...

ولكنَّ حميَّة الشباب، أبت على البعض ممن لم يشهدوا بَدْراً، إلاَّ الخروج إلى العدو وملاقاته حيث نزل، فقالوا لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهم يرغبون في الشهادة: «أخرج بنا يا رسول الله إلى عدوِّنا»..؟!! وقال رجالٌ، من أهل النية الحسنة، الخالصة لوجه الله تعالى: «إنا نخشى يا رسول الله أن يظنّ عدوُّنا أنّا كرِهنا الخروج إليه جُبْناً عن لقائه، فتكون

له جرأة علينا، وقد كنتَ يوم بدرٍ في ثلاثمائة فظفَرك الله على عدوك، ونحن اليوم بشرٌ كثيرٌ، وقد كنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله به، فقد ساقَهُ إلينا في ساحتنا».

وقال مالك بن سنان، محبّذاً الخروج: «يا رسول الله، نحن بين إحدى الحُسْنَيَيْن، إمّا أن يظفرنا الله بهم، وهذا الذي نريد، وإما أن يرزقنا الشهادة.. والله يا رسول الله ما أبالي أيهما كان.. إنَّ كلاّ لفيه خير»...

فقال حمزة عبدالمطلب (رضي الله عنه): «والذي أنزل عليك الكتاب لا أُطعم بعد اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي هذا خارجاً من المدينة».

وقال النعمان بن مالك، معقباً على حماسة حمزة: «يا رسول الله! لم تحرمنا الجنة؟ فوالله الذي لا إله إلا هو لأدخلنَّها»...

وهزَّ حديث الاستشهاد هذا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل النعمان: «وبم»؟.

فقال النعمان: «إني امرؤ أحب الله ورسوله، ولا أفرُّ يوم الزحف».

فقال إياس بن أوس: «إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها، فتكون هذه مجرّئِةً لقريش. وها هم أولاء قد وطئوا سقفنا، فإذا لم نذُبّ عن شجرنا لم يزرع، وإن قريشاً قد مكثت حَوْلاً تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها مع من تبعها من أحابيشها، ثم جاؤونا وقد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا. أفيحبسوننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُكْلَموا! لئن فعلنا لازدادوا جرأةً ولَشنُّوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لَقطعوا الطريق علينا».

وقال خيْثَمةُ أبو سعد بن خيْثَمة: «عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهي الشهادة. لقد أخطأتني وقعةُ بدر وكنت عليها حريصاً حتى بلغ من حرصي عليها أن ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه فرُزق الشهادة. وقد رأيت ابني البارحة في النوم وهو في أحسن صورة، يرتع في جنان الخلد، ويهنأ بنعيم السعادة الخالدة، وهو يقول: الْحَقْ بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً. فادعُ الله، يا رسولَ الله، أن يرزقني الشهادة لأكون مع ولدي سعد في الجنة، فوالله لقد أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته. وقد كبرت سنيّ، ورقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربِّي».

ورأى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إجماعَ الغالبية على الخروج، وهم لا يرومون إلا الشهادة، فهل يفرّق بينهم وبين حق يطلبونه، وعزّة يرتجونها ما بعدها عزّة؟!..

إنه كان يكره هذا الخروج، ويفضّل الدفاعَ عن المدينة من داخلها، ولكنَّ كثرة المؤمنين ترنو إلى ملاقاة العدو حيث نزل ولذلك ترك اتخاذ القرار النهائي إلى اليوم التالي، وبعث بعض الفتية يرقبون تحركات جيش قريش، فجاءه الخبر بأن خيول قريش قاربت المدينة وهي ترعى الزروع المحيطة بها، فأشار على الجميع أن يبقوا متأهبين، وأن يكملوا الاستعداد للقتال.

وانقضت تلك الليلة كسابقتها، وأصبح يوم الجمعة، وما زال المسلمون في حالة تأهُّب، حتى كان الظهر فصَلّى بهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ووعظهم، وأمرهم بالجد والجهاد، وأن لهم النصر ما صبروا، فأيقن الذين أرادوا الخروج أن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عازم عليه، وظلَّ الذين يمانعون فيه كارهين له لمعرفتهم بأن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، هو كارهٌ له أيضاً.

فلما كان العصر، صلّى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ثم دخل بيته بعدها وترك الناس وراءه يتحاورون، وكلٌّ فريق ما زال مصرّاً على رأيه، فقال سعد بن معاذ وأسيد بن حُضيْر، وكانا ممن أشارا بالتحصّن بالمدينة، للذين رأوا الخروج منها: «لقد قلتم لرسول الله ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج، وهو كارِهٌ له.. إنه يتلقى الأمر من السماء ينزل إليه، فردّوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوىً أو رأي فأطيعوه».

وما زالوا كذلك حتى رأوا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد خرج من بيته وهو يلبس درعه ويتقلّد سيفه، فأيقنوا عندئذٍ أنه قرّرَ الذهابَ لملاقاة العدو، فأقبل عليه الذين كانوا يلحُّون في الخروج وهم يقولون: «ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك، والأمر إلى الله ثم إليك».

فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد دعوتكم إلى هذا فأبيتم. وما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمَتَهُ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما آمركم به فاتبعوه، والنصر لكم إن شاء الله ما صبرتم». ودعا الرسولُ العظيمُ الناس إليه، فأمّرَ على المدينة ابن أم مكتوم يصلّي بالناس، ثم أمر أن يُرفَع النساء والأولاد فوق الحصون والآطام، حتى إذا فرغ من إعداد الجو الداخلي وتأهيله، عاد إلى الجيش يرتّب أوضاعه وفق تنظيم

دقيق، فَعَلَه في ألويةٍ ثلاثةٍ، ثم عهد إلى أسيد بن حُضير بلواء الأوس، وإلى الحبّاب بن المنذر بلواء الخزرج، وإلى مصعب بن عمير بلواء المهاجرين... ثم لمَّا فرغ من هذا الإعداد اعتلى ظهر فرسه، وخطب في الجيش، يبثّ فيه روح التضحية والفداء، ويبيِّن عظمةَ الجهاد في سبيل الله، وسُمُوَّ البسالة من أجل إعلاء الحق، وذكَّرهم بضرورة الحفاظ على النظام، والتقيّد بقواعد التنظيم والالتزام بالأوامر، لكي يكون الجيش قادراً على مواجهة عدوٍ عاتٍ، يفوقه عُدةً وعدداً، ولكي يفوّت عليه الفرصة التي استعدَّ لها خلال عام كامل، فيعيده إلى مكة أشتاتاً مبعثرة...

ولقد أفاض رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في التحدث والتشجيع، وشدَّ العزائم وشحذِ الهمم، وأبان كل ما يجب على جيش المسلمين القيام به. وبعد أن أبانَ، وبلّغَ، وأعلَمَ، دعا بالمسير على بركة الله...

وسار جيش المسلمين، وقوامه ألف مقاتل، جلُّهم من المشاة، ولا يزيد عدد الدارعين فيهم على مائة، وتقدم أمامهم السَّعدان: ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ـ يعدوان في الطليعة، حتى إذا بلغوا مكاناً يقال له «الشيخين»، أمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالتوقف وإقامة معسكر لهم هناك.

وراح الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما كان المسلمون يعدّون معسكرهم ـ يستعرض الخارجين معه فرداً، فرداً، فإذا به يجد بينهم بعض الغلمان، من حديثي السن، وقد طاب لهم حضور القتال والمشاركة فيه، فأبى عليهم ذلك، ودعاهم إلى الانصراف والعودة إلى ديارهم في المدينة، ولكنَّ أحدهم، وكان يدعى رافع بن خديج، أبت عليه نخوتُه العودة، فتقدم من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يرجوه البقاء، ويبيِّن له أنه يجيد الرماية، وقد خرج يريد أن يرميَ في سبيل الله، فأجازه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، راضياً، كارهاً ردَّه عن أمرٍ يريده الله سبحانه وتعالى...

ورأى سمرة بن جندب، أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد سمح لرفيقه رافعٍ بالبقاء، فدمعت عيناه وبكى.. وسأله مَن حوله عما يبكيه، فقالَ: كنت أصارع رافعاً فأغلبه، وقد أجازه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وردَّني!.. وأوصَلَ بعضُ الرجال أمره للنبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، فدعاه إليه وابتسم له، ودعا رافعاً، وأمرهما بالبقاء في صفوف المقاتلين..

وحلَّ ليلُ ذلك اليوم، فأعدَّ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بضع فرقٍ للتناوب على الحراسة، وجعل قيادة الحرس على الجيش لمحمد بن مسلمة، بينما أوكل إلى ذكوان بن قيس تولِّي أمر حراسته الخاصة، حتى إذا كان السَّحرُ هبَّ الجند من رقادهم، وتهيأوا للمسير، وكان موعد الصلاة قد حلَّ، فصلَّوا الفجر، ثم ساروا بقيادة رسولهم العظيم حتى بلغوا بستاناً ـ ما بين المدينة وجبل أُحد ـ يقال له «الشوط»، فإذا بحركة غريبة تدبُّ بين الصفوف، وتدعو الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، للتوقف حتى يرى ما الخبر، فإذا به يجد أنَّ عبدالله بن أبيّ بن سلول قد انتحى عن الجيش هو ورجاله، وكانوا يبلغون ثلاثمائة مقاتل، وأبى التقدم وقال: «لقد أطاعَ الغِلمانَ، وأبَى أن يقبل رأيي، فعلام نقتل أنفسنا ههنا»؟!..

وتقدّم منه عبدالله بن عمرو بن حرام، يحاول أن يثنيه عن عزمه ذاك، ويناشده ألاَّ يشق عصا الجماعة، وألاَّ يخذل القوم ونبيَّهم وهم في أدق مرحلة من مواجهة الأعداء، فما كان ردّ ابن أبيّ إلا التهكّم، وقال: «لو نعلم قتالاً لاتبعناكم».

وهكذا أبى ذلك المنافق إلاَّ العودة برجاله إلى المدينة، فرجع ساخراً، مستهزئاً..

ولكنَّ فعلته الشنيعة تلك لم تمرَّ بسلام، إذْ تركت أثرها في الجيش، وهو ما كان يتوقعه ابن أبيّ ويخطط له في الخفاء؛ إذ ما إن انصرف حتى ظهرت البلبلة بين الصفوف، وحدث بعض الاختلال في التنظيم.. وليت ذلك الأثر توقف عند هذا الحدّ، بل لقد دبت الذبذبة في بعض النفوس إلى درجةٍ همَّ معها بنو حارثة من الخزرج، وبنو سَلَمة من الأوس، أن يفعلوا مثلما فعل ابن أبيّ، لولا أن عصمهم الله سبحانه بالإيمان، فعادوا إلى لُحمة الصفّ، ووحدة المسيرة..

* * *

وتابع جيش المسلمين (وعدّته ألف مقاتل) حتى وصل إلى الجبل المعروف بكثرة مسالكه وشعابه، وبما فيه من أودية تقطعه، وبما هو عليه من شكل يبدو للناظر، وكأنه يلتف حول نفسه التفافاً، ليشكل وحدة قائمة مستقلة عن غيره من الجبال، فكانت من جراء ذلك تسميته بجبل أُحُد..

وكان أمام هذا الجبل سهل ضيق، وهو السهل الذي نزلت قريش عند أطرافه.. وربما اختارت هذا المكان لكثرة تعاريج أرضه وانحدارها في فجوات تشبه الحفر الكبيرة، بحيث

تصلح للاختفاء في حرب دفاعية، وتكون مناسبة تماماً لرمي الأعداء وقذفهم بالنبال والحراب..

أما رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقد اختار النزول في الشِّعب من أُحُد، على عُدوة الوادي (جانبه)، وعلى القرب من تلٍّ مشرف يقال له «جبل عينين».. ولم يلبث بعد هذا النزول أن عاد ووضع لجيشه التنظيم الأخير الذي يدخل به المعركة، وذلك عندما جعل الجبل من ورائه بحيث يشكل عاملاً طبيعياً للحماية من الخلف، وأقام خمسين من الرماة الأشداء على «جبل عينين»، يتخذونه مكاناً ثابتاً، ولا يبرحونه أبداً حتى يأتيهم الخبر.. وجعل الإمرة على هؤلاء الرماة بيد عبدالله بن جبير، بأنْ أوكل إليه مهمة أساسية، وهي حماية ظهور المسلمين عند القتال، وعدم تمكين العدو من التقدم نحوهم واقتحام مواقعهم، بما يرمونه به من نبالٍ وحرابٍ الأمر الذي يَحولُ بينه وبين أي هجومٍ عليهم..

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، يعوّل كثيراً على أولئك الرماة في تسيير المعركة، نظراً للدور الكبير الذي عهده إليهم، ومن أجل ذلك كانت أوامره المشدَّدة بألاَّ يبرحوا مكانهم على التلّ، أياً كان وضع القتال، وكيفما بدا لهم مسار المعركة، سواء بدا النصر للمسلمين، أو كان لأعدائهم...

وكان مما قاله لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «أيها الرُّماة، يا جند الله انضحوا عنا الخيل بالنُّبل كي لا يأتونا من خلفنا واثبتوا في أماكنكم إن كانت الحرب لنا أو علينا». وقال صلى الله عليه وآله وسلم لهم أيضاً: «إذا رأيتمونا تَخَطَّفُنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم».

وبعد أن فرغ من إعطاء الأمر للرُّماة وأعدّهم في مكانهم على التل المشرف، عاد إلى سائر الجيش، يسوِّي صفوفه، وينظّم أوضاعه، على شكل جعل كل مقاتل يعرف دوره ومكانه، وكيف يدخل المعركة ويواجه فيها عدوَّه الشرس.. حتى إذا أتمَّ التهيئة، ووقف قبالة ذلك الجيش، يتفحصه للمرة الأخيرة، فلما اطمأنَّ إلى تنظيمه، حَمَلَ سيفه بيده، وقال:

«من يأخذ هذا السيف بحقه»؟!.

فقالوا: وما حقه يا رسول الله؟.

قال: «أن يضرب به العدوَّ حتى ينحني».

وأرادَ الكثيرون أخذ السيف، ولكنهم تهيّبوا الموقف، إلاَّ أبا دُجانة، سِمّاك بن خرشة الأنصاري أخا بني ساعدة، فإنه تقدم من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: أنا آخذه يا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم!..

وكان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يعرف شجاعة أبي دجانة، وشدّته في القتال، فأعطاه السيف؛ وما إن صار بين يديه، حتى عصب أبو دجانة رأسه بعصبة حمراء، كان الناس يقولون عنها: إنها عَصْبَةُ الموت، ثم ابتعَدَ عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأخذ يتبختر في مشيته مُدِلاًّ بقوته وبأسه! ونظر إليه الرسول العظيم وهو يتبختر على تلك الحالة فقال: «إنها لمِشيةٌ يبغضها الله ورسوله إلا في مثل هذا الموضع».

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يستعدّون، كانت قريش من جانبها قد سوَّت هي الأخرى صفوفها، فأبقت تنظيمها على الشكل الذي خرجت به من مكة: على الميمنة خالد ابن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل؛ وظلَّ عبدالعِزّى طلحة بن طلحة يحمل لواءها. ثم تقدمت في السهل المنبسط أمام التل بجيشها اللجِبِ، وبفرسانها الأشداء، ومن معهم من المناصرين والعبيد، ومشت النسوة مع الجيش، يضربن بالدفوف، ويسرن تارة أمام الصفوف، وتارة على جوانبها أو من خلفها، وهنَّ يحرّضن على القتال، ويثرن الحمية..

وكانت هند بنتُ عتبة ـ زوجة أبي سفيان ـ على رأسهن، تزيدهن تحريضاً وإثارة، وهي تنشد، فيرددن معها:

وَيهاً بني عبدالدار   ويـهاً حُمـاةَ الـديـار

ضرباً بكلِّ بتَّار

ثم كانت هند تُغيّر أرجوزتها، وتبدِّلها بأخرى، فتقول هي والنساء:

نحنُ بناتُ طارقْ   نَمشي على النمارقْ[1]

إنْ تُقبلوا نُعانِقْ   ونفـرش النمـارقْ

أو تُدبروا نُفارِقْ   فِراق غيـر وامِقْ[2]

.. وتقدّمت قريش، وتقدم المسلمون، والتقى الجمعان، وصارا وجهاً لوجه!..

---

1 النمارق: الطنافس أو الوسائد.

2 الوامق: المحب المدلّه.

وأرادَ أبو سفيان المبادأة بتنفيذ ما اتُّفِق عليه من خطة، وهي أولاً التخذيل بين الأنصار والمهاجرين، فرفع صوته صارخاً: «يا معشر الأوس والخزرج، خلُّوا بيننا وبين بني أعمامنا وننصرف عنكم»...

ولكنَّ صراخه كان كعويل ذئابٍ تبدّده فيافي الصحراء.. إذ لم يكن رد المسلمين عليه إلاَّ السبَّةَ واللعنة، فرجع خاسئاً مذموماً.. عندها ظهر أبو عامر الأوسي يعدو على فرسه مسرعاً، وهو يريد أن يُري قريشاً كيف تكون الاستجابة لندائه، حتى إذا قارب جيش المسلمين، صاح بأبناء قومه السابقين من الأوس: «يا معشر الأوس! أنا أبو عامر، إليَّ إليَّ، فلا تتباطأوا...» فما كان جواب الأوس من المسلمين إلاَّ اللعن له، بل أخذوا ينادونه: «لا أنعمَ الله بك عيناً يا فاسق»!.. وخاب ظن هذا المخادع، وخذلته آماله الكاذبة، فولّى هارباً من وجوههم، وهو يولول بهذيان المجنون: «لقد أصاب قومي من بعدي شَرٌ»..

وظهر لقريش أن القتال وحدهُ باتَ سيّدَ الموقف.

فالمباغتة التي منّت بها النفس في هجوم على المدينة قد فشلت بفعل وصول أخبارها إلى المسلمين واتخاذهم وسائل الحيطة والحذر والاستعداد؛ وها هي ترى اليوم أن خطة التخذيل قد ذهبت أيضاً سدىً، لأنها رأت الأنصار يهزأون من أبي سفيان، وتدوّي ضحكاتهم عليه، الأمر الذي جعله يرتَدُّ إلى الوراء وهو يشعر وكأن الأرض تميد من تحته، تكاد تنشق لتبتلعه...

ثم ها هوذا الآخر، أبو عامر الأوسي، لا يلقى من قومه إلاَّ أشدَّ مما لقيه أبو سفيان: لعناتٍ تُخزي صاحبها وتَخذله..

وإزاء هذا الموقف، اندفع عكرمة بلوائه مبادئاً في القتال، وهو يعمل على أن يأخذ المسلمين من جناحهم في حركة التفاف سريعة، فإذا النبال تنهال على المهاجمين مثل وابلٍ من المطر وتمنعهم من التقدم؛ فحاول خالد بن الوليد أن يهجم من الميمنة، بدوره من حول عسكر المسلمين، فارتدت الخيول على أعقابها، وكادت ترمي مقاتليها عن ظهورها، لكثرة ما نزل عليها من نبال..

فما هي إلاَّ محاولات قام بها فرسان قريش، فإذا بها نذائر شؤوم وتخاذل، ولذا كانوا يرتدّون إلى مواقعهم، ويعودون إلى أماكنهم التي كانوا عليها عند بداية المواجهة..

واشتعل الحقد في قلوب المشركين، وهاج الغضب في نفوسهم، فتصوَّر البعض منهم أنهم يملكون من القوة والشجاعة، ما يجعلهم قادرين على البطش بأبطال عدوهم، إذا ما تقابلوا وإياهم وجهاً لوجه، فانبروا يطلبون المبارزة..

وكان أول من تقدّم يصيح في المسلمين: من يبارز؟ طلحة بن أبي طلحة، حامل اللواء، فينبري له علي بن أبي طالب (عليه السلام) في هجمة بطولية نادرة، وما إن وصل إليه، حتى عانقه سيفُه البتار بضربة واحدة فلقت هامَه، وهوت به إلى الأرض يمتزج لحمه ودمه بترابها..

وتعالت من جانب المسلمين هتافات التكبير والتوحيد، وكان أول المكبرين رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إذ سرَّه أنْ يرى ضربة الحق تفلق هامَ الباطل؛ وبقي عليّ (عليه السلام) في الساح ينتظر من يخرج إليه، فدفعت المنية عثمان بن أبي طلحة إلى النزول لملاقاة علي (عليه السلام)، فكان حظه من الموت مثل حظ أخيه طلحة، عندها برز أخوهما سعد يريد أن يقتل علياً بأخَويه، فاختلفا ضربتين، فنَبَتْ ضربةُ بن أبي طلحة، بينما أسقطته ضربة علي (عليه السلام) على الثرى، فرُؤي علي وهو ينصرف عنه، ولا يُجهِز عليه. ولقد سأله أصحابه عن السبب الذي حمله على ترك سعد بن أبي طلحة من غير أن يقضي عليه، فقال: «إنه استقبلني بعورته، وعلمت أن الله قد قتله»..

واندفع عددٌ آخر من المشركين يحملون لواءهم ويريدون الثأر لأهليهم من علي (عليه السلام)، فإذا بعلي يُلحِقهم بهم إلى جهنم وبئس المصير بضرباته الْبِكْرِ التي، بعد الدراسة والتأمل، كأنها كانت وحيدة، فريدة، تميَّزت عن سائر ضربات الأبطال..

وأين من يجرؤ من قريش بعدها على الاقتحام، وإلقاء نفسه في أتون الغضب للحق؟ إنَّ في الساحة سيّدَ الوغى، لا يحول ولا يزول.. إنه عليٌّ يقف صامتاً كالطود الشامخ، في تطلّعه نحو المشركين!.. يومىء إليهم بالنزول، فتنقضُّ نظراتُه عليهم لتُدِبَّ الرعبَ في قلوبهم، وتنتشل أفئدتهم من مكانها، فيجمدون في أماكنهم، ولا يجسرون حتى على التطلع إليه...

وينظر كِلابُ بن طلحة إلى هام أبيه، فيثور الغضب في نفسه، ويندفع نحو علي (عليه السلام) يريد قتاله، ويعرفه علي (عليه السلام) فيحيد من دربه، ويأبى أن يقتله بعدما قتل أباه وأعمامه، فينزل إليه الزبير بن العوام، كالأسد الهَصُور، فيثخنه بالجراح، ثم يهوي عليه بالضربة القاضية فيلقى مصيره المحتوم..

وراح من بعده، بعضُ المشركين، يبرزون إلى القتال، فيلاقيهم أبطال المسلمين، ويقضون عليهم واحداً تلو الآخر، حتى رأت قريش أن المبارزة لم تعد أبداً في صالحها، وأنها إن بقيت على تلك الحال فإنها سوف تفقد أشدَّاء أبطالها وأقواهم.. عندها صاح أبو سفيان بن حرب، قائد حملة الكفر، مهتاجاً، مسعوراً، يدعو جيشه إلى هجوم شامل.. فاندفع جيش الشِّرْك في هجمة عاتية، شرسة، تروم انتزاعَ المُهَج، وسَلْبَ الأنفس، ليتلقّاه جيش المسلمين، بقلوب ملؤها الإيمان، وبنفوسٍ ذُخرها الحق، فيصدَّ عنه القوة العاتية، ويدفع ذلك البلاءَ الشديد... وتختلط الجموع بعضُها ببعض، فلا تعود تُسمع إلاَّ قعقعة السيوف، وأصوات الضرب والطعان، ولا تُرى إلاَّ هامات تهوي، وسواعد تتطاير، ورؤوسٌ تتدحرج...

وكان، طبعاً، في قلب المعركة أبطالُ المسلمين، علي (عليه السلام) وحمزة وأبو دجانة (رضي الله عنهما) وغيرهم الكثيرون من الأنصار والمهاجرين، يذودون عن الحق في قتالٍ لا تكافؤ فيه، لا من حيث العتاد والسلاح، ولا من حيث العدد، ولكنهم لم يأبهوا لذلك كله، بل كانوا يُنزِلون بالأعداء أَشدَّ الضربات وأقسى الطعنات التي كان يعبّر عنها أبو دجانة، وهو يضرب يميناً وشمالاً!، وينشد غير مهموم ولا متكدِّر:

أنا الذي عاهدني خليلي

ونحن في السفح لدى النخيلِ

ألاَّ أقومَ الدهر في الكيّول[1]

أضربْ بسيف الله والرسولِ

وقد أبلى كذلك في القتال أسدُ الله، حمزة بن عبدالمطلب (رضي الله عنه)، أشَدَّ البلاء، وكان يكرّ على جيش المشركين، ويفرقهم بسيفه البتَّار ويدق أعناقهم دقّاً، ويلاحقهم زُرافاتٍ ووِحداناً، فيفرُّون أمامه فرارَ النّعاجِ من أسدٍ كاسر، إذ كان لا يقترب من أحدٍ إلاَّ وتكون الحياة حانقةً عليه تريده أن يذهب عنها، فيخلِّصها منه حمزة، ولا ينقضُّ على مشرك إلاَّ ويجعل روحه تفارق جسده..

1 الكيّول: مؤخرة الصف.

ثم يستمرُّ حمزة على تلك الحال، يحمل على المشركين فيهدّهم هدّاً، حتى انقضت ساعة من الوقت، كان العبد الحبشي المأجور «وحشي» يلاحقه خلالها من مكان إلى مكان، ومن قتال إلى قتال، وهو لا يجرؤ على التقدم منه، بل يراقبه من البعيد، حتى أمكنه، في ومضةٍ من ظهور الباطل على الحق، أن يرميه بحربته فتُصيبه، وتطاله يدُ النذالة والخيانة فيهوي في وسط المعركة يعانق الشهادة ويُخلَّد في جبين الدهر، سيِّدَ الشهداء، بمنطوق الوحي الإلهي على لسان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إذ قال يوم وقف يبكيه: «سيدُ الشهداء حمزةُ بن عبدالمطلب، ورجلٌ قال كلمة حق أمام سلطان جائر، فقتله».

ورآه المشركون، فراحوا يصيحون ويشيعون في الصفوف: «قتل حمزة بن عبدالمطلب.. قتل حمزة..».. وظنَّ المشركون أنهم بتلك الصيحات يخذلون المسلمين، ويفتُّون في عضدهم.. ولكن أنّى لهذا الظن الكاذب أن يحقق لهم ما يصبون إليه، وفي نفوس المسلمين قوة من الإيمان لا تزحزحها خسارة ولا يثنيها مصابٌ، مهما عظم!..

صحيحٌ أن حمزةَ بطل لا كالأبطال، وقد يعدُّ كألف من الرجال الأشداء، وفقدانه في حَمْأة الوغى يُفقد المسلمين قوةً لا يستهان بها، وليس من السهل أن يعوّضوها في هذا الموقف الحرج، ولكنَّ استشهاده كان دافعاً جديداً لهم في استزادة قوتهم والمزيد من اندفاعهم في القتال.. ولذا فقد رأى المشركون أن موت حمزة لم يوهن جيش عدوهم ولم يضعفه، كما توهموا، بل رأوا ذلك الجيش، يزداد شدة وإقداماً، ويستمر في الالتحام معهم، وكأنه يستمرىء اللقاء، ويتحدَّى الموت صارخاً فيه: أَنِ اقْدِمْ إننا هاهنا لصامدون ثابتون، لا يغيِّر من موقفنا شيء؛ فإن مات منا سَيِّدٌ، قام سَيِّدٌ!..

ويظل المسلمون على بطولاتهم ثابتين، حتى يمكنهم أن يظفروا بعدوهم، ويحققوا معجزة النصر فعلاً، قبل أن تُدرك الشمسُ كبدَ السماء؛ فينال الضعفُ من جيش عدوِّهم وتخور قوته، وتخبو في نفوس أصحابه روح القتال، فيدرك أنه غير قادر على متابعة المعركة، وتبدأ جحافله بالفرار، ويطلقون لخيولهم وجِمالهم العنان، تحملهم بعيداً عن ضربات المسلمين، وتحميهم من غضبهم اللاَّهب..

واندفع المشركون في الفِرار، يخلُّون وراءهم المتاع والسلاح، وأرزاقاً وفيرة وكثيرة احتملوها من مكة؛ بل لقد كانوا يتخلّون عن نسائهم، فيذهبن هارباتٍ في شِعاب الجبل حتى لا يقعن أسيرات ذليلات..

وأخذ المسلمون أيضاً يتابعون عدوَّهم في فراره بعيداً عن ساحة المعركة، ثم يعودون لأخذ الغنائم التي خلَّفها، ولجمعِ المتاع الذي تركه..

وكان الرماة المسلمون على «جبل عينين» يرقبون الغنائم التي يصيبُها أخوانهم، فقال بعضُهم لبعض: «الغنيمة أي قومُ الغنيمة، ظهر أصحابُكم، فما تنتظرون».

وصاح فيهم قائدهم عبدالله بن جبير: «ويحكم! أنسيتم ما أوصاكم به رسول الله ألاَّ تبرحوا مكانكم؟»

ولكنَّ الغنيمة قد أفقدتهم الصواب، فقالوا له: «لنأتينّ الناس ولنصيبنَّ من الغنيمة، فإن المشركين قد انهزموا، فما مُقامنا هاهنا»؟!.. واندفعوا يخلُّون مراكزهم، دون أن يمتثلوا لقائدهم الذي ثبت في مكانه ومعه نفرٌ قليلٌ كان أمرُ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عندهم فوق كل مكسبٍ أو مغنم..

ونَظَر خالد بن الوليد وراءه، فوجد أن الجبل قد خلا من الرماة إلاّ قليلاً منهم، وأن ظُهورَ المسلمين باتت مكشوفة، وقد انشغلوا بالغنيمة، فصاح في خيله من المشركين فجمعهم وحمل على المسلمين من خلفهم، وأعْمَلَ بهم سيفه تقتيلاً، فشتت قواهم، وبدَّد فرحتهم بالنصر..

ولما رأى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ما حلَّ بالمسلمين من مصيبة مفاجئة، ثبت في مكانه لا يتقدم ولا يتأخّر، بل بقي يرمي بالنبل حتى لم يبق معه منه شيء؛ ورآه رجل من المشركين اسمه ابنُ قميئة الليثي، فرماه بالحجارة، فأصيبت رباعيَّته الشريفة وشُجَّ في وجهه الكريم وكلُمت شفتُهُ ودخلت حلقتان من المِغْفَر الذي كان يستر به وجهه في وجنته، ثم تقدم نحوه يريد أن يقتله، فذبَّ عنه مصعب بن عمير الذي كان يحمل راية رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، راية العقاب، وما زال يستمرُّ في الذَّبِ عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، والعدو يهاجمه من كل ناحية وصوب حتى لم يعد يستطيع الصمود لكثرة ما نزف من دمه، فوقع على الأرض مضرَّجاً بالدم الزكي دفاعاً عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وكان علي بن أبي طالب (عليه السلام) قد وصل، فاندفع يكشف المشركين عن مصعب، ثم أخذ الراية ورفعها كي يراها المسلمون فلا يتفرقون، ولا يقتلهم التشتت، ولكن هيهات أن يبقى لهم حَوْلٌ أو تجتمع لهم قوة، وقد تفرّقت صفوفهم، وتمزقت

وحدتهم، فراحوا يقاتلون فُرادى لينجوا من براثن الموت، بعد أن كانوا لساعة يقاتلون مجتمعين بأمر ربهم، متراصّين متضامنين منتصرين..

ورجع ابن قميئةَ بعد أن قتل مصعب بن عمير، وهو يظن أنه قتل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فراح يصيح في قريش: «إني قتلت محمّداً...».

وتطايرت أصوات الابتهاج في صفوف المشركين، من كل جانب تنادي: أَلا إنّ محمداً قد قتل..

وعلى غفلة من قريش، وقد أعماها خبر مقتل مُحمَّد، دعا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أصحابه إليه، فاجتمع منهم حوله ما يقارب الثلاثين، يحمونه بالمُهج، ويذودون عنه بالنفوس.. فرمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه [= أي أحد طرفيها]، وأصيب طلحة بن عبيدالله في يده، فشُلَّت على الفور، كما أصيبتَ عين قتادة بن النعمان، حتى نزلت فوق وجنته..

وكان أبيّ بن خلف الجُمحي من المشركين، قد رأى النبيَّ، صلى الله عليه وآله وسلم، وعَرفَ أنه ما زال على قيد الحياة، فهجم عليه مثل وحشٍ كاسر، يريد أن يقتله وهو يصرخ مسعوراً: يا محمد! لا نجوتُ إن نجوتَ!.

وأراد أصحاب الرسول أن يقتلوه، ولكنَّه أَمَرَهم أن يخلُّوا بينه وبين عدوِّهِ، حتى إذا دنا من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، تناول حربة الحارث بن الصُمة ثم استقبله فطعنه في عنقه، ولكنَّ الحديد الذي كان يلبسه قد ردّ عنه القتل، وإنْ لم يحْمِه من جرح بسيط أصابَهُ، ما إن أحسَّ به، ولمس دمه حتى ولّى هارباً لا يلوي على شيء. وما كاد أن يصل إلى أصحابه حتى وقع عن فرسه، يَخورُ كما يخورُ الثور وهو يصيح: لقد قتلني محمد..

وظنَّ أصحابه أن التعب قد أنهكه، وأن ما يقوله عن بقاء محمد على قيد الحياة هو نوع من الهذيان، فاحتملوه وهم يشدون من عزمه، ويطمئنونه بأنَّ ما أصابه ليس سوى جرح صغير سوف لا يؤثّر عليه، ولكنَّه أجابهم بهَلع:

«لو كانت الضربة بربيعةَ أو مُضَرَ لقتلهم! أليس هو من قال لي: أنا أقتلك؟ فوالله لو بصق عليَّ بعد تلك المقالة لقتلني»..

وسأله بعض أصحابه، ممن احتملوه: ولكن متى قال لك ذلك؟.

فقال لهم: لقد كنت ألقى محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، في مكة فأتوعده وأقول له: إنَّ عندي عوداً أعلِّقه فوق رأسي ولسوف أقتلك به، فكان يردُّ عليَّ ويقول: بل أنا سأقتلك إن شاء الله.

ثم قال ابن خلفٍ بعد أن صمت قليلاً: وها هو اليوم، والله قد قتلني..

وعادَ أصحابه يطمئنونه، قائلين: ما بك بأس يا أُبيّ!...

ولكن أنَّى لابن خلف أن يطمئن، وهو يشعر في قرارة نفسه أنَّ اليأس، كل اليأس، يتغلغل في أعماقه ويشدّه إلى مهاوي الموت!..

وهل يعرف أولئك الأصحاب أو غيرهم أن الهلع والجزع من محمد بن عبدالله كانا يلاحقانه منذ بضع سنوات، وأنَّهُ ما قصد الخروج مع قومه إلاَّ وله مأربٌ وحيدٌ، وهو النيل من محمد، حتى يُذهِبَ عنه تلك المشاعر التي تقضُّ مضجعه، وتلازمه في كلّ حين؟!..

لا!.. إن أحداً لا يعرف مصيبته..

وها هو إحساس ذلك اللعين يصدقه، فيرى شَبَح الموت ماثلاً أمام عينيه، وبالفعل وفي اليوم التالي لأُحد، انقضّت المنية عليه تجتثُّ روحه من خلال جرحٍ بسيط أحْدثه رسولُ الله في عنقه، ولو وقع ذلك الجرح في عنق حشرة واهية لما نال منها شيئاً.. ولكنه توعُّدُ محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، له بأنه سيقتله بمشيئة الله، وهو توعُّدُ النبيِّ الصادق الذي لا يمكن أن يقع على نفس كافرة إلاَّ ويقتلها، مهما طالت المدة أو استدار الزمن بصاحبها، كما حصل مع أبيّ بن خلف..

كان إذن خبر مقتل محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، قد انتشر بين المشركين فأذهلهم، ولكنه ذهول الفرح والابتهاج بعدما زُيِّن لقريش أنها قدرت بعد سنين طويلة، أن تقضي على عدوها اللدود، الذي جاء يُطيح بمكانتها بين العرب، ويهدم كيان وجودها، ويسحق الآلهة والأرباب التي تعبد هي وآباؤها وأجدادها.

أما المسلمون، فقد كان وقع الخبر عليهم مميتاً.. كيف لا، وهم يجدون أنفسهم قد فقدوا في لحظاتٍ حاميَهُم، ومحرِّرَهم، ورائدَهم في الحياة!.. وكيف لا يزلزل الأرض بهم هذا الخبرُ زلزالاً شديداً والموت لا محالة ينتظرهم بعد محمد، صلى الله عليه وآله وسلم؟!..

وسرت في نفوسهم روح الهزيمة، وتفرقوا في الجبل، كلٌّ يلوذ بالفرار، أو يأوي إلى ناحية يختبىء بها، إلاَّ من عَصَمَ الله، أمثال علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وأبي دجانة، وأم

عمارة الأنصارية، وغيرهم، وغيرهم (رضي الله عنهم)، من الذين ثبتوا في المعركة، واستماتوا في الدفاع عن نبيِّهم استماتةً لا يُقهر صاحبُها أبداً.

فأمُّ عمارة الأنصارية، نسيبة بنت كعب المازنية، كانت تجوب أرض المعركة منذ الصباح وهي تحمل وعاء الماء، تدور به على المسلمين تسقي من استسقى. فلما انهزم المسلمون، ورأت ما حلَّ برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ألقت سقاءها واستلّت سيفاً، وراحت تقاتل وتذبُّ عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ببسالة نادرة، وجرأة لا توصف، حتى أذهلت المشركين، ولم يجدوا إلاَّ التكاثر سبيلاً للانقضاض عليها، فإذا بها تفرُّ منهم، ولكنَّ الجراح التي أصابتها، وقد زادت على ثلاثة عشر، كانت قد أوهنت قواها، وجعلتها تسقط شهيدة تتخبط بنزيف دمائها الزكية، فيلقي عليها رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نظرة الوداع ويدعو لها قائلاً: «رحمَك الله يا أختاه، إن موعدك الجنة.. والله ما التفتُّ يميناً وشمالاً إلاَّ ورأيتك تدافعين عني»..

إنها بطولة إسلامية، لا تقابلها إلاَّ تضحية إسلامية، فكما استماتت حورية الجنان أم عمارة، في الذبّ عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، هكذا فعل أبو دُجانة الذي يجعل من نفسه وجسمه ترساً للرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ينحني فوقه وقد أدار ظهره للمشركين تنزل عليه نبالهم، من غير أن ينثني عن موقفه أو يلتفت وراءه، إلى أن هوى من كثرةِ النبال فيُقرِئُ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، السلام وهو يقول: فِداك أبي وأمي، ليتني أموت وأحيا ألف مرة يا رسول الله لأحميك من عدوِّك اللئيم..

إيه أبا دجانة! ما أروع التضحية التي قدَّمت، والوفاء الذي خلَّدت!..

أَوَيظنون أن سهامهم نالت منك؟.

لا وحقِّكَ فأنت فوق كل سهام الغدر، وفوق كل نبال الحقد!..

لقد دافعت عن حياة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بتضحيتك الباهرة فقدمت للحياة كلِّها سببَ وجودها وبقائها ففرحت بكَ الحياة لتكون أنموذجاً للتضحية، ولم تقبل أن يأخذك الموت منها فعشت رغم كثرة سهام الأعداء بإذن منه تعالى الذي يهب الحياة لمن يشاء..

وأنتَ يا حبّاب بن المنذر، ما بالك، وأين هذه الغيبة وحبيبك محمدٌ في خطر؟!..

إن عُذرك أيها البطل المقدام، أن كثافة المشركين من حولك قد غَشيتِ الأنظار فلم تعد تراك إلاَّ وأنت تفرقهم أشتاتاً أشتاتاً، وتحوشهم كالغنم، وتدقُّ أعناقهم بسيفك، وتحمل عليهم وهم يفرون أمامك حتى تجلوهم بعيداً عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم...

ومثل هؤلاء الأبطال الصابرين، الذين قاتلوا دون رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، نفرٌ غيرهم كثير إذ قام كذلك زياد بن السكن في مجموعة من الأنصار، يدفعون عن النبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، بكل قوة وثبات، فيُقتلون رجلاً تلو رجلٍ، ويكون زياد آخرهم، فيقاتل حتى توهنه الجراح، وتسلب منه كل عزيمة، فيقع قرب نبيِّه الكريم، مستقبلاً الشهادة، فيشدُّهُ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، صوبه، ويوسِّده ركبتَيه الشريفتين إلى أن تفيض روحُه الطاهرة..

وانفلت أنس بن النّضْر، عمّ أنس بن مالك، من براثن الموت، ليبحث بين الشعاب عن إخوة له يلمُّ شملهم، ويأخذ بيدهم حتى يعودوا إلى المعركة ـ وكان أنس مثال المؤمن الصادق، المخلص، الذي يتفانى في عقيدته ويستميت في الدفاع عنها ـ فوجَد نفراً منهم قعوداً، وقد ألقوا ما بأيديهم، فتقدم منهم صارخاً: وما يَحْبِسُكُمْ ها هنا؟.

قالوا: لقد قُتل النبيّ...

قال: «فما تصنعون بالحياة من بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه».

ثم استقبل أنسُ الكافرين وقد أذهله خبر مقتل النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، فأخذ يقاتلهم حتى قتل، فوُجد بعد المعركة وبه سبعون ضربة وطعنة، وقد مُثِّل به، وشوِّهت خلقته، واختلطت معالمه، فما عرفته إلاَّ أخته، وقد أمكنها أن تستدلَّ عليه مِنْ خاتم كان في إصبعه.

إنها لأُمثولات كثيرة، وبطولات نادرة قدَّمها شهداء المسلمين يوم أُحُد... ومثل ذلك العطاء إن وجد لدى أحد الفريقين في معركة، لا يعود يجدي معه التساؤل: لمن كان النصر؟!.. لأنَّ هذا العطاء هو النصر بعينه، ولسوف يحقق لأصحابه إن عاجلاً أو آجلاً، المقاصد التي أعْطوا لأجلها طالما اقتدى غيرهم بهم، وانتفح بالروحية التي كانت فيهم..

وتلك هي الروحية التي قاتل فيها مثلَ إخوانه الآخرين، سعدُ بن الربيع، حتى لم يعد قادراً على حمل سيف أو رمح، أو أن يلقي بحجرٍ، فتوسَّدَ الثرى يصوِّب ناظريه إلى السماء، فإذا بإخوة له يرونه، فيسرعون لإسعافه، ولكنه يبادرهم بالسؤال: «أين رسول الله»؟.

سكتوا، ولم يجيبوه.. فعادَ يلحُّ عليهم، فلما رأوه يجود بنفسه، ولكي لا يستشهد وفي نفسه حرقة لمعرفة أخبار رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قالوا له: إن الرسول قد قتل يا سعد (كما ظنوا بعد أن شاعَ الخبر المقيت)..

فقال سعد: «أشهد أن محمداً قد بلغ رسالة ربه، فقاتلوا عن دينكم فإن الله حيٌ لا يموت»..

فأيُّ إيمان هذا، وأيةُ عقيدة تلك، إلاَّ أن تكون الإسلام، لكي تجعل سعداً وأمثاله يسمون بذلك الفكر النوراني الذي يرقى معارج السماء!..

وعلى غرار سعد، كان إيمان عبدالله بن جحش، إذ كانت أمنيته الوحيدة ألاَّ يموت إلاَّ شهيداً في سبيل الله.. وها هو يقاتل في أُحُدَ، قتال الأبطال الأشداء، فيلقى الشهادة التي وَعَدَ نفسه بها، لينتصر بها على أهل الخبث والحقد، الذين لم يكفهم قتله، بل دفعتهم قلوبهم الصدئة بالقسوة إلى التمثيل به أشنع تمثيل..

وهكذا تعاقب على الشهادة يوم أُحُد صحابةٌ أبرارٌ، حتى بلغوا نحواً من ثلاثين، منهم من لقي وجه ربّه عندما التقى الجمعان، ومنهم من جادَ بروحه دفاعاً عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعدما ضحَّى بحياته فداءً له، وهو يقول: «وجهي لوجهك الفداء، ونفسي لنفسك الوَفاء، وعليك سلام الله غيرَ مودَّع يا رسولَ الله»..

وإذا كانت الشهادة في سبيل الله رحمةً ونعمةً تفيضان من سَنَاهُ الجليل على عباده الصالحين، فإن تلك الرحمة والنعمة قد شملت أيضاً يوم أُحُد فئة من المسلمين، لم يكن قتالها دون قتال المستشهدين الأبرار. ولكنَّ الله سبحانه وتعالى لم يرزقها الشهادة، بل ادّخرها، وادَّخر قواها لمهمات أخرى في الإسلام، أو لمواقيت أخرى تُنالُ فيها تلك الشهادة بنفوس راضية مرضية، وهي الفئة التي ثبتت في المعركة، أو صدّت عن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، تدفع عنه البلاء، وتحمله بعيداً عن خطر الأعداء، حتى يكمل الله سبحانه دينه، ويتمّ على البشرية نعمته، يرضى لها الإسلام ديناً.

ولقد كان هؤلاء الذين ثبتوا في المعركة، بل الذين استشهدوا أيضاً، من الشاكرين لله تعالى، إذ ثباتهم واستشهادهم نعمة عليهم من الله تستحق الشكر، فنزلت بحقهم آياتٌ كريمة يُثيبهم فيها ربهم على شكرهم:

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ}[1].

وراحت الشمس يوم أُحُدْ تجنح نحو المغيب، فهدأ أُوار المعركة، وتوقف القتال، وكان التعب قد أخذ من الفريقين كلّ مأخذ، وأصابهم الإعياء، وهدّهم الجهاد أو التعب، فانبرى كل واحد إلى جَمْعِهِ يتّخذ فيه شأنه ويتدبّر أمره..

وأمَّا المسلمون، فراحوا يجمعون شتات شملهم، ويقبلون بعضُهُمْ على بعض، وجلُّهم لا يعرفون عن أمر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، شيئاً، لأنَّ الذين كانوا ينضمون إليه لم يكذّب أحدٌ منهم خبر قتله إطاعة لأمره، مخافة أن ترتدّ عليهم قريش وتغلبهم على أمرهم دونه.. وكان كعب بن مالك قد وجد جماعةً من إخوانه المسلمين يلتفّون بعضُهم حول بعض، فما إن قاربهم ـ وكان معه نفر قليل حتى ـ رأى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد عرفه من عينيه اللتين كانتا تُزهران تحت الخوذة التي يعتمرها، فنادى بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله».

فأشار إليه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يسكت.. ثم نهض المسلمون بالرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، نحو الشِّعْب ليحتموا به ولكي يركنوا إلى الراحة بعيداً عن قريش؛ وأراد الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يعتلي صخرة، فما استطاع لكثرة ما نزف من دمه الطاهر، فأسرع إليه طلحة بن عبيدالله، يعينه وينهض به حتى استوى عليها، يلتقط أنفاسه، ويصبر على آلامه وجراحه.. وأسرع علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى ماء فملأ منه وعاءه ثم جاء به رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يغسل الدم عن وجهه، ويسقيه، وكان أبو عبيدة بن الجراح قد نزع حلقتي المِغْفَر من وجنته الشريفة.

أجل، إن المسلمين في الشِّعب يلوذون بالسكوت، ويواسي بعضُهم بعضاً، بينما كانت الزغردات في معسكر المشركين تتعالى، والأهازيج تصدح، والطبول تدقّ ضربات الفرح والابتهاج...

لقد حقق المشركون النصر، وانتقموا ليوم بدر، وشفوا نفوسهم بمقتل محمد بن عبدالله كما زعموا، وبمقتل نفرٍ من أصحابه.. فلْيهنأوا بما وعَدهم به هُبَلْ، ولينعموا بما منّت عليهم أوثانهم وأصنامهم!..

---

1 سورة آل عمران، الآية: 144.

ودار عليهم الغِلمان والعبيد بالخمرة يترعون كؤوسها، وانبرت القيان يغنين لهم ويرقصن، بينما راحت النساء ترشُّ عليهم العطور، ويُقْبِلنَ على عناقهم جذِلاتٍ هانئاتٍ، إلاَّ بعضهنّ، فقد انطلقن مع هند بنت عتبة يُمثّلن بالقتلى من المسلمين، فَيَصْلِمْنَ آذانهم ويَجْدَعْنَ أنوفهم، ليتخذن منها قلائد وأقراطاً.. ووقفت هند، فوق هام حمزة سَيد الشهداء، ـ وما تركت الأفراح إلا بحثاً عنه ـ وهي تقهقه جَذلى، إذ أسكرها مرآه بدمه النازف، ولكنها لم تلبث إلاَّ قليلاً حتّى انقضّت عليه كوحشٍ كاسر، وبيدها السكين التي حملتها خصيصاً له من مكة، فتجدعَ أنفه وتَصْلِمَ أذنيه. ولم يَشْفِ غليلها هذا التقطيع والتمثيل، فأنشبت أظفارها في وجهه ثم عادت إلى السكين فبقرت بطنه وانتزعت كبده من جوفه، وأخذتها بيديها محنقة، ثم دفعتها إلى فمها مسعورة وراحت تلوكها وهي تحاول أن تمضغها وتزدردها، إلاَّ أنَّ الكبد الطاهر أبى الدخول إلى جوفها النجس، واضطرها لأن تلفظه كي يستريح في العراء حُرّاً من دَنس تلك الوحشة، آكِلةِ لحوم البشر..

وتفقَّد أبو سفيان زوجَه هنداً بين النسوة المحتفلات، فلم يجدها!..

لقد أرادها في تلك الساعة لكي ترافقه في بحثه عن محمدٍ بين القتلى.. فلمَّا لم يعثر عليها بين الجموع أدرك أين تكون، لأنه كان يعرف مقدار حقدها على حمزة بن عبدالمطلب، قاتلِ أبيها وأخيها، ويعرف ما دبّرت من أمر العبد الحبشي «وحشي» للغدر به، فقال في نفسه:

«لا شك بأن هنداً هناك»!..

واندفع أبو سفيان إلى مكان المعركة، وتبعه الحليسُ بن زبان أخو بني الحارث بن عبدَمِناةَ وهو يومئذٍ سيّد الأحابيش، وهناك شاهدا هنداً مع العبد «وحشي». ولمَّا نظرَ أبو سفيان إلى يديها وفمها وقد غطتها الدماءُ، أمر العبد أن يقودها إلى المعسكر مع النسوة الأخريات، وما إن بَعُدْنَ، وكان ما زال في مكانه، حتى أمسك برمحه وراح يضرب به شِدْقَ حمزة ويقول: «ذُقْ عَقَقْ.. فهذه مجافاة الأهل وعقوقهم»...

ونظر الحليس إلى أبي سفيان منكراً ما يفعله فقال له: وكيف تفعل هذا يا أبا سفيان وقد نهيت أنت يوم مررت بالأبواء عن نبش قبر آمنة بنت وهب؟.

فقال أبو سفيان: لقد أبيتُ تلك الفعلة حتى لا تكون سنَّة عند العرب.

فقال له الحليس، الذكيُّ الداهية: بل لقد حرصت على قبوركم من أعدائكم!.. أما قلت ذلك اليوم لمن أرادوا النبش: لا تفعلوا ذلك، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وبنو خزاعة موتانا؟.

فقال له أبو سفيان وقد خجل أمام الرجل مما فعله بجثة حمزة: «ويْحَكَ اكتمها عنِّي فإنها كانت زلَّة».

وعاد أبو سفيان من جديد يبحث عن جثة محمد بن عبدالله، فلما أعياه التفتيش ولم يجده، خامره الشك في أن يكون قد قتل، ولكنه أراد أن يقف على حقيقة الأمر، فانطلق ناحية الشِّعْبِ حيث قبع المسلمون، فنادى من بعيد، وهو يختبىء وراء صخرة خوفاً من أن يرشقه المسلمون بالنبال:

«أفيكُمْ محمد، أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم ابن الخطاب»؟.

ولم يسمع جواباً على ندائه، إذ كان الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، قد نهى أصحابه أن يجيبوه، فظنَّ أن من ذكرهم قد هَووا في المعركة، فعادَ يصرخ بصوت عالٍ: «أمّا هؤلاء، فقد قتلوا»!.

فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه، فردَّ عليه قائلاً: كذبت يا عدو الله، أبقى الله لك ما يخزيك».

وكأنما أراد أن يردَّ على شتيمة عمر له، فقال مرتجزاً:

نَعِمتْ فِعالْ.. إن الحرب سجالْ... أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ!..

فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: قولوا له: «الله أعْلى وأجلّ».

فقال أبو سفيان: «إنّ لنا العُزَّى، ولا عُزَّى لكم»..

فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا له: الله مولانا ولا مَولى لكم».

فقال أبو سفيان: «يومٌ بيومِ بَدْر».

فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا له لا سَواء! قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»...

عندها صاح أبو سفيان: «إن موعدكم بدرٌ للعام القابل».

فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا له: هو بيننا وبينكم موعد».

وكأنما خاف أبو سفيان، قبل أن ينصرف، أن يتهمه المسلمون بأنه هو الذي حرَّض على التمثيل بالقتلى، فأراد أن يدفع عنه التهمة فصاح يقول:

«إنه قد كان في قتلاكم مُثْلةٌ، فإني لم آمر بها ولم تَسُؤني!...».

ثُم عاد أبو سفيان إلى قومه، فوجدهم قد دفنوا موتاهم، وتأهبوا للرحيل، فأعطى إشارة المسير، وانطلق المشركون من أُحد، وما زالت الفرحة تعمر صفوفهم، والأغاريد تسبق حوافر خيولهم، حتى بَعُدوا بعض المسافة، والمسلمون يرقبون ذهابهم، ولكنهم لا يأمنون غدرهم وخبثهم، ولذلك بعث رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، علي بن أبي طالب (عليه السلام) يرقب مسيرتهم، ويقف على وجهتهم، بعد أن قال له: «اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون.. فإن كانوا قد جَنبوا الخيل، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة». وانطلق عليّ في أثرهم، فرآهم قد خلّوا الخيل، واعتلوا ظهور الإبل، وقد وجَّهوا رحالهم نحو مكة، فعاد يخبر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما رأى، فاطمأنَّ رسول الله على مدينته، وقال بلهجة الصادق الواثق: «والذي نفسي بيده، لئن أرادوا المدينة لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأُناجزَنَّهم».

وذهب جيش الشِّرك وانجلى النَّقْعُ [= الغُبار] من أجواء أُحُد.. فهدأ روع المسلمين، وعادت إليهم أواصر اللُّحمة فكان لا بد لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يعظهم من غير توبيخ أو تأنيب، فطلب إليهم أن يستووا وراءه صفوفاً حتى يُثني على ربِّه عزَّ وجلَّ، ثم رفع يديه وناظريه إلى السماء وراح يدعو الله سبحانه في ابتهال جليل، وهو يقول:

«اللَّهم لك الحمدُ كلُّه، اللَّهم لا قابضَ لما بَسطتَ، ولا باسطَ لما قَبضتَ، ولا هادي لما أضللتَ، ولا مُضِلَّ لمن هَديتَ، ولا مُعطيَ لمن منعت ولا مانعَ لمن أَعطيتَ، ولا مُقرِّب لما باعدتَ ولا مُبعِّد لما قرَّبت. اللَّهم ابسُط علينا من بركاتِك ورحمتك وفَضلِك ورزقك. اللّهم إني أسألك النعيمَ المقيمَ الذي لا يحولُ ولا يزول. اللّهم أحْيِنَا مُسلمينَ وتوفَّنا مُسلمينَ وألحقْنا بالصَّالحين غير خزايا ولا مَفتونين. اللّهم قاتلِ الكفرة الذين يُكذِّبون رُسلَكَ ويَصدُّون عن سبيلِكَ، واجعل عليهم رِجزكَ وعذابك إنك سميع، قريب، مجيب يا رب العالمين».

فلما انتهى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، من دعائه، والمسلمون يرددون من ورائه، كان الألم يعتصرهم، فإذا بالغالبية الساحقة منهم تبكي ولكنه بكاء الفرج النابع من الإيمان الذي يشد القلوب، وبكاء الندم ممن خالفوا أمر نبيهم وبان لهم الخطأ الفادح الذي ارتكبوه، فتقدموا من النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد ذلك يعتذرون، ويسألون ربّهم المغفرة. وكان النبيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، لا يرد معتذراً، ولا يُجافي خاطئاً، بل يطلب منهم الابتهالَ إلى الله تعالى، والثناء عليه عزَّ وجلَّ عسى أن يرحمهم ولا يُنزل غضبه بهم...

وعادَ الصحابة الأجلّاء يمدّون رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما يحتاج من إسعافات أولية، ثم ينزلون على أمره فيلحقونه إلى مكان المعركة، كي يلقي نظرة الوداع على المستشهدين الأبرار..

وطاف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في ذلك المكان يرقب بأمّ العين ما حلَّ بالمسلمين من نكبة وما نزل بهم من مُصاب، حتى بلغ عمَّه حمزة، فوجده قد مُثِّل به أشنعَ تمثيل، فحزن لمرآه حزناً شديداً وبلغ الغيظ منه كلَّ مبلغ، فقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «ما وقفت موقفاً أغيظ إليَّ من هذا الموقف».. وقال أيضاً، صلى الله عليه وآله وسلم: «لولا أن تجزع صَفيّةُ، وتكون سُنّةً من بعدي، ما غُيِّب [= دُفِن في التراب] حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير».. وذرفت عيناه الدموع يبكي حمزة أسدَ الله وسيّد الشهداء، فبكى المسلمون معه ذلك البطل المسجّى الذي اختلط دمُه الزكي بالتراب..

وتهادى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، في مشيته يحصي القتلى، فوقف على مصعب بن عمير صريعاً في بُرْدِه، فنعاه لمن حولَه فقال: «لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرقُّ حُلّةً منك ولا أحسن لِمَّةً [= الشَّعْرُ حين يتجاوز شحمة الأُذُن]، ثم أنت أشعث الرأس في بُرده».

كما مرَّ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على عمرو بن الجموح، فقال: «كأني أراك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة» ثم أمر أن يدفن عمرو وابن أخيه ومولى لهم في قبر واحد. وكان عمرو قد جاء الرسول قبل أحد، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ وكان أعرج. فقال الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم: نعم.. وبالفعل كان من المستشهدين يوم أحد.

وتدفقت الآلام من نفس الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لتلك المشاهد القاسية، فلم يقدر على حبسها؛ بل لقد انعكست تلك الآلام مجسّدة في جراح جسده الشريف، التي عاد بعضُها ينزف، ويثور منه الوجع حتى يمنعه، صلى الله عليه وآله وسلم، من المسير، فيقف مودعاً الشهداء، ويقول: «زمِّلوهم (= لُفُّوهم) بدمائهم، فإنه ليس أحد يُكْلَمُ [= يُجْرَحُ] في الله إلاَّ ويبعثه الله يوم القيامة وجرحه يُدْمى، اللونُ لونُ الدم، والريحُ ريحُ المِسك». ثم قرأ، صلى الله عليه وآله وسلم:

{مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً}[1].

ثم قال: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأْتوهم وزوروهم والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلا ردوا (عليه السلام)». وكان قتلى المسلمين قد بلغ عددهم في أُحُد نحواً من سبعين شهيداً، منهم أربعة من المهاجرين، والآخرون من الأنصار، بينما لم يزد عدد قتلى المشركين على أربعة وعشرين قتيلاً غير الجرحى الكثيرين من الفريقين.

نعم، كان طلب الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الصحابة أن يلقُّوا أجساد الشهداء بدمائهم وجراحهم وأن يدفنوهم بعد أن ينظروا أكثرهم جمعاً للقرآن فيجعلوه أمام أصحابه في القبر.. ثم جاؤوه بفرسه، فركب ودعا بالعودة إلى المدينة، فساروا من ورائه، بعد أن حَمل بعضُهم قتلاهم يريدون أن يدفنوهم في المدينة...

ووصَل جيش المسلمين إلى أبواب المدينة، فإذا الناس بالانتظار، وقد جاءتهم أخبار المعركة، فراحت النساء تبكي القتلى، وتندب الهزيمة، ومعهنَّ الأولاد يجهشون في البكاء... وتدفقت تلك الجموع ـ المنتظرة ـ نحو رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، تتلهف لرؤيته، وقد نسيت النساء أحزانهن، وشُغِلن عن أنفسهن بمرأى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد بدا عليه الجهد والتعب... وهانت لمرآه عليهن المصيبة، فقالت أم عامر الأشهلية تعبِّر عن مشاعر الثكالى والحزانى: «كل مصيبة بعدك جلَل يا رسول الله». وتقدمت نحوه أم سعد بن معاذ، فقال لها الرسول العظيم: «أبشري وبشري أهليهم يا أم سعد، إن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً»... فتقول أم سعد: «رضينا برسول الله سالماً، وليس من يبكي عليهم بعد هذا». ولكنها عادت تسأل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الدعاء لذوي قرباهم وقالت: ادعُ لمن خلَّفوا يا رسول الله»... فقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «اللَّهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم وأحسن الخُلف على من خلَّفوا».

ثم أقبلت صفية بنت عبدالمطلب، عمة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، تريد حمزة (أخاها لأبيها وأمها) لأنها كانت تعتقد أنه بين القتلى المحمولين إلى المدينة فأمر رسول

---

1 سورة الأحزاب، الآية: 23.

الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الزبير أن يدركها، فجاءها يقول لها: اهدئي يا أماه، فأبت عليه وقالت:

«لقد بلغني أنه قد مُثِّل بأخي وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتَسِبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله»... ولكنَّ ابنها الزبير عاد يهدِّىء خاطرها، وأبدى لها بأن خاله حمزة ليس بين القتلى، بل دفن مع ابن أخته عبدالله بن جحش ومصعب بن عمير في مكان واحد حيث قتلوا.

ونظَر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى النساء وقد تجمَّعن حلقات، يندبن قتلاهنَّ، وهنَّ والهات، وعلى أحبائهن باكيات، فتأثر للمشهد المؤلم، وافتقد نساء بني هاشم يبكين شهيدهم حمزة، فقال، صلى الله عليه وآله وسلم، والدموع تترقرق في عَينيه: «أين البواكي على حمزة» فتخلى الجميع عن قتلاهن واجتمعن في حلقة واحدة يبكين على حمزة، ولشدة ما أثّر فيه هذا المشهد، ولكثرة ما رأى من الفواجع، أمر أن يعيدوا القتلى ويدفنوهم في أرض المعركة حيث صرعوا رغبة منه في تخفيف أجواء الأحزان، وتهدئة الخواطر، ومن ثمَّ لمنع ما يراه من فجيعه تنمُّ عن جاهلية يأنفها الإسلام، إذ كانت بعض النسوة يجززن شعورهن، ويخدشن وجوههن، ويشققن جيوبهنَّ، وهذه كلها فعال منكرة، لا تجدي المحزونين فتيلاً، ولا تغيّر من القدر كثيراً ولا قليلاً. إلاَّ أنه لم يمنع عليهنَّ البكاء، لما في ذرف الدموع من تنفيس عن المشاعر، وتفريج عن النفوس، فقال محذراً من العويل والصراخ: «البكاء من الرحمن والصُّراخ من الشيطان» وتداولَ الناسُ قولَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فهدأت النسوة وخَفَتَ صُراخهنَّ، وهدأت ولولتهن، ورحن يبكين مفارقاتٍ، صابرات...

وبعد أن فترت حمَّى المصيبة قليلاً، أمر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يتفرق الجميع وأن يعودوا إلى منازلهم، ليُخلد المحاربون إلى الراحة وليداوى الجرحى. فامتثلوا لأوامره راضين، وانصرفوا يوقدون النيران لغلي الماء وتضميد الجراح، أو إعداد الطعام للمتعبين والجائعين...

ومضى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى بيته، وبجانبه السَّعْدان[1]، فلما أرادَ أن ينزل عن فرسه، شعر أنه مرهق، فتقدم منه الصاحبان فنزل ومشى يتوكأ على كتفيهما، ثم دخل منزله واستلقى على فراشه بادي الإعياء.

---

[1] السَّعْدانِ هما: سعد بن عبادة وسعد بن أبي وقّاص.

ولمَّا هدأ رَوْعُه قليلاً طلب أن يذهب كل من جاؤوا في أثره لكي يستريحوا ويخلدوا إلى سكينةٍ هم بأمسّ الحاجة إليها بعد الذي عانوه..

وما أن خلا بيت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى اندفعت نحوه نساؤه وابنته فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)، يرتمين على أقدامه، ويهنئن أنفسهن بعودته سالماً...

واحتضنته فاطمة بين ذراعيها، باكية تمسح دموعها برأسه الشريف، ثم أخذت تنظّف جروحه من الدم فرأت أن تلك الجروح لا يرقَأُ [= ينقطع] دمها، فأتت بقطعة من الحصير، وأحرقتها ثم أخذت تجعل الرمادَ فوق الجروح ليستمسك الدم النازف.

وأخلدَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الراحة، حتى أقبل المغرب، وأذّن بلال في الناس، فخرج، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى المسجد يصلّي بهم، وظلَّ بينهم إلى ما بعد العشاء، ثم عادَ إلى داره، وبرفقته بعض وجوه الصحابة الأبرار، الذين أبوا إلاَّ السَّهر على بابه، يحرسونه، ويذودون عنه شرورَ الأعداء وغدر اللؤماء.

* * *

ظِلال آثار غَزوَة أُحُد

خفايا السرائر، هي خفايا قلوب ونفوس لا يقف على مكنوناتها إلاَّ رب العالمين وحده. فالإنسان يتصرف في الحياة، ويسلك دروبها وفق ما ينبع من ذاته، ووفق عوامل عديدة ومتنوعة تبعثه إلى ما يُشاهَدُ في تصرفاته وفي جميع حركاته وسكناته..

ولكننا ـ في أحيان كثيرة ـ نرى أن الإنسان قد يصبح أسير ظرف معين يعترضه، فيقف أمامه متحيّراً، متردداً لا يعرف ماذا يفعل، ثم لا يلبث أن يندفع إليه بكل جوارحه، وهو لا يدري ما القوى، ولا العوامل التي أثّرت فيه وجعلته يتقبَّل هذا الأمر الذي يواجهه وينجذب إليه، دونما إرادة، وإعمال فكر.

إن مثل هذا الانجذاب الظرفي، هو الذي يجعل بعض الناس يقدمون على أفعال لا يريدونها في الواقع، أو يقومون بتصرفات لا يرضون عنها في الحقيقة.. ولكنهم ـ عند مواجهة الانفعالات والمشاعر، يفقدون كل قدرة على الإدراك والتمييز ويُقبلون على تلك الأفعال بكل جوارحهم.. ثم لا يلبثون، بعد أن يهدأ الانفعال، ويذهب الانجذاب ـ أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية، نتيجة لعودة الوعي لهم، فيجدون أن ما قاموا به كان غريباً عنهم، فيحزنون لذلك ويندمون، ولكن ما نفع ندم يكون أوانُه قد فات، وما حصل يكون قد حصل؟!..

وهكذا، فإننا إذا تتبعنا الوقائع التي سبقت أُحُداً، ورافقنا الأحداث التي جرت أثناءها، لوجدنا أنها قد أظلَّها كثيرٌ من المعاني، وامتلأت بعديد من الصور، تبعاً لما جَبِلت به القلوب، أو انجذبت إليه النفوس في تلك الواقعة...

فمنذ أن اتضح للمسلمين مجيء قريش لتغزوهم في عقر دارهم، تعدَّدت بينهم الآراء، وكثرت المحاورات.. فكان بينهم من دعا إلى البقاء داخل بلدهم والتحصّن فيه، فإذا ما هاجمهم العدو أوقعوا به الخسائر الفادحة، لما يتعرّض له المهاجم عادةً من أخطار يُعدُّها له المُدافع... بينما كانت الآراء الغالبةُ مع الخروجِ لملاقاة العدو، بعيداً عن البلد لأن في ذلك موقفاً أعزَّ لهم، وأشدَّ بأساً في المواجهة..

ووقف الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بين الداعين بالتحصُّن وبين المُظاهِرين على الخروج، يقلِّب آراءهم على مختلف وجوهها، فرأى أن الخروج قد لا يكون مأمون العاقبة،

نظراً لكثرة عدد العدو، وتنوع سلاحه وعدّته، فكَرِهَ ذلك الخروج، وصرَّح بكراهيته له، إلاَّ أن الأكثرية ظلت على حماستها، ولم تقنع برأي الأقلّية... هنا أراد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يثبت للمسلمين، وللناس أجمعين، أن نظامه لا يقوم على القَسْر وفرض الرأي ـ تماماً، كما أنه لا إكراه في الدين ـ وأن ما تقرره الأكثرية في مثل هذه المناسبة الحربية يجب اعتماده حتى يتبين خَطَلُهُ من صحته وإن كان في ذلك تجربة قد تؤدي إلى نتائج لا تتوقعها الأكثرية، أو لا تريدها في الحقيقة.. ولذا فقد أبى، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يتردَّدَ في اتخاذ القرار، فترك الناس في جدالهم ومحاورتهم، ثم ذهبَ إلى داره فاستعدَّ للقتال، وظهر أمام الأعين، متأهباً للخروج. فكان ما فعله الرسول الأعظم أمراً طبيعياً، إذ لا يمكن أن يتردد الرسول الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، في المواقف الحاسمة عن اتخاذ القرار النهائي الذي يحسم الجدل ولا يمكن أن يكون في مواقفه أيّ تردد أو حيرة كي لا يرى الناس في خطواته الشريفة مظاهرَ ضعف قد تقود إلى الخذلان، وحاشا لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يكون نهجه إلا الصواب، وأن يكون دأبه إلا الحقيقة، وأن يكون هداه إلا إلى الصلاح.. فقد حباه الله سبحانه وتعالى بقدرة التفكر والتبصّر، ومنحه مَلَكَة توقُّع الصحيح من الباطل.. ولذلك أظهر كراهيته للخروج مبدئياً، ثم وافق عليه أخيراً لأنه أراد أن يكون للمسلمين، في بداية تأسيس قوة الإسلام ومِنْعَته، بناءٌ ذاتي قوي، أساسه اتفاق كلمتهم بعد كل شُورى وحوار فيما بينهم، ليصيروا في النهاية إلى وحدة الرأي واجتماع الكلمة...

والإسلام في حقيقته لا يتخذ في أمر من أمور الحياة موقفاً يمليه ظرف معين، ثم يعود فيتخذ موقفاً مناهضاً في ظرف آخر مشابه... بل يستنُّ القاعدة التي تدوم على طول الزمان والتي تصلح لكل مكان...

وإذا كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قادراً على فرض السُّنن، وإرساء القواعد، فإن الإسلام يحتاج في كل وقت إلى أصحاب فكر عميق، وإلى ذوي رؤية صادقة، وقدرة على القيادة الحقة..

ومتى وجد هؤلاء، وكان لهم العزم الثابت، فإنهم يحملون لواء شعلة الحق، بعد التوكل على الله، ليَلِجوا شتى الأبواب، وينزلوا سائر الميادين في الحياة، وليأخذوا بيد الإنسانية إلى ما يحقق نفعَها، ويؤمن لها الخير والسعادة..

وهكذا فإن محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، قد ظهر متأهباً للخروج، بعد أن فكر وقدَّر، وبعد أن عزم وتوكَّل، تطبيقاً لهدفين أساسيين:

ـ ترسيخ نظام وحدة الكلمة ووحدة الرأي، وإرساء قواعد ثابتة لا تتزعزع، من حيث العمل برأي الأكثرية في مثل هذا الموقف.

ـ إنفاذ أوامر الله: «فإذا عزمت فتوكل على الله».

وإن في هذين الهدفين، ما يجعل ظروف واحد منهما تهيِّىء لما هو أبعد منها بكثير، أي لما يتعلق بوحدة كلمة المسلمين عامةً في مستقبل أيامهم...

ثم تتلاحق بعد ذلك الظروف الكثيرة التي تدلّ على خفايا القلوب والنيات، ويتراءى فيها ما يكون لتلك الخفايا من تأثير على وحدة الصف، وتعاقب الأحداث...

فقد بدأ جيش المسلمين وقت خروجه وعدده ألف مقاتل، جمعاً ملتئماً، وبرز في مطلع مسيرته وحدةً متراصّةً متكاتفة؛ إلاَّ أن ذلك كله لم يكن سوى ظاهِرِ حالِهِ فقط؛ إذ ما كاد يقطع بعض الطريق، حتى تكشَّفت نيّات المنافقين بين صفوفه، وظهرت حقيقة نفوسهم المريضة، التي استبطنت الخداع والمراوغة.. فقد افتَعَلَ زعيم المنافقين، عبدالله بن أبيّ مشكلة أدت إلى إثارة الخلاف، وإلى إشاعة الشقاق والفرقة، حين توقف فجأة وأمر جماعته ـ وكانوا يؤلفون ثلث الجيش ـ بالرجوع.

وتوقف جيش المسلمين بأجمعه، ليرى ما الذي دفع ابن أبيّ ليفعل ذلك، وراحوا يسأل بعضُهُم بعضاً، فما وجدوا سبباً يدعوه للرجوع، لأنه لم تبدر من أحد منهم، بادرةٌ تسيء إليه أو إلى أحد من جماعته.

ووقف الجيش يرقب ابن أبيّ حال رجوعه، فإذا بَلْبَلَةٌ جديدةٌ تدبُّ بين صفوفه، وإذا طائفتان أخريان ـ بنو حارثة وبنو سلمة ـ يتشاوران فيما بينهما بالرجوع للالتحاق بذلك المنافق. ولكنهما لم يطل بهما التشاور، إذْ تدخلت إرادة الله سبحانه، في تلك اللحظة، ومنعتهما من اقتراف الإثم الذي اقترفه رأس النفاق، لأن أفراد الطائفتين كانوا من المؤمنين، والله تعالى هو وليُّ المؤمنين. وقد ذكر ما كان من أَمْرِ هاتين الطائفتين في كتابه العزيز حين حكى عن تلك المعركة، فقال عزَّ من قائل:

{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[1].

---

1 سورة آل عمران، الآية: 122.

فقد كاد ابن أُبيّ أن يُصدِّع البنيان المرصوص ويقوِّض أركانه، غير أن مشيئة الله تعالى قدْ فوَّتت عليه تحقيق نيّاته الخبيثة، فعاد الورع إلى نفوس جيش المسلمين، وعاد هذا الجيش يتابع مسيرته للقاء العدو الظالم.. ولكنَّ وضعه ظلَّ مترجرجاً، ولُحْمَتَه باتت مضعضعة، الأمر الذي جعله في حال تشبه، إلى حد بعيد، حال قريش عند مجيئها إلى معركة بَدْر حين تخلَّف عنها في الطريق بنو زهرة، وبنو عديّ..

وإذا كان رجوع المنافقين من بين صفوف المسلمين يمكن اعتباره خيراً على المسلمين، بل ومن الأفضل أن يحصل قبل ملاقاة العدو، حتى لا يكون الشرُّ أشدَّ، والخطبُ أفدحَ حين وقوع المعركة وحين ينفضُّ المنافقون من بين الصفوف فتكون المفاجأة على المقاتلين مهولةً، مما يؤثر على كيانهم المادي والمعنوي، ويجعل العدو يقوى في موقفه... نعم إذا كان في رجوع أولئك المنافقين خيرٌ للمسلمين، فإن ذلك الرجوع يظل بحد ذاته ظاهرة من ظواهر إضعاف جيش المسلمين، وبادرة من بوادر الهزيمة المدبرة، إذ أوشكت العَدْوى أن تسريَ في صفوف الجيش، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أنقذ الموقف وأظهر المنافقين على حقيقتهم قبل فوات الأوان.

وتتعاقب ظلالُ ظواهر ما سبق وَقْعَة أُحُدٍ، فيبرز أكثرها أهمية وأشدُّها أثراً على مسار القتال ونتائجه، متجلياً في مخالفة أوامر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، تلك المخالفة الفادحة التي ارتكبها الرماة ساعة تخلُّوا عن موقعهم، واندفعوا وراء الغنيمة، رغم أن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، كان قد شدَّد عليهم ألاَّ يبارحوا أماكنهم حتى ولو رأوا العدو يقتل إخوانهم!..

ففي مثل هذا التصرف من الرماة ما يدل على التنكر للجندية التي خُرِّجوا فيها، وما يباعدهم عن روحية المعارك ومواجهة الأعداء!.. فإذا كانت إطاعة الأوامر قوام الجندية، وجوهرَ نظامها، فإن اختلال هذا النظام يؤدي إلى فقدان الجندية كل مقوماتها، وفي مقدمتها إخلاص الجندي وتضحيته في سبيل القضية التي من أجلها يدافع أو يقاتل.

من هنا كان من بديهيات الأمور، ومن أولى واجبات الجندي إطاعة أوامر قادته ورؤسائه.. وبالمقابل فإن مهمة القادة والرؤساء، تكون في الدرجة الأولى التخطيط الحكيم للقتال،

وحسن إدارة المعركة، وما يتعلق بكل ذلك من اعتماد أفضل الوسائل وانتقاء أحسن الأساليب، الكفيلة بتحقيق النصر..

ولكن!.. أية فائدة تبقى للخطة مهما كانت جذرية، وأي نفع يظل للوسائل والأساليب مهما كانت سليمة، بل أنّى يكون للقادة والرؤساء من مركز أو سلطة، إذا انعدمت الطاعة بين الجنود، وتحلَّلوا من تنفيذ الأوامر؟! ففي مثل هذه الحالة الخطيرة، تكون النتيجة معروفة مقدماً، وهي الهزيمة لا محالة...

وما حدث بالضبط في معركة أحُد عندما خرج الرماة على خطة القائد الأعلى، الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، هو أنهم عصوا أوامر قائد كتيبتهم عبدالله بن جبير الذي كان يلحُّ عليهم بعدم ترك أماكنهم. وعصوا أمر رسولهم الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي ركز كثيراً على ثباتهم في أماكنهم، فأحدثوا بذلك ثغرة واسعة نفذ منها العدو إلى صفوفهم وبدَّلَ نصرهم الذي بدأوه في أول المعركة بالهزيمة التي انتهت بها، تلك الهزيمة كادت أن تقضيَ على المسلمين جميعاً وتلتهمهم على بكرة أبيهم، لولا عناية الله ولطفه..

ولقد كان في هذا الدرس القاسي، من دروس الجندية التي قدمتها أُحُد، ما جعل الناسَ يدركون أنَّ النصر لا يكون إلاَّ بأسباب.. كما وأن الهزيمة يجب أن تكون لها أسبابٌ أيضاً.. كما أنها قد ظهرت للناس عندئذٍ سُنةٌ من سنن الله في خلقه، وهي أنَّ الله سبحانه لا يكون مع الإنسان إلا إذا كان الإنسان مع الله، وأنَّ الله تعالى يتخلى عنه إن هو انشغل بنفسه عن الله، أو تلهى عنه بأمر عارض من أمور الحياة الدنيا..

فهاهُم أولاء المسلمون يرون بأم العين أن الله سبحانه وتعالى قد نصرهم على عدوهم في بدر حين جعلوا همهم الوحيد مقاتلة هذا العدو، ومحاربته، لأنه عدوٌّ ضالٌ جاهل.. وأنَّه تعالى قد قاصصهم عندما شغلهم عَرَضُ الدنيا وجمعُ الغنيمة في أُحُد.. فكان لا بدَّ أن يأتيهم الدرس مليئاً بالعظات والعبر، فكان البلاءُ العظيم الذي أوقعوا أنفسهم فيه...

ولكن كم هو عزَّ وجلَّ رؤوف رحيم بالعباد، وبالمؤمنين منهم خاصة، وإن زلّوا أو أخطأوا.. فمن الصحيح أن المسلمين قد وقعوا في بلاءِ يومِ أُحُد، ولكنه كان قِصاصاً أكثر منه ابتلاءً.. وفي القِصاص حياةٌ لأولي الألباب.. فإذا ما نالوا القصاص الذي استحقوه، وأدركوا الخطأ الذي ارتكبوه، كان عفوُ الله عنهم فضلاً من فضائله السنية التي لا تحدُّ، ولذا امتنَّ سبحانه عليهم بالعفو بعد الابتلاء وقال:

{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[1].

ثم تتعاقب الظلال عديدة ومتنوعة.. ولكنَّ ما يثير العجب في تلك الظلال يوم أُحُد، هو ذلك الضعف الذي سيطر على نفوس فئة كبيرة من المؤمنين، ساعة ارتداد العدو عليهم. فقد وقع التشتت في صفوفهم، وحلَّ القعود عن القتال بينهم.. بل إن أكثرهم قد فرَّ من المعركة، مولياً وجهه شطر المدينة حتى بلغَ جوارها، فأربكه فراره وأوقعه في حياء مَنَع عليه دخولها.. أوَلم يكن مفروضاً بالمؤمنين بدل أن يسيطر عليهم الضعف، ويفرقهم التشتت، أن يعودوا، إلى توحيد صفوفهم، ويتماسكوا كتلة واحدة متراصّة في وجه عدوهم، فيفرضون تشتيت صفوفه بتماسكهم، ويُوقِعون البلاء في كيانه، وهم قادرون على ذلك لأن إعدادهم كان إعداداً صحيحاً منذ المراحل الأولى للمعركة، ذلك الإعداد الذي كان ينبغي أن يجعل قلوبهم ملأى بالإيمان، ونفوسهم مفعمة بالتقوى، وكيانهم قائماً على التماسك التام؟.. نعم لقد كان حرياً بهم، وهم على مثل هذا الإعداد منذ بدء الدعوة وقبل أية معركة، ألاَّ يَهِنُوا وألاَّ يضعفوا أمام العدو.. على أنه قد يتراءى مثل هذا الضعفُ أقلَّ مدعاة للعجَب من موقف آخر ظهر عند فئة كبيرة منهم، وهي أنها تخلَّت عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وتركته وحيداً، في أكثر اللحظات خطورة وأشدّها حرجاً... فأين محبة تلك الفئة لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأين إيمانها بصدقه وبالحق الذي يدعو إليه؟!.. بل أين التفاني والإخلاص اللذان دفعا المسلمين لحمايته وحماية أنفسهم يوم كانوا في أشدّ حالات ضعفهم في مكة، حيث كانوا يتخلّون عن كل شيء في سبيل إسلامهم، ويضحّون بكل غال ونفيسٍ من أجل نبيِّهم؟!..

فهل جفت لديهم تلك النفوسُ الخيّرة في ساعة الشدة، وجعلت قلوبهم تطاوعهم على الابتعاد عنه في ساعة خوفٍ على أنفسهم، وساعة تمسُّكٍ بحياتهم، مع أنهم يعلمون حق العلم أن أعداءه يريدونه قبل كل الناس، وقبل أي أحد آخر من المسلمين؟!.. إنه الضعف البشري قد فعل فيهم فعله في تلك الساعة، فكان أن بَدَر من تلك الفئة ما بدر من التخلي عن الرسول الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، في ساعة العُسرة..

1 سورة آل عمران، الآية: 152.

لكنْ، وإن افتقد رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الرجال من حوله في لحظات الشدّة، فإنه سرعان ما عوَّضت عن ذلك هجمةُ أبطال أشاوس اندفعوا نحوه يذبّون عنه، ويدفعون الأعداء من حوله، ويَهِبون نفوسهم للموت دونه...

أجل، لقد جاءت هذه الفئة الخيّرة تفدي نبيَّها بالأجساد والمهج قبل أن تدافع عنه بالسلاح ولكنها كانت قليلة أمام كثرة الأعداء، فراحت تتساقط شهيداً تلو شهيد، غير آبهة للموت، حتى أمكنها أن تُبعد الأعداء عن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بفضل الله ورعايته له، لأن تلك الفئة البارّة الباسلة، ما كانت لتُغني عنه في الحقيقة شيئاً، لو لم تتدخل إرادة الله عزَّ وجلَّ وتمكنها من الذبِّ عنه والوقوف بجانبه، والله تعالى هو الحافظُ له على كل حال، وفي جميع الأحوال...

وإنَّ أبعد ما يمكن تصوُّره في مواقف الفئة الهاربة هو عدم اكتراثها لصوت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي كان يلاحق أصحابها بالرجوع، معاوداً تكرار النداء إليهم بالعودة مراراً فلا يستجيبون بل يمعنون في الهروب متخلّين عن كل ما وراءهم وتاركين كل شيء لا يلوون على أحد.. فسبحان الله الذي كان يرقب هذه الفئة بالذات، ويحصي عليها حركاتها وسكناتها، فينزل فيها آياتٍ كريمةً تصوّر ما كانت عليه من حال، فيقول سبحانه وتعالى:

{إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ}[1].

فللّه ما أروعَ القرآن الكريم، وهو يرسم في هذه العبارة الموجزة، مشهداً كاملاً لأولئك الفارّين، ويصوّر حركاتهم الحسية والنفسية في آنٍ معاً..

إن هذا التصوير السماوي الذي أبرز هروب تلك الفئة يوم أُحد، لم يكن إلاَّ تعبيراً عن ضعف تلك الفئة الذي يمثل الضعف البشريّ بصورة عامة.. ولعلَّ أكثر ما يركّز عليه ذلك التصوير، هو إبرازه الضعف البشري، أي الحالة المعنوية البحتة، التي هي واقعٌ حسيٌّ يكاد الإنسان أن يلمسه بحواسه المجردة.

وإذا كان ذلك الضعف الذي سيطر على نفوس تلك الفئة الفارّة من الزحف، قد جعلها لا تستجيب لنداء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يدعوها للعودة والثبات في المعركة، فإن القرآن الكريم بعد أن يبيّن قوة الضعف وتأثيره على الإنسان لا يقف عند حد تصوير الضعف وحسب، بل يتناول حقيقة أخرى هامة جداً، وهي أن الخطأ الذي يرتكبه

1 سورة آل عمران، الآية: 153.

الإنسان في حالةٍ من حالات ضعفه، لا غافِرَ له ولا مُسامِحَ إلاَّ الله سبحانه وتعالى، وهكذا تأتي صورة العفو والمغفرة بأدق تعبيراتها، وأصدقها بياناً، في قول الله عز وجل:

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[1].

تلك هي بعض الظلال من وقعة أُحد..

ولكنَّ هذه الظلال لم تكن هي الوحيدة التي حفلت بها أجواء ذلك اليوم، بل كان بجانبها ظلال أخرى مختلفة عنها أشد الاختلاف، لأنها ازدانت بالإشراق والنور، وطفحت بدُفعةٍ من الشجاعة والبطولة، وفاضت بدفقٍ من العزة والكرامة حتى جعلت نصرَ قريشٍ يخبو أمام لمعانها البرّاق، ووهجها الساطع..

فهذا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يَثْبتُ طوداً منيعاً، وإنساناً عظيماً مهيباً في موقفه من الأعداء في تلك الساعة الرهيبة التي رجفت منها القلوب، وتخبَّلت منها العقول، وعندما أخذت الكثرة في جيشه تتوزع أشتاتاً، وتتفرق هروباً من الذعر، بينما وقف يكافح ويقاتل بنفسه بتصميم وثبات، حتى إنَّ من كانوا يدافعون عنه قد صاروا يلوذون به ويحتمون في ظله من شدة الخوف، ويأوون إلى حمى بطولته النادرة...

إن قلب الإنسان قد يطير هلعاً وترتعد فرائصه جَزَعاً إنْ جابَهَهُ خطرٌ قاتل، بل قد يفقد الإنسان زمام السيطرة على نفسه في مثل هذا الموقف العصيب فتخور قواه، ويتخاذل عزمه، لما يحيط به من الأهوال.. نعم.. قد يحصل ذلك لأشد الرجال تماسكاً عند الشدائد، وأكثرهم جَلَداً عند الصعاب، غير أن محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، قد ظلَّ الرجلَ القادر على امتلاك زمام نفسه، الواعيَ لكل حركة من عدوه، بحيث لا يمكنّه منه إلاَّ بما يُصيبه به من بعيد، فهو ثابت أبداً في مكانه يدفع عنه الحانقين، ويرد عنه المهاجمين، إلى أن بعث الله تعالى إليه بصحابة أبرار أخيار، يدفعون عنه ذلك الخطر الشديد...

فهل أروع وأعظم مما تجلّت به بطولة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وقوة رجولته في ذلك الموقف؟!...

لا.. وإنها إذا كانت الروعة والعظمة تتضحان بهذا الموقف المحمدي، فإن ما تلاهما بعد انتهاء المعركة وعودة المؤمنين إليه، من تصرّفٍ حيالهم، يجعله المثل الأعلى على الزمان

---

1 سورة آل عمران، الآية: 155.

في مجال التسامح والعفو، وفي مجالات اللطف والحنان والعطف... ذلك أنه، صلى الله عليه وآله وسلم، لم يعنِّف أحداً من المؤمنين ولا وجَّه إلى أحدٍ لوماً أو تأنيباً. بل لم تبدر منه سانحة غضب أو نفور، ولم يُغلِظْ في قول أو يقسو في اتِّهام، ولم يجابه أحداً بأخطائِه في دوره أثناء المعركة، بل راح ـ على العكس ـ يستقبل الجميع بقلب ملؤه الحنان، وبنفس راضية تطفح بالاطمئنان: يواسي الجريح، ويهدّىء المتعب، ويشدُّ من عزم الضعيف، ويَعِدُ الثابتين بنصرٍ آتٍ.. فليس لخلُقٍ إلا خُلق محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، هذه العظَمة المنيفة!...

وليس لصفاتٍ إلاَّ صفات محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، هذه السجية الشريفة!.

فقد نظرَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الهزيمة من منظاره النبوي السامي، فأرادها عظةً بالغة للمؤمنين، يُفيدون منها في مواجهة الأعداء والتعامل مع الحياة، لا شدَّةً تقضي عليهم، وتذهب بقواهم النفسية والمعنوية.. صحيحٌ أنه قد ذهب في تلك المعركة شهداء أبرار أخيار، ولكنهم كانوا الشعلة التي تضيء أمام الباقين الطريق، والمثال الذي يجب أن يحتذوا به.. والشهداء ـ على كل حال ـ «لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»، فقد أثابهم الله تعالى رحمةً منه ومغفرة، لأنهم مضوا على العهد، وماتوا وهم لله ولرسوله مخلصون.

نعم لقد عفا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عمّن أخطأوا وتسببوا بالهزيمة فاستغفر الله سبحانه لهم، فأثنى الله عزَّ وجلَّ على موقفه الرائع، ونزلت آيات قرآنية كريمة بهذا الثناء الرَّباني:

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ}[1].

أما الصحابة الأبرار فيأتون بعد الرسول العظيم ليزينوا ظِلال أُحُدٍ بصدق الإيمان، وقوة العزيمة، لأن مواقفهم كانت كأنها صَنعت النصر الحقّ رَغمَ مظاهر الهزيمة التي أحاطت بالمسلمين...

فمواقفُ حمزة، وعلي، وأبي دجانة، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، وأم سلمة الأنصارية... وغيرهم، وغيرهم... مواقف أمجاد تبقى

1 سورة آل عمران، الآية: 159.

على الزمان مآثر خالدة في التاريخ... فقد وهبوا نفوسهم للموت في سبيل الله، وكانت غايتهم القصوى نيل رضوان الله، وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى..

لقد كانوا سيوفاً لله تعالى يوم أُحُد، ودروعاً للإيمان، وحصناً للإسلام فصفَّق لهم المجد عبر الأيام لأنهم لم ينشدوا مجداً ولا عظمةً، بل أرادوا وجه الله عزَّ وجل وأيقنوا أن لله وحده العزة والمجد والعظمة... وما دامت المعارك سِجالاً بحسب العادة طالما بقي العداءُ قائماً، فلا بد أن يتأرجح النصرُ في كل معركة بين هذا الفريق أو ذاك، ولكن النصر النهائي لا بد أن يكون دائماً للحق. وما كان الإسلام إلاَّ حقاً كله، فعلامَ لا يكون له النصر في النهاية، مهما قوي أعداؤه أو ظنوا أنهم منتصرون؟!..

ولئن كانت معركة أُحد بذاتها تجربة قاسية وامتحاناً عسيراً كما رآها المسلمون أو بعضهم، إلاَّ أنها كانت ضرورية يجب أن تحدث ليمحِّص الله سبحانه فيها السرائر، ويمزق النقاب عن مخبوء بعض الضمائر. وهذا ما حدث فعلاً، فقد تميز النفاق من الإيمان، بل تميّزت مراتب الإيمان نفسه، فعُرِف الذين ركلوا مباهج الدنيا بنعالهم ولم يعرّجوا على مطمع من مطامعها، تماماً كما عُرِف الذين مالوا إلى متع الدنيا بعض الميل، فنشأ عن أطماعهم المادية ما ينشأ عن الشرر المُستصْغَر من حرائق مروِّعة:

{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ}[1].

ولم تتجه إرادةُ الله عزَّ وجلَّ يوم أُحد، إلى تمحيص المؤمنين فحسب ولا إلى إبراز أخيارهم وأبرارهم للناس، ولا إلى إظهار الفارق بين المؤمن والمنافق والكافر ـ وما أبعدها مسافات، وأشدها فوارق ـ بل اتجهت أيضاً إلى تكريس حق الشهيد وما له من فضلٍ كبير عند ربه، ومن مقام عظيم في الدنيا والآخرة..

وإذا كان هذا شرف الشهادة وعُلوّ مقامها، فما أعظم ما تكون عليه مراتب الصفوة من عباد الله الذين يختارهُم هو سبحانه وتعالى للشهادة، وما أعلى منزلتهم وهو يُسبغ عليهم من نعمائه، ويُنعم عليهم من رضوانه، ويختارهم للمقام الأسمى والدرجة العليا، وفيهم يقول الله سبحانه وتعالى في مُحكَم قرآنه المجيد:

---

1 سورة آل عمران، الآية: 166.

{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}[1].

.. وهكذا تظهر ظلال أُحُدَ، قاتمةً حيناً، ومشرقةً حيناً آخر..

فقد أظهرت للمسلمين أخطاء ارتكبوها، فرأوها بأم العين، ماثلة أمامهم وقائع حسية، ليتلافوها في مستقبل أيامهم ولا يقعوا بمثلها مرة أخرى...

وقد أظهرت للمؤمنين أيضاً ما يتعالى على مصائبها، وما يسمو على أحداثها، إذ شعروا بأن الله سبحانه وتعالى لم يتركهم في غمرة اليأس الذي يقتل النفوس، بل مسح على أحزانهم برفق، ومزج العتاب الرقيق بالدرس النافع...

وزيادة على ذلك، أبانَ لهم أن الهزيمة مهما كانت قوية لا يمكن أن تنال من شرف الغاية التي من أجلها يقاتلون، ولا من سموّ المبدأ الذي عنه يدافعون، بل يظل مبدأهم هذا هو أسمى المبادىء كلها، وتبقى غايتهم هذه هي أشرف الغايات بأسرها، وما النصر والهزيمة إلاَّ عارضان يتداولان الناس لأنهما سنَّة من سنن الله في الخليقة:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا   ويوماً نُساءُ ويوماً نُسرُّ

وإذا كان أكثر التركيز بعد المعركة انصبّ على فضائل الشهادة وسموها، فمن الطبيعي أن يحزن الناس لفقد أحبتهم، بينما يكون قتلهم سبباً لشماتة الأعداء فيهم.

ولكن مهما بلغت جهالة المشركين، ومهما تخابثتْ نفوس المنافقين، فالشهادة تظل أرفعَ وأجلَّ عطاءٍ يمكن أن يقدمه الإنسان، سواء في سبيل الله، أو في سبيل الذود عن حياض الوطن ومدافعةِ أعدائه...

ولذلك فإن الشهداء لا يموتون، كما يتوهم أولئك الذين يجهلون معنى الموت الحقيقي، وأولئك الذين لا يدركون من الحياة إلاَّ مظاهرها الحيوانية البحتة...

فالشهداءُ هم «أحياءٌ عِندَ ربِّهم يُرزقون»، ويتمنون ـ لمبلغ ما وجدوا من طيب الحياة هناك ـ أن تكون لهم دعوة ثانية ليجاهدوا في سبيل الله فيُقتلوا مرة أخرى...

وهذا ما عبَّرَ عنه الرسول الأعظم، يوم قال في شهداء أحد، معزِّياً ذويهم:

---

1 سورة آل عمران، الآيتان: 140، 141.

«لمَّا أصيب إخوانكم يوم أُحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أنهارَ الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ معلّقة في ظل العرش.. فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحُسنَ مَقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا ينكلوا عند الحرب، ولا يزهدوا، أو يوهنوا في الجهاد. فعلم الله عزَّ وجلَّ أمانيَّ الشهداء، فخاطبهم مُطمئناً: أنا أبلِّغهم عنكم».

وكان التبليغ ما أنزل الله سبحانه وتعالى من آيات بينات:

{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[1].

* * *

1 سورة آل عمران، الآيتان: 169، 170.

سلسلة غزوات الرسول

(10)

غَزوَة تَبُوك

سميح عَاطف الزَّين

بِسْمِ اللَّهِ آلْرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

*{مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}.*

غزوة تبوك[1]

كان الوقت في أوائل الخريف، وهي فترة تشتد فيها الحرارة حتى تصبح أشد من قيظ الصيف، ثم إنَّ الرحلة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة وشاقة، وتحتاج إلى الجلَد وإلى المؤونة والماء. ومثل هذه الأمور، قد تعسر على جيشٍ ينطلق من المدينة إلى تلك البلاد، ولذلك يتوجب لها إعداد وتخطيط محكمان، يختلفان عما اعتاده المسلمون في سالف الغزوات والحروب، عندما كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يتخذ القرار في الخروج دون أن يفصح عن وجهته، أو عندما كان أحياناً يغير وجهة المسير، يقود جيشه إلى غير الناحية التي كان يقصد، وذلك تضليلاً وإيهاماً للعدو حتى تلتبس عليه الأمور، ولا يعود قادراً على اتخاذ التدابير التي تمنع عنه الزحف.

من أجل ذلك، كان قرار رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يعلن منذ البداية عن عزمه لمقابلة الروم على حدود بلادهم، وأن يستعد المسلمون لحمل السلاح كل من استطاع إليه سبيلاً. فبعث في القبائل جميعاً، يدعو للتهيؤ، وفي الوقت نفسه دعا إلى توفير سائر الإمكانيات والتجهيزات نظراً لما يحتاجه الجيش الذي يعدّه من أدوات حرب وعتاد، وما يقتضي ذلك من أموال طائلة، حضّ أهل الغنى على أن ينفقوا في سبيلها مما آتاهم الله من فضله.

وقد استقبل الناس دعوة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، للإنفاق والتهيؤ استقبالاً متبايناً. فأما المؤمنون الصادقون، الذين امتلأت قلوبهم هدى ونوراً، فقد أقبلوا يلبون الدعوة خفافاً مسرعين، ومنهم الفقير الذي لا يجد دابةً يحمل نفسه عليها، ومنهم الغني الذي يضع ماله بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، برضى وطيب خاطر.

وجاء أبو بكر الصديق بأربعة آلاف درهم، هي ماله وكل ما يملك، فسأله النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إن كان قد أبقى لأهله شيئاً، فقال أبو بكر (رضي الله عنه): أبقيت لهم الله ورسوله.

---

1 تبوك: هي الآن ثكنة تابعة لإمارة المدينة في المملكة العربية السعودية على بعد سبعمائة كيلومتر تقريباً من المدينة المنوَّرة.

فهو يرى بأنه ينتمي إلى دولة الإسلام، وهي التي تقوم برعاية شؤونه وشؤون أهله وعياله، فإن كانت دولته بخير، فإنما يكون هو ومن يكفل بخير، ولو كان لا يملك درهماً واحداً، لأنها هي التي تكفل حياة أفرادها، بما يستحقون من كرامة وعناية. أما إذا أزيلت هذه الدولة من الوجود، فإن أموال الأرض كلها وثرواتها، ولو كانت من الذهب الخالص، لا تفيده بشيء، لأنه بزوال دولته يفقد الانتماء، ويصبح بلا هوية ولا وطن.

نعم تلك كانت نظرة أبي بكر الصديق التي ترى في وجود دولة الإسلام وجوداً للمسلمين، وفقدانها فقداناً لكيانهم الجماعي، وزوالاً لهوية المسلم الفردية.

هذا من الناحية المادية. أما من الناحية الإيمانية والدينية، فإنَّ با بكر يعهد بعياله إلى الله تعالى ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، فهما خير كفيلين، وخير معينين لكل إنسان على وجه الحياة إن سلم أمره لله سبحانه، وانضوى تحت لواء رسوله الكريم.

وتبقى نظرة أبي بكر الصديق ثابتة بصدقها حتى يومنا هذا. ولئن أضاعَ المسلمون هذه النظرة ولم يهتدوا إليها، فإن أعداءهم قد أخذوها وتمسكوا بها دستوراً ينشئون على أساسها الدول ويقيمونها ولو بالاعتداء والظلم. فهذا رئيس وزراء إسرائيل، مناحيم بيغن يصرح أن دولة إسرائيل، هي لجميع بني يهود في العالم. فهو يرى أن الانتماء الصحيح لليهودي إنما يكون لدولة يهودية موجودة، دون أن يكون للجنسية التي يحملها اليهودي ـ أية كانت هذه الجنسية ـ أي أثر على ذلك الانتماء. وبالفعل نشهد، ويشهد العالم، كيف أن اليهود في مشارق الأرض ومغاربها، يعملون على الدوام لمدّ دولة إسرائيل بكل مقومات العيش، وبكل أسباب القوة، حتى تبقى محافظة على وجودها، ويبقى لهم الانتماء الذي يريدون.

ومثلَ أبي بكر الصديق فعل عبدالرحمن بن عوف، إذ تصدّق بمائتي أوقية من الفضة، فلما سأله النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، هل تركت لأهلك شيئاً؟ قال: نعم، أكثر مما أنفقت وأطيب. قال له: كم؟ فقال: ما وعَدَ الله ورسولُهُ من الرزق والخير.

وهكذا انبرى سائر المؤمنين الموسرين، ينفقون لتجهيز الجيش، فقدّم عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ألف دينار وثلاثمائة بعير وخمسين فرساً. وكان لهذا التبرع السخي، الأثر الكبير في إنجاز تجهيز جيش العسرة. وجاء عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بنصف ماله وحمل العباس بن عبدالمطلب مالاً كثيراً، قيل إنه بلغ تسعين ألف درهم. وقدّم عاصم بن عديّ كمية كبيرة من التمر قيل بلغت سبعين وَسْقاً، أي حمل بعير، أو في المكيال

ستين صاعاً بحيث يزن الصاع ستة أرطال وثلثاً. ولم يبخل المؤمنون الآخرون بما عندهم، أمثال طلحة بن عبدالله، وسعد بن عبادة الأنصاري، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم، ممن قدّم ما يقدر عليه. وشاركت النساء في التجهيز، فكن يلقين في ثوب مبسوط بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ما بأيديهن من أساور وخواتم وما في آذانهن من شُنوف وأقراط، وما بأعناقهن من عقود وقلائد..

نعم هكذا كان اندفاع المؤمنين، فكلٌّ يعطي بحسب طاقته، وما ألهمه الله سبحانه وتعالى. فمن استطاع أن يجهّز غيره لم يتأخر في ذلك، ومن لم يستطع اكتفى بتجهيز نفسه.

وجاءَ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، نفرٌ من المؤمنين، عجزوا عن تجهيز أنفسهم، يسألونه أن يحملهم على ما عنده من الركائب، ولم يكن قد بقي منها شيء يفيض عن الحاجة، فقال لهم: «ما أجد ما أحملكم عليه». فتولّوا وعيونهم تفيض بالدمع، حزناً على ما فاتهم من شرف الجهاد، ولكثرة ما ذرفوا من دمع، بسبب عجزهم عن تجهيز أنفسهم، سُمّوا بالبكائين. وكانوا سبعة من الأنصار هم: سالم بن عُمير، وعُلبة بن زيد، وأبو ليلى عبدالرحمن بن كعب، وعمرو بن الحُمام بن الجَموح، وعبدالله بن المغفَّل، وهَرَم بن عبدالله، والعِرياض بن سارية الفزاريّ. وفيهم نزل قوله الله تعالى:

{الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ}[1].

هذا هو فعل المؤمنين الصادقين، عطاءٌ وبذلٌ، وتضحيةٌ في سبيل الله ورسوله. أما الذين دخلوا في الدين رغباً ورهباً . رغباً في مغانم الحرب، ورهباً من بأس المسلمين، . فقد تثاقلوا، وبدأوا يلتمسون الأعذار. فهذا الجَدّ بن قيس، أحد بني سلمة، يقول له الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ذات يوم وهو في جهازه لهذه الغزوة: «يا جَدّ، هل لك العام في جهاد بني الأصفر..؟.

فقال: «يا رسول الله، أوَتأذن لي ولا تفتنّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ليس أحدٌ أشدَّ عُجباً بالنساء مني، وإني أخاف إن رأيت نساء بني الأصفر أن يفتنّني فأذَنْ لي يا رسول الله».

فأعرض عنه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: قد أذنت لك..

وفي الجَدّ وأمثاله من المعذّرين، نزل قوله تعالى:

1 سورة التوبة، الآية: 92.

{وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}[1].

وقوله تعالى:

{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ}[2].

ومن الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، بل هم دخلوا في الإسلام لأغراض ومآرب معينة، قوم من المنافقين، رأوا في عدوة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لغزو بلادٍ بعيدة، وفي جوٍّ محرقٍ لاهب، ما يستدعي هزءهم وسخريتهم فراحوا يتهامسون بذلك فيما بينهم، ويقول بعضهم لبعض: «لا تنفروا في الحرّ» زهادة في الجهاد، وشكّاً في الحق وإرجافاً برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم:

{وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}[3].

ولم يقف المنافقون عند حد تباطُئِهم عن الخروج للقتال، بل صاروا يحرّضون الناس على التخلف عن ذلك. ورأى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أنَّ ما يسعى إليه هؤلاء إنما هو الفتنة بعينها، لما في دعواهم من تخذيل لغيرهم، وبذرٍ للشكوك، وافتعال أعذار كاذبة، فأخذهم بالشدة، وضرب على أيديهم بكل قسوة. فلما بلغهُ أن جماعة منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلم اليهودي، بعث إليهم طلحة بن عبيدالله في نفر من أصحابه، فحرق عليهم بيتَ سُويلم، وفرَّ الضحاك بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، بينما نجا الباقون بفرارهم. وقد كان للحزم والشدّة اللذين أظهرهما رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في معاملة المنافقين، ما خفَّف غلواءهم في تخذيل الناس وتثبيط الهمم، وإنْ لم يقعدهم بتاتاً عن الدّس والتحايل بشتى الأساليب.

وانتهى الاستعداد، واجتمع الجيش، فخرج به النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد أن استخلف على المدينة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) لأن المدينة دار هجرة الرسول والمسلمين، ولأن فيها ومن حولها منافقين ربما كادوا للإسلام، فما ينبغي أن تترك على غير علي (عليه السلام) الذي وجودُه بذاته فيها يبقى مرهوباً يخشاه المنافقون. أما عليٌّ (عليه السلام) فقد وقف بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حزيناً لعدم اشتراكه

1 سورة التوبة، الآية: 49.
2 سورة التوبة، الآية: 90.
3 سورة التوبة، الآية: 82.

في الجهاد وهو أبو الزند والسيف الفتَّاكين، وقال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتخلفني مع النسوة والصبيان؟» فرفع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إليه طرفه الشريف وقال: «يا عليُّ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاَّ أنه لا نبيَّ بعدي؟ إنه لا ينبغي في الظرف الحاضر أن يبقى في المدينة إلاَّ أنا أو أنت». فأذعن علي (عليه السلام) لقول النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه كان يدرك ويشعر بدقة الموقف. وأذهل هذا الاستخلاف المنافقين وأهل الريب الذي علموا أنهم مراقبون من علي الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، وبذلك توارت بعض الوقت من أذهان المنافقين صورة الفتنة التي كان يمكن أن تمرَّ في مخيلاتهم أثناء غياب النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، عن المدينة المنورة. وحانت ساعة المسير، فأصدر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أوامره، وزحف الجيشُ قاصداً تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة. ثلاثون ألفاً، كان يتقدمهم عشرة آلاف فارس على رأسهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بقيادته الحكيمة الرشيدة، وبقوة شجاعته النادرة، فخرجت النسوة يشهدن هذا الجحفل الجرار، وهو يتوجه صوب الشام، مخترقاً الصحراء، لا يأبه لظمأ أو حرّ أو جوع، بل يستهين بكل شيء في سبيل الله ونصرة دينه...

وبعد أن انطلق الجيش نحو تبوك، وأمسى بعيداً عن المدينة فكّر المنافقون أن يضربوا ضربتهم القاضية، ويجعلوا المدينة في قبضة أيديهم، ولكنهم رأوا أنَّ العائق الكبير الذي يقف في طريقهم هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) فراحوا يُرجِفون عليه ويقولون: «ما خلّفه محمد إلا استثقالاً له وتخفّفاً منه» وكان ذلك من شدة مكرهم وخداعهم. وأمعنوا في المكر، فراحوا يأتون علياً (عليه السلام) متظاهرين بالمودة له، وبغبطته على ثقة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، به، إذ أبقاه على الأهل والذراري في الوقت الذي يكابد فيه المسلمون مشاق السفر في الأرض البعيدة، ويعانون من شظف العيش ومرارة القتال.

وكان علي (عليه السلام) يعرف نفاقهم ومكائدهم، ولكنه كان مطمئناً إلى يقظته وقدرته على أن لا يترك للمنافقين مجالاً للإفساد، ولا لأهل الريب والطمع فرصة لتحقيق الأغراض الدنيئة.

فقد فوّت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عليهم فرصة الفساد، بإبقائه علياً (عليه السلام) في المدينة، فما عادوا يرتجون وقوع فساد ولا اختلاط أمر ولا شقاقاً ولا نفاقاً. إلاَّ

أن هذا الفشل الذي أصابهم لم يقعدهم عن سوء التفكير، فأمّلوا بخسارة تنزل بالمسلمين وتكون نهاية سلطانهم وحتى وإن لم يخسروا الحرب، بل وإن ربحوها، وهو أقل الاحتمالات، فإن ربحهم ذاك ـ إن حصل ـ لن يكون إلاَّ ربحاً هزيلاً، لأنهم سيعودون منهوكي القوى، ضِعافاً مضعضعين، بخلاف ما هم عليه وقت خروجهم. ومثل هذا الضعف تصوّره المنافقون قوةً لهم إذ يمكّنهم من أن يجعلوا أنفسهم عيوناً لدولة الروم، يقدمون لها جميع المساعدات، التي تمكّنها من معاودة قتال المسلمين والقضاء عليهم..

تلك كانت النيّات التي عقدها المنافقون، يوم خروج النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى تبوك، ولم تَخْفَ تلك النيّات الخبيثة على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، البصير الحكيم، فاستخلف أخاه علياً على المدينة، حتى يمنع أهلها من الريب والنفاق، ومن تحقيق أغراضهم، إذْ ببقائه في المدينة يضمن سلامة الأمور، أياً كانت النتائج التي تسفر عنها الحرب مع دولة الروم..

ثم ما زال الجيش الإسلامي يتقدم في مسيرته، حتى بلغ الحِجْرَ، وبها أطلال لمنازل ثمود منقورة في الصخر. فلما نزل، صلى الله عليه وآله وسلم، بالناس أخبرهم بأنها ديار المعذبين، وقال: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلاَّ وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم»، ثم أمر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بالنزول فاستقى الناس من بئرها. قال لهم: «لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً. ولا يخرجنَّ أحدٌ منكم الليلة إلاَّ ومعه صاحب له». ذلك أن المكان كانت تعصف فيه أحياناً عواصف الرمل فتطمر الناس والإبل. ولقد خرج رجلان من بني ساعدة، أحدهما لحاجته والآخر في طلب بعير له، فطمرت أحدهما الرمال، واحتملت الريح الآخر، وقد عثر في الصباح على الأول فَنَجَا، بينما كانت طيء قد التقطت الآخر، فعادت وأهدته إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم إن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، سار حتى كان ببعض الطريق، فإذا رهط من المنافقين يقولون للمؤمنين: أرأيتم أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يقودنا إلى قتال الروم، «أتحسبون جلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً! والله لكأنّا بكم غداً مُقْرنين في الحبال». وكانت غايتهم من ذلك، كما هو واضح، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. ولعلَّ مقالة هذا الرهط قد بلغت الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا إليه عمّار بن

ياسر وقال له: «أدرك القوم قد اخترقوا[1] فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا، فقل: بلى، قلتم كذا وكذا..». فانطلق إليهم عمّار، فقال ذلك لهم، عندها أدركوا بأنه قد أوحي بأمرهم إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأتوه يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، وهو آخذ بحقب ناقة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «يا رسول الله، إنّما كنا نخوض ونلعب». فنزل فيهم قرآنٌ بقوله عزَّ وجلَّ:

{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ}[2].

ثم مضى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، سائراً في جيشه، وكان السير شاقاً والناس منه في عُسْرة لشدةٍ من الحر، وجدْب في البلاد، في وقت طابت عند الناس فيه الثمار والظلال، وأحبوا المقامَ في الفيء والظل، وكرهوا الشخوص إلى منازل بعيدة. في هذا الوقت جاءَ الأمر بالخروج إلى تبوك، ووقعت الدعوة إلى الجهاد لدفع عدو غاشم، ودرءِ خطر حالّ، فلم يكن أمام المؤمنين ـ وهم أهل الدعوة وحماتها ـ إلاَّ الامتثال للأمر، والتلبية للدعوة، لا يقعدهم عن داعي الجهاد داعٍ، ولا يبقيهم سبب، أياً كانت الأسباب غير مؤاتية، ومهما كانت الظروف غير ملائمة إذ:

{مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[3].

ولقد قاسى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنون في هذه السفرة مشقة بالغة، وعنتاً شديداً، حتى لقد ذكر أن الرجلين من شدة الجوع كانا يقتسمان التمرة بينهما؛ وكان آخرون يتداولونها بمصّها ثم يشربون عليها.. ولقد كثرت حاجتهم إلى الماء، فأصابهم

1 اخترقوا: أي اختلقوا كذباً وكفراً.
2 سورة التوبة، الآيتان: 64، 65.
3 سورة التوبة، الآيتان: 120، 121.

عطش شديد، حتى قيل إنهم كانوا ينحرون الإبل، التي هم بأمس الحاجة إليها، فينفضون أكراشها ويشربون ماءها..

وليس من عجيب، في اجتماع هذه المشاقّ من الطعام، والماء، والقيظ، ومشقة السفر، أن يدعى الجيش الزاحف إلى تبوك، بجيش العُسْرة.. إلاَّ أنه مهما يكن الإعسار، ومهما تكن الشدة، فإنّ المشاق التي عانى منها المسلمون في سيرهم إلى تبوك كانت امتحاناً من الله سبحانه لهذا الجيش الكبير، إذ أراد به عزَّ وجل، تمحيص المؤمنين، وإظهار أهل النفاق، على حقيقتهم. ولقد ظهرت الحقيقة، فكان المؤمن، صابراً، صادقاً، متلهفاً للقتال في سبيل الله، بينما بدا المنافق، الذي يتظاهر بالإيمان، خائر القوة، واهن الهمة، يتسلل من وراء الصفوف، ليرجع إلى المدينة، فيقعد مع المتخلفين.. وكان كلما تخلَّف رجل يقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإنّ يَكُ فيه خير فسيُلحقه الله تعالى بكم، وإن يَكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

وكان من هؤلاء المتخلفين الذين لم يخرجوا مع النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أبو خيثمة أحد بني سالم، الذي لم يلبث، بعد أن سار مع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بضعة أيام، أن داهمه يوم حار، فعاد إلى أهله، ليجد امرأتين له، في عريشين لهما ببستان، قد رشّت كل منهما عريشها، وبرّدتْ له فيه ماءً، وهيأت له فيه طعاماً. فلما دخل قام على باب العريشين، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: «رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في الضّحّ (الشمس) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل وماءٍ بارد وطعامٍ مهيأٍ، وامرأةٍ حسناء، في مالٍ مقيم؟ ما هذا بالنَّصف».. ثم نظر إلى امرأتيه وقال: «والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فهيّئا لي زاداً..».

واحتمل أبو خيثمة زاده، ثم أتى ببعيره، فوضع عليه الرحل، وجدَّ في طلب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أدركه وقد ترك تبوك.

ومن بين الذين تخلَّفوا أثناء السير نحو تبوك أبو ذر الغفاري، جندب بن جنادة، الذي تأخر به بعيره عن الجيش، فقيل لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله، قد تخلّف أبو ذر، وأبطأ به بعيره، فقال: «دعوه، فإن يَكُ فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يَكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه»..

وكان بعير أبي ذر قد تعب ولم يعد قادراً على أن يلحق بالركب. فلما رآه أبو ذر على هذه الحالة تركه وأخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر الجيش ماشياً. وكان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد نزل في بعض منازله، فنظر رجل من المسلمين، وقال: يا رسول الله، أرى رجلاً يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «كُنْ أبا ذرّ». فلما قرب، وعرفه الناسُ، قالوا: «يا رسول الله، هو والله أبو ذر». فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «يَرحَمُ الله أبا ذر، يَمشي وحدَه، ويَموتُ وحدَه، ويُبعثُ وحدَه»..

ولئن تتداول الأيام، وتنقضي السنون، فإنها تأتي مصدقة لقول رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقد روى عبدالله بن مسعود، قال: «لما نفى عثمانُ أبا ذر إلى الرَّبذة[1]، وأصابه بها قدره لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن أغسلاني وكفّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرُّ بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأعينونا على دفنه. فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق. وأقبلتُ ـ يقول ابن مسعود ـ في رهطٍ من أهلِ الكوفة وأثناء السير فوجئنا بالجنازة حتى لكادت الإبل أن تطأها لولا أن تقدم منا غلام، وقال هذا أبو ذر صاحب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأعينونا على دفنه. فاستهللت أبكي وأقول: «صدق رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حين قال عنك يا أبا ذر: يَمشي وحده، ويَموت وحده، ويُبعث وحده. ثم نزلت أنا وأصحابي فواريناه».

هذه صورة حية عن بعض أولئك المؤمنين، الذين نذروا أنفسهم للدعوة، مهما كانت الصعاب وكيفما كان المصير.

وبلغ جيش المسلمين تبوك، فنزل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأقام معسكره هناك، لا يجد أثراً للروم... ذلك أن الروم كان قد بلغهم أمر مسيرة محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، إليهم، وما هو عليه من كثرة العدد، ومناعة القوة وكأنهم تذكروا حربهم مع المسلمين أيام «مؤتة» وما شاهدوا من استبسالهم وما رأوا من قدرتهم على الصمود، فأدركوا أنه لا قِبَلَ لهم على مواجهة هذا الجيش الذي يزحف به محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه سوف يكون بمثل روحيةِ ومناقبيةِ جيشِ مؤتة، فكيف إذا كان يفوقه عدداً وعدة وبقيادة

---

1 الرَّبذة: قرية من قرى المدينة على بعد ثلاثة أيام.

رسول الله نفسه؟!.. ولذلك آثر الروم الانسحاب بالجيش الذي كانوا وجهوه إلى الحدود، ليحتمي داخل بلاد الشام في الحصون دون أن يلاقي جيش المسلمين في حرب أو قتال.

إذن انتهى المطاف بالمسلمين إلى تبوك في أقصى الشمال، وكان الروم وحلفاؤهم قد سمعوا أنباء هذا الجيش الكبير، وقدرته على اجتياز المصاعب لملاقاتهم، فآثروا الانسحاب إلى الداخل، حيث استقرَّ هرقل وجيشه في حمص، ويبدو أن هرقل كان لا ينوي الانسحاب فقط وعدم مواجهة المسلمين في تبوك، بل واستدراجهم إلى الداخل حيث يمكنه الانقضاض عليهم إذا ما حاولوا اللحاق بجيشه، ولكن خطة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، كانت المكوث في تبوك دون التوغل، مع أنَّ فكرة اللحاق بهم لم تغب عن ذهنه، ولكنه اكتفى بما أنعم الله عليه وعلى المسلمين من انتصار على البيزنطية كما أنعم عليه من قبل من انتصار على الوثنية واليهودية.

نعم نزل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في حصن تبوك، واكتفى بهذا النزول، إذ لم يرَ مبرراً لتتبّع الروم إلى بلادهم مع تعب جيشه ووصبه، وطالما أنه قهرهم بالرعب والخوف، قبل أن يقهرهم بالحرب، وطالما أنه أدخل في روعهم، أن بلادَ الإسلام، لن تكون لهم لقمة سائغة كما يتوهمون، بل هي حصينة بإيمان أبنائها، منيعة بقوة دينها، عزيزة بسلطان دولتها..

وأقام رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عند الحدود، ينازل من شاءَ أن ينازله أو يقاومه، ويعمل لصون وضمان هذه الحدود حتى لا يتخطاها بعد ذلك أحد. وأثناء إقامته هناك بعث ببعض الرسائل إلى أمراء القبائل، والمقاطعات الواقعة تحت حكم الروم، ومن هؤلاء أهل الجرباء، وأهل أذرح، ويوحنّا بن رؤبة صاحب أيْلة[1]، ويدعوهم إلى الإذعان أو الغزو، فقبلوا جميعهم بالخضوع، وقدموا الطاعة، وصالحوه، صلى الله عليه وآله وسلم، وأعطوه الجزية. وكتب لهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كتب أمْنٍ، هذا نص أحدها، وهو الذي كتبه إلى يوحنّا:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذه أمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنّا بن رؤبة وأهل أيْلة سفنهم وسيّاراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمدٍ النبيّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل

1 قيل اسمها أيلة لأنها سميت باسم أيلة بنت مدين بن إبراهيم (عليه السلام).

البحر. فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس. وإنه لا يحلّ أن يمنعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر».

ورأى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه لم يبق من حاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم، وبعد إقامة المعاهدات مع أهل البلاد الواقعة على الحدود، إلاَّ أنه تحسّب لأُكَيْدر بن عبدالملك الكنديّ النصراني، أمير دومة الجندل[1] ومعاونته جيوش الروم إن جاءت من ناحيته، ولذلك بعث إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس.

وخرج خالد على رأس هذه السرية، وأسرع بالانقضاض على دومة الجندل، في غفلة من مليكها، الذي خرج في ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسّان، ونفر من أهل بيته، يصطادون بقر الوحش، فإذا بهم يجابهون بخيل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، تلقاهم في وجوههم، وتأخذهم أسرى دون أية مقاومة، إلاَّ ما بدر من حسان، أخي أكيدر، فإنَّ مقاومته أدت إلى قتله..

وفتحت دومة أبوابها، وساق خالد منها ألفي بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بُرّ وأربعمائة درع، أخذها وذهب بها ومعه أكيدر ليلحق برسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ترك الرسول تبوك بعد أن أقام فيها نحو عشرين ليلة.

وصل خالد بن الوليد، وقدّم أكيدر الكندي بين يديّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أكيدر نصرانياً، فعاقده الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على الطاعة، وتقديم الجزية.

وكان خالد قد حمل معه، من جملة ما حمل من مغانم ثوباً مزركشاً بالذهب، كان أكيدر يلبسه، لما عُرفَ عنه من إقبالٍ على زخرف الحياة ومتعها، وإعراضٍ عن جليل الأعمال وشريفها، فاتخذ مظاهر الدعة والترف مشرباً ومسلكاً له في الحياة.. ولشدة ما تميّز به ذلك الثوب من دقة الصنع، وندرة الحبكة والتطريز، لفت نظر بعض الصحابة، فراحوا يتلمسونه بأيديهم، وهم معجبون به، فإذا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ينهاهم عن ذلك لأنه في الحقيقة، لا يعدو عرضاً من أعراض الدنيا الزائفة، التي قد تطغى على كيان الإنسان، فتجذبه عن ميزته الإنسانية، وتفرغه من صدق جوهره، فإذا كان هذا الحال بالنسبة لبعض

1 دومة الجندل: كانت قرية عامرة ولكنها خربت مع الزمن، ولكن أكيدر أعاد بناءها، وجعل من حولها سوراً يحميها، وفي داخلها حصن منيع. وكان أكثر سكانها من قبيلة كلب.

الصحابة الذين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، فكيف بالنسبة للمسلمين عامة، أفلا تقعدهم مثل هذه الأعراض عن العمل في سبيل الغاية الجليلة التي إليها يسعون؟!..

نعم، لقد أبى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، على الصحابة حتى الإعجاب بثوب موشًّى بالذهب، ورفض أن يكون عندهم هذا الإعجاب، وهم يعرفون أن هنالك نعيماً أبدياً في الآخرة لا يزول، وجنة سرمدية لا تفنى.. فجاءهم النهي بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أتعجبون من هذا! فوالذي نفسي بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»!.

تلك كانت سرية خالد بن الوليد إلى «دومة الجندل»، وما أعقبها من خضوع مليكها أكيدر، عامل هرقل الروم، بموجب كتاب أمان من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، له، مقابل دفعه الجزية..

وكان في طريق العودة من تبوك ماء يخرج من وَشَلٍ، ليس بغزير ولكن قد يروي بعض الركبان القلائل، ويقع بوادٍ يقال له المشقَّق، فلما كان الجيشُ منه على مسافة، أمر رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ألاَّ يقربوه، فقال:

«من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقينَّ منه شيئاً حتى نأتيه»، ولكنّ بعض المنافقين لم يمتثلوا للأمر، بل سبق إليه نفر منهم فاستقوا ما فيه، حتى إذا أتاه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لم يجد فيه شيئاً، فسأل: من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقيل له: يا رسول الله، فلان، وفلان.. قال: أوَلَمْ أنهَهُمْ أن يستقوا منه حتى آتيه؟!..

ولعن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أولئك النفر، ودعا عليهم، لأنَّ ما فعلوه يخالف روح الجماعة وتعاونها، إذْ كان الجيش كله بحاجة للماء، والواجب يقضي بأن يُوزَّع هذا الماء على الجميع، فيستقي كل واحدٍ ولو بِنَزْرٍ يسير، لا أن يرتوي عدد قليل، ويُترك الباقون للعطش، مما يدلُّ على عدم تحسس أولئك المنافقين لمصلحة الجماعة، والتباعد عن العمل لتأمين تلك المصلحة، فحق لهم أن ينالوا غضب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ودعوته عليهم..

ونزل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عن راحلته، فوضع يَدَهُ المباركة تحت الوشل[1]، فجعل يصب في يده منه، ثم ينضحهُ به ويمسحه، وهو يدعو الله تعالى، بدعائه النبوي الذي تتفتَّقُ له الحجب وتحمله الملائكة الكرام إلى حيث ينبغي أن يُحمل، وإذا الماء ينبجس من الحجر، فيسمع له صوت شديد وهو يتفجّر، فيشرب الناس ويرتوون، ثم يحملون حاجتهم منه ويرتحلون..

ومن الحوادث التي رافقت النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في طريق عودته من غزوة تبوك، ما رواه عبدالله بن مسعود، عن موت أحد المؤمنين الصادقين: قال: «قمت في جوف الليل، فرأيت شعلةً من نارٍ في ناحية المعسكر، فاتبعتها فلما وصلت إذا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) وإذا عبدالله ذو البِجادين[2] مِنْ مُزينة قد مات. وإذا هم قد حفروا له، وقد نزل النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يأخذه منهما يسجّيه في حفرته، فيقول لهما: «أدْنيا إليَّ أخاكما».. فدلّياه إليه، فلمّا هيأه لقبره، قال: «اللَّهم إني أمسيت راضياً عنه، فارضَ عنه».. ويتمنى عبدالله بن مسعود لو يكون هو الميت فيقول: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة». فيا لها من صحبة رفيعة لخاتم أنبياء الله صلوات الله عليه وآله وسلم تبدو في كل مناسبة حتى تصل إلى تمنِّي الموت بين يديه ونيل رضاه!!

.. وتابع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، العودة بجيشه إلى المدينة حتى نزل بـ«ذي أوان» وهو بلد على مسافة ساعة من المدينة.. وفي ذلك البلد، كان جماعة من المنافقين، قد ابتنوا لهم مسجداً، واتخذوه مكاناً للتداول والتآمر على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنين، وكانوا يحاولون في اجتماعاتهم هناك، تحريف كلام الله عن مواضعه، في سبيل غاية شنيعة، وهي دسّ التفرقة بين المسلمين، والعمل على إيذائهم وإيقاع الضرر بهم. وتُعبِّر هذه الجماعة عن نواياها الشريرة بقول بعضهم لبعض: «ابنوا مسجدكم، وأعدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر، فآتي بجنده من الروم، فأخرج

1 الوَشل: الحجر الذي يقطر منه الماء قليلاً قليلاً، أو أي مكان يرشح منه الماء.

2 ذو البجادين: البجاد: الكساء الغليظ الجافي. لقب بذي البجادين لأنه كان ينزع إلى الإسلام فيمنعه قومه عن ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد ليس له غيره، فهرب منهم إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فلما صار قريباً منه شق بجاده اثنين فائتزر بواحد واشتمل بالآخر فقيل له ذو البجادين.. وقيل إنه كان في حجر عمّه، يكفله ويحسن إليه، فلما بلغه أنه أسلم. هدَّده قائلاً: لئن فعلت لأنزعنَّ عنك جميع ما أعطيتك. قال: فإني مسلم. فنزع كل شيء أعطاه حتى جرَّده من ثوبه، فأتى أمَّهُ، فقطعت بجاداً لها بإثنين، فائتزر نصفاً وارتدى نصفاً، ولَزِم باب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يرفع صوته بالقرآن والذكر.

محمداً وأصحابه». وهكذا كانت هذه الجماعة تعمل في الخفاء للإيقاع بالمسلمين، وقد عقدت العزم على تنفيذ تآمرها في الوقت الذي كان يتجهّز فيه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويجمع الجيش للمسير إلى تبوك.. ذلك أنها توهمت خطأ بأنَّ المسلمين سوف ينهزمون لا محالة، لأنَّهم في ملاقاتهم للروم، سوف لا يكون لهم قِبَلٌ بقتالهم، فتنزل بهم المصيبة، ويذهبون أشتاتاً ويفرُّون ضعافاً، وفي هذه الحالة، تُقدم تلك الجماعة على تنفيذ مخططها الخبيث، فتقوم بالاتصال بالروم، حتى يقدموا إلى المدينة ويحتلوها.

وقد جاءت النتائج تكذّب ظنون تلك الجماعة، وتخيّب آمالها، وجاءت الأحداث تذهب بأباطيلها ورجس شياطينها أدراج الرياح. إذ عرفت، أن الروم، الذين عوّلت عليهم في القضاء على المسلمين، لم يجرؤوا على مواجهة الجيش النازل في تبوك، بل آثروا الانسحاب إلى داخل بلادهم، يلوذون بالحصون، في حين أقام الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، وجيشه هنالك ما شاء الله تعالى أن يقيموا..

هذه الجماعة المنافقة ـ إمعاناً منها في التخفي والمكر ـ كانت قد جاءت النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، تسأله أن يصلّي في المسجد الذي ابتنته وقتَ استعداده وتهيؤه للخروج إلى تبوك، وقالت: «يا رسول الله، إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية، وإنّا نحب أن تأتينا فتصلي فيه»..

لقد أرادوا بسؤالهم ذاك أن يتخذوا من صلاة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في المكان الذي زعموه مسجداً، إقراراً بشرعية بنائه وإثباتاً لهم على صحة عملهم. ولكنَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، طلب إليهم التريث لحين عودته، مبدياً أنه على جناح سفر، وحال شغل، ولو رجع لأتى مسجدهم ففعل ما شاء الله.. فلمّا كان نزوله بـ«ذي أوان»، نزل عليه الوحي بأمر المسجد وبنائه ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، عندها دعا إليه مالك بن الدُّخْشُم، أخا بني سالم بن عوف، ومَعْنَ بن عَدِيّ، أخا بني العجلان، وأمرهما بأن ينطلقا إلى ذلك المسجدِ، الظالمِ أهلُهُ، فيحرّقانه عليهم ويهدّمانه..

وخرج الرجلان مسرعَين، فقصد مالك أهله في بني عوف، وأتى بسَعَف النخل، ثم عادَ إلى رفيقه، فأشعلا السعف وحملاه واندفعا إلى المسجد يضرمان النار في جنباته، فهوى مهدّماً على أهليه، ولقد أمكن لمن كانوا فيه من جماعة أهل النفاق أن يفروا هاربين قبل أن يحترق مسجدهم على رؤوسهم، ويتهدم على جثثهم..

ولقد سمي هذا المسجد، الذي أُسس بنيانه على الكفر والضرر، مسجد الضرار، وفيه وفي الجماعة التي ابتنته نزل قول الله تعالى:

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[1].

وعادَ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد هدم مسجد الضرار إلى مدينته المنورة، فخرج الناس إلى ثنية الوداع يتلقَّوْنَهُ بالتهليل والتكبير، فرحين بما آتاهم الله من فضل، وبما أحاطهم من نعم، إذ أعاد إليهم الرسولَ العظيم، والجيش الإسلامي المظفر، تحفُّ بهم رايات النصر خفاقة، وتحيط بهم ألوية العزّ عالية، من أعسر مسيرة، وأشق سفر، وأعظم غزوة.

واستراح النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في ظلال هذا الفيء الرباني، ليستقبل الوحي، يأتيه بآيات منزلات، تبين أحوال الناس في المجتمع الإسلامي، وما تنطوي عليه سرائرهم، سواء بالنسبة إلى بعض القضايا السابقة على غزوة تبوك، أم أثناء تلك الغزوة أو بعدها.

فالمجتمع الإسلامي قبل فتح مكة كان قد خلا من النفاق أو كاد، إلاَّ أنه بعد هذا الفتح وبدخول جماعات كثيرة في الإسلام، لم يكُنِ الإيمانُ قد استقر بعدُ في قلوبهم، عادَ النفاق معها يستشري، وحاول أهلوه العملَ على هدم البنيان المتين الذي أقيم مدعَّماً بالصدق والإيمان. فجاءت الآيات القرآنية تفضح أفاعيل المنافقين، وتصوّر أحوالهم النفسية والعملية، في حملة طويلة تكشف ما كان لهم في هذه الفترة من محاولات كثيرة لإيذاء الصف المسلم وفتنته، وتحويله بشتى الدسائس والأكاذيب عن وجهته، كما أنها في الوقت ذاته تكشف عن حالة الخلخلة وعدم التناسق في التكوين العضوي الذي صار عليه المجتمع الإسلامي بعد دخول تلك الجماعات وعدم انطباعها بالطابع الإسلامي الصحيح.

---

1 سورة التوبة، الآيات: 107 - 110.

وهكذا يبدو من سياق آيات سورة التوبة ـ ولا سيما من الآية الثامنة والثلاثين إلى آخر السورة ـ أن في المجتمع الإسلامي فئات متعددة:

فئة السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار، وهم الذين يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية. وهم الذين عاهدوا الله ورسوله على الحق، ونذروا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، فنزلت الآيات تبين فضائلهم في تلبية دعوة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وإقدامهم على الخروج معه، مهما كانت المصاعب والمشاق التي تعترضهم، وأياً كانت المسافات أو المخاطر التي تنتظرهم. لا يتقاعسون عن واجب، ولا يقصّرون عن أمر، بل يلبون النداء بصفاء نيّاتهم، ويهبُّون للأمر الجلل بنقاوة ضمائرهم، فلا يفرطون بذرَّة من عمل أو جهد، أو من فكر وشعور، طالما أنها تخدم الغايات الكبرى التي إليها يهدفون.

وإلى جانب أولئك الأولين الصادقين، كانت على خلافهم الجماعات الأخرى من المنافقين والأعراب الذين لم يخالط قلوبَهم صفاءُ الإيمان. فمن هذه الجماعات كان أهل النفاق في المدينة. وآخرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، لأنهم لم ينصهروا في بوتقة الإسلام انصهاراً تامّاً. وهنالك طائفة مجهولة الحال، كانت تختفي حقيقتها، وإن كان أمرها لا يخفى على الله سبحانه وتعالى وفق ما يعلمه من حالها ومآلها. يُضاف إليهم جميعاً المتآمرون على الدين، المتسترون باسمه.

ففي هذه الفئات نزلت آيات «سورة التوبة» تفضح فعالهم المنكرة، ثم تحمل عليهم حملة شعواء مليئة بالوعيد والتهديد، وبسوء ما ينتظرهم من عقاب شديد، في نار جهنم، جزاءً لما كانوا يفعلون.

ومن خلال عرض السياق القرآني، في تلك الآيات الطويلة، لأحوال المنافقين، نقع على نموذج لأهل النفاق ظهر قبل غزوة تبوك، وهذا النموذج يتمثل بقصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري، الرجل الورع التقي، الذي تميّز بحبه للصلاة، وموافاتها في مواقيتها، فلا يتخلّف عن فريضة أبداً، بل يقوم في المسجد، راكعاً، ساجداً، حتى لقب بحمامة المسجد، لكثرة مكوثه الطويل فيه، وعدم مبارحته إلاَّ إذا اقتضته ضرورة لمثل هذه المبارحة، ولكنَّ هذا الإنسان المؤمن العابد، انقلب إلى رجل منافق، يطمعُ بالمال، ويؤثره على كل شيء.. فكيف أتاه هذا النفاق، حتى مَرَدَ عليه، وصار أعمى البصيرة، غليظ القلب؟.

كان ثعلبة رجلاً فقيرَ الحال، لا يملك مالاً ولا يقتني ماشية، إلاَّ أنه يعيش مما يكسب من رزق حلال فيه الكفاية، والبعد عن الفاقة المدقعة، وسبحان الله ـ الذي يعلم خفايا القلوب ـ كيف أن الهوى امتلك قلب ثعلبة، فأحبَّ أن يكون من ذوي الثروات وأصحاب الأموال، تأتيه من أي مصدر وبأي طريق، لأنَّ هذا لا يهمّ، بل المهم أن تأتيه وتحقق له الحلم الذي يراوده.

وجلَسَ ثعلبة في أحد الأيام إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: «يا رسولَ الله، ادعُ الله أن يرزقني مالاً».

قال له الرسول الحكيم: «يا ثعلبة، قليل تؤدي شُكرَهُ خيرٌ من كثير لا تُطيقه».

ولم يُدرك ثعلبة أبعادَ نُصْح رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، له، فعادَ يُلحُّ في طلبه، فرأى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يسلك معه وسيلة أخرى للإقناع، فقال له:

«يا ثعلبة! أما لك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضّةً لسارت».

لم يَرْعَوِ ثعلبة، ولم يتّعظ بحياة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فعاد يقول:

«والذي بعثك بالحق، لئن دعوتَ الله فرزقني مالاً، لأعطِينَّ كل ذي حقٍ حقه».

عندها دعا الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ربَّهُ: «اللَّهم ارزق ثعلبة مالاً».

وكانت فترة وجيزة، وأُلهم ثعلبةُ، فاتخذ له غنماً..

ومع الأيام راحت أغنامه تتكاثر بشكل غريب، وتنمو بسرعة فائقة، كما ينمو زرع مؤصّل في أرض طيبة، حتى لم تعد زرائبها في المدينة تكفي لاستيعابها، فلما رأى ثعلبة ذلك، تنحى بها عن المدينة ونزل في وادٍ من أوديتها.

وامتلكت هذه الأرزاق على ثعلبة كل مشاعره، فلم يعد له من همٍّ إلاّها، حتى تعلقه القديم بالصلاة، وحبه للإقامة في المسجد بدآ يخبوان شيئاً فشيئاً، فصار ينقطع عن صلاة الجماعة، ولا يحضرها إلاَّ الظهر والعصر..

ولعلَّها قيلولة الأغنام في هذه الفترة من النهار، هي التي كانت تفسح له في المجال للذهاب إلى هاتين الصلاتين، إلاَّ أنَّ الوقت لم يطل به حتى تركهما ولم يعد يحضر إلاَّ صلاة الجمعة.

ورأى الناسُ ما فعلَ ثعلبة، وكيف ألهاه الغنى، وغرّه المال، إلى حدّ وصل به إلى ترك واجب الفريضة، فأسف له المؤمنون، بينما سُرَّ المنافقون لفعله عظيم السرور..

ولم يكن أمره خافياً على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنه شاءَ أن يطلقها صرخة لوم وتنديدٍ به، فلمّا كان الناسُ مجتمعين يوماً، سألهم عنه، وما آلَ إليه حالُهُ، فأبدوا ما صارَ إليه من فتنة، وما آثَرَ من عَرَض الحياة الدنيا على الآخرة، فقال الرسول الحكيم؛ «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة»..

وكان الله سبحانه وتعالى قد أنزل الآيات التي تتعلق بالصدقات، وفيها الأمر إلى رسوله الكريم:

{خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[1].

فلمَّا كان موعد الخروج لجمع الصدقات، بعث في ذلك الحول رجلين من المؤمنين، أحدهما من جهينة، والآخر من سُلَيْم، وطلَبَ إليهما ألاَّ يغفلا ثعلبة بن حاطب، بل يمرّان عليه حتى يأخذا منه الصدقة..

وأتى الرجلان ثعلبةَ، فلمَّا عرف مقصدهما، صاح مستنكراً: «ما هذه إلاَّ جزية، ما هذه إلاَّ أخت الجزية، ما أدري ما هذا»؟..

لقد أُرْتِجَ على ثعلبة فاختلطت عليه الأمور حتى باتَ لا يميّز بين الصدقة والجزية، أو قل إنه تنكُّرٌ متعمَّدٌ منه لفريضة هي حق الله على كل صاحب مال، وإخلافٌ للوعد الذي قطعه على نفسه لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بأن يؤدي كل ذي حقٍ حقه، إن رزقَهُ الله مالاً.. وها هو لا يؤدي أيّ حقٍ، بما فيه حق الله سبحانه وتعالى، بل يراوغ صاحبَي الصدقة فيقول لهما: انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إليَّ..

ورجعا إليه، بعد الطواف في مهمتهما، فما كان منه إلاَّ أن عادَ لاستنكاره السابق، وصَرَفهما من دون أن يعطيهما شيئاً.. وأتى الرجلان يخبران رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما صنع ثعلبة، فلم يزِدْ على أن ردَّدَ: «يا ويح ثعلبة»..

وإذا كان ظنُّ ثعلبة أن مالَهُ قد أغناه عن الله ورسوله، فإنَّ الله سبحانه العليم البصير، قد شاءَ أن يكشف أمره، فأنزل فيه قرآناً مبيناً يحشره مع المنافقين، الذين مردوا على النفاق،

---

1 سورة التوبة، الآية: 103.

فعشش في قلوبهم لا يتخلَّى عنهم إلى يوم يلقون الله سبحانه بما أخلفوه من وعود، فقال عزَّ وجلّ:

{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ}[1].

وتلقَّى الناسُ عن الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، آياتٍ بيّناتٍ بحق ثعلبة، وراحوا يتلونها في مجالسهم حتى وصلت إلى مسامعه، يحملها إليه أحَدُ أقاربه، إذ ذَهَب يوبّخُهُ على ما فعل، حتى أغضب الله تعالى وأنزلَ بحقه هذه الآيات التي تحمل عليه بشدةٍ إلى يوم القيامة..

وزاغت الدنيا في عيني ثعلبة، إذ امتلكه الخوف وأخذته الرهبة، فاحتمل نفسه احتمالاً وأتى رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يسأله أن يقبل منه الصدقة، ولكنَّ رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أبى عليه ذلك، وقال له: «إنَّ الله منعني أن أقبل منك صدقة». ورأى ثعلبة أنَّ الله سبحانه قد أنزل به حكمه، فجعل يحثو التراب على رأسه، ويندب حظَّه، ولكن من غير أن يُبدي توبةً نصوحاً، فالتفت إليه رسول الله وقال له: «هذا عملك. قد أمرتك فلم تطعني. قلت لك: «أما لك في رسول الله أسوة حسنة»، ولكنَّك لم تنتفع بالموعظة، فكان حكم الله تعالى فيك نفاقاً، ولله وحده ملك السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير»..

تلك هي قصة ثعلبة بن حاطب، المثالُ الحيُّ على كل كاذب، مخادع، يتنكر لوعده، ويخلف عهده. ولكنْ أين المفرُّ والله سبحانه وتعالى بالمرصاد، فلئن أغرَّه المال فبخلَ به فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد أعقبه نفاقاً في قلبه، لا يحولُ ولا يزول، بل يستقرُّ فيه إلى أن يلقى وجهَ ربه الكريم، فيكون له الحساب على ما أخلف من وعد، وما أحدث من كذب.

ومن هذا المثال الحي، الذي يشهده الناسُ في كل زمان ومكان، يبدو جليّاً أن النفاق لا يولد مع الإنسان بل يكتسبه في حياته، تدفعه إليه عوامل نفسية، وتشدُّهُ إليه أعمالُهُ المادية..

---

1 سورة التوبة، الآيات: 75 - 78.

فالإنسان، وبوصفه فرداً وسط جماعة، عليه الالتزام بواجبات معينة هي في مصلحة الجماعة. فإن انفلت من أداء واجبه على الوجه الأكمل، أو أهمل القيام بهذا الواجب، أو امتنع عن تنفيذ ما يطلب إليه القيام به، بحق وعدل، فحينها يكون النفاق قد دخل إلى قلبه، ومع الزمن يصبح طبعاً متأصلاً فيه، يتحكّم بتصرفاته، ويسيّر خطاه.. ذلك أن من يخالف التزاماته الخاصة منها أو العامة، ولكي يتملّص من العقاب على ما ارتكب من مخالفة، لا بد وأن يختلق الأعذار الكاذبة لذلك، فيغدو كاذباً. ثم يتمادى في هذا الكذب، فلا يعود يصْدُقُ في قول ولا في فعل، حتى يغدو خائناً لنفسه، ولمحيطه، ومع الأيام يستمرىء ما قام به، فتحلو له أكاذيبه، ويستسيغ طعم خيانته، حتى يغدو منافقاً، يمارس أي أسلوب من أساليب المراوغة والاحتيال، ويسلك أي طريق من طرق الالتواء والتلاعب. وهكذا يكون النفاق علَّةً يكتسبها الإنسان من جراء أقواله وأفعاله. وصدق رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حيث يقول: «صفات المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعَدَ أخلف، وإذا أؤتمن خان».

فحذار أيها الناس، وحذار أيها الإنسان المسلم، من النفاق.

فمثل الذين مردوا على النفاق، كمثل إبليس مرَدَ على مخالفة أوامر الله حتى أعقبه حرمان التوبة، فطلبت منه القدرة على هذه التوبة، فهو على الضلال قائم، وعلى البغي والفساد دائم، إلى أن يلقى الله تعالى..

فهل يقبل الإنسان أن يكون إبليساً بين عائلته، وفي مجتمعه، وفي إنسانيته؟!.

أم هل يرضى أن يصيبه ما أصاب ثعلبة، وأن ينتهي إلى ما انتهى إليه؟

لا، الإنسان العاقل، لا يريد ذلك لنفسه ولا لمجتمعه الذي ينتمي إليه..

إذن فالبعدُ عن النفاق هو طريق السلامة: سلامة النفس وسلامة السلوك، وسلامة المصير، وما عقل إنسانٌ في هذه الحياة إلاَّ وعَرفَ قدره فوقف عنده، إن رامَ مأرباً، أياً كان هذا المأرب ـ شرط أن يكون حقاً ـ فله أن يسعى إليه بكل جوارحه وجهوده، ولكن بأن يعلم أنه قادرٌ على أن يؤديَ حقه. فإن رامَ المال، فليسْعَ إليه، ولكن إن أُعطِيه، عليه أن يؤديَ حقوقه كاملة، بالصدقة، وبالإنفاق الشريف، والاستثمار الحق.. وإنْ رامَ نفوذاً، فليعملْ له، ولكن إن بلغَهُ عليه أن يضع العَدْل نصب عينيه، فلا أذيةَ، ولا استغلالَ، ولا ظلمَ... وهكذا في شتى شؤون الحياة وأمورها.. وأمّا من ليست لديه الثقة بأنه قادر على أن يؤدي الأمرَ

الذي يريده حقه، إن وصَلَ إليه، فعليه ألاّ يسعى إليه، بل وألاّ يتمناه في الأصل، إذ عليه أن يبقى في نطاق الاستطاعة التي يحتملها، والإمكانية التي يقدر عليها، وذلك كله مصداقاً لقول رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «قليل تؤدّيه خير من كثير لا تطيقه». وقوله صلوات الله عليه وعلى آله وسلم: «ما قلَّ وكفى خير مما كثُر وألهى»... وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل مثَلَ ثعلبة بن حاطب آيةً دالةً على تصرّف الإنسان وسلوكه، فيبتعد أبداً عن نقض عهدٍ يأخذه على نفسه، ويرعوي أبداً عن الكذب على الله وعلى الناس: وإلاَّ فإن ميراثه لنفسه سيكون النفاق في قلبه إلى يوم يلقى ربه. وهذا الأمر الرباني هو الذي مَنَعَ على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قبول صدقة ثعلبة، وقبول توبته التي ظهر بها، فكان تصرفه، صلى الله عليه وآله وسلم، تصرفاً تأديبياً بردّ صدقته، مع عدم اعتباره مرتداً فيؤخذ بعقوبة الردة، ولا مسلماً فتقبل منه زكاته. ولكنَّ هذا لا يعني إسقاط الزكاة عن المنافقين شرعاً، لأن الشرع يأخذ الناس بظاهرهم، أما فيما ليس فيه علم يقيني كالذي كان في حادث ثعلبة، فلا يقاس عليه. على أنه وبمقتضى الشريعة، فإن الزكاة تبقى فريضة يعرف المؤمنون أنها نعمة من الله سبحانه، فمن امتنع عن أدائها أو حرم من قبولها منه، فهو خاسر لا محالة، لأنه يحرم من جراء ذلك فضل الزكاة بما فيها من تطهير للأنفس وتزكية للقلوب، وراحة للأبدان، ذلك لقوله تعالى:

{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}[1].

ولئن ظهر حادث ثعلبة نموذجاً معيناً عن أهل النفاق في المجتمع الإسلامي، فإن غزوة تبوك جاءت لتظهر نماذج أخرى من الناس كانوا أكثر إمعاناً في النفاق، يمارسونه بأشكال عديدة وصور متنوعة.

فمن هؤلاء من كان لا يعبأ بهتاف الجهاد، حتى إذا كانت دعوة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لهم في تلك الغزوة، تثاقلوا عن التلبية رغباً في متاع الدنيا وإعراضاً عن الآخرة. وفيهم نزل قول الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1].

---

1 سورة التوبة، الآية: 103.

وبعد المتثاقلين يأتي طلاب المقاصد السهلة والمنافع العاجلة، فهؤلاء ينشطون، ويبدون متحمسين إذا دُعوا إلى سفر قصير الأمد مأمون العاقبة. أما إذا بعدت عليهم الشقة، فإن عزائمهم تخور، وهممهم تضعف، فسيتنكفون عن الخروج مُبدين من النفاق أشدّه ومن الكذب أكثره، حتى أنهم لا يتورعون عن الحلف بالله أنهم لا يستطيعون هذا الخروج . والله سبحانه وتعالى يعلم إنهم لكاذبون، كما يصفهم في قوله عزَّ وجلَّ:

{لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[2].

ومن أهل النفاق كانت جماعات لا تغني عند الشدة، ولا تنجد عند الخطر، ولا تعين عند الحاجة، وكيف يكونون ذوي شدة وأولي نجدة ومعونة وفي طبائعهم الجبن والخمول والشُّحُّ!. فهم يشفقون من المتاعب، وينفرون من المسؤولية، ويخشون من الإنفاق ويؤثرون دَعَةَ السلامة مع الذل والهوان، على خطر الجهاد مع العزة والكرامة. فهؤلاء يصف القرآن الكريم حالهم بهزء وسخرية، وهم يحاولون البحث عن مخابىء يلجأون إليها بعد أن يطلبوا الإذن بالقعود. وفيهم نزل قول الله تعالى:

{وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ}[3].

وقوله تعالى:

{وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُواْ بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ}[4].

ولكن على خلاف أهل التثاقل وطلاب المقاصد الهيّنة وأصحاب الذعر من المشاق، كان هناك بعض المسلمين ممن تخلفوا عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في غزوة تبوك، ثم أحسّوا وطأة الذنب، فاعترفوا بذنوبهم، ورجوا التوبة. فكان منهم التخلف وهو العمل السيِّيء، وكان منهم الندم والتوبة وهو العمل الصالح. وفي هؤلاء نزل قول الله تعالى:

---

1 سورة التوبة، الآيتان: 38، 39.
2 سورة التوبة، الآية: 42.
3 سورة التوبة، الآيتان: 56، 57.
4 سورة التوبة، الآيتان: 86، 87.

{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[1].

وهكذا منَّ الله سبحانه على هذه الجماعة لما علمه من حسن سريرتهم، وصدق توبتهم فأمر رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يأخذ بعض أموالهم يتصدق بها عنهم، وأن يستغفر لهم. ذلك أن أخذ الصدقة منهم يرد إليهم شعورهم بعضويتهم الكاملة في الجماعة المسلمة فهم يشاركون في واجباتهم وينهضون بأعبائها، وهم لم يُنبذوا منها أو يبعدوا عنها، وفي أخذ الصدقات منهم تطهير لهم وتزكية، وفي دعاء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لهم طمأنينة وسكن. ومن هؤلاء المتخلفين الذين لم يختلقوا الأعذار، عند عودة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من غزوة تبوك، ولم ينكروا أحوالهم، ثلاثة من المسلمين هم: هلال بن أمية الواقفيّ، ومرارة بن الربيع العَمْرِيّ، وكعب بن مالك، فقد أتَوا رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يصدقونه القول، فلم ينظر بأمرهم بل أرجأ ذلك حتى يقضي الله تعالى فيهم.

ويقص كعب بن مالك الحالة التي صار فيها، والتي تنطبق على صاحبيه، نتيجة لذلك التخلّف. وفي هذه القصة تظهر صور صادقة عن النفس الحساسة المؤمنة، في أروع حالات الصدق والصراحة، وفي أشدّ الضيق والحيرة.. إلا أنها من خلال ذلك تحظى بالنجاة فتملأها الفرحة، وتكون لها توبة كاملة وإخلاص نهائي.. وفي القصة صورة أخرى عن المجتمع الإسلامي وهو يرتقي صُعُداً في سلم الوعي، وسمو الإدراك، وشدّة الإحساس النقي بذنب المذنب وتوبة التائب.

يقول كعب بن مالك، وهو يخبر قصته:

«حين تخلفت عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في غزوة تبوك، لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر مني حينذاك، والله ما اجتمعت لي راحلتان قطّ من قبل، ولكنهما اجتمعتا في تلك الغزوة. وكان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قلّما يريد غزوة يغزوها إلاَّ ورَّى بغيرها.

---

1 سورة التوبة، الآيات: 102 - 105.

حتى كانت تلك الغزوة، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته، وأخبرهم بالوجهة التي يريد، وقد غزا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، في وقت طابت فيه الثمار وأورفت الظلال. فلما تجهّز رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وتجهز معه المسلمون، جعلت أغدو لأتجهز معهم، فأرجع ولم أقضِ حاجة، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إن أردت.. ولم يزل التردد يتمادى بي حتى شمَّرَ بالناس الجدُّ فأصبح رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، غادياً، والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئا»، فقلت: أتجهَّز بعدهم بيوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهَّز فلم أقضِ شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وفاتني الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم . وليتني فعلت . فلم أفعل، فكنت إذا خرجت في الناس، بعد خروج رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فطفت فيهم، يحزنني أني لا أرى إلاَّ رجلاً متهماً بالنفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في المؤمنين: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرْداه، والنظر في عطْفيه (أي شغله إعجابه بنفسه). فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً. فسكت عليه وعلى آله الصلاة والسلام. فلمّا بلغني أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد توجَّهَ قافلاً من تبوك، حضرني همي وحزني، فطفت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سَخْطة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، غداً؟.

واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد قرب قدومه زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه إلاَّ بالصدق، فأجمعت أمري أن أصدقه. وجاء رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى مثل عادته، كان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد، فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءه المخلَّفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، علانيتهم وإيمانهم، ويستغفر لهم، ثم يَكِلُ سرائرهم إلى الله تعالى.

وتقدّمت منه فسلّمت عليه، فتبسَّم تبسم المُغضِب ثم قال لي: تعال..

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلّفك؟ ألم تكن ابتعت دابة تمتطي ظهرها؟ قلت: إني يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولما أُعطيتُ من قدرة على الجدل، وسبك الكلام وحسن التخلّص، ولكن والله لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضينَّ عني، وليُوشكنَّ الله أن يُسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تغضب عليَّ فيه، إني لأرجو عقباي من الله فيه، والله ما كان لي عذر، وما كنت قطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك.. فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك». فقمت وبادرني رجال من بني سَلمة، فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت، أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بما اعتذر به إليه المخلَّفون، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لك. فوالله ما زالوا بي، يلومونني على صدقي وصراحتي، حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأكذِّب نفسي ولكني قلت لهم:

ـ هل لقي هذا أحد غيري؟.

قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك.

قلت: من هما؟.

قالوا: مُرارة بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفي.

فلما سمعت بذكرهما، قلت في نفسي: لقد ذكروا لي رجلَين صالحين، قد شهدا بدراً، فلي فيهما أسوة.. فصمتّ ومضيت عنهم في سبيلي..

ويتابع كعب فيقول:

ونهى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، المسلمين عن الكلام معنا أو التحدّث إلينا نحن أولئك الثلاثة، فاجتنبنا الناس، وتغيَّروا لنا، حتى تنكَّرتْ لي نفسي والأرض التي أمشي عليها، فما هي بالأرض التي كنت أعرف. ولبثنا على ذلك خمسين ليلة.. فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بَيْتَيْهِما، خلال تلك المدة، وأما أنا فكنت أَشبَّ القوم وأجلَدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق من غير أن يكلمني أحد.. وكنت آتي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول

في نفسي: هل حرَّك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلِّي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني.

وطال عليَّ الأمر من جفوة الناس، ولم أعد أحتمل، فمشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمِّي، وأحبُّ الناس إليَّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام. فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت. فعدت فناشدته، فسكت عني، حتى رددتها ثلاثاً، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي بالدمع، وتولَّيت عن الجدار ثم غدوت أطوف بالسوق، وإذا نبطي من أنباط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول:

من يدل على كعب بن مالك؟ فرأيت الناس وقد جعلوا يشيرون له إليَّ حتى جاءني، فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان، وكنت كاتباً، فإذا فيه: «أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسِك».

وما إن فرغت من قراءة الكتابة حتى قلت: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجل من أهل الشرك.

وأسرعت من فوري إلى تنوّر أحرق ذلك الكتاب بالنار..

وكانت انقضت أربعون ليلة، عندما جاءني رسولٌ من نبي الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يقول لي: إن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يأمرك أن تعتزل امرأتك..

فقلت له: أطلِّقها أم ماذا؟.

قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها..

وعلمت أنه صلَّى الله عليه وآله وسلّم أرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك.

فأتيت امرأتي وقلت لها: إلحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاضٍ.

ولكنَّ امرأة هلال بن أمية ذهبت إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير، ضائع، لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟ ولم يمنعها رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عن خدمتها له، وأفهمها أنه لا يجوز له أن يقربها. فلما علم بعض أهلي ذلك، جاؤوا يخبرونني به، ويطلبون إليَّ أن أستأذن رسول الله، صلى

الله عليه وآله وسلم، لامرأتي، كما أذن لامرأة هلال. فقلت لهم: والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب.

ولبثنا بعد ذلك عشر ليال، حتى اكتملت الليالي الخمسون من حين نهى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عن كلامنا وكنت صلّيت الفجر صبح تلك الليلة على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس على تلك الحال، وقد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رَحُبَتْ، إذ سمعت صوت رجل يصرخ، وهو يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر..

عندها خررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج الله تعالى.

وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد أعلن توبة الله علينا حين صلّى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فلما جاءني ذلك الرجل بتلك البشارة السنية نزعت ثوبيَّ، فكسوته إياهما على بشارته، ثم انطلقت أتيمم مكان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فتلقاني الناس يهنئونني بالتوبة وهم يقولون: ليهنك توبة الله عليك.. وما زالوا كذلك حتى دخلت المسجد، ورسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، جالس ومن حوله الناس، فتقدمت فسلمت عليه، فقال لي وهو مشرق الوجه من السرور: «أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمك.

قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟.

قال: بل من عند الله.

وجلست بين يديه، أنظر إلى وجهه المضيء، إذ كان عليه وعلى آله الصلاة والسلام، إذا سُرَّ استنار وجهه حتى لكأنه القمر بكماله، وكنا نعرف ذلك منه. ولقد آنسني ذلك المنظر البهيج وأنا أتطلع إليه، فقلت:

يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالي قُربةً إلى الله وإلى رسوله.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.

قلت: إني ممسك سهمي الذي بخيبر.

ثم قلت: يا رسول الله، إن الله قد نجاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلاَّ صدقاً ما حييت».

تلك هي قصة كعب بن مالك ورفيقيه، هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ولكنهم كانوا صادقين مع أنفسهم، ومع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أحسّوا أن

أنفسهم لم تعد منهم، وأن الأرض على رحبها لا تطيقهم.. لقد ندموا على ما فعلوا فتاب الله عليهم. ونزل فيهم قرآن كريم:

{لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}[1].

تلك كانت معالجة القرآن الكريم لأحوال الناس النفسية والعملية. وقد برزت تلك المعالجة في الآيات البينات بمناسبة غزوة تبوك، وما ظهر فيها من صدق نية ومن نفاق.. على أن الله سبحانه وتعالى، لم يقرر أحكامه العلوية بشأن المتخلفين عن غزوة تبوك وحدها بتلك الآيات البيّنات، بل قرر ذلك لكل زمان تكون فيه دعوة للجهاد في سبيل الله. فأولئك الذين تخلَّفوا عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فرحين بتخلفهم ذاك، وداعين إلى عدم الخروج خوفاً من الحر، يضرب الله فيهم المثل، لكل جماعة تتخلف عن دعوة حق حين تختلق الأعذار الواهية.. فيذكر الله تعالى أن فرحهم وضحكهم هو آني ومؤقت، وأما بكاؤهم فسوف يكون أبدياً في نار جهنم.. وإن جميع الذين يتخلفون عن الركب في أول مرة، لا يصلحون لكفاح ولا يُرْجَون لجهاد، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضي. ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذي تخلوا عنه راضين. فإن أظهروا أنهم يُبدون استعداداً لمقاتلة العدو، فإنهم ممنوعون من ذلك، لأنهم غير مؤهلين له، طالما ارتضوا بالقعود والتخلف أول مرة.

نعم هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى لنبيه الكريم. وإنه لطريق الدعوة الإسلامية ورجالها أبداً. فليعرف أصحابها في كل زمان، وفي كل مكان، ذلك الطريق، طالما أن كتاب الله باقٍ في ديمومته، وفيه قوله تعالى:

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَآءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ *

---

1 سورة التوبة، الآيات: 117 - 119.

وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}[1].

ولم يكن بيان الله تعالى في أهل النفاق، وفضحهم على فعالهم الشنيعة، إلاَّ حفاظاً على وحدة الصف والجماعة، لأن سلامة الصف ووحدة الجماعة لا يكونان إلاّ بتطهيرهما من المنافقين الذين لا يؤمنون بأهدافهما، ولا يشاركون في مشاعرهما. وما وجودهم إلاّ عوامل ضعف وخلخلة، وذهاب بأسباب القوة والمنعة. إذ لو كانوا من المؤمنين الصادقين، الذين يريدون الخير العام، لكانوا دوماً على أهبة الاستعداد لتلبية نداء الواجب حينما يدعوهم. فالخير في بقائهم بعيدين عن كل أمر جلل، وعن كل غاية للمؤمنين، حتى لا تكون الفتنة، ولا يكون الاضطراب، وفي كتاب الله التأكيد على ظلم الباغين، الذين يبتغون الفتنة، ويقعون بها:

{* وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَآءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ}[2].

وقال تعالى:

{سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[3].

وإذا كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد اشتدَّ على المنافقين بعد غزوة تبوك، فضربت بهم الأمثال مما ارتعدت له فرائصهم، فخافوا وانزووا، ولم تقم لهم بعد في حياته الشريفة قائمة، فإن أمة الإسلام مدعوة اليوم للسير على هدى رسول الله، صلى الله عليه

1 سورة التوبة، الآيات: 81 - 85.
2 سورة التوبة، الآيات: 46 - 50.
3 سورة التوبة، الآيتان: 95، 96.

وآله وسلم، حتى تنهض بأمانة مقدسة، فرضها الله تعالى، وإنَّ أول ما عليها في هذا السبيل أن تحمل على المنافقين حملةً شعواء، علّها تطهّر الصفوف من فتنهم وغواياتهم، وتسير في الطريق الصحيح الذي شاءها الله تعالى أن تسير عليه. على أنه، وبغزوة تبوك، التي كانت في شهر رجب سنة تسع للهجرة، انتهت الغزوات النبوية التي بلغ عددها تسعاً وعشرين غزوة، والبعوث والسرايا التي بلغ عددها سبعاً وأربعين ولم يكن فيها قتال. وقد أريق في جميع هذه الغزوات والسرايا أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، فلم يتجاوز عدد القتلى فيها جميعها ما يقارب الثلاثة آلاف قتيلٍ من الفريقين[1].

وكانت حروب النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، مؤسسة على الأصلين القرآنيين الحكيمين: «والفتنة أشد من القتل» و«لكم في القصاص حياة يا أولي الألباب» وكانت خاضعة، كما أسلفنا، لقواعد خلقية وتعليمات لم تعرفها حروب البشر من قبلُ ومن بعدُ.

أما بالنسبة إلى نتائج تلك الحروب ونجاحها وسرعتها فلم يخسر المسلمون فيها طوال عشر سنوات إلا بنسبة خمسة أشخاص في الشهر الواحد وكان أقصى خسائر العدو في النفوس 15 شخصاً، فلما اكتملت السنوات العشر خضع أكثر من مليون ميل مربع للحكم الإسلامي. وإنَّ خير دليل على الغاية من تلك الحروب الإسلامية وصيَّة الرسول الأعظم، إذا ودَّع جيشاً، كان يقول لهم: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، في سبيل الله، من كفر بالله ولا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً ولا تهدموا بناءً».. ولذا لم ينجم عن تلك الحروب إلا القليل من القتلى والجرحى، في حين نجم عنها الكثير من التقارب والتسامح والسلام.. ولِمَ لا والحروب التي خاضها المسلمون ما كانت إلا لخير الإنسانية، وليست للاستعلاء أو لاستغلال الشعوب وابتزازها واضطهادها والتحكم بمصائرها.. كما لم يكن الدافع لهذه الحروب الثأر والكراهية والحقد التي ينجم عنها الظلم، بل كان الدافع الوحيد نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله من أجل دحر الشر في دنيا بني البشر، بجميع معانيه، وإقرار الحق والعدل، والخير بكلّ مراميه.

* * *

1 وفقاً لدائرة المعارف البريطانية، بلغ عدد قتلى الحرب العالمية الأولى ستة ملايين وأربعمائة ألف نفس، وعدد قتلى الحرب العالمية الثانية بين خمسة وثلاثين مليوناً وستين مليون نفس. وتروي بعض المصادر أن عدد ضحايا محاكم التفتيش في أوروبا في القرون الوسطى والاضطهاد الكنسي قد وصل إلى اثني عشر مليوناً.

قدوم الوفود على المدينة من نتائج غزوة تبوك

كانت غزوة تبوك، بأحداثها التي تبدو لأول وهلة، أحداثاً عادية بسيطة، غزوةً من جملة الغزوات التي انتصر فيها الإسلامُ على أعدائه. ولكنَّ النتائج التي أتتْ بها، أبَتْ أن تُصَنِّفَها في هذه العاديَّة والبساطة من الأمور أو الأحداث، بل اعتبرتها فترةً زمنيةً من أهم فترات الدعوة الإسلامية عطاءاتٍ واجتناء ثمراتٍ طيبة. ففي هذه الغزوة لم يجرِ قتالٌ بين المسلمين والروم؛ إلاَّ أنه بدا واضحاً للعيان، وجليّاً في الأذهان، وبصورة خاصة للقبائل العربية، الواقعة على أطراف شبه الجزيرة، بأن أولئك الروم الذين تدين لهم بالولاء، وتستمدّ منهم القوة والنفوذ، قد ظهروا ضعافاً أمام المسلمين، بانسحابهم من مواقع المواجهة، تفادياً لخوض حرب معهم، فلماذا لا تفكر هذه القبائل إذن وتُعيد النظر بهذه التبعية للأجنبي الرومي، والدلائل كلها تشير إلى اضمحلال سلطانه، والتوقعات تدلُّ على زوال حكمه؟!..
فمثل هذا الإطار الفكري الجديد، الذي أخذ يطغى على ذهنية تلك القبائل من العرب، لم يكن أبداً ليوجَدَ لولا غزوة تبوك، وقد جاءت العهود التي أعطاها النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لبعض الملوك والأمراء، الذين كانوا يدينون بالولاء للروم، تدعم هذا الإطار وتزيده متانة، هذا فضلاً عما ألقاه هذا الاتصال بين محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وأولئك الحكام من ظلالٍ روحيةٍ جديدة، تبعث على التلاقي ما بين الفكر النصراني القائم في هذه المنطقة، وبين الفكر الإسلامي الذي يبدو بملامح مستقيمة، لا اعوجاج فيها، إذ تهدف في جملة ما تهدف، إلى التعامل مع الحياة الإنسانية وفق قواعد جديدة، وإلى معالجة شتى قضايا الناس وشؤونهم بمفاهيم غاية في الرحابة والسموّ.
هذا بالنسبة إلى قبائل العرب الواقعة على الناحية الشمالية من أطراف شبه الجزيرة.
أما في الداخل، فقد رأى الأعراب، ورأت مختلف القبائل والبطون، في البعيد والقريب، أنه لا شأْنَ بعد اليوم لتلك الكيانات الفردية التي كانت تقوم عليها حياتها. فتلك قريش، رغم مكانتها، والسيادة التي كانت تتمتع بهما على جميع القبائل، قد أذعنت لسلطان الإسلام، وأضْحَت تدين له بالولاء، فهل من العجب إذن، إن أقبلت تلك القبائل على الإسلام تدخل فيه أرتالاً، وإنْ جاءَ الناسُ من كل فج عميق، يدخلون في دين الله أفواجاً؟!..

أما على صعيد البنية الإسلامية، وحيث المجتمع الإسلامي قد قام على أُسس متينة، فقد كانت غزوة تبوك حدّاً فاصلاً، أفرز المسلمين إلى فئاتٍ برزت متباينة في أحوالها النفسية والعملية. فالأولون من المهاجرين والأنصار، لم يتغيّر في أحوالهم شيء. فهُمُ، كانوا، ولا يزالون، رجالات الدعوة الخلّص، يمنحونها عوامل القوة والاستقرار، ويمدّونها بكل أسباب الانتشار والاستمرار. إنهم القاعدة الصلبة، والدعامة الراسخة للمجتمع الإسلامي، وفوقها يُشادُ البناءُ ويشمخ.

وإلى جانب هؤلاء المؤمنين الصادقين، كان المنافقون، الذين تشعَّبت أهواؤهم، واختلفت نزعاتهم وحالاتهم. منهم الضعاف الجبناء، الخائفون، الذين لا يعطون للدعوة بقدر ما يريدون الأخذ منها. ومنهم المتآمرون الدخلاء على هذه الدعوة يدّعون الإسلام في الظاهر، ويعملون في الخفاء للقضاء عليه، والإجهاض على مسيرته.

وإلى هؤلاء وأولئك يضاف طلاب الدَّعوة والراحة، الذين لا يأبهون كلما دعا الداعي للجهاد، ولا يتحملون أية مسؤولية في سبيل الصالح العام، بل يسيرون مع الرياح كيفما اتجهت، همُّهُمُ الوحيد تأمين المنافع والحفاظ على مصالحهم الشخصية، يسعون إلى تحقيقها من أي مصدر أتت، سواء أكان ذلك في ظل حكم قبلي جاهلي، أم في ظل الإسلام، أو حتى في ظل التبعية الأجنبية، أو أي حكم قد يقوم ويسود، أيّاً كان نوعه وشكله...

وقد يبدو هذا الفرز لفئات الناس في المجتمع الإسلامي، وكأنه مظهر من مظاهر ضعفه، إلاَّ أنه في الحقيقة على خلاف ذلك تماماً، إذ كان ضرورة حتمية لتصحيح الخلل في هذا المجتمع، وتخليصه من عوامل الضعف التي تقوم فيه، ومن أوكار التآمر التي قد تحدث الاضطراب في نواحيه. ومن هنا نزلت الآيات القرآنية المباركة، تكشف المنافقين، وتحمل عليهم حملة تقضي على مآربهم الدنيئة، وغاياتهم السافلة، حتى تُبعِدَ كل تأثيرٍ لهم في حياة الجماعة الإسلامية.

نعم هذه بعض ثمرات غزوة تبوك، التي كانت خاتمة غزوات النبيّ، صلى الله عليه وآله وسلم، وبعدها تمت كلمة الله في شبه جزيرة العرب كلها، فأقبل الناسُ وفوداً على المدينة، يقدِّمون الولاء والطاعة لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويعلنون إسلامهم أمام الله ورسوله والمؤمنين.

وهذه بعضٌ من تلك الوفود، التي وقع عليها اختيارنا، تدليلاً على المسيرة العظيمة التي قاد خطاها رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بنجاح وفلاح رائعين.

* * *

وفد ثقيف

كان وفد أهل الطائف أولَ القادمين إلى المدينة، بعد غزوة تبوك، جاؤوا يعلنون لله إسلامهم، ولرسوله ولاءهم، ولقد دفعهم إلى هذا المجيء، ما رأوا من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عندما حاصرَ بلدهم، إذ لم يجعل هذا الحصارَ طويلاً، رغم ما كان يتمتع به جيشه من قدرة على تهديم حصونهم، وإنزال الخراب والدمار في دورهم وأرزاقهم، وبما كانت عنده من غنائم تجعله يستمر في هذا الحصار حتى يذعن أهل الطائف، ويستسلمون رغماً عن إرادتهم، هذا فضلاً عن المعاملة الطيبة التي أبداها الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عندما وافق على طلب ثقيف، فأمر بوقف حرق كرومها، وترك مزروعاتها، ثم لم يطل به الأمر بعد ذلك، فسار بجيشه تاركاً أهل الطائف لتفكيرهم فيما رأوه وما وجدوه من تلك المعاملة الإسلامية الرحيمة.

وأثناء ذلك الحصار كان عروة بن مسعود، أحد سادة ثقيف غائباً عن الطائف، في سفر له باليمن، فلمَّا عادَ إلى بلده، وكان النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قافلاً من تبوك بذلك النصر المؤزَّر من الله سبحانه، أسرع إليه يعلن إسلامه، ويُبدي حرصه على دعوة قومه للدخول في دين الله. ولقد خافَ عليه الرسول الحكيم من حماقة أولئك القوم، وما يغلب عليهم من نخوة جاهلية، تجعلهم يقدمون على عمل طائشٍ، فحذَّره قائلاً له: «إنهم قاتِلوك».. ولكنَّ عروة اعتزَّ بمكانته من قومه فقال:

«يا رسول الله، أنا أحبّ إليهم من أبصارهم، فلا خوف عليّ من قوم مترددين، بين التلبية لنداء الحق، وبين البقاء على العناد والعنت، ولسوف يذعنون، ويقبلون على الهداية طائعين، مختارين»..

وذهب عروة إلى ثقيف يدعوها للإسلام، فلم تستجب له، بل ولم تُطِقْ صبراً على دعوته تلك، وهو يُلحُّ عليها، فقامت إليه ترميه بالنبال، حتى أثخنته بالجراح، فأشرف على الموت.. واجتمع أهلُه من حوله وهو يُسلِمُ الروح، فقال لهم:

«كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقَها الله إليَّ، فليس فيَّ إلاَّ ما في أولئك الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قبل أن يرتحل عنكم من حصاره للطائف»..

وكان طلبه الأخير لهم، أن يدفنوه مع الشهداء، فلما قضى نحبه كان مثواه مع أولئك الأبرار. ويروى أنَّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «مثله مَثَلُ صاحبِ ياسين، دعا قومه إلى الله فقتلوه».

ولم يطل الأمر بثقيف حتى ندمت على ما فعلته بسيد من أسيادها الكرام. وزادَ في ندامتها ما اعتراها من خوف، وهي تجد نفسها وحيدة، منفردة بين العرب ببعدها عن الإسلام، فلا بلد من حولها، ولا جماعة قريبة، منها، إلاَّ ودخلت في هذا الدين، فكيف يكون مصيرها لو استكبرت وعاندت؟ وهل يقبل محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ببقائها على الشرك؟ أليس هو بقادرٍ على إعادة الكرَّة عليها، يفتح بلدها، ويصليها النار المحرقة؟!..

أجل، لقد ندمت ثقيف على ما فعلته بعروة بن مسعود أشدَّ الندم، ورأت أنَّه لا طاقة لها على مقاومة الدولة الإسلامية فذهب عمرو بن أمية، أخا بني عِلاج، من كبراء القوم، إلى كبير آخر فيهم يُدعى «عبد يا ليل بن عمرو بن عُمير» وكان المتحدث باسمهم، فلما اجتمع إليه قال: «إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجْرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت، وقد أسلمت العرب كلها، وليس لكم بحربهم طاقة فانظروا في أمركم». عندها ائتمرت ثقيف في ما بينها، وقال بعضهم لبعض: «أَلاَ ترون أنه لا يأمن لكم سرْبٌ، ولا يخرج منكم أحد إلاَّ اقتطع به»؛ ونتيجة للتداول والتشاور أجمعوا على أن يرسلوا رجلاً يكلّم محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، بأمرهم، على أن يكون هذا الرجُلُ كُفء عروة بن مسعود، وعلى مستوى الأحداث التي يعيشونها؛ فاختاروا لهذه المهمة «عبد يا ليل بن عمرو بن عُمير»، إلاّ أن «عبد يا ليل» أبى أن يذهب، وخشِي أن يُصنعَ به إذا رجَع كما صُنِعَ بعروة، فقال لهم: «لست فاعلاً حتى تبعثوا معي رجالاً». فأجمعوا على أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك. فتألّف وفدٌ من ستة أشخاص: عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دُهمان، أخو بني يَسَار، وأوس بن عوف، أخو بني سالم،

ونُمَيْر بن خَرَشة بن ربيعة، أخو بلحارث، والحكم بن عمرو بن وهب بن مُعتّب، وشُرْحَبيل بن غيلان بن سَلَمة بن معتّب، بالإضافة إلى عبد يا ليل.

وكان الثلاثة الأخيرون من الأحلاف؛ وقد رأس ذلك الوفد «عبد يا ليل»، فخرج بهم في شهر رمضان من سنة تسع هجرية، فلما دنَوا من المدينة ونزلوا قناةً، لقُوا بها أحد أبناء قومهم، المغيرة بن شعبة، يرعى طروش الصحابة في نوبته . إذ كانت رعيتها نُوَباً . فلما أخبروه بمقصدهم، وافدين على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وثَبَ المغيرة ليبشِّر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، بقدومهم عليه؛ وإنّه لفي طريقه يشتدُّ حتى يبلغ المدينة إذْ لقيه أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، فاستوقفه يسأله عما يُعَجِّل به على هذه الحال، فقال له: هؤلاء وفدٌ من ثقيف، بني قومي، قد قدموا يريدون البيعة والإسلام، فقال له أبو بكر (رضي الله عنه): «أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا الذي أحدّثه». وقَبِلَ المغيرةُ، فعادَ إلى وفد ثقيف، يحدّثهم بما يليق بهم، ويعلّمهم كيف يحيّون رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بتحية الإسلام: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».. ولكن يبدو أن أولئك الأشخاص لم يفقهوا معنى هذه التحية، فما إن قدموا على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتَّى حَيَّوهُ بتحية الجاهلية.

وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يُدرك غِلظتهم فلم يأْبَهْ لتصرّفهم الجاهلي هذا، بل أمَرَ أن يُقدَّم لهم مكانٌ في ناحية المسجد ينزلون فيه، فيأتيهم ويحدّثهم عن الإسلام، ويبيّن لهم أحكام هذا الدين الذي يؤمن بإله واحد أحد، هو الله سبحانه وتعالى، وما يترتب على هذه الوحدانية من عبودية الناس، وهي العبودية التي تحقق للذات البشرية خلاصَها ورفعتها، وترسم للعباد جميعاً درب الصراط المستقيم..

وقد أخَذَ بعضُ الصحابة على أنفسهم، القيامَ على خدمة هؤلاء الأشخاص، يقدِّمون لهم الطعام، وكلَّ ما يحتاجون إليه؛ إلاَّ أنهم لم يطمئنوا إلاَّ على خالد بن سعيد بن العاص، إذْ كانوا لا يذوقون طعاماً قُدِّم لهم إلاَّ إذا طعم منه، أو شراباً إلاَّ إذا شربَ منه، وقد ظلوا على هذه الحال حتى أسلموا وبايعوا وفرغوا من كتابهم.

على أن تلك المدة التي أمضَوْها في رحاب المسجد، وبين المسلمين، لم تكن كافية، لأن ينفذ الدينُ الذي جاؤوا يسعون للدخول فيه، إلى قلوبهم، ولأن يشعروا بحلاوة الإسلام، وطعم الإيمان الحق، إذ طلبوا من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في بقيةٍ جاهلية، أن يدَ عَ

الطاغوت، وهو صنمهم «اللات» الذي كانوا يعبدون، فلا يهدمه طيلة ثلاث سنين.. ولكنَّ الرسولَ الأمين أبى ذلك عليهم مستنكراً ما يطلبون، فعادوا يسألونه أن يدعه لهم سنتين، فأبى؛ وما برحوا يسألونه سنة فسنة، وهو يرفض بجزمٍ واستهجان، حتى سألوه شهراً واحداً بَعْدَ رجوعهم إلى بلدهم فأبى أن يدعه، ورفض الخوض أو الحديث في مثل هذا الكلام، لأنه لا يمكن أن يجتمع الإسلامُ والوثنية، إذ لا إيمان مع الكفر، ولا طهارة مع النجاسة.

وأدرك وفد ثقيف استحالةَ ما طَلَبَ، فعادَ يخفّفُ في الطلب سائلاً رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، «ألاَّ يهدموا أوثانهم بأيديهم» فوافقهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على ذلك؛ ثم عادوا يسألون أن يعفيهم من الصلاة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لهم: «أما كسر أوثانكم بأيديكم فأعفيناكم منه، وأما الصلاة فلا، فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه»..

ولعلَّ الإنسانَ يعجبُ من طلب هؤلاء القوم إعفاءهم من الصلاة، وهم قد أقاموا في المسجد، يرون بأم العين كيف يتدافع المؤمنون إلى الصلاة، فيقفون خاشعين لله رب العالمين، معرضين عن كل مطلب في حياتهم، وعن كل متاع في دنياهم، ثم يلحظون كيف كان الناسُ يجتمعون إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعد الصلاة، فيحدّثهم بما يهدي إلى نورانية الإيمان، ويدلُّهم على صدق القول والفعل، ويبيّن لهم طمأنينة حسن الطويَّة وصفاء السريرة، حتى لا يرتك أمراً من الأمور التي تبعد الإنسان عن كل ما يبخس قيمته، أو يحطُّ من كرامته إلاَّ ويلجُهُ، ولا شأناً من الشؤون التي ترتفع بالإنسان إلى معارج الرقي والكمال ـ حتى ليكاد يبلغ مرتبة الملائكة المقربين ـ إلاَّ ويطرقه.. نعم إنه لمن شديد العجب ألاَّ يأنَسَ وفد ثقيف بتلك الصلوات التي كان يرى، وألاَّ يتأثَّرَ بنفحات تلك الحلقات التي كان يشهد، فيجعل جفوة الجاهلية هي التي تغلب عليه، ويطلب ما يطلب من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يدَعَ الطاغوت وأن لا تكون لهم صلاة!..

ولكن يبطل العجب عندما يشاهد المرءُ في عصرنا هذا أناساً يشيّعون صديقاً لهم، أو قريباً من أقربائهم، ويدخلونه المسجد للصلاة على جثمانه ظهراً كان أو عصراً فيقفون خارج المسجد وكأنَّ الصلاة لا تخصّهم من قريب أو بعيد.

فهل بعدُ من غرابةٍ من موقف وفد ثقيف من الصلاة وغيرها من الأحكام الشرعية ونحن نشاهد هؤلاء العازفين عن فريضة فرضها الله على المؤمنين؟

لا، فإن وفد ثقيف الذي فُطِر على الوثنية أقل جفوة من هؤلاء الذين فطروا على الإسلام، وخير منهم، فإن ذلك الوفد ناقش في الصلاة ثم التزم بها، ولكنَّ هؤلاء وأمثالهم يماحكون، وأحياناً يناقشون ويجادلون ثم لا يلتزمون. وهم يعلمون ما للصلاة من ثواب وما يترتب على تركها عمداً من عقاب.

وكان الوفد يرى أنَّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، إذا خطب بعد الصلاة، لا يذكر نفسه، فتساءلوا:

«كيف يأمرنا أن نشهد بأنه رسول الله وهو لا يشهد به في خطبته أمام الناس»؟ وسرى تساؤلهم إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فأرشدهم وقال: «إني أوَّلُ ما شهد أني رسولُ الله». وفي الذكر الحكيم: «وما محمد إلاَّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ.. إنَّ الله وملائكته يصلُّون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً».

هكذا كان الرسولُ الأعظمُ يبيّن لوفد ثقيف ما يريد تبيانه، ويردُّ على طلباتهم وتساؤلاتهم بما هو حقٌّ ومقنع.. وكان عثمان بن أبي العاص، أصغرهم سناً، إلاَّ أنه كان أقربهم إلى الهداية، بما في نفسه من صفاء وما فيه قلبه من نقاوة وطهارة، فكان إذا وقف على رحالهم تركها وذَهَبَ مسرعاً إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يطلب أن يتْلُوَ عليه القرآن، ويشرَحَ له معاني الآيات، فيقبل عليه الرسول الكريم، يُدنيه منه، ويُشبعُ نفسَهُ بما تُحِبُّ، وعقلَهُ بما يقنع، حتى فَقِهَ كثيراً من أحكام الدين، مما جعل رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يكنُّ له عطفاً خاصاً، ويُقدِّمه على سائر أعضاء الوفد، في الإيمان والتقوى.

وكان قد طال مكوث وفد ثقيف في المدينة فأحبّ أن يرجع إلى قومه، فذهب إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يسأله ذلك فقال رئيسه «عبد يا ليل»: يا رسولَ الله، هل أنتَ مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا»؟.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم، وإلاَّ فلا قضية بيني وبينكم».

قال عبد يا ليل: هناك أمور نرجو أن تعفينا منها، فنحن لا نقدر على فراقها وتركها.

ولمَّا سأله الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، عن تلك الأمور، قال: «أفرأيت الزنى، فإنَّا قوم نغترب ولا بد لنا منه».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: الزنا حرام، والله سبحانه وتعالى يقول: {ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلاً}.

قال عبد يا ليل: أفرأيت الرِّبا، فإنه أموالنا كلها.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تعالى يقول:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتقوا اللّهَ وَذَرُواْ ما بَقِيَ مِنَ الرِّبَواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[1].

ويقول:

{فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنْ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ}[2].

قال عبد يا ليل: أفرأيت الخمر، فإنه عصير أرضنا لا بُدَّ لنا منه».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد حرَّم الله تعالى الخمر بقوله الحق:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[3].

ولم يَعُدْ لدى وفد ثقيف ما يقول، فأذعَنَ، وأقرَّ بما أَنزَلَ الله ودعا إليه رسولُهُ، فقال جميع أعضائه: آمنا وأسلمنا، ونحن مستجيبون لما أَمَرَنا الله ورسولُهُ، وملبُّون لما يطلب منَّا الله ورسوله.

وسأَلَ وفد ثقيف رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يختار أميراً على بني قومهم، فاختار أصغرهم سنّاً عثمان بن أبي العاص، لأنَّ عثمان وحدَهُ، وقف من بين أعضاء الوفد، على حفظ سُوَرٍ من القرآن الكريم، وعرف معانيها، وهو يملك من الإدراك ما يجعله قادراً على إرشاد قومه حتى تكون لهم الهداية التامة.. وقد أبقى الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى «عبد يا ليل» صلاحية التحدُّث إلى ثقيف عند العودة، لِمَا رأى فيه من جدارة على الإقناع، وذكاءٍ في النفاذ إلى النفوس. فلمّا خرجوا من عند رسول الله وتوجهوا إلى بلدهم راجعين، بَعَثَ الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة، لكي يهدما «اللات» وبقية أوثان ثقيف..

1 سورة البقرة: الآية 278.
2 سورة البقرة: الآية 279.
3 سورة المائدة: الآية 90.

ويتوقف الإنسان عند هذا الاختيار من قبل رسول الله حتى يتبين الحكمة منه، وصوابية العمل.. فأبو سفيان بن حرب، هو زعيم قريش، صاحبة السيادة فيما مضى على قبائل العرب كلها، والقائمة فيما سبَقَ على شؤون البيت الحرام. ومكة بلدةٌ، منافسة للطائف في التجارة والغنى. فيكون بعثُهُ لهدم «اللات» معبود الطائف، دليلاً مقنعاً لثقيف أنه لا أمَلَ لها في البقاء على الشرك، لأنَّ أيَّ إنسان، مهما علا مقامه، هو طوعُ أمرِ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وأيَّ جماعة، مهما كانت مكانتها، سائرة بلا ريب، إلى دين الله سبحانه وتعالى.

وأما المغيرة بن شعبة، فهو من بني ثقيف وقيامه نفسُهُ بهدم اللات، قهرٌ للتمرّد في نفوس هؤلاء القوم، وإزالةٌ للتشبث بعناد الرأي، إذْ إقدام واحدٍ منهم، كان يعبد هذه الطواغيت من قبل، يؤكد عدم نفعها أو ضرّها، وعدم الجدوى من معارضة هذا الهدم.. هذا بالإضافة إلى أن للمغيرة فضلاً يجب أن يكافأ عليه، فهو الذي لاقى وفد ثقيف واهتمَّ به، إلاَّ أنه تنازل عن طيبة خاطر للصدّيق عندما طلب إليه أن يكون هو من يخبر رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بقدوم ذلك الوفد، ولذلك ما كان بَعْثه في هذه المهمة، مع ما تتضمن من شرف هدم الأصنام والقضاء على معالم الشِّرك، إلاَّ من قبيل المكافأة له على ما يستحق. هكذا نرى تقدير رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في اختياره الرجلين دون سواهما، وفي هذا الاختيار من الحكمة والصواب ما لا يتوافر لإنسان غير محمد، صلى الله عليه وآله وسلم.

ولمَّا وصَلَ الجمعُ إلى الطائف، أرادَ المغيرة أن يقدِّم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه، وقال: ادخل أنت على قومك؛ وأقام أبو سفيان بذي الهرم.

أما الوفد، فقد اجتمع إلى بني قومه، وكان «عبد يا ليل» قد حرّض رفاقه في طريق العودة بأن يكتموا إسلامهم، حتى يتدبروا الأمر مع بني قومهم. فلمّا اجتمعت ثقيف تسأل عما جرى، أبدى الوفدُ تخوفاً شديداً، وخطراً داهماً. فقد أشاعَ بين القوم أنَّ محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، قد يشنُّ عليهم حرباً لا هوادة فيها، بعدما سألهم الإذعان لشروطه ورفضوها. وسألت ثقيف عن تلك الشروط، فقالوا لهم: هدم اللات، وتحريم الخمر والزنى والربا..

قالت ثقيف: وما أجبتم؟.

قال أصحاب الوفد: أبَينا ذلك..
قالت ثقيف: إنه يشترط علينا.. ولكنّا لا نقبل بهذه الشروط!..
وهنا قال أصحاب الوفد: ماذا بقي أمامنا يا قوم إلاَّ أن نتهيأ للقتال ونستعدَّ للحرب.. فهيا أصلحوا السلاح، وهبّوا للقتال، ورمّموا الحصون!..
وهمدت ثقيف، واعتراها الذعر!. ما بال هؤلاء النفر منها قد عادوا مرعوبين يسألونها الاستعدادَ للحرب؟ أَذَهبوا إلى المدينة دعاة حرب أم طلاب أمن وسلام؟!.. وبعد تفكير وتشاور، تراءى لثقيف ما ستؤول إليه الأحوال من سوء العاقبة إن هي وافقت على الحرب، فقال قائلها: والله ما لنا بقتال محمد طاقة! لقد دانَ له العرب كُلهم، فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، وصالحوه على ما يريد..
ورأى الوفدُ أنه حقّق غرضه، إذْ بدا واضحاً أن ثقيفاً لا تريد قتالاً، وها هي تتنازل لا عن مقدساتها السابقة وحسب، بل وعن أهم مقومات حياتها الاجتماعية، في الرِّبا والزِّنى والخمر...
ولمّا أذعَنَ القوم للحقيقة، أظهر «عبد يا ليل» ما كَتَمهُ وأصحابُهُ عنهم، فقال: «والله لقد أعطيناه ما أحببنا، وشرطنا ما أردنا، ووجدنا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أتقى الناس وأوفاهم، وأصدقهم وأرحمهم. بُورِكَ لنا ولكم في مسيرنا، وفيما قاضيناه عليه، فاقبلوا عافية الله».
وبُهِتَت ثقيف، فقالت بدهشة: «ولِمَ كتمتمونا هذا الحديث وغَمَمْتُمونا هذا الغمَّ»؟.
قال عبد يا ليل: «أردنا أن ينزعَ الله من قلوبكم نخوة الشيطان».
وبذلك انتهت ثقيف إلى الإسلام، إلاّ أن معالم الشرك ما تزال قائمة عندها، فهذه «اللات» وبقية الأوثان في أماكنها، ولا أحد يجرؤ على إزالتها، لأنَّ في اعتقادهم أن «اللات» ممنوعة من البشر بقوة خفية، إذ هي الربّة المقتدرة، وما من أحد من البشر يمكنه هدمها، ولئن حاولَ أحدهم مساسها بضرٍّ، فإنها ستكون نهايته، إذ هي ستقضي عليه لا محالة.
ذاك كان الاعتقاد السائد لدى ثقيف..
وأدرك «عبد يا ليل» ما يجول بنفوس القوم، وما يسيطر عليهم من وهم، فأعلن، منعاً لأي حيرة أو همّ، أنَّ المغيرة بن شعبة ما جاء إلاّ لهدم «اللات» وأنَّ معه، لهذا الغَرض، أبا سفيان بن حرب، يقوم بمالِهِ بذي الهُرْم.. فذهب على الفور، من يدعموهما، فلمّا أتيا، خرج

أهل الطائف جميعاً يشهدون الأمر، وأغلبُ ظنهم أن مُصاباً سيحُلُّ بهادم «اللات».. وكان المغيرة يعرف ذلك الاعتقاد عند بني قومه، فصمَّمَ في نفسه على أن يُظهر سخف هذا الاعتقاد، وأن يستهزئ مِنْ ظنِّ هؤلاء القوم، ولذلك، ما إن تقدم يحمل المعول وبهم بالضرب به، حتى أوقع نفسه أرضاً، إلاّ أنه ما لبث أن قام على عجل، يركض مندفعاً إلى البعيد، والهلعُ بادٍ عليه.. وأمام هذا المشهد، أُرتج أهل الطائف، فضجوا بضجة واحدة، وصاحوا قائلين: «أبعدَ الله المغيرة، قتلته الربّة». لقد أخذهم الفَرَحُ وهم يرون المغيرة يسقط بتقدمِهِ من «اللات»، فعادتْ إلى نفوس بعضِهِم نخوةُ الجاهلية، فراحوا يقولون: «من شاءَ فليقترب من الربّة، فها هي على عهدها، مانعة نفسها من كل متطاول معانِد»...

لقد فَرِحَ أهل الطائف وضحكوا بشماتة وسخرية، ولكنّهم لم يدروا أن كلَّ ما رأوه لم يكن إلاَّ لعبةً أرادها المغيرة، وها هو وبمثل البرق الخاطف، يعودُ من هروبِهِ ليرفع المعوَلَ أمام الملأ وهو يقول: «قبحكم الله معشر ثقيف إنما هي حجارة ومَدَر»... ثم يتقدم نحو باب «اللات» فيهشمه، ويحطمه، فلا يكاد ينتهي منه، حتى يعلو فوق السور آخذاً بهدم حجارته، مزيلاً مداميكه، مدماكاً بعد مدماك، ومن حوله قومُهُ، بنو معتَّب، خشية أن يُرمى من أحد غدراً، حتى بدا عليه التعبُ، فتقدمت جماعة تساعدُهُ، وما زالوا كذلك حتى أتوا على بيت «اللات» كله، ولم يبق منه شيء يرتفع فوق الأرض. وكان صاحب مفتاح «اللات» من جملة الجموع التي جاءت تشهد الحادث، وقد رأى بأمّ عينه ما حلَّ بمعبودته «اللات» فبكاها من قلبٍ مُحرق، وندبها مع نسوة ثقيف وهُنَّ يَقُلن:

لتُبكَيَن دفّاع أسلمها الرضّاع

لم يحسنوا المصاع[1]

ولم يُصدّقْ صاحب المفتاح أن ذلك يحدث، وأبى عليه وهمُهُ أن يذعِنَ للواقع، فراح يصرخ مولولاً:

«الويل لمن يقترب من الأساس»..

وسمِعَ المغيرةُ ذلك الصراخ، فقهقه ساخراً، ثم صاح بالناس: «هيا وانظروا يا قوم، عليّ بالأساس».

1 المصاع: الضرب بالسيف. وهذه الأرجوزة تصف رجال ثقيف باللئام لأنهم لم يحسنوا الدفاع عن اللات ضرباً بالسيف.

وتقدم المغيرة، وتقدّم معه، كل من كان يُعينُهُ في الهدم، يحفرون أساسَ بيت اللات، ويخرجون ترابه، فيذرُّونه في الفضاء، حتى لم يبقَ منه موطئ قدم إلاَّ وقد حفر، عندها فقط، أيقنَ أهل المكابرة أن «الربّة» وما تملك من قوة، لم يكن إلاّ وهماً كاذباً، خدعوا به أنفسهم، وخدعتهم به الأجدادُ طوال أجيال، حتى بَعَثَ الله سبحانه من يُبدّد ذلك الوهم، ويقضي على ذلك الخداع، فعادوا إلى بيوتهم، والكل في شتات من الفكر بين الماضي والحاضر، يسخرون بأنفسهم من أنفسهم، متلوّمين، محنقين، ساخرين..

على أنَّه وإنْ كان اللومُ والحنَقُ قد أخذهما في تلك الساعة، إلاَّ أنهما كانا تعبيراً عن الانفعال وهم يأسفون على ما أضاعوا من عمرٍ بالتفاهة، ويندمون على ما صرفوا من أيام على عبادةٍ باطلةٍ. ومهما تكن المشاعر التي أحسُّوا بها، فقد تبيّن لهم أن الله سبحانه وتعالى قد عوَّض عليهم الآن، بما أودَعهُ في قلوبهم ما إيمانٍ خالص، سوف يبقى مستقراً في الأذهان ما دامت الأرض قائمة، وفي النفوس مغلغلاً ما دامت السماء مرفوعة.

هُدِمتِ «اللاتُ» وأزيلت أصنام الطائف، فعادَ المغيرة وأبو سفيان، يقدّمان لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ما احتملاه من الأموال والحليّ التي كانت عندهم، بعدما قضيا منها الديون التي كانت على عروة والأسود، ابْنَيْ مسعود بن عروة، الذي ذهب شهيد إيمانه بالله الواحد الأحد.

* * *

وفد همدان

ومن بعيد، من بلاد اليمن، أقبل على المدينة وفدٌ من همدان، منهم مالك بن نَمَط، وأبو ثور وهو ذو المِشعار، ومالك بن أيْفعِ، وضِمام بن مالك السَّلْمانيّ، وعميرة بن مالك الخارقيّ.. جاءَ هذا الوفدُ مُسلماً، غير متردّدٍ ولا متلوِّم، بل مبشّراً بوصول الإسلام إلى ديارهم، فَسُرَّ رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بقدومهم أعظم سرور.

وكان هذا الوفد على أتمّ زينة وأحسن مظهر، يلبس من الحلل المقطّعات والحَبَرات، ويعتمر من العمائم العدنيّة الخالصة، فأقرَّهم الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، على هذا المظهر، لأنَّ الاعتناء بالهندام، واللياقة باللباس، دليلٌ على احترام الذات والمحافظة على الشخصية، فكان ارتياح الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لتلك الأناقة التي جاؤوا بها، ونظرته بعين الرضى لأثوابهم، وقد خلت من كل وشْيٍ بالذهب أو الفضة، وبعدت عن أي مظهر من مظاهر الإسراف والترف الفاحشين اللذين لا يقرهما الإسلام.

ورأى وفدُ همدان ما يحيطهم به رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من حفاوة وتكريم، فأراد بعضُهم أن يبدي امتنانه وسعادته بالتشرف بحضرة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فقام مالك بن نَمط يرتجز بين يديه:

إليك جاوزنَ سوادَ الريف   في هبوات[1] الصيفِ والخريفِ

مخطّماتٍ بحبال الليف

ثم عادَ مالك يقول: «يا رسولَ الله، لقد جاءك خيارُ القوم من همْدان، من كل حاضر وبادٍ، وأتوك على قُلص نَواجٍ (إبل فتية)، لا تأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف (مدينة في اليمن): خارف ويامٍ وشاكر، أهل السود (الإبل) والقود (الخيل) أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا الآلهات (الأنصاب)، عهدُهم لا يُنقض ما أقامتْ لَعْلَع (جبل في اليمن)».

ثم أقام وفْدُ همدان في المدينة ما شاءَ الله أن يقيم، فلمَّا أراد العودة إلى بلاده، جعل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مالك بن نَمَط أميراً على من يُسلم من بني قومه، وأمَرَه

---

1 الهبوة: ج هبوات؛ وهباء: الغَبَرة.

بجهاد من يَقربهُم من المشركين، وقد عاونهم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بإرسال خالد بن الوليد في سرية، ليدعو في اليمن إلى الإسلام.

وكان في تلك السرية البراء بن عازب، فقال، يتحدث عن تلك السرية: كنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد إلى أهل اليمن، وقد مكث يدعوهم إلى الإسلام، ستة أشهر، فلم يجيبُوهُ، كما كنّا نحب؛ فبعث النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، من بعد ذلك عليَّ بن أبي طالب (عليه السلام)، جاء يدعو الناس إلى دين الله، لا بقولٍ ولا بقتال، بل بكتاب من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم. ونزلَ علي (عليه السلام) في ديار همدان، وقد صفَّ المقاتلين معه صفاً وحداً، ثم نادى في القوم، حتى اجتمعوا إليه، فقرأ عليهم كتاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وما إن انتهى من قراءته، حتى تغير الموقف فجأة، فإذا بالقوم يفاوضونه، وإذا بهمدان تألف الإسلام، وتدخل فيه مؤمنة، راضية.

* * *

وفد الأزدِ

وَقَدِمَ من اليمن أيضاً وفد من الأزد، كان على رأسه صَرْدَ بن عبدالله الأزدي، ما إن أقام فترة بيد يدي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أسلم وحَسُن إسلامه، فأمَّر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، صَرْداً على من أسلم من بني قومه، وطلب إليه أن يدعو إلى دين الله الواحد بين قبائل اليمن.

وكان بجوار الأزديين مدينة مغلقة يقال لها جرش، وقد انضمت إلى أهلها خثعم، فأرادوا محاربة المسلمين حتى يمنعوهم عن متابعة دينهم، فخرج إليهم صرد بن عبدالله وحاصرهم في مدينتهم نحواً من شهر، وهم فيها ممتنعون، مما أجبره على ترك الحصار واللجوء إلى جبل يقال له «كشر»، يعتصم فيه، متحيّناً الفرصة للانقضاض على عدوِّه، بحيثُ يباغتهم مباغتةً لم تكن في حسبانهم.

ورأى المشركون أن يقوموا بغزو الأزديين، فلمّا خرجوا لهذا الأمر، وصاروا خلف الجبل، انعطف عليهم صَرْدٌ بمن معه، ودارَ بين الفريقين قتال شديد انتهى بنصر المسليمن.. وقد بلغَ خبرُ هذه الواقعة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل بأي مكان حدثت، فلمّا قيل له عند جبل يقال له «كشر»، قال (عليه وعلى آله الصلاة والسلام): إنه ليس بكشر، ولكنه شُكر.

ولقد جاءَ بعد ذلك وفد من جرش فأسلموا وحَسُن إسلامهم، فأقطعهم رسولُ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حول بلدهم حِمىً ليستغلّوه، كما كان يفعل ذلك مع من يسلمون من أهل البلاد ليتمكنوا من استغلال الأرض، فلا يتركونها بوراً..

* * *

وفد بني تميم

ثم قدم على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، عُطارد بن حاجب بن زرارة بن عُدَس التميمي في أشراف من تميم، وجاء مع ذلك الوفد الزِّبرقان بن بدر والأقرع بن حابس، وعُيينة بن حصن بن حُذيفة الفزاريّ والأخيران كانا شهدا مع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فتح مكة وحصار الطائف. فلمّا دخل وفد بني تميم المسجد، نادَوْا رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من وراء الحجرات: أن أخرج إلينا يا محمد. فآذى صياحُهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فخرج إليهم.

قالوا: يا محمد، جئناك لنفاخرك فأذنْ لشاعرنا وخطيبنا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: أذنتُ لخطيبكم.

فقام عطارد بن حاجب، وقال: «الحمد لله الذي له علينا الفضْل وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عدداً، وأيسره عُدَّةً، فمن مثلنا في الناس؟ ألسْنا برؤوس الناس وأُولي فضلهم؟. فمن يفاخرنا فليعدّدْ مثل ما عدَّدْنا، وإنّا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرف. أقول هذا الآن لتأتونا بقولٍ مثل قولنا، وأمرٍ أفضل من أمرنا».

وما إن جلس، حتى قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لثابت بن قيس بن شمّاس أخي بلحارث بن الخزرج: «قم فأجِبِ الرجلَ في خطبته».

فقام ثابت فقال: «الحمد لله الذي السمواتُ والأرضُ خَلْقُهُ، قضى فيهنَّ أمره، ووسِعَ كرسيُّه عِلْمَهُ، ولم يكُ شيءٌ قطّ إلاّ من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقِهِ رسولاً أكرمهم نَسباً، وأصدَقهم حديثاً، وأفْضَلَهم حَسَباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خَلْقِهِ؛ فكان خِيرَة الله من العالمين. ثم دعا الناسَ إلى الإيمان، فآمن برسول الله، المهاجرون من قومه وذوي رَحِمه؛ أكرم الناس أنْساباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فِعالاً؛ ثم كان أوّل الخلق إجابةً ـ واستجابَ لله حين دعا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم ـ نَحنُ؛ فنحن أنصارُ الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كَفَرَ جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين وللمؤمنات، والسلام عليكم».

قال بنو تميم: يا محمد! إئذنْ لشاعرنا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: فليفعلْ.

وقام شاعرهم الزّبرقان بن بدر، فألقى قصيدة مليئة بالمدح والفخار، ومما جاء فيها:

نحن الكِرامُ فلا حيٌّ يُعادِلُنا
مِنّا الملوكُ وفينا تُنصَبُ البِيَعُ
وكم قَسَرْنا من الأحيَاءِ كُلِّهُمُ
عند النِّهابِ، وفضْلُ العِزّ يُتَّبَعُ
ونحنُ نطعِمُ عندَ القحْطِ مَطْعَمَنا
من السَّواء إذا لم يُؤنَس القَزَعُ
بِما تَرى الناس تَأتينا سَرَاتُهُمُ
من كلِّ أرضٍ هُوِياً ثم نَصْطَنِعُ

وردَّ عليه حسان بن ثابت . شاعر رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، . بما يَعْلُو شعره، ويستفيض عليه قوةً وبلاغةً. فقال حسان:

إنَّ الذوائِبَ مِنْ فِهْرٍ وإخوتِهِمْ
قد بَيَّنوا سُنةً للناسِ تُتَّبَعُ
يَرضى بها كلُّ مَنْ كانت سريرتُهُ
تقوى الإلهِ وكلَّ الخيرِ يصطَنِعُ
قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عدُوَّهُمُ
أَوْ حاولوا النَّفْعَ في أشْياعِهِمْ نفعوا
سَجِيَّةٌ منهُمْ غيرُ مُحْدَثَةٍ
إنَّ الخلائقَ، فاعلمْ، شَرُّها البِدَعُ

فلمّا فرغ حسان بن ثابت، قال الأقرع بن حابس: «وأبي إن هذا الرجل لمؤتّى له (أي موفق)! لَخَطيبُه أفصَحُ من خطيبنا، ولشَاعِرُه أشعرُ من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا».

ولمَّا فرغ القوم من تلك المبارزة الكلامية والشعرية، أسلم بنو تميم، وأجازهم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأحسن جوائزهم. وكان عمرو بن الأهتم، قد خلّفوه في رحالهم، فقال قيس بن عاصم: يا رسول الله، إنَّه قد كان منّا رجل في رحالنا، وهو غلام حَدَثٌ وأُزرِيَ به، فأعطاه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مثل ما أعطى القوم.

وفي بني تميم، أنزلَ الله تعالى قوله:

{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1].

* * *

[1] سورة الحجرات: الآيتان 4 ـ 5.

قدوم ضِمام بن ثعلبة

وبعث بنو سعد بن بكر، أحدَ رجالهم، ضِمام بن ثعلبة إلى المدينة، كي يقف على حقيقة ما يدعو إليه محمد، صلى الله عليه وآله وسلم. فلما وَصَلَ أناخَ بَعيره كيف يقف على حقيقة ما يدعو إليه وعقَلَهُ، ثم دخل المسجد ورسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، جالس في أصحابه، وكان ضِمام بن ثعلبة رجلاً جَلْداً، أشْعَرَ ذا غديرتين، لا يعرف شخص النبيِّ، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أقبل على الجمع، مظهراً جفوةً في صوته وهو يسأل: «أيكم ابن عبدالمطلب»؟.

وقد كنّى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، بذلك لأنه كان معروفاً فيه عند العرب من قبلُ، إذ إنَّ جدَّهُ عبدالمطلب هو حاضنُه ومربية بعد وفاة أبيه عبدالله. فلما سمعه الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «أنا ابن عبدالمطلب».

قال: يا ابن عبدالمطلب، إني سائلُكَ ومُغْلِظٌ لك في المسألة، فلا تَجِدَنَّ في نفسك.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا أجِد في نفسي، فسَلْ عمّا بدا لك.

قال: أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولاً؟.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: اللَّهم نعم.

قال: فأنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك، وإله مَنْ هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمُرَنا أن نَعْبدهُ وحده ولا نشرك به شيئاً، وأن نخلعَ هذه الأندادَ التي كانت آباؤنا تعبد من دونه؟.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم نعم.

وتابع ضِمام يسأل النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، عن فرائض الإسلام فريضةً فريضةً، فسأل عن الصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، والحجّ، وهو يناشِدُهُ، صلى الله عليه وآله وسلم، بالصيغة نفسها التي ذكرها، حتى إذا فرغ ولم يعد في نفسه محلٌّ للتساؤل، قال: «فإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنبُ ما نهيتني ثم لا أنقص ولا أزيد».

وانصرف ضِمام، فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حين ولّى: «إنْ صَدَقَ ذو العقيصتَين[1] يدخل الجنة» واتى ضِمامُ بعيرَه فأطلق عِقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، ليفاجئهم بإعلان كفره بأصنامهم، ويكيل السّباب والشتائم إلى اللات والعزّى.

فأشفق عليه أبناء قومه مما يقول، إذ كان في زعمهم أن من يصيب آلهتهم بسوءِ فإنه يصاب بمرض البرَص أو الجذام، وقد ثبت ذلك الوهم في أذهانهم منذ القديم، ولذلك قالوا له:

ـ صَهْ يا ضِمام! اتّق البرصَ، اتّقِ الجذام، اتّق الجنون!

قال: وَيْحَكم، إنهما والله لا ينفعان ولا يضرّان، ولا يغينان عنكم من الله شيئاً. إنَّ الله تعالى قد بعث رسولا، وأنزل عليه كتاباً، اسْتَنْقَذكُم به مما كنتم فيه؛ وإني أشهد ان لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

وراح ضِمام بن ثعلبة يعيد على مسامع بني سعد بن بكر كلَّ ما سأل النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، عنه، وبما أجابهُ الحبيبُ المصطفى، والقوم يصغون إليه بكل جوارحهم، وهُمُ كلما استمعوا إليه كلّما أحسّوا باطمئنان لم يعرفوه من قبلُ، وبمشاعرَ لم تُداخِلْ أفئدتهم قَطُّ، فلامس الإيمانُ قلوبَ أبناء بكر إذ استجابت لداعي الله، حتى أنه ما حلَّ مساءُ ذلك اليوم، إلاَّ وكان كل رجل وامرأة قد أسلم وشهد بشهادة الحق. فما سمع الناس بوافِدِ قومٍ كان أفضل من ضمام على بني قومه.

* * *

---

1 العقيصة: الضفيرة من الشعر.

وفد بني حنيفة

ومن اليمامة جاءَ وفدٌ من بني حنيفة، قادماً على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم. وكان فيهم رجلٌ داهية، منافق، حادّ الذكاء، بارعٌ في المراوغة، يدعى مُسَيْلِمَة بن حُبَيْب. نزل هذا الوفد في دار ابنة الحارث، امرأة من الأنصار، بعد أن خَلَّفَ مُسَيْلِمَةَ في رحاله. فلمّا أسلموا، وسألوا النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فأعطاهم، ذكروا له مسيلمة قائلين: يا رسول الله، إنا قد خلَّفنا صاحبنا في رحالنا وركابنا يحفظهما لنا. فأمر الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، له بمثل ما أمَرَ به للقوم. ثم انصرفوا عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وجاؤوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فأخذته العزّة بنفسه، وغرَّه الغرور، لأن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أكرمَهُ وأعطاه دون أن يَمْثُلَ بين يديه. فما قفل راجعاً إلى اليمامة إلاَّ وهو يدّعي النبوّة، ويزعم أنَّ الله سبحانه أشركه في الأمر مع محمد، صلى الله عليه وآله وسلم. ثم جَعَل مسيلمة اللعين يسجع السّجعات، ويقول لهم، فيما يقول مضاهاةً[1] للقرآن:

{لقد أنعم الله على الحُبْلى وأخرج منها نسمةً تسعى، من بين صِفاقٍ[2] وحَشَا}.

وانطلق مسيلمة الخبيث في ادِّعائه للنبوة؛ يُحِلّ الخمر والزنا، ويضع عن قومه الصلاة، ترغيباً للناس في تصديقه واتِّباعه. ولكي يزيد الناسَ إيهاماً في دعواه، بعث بكتاب إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كتب فيه: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلامٌ عليك؛ فإنّي قد أُشرِكت في الأمر معك، وإنَّ لنا نِصْفَ الأرض ولقريش نِصفَ الأرض، ولكنَّ قريشاً قومٌ يعتدون».

وقد حمل كتابَه هذا رسولان، فلمّا قُرِىءَ لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، سأل الرسولين:

«فما تقولان أنتما»؟.

قالا: نقول كما قال.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما والله لولا أن الرُّسُل لا تُقْتَلُ لضربتُ عُتَقَيْكما».

---

1 المضاهاة: المشابهة أو التشبّه.
2 صفاق: الجلد الأسفل الذي يمسك البطن.

ثم كتب إلى مسيلمة: «بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد رسول الله مُسيلِمة الكذّاب. سلامٌ على من اتبع الهدى؛ أما بعد، فإنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وقد روي أنَّ مسيلمة ما تجرّأ وأعلن ادعاءه للنبوة إلاَّ بعد انصراف رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، من حجة الوداع، ومرضته التي مرضها.

على أنه ومهما يكن من أمر الوقت الذي كتب فيه مسيلمة إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّ ردَّ الرسول الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، عليه ووصفه بالكذّاب، جعله سخرية لدى كثيرين من الناس، يتضاحكون عليه إذا ذكر لهم، ويهزأون به إذا حدّثهم، ولا يتورَّعون أن يجابهوه بأنّه منافق كاذب حتى دعي مسيلمة الكذّاب، بدلاً من مسيلمة بن حبيب. إلاَّ أنه بوفاة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، اشتدَّ أمره حتى غلب على اليمامة، ولقد قُتِلَ في خلافة أبي بكر (رضي الله عنه) بسبب دعواه الكاذبة.

وبكتاب غزوة تبوك وما نجم عنها، نكون، بحول الله وقوّته، قد أنهينا كتب الغزوات، والله ولي التوفيق.